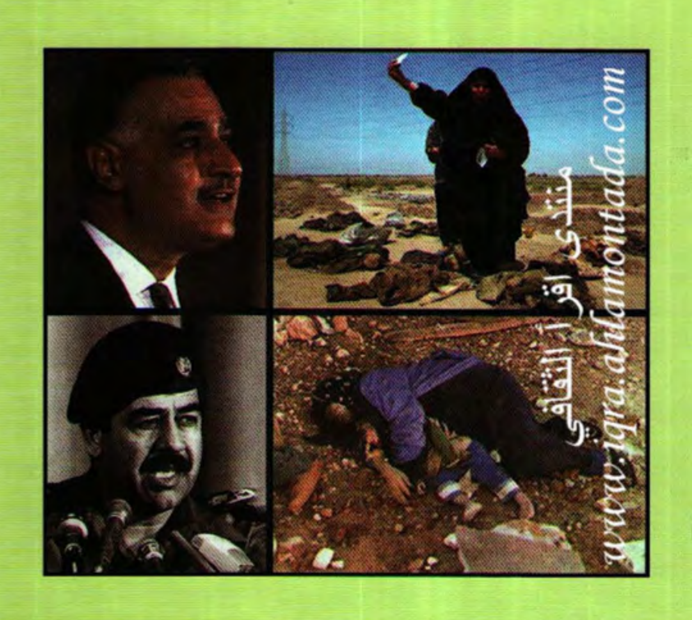
جرجيس فتح الله

نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠



الجزء الثاني

سُبلٌ ملتوية

منشورات الجمل
دار آراس للطباعة والنشر

جرجيس فتح الله

نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠

الجزء الثاني

سُبلٌ ملتوية

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

جرجيس فتح الله: نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠
الجزء الثاني: سُبلٌ ملتوية

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان ـ أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت – بغداد
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

الجزء الثاني

سُبلٌ ملتوية

الفصل الخامس عشر

حول الجيش العراقي الجديد. كوكس يوصي بإنشائه. زيادة في قوات الليڤي المرتبطة بسلطة الانتداب وفقاً لمقررات مؤتمر القاهرة. الليڤي ليس آشورياً خالصاً. النفرة العامة من الجندية تنقلب إلى عداء وبغضاء لليڤي. الليڤي بمثابة أداة قمع محلية إلى جانب القوة الجوية البريطانية. فكرة استثنان قانون خدمة العلم. رد اللائحة في البرلمان. المعارضة الشعبية. كلمة النائب إسماعيل الرواندوزي حول خدمة العلم. استثنان القانون بعد مذابح آب مباشرة. استحداث الكلية العسكرية لتخريج صغار الضباط. الهوة الكبيرة بين الضابط والجندي المكلف. زواج القومية بطبقة الضباط العراقيين. اشتباكات الديرة بون وتأثيرها في إصعاد أسهم الجيش العراقي وزيادة شعبيته. الضباط يتبوّأون مركز الصدارة في قلوب دعاة القومية. إطراء الصحف الكبير للوقفة الصامدة. موقف الإصلاحيين والديمقراطيين المحير من أحداث آب. جريدة الأهالي والتقدميون. الثناء الكبير على ما انجزه الجيش في الشمال. بدء اتصال الإصلاحيين بالقائد بكر صدقي. الموقف البريطاني المساند للعراق والتخلي عمن كانوا يعتبرون احلافاً له. رأي المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي) في المذابح. تعليق الشاعر محمد مهدي الجواهري. إيمان الإصلاحيين والديمقراطيين بأن الجيش قادر على إحداث انقلاب ديمقراطي إصلاحي. هجوم إعلامي على ياسين الهاشمي لأنه اعترف في عصبة الأمم بما ارتكبه الجيش. القائد بكر صدقي شوقي القائد الذي تتوجه إليه الأنظار. تآمر الضباط بعضهم على بعض بشعارات قومية

عندما أمر سر پرسي كوكس الحكومة العراقية المؤقتة بوجوب تشكيل جيش عراقي لم يكن لوزير الدفاع فيها وهو (جعفر العسكري) ما يعمله آنذاك غير المشاركة في اجتماعات الوزارة التي لم يمض على تشكيلها غير ستة أشهر.

ففي ٢١ من أيار ١٩٢١ كتب المندوب السامي للحكومة التي أسّسها مقترحاً

الإسراع في إنجاز ذلك. وفي اليوم عينه على ما يبدو أقرّت الحكومة قانوناً سمّته (قانون التطوّع المؤقت للجيش العراقي). وما من شك في أن هذا الطلب والاستجابة السريعة إليه قد سبقتها مداولات تمّ خلالها إعداد مسوّدة القانون ولم يكن معقولاً أن تستحدث وزراة للدفاع في أول حكومة عراقية من غير وجود جيش، ومن غير وجود نية بريطانية مسبقة وتفاهم حول استحداث جيش[1].

والأمر طبيعي، فها هنا دولة جديدة، أو فلنقل نقطة شروع في بناء أسس دولة ستحتل موضعاً بين دول العالم حتماً. وكذلك فإن وجود مثل هذه القوة العسكرية يتماشى مع سياسة الاقتصاد في نفقات الانتداب ويرفع عن كاهل البريطانيين جزءاً من مسؤولية الحماية والدفاع. وقد جرى ذلك كُلّه وتمّ تقريره في مؤتمر القاهرة وقام المندوب السامي بإيضاح ذلك بالشكل التالي:

«تقرّر في المؤتمر (مؤتمر القاهرة) تكوين جيش محلي من (١٥٠٠٠) جندي تخصّص له ٥٪ من إيرادات العراق العامة، على أن يزاد هذا المبلغ حتى يبلغ ٢٥٪. وأما بصدد القوات البريطانية المرابطة فقد تقرّر أن تزاد قوات الليفي المحليّة التي ستقوم الحكومة البريطانية بإدارتها وبنفقاتها من ٤٠٠٠ جندي إلى ٧٥٠٠، وأن يعززّ ذلك كلّه بستة أسراب من الطائرات البريطانية ترابط في مواقع ستراتيجية، لتنسحب القوات البريطانية المحتلّة من العراق بالتدريج»[2].

ولو نحن صدّقنا ما كتبته سكرتيرة (كوكس) ومشاورته لوالدها في ١٩٢٣ وبأعقاب الضجّة العارمة التي أثارها الموصليون حول عودة اللاجئين الآشوريين لما وسعنا إلاّ أن نعدّ ما تقرّر في مؤتمر القاهرة بهذا الشكل، أي بوجود قوتين مسلحتين كلّ واحدة ترتبط بسلطةٍ، غلطةً سياسية كبيرة شبيهة بغلطة (شيلوك) في تمثيلية شكسبير.

---

(١) في ٢٢ من حزيران ١٩٢١ نشرت الصحف بيان وزير الدفاع حول ذلك: «لقد تشكلت ولله الحمد وزارة الدفاع. وعينت لجميع المحلات ضباطاً للتجنيد لأجل تأليف الجيش العراقي الوطني، الذي هو المستند الحقيقي لحفظ كيان البلاد ودفع الطوارئ العدوانية عنه. فعلى مواطنيّ الكرام ولي الأمل الوطيد والثقة بهم أن يتهافتوا على الانخراط في الجيش المذكور مُبينين بذلك ميلهم الصحيح ووطنيتهم الصادقة للحصول على الضالة المنشودة». (الحسني: ج١ ص٢٢).

(٢) كوكس: (العراق: دراسة في التطور السياسي Iraq: A Study in Political Development ص٣١٢). أُنهيت خدمات المؤلف في نيسان ١٩٢٣ وخلفه السر هنري دوبس.

فقد عللت الآنسة (بل) ما حصل في الموصل إلى:

«وجود قدر كبير من التحاقد والاضطغان بين العرب والآشوريين نجم على ما أظنّ عن الليڤي الآشوري. وكانت غلطة من الأغلاط القديمة التي ارتكبها السر پرسي كوكس، عندما خلق منهم داخل البلاد قوةً عسكرية بقيادة ضباطنا. وقام ضباطنا هؤلاء بتوسيع الخرق وزادوا في الحالة سوءاً في تذكيرهم أفراد الليڤي باستمرار بأنهم جنود بريطانيون كفؤون وليسوا عرباً قذرين صغاراً، وتلك نقطة بقيتُ أنبّه السرّ هنري دوبس إليها باستمرار»[٣].

إلاّ أنها كانت تكذب أو على الأقل تبالغ وتستنتج بعد وقوع ما وقع. فقد كانت تنحاز إلى جانب (كوكس) في اجتماعات مؤتمر القاهرة قبلها بثلاث سنين عندما اقترح إنشاء قوة منهم يبلغ تعدادها ملاك فرقة. وكانت معه أيضاً عندما أشار على حكومة النقيب بتكوين جيش عراقي.

من الخطأ الكبير أن يطلق على تلك الوحدات كلمة (آشوري)، إذ كانت حتى ١٩٢٥ تتألف من الآشوريين النازحين والمحليين ومن العرب والكُرد وفيها ضباط عرب وكرد وآشوريون بإشراف ضباط بريطانيين. وقد بقيت كذلك، بل كانت مصدراً له من وجوه عديدة. فهي التي زوّدته بضباط الصفّ المدربين في وحدات الليڤي، ولم يكن لدى العراقيين هذا النوع من «العُملة» قطّ. كما زوّدته بعدد من الضباط العرب والكُرد وكذلك ببعض الضباط الآشوريين الملمّين بالعربيّة[٤].

---

(٣) أليزابيث برگوين Elizabeth Burgoyne: أوراق مس بيل Grtruade Bell Papers 1914-1926 لندن ص٣١٨، ج٢. الرسالة المؤرخة في ١ تشرين الأوّل ١٩٢٣.

(٤) يتحدث العقيد دي گوري في كتابه (ثلاثة ملوك في بغداد) الفصل الثاني عن عملية الانتقال بقوله: «عندما نقل الجنود وضباط الصف العرب في قوات الليڤي إلى الجيش العراقي، عُيّن (السرّ جون أفتز) آمراً لها يعاونه شاكر الوادي وهو ضابط عراقي صار فيما بعد مرافقاً للملك فيصل». وعن ستيڤن لونگريك (المرجع السالف): ما دخلت السنة ١٩٢٩ إلاّ وكانت آخر وحدة بريطانية قد رحلت عن العراق. ففي العام ١٩٢١ كان فيها ثلاثة أفواج مشاة وست كتائب خيالة و١٦ بطرية مدفعية، وسرية ألغام واحدة مع عدد من المصفحات. وفي ١٩٢٦ خفضت القوة إلى ٣ أفواج ثم إلى فوجين في ١٩٢٧ وفوج واحد في ١٩٢٨ وفي ١٩٢٩ سحب آخر فوج. وكان الإعتماد الحقيقي على القوة الجوية وقوات الليڤي التي بلغ عدد مقاتليها (٧٥٠٠) طبقاً لقرارات مؤتمر القاهرة وكانت تتألف من ثلاث كتائب خيالة اثنتان كردية وواحدة عربيّة. وثلاثة أفواج من المشاة اثنان آشوريا القوام وفوج من عرب الجنوب، مع بطرية مدفعية آشورية (ف٥ :ج٧).

تشير الوثائق البريطانية بصراحة إلى أن السلطات البريطانية حَوّلتْ فعلاً وحدات بكاملها عربيّة وكرديّة من الليڤي البريطاني إلى الجيش الجديد، وقد بلغ عدد كبير منهم رتبة رئيس عرفاء وعريف وتعودوا أساليب التدريب البريطاني، فكانوا بمثابة العمود الفقري للجيش العراقي الحديث، إلاّ أن الإقبال على التطوع كان في غاية الضعف. وما من شك في أن صدود العراقيين عن ذلك عموماً يعود إلى ذكريات أليمة حول مصائر أبنائهم في الحرب العالمية الأخيرة ما زالت حديثة طريّة في الأذهان وإلى القرعة العسكرية العثمانية التي كانت تختطف أبناءهم وترسل بهم إلى طريق اللاعودة. وقد نوهنا بهذا في فصول سابقة. وقد بقيت تتمثل في هذه القوة القوميّات الثلاث، وإن غلب عليها العنصر الآشوري في مراحل وجودها الأخيرة.

ولد الحقد على الليڤي قبل ولادة الجيش العراقي، لأنه كان يمثل عند القوميين والوطنيين ذراع سلطة محتلة وأداة قمعية لها رغم الخليط العنصري فيه، وكان من الطبيعي أن يردّ ضباط الجيش العراقي الذين تخرجوا في معاهد العثمانيين العسكرية هذا الشعور إلى أسباب أخرى قد يمكن أن ينظر إليها بعين الوجاهة، تتعلق بكيفية استخدام البريطانيين هذه القوة. ففي أيار ١٩١٩ ساهمت هذه القوات مساهمةً فعّالة في إخماد ثورة الشيخ محمود الحفيد الأولى واحتلت السليمانية. وعادت في ١٩٢٣ لقمع ثورته الثانية لوحدها بمساعدة الطيران البريطاني واحتلت السليمانية مجدداً. ولم يكن للجيش العراقي نصيبٌ في ذلك «النصر» رغم مضيّ سنتين على تأسيسه. لكن وفي تموز ١٩٢٤، ظهرت قطعات رمزية للجيش العراقي في السليمانية، تأكيداً لسلطة بغداد، لم يقتضِ من الشيخ محمود جهداً في طردها. فاضطرت وزارة الهاشمي إلى الاستنجاد بالطيران البريطاني وبالليڤي لإعادة سيطرتها.

وفي آخر ثورة للشيخ محمود (١٩٣٠) وقعت قطعات الجيش العراقي في مأزقٍ عظيم أنقذها منه الطيران البريطاني والليڤي.

في ١٩٢٤ لم تشارك قوات الجيش العراقي في صد الهجمات التركية على الحدود في شهر أيلول، وتولى الطيران وقوات الليڤي والميليشات الآشورية وحدها صَدّ تلك الهجمات وطرد القوات التركية، إذ بقيت وحداته رابضةً في الموصل.

في خلال تلك السنة تكفّل الليڤي والطيران البريطاني بالقضاء على الانتفاضة المسلّحة التي قام بها اليزيدية، كما تكفّلت مدرعاته وطيرانه بتشتيت شمل القبائل النجديّة المغيرة على جنوب العراق من غير مشاركة للجيش العراقي أو قوات الشرطة.

كان الجيش العراقي في مرحلة التكوين. والمجتمع العراقي في دور مخاض، والحكومة في عجلةٍ شديدةٍ من أمرها. وكذلك البريطانيون.

في ٣ من آذار ١٩٢٦، وعلى أثر انتهاء النزاع على ولاية الموصل وضمها نهائياً إلى الكيان العراقي، مال البريطانيون إلى الأخذ برأي جعفر العسكري حول استنان قانون خدمة العلم (التجنيد الإجباري). وقام الفريق (أو. والي) رئيس البعثة العسكرية البريطانية بوضع مسودة أو مخطط للائحة. وفي ٢٤ من آذار ١٩٢٧ قررت حكومة (العسكري) تقديم هذه اللائحة إلى مجلس النواب.

الدافع الحقيقي هو قلة إقبال العراقيين على التطوّع، وعدم مبالاتهم بالجندية بله تطيّرهم التقليدي منها. وهو الذي أبقى الجيش العراقي طفلاً يحبو على أربع طوال خمس سنوات، فلم يزد ملاكه عن ثلاثة أو أربعة أفواج مشاة مع كتيبة من الخيالة وبطريتي مدفعيّة إلى جانب عددٍ كبير من ضباط الجيش العثماني السابقين من بقايا الحرب العظمى لا يعرف الحكم الجديد ماذا يعمل بهم.

عندما اقترح رئيس البعثة العسكرية سنّ هذا القانون أو بالأحرى حبّذه فإنه كان يمتثل لأوامر المندوب السامي، إذ يبدو أن قانون التجنيد هذا كان يتفق وسياسة بريطانيا مبدئياً. إلاّ أنه فوجئ بردة الفعل العنيفة. كما يبدو أنه ما كان يتوقع الأثر السيّئ العام الذي خلفته هذه النبتة عند الكرد والشيّعة. قال الحسني:

«الظاهر أن مشروع التجنيد الإجباري لم يلق تأييداً من بعض العناصر التي اكتوت بنار الخدمة في العهد التركي وقاست الأمرّين من هَوْلها فأخذت تعارضه بطرق مختلفة وقد نشر نائب لواء الموصل (السيد إسماعيل الرواندزي) الكُردي في جريدة الأوقات البغدادية باللغة الإنكليزية بتأريخ ١٢ تشرين الثاني الكلمة التالية: «أرجو نشر الكلمة الآتية خدمة للحقيقة وإطلاعاً للجمهور على أمرٍ واقع إزاء الأكراد والتجنيد الإجباري. وهو أن بعض الناس يظنّ أن المخالفين للتجنيد الإجباري هم إخواننا الشيعيّون فقط وإني آسف لغفلة هذا البعض عن حقيقة راهنة لم يشعر بها حتى الآن، وهي أن الأكراد مخالفون للتجنيد الإجباري. نعم ليعلموا بأننا نحن الأكراد مخالفون للتجنيد الإجباري. نعم الاتفاق على أن قانون التجنيد الإجباري لا يتفق ووضعنا السياسي وسويتنا العلمية الحاضرة ونحن نعتقد أنه ليس مفيداً ويسبب في الوقت الحاضر مضارّ عديدة، وسيكون بمثابة قنبلة مهولة لبلادنا المحبوبة

ولذلك نوصي الحكومة بالانصراف عن هذه الفكرة».

وقامت ضجة كبيرة في الصحف، وانبرى الشيعة يسفّهون فكرة التجنيد بحرارة وقوة، وكتب الشيخ محمد باقر الشبيبي (أحد رجال ثورة العشرين) ونائب لواء المنتفك في جريدة (العالم العربي) بتأريخ ٢ تموز ١٩٢٧:

«ينظر العراقيون إلى التجنيد الإجباري بصدود، ويعارضون فكرته مادامت الأمور على ما هي عليه الآن من عجز المسؤولين عن تحقيق رغبة من رغبات الأمة أو تدارك حاجةٍ من حاجياتها الكبرى، وقد علت بها أصوات المخلصين، وفاضت ببسطها أنهار الصحف في العالمين...»(٥).

لم يكن المندوب السامي يتوقع مثل هذا كما قلنا، وسرعان ما تراجع لنجده يحذر وينصح رئيس الوزراء بالتريث وكتب له هذا:

«اطلعتُ على رأي حكومة صاحب الجلالة (البريطانية)، وقد فوضت لي أن أعرض على فخامتكم ما يأتي: من الواضح أن لا فائدة من تطبيق التجنيد ما لم يعتقد الشعب العراقي بضرورته فيقبل عليه مدفوعاً بعامل الإخلاص والوطنية. فإن استند المشروع إلى دعمٍ وطنيّ معتدل... تمكنت حكومتكم من تطبيقه دون الإلجاء إلى المساعدة البريطانية... إن حكومة صاحب الجلالة بعد التفكير في الأمر - مع شعورها برغبة الحكومة العراقية المشروعة في إنشاء جيش كفوء بأقل نفقة ممكنة - ترى من الضرر وخلافاً لمنفعة العراق أن تؤمر القوات البريطانية بإكراه الشعب العراقي على الدخول في الجيش على أساس التجنيد الإجباري والمساندة المالية».

أفكانت الحكومة العراقية تشعر بأنها عاجزة عن تطبيق القانون المقترح، وأنها

---

(٥) رغم هذا كاد يكون قوام الجيش وقتذاك من المطوعين أبناء الفلاحين الفقراء المعدمين الشّيعة والكرد يغريهم المرتب الشهري المخصص للجنديّ. وهو مرتب كبيرٌ نسبياً يفوق بكثير ما يتقاضاه العامل العاديّ الأجير من عمل اثنتي عشرة ساعة يومياً، فمع الغذاء والكساء والإقامة المجانية للجندي، كان يتقاضى شهرياً ٣٠-٤٠ روبية، في حين لم تكن أجرة العامل اليومية تتجاوز عشر آنات، وراتب المعلم والموظف الصغير الشهري يترواح بين ٨٠ و١٠٠ روبية [الروبية Rupee هي العملة الهندية التي وضعها البريطانيون في التداول فور الاحتلال بديلاً للعملة العثمانية وهي ١٥ آنة Ana. وتقابل الآنة خمسة أفلس عندما حلت العملة العراقية محلها في ١٩٣١. وقد كان للروبية قيمتها الشرائية الهائلة. فالموظف الصغير ذو العائلة الكبيرة كان بوسعه أن يعيش وعائلته بهذا المرتب دون ضيق].

كانت تعتمد في تنفيذه على سلطة البريطانيين ونفوذهم وكذلك على الدعم المالي؟ أكانت تريد أن تقوم سلطة الانتداب بإرغام الأهلين عليه أو إنشاء مفارز تعقيب للمتخلفين؟ مثلما كان يجري في العهد العثماني؟

هناك شك قليل في أنّ الحكومة القوميّة كانت تتطلع إلى هذه المساندة، ودون شعور بالخجل أو التردد، وأن المندوب السامي بردّه الغاضب لم يسئ قطّ فهم ذلك، رغم مسارعة رئيس الحكومة «التبديد» ذلك الشك بردّه هذا المؤرخ في ٢٥ من أيار ١٩٢٧:

«إن جُلّ ما طلبه زملائي (أعضاء الحكومة) هو معاضدة الحكومة البريطانية الأدبية في إمرار هذه اللائحة من مجلس الأمة وتنفيذها ويظهر من المكاتبات حول لائحة التجنيد أن الحكومة البريطانية ترغب في التخلي مقدّماً عن كلّ مسؤولية عمّا يحدث في المستقبل بسبب التجنيد!»

وقبرت لائحة التجنيد في المجلس، وتنوسي أمرها حتى إنّ وزارة (السعدون) التي جاءت بعد وزارة (جعفر) لم تنوه بموضوع التجنيد البتة في برنامجها المفصّل. إلاّ أن (السعدون) نوّه عند تشكيله وزارته الأخيرة في عين السنّة بأنه: «سيعمل على تطبيق التجنيد العام بصورة سريعة»، ولم يفعل.

وفي أوّل مواجهة للثائرين المحليين (منفرداً) خلال العام كاد الجيش يصاب بكارثة. إذ وقعت الوحدات التي جُرّدت لتأديب (الشيخ أحمد البارزاني) في حصارٍ أحكمه المقاتلون البارزانيون وكان سيؤدي إلى القضاء عليها أو استسلامها، لولا تلبية القوة الجويّة البريطانية طلباً رسمياً من الحكومة بالتدخل لإنقاذ القوة. وقد فعلت ذلك بقصف الثوار وقراهم. وسلمت بقية القوة بعد خسائر جسيمة[٦].

* * *

كان الجيش العراقي في أواخر العام ١٩٣٢ - أي بعد مرور عشر سنوات على تشكيله - يتألف من لواءي مشاة وكتيبتي خيالة مع الصنوف موزعة وحداته على أساس

---

(٦) في هذه الوقعة كان آمر القوة النقيب (برقي العسكري) شقيق بكر صدقي وقد أبيد نصف قوته فيها. ويذكر (الحسني) ج٣ ص١٨١ - الحاشية أن نوري السعيد رئيس الوزراء اتهم وزير داخليته ناجي شوكت بتحبيذ فكرة تجريد الجيش لوزير الدفاع جعفر العسكري وأنه كان السبب فيما حصل وطلب منه تقديم استقالته فرفض وطلب من الملك أن يأمر بسوقه ووزير الدفاع إلى المحاكمة فتراجع السعيد بعد إباء الملك.

المنطقة العسكرية الواحدة. وضباطه ومدرّبوه وقادته كادوا يكونون كلهم من مخلفات الجيش العثماني المنحلّ[٧]. يفتقرون إلى الثقافة والعلم ويشّق عليهم أن يستوعبوا أو يأخذوا بالأساليب البريطانية العسكرية. لم تكن الأساليب البريطانية من بعض الوجوه موائمة فالضباط المنتدبون منهم للإشراف والتفتيش كان مصدرهم المستعمرات حيث يقودون جنوداً محليين بمعاملةٍ سداها الغطرسة ولحمتها الازدراء. وورث الجيش العراقي مما ورث عن الأسلوبين عقوبة الجلد، وعن الجيش البريطاني تقليد الجندي الخادم Batman الملحق بخدمة الضباط الخاصّة.

وكانت الحاجة تدعو إلى تعريب المصطلحات العسكرية - ومنها الرتب والأوامر الشفوية (الإيعازات) وأسماء الأسلحة المختلفة وأقسامها. وقد عكف على ذلك منذ قيام الجيش الأديب واللغوي (عبدالمسيح وزير) رئيس قسم الترجمة في وزارة الدفاع، ومراجعة إمام اللغويين في عصره الأب أنستاس الكرملي وبتشجيع واحتثاث متواصل من (أب الجيش العراقي) جعفر العسكري[٨].

---

(٧) العارف (أسرار ١٤ تموز، المرجع السالف، ص٢١): «كان مستوى الضباط المعلمين والمدربين لا يبعث على التقدير لثقافتهم المحدودة وأساليبهم العسكرية القديمة، التي توارثوها من بقايا ضباط العهد العثماني العراقيين. فلم يكن لديهم شيء من الإبداع والابتكار الذي يخلق روح الطموح والعمل المثمر المتجدد بين الطلاب. فكانت أساليبهم الرتيبة في التدريب والتعليم تشيع الملل وجمود الخيال» (الملاحظ أنه كان يتحدث حول فترة وجوده طالباً في الكلية العسكرية العام ١٩٣٧ (تأسست في العام ١٩٢٤).

(٨) كان جعفر ونوري في أوائل العشرينات متحمسين إلى الدرجة القصوى لترويج هذه المصطلحات وتعميمها وقد خرجت والحق يقال دقيقة محكمة وحقّ للجيش العراقي أن يفخر إن لم يكن لديه ما يفخر به، بأن وجدت تلك التسميات طريقها إلى سائر الجيوش في البلدان الناطقة بالعربيّة وكانت أساساً للقاموس العسكري الكبير الذي وضعته لجنة عسكرية - مدنية مثل فيها عسكريون من سائر أقطارها في الجمهورية العربية المتحدة (مصر) في منتصف الستينات. وقد روى لي من لا أشك في روايته من الضباط العسكريين الذين عملوا في الجيش خلال تلك الفترة، أن (جعفراً) كان يترك مكتبه في وزارة الدفاع ويقصد الوحدات ليقوم بدور المعلم في تلقين الضباط العثمانيين وضباط الصفّ العرب والكرد المصطلحات الجديدة مستعيناً بإلمامه الواسع باللغات. وقد وجدت في كتاب الكولونيل دي كوري (المرجع السالف، ص٦١) مصداقاً لهذا، إذ ورد فيه ما نصّه: «كان الجيش يفتقر إلى المصطلحات اللغوية وقد وجدتُ (جعفراً) أوّل من بدأ في استخدام تلك المصطلحات مستعيناً بكراسة كبيرة كانت وزارة الدفاع قد أعدّتها أشبه بمعجم دونت فيه التعابير العربية بمقابل المصطلحات الإنگليزية». ويعزو دي گوري لنفسه (وكان قد ترك الليفي والتحق عضواً في البعثة العسكرية) فضل القيام بطبع هذه =

وبعد النصر الذي حازه الجيش في اشتباك (الديره بون) وارتفاع المعنويات بدا وكأن لا سبيل ثمّ إلى تأجيل آخر لسنّ قانون الدفاع الوطني أي التجنيد الإجباري. وقد تمّ ذلك في ٣٠ من آب ١٩٣٤ إلاّ أن وضعه موضوع التنفيذ تأخر قرابة السنة[٩]. وكانت مذابح آب ١٩٣٣ سبباً في إصداره كما سنرى.

بإخراج الضباط وعدد من ضباط الصف بدأ الجيش العراقي أمياً، وهذا ليس موطن عجب في بلد يكافح كفاح المستميت للتغلب على الآفة. وبأكثر التقديرات تفاؤلاً يمكن تقدير نسبة المتعلمين العراقيين في العام (١٩٣٢- ١٩٣٣) بما لا يزيد عن ٨,٢٪ بالمائة، وبضمنهم التلاميذ الذين لم يبلغوا سنّ الجندية وخريجو المدارس الثانوية أو المتوسطة، وليس بينهم إلاّ من يطمح إلى مواصلة دراسةٍ تضمن له وظيفة وعيشاً لا تؤهله للتطوع في الجيش جندياً أو ضابط صّف ولا أمل له في الترقية إلى مصاف الضباط. وكانت ميزانية الجيش تلتهم ربع ميزانية الدولة السنوية وهو مبلغ هائل جداً بكل حسابات ونسب ميزانيات جيوش الدول التي خرجت من الحرب منتصرة وتركزت سياستها على إنقاص ميزانيتها العسكرية في ظرف بضع عشرة سنة. وبعد وضع قانون خدمة العلم موضع التطبيق زادت الحاجة إلى ضباط من رتب صغيرة، رغم استقبال عدد كبير من أبناء شيوخ العشائر ترغيباً لمسلك الضباط في المدرسة العسكرية - بالقراءة والكتابة - بأمل المعرفة بالقراءة والكتابة. وقد أصبحت فيما بعد (كلية) وفتحت أبوابها لطلاب الصف المنتهي من الثانويات دون انتظار تخرجهم.

كان إغراءً لا يقاوم، فضلاً عن المركز المرموق الذي يتمتع به الضابط ويتيه به على أقرانه من موظفي الدولة - هناك الراتب الشهري الذي يكاد يبلغ ضعف ما يتقاضاه صاحب الشهادة الثانوية من الموظفين لو أسعده الحظّ بوظيفة، بل كان حظه في انتقاء شريكة حياته أكثر بكثير من حظّ الآخرين. وقد انتشرت بين الجمهور مقولة مسجّعةُ ترددها شفاه الفتيات: «يا ملازم يا مو لازم» أي إمّا ملازم وإمّا لا حاجة للزيجة.

وترك عدد كبير من صغار المعلمين والموظفين بسببٍ من هذا الجاذب وظائفهم

= المصطلحات «بشكل جدول يضمّه كتيّب في مطبعة الهلال ببغداد»، ويلاحظ: أن هذه التعابير الخاصّة بالأوامر والإيعازات «بدت غريبة لا تُستاغ يصعب استخدامها». (بالمناسبة كوفئ عبدالمسيح وزير بأن سمح لشقيقه أنيس بدخول كلية الأركان. فهو والحالة هذه الضابط المسيحي الوحيد المقبول في تأريخ هذه الكلية).

(٩) صدرت إرادة ملكية بتنفيذه في ١٢ من حزيران ١٩٣٥.

والتحقوا على كِبرٍ بالكلية العسكرية. ومما أذكر في هذا الصدد أن مدرس الرياضة في مدرستنا الابتدائية كان أحد الملتحقين(١٠).

وأسست كليّة الأركان، لتخريج قادة المستقبل من ضباط الجيش العراقي، كان القبول فيها محدوداً لرتب ملازم أوّل ونقيب، ومن شروطها أن يكون المقبول حائزاً الشهادة الثانوية، مشفوعة بتقارير طيبة من آمريه حول سلوكه ومؤهلاته. وكان إغراءً لا يقاوم، فالضابط الركن يضمن لنفسه أفضل المراكز، وكذلك يفتح له باب الترقية دون عائق. بل وأكثر من هذا، فالمتخرج إلى جانب علامة على الكتفين توضع قبل الترقية، وهي شريط قرمزي. لا بدع أن كان المقبول في هذه الكلية موضع حسدٍ وغيرة من زملائه المرفوضين أو رفاقه والحقد من الضباط العاديين الآخرين. وتلعب الوساطات والنفوذ لعبتها أيضاً في القبول. ويتوسل الضابط المقبول بكل وسيلةٍ ليضمن نجاحه إذا لزم الأمر ولم يكن بالمستوى الذهني الذي يؤهله للنجاح، فالفشل عارٌ كبيرٌ وخزي لا يحتمل(١١).

أصرّ الضباط القوميون (العثمانيون) على استحداث هذه الكليّة الفريدة من نوعها، لتكون على غرار مدرسة الأركان العثمانية، رغم انتقاد البعثة العسكرية الإنكليزية. إذ لم يكن في النظام المسلكي البريطاني أو الأمريكي أو الفرنسي شيء شبيه بهذا الامتياز، وإنما كانت هناك دورات تخصّص معينة بحسب الحاجة لا تمنح خريجها امتيازاً كهذا.

وفي هذه الجيوش وغيرها تتم الترقية بناءً على الحاجة وتوفر الملاك

---

(١٠) إسمه «خضر ألياس عزيزة» وقد تقاعد بعد ما بلغ رتبة رائد وكان لي لقاء معه قبل تقاعده. وأظنه من الدورة التي تخرج فيها عبدالكريم قاسم وأحمد حسن بكر، اللذان تركا مثله سلك التعليم والتحقا بالكلية العسكرية في ذلك الوقت. ومن الصف الخامس الثانوي الذي كنت فيه العام ١٩٣٩ التحق بالكلية العسكرية قرابة الثلث وبينهم عدد من المسيحيين. بعضهم أنهى دراسته الثانوية طمعاً بالدخول في كلية الأركان. وإني لأذكر منهم عدداً سمت به القيادات وكان لبعضهم أدوار في مصائر الجيش أو السياسة العراقية: كزملاء الدراسة محمد نوري خليل (لواء ركن وقائد فرقة)، وحمدون سعيد (عقيد مرافق أقدم للملك)، وعلي أمين أغوان (عميد)، وإبراهيم فيصل الأنصاري (لواء ركن قائد فرقة ورئيس أركان الجيش)، وزاهد محمد صالح (عميد مرافق أقدم لرئيس الجمهورية)، وسليم الفخري (مقدم ركن مدير الإذاعة العراقية بعد ١٤ تموز)، ومحمد عارف يحيى (عقيد آمر فوج وزارة الدفاع أيام الجمهورية)، وغيرهم.

(١١) في العام ١٩٣٨، أقدم النقيب جلال الونّة على قتل نفسه وقتل آمر كلية الأركان العقيد محمد السبتي بتفجير قنبره يدوية شدّها على نفسه وذهب ضحيتها بسبب رسوبه في الامتحان النهائي.

والمنصب[١٢]، إلاّ أن الترقيات في الجيش العراقي كادت تكون روتينية، إذ يكفي الضابط أن يقضي الفترة المعينة في القانون ويكون سجلّه خالياً من العقوبات أو تقرير من آمرية يشير إلى قلة كفاءة، وأن يجتاز امتحاناً بسيطاً تقوم به لجنة امتحانية عطوفة عادةً (لأن أعضاءها سيجتازون امتحاناً مماثلاً حين يحين زمن ترقيتهم ويحتاجون من ممتحنيهم عين العطف) ومن النادر أن تأخرت ترقية ضابط. والتأخير في الترقية يحثّ الضابط على التوسل للإحالة إلى التقاعد بكل وسيلة ممكنة وأفضلها العجز والمرض.

وبسبب من هذا تضخم ملاك الجيش بالضباط من ذوي الرتب الكبيرة بحيث ضاق عن استيعابهم في حين دأبت الكلية العسكرية على تخريج الضباط بالمئات وبدورات تقلّ عن السنتين أحياناً. وكثيراً ما نسب ضابط آمراً لقيادة وحدة صغيرة لا تتفق ورتبته. ولجُئ إلى استحداث مناصب إدارية وكتابية لاستيعاب هذا العدد، كما لُجئ إلى الإحالة إلى التقاعد بهذه العِلّة أو غيرها قبل وصول الضابط سنّ التقاعد القانونية.

كذا كان وضع الجيش عندما شارف العقد الثالث من القرن العشرين على نهايته.

وبقيت الهوّة التي تفصل بين الضابط والجندي واسعة، بل زادت سعةً وعمقاً بسوق الأعداد الكبيرة من الأميين المكلفين بالخدمة. ولم يخطر ببال أحدٍ التساؤل عَمّا يراد عمله بهذا الجيش، فالخزانة العامة لم تعد كما كانت في السابق تشكو عجزاً أو فقراً، بسبب تغذيتها بعائدات النفط. والتعليل الوحيد الذي قدمته الحكومة القوميّة، والمتحمسون القوميّون لسنّ قانون التجنيد ووضعه موضع التطبيق، وبالتالي لتقوية الجيش «عدداً وعُدة»، هو كما جاء في بيان الحكومة عند تقديم القانون للمجلس:

«التخوّف من الجارتين تركيا وإيران، وواقع ضخامة قواتهما العسكرية»

لا أدري مقدار الجديّة في هذا التعليل. فقد كان ثمّ معاهدة صداقة وحسن جوار

---

(١٢) الأمثلة على هذا في الجيوش العصرية الكبيرة لا تحصى. وأريد أن أذكر القارئ بالجنرال آيزنهاور (رئيس جمهورية الولايات المتحدة فيما بعد). ففي العام ١٩٤٢ عندما دخلت أمريكا الحرب كان آيزنهاور عقيداً لم ينل ترفيعاً لأكثر من خمسة عشر عاماً. وعندما وقع الاختيار عليه لقيادة الحملة الأمريكية رفّع، ثم توالت ترفيعاته فنال ستّ ترقيات خلال ثلاث سنوات ونيف، كذلك كان الأمر مع قرينه المارشال مونتگمري. فقد كان عقيداً (كولونيل) في مبدأ الحرب وخرج من الحرب وقد نال خلالها خمس ترقيات، والجنرال ديگول الذي بقي عشر سنوات في رتبته. وكثيراً ما كان يخيّر الضباط في الجيوش الأوروبية بعد انتهاء حربٍ وتقليص ملاك الجيش بين الرضا برتبة صغرى أو الاستقالة من الجيش.

مع تركيا. وكان هناك اتفاق على تسوية خلافات الحدود مع إيران، عقبه الاتفاق أو الميثاق المعروف بميثاق (سعد آباد) الذي جرت المفاوضات حوله منذ مطلع ١٩٣٦، وأبرم بعدها بسنة ليربط الدول الثلاث بتعاونٍ عسكري.

بل وأكثر من هذا فهناك المعاهدة العراقية - البريطانية، التي توجب على القوات البريطانية التدخل العسكريّ الفوري لحماية الدولة الجديدة من أي اعتداء.

وحاول البريطانيون بضع سنوات توجيه نشاط الجيش بالشكل الذي يجعله جيشاً محترفاً، ففتحوا أبواب معاهدهم العسكرية لضباط الجيش العراقي الجدد والعثمانيين في إنكلترا والهند بدورات تعليمية وتدريبية. وتخرج بنتيجة ذلك وفي السنوات التالية ضباط عراقيون ذوو كفاءات وثقافة وفهم وطلاب المعرفة في غير ميادين حرفتهم - يفخر بهم أي جيش عصري لدولة حديثة. كان لي منهم أصدقاء وعشراء اعتززت بصداقاتهم، وكثير من هؤلاء إما طحنتهم الانقلابات العسكرية المتوالية أو أصابهم الضرر من نتائجها وإما ألقوا أنفسهم في أحضانها وخاضوا غمار السياسة وحرب العقائد لتذهب ريحهم، وتقضي على كفاءاتهم ومؤهلاتهم.

وقع الجيش العراقي فريسة سهلة للاتجاه القوميّ. ووجد القوميون العروبيون فيه ضالّتهم المنشودة لتأمين نشر مفاهيمهم فيها وللحصول على الشعبية التي ظلوا إلى الأخير يفتقدونها في الجماهير العراقية، مثلما وقعوا هم أنفسهم فريسة لطموح الضباط الذين كانوا يتابعون بعين الحنق ومرارة الخيبة وصول زملائهم إلى المراكز الوزارية والوظائف العليا، التي أمّنت لهم الثروة والغنى في حين لم يكن أمامهم غير الخدمة الطويلة الشاقة والاعتماد على الراتب، ليبلغوا السنّ التقاعدية فيطويهم النسيان؟

من كان يستخدم مَن؟ ومن كان فريسة مَن؟

وكيف تمّ زواج القوميّة بالجيش العراقي؟

كان ذلك في مخاضةٍ وعلى ضفة نهر الفرات حيث نشبت معركة بين سريتين من الجيش العراقي وبين الآشوريين المسلحين الذين عادوا من سورية، تلك المعارك التي عرفت بمعركة الديره بون. وفيها صمدت الوحدة العراقية في موقعها وهو ما أنزله التأريخ العسكري العراقي، والكتّاب والمؤرخون العراقيون، منزلة النصر العظيم المؤزر.

أخرج القوميّون والحكومة والصحافة والكتاب تمثيليةً رائعة باستخدامها جيشاً بلغ

بضباطه الشعور بالفشل المتوالي حد نفاد الصبر ولقبوا الوقعة: بـ«الفتنة الآشورية أو تمرد التياريين أو الثورة أو العصيان الآشوري». إلى آخر الصفات والنعوت التي أطلقها المذكورون سابقاً - بالجملة وبالمفرد على حماقة اثنين من الآشوريين - بدت للرأي العام العراقي امتحاناً للوحدة القوميّة، واستقلالية الحكومة العراقية في اتخاذ القرار، وطبعت الجيش بالطابع القومي - الوطني بالمفهوم السائد وقتذاك، وأثبته من خلال ذلك عاملاً في شؤون الدولة لا تابعاً أو جهازاً محترفاً ممثلاً من ناحية نصراً للروح العسكرية التقليدية، ومجسداً من ناحية أخرى انطلاقة متأخرة من إسار التحكم البريطاني.

ومن خلال ذلك صوّر الساسة القوميون الآشوريين بمثابة إهانة قائمة لكلّ ما تمثله مملكة مستقلة حديثة، وعنصراً يقف عقبة في سبيل الوحدة الوطنية، مهدداً القومية العربيّة وتطلعاتها وسبباً لاستمرار التدخل البريطاني. ونشروا على الرأي العام المستنفر قوميّاً ودينياً ما ترك فيه انطباعاً مؤداه إن هذه الأقليّة المسيحية الصغيرة التي فرضها الانتداب على العراق تكره الاندماج في المجتمع الجديد. ونسوا لبرهة من الزمن أن أولئك الذين نُصبوا أوصياء ومنتدَبين على العراق، لو لم يرغبوا في أن يكون هناك عراق لما كان هناك عراق.

من هذا كلّه لم يكن المسلمون العراقيون بحاجة إلى جهد كبير لإقناعهم بكل ما أراد رجال الحكم القوميون إقناعهم به، وما أسهل ما تثار عواطف الحقد في الدهماء وفي بلد يسوده الجهل. فكل الآثار الكتابية التي استعرضتها قراءة وتأملاً في أحداث آب ١٩٣٣، كانت تعكس شعوراً بالحقد والسخط على شعب غريب ذي دين غريب يصر على اعتبار نفسه في حماية أجنبي مسيطر، ولا يخفي قلة مبالاته بالاستقلال: وفي الأمثال اللاتينية: (من الصعب عليك أن تقاتل الحقد، فهو يشتري كلّ ما يريد وإن كان الثمن حياتنا).

كذلك وجدهم ضباط الجيش إهانة للوحدة والاستقلال واعتداء على مشاعر العروبة والإسلام. فمنهم تألف جيش أجنبي يخضع لأجنبي ويكون رهن إشارته[١٣].

ولذلك بدا الخيار العسكري هو الوحيد من الأوّل. وبعين الأسلوب الذي مارسه

---

(١٣) كان ثم أكثر من خمسة آلاف آشوري من حكاري وشمال الموصل قد مروا بمرحلة الخدمة في الليفي بين أعوام ١٩١٨ و١٩٣٣.

بعضهم أو عاصره في العام ١٩١٥ وقبلها أثناء المذابح الأرمنية. وكلّ ما دوّنه (ستافورد)[١٤] عن المساعي التي بذلت للتوفيق وتدارك الحال في بغداد والموصل ودهوك، كلها كانت غطاءً وتمهيداً لحلّ نهائي تمّ قراره ولا رجوع عنه وهو تلقين الآشوريين درساً لا ينسونه.

احتجاز البطريرك الآشوري في بغداد، سوق القطعات العسكرية إلى الشمال بزعم القيام بالتدريب، خطة الإسكان الجديدة، الجهود الإدارية، كلها كانت ممهدات للحلّ النهائي. فقد كان ساسة بغداد على علم بأن في ضباط الجيش ميلاً لا حدود له في أن يتولوا مسألة الحلّ بأنفسهم. وتشاء الأقدار أن تدفع بأيديهم الحجة لإطلاقها حماقة وغباء نفر لا يتجاوز عدده أصابع اليد نصبوا أنفسهم زعماء لهذه الطائفة من البسطاء الأميين الجهلة الذين ملكهم الرعب من المستقبل المجهول، وممن لم يكن لديهم أية فكرةٍ عن حالة الهياج والتأليب الشعبيّ الذي نجح الساسة القوميّون وأتباعهم في إشاعتها ضدّهم.

وذاك الاشتباك الذي رفع من قدر الجيش العراقي، ومن قائدة (بكر صدقي) ليجعله في مصاف القادة العظام، لم يكن من الناحية العسكرية الصرفة ووفق أي تقويم لأي خبير عسكري غير عملية دفاعية ضيقة الحدود صغيرة جداً بالمقياس العام للحركات العسكرية، على نطاق سريتين (٢٤٠) جندياً متخندقين في مواقع استحكام جيدة فوق أرض مستوية، تمكنت بعد فشلٍ مبدئي، وبمعونة الطيران من صدّ هجمات بضع مئات من الآشوريين العائدين من سورية. فانتزعت بصمودها هذا خسارة أولية. ما كانت تقتضي لإدارة هذا الاشتباك حذقاً أو براعة عسكرية فائقة[١٥].

إلاّ أن المزاج العراقي الذي يميل عادة إلى المبالغة في الأحداث وتضخيمها جعل من هذا الاشتباك الضيق المحدود القصير الأمد معركة فاصلة توجت بنصرٍ عظيم. لكنها كانت المرّة الأولى في حياة الجيش - استطاع أن يصمد في اشتباك جبهوي

---

(١٤) الكتاب الثاني: مأساة الآشوريين (ستافورد).

(١٥) (الآشوريون في العراق: المرجع السالف ص٣٦٠، الحاشية) والقول للمؤلف: "حدثني العقيد حسين بشار (كان ملازماً وقتذاك) إن بكر صدقي ومجيد حسون والحاج رمضان يتحملون سقوط الربيئة السابقة بأيدي الآشوريين. فقد أرسلوا حسين بشار في بداية الأمر لتحكيمه. إلاّ أنه انتقد وضعها فنقلوه إلى مكان آخر وأحلوا محلّه الملازم الأوّل عبدالستار سعيد، فأجرى تحكيمات ناقصة مكنت الآثوريين من الاستيلاء على الربيئة وقتله.

مع قوات غير نظامية لوحده ومن دون معاونة الليفي أو الطيران البريطاني كما كان يحصل في السابق. ولهذا أمكن القول بأنّ الأثر المعنوي في ضباط هذا الجيش الجديد كان أعظم بما لا يقاس من أثر النصر الفعلي. وإنه وضع حداً لإرهاصات عقدة النقص التي كانوا يشعرون بها إزاء تشكيلات الليفي القائمة، ومنها القضاء على خرافة التفوق بواقع أن معظم الآشوريين القبليين المهاجمين كانوا جنوداً سابقين في الليفي. كذلك عُدّ هذا الإشتباك نصراً مباشراً على البريطانيين الذين استعبدوا البلاد وعبثوا بمقدراتها واستغلوا مواردها.

وفي الوقت الذي كان (الوايت هول) يتابع بهلع وارتياع تطور المطاردة إلى المذبحة مستنتجاً بأن الحكومة العراقية فقدت السيطرة على جيشها، بدا العراقيون: أهالي وحكومة وكأنهم يعيشون في عيد كبير.

موكب النصر الذي دخل به رشيد عالي وبكر صدقي العاصمة[١٦] والخطاب الذي ألقاه أولهما في ٣٠ من أيلول ١٩٣٣ على الجمّ الغفير من الموصليين كان يمثل المرحلة التي ودّع فيها ضباط الجيش الطموحون الاحتراف وداعاً أخيراً. ليبدأوا مرحلة الجيش السياسيّ. كما كان إعلاناً غير رسميّ باستنان قانون التجنيد الإجباري:

«لاشكّ في أنكم تقدرون حاجة البلاد إلى قوة نظامية من أجل بناء أساس مكين لكياننا. وأنا حالياً أجد الفرصة مناسبة لأثير في نفوسكم الكريمة الشعور بالحاجة الملحّة لمثل هذه القوة لبناء هذا الأساس المكين، وأقصد به بناء الجيش، نعم جيش (هتافات عالية: يحيا الجيش، عاشت الحكومة، عاش الملك. ثم تصفيق حادّ) نعم يجب أن يدعم الجيش ويتقوى ليكون في مقدوره المحافظة على شرفنا وكرامتنا. الخدمة في الجيش يجب أن تكون عمومية وإجبارية. وهذا ضروري لصيانة شرفنا. في حالة الدفاع عن الوطن يهبّ الشعب كلّه هبة الواجب ليصدق علينا القول إن شئت أن تُحترم فكن قوياً»[١٧].

---

(١٦) راجع الوصف الشيق لهذا الاستقبال في مقالة السيد خلدون ساطع الحصري (الكتاب الثاني).

(١٧) نشر في جريدة (العمال) الموصلية الأسبوعية (العدد ١٥٧) في تشرين الأول ١٩٣٣. وأنظر كذلك الترجمة الكاملة له في الوثيقة FO. 5585-7-93 ضمن تقرير من السفارة البريطانية ببغداد إلى وزارة الخارجية. وكذلك التصريح الذي أدلى به رئيس الحكومة الگيلاني لجريدة (العالم العربي) البغدادية المنشور في العدد (٢٩١٠) المؤرخ في ٣ من أيلول ١٩٣٣ وفيه يقول: «إن =

ويتفق الكتاب العراقيون القوميّون تقريباً بأن أحداث آب ۱۹۳۳ كانت نقطة التحول الحاسمة، كما بدا واضحاً بأنها أزالت كلّ عقبة في سبيل قانون خدمة العلم.

قانون مبتسر، جاء في الوقت الذي لم تكن الدولة تملك إحصاءً دقيقاً بنفوس العراق، وفي الوقت الذي كان الضباط العراقيون يتنازعون السلطة الفعلية والسيطرة عليه مع البعثة العسكرية البريطانية بحربٍ خفيّةٍ، وبالدعوة القوميّة التي سيطرت عليها الأفكار النازية بتعثرها وعموميتها - وتركيزها فحسب على الاستقلال والخلاص من نفوذ الأجنبي - مشاعر الضباط الكرد، جنود ثمانون بالمائة منهم أميّون. إنه سقف بدون جدران، جيش لم يكن من دواعي فخره مطلقاً أن تطلب حكومة بغداد من البريطانيين إنقاذه من المآزق العسكرية التي وقع فيها عند تصديه للانتفاضات الكُردية في ۱۹۳۰ و۱۹۳۲ و۱۹۳۷، بل في ١٩٤٥ أيضاً.

هذه الحقائق كانت أبعد من أن تبرر الآمال والتطلعات التي عقدها أمثال الگيلاني عليه. كان الساسة ومنهم عسكريون سابقون لا يقلون رغبةً عن القوميّين ولا شوقاً في أن يصدر من هذا الجيش ما يبرر وجوده والإنفاق عليه، بعد أن قدموه في الماضي رمزاً للعزة مدافعاً عن كلّ نكبة أهلية أو كارثة تحيق بالبلاد نتيجة عمل عسكريّ، بالأقوال التي باتت تتردد على الألسنة وتسطرها أقلام من مدحوا وقفته المشرفة في الديره بون وبيخير، وتكتموا على مذبحته في سيميل وسنجار وبطائح الجنوب - هذه عاقبة تدخل الجيش في السياسة!

أين كان هؤلاء عندما وضع الجيش أول قدم له على عتبة باب السياسة؟ إن الجيش العراقي ورث أسوأ ما في النظامين العسكري العثماني، ونظام المستعمرات العسكري البريطاني.

لم تفعل ممارسة الضباط القوميين واندفاعاتهم العاطفية التي ستروا بها طموحهم شيئاً يستحق عليه العراق الوصف الذي خلعته عليه الصحافة العربية بأنه (پروسيا العرب) فقد بقي يفتقر إلى هوية ليبدو منها قوة كفوءة واثقة بالنفس، يمكن أن تفخر بها تلك البلاد التي بنت عليه آمالاً.

= معارك الجيش مع الآشوريين قد علّمت الحكومة درساً بأن تعمل على تقويته وتطويره، وإن حركاتهم دفعت السلطة العراقية إلى الإسراع في تقديم لائحة التجنيد الإلزامي كخطوة أولى لمساندة الجيش وزيادة عدده وتمكينه من الدفاع عن البلاد وصيانة كرامتها».

رآها القوميون اللحظة الحاسمة، كما نراها وكما يعرّضون بها حتى اليوم. ولكن أيّ شيء حسمت تلك اللحظة؟ وقالوا:

«منذ تلك اللحظة التأريخية الحاسمة في ١٩٣٣ أخذ العراقيون ينظرون إلى الجيش باعتباره رمزاً للاستقلال وتجسيداً ملموساً للسيادة الوطنية والتخلص من رواسب ومخلفات الماضي الأسود المشؤوم والتسلط الأجنبي الطويل الأمد»(١٨).

وكاتب هذا العبارة البليغة لغوياً بمقياس البلاغة الأدبي المعروف، ما أراهم إلاّ وهم بعد مرور قرابة أربعين سنة على تلك الأحداث، يرددون عين ما كتبته صحف تلك الأيام وما سطرته أقلام العروبيين عنها - بكل أمانة ودقّة. من دون أن يجدوا حاجة إلى مراجعة أو مناقشة للكثير مما كتبته حولها أقلام أخرى وما انكشف من وثائق وحجج وتعاليل تستأهل البحث والمناقشة.

ودونك كاتباً قومياً آخر أحدث عهداً، حفل كتابه بأسماء المراجع التي استند إليها في تأليفه وكان أكثر تفصيلاً وإسهاباً:

«... وكما أن احترام الشعب للجيش منذ الانتصار على التمرد الآشوري المبيّت في ١٩٣٣، كذلك كان تعاطف الجيش مع الفلاحين قد بدأ عجالة قمع انتفاضتهم في الفرات الأوسط باللجوء إلى استخدام القوة العسكرية استخداماً واسعاً وأحياناً قاسياً في ١٩٣٥، تلك الواقعة التأريخية والحقيقية الموضوعية. وإذا كانت سنة ١٩٣٣ بمثابة لحظة تأريخية حاسمة في بداية احترام الشعب لجيشه المغوار كما قدّمنا، كذلك كانت سنة ١٩٣٥ بمثابة لحظة تأريخية حاسمة في بداية شعور الجيش بظلم الإقطاعيين وازدياد عطفه على الفلاحين. ويبدو (كذا!) أن الفريق بكر صدقي الذي عهد إليه قمع الانتفاضات أراد استخدام العنف في قمع الاحتجاج المسلح للفلاحين بالدرجة نفسها التي كان قد استخدمها من قبل في قمع التمرد الآشوري المسلح وربما بدرجة أكبر. وقد شعر الضباط بالاستياء العام والغضب الشديد من هذا الوضع لأنّ القسوة، إنْ كانت مشروعة ومبررة في مواجهة التمرد

---

(١٨) الجيش والحركة الوطنيّة: تأليف فريق من الباحثين بإشراف الدكتور أنور عبدالملك، ط. دار ابن خلدون، بيروت. السنة ١٩٧١ ص٤٦.

الآشوري المدعوم بقوة المستعمر الأجنبي، فإنها غير واردة على الإطلاق في مواجهة فلاحين مظلومين يقاومون إقطاعيين ظالمين. ومن الجدير بالذكر أن الآشوريين وإن كانوا الطرف المقابل الذي دخل في صدام مسلح مع القوات العراقية، إلاّ أن المواجهة الحقيقية المباشرة كانت بين العراق وبريطانيا التي كان الآشوريون من مخططاتها المشبوهة. ومن هنا كان نجاح الجيش العراقي في قمع التمرد الآشوري بمثابة انتصار على بريطانيا أدّى إلى إفشال مشاريعها الهادفة إلى تمزيق الوحدة الوطنية الإقليمية للعراق»[19].

لم ينوّه الكاتب طبعاً بما ينير السبيل إلى التعرف على أيّ مشروع من تلك المشاريع التي تهدف إلى تمزيق وحدة بذل البريطانيون ما لم يبذله أحدٌ قبلهم أو بعدهم على خلقها - بالقوة، بالكذب، بالمناورة، بالرشاوى، بكل شيء متصوّر يمكن استخدامه لخلق العراق الموحد.

والقسوةُ هي جريمة، واستخدام الجيش أساليب قاسية هي جريمة حرب، أياً كانت الجهة التي ارتكبت بحقها. فما الذي كان يدعو هذا المؤلف إلى فرز نوعين من القسوة: نوع مُبرّر باستخدامه ضدّ الآشوريين ونوع يستوجب الاستياء والتعزير باستخدامه ضدّ الفلاحين العراقيين.

وربما ساعدني القارئ على فهم ما رمى إليه المؤلف القوميّ من قوله بتعاطف الفلاح في الجنوب مع ذلك الجيش الذي جرد عليهم فأحرق قراهم ودمر مزروعاتهم وأهلك مواشيهم وعلّق أبناءهم على أعواد المشانق خلال انتفاضات ١٩٣٥-١٩٣٦ المسلحة. وبعضها كما هو معروف انتفاضات قام بها شيوخ الإقطاع بتحريض معارضي الحكم في بغداد، وإلاّ فليذكر لي اسم شيخ واحد أو رئيس عشيرة من هؤلاء فقد حياته أو حكم عليه بالموت أو صودرت أملاكه، أو فقد سلطانه.

---

(١٩) (دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا في سنة) الدكتور فاضل البراك. (الدار العربيّة للطباعة - بغداد ١٩٧٩ ص٨٤-٨٥). وهو بالأصل رسالة موسّعة نال بها صاحبها شهادة الدكتورية من معهد الاستشراق في موسكو. ذكر في مقدمة كتابه أن أستاذه المشرف لم يكن غير صاحبنا (كاتولوف)، مؤلف كتاب (ثورة العشرين العراقية التحرريّة) وقد نوهنا به وبكيفية تحويره وتزويره نصوصاً استخدمها خدمة للفكرة التي أرادها. (كان البراك وقتاً ما مديراً للأمن العام في حكومة البعث الحالية، وقد تمّ إعدامه الحياة بأمرٍ من صدام حسين القائد العام للجيش العراقي في العام ١٩٩٤).

كان من مقتضى سياسة بريطانيا ومصلحتها أن تبقى الوحدة العراقية التي خلفتها متماسكة، ومن الخرق والجنون التصور بأنّ بريطانيا لو شاءت تمزيق هذه الوحدة المصطنعة في أيّ وقت للجأت إلى أسلوب أكثر ضماناً وفعالية من اعتمادها على فئة صغيرة من شعب طريد ناله من الكوارث والبلايا ما لم ينله أحد من الشعوب خلال فترةٍ لا تزيد عن ربع قرن.

صادرت بريطانيا حرية مليون كُردي في سبيل خلق هذه الوحدة، وقمعت ثوراتهم واحدة بعد الأخرى في سبيل المحافظة على هذه الوحدة. أفما كان من المنطق والأضمن أن تعتمد على هذا الشعب المسلح برد حقه في تقرير المصير إليه، لو شاءت تمزيق تلك الوحدة التي يتحدث عنها مؤلفنا؟

ثمّ إن سمعة الجيش وكرامته إنما تصان عندما يترفع أفراده عن ارتكاب الجرائم، بل بفضحها والاقتصاص من فاعليها حين يتجاوزن الحد الذي قررته مبادئ الحرب والاتفاقات الدوليّة. وفي تخصيص المجرم منه والجانح من وحداته وبتشخيصه يتمّ إنقاذ سمعة الجيش كلّه.

ولذلك لم يحطّ من قدر الجيش الأمريكي أو تصاب سمعته بسوء عندما سيق الضابط الذي أمر بمذبحة (ماي لاي) في ڤيتنام وحكم عليه بالأشغال الشاقة. ولا ترددت قيادته في تسليم ثلاثة من جنودها اتهموا باغتصاب فتاة يابانية إلى القضاء الياباني. ومسؤولية الجيش كله في حالة تعمد كتمان جريمة ارتكبها فرد منه أو وحدة من وحداته هي مسؤولية تضامنية.

كان بوسع الحكومة العراقية مثلاً أن تنقذ سمعة جيشها وسمعتها هي بالذات لو أمرت بتحقيق قضائي حول حصد (٣٠٧) من النساء والأطفال والرجال الآشوريين العزّل الموالين للحكومة، الذين اجتمعوا في قرية سيميل وسلّموا أسلحتهم طواعية - والقضاء عليهم بنيران المدافع الرشاشة والحراب. وعن أكثر من ثلاثمائة من القتول التي ارتكبت في ضواحي دهوك وشعاب بيخير بحق الآشوريين المستسلمين. بدلاً من إغراق الآمرين والضباط المشاركين بالأوسمة والترقيات والمنح المالية والخطب ومواكب النصر، وبتعيين الآمرين والضباط القائمين بتلك المذابح بمناصب أرفع يتمّ إنقاذ سمعة الجيش. فلا غرابة والحال هذه أن اتهمت وسائل الإعلام العالمية الجيش العراقي كلّه ولم يقتصر اتهامها على الوحدة المنفذة.

هناك مرجع قوميّ آخر أحدث عهداً لمؤلف عراقيّ ما أظنه قرأ كلمة واحدة عن

أحداث آب ١٩٣٣ أو القضية الآشورية، وإنما اعتمد على ما روي له ونقلته الأفواه، فيه صور الأحداث وكأنها نزاع على منصب الملكية في العراق - إدعاه البطريرك الآشوري لنفسه. وهذا ما كتبه نصاً:

«كان يرأس الطائفة الآشورية المار شمعون في ذلك الوقت. وكان يوجد داخل العراق لواءان من قوات الليفي الآشورية، التي دخلت العراق ضمن القوات البريطانية الغازية سنة ١٩١٧ ولم تخرج منه. وكانت بريطانيا تحاول أن تضمّ هذين اللواءين إلى الجيش العراقي دون طائل حيث أبرمت معاهدة ١٩٣٠ دون أن تشير إلى قوات الليفي.

بدأت حركة الآشوريين بإعلان العصيان في مدينة كركوك وأعلن المار شمعون نفسه ملكاً على شمال العراق الذي أعلن فيه الدولة الآشورية، فاستدعاه رشيد عالي إلى بغداد للتفاوض معه على أن يأتي معه حرسه ورجاله. وقد حضر بلباسه الديني باعتباره قسيساً. وحين التقى ورشيد عالي الگيلاني سأله الأخير عما إذا كان يعلم أن الملك فيصل الأوّل هو ملك العراق، وأن إعلانه لنفسه ملكاً هو تجاوز للدستور العراقي وعما إذا كان يعرف عقوبة ذلك التصرف. فأجاب أنه ملك الآشوريين وأنه لا يعترف بالدستور العراقي حتى يعترف بالعقوبات التي تترتب على مخالفته. وقد قدم المار شمعون للقضاء الذي حكم عليه بالإعدام، غير أن الحكم لم ينفذ. وأطلقت القوات البريطانية سراحه بعد أن احتلت العراق في مطلع حزيران ١٩٤١ بعد فشل ثورة الگيلاني.

وغادر المار شمعون العراق إلى سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة، حيث قتل هناك على يد أحد أعوانه. وكان قبل مقتله قد عاد إلى العراق في زيارة قام بها في العام ١٩٧١ أو ١٩٧٢ حيث أعيد له اعتباره وأعيدت كنائسه.

وأثناء اعتقال المار شمعون كانت قوات الليفي تستعد للهجوم على الموصل. فاتخذت القوات العراقية بقيادة بكر صدقي استعداداتها وتمركزت في خنادق حفرت في محيط المدينة. وكانت أوامر بكر صدقي أن لا يفتح الجنود المدافعون النار إلاّ بعد أن تصل القوات المهاجمة إلى مسافة ٢٠٠ ياردة فقط من الخنادق، مما تسبب في مقتل جميع المهاجمين، ولم يبق منهم أحد ليقع في الأسر وكانت مذبحة حقيقية. ورغم الإبادة الكاملة لجيش الليفي، فإن

الحكومة العراقية لم تتحرش بالآشوريين أبداً بعد المعركة كما إنها لم تنفذ حكم الإعدام في المار شمعون»[٢٠].

لا أعتقد أن هذا الكاتب ومن سبقه يتعمدون الكذب في الرواية. إنهم يكتبون عن تعيين ونزعة قوميّة غلابّة تسدّ عليهم مذهب التمحيص، والمراجعة ولا يشعرون بحاجة إلى النظر فيما سبق ودوّنه الآخرون عن هذه القضية أو تلك. على أني لا أنزههم قطّ عن الاستهتار بالقراء، واحتقارهم إلى الحدّ الذي لا يعودون معه يبالون بكم يملك قارئهم من القابلية على إدراك المعقول واستخلاصه من اللامعقول بتحكيم قوة المنطق والبديهية common sense.

ولو التمسنا لما كتبناه عن هؤلاء عُذراً، فكيف نجد عذراً لذلك الذي نال شهادة الدكتوراه لرسالته الموسومة (الآشوريون في العراق). لم يجد في كلّ المراجع التي ادعى أنه اعتمدها وقد استغرقت أسماؤها عشر صفحات في كتابه، الذي تزيد عدد صفحاته عن الخمسمائة، ما يقوله عن مذبحة سيميل غير هذه الفقرة:

«لعلّ أهم حدث في حركة الآشوريين ضدّ الحكومة العراقية في آب ١٩٣٣ هي حادثة سيميل. وكان معظم سكانها البالغين أكثر من (٧٠٠) نسمة من الآشوريين أما الباقون فكانوا من العرب. بعد مطاردة الجيش والشرطة لهم قاموا بإنشاء مواضع شمال القرية المذكورة لمهاجمة القطعات العراقية أثناء مرورها. فقامت الطائرات العراقية بإلقاء النشرات عليهم مطالبة إياهم بالاستسلام غير أنهم لم يستجيبوا لذلك. ولهذا فقد حاصرت في ١١ آب

---

(٢٠) (التأريخ لم يبدأ غداً: حقائق وأسرار عن ثورتي رشيد عالي الگيلاني في ٤١ و٥٨ في العراق، بقلم الدكتور نجم الدين السهروردي: الطبعة الثانية - بغداد شركة المعرفة. الص٣٢-٣٣). قدم المؤلف نفسه في مؤلفه الذي يزيد عن (٥٠٠) صحيفة، فقال إنه عميد كلية التربية الرياضية، والسكرتير الشخصي لرشيد عالي الگيلاني وواحد من أختانه والكتاب بجملته دفاع عن حميّه. ما يلفت النظر فيه هو الخطأ اللغوي الفاضح في عنوانه (ربما كان الكتاب الوحيد بالعربية الذي تميز بخطأ لغوي في العنوان) فقد جمع له حالتي الماضي والمستقبل لأنّ دخول حرف لم الجازم على الفعل المضارع ينقله إلى حالة الماضي، وكلمة الغد في العنوان تفيد المستقبل. وما أظنّ المؤلف إلاّ وقد تعمد هذا الخطأ وتقصده، إذ لم نعثر على مثله أو ما هو في درجته من الأخطاء اللغوية في سائر كتابه (وقد حفل بالسقطات اللغوية التي تشيع اليوم بين الكتاب مع هذا). وتحاليلنا هو أن كثيراً من الطبائع البشرية التي تتميز بالشذوذ تأتي أحياناً بتصرف غريب بغية لفت نظر الآخرين إليهم، وعلى قاعدة «خالف تُعرف».

قوات من الجيش والشرطة والعشائر هذه القرية. فتصدّى لها الآشوريون وأطلقوا عليهم النيران وكانت الأعمال التي قام بها الآشوريون في معارك (!) ديره بون وقيامهم بالتمثيل بجثث بعض القتلى من الجيش وإحراق بعضهم الآخر، قد تركت انطباعاً سيئاً عنهم لدى القوات والعشائر العراقية. ففعل الحقد في قلوبهم وتشوقوا لساعة الثأر والانتقام، كما أن مواقف (غازي) المتصلبة مع الإنكليز شجعت بكر صدقي على انتهاز هذه الفرصة. فأمر الجيش باستخدام القسوة والعنف معهم، ودارت معركة رهيبة! مع الآشوريين في سيميل استمرت حتى المساء مارس خلالها الجيش والعشائر أساليب لا إنسانية معهم، فقتل منهم أكثر من (٤٨٠) رجلاً و(٦) نساء و(٤) أطفال كما قتل من العشائر (١٥) رجلاً وجرح ما يقارب العشرين منهم أيضاً. ولم يخسر الجيش أحداً في المعركة وقامت العشائر بعد ذلك بنهب بيوتهم وتدميرها»[٢١]

والطريقة التي ابتكرها هذا الكاتب لرواية المأساة لا نستغرب في أنه أهمل إسناد أيّ جزء منها إلى مرجع واحد من المراجع التي أثبتها في عشر صفحات من الكتاب، ومن بينها كتاب (ستافورد) وقد نوه بالرجوع إليه في أماكن من كتابه لا تحصى، بل ولم تحظ منه روايات الآخرين بأي مناقشة أو تعليق. وهو الذي ما كتب في كتابه سطراً أو سطرين إلاّ ودوّن مصدره أو أشار إليه.

كان الرأي العام العراقي في حينه يجهل تماماً ما حصل، فقد ضربت الحكومة والجيش حصاراً محكماً وتتابعت الأحداث بتكتم مطلق، وبقيت الصحافة المحليّة تجهل حقيقة ما حدث في بيخير وسيميل. ومصدرها الوحيد هو البلاغات الرسميّة ومزاج الأهالي الذين شحنوا في المدن شحناً متقناً ولم يكونوا بحاجة كبيرة للتحريض، بسبب من آثار الماضي.

ولذلك كان ردّ فعل الصحافة العراقية عنيفاً جداً على ما راحت تكتبه وسائل الإعلام الأوروبية عن المذابح، بعد أن تسربت أنباؤها تفصيلا[٢٢]. كان الصحفيون

---

(٢١) رياض رشيد ناجي الحيدري (مدرس مساعد في كلية القانون والسياسة - جامعة بغداد: (الآشوريون في العراق ١٩١٨-١٩٣٦ القاهرة ١٩٧٧، الص ٣٦٥-٣٦٦).

(٢٢) في الصحيفة الأخيرة من كتاب (طريق في كردستان من ترجمتنا إلى العربية: بغداد - دار العروبة للنشر)، يذكر مؤلفه (هاملتون) المهندس الذي شقّ طريق أربيل - أومران أنه كان يسير في شارع فكتوريا بلندن مستعيداً لنفسه ذكريات أيامه بين الكرد والآشوريين: أخرجني من =

العراقيون يرون فيها محض اختلاقٍ وتجنٍ على العراق ولذلك وجدوا من واجبهم أن يتصدوا، ولا عجب فهناك برقيات تأييد وثناء من الأصناف، من علماء الدين: مسلمين ومسيحيين ويهوداً، من رؤساء العشائر والطوائف المذهبية من الجنوب والشمال والشرق والغرب، تنهال على تلك الصحف في بغداد فتنشرها بعناوين مثيرة كبيرة.

سأتجاوز عن تقديم عيّنة مما كتبته الصحف القوميّة، وأختار بدلاً منها تلك الجريدة التي عرفت بالدقة والالتزام والاتزان، وتحرّي الحقائق. وأقصد بها الصحيفة التي كان يصدرها جماعة الأهالي(٢٣)، وهم يمثلون في حينه الفكر الديمقراطي التقدميّ. وفيهم نظريون اشتراكيون وماركسيون وديمقراطيون خلفوا آثاراً لا تمحى في الفكر العراقي وفي عالمه السياسيّ.

ركبت سفينة (الأهالي) الموجة العالية الكاسحة التي أثارتها حكومة الگيلاني القوميّة (كما لقبت بعدها) ضدّ الآشوريين، وسبقت جريدة (الاستقلال) لسان حال القوميّين العراقيين في حينه إلى حَد ألجأت تلك الحكومة إلى تعطيلها فترة بسبب ذلك.

في ٢٥ من حزيران ١٩٣٣ ظهر عددها المرقم (٢٠٥) موشحاً بمقال رئيس عنوانه (الآشوريون والحليفة) ومنه:

«إن المشكلة الآشورية كانت نتيجة عهد قطعته بريطانيا للآشوريين على حساب العراق. إن الموقف الأخير (لمار شمعون) لا بد من أن يواجه بكل حزم، وأن تُمنع بريطانيا من التدخل في هذه الشؤون وأمثالها مما عودنا الإنگليز التدخل لغير صالحنا. إنهم لا يتعاونون معنا على ما يوافق مصلحة العراق، بل إن مداخلتهم إنما لتوطيد نفوذهم وإبقاء سيطرتهم علينا. يجب علينا أن نُفهم

= أحلامي بائع صحف بلوحة عناوينه المثبتة على سياج حديدي. وهو يصرخ منادياً على بضاعته. فابتعت صحيفة ورحت أقرأ العناوين البارزة: «مذبحة للآشوريين، ٣١٥ ضحية تمّ العثور عليها. الأسرى يرديهم رصاص الجيش. مذبحة للآشوريين قرب بلدة سيميل الصغيرة شمال الموصل بمسافة ٤٠ ميلاً. القرى غاصّة بالنساء والأطفال أسلمهم الرعب إلى الجنون. ١٤ أسيراً آشورياً يقتلون صبراً».

(٢٣) ماليثت الجريدة في ١٩٣٦ أن صارت لسان حال جمعية الإصلاح الشعبي. ومؤسسها الحقيقي هو الأستاذ عبدالفتاح إبراهيم وكان ماركسياً أصيلاً. وقد عرفته شخصياً وربطتني به صلة وثيقة، مثلما عرفت وربطتني بقطب آخر من أقطابها هو محمد حديد أحد تلامذة المفكر الاشتراكي الكبير هارولد لاسكلي. وكذلك الأستاذ عزيز شريف أقربهم صلة. دامت علاقتنا حتى وفاته في ١٩٨٩. وابتدأت منذ أن قمنا بتأسيس حزب الشعب في ١٩٤٦ مع زملاء آخرين.

الحليفة أنها لذلك وقفت موقفاً لا يتفق ومصلحة سكان البلاد، وأنها إذا ظلت تتمادى في غرس النعرات الدينية والطائفية والعنصرية في بلادنا، فإن ذلك يدعونا إلى جعل مصالحها في خطر».

مما يلفت النظر هنا أن الوعد الذي قطعته بريطانيا للآشوريين (لو اعتبرنا نصوص معاهدة سيفر وعداً) لم يكن على حساب أحد، وبالأخص على حساب العراق، إذ لم يكن ثم بلاد تسمى بالعراق في كتب الجغرافية والخرائط الدولية. وبطبيعة الحال لم يكن قارئ الجريدة في حينه يدري بهذه الحقيقة. لكن كاتب المقال، أما كان يدري؟

وفي ٢٩ من تموز ظهر عددها المرقم (٢٣٣) بمقال رئيس إثر خروج المسلحين القبليين الآشوريين إلى سورية وفيه:

«إننا نحمّل بريطانيا ما قد يحصل للآشوريين. إننا ننصح هذه الفئة (المقصود الآشوريون) نصحاً حقيقياً لا نصحاً رسمياً ظاهرياً بأن ينتزعوا من نفسيتهم هذا العداء الذي يحملونه لأهل البلاد، وأن تُقطع كل صلة بهم (أي الذين عبروا الحدود) سواء كان مباشراً أو غير مباشر وإلاّ ستجرّ عليهم هذه النفسية اكثر المصائب والويلات!».

ولم تكن الجريدة تعلم أن أكثرية الآشوريين وبضمنهم (٣٠٧) ضحايا قطعوا صلتهم بأولئك المسلحين وأعلنوا تضامنهم مع السلطة وسلموا أسلحتهم؟ إلاّ أنها دأبت على تحميل البريطانيين المسؤولية الرئيسة. ففي اليوم التالي ٣٠ تموز (وبعده في ٤ آب) أشارت إلى أن:

«بريطانيا هي وراء الاعتصاب الآشوري وإنها المحرّض الأكبر المسؤول. والغاية هي زيادة الاضطراب وخلق المناخ المواتي لإحكام نفوذها وسيطرتها على مقدرات البلاد».

كان هذا أكثر مما يطيقه السفير البريطاني، فبعث باحتجاج رسميّ شديد اللهجة إلى الحكومة في ٢ من آب، فأنذرت الجريدة. وكان ردّ الجريدة على الإنذار يتضمّن واقعاً لا ينكر وحقيقة لا مراء فيها:

«أمما غيّرنا في المقالين اللذين أنذرتنا الحكومة من أجلهما عن الاعتقاد الراسخ في عقل الناس وعن الشعور العميق الكامن في قرارة نفوس العراقيين عن وضع بريطانيا في العراق»

كانت الأهالي تقضي فترة التعطيل أيام ١١-١٢ من آب. إلاّ أنها واصلت فور

استئناف صدورها نهجها السابق في الحديث عَمّا نعتته بالمشكلة الآشورية. وفي أعداد متتالية كثيرة، أثنت من خلاله ثناءً كبيراً على «الانتصار العظيم» الذي حققه الزعيم (العميد) بكر صدقي ونجاحه «المنقطع النظير» في تأديب الآشوريين «وإلقائه عليهم درساً لن ينسوه». ووصفت في تقارير ضافية استقبال بكر صدقي وحكمت سليمان. ونشرت في عددها المؤرخ ٢٥ من آب ١٩٣٣ نصّ الخطاب الذي ألقاه أولهما في الموصل.

وفي العدد المؤرخ في (؟) من أيلول ظهر مقال رئيس عنوانه «الانتصار» أوصت في ختامه بهذا:

«يجب أن يُستكمل هذا الانتصار بعمل سياسيّ وإعادة النظر في جوهر المشكلة كيلا ينقلب الانتصار العسكري الباهر إلى فشل سياسيّ سريع»

والترجمة العملية لهذه القطعة من النصيحة لا يخرج عن أن يبقى موقف الحكومة العراقية كما كان منذ البداية وأن تستقل بنفسها بالحلّ الآشوري ولا تدع البريطانيين يتدخلون في قراراتها.

وبقيت الصحيفة كسائر الصحف العراقية تنكر بصورة قاطعة وإلى الأخير حصول أي تجاوز وخرق للقانون أو ارتكاب الجيش أي مذبحة - وعلى هذا الأساس تعرض (ياسين الهاشمي) إلى نقد لاذع منها في العدد (٣٠٠) الصادر في ٤ من تشرين الثاني بسبب الخطاب الذي ألقاه في عصبة الأمم معترفاً بالمذابح فيه فقالت:

«إنه يعترف بجرائم وهميّة لا حقيقة لها إلاّ في أذهان أعداء العراق. لم يحصل شيء من هذا القبيل وإن الجيش العراقي قام بواجبه الملقى على عاتقه خير قيام بضباطه وجنوده. إننا نشجب بشدّة ما جاء في خطاب مندوب العراق في العصبة ونعتبره إهانة للحكومة والجيش والشعب العراقي»[٢٤].

---

(٢٤) من آثار هذا الدفاع الحار عن مسلك الجيش والثناء الذي خصّ به حكمت سليمان وبكر صدقي أن نشأت علاقة تعاطف بين هذين وبين جماعة الأهالي (يذكر الجادرجي عن لقاء أول تمّ بينه وبين بكر صدقي بتوسط حكمت سليمان). وكانت الجماعة آنذاك قد توصلت إلى النتيجة، وهي أن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتغيير الوضع السياسي هي استخدام الجيش وهي غلطة كانوا سيدفعون ثمنها الغالي، قذفت بالبلاد في أتون الانقلابات العسكرية المتتالية، مطوّحة بكل ما بقي من آثار باهتة للحكم الديمقراطي. في تلك الأيام كانت الأهالي رغم رداء التقدميّة الشفاف الذي ترتديه ذات اتجاه قومي واضح لا يميزها كثيراً عن الصحف التقدميّة الأخرى. رغم وجود =

المسألة المحيّرة في موقف الديمقراطيين هؤلاء هي أنهم ظلوا يصرون على أن يجعلوا بريطانيا وسياستها وراء عمل أخرق تلقائي دافعه الخوف من مستقبل غامض أو مجهول، ومن عهود مقطوعة مثبتة دولياً تقدم بها عضو جديد في الأسرة الدوليّة. وأي حدٍ كان يبلغ بهم تجاهل استماتة بريطانيا في خلق هذا الكيان السياسي إن لم يكن لغرض نبيل فلأن مصلحتها اقتضت ذلك. كم كانت وحدة هذا الكيان المتعدد الجنسيات والطوائف والمذاهب ضرورية لستراتيجية الإمبراطورية وضمان امتيازاتها النفطية فيه؟ كم كان منطقياً وحتمياً بالنسبة لبريطانيا أن تبعد نفسها عن المشكلة الآشورية وتتخلى عنهم وتتركهم لمخاوفهم وهمومهم؟ كيف أمكن لهؤلاء الناضجين عقلياً أن ينساقوا دون تحفظ وراء الأكذوبة المفضوحة التي روجتها حكومة الگيلاني

= عناصر ماركسية كثيرة انحازت فيما بعد إلى التنظيمات الشيوعية. ويغلب على الظن أن كتاب تلك المقالات اللاهبة اتخذوا المحنة الآشورية بالأصل ذريعة لا هدفاً، ليهاجموا بها النفوذ البريطاني هجوماً عشوائياً، متخلين عن النقد الذي دأبوا على توجيهه للسلطة بشأن مصانعتها البريطانيين وبمواقفها من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية. حتى هبّت العاصفة الآشورية لتكتسح (الأهالي) كما اكتسحت غيرها من الصحف وأخرجتها عن وعيها.

في العام ١٩٧٤ ضمتني وعزيز شريف في كُردستان دارٌ واحدة وقضينا معاً أياماً معدودات وهو آخر لقاء بيننا. وكنت آنذاك أتدارس القضية الآشورية وبين يدي ترجمتي لكتاب ستافورد. كان عزيز شريف أيامها ولمدة معينة صاحب امتياز (الأهالي) ومن جماعتها. فسألته معرباً عن استغرابي لموقفهم المتسرع الخالي من الرزانة - وحول مدى معرفتهم بتفاصيل المذابح التي جرت في حينه مستنجداً بعقليته القانونية. وأنا أذكر جيداً جوابه، قال ما خلاصته: «إنهم لم يكونوا يدرون شيئاً عن تلك المذابح. ومن صديق العصبة حكمت سليمان وزير الداخلية علموا فحسب أن بعض القرى أحرقت وأن كلّ شيء هو على ما يرام ولم يحصل تجاوز، وأنهم كانوا يشاركون في مناقشة المقال الرئيس قبل نشره. وقال إن حسين جميل كان مسؤولاً عن كتابة معظم المقالات في تلك الفترة وهو قوميّ الميول، ولم يكن هناك مجال لاتخاذ موقف معتدل بسبب الأنباء عن جثث الجنود والضباط العشرة المحترقة المشوهة. كانت تهمة التعاون مع بريطانيا في انتظار من يناقش مدعيات الحكومة أو ينظر إليها بالأقل من الشك». وهكذا كان موقفهم من الأول وإصرارهم عليه إلى الأخير. فمما نذكره أنها راحت تنشر تباعاً (العدد ٢٧٤، تشرين الأول وما بعده) (الكتاب الأزرق) الذي وضعته الحكومة حول المشكلة الآشورية.

وتوجهت إلى الملك غازي - وقد أصبحت أفعاله الشاذة وتخلفه العقلي على كل شفة ولسان في الدوائر السياسيّة - بعبارات متبذلة غير لائقة بمكانتها: «توّجت يا صاحب الجلالة ملكاً على العراق وأنت نائلٌ حبّ الشعب في موقفك الأخير الذي وقفته بتصلبك تجاه الدسائس الاستعمارية، فلنا وطيد الأمل أن تحتفظ بثقة الشعب وأن تعمل بمؤازرته في تحقيق أمانيه» (العدد ٢٥٦ في ٩-٩-١٩٣٣).

القوميّة حول نية البريطانيين استخدام الآشوريين في زعزعة نظام أقامته هي ودافعت عن استقلاله أمام عصبة الأمم. بقليل من التفكير كان يمكن التوصّل إلى فساد هذا التقويم.

فبريطانيا كأيّ دولة كبرى ذات مصالح حيويّة ونفوذ كبير في بلد صغير كالعراق لم تكن مستعدة لوضع تلك المصالح وذلك النفوذ موضع خطر في مواجهة الأكثرية، بمساندتها دعوى فئة صغيرة لا وزن سياسيّ لها ولا أثر في أن تكون عنصر تهديد لمصالحها تلك. وبعكس ذلك، فقد كان من حسن السياسة والتدبير أن تنأى عن المشكلة ما استطاعت وقد فعلت ذلك. إلاّ أنها لم تكن تحسب في كلّ هذا حساباً للحماقات والتهور من نفرٍ بلغ من السذاجة وقصر النظر السياسيّ حداً خيل معه لهم أن خدمتهم في الجيش البريطاني ودفاعهم عن مصالحه ستعينهم في اطّلاب ضمانات لمستقبلهم الغامض، واكتساح موجة العداء والتأليب التي نجح القوميّون في إغراقهم بها وجرهم إلى الحتفة المهلكة.

في العام ١٩٨٦ قال (عبدالفتاح إبراهيم) لمؤلف كتاب جماعة الأهالي[٢٥]:

«كنا ننظر إلى الآشوريين منذ البداية على أنهم رتل خامس» ونقل المؤلف نفسه عن (محمد حديد) قوله: «إن تأييد جماعة الأهالي لموقف الحكومة من القضية الآشورية لا يعود إلى كون الآشوريين أقليّة، بل لأنّ توطينهم في شمال العراق بعد الاحتلال البريطاني كان مشروعاً استعمارياً مؤيداً من قبل الإنگليز بقصد إيجاد عنصر بلبلة في المنطقة والتدخل والسيطرة على منطقة النفط في الموصل»[٢٦].

---

(٢٥) فؤاد حسن الوكيل، جماعة الأهالي في العراق ١٩٣٤-١٩٣٧، الطبعة ٣، بغداد، ص٢٩٦، (الحاشية).

(٢٦) تشير الوثائق البريطانية والعراقية (كتب رسمية متبادلة) إلى أن الحكومة العراقية طلبت في ٥ آب ١٩٣٣ من السلطات البريطانية تزويد الطائرات العراقية بالقنابل لإلقائها على الآشوريين العائدين من الأراضي السورية، فاستجابت. وقام بتحميل الطائرات تلك القنابل أفراد من الليڤي الآشوري في مطار الموصل وهو قاعدة بريطانية. (أنظر ستافورد). كان الآثوريون والكرد قد نظموا عرائض حملتها وفود إلى كلّ من عصبة الأمم والحكومة البريطانية أعربوا فيها عن قلقهم بسبب إلغاء الانتداب الوشيك وعن مطالبهم بنوع من الإدارة الذاتية قبل إعلان الاستقلال، مذكرين بالشرط الذي بُني عليه ضمّ ولاية الموصل إلى العراق، بإبقائه تحت الانتداب لمدة خمس وعشرين سنة، كما أوصت لجنة عصبة الأمم بذلك. لكن بريطانيا كانت قد بنت سياستها الأخيرة على بناء وحدة سياسية من العراق وعلى صيانتها بأي شكل كان ذلك. وكان =

ونقل المؤلف أيضاً عن (عبدالقادر إسماعيل) مؤسس جريدة (الأهالي) وعضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي العراقي فيما بعد قوله: «إن الآشوريين حرّضهم الاستعمار البريطاني على ضرب حركة التحرر الوطني وخدمة مصالحه الاستعمارية».

وكل هذه الأجوبة من هؤلاء الخبراء بشؤون العراق تنمّ عن تجاهل متعمد لكيفية تكوين العراق السياسي. ويتجنب هؤلاء الديمقراطيون أو اليساريون الماركسيون التقدميون ذكر المذبحة في محاولة إلباس القضية رداءً سياسياً عمومياً، ويسقطونها عمداً من كتاباتهم وتصريحاتهم اللاحقة كما رأينا. وهم يلتقون مع القوميّين العروبيين في إنكارهم الباتّ حصول ما اعترف مندوب العراق به أمام عصبة الأمم.

وانصب اهتمام جريدة (الأهالي) بالجيش إلى الحدّ الذي جعلها تنادي مع المنادين بوجوب الإسراع في تلبية المطلب الشعبي: إصدار قانون الخدمة الالزامية: (٤ من أيلول ١٩٣٣):

«من الضروري الاستجابة إلى مطالب الشعب بإصدار قانون الخدمة الإلزامية كيلا نفسح المجال للمستعمرين[٢٧] بالتشكيك في مقدرة الجيش على حماية أرضه».

إلاّ أن جريدة سرّية بدأ الحزب الشيوعي العراقي يصدرها في العام ١٩٣٥، باسم (كفاح الشعب)، نوّهت في عددها الثاني بمناسبة الذكرى الثانية للإصدار بالقسوة التي مارسها ضباط الجيش العراقي في معالجة القضية الآشورية وانتقدت ذلك بشدّة مثلما

= ردّها على الوفود وعلى عرائضهم رداً حاسماً وباتاً وقويّاً «يبلغ الوفود أنه لا يمكن الإخلال قطّ بالنظام السياسي في العراق، ولا يمكن أن يعطى هؤلاء ما طلبوا». وفي آخر مذكرة قدّمها الآشوريون إلى عصبة الأمم جاء هذا الردّ البريطاني أنقله هنا نصاً: «إنهم خلافاً لما ذكر راضون بعد أن نال العراق استقلاله ودخل عضواً في عصبة الأمم، وليس ثمّ حاجة تدعو بعد إذن لأيّ تميز خاص تحظى به أقلية دينية أو قومية. (أنظر الباب الثالث والرابع من الكتاب)، تزيد عَمّا كان قد اتخذ له ضمانات في الماضي ذات صفة عموميّة أخذت في الماضي من مرشحين آخرين لعضويّة عصبة الأمم». ويؤكد عبدالفتاح إبراهيم نفسه في كتابه: (على طريق الهند، ١٩٣٥) أهمية الوحدة العراقية سوقياً واقتصادياً لبريطانيا في أماكن كثيرة. وهذا موطن العجب!

(٢٧) كلمتا الاستعمار والمستعمرين بقيتا شائعتين في ميدان الكتابة بعد استقلال العراق رسميّاً. فقد كان الكتاب والساسة المعارضون يرون المعاهدة استعماراً مقنعاً. وإن النفوذ البريطاني الجزئي بعد هذا كان ينظر إليه بمنظار الاستعمار.

انتقدت موقف البطريرك الآشوري. ودعت الأعضاء والمؤازرين إلى الانخراط في صفوف الجيش بغية خلق عناصر ثورية نظيفة مناهضة للاستعمار والتخلف.

* * *

كان هناك إجماع إعلامّي على وجوب سن قانون الخدمة الإلزامية. فأسرعت الحكومة بالاستجابة إلى مطلب الشعب هذا، الملحّ العاجل الذي لم يبق هناك موجب لتأخيره، سيما وأن «هزيمة الآشوريين وانتصار الجيش هما اللتان أدّتا إلى المطالبة المستمرة به»[٢٨].

وعلى أية حال كانت فكرة «الديمقراطية الليبرالية» عند جماعة الأهالي وفي كلّ ما وصلنا من آثارهم القلميّة فكرة غامضة، عبّروا عنها باصطلاح «الشعبية» وهو يقابل لفظة (Popularisme) الفرنسية بأفضل الاحتمال. وفي الكراس الذي نشرته الجماعة بهذا العنوان بوصفه المبدأ الذي تسعى إليه وردت كلمة الديمقراطية عرضاً عند التطرق إلى علاقة الفرد بالدولة هكذا: «أن تكون من حيث علاقة الأفراد بها دستورية ديمقراطية»[٢٩].

ولهذا لم يجد دعاة الإصلاح (الديمقراطي تقريباً) هؤلاء أي تناقض يربط مصير حركتهم برجل معجب إلى حَدّ الوله بالدكتاتور أتاتورك وما حققه من نهضة لبلاده ودون تبصر في حقيقتها ونزعتها الدكتاتورية، باعتبار الحركة النازية حركة نهضة مفيدة لا لألمانيا وحدها، بل للعالم أجمع.

ووضع آمالهم بالإصلاح عن طريق انقلاب عسكري يقوم به بطل انتصار الديره بون العظيم.

أيد هؤلاء «الشعبيون» فكرة توسيع الجيش، وساهموا بالانقلاب العسكري الذي تمّ بفضله، لتجيئهم منه اللطمة التي لم تُبق في فكوكهم ضرساً سليمة واحدة.

زرعوا بذرة شعبيتهم في تربة غير صالحة وبين أشواك لم تكتف بإعاقة نموّها، بل خنقتها ولم تكد تخرج شطأً لها وفرّقهم الجيش وانقلابه العسكري العتيد، فربط بعضهم

---

(٢٨) من كتاب الآثوريون، المرجع السالف، ص٣٨٤. وهي عبارة عبرت عن الشعور السائد آنذاك أصدق تعبير.

(٢٩) كان هذا ما ذكره عنه كامل الجادرجي. نقلاً عن (فؤاد حسن الوكيل) (المرجع السالف). بقي الجادرجي إلى آخر حياته أميناً على مثله في الديمقراطية، إذ كانت دروس ١٩٣٣-١٩٣٦ كافية بالنسبة إليه على ما يبدو.

مصيره بالطبقة الحاكمة وصار فيها قطباً، وألقى بعضهم نفسه في خضم الحركة الماركسية المتنامية والحزب الشيوعي فتزعموا وقادوا. وآثر بعضهم السلامة بالانسحاب التام من النشاط السياسي. وعندما أتيح للبقية الباقية فرصة العمل السياسي العلني ظهروا ببرنامج ديمقراطي واضح لكن بعد فوات الأوان وضياع الوقت. كانوا أعجز وأضعف من أن يقاوموا التيار القوميّ الشوفيني الذي غذّى العروبيّة بالنظريات النازية والفاشية العنصرية أو طغيان الحزب الواحد، أو الدكتاتورية العسكرية والمدنية. وقد بدت الغالبية منهم فيما بعد، كالقوميين، لا تحارب دكتاتورية، بل تحارب دكتاتوراً.

ولنقرأ الآن بالمقابل نتيجة غير سارة لهؤلاء المؤمنين بتعليلهم، وهي للسرّ أرنولد توينبي المؤرخ الداوي السمعة الذي كثيراً ما يستشهد الكتاب العرب بآرائه الثمينة وهي حصيلة التأمل العميق والحياد التام. إن لهذا المؤرخ الكبير رأياً حول ما حصل في آب ١٩٣٣ أنقله نصاً:

«في الواقع حزمت الحكومة البريطانية أمرها بسرعة خاطفة بعد المذبحة (الآشورية) فأرست سياستها لا على الامتناع عن القيام بأيّ تدخل لصالح الآشوريين في العراق فحسب، بل على مساعدة العراق في الظهور في جنيف (عصبة الأمم) بأفضل وجه مقبول حول الوضع.

ومن المحتمل جداً أنّ إرساء البريطانيين على هذا القرار كانت تمليه عليهم مقاصد وغايات أخرى، فوق حرصهم على اجتناب مأزق حصول المزيد من المذابح للآشوريين ولغيرهم من الأقليات المسيحيّة في لواء (محافظة الموصل). فمن المعلوم أن للحكومة البريطانية وبعض البيوت التجارية العظيمة النفوذ كثيراً من المصالح في العراق يحرص الجانبان على بقائها وصيانتها، وكذلك كانت الحكومة البريطانية ترغب في الإبقاء على قواعدها الجويّة في الأراضي العراقية لأنها حلقات وصل في سلسلةٍ من خطوط جوية تمتد من الجزر البريطانية حتى الهند وأستراليا. كذلك كانت شركة النفط العراقية تحرص على سلامة استغلال امتياز التنقيب الذي نالته من الحكومة العراقية والإفادة منه.

في القرن التاسع عشر كانت مصالح واعتبارات كهذه تدفع الحكومات البريطانية إلى الوثوب لانتهاز الفرصة التي تتيحها لها أمثال مذبحة سيميل، لاتخاذ سياسة معاكسة لسياسة العام ١٩٢٩ أو ربما لسياسة العام ١٩٢٠،

تتذرع بها لتقوم فعلاً بضمّ العراق إلى الإمبراطورية. إلاّ أن هذا النوع من الإمبريالية يتطلب استخدام قوة عسكرية. وفي العام ١٩٣٣ لم تكن هذه القوة ميسورة للحكومة البريطانية. ذلك لأن الناخب البريطاني ودافع الضريبة البريطاني ما عاد يرى جدوى أو سبباً وجيهاً لممارسة السلطان السياسي على البلاد الشرقية. وهما (أي الناخب ودافع الضريبة) ما قبلا بأن تتسلم بريطانيا مسؤولية الانتداب على العراق إلاّ بسبق إدراكٍ ضمنيّ بوجوب التخلي عن هذه المسؤولية والتخلص منها في أوّل فرصة تعنّ له. وإن هذا الانتداب يجب في الوقت نفسه أن لا يورّط الناخبين الذين يقررون شكل الحكومة في المملكة المتحدة، في أي مسؤولية محتملة، أعسكريةً كانت أم سياسية أم مالية؟ وعلى هذا الأساس يمكن أن يستنتج المرء بأن مقتل عدد من الآشوريين قدّر بين ٦٠٠ و١٠٠٠ لا يمكن أن يعتبر بحسب الرؤية البريطانية من قبيل الاضطرابات الداخلية الكبيرة»(٣٠).

وكان من نصيب هذه المأساة الوطنيّة العظيمة الآثار أن تزوّر أحداثها طوال خمسة وخمسين عاماً لتجد بالأخير عربياً واحداً يقول فيها ما وجب أن يقال وما لزم أن يتبناه عنها تأريخ العراق. يتحدث (الجواهري) عرضاً عنها. وهو يتطرق إلى وفاة الملك فيصل:

«. . . وبعد هذا كلّه وربطاً للتأريخ ومن جديد أيضاً، فقد كانت اليد الطولى في التعجيل بمصيره (الضمير يعود لفيصل) الأخير، لولي عهده حينذاك، أي الأمير غازي. فخلال سفرته إلى سويسرا كانت حركة التياريين وهي حركة آشورية لها أسبابها ومقدّماتها، كما لكل الأقليات الأخرى في العراق من أسباب ومقدّمات وبطبيعة الحال فنتائج. ولكن وبصورة أخص فقد كان لهذه الحركة صداها العالمي الذي أضرّ بسمعة العراق وذلك بما كان من شدّة بطش

---

(٣٠) أرنولد جوزيف توينبي Arnold Joseph Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥) تقويم للشؤون الدولية Sammary of the International Affairs، أوكسفورد، ١٩٣٤، ص١٦٦. يعد واحداً من أعظم المؤرخين للقرن العشرين. أهم وأشهر كتبه (دراسة للتأريخ A Study of History) يقع في اثني عشر مجلداً، أنجزه خلال (١٩٣٤-١٩٦١) وفيه يقسم تأريخ العالم إلى (٢٦) حضارة، ويحلل قيامها وسقوطها على أساس دورة «التحدي والاستجابة» - (ما بين الأقواس من إضافتنا).

القائد العسكري بكر صدقي شبيه السفّاح (يقصد تشبيهه بالخليفة أبي العباس الملقب بالسفاح) والذي استغوى وليّ العهد الغرّ بمعونة المغامر الآخر حكمت سليمان واللذين ظلاً طوال أربع أو خمس سنوات يستغويانه حتى يوم انقلاب بكر صدقي هذا وشريكه ذاك وما جرّه من ذيول لسنوات عدّة. لقد أراد بكر صدقي وتحت ستار الوطنية المتطرفة، والتي كان ولي العهد الجديد غويّاً كلّ الغواية بها حتى وإن كانت على حساب أبناء وطنه، أن يبرهن له على مدى كفاءته وقدرته لأداء مثل هذه المهمة الدموية. فلقد تجاوز كلّ الحدود بل تجاوز حتى على مصير أبيه في حملته على الثائرين وإن شئت فالمتمردين، حتى بلغت حَدّ الاغتصاب للنساء فيها. أن يضطر هذا الإبن الوحيد وولي العهد الجديد أباه المريض إلى قطع المسافات البعيدة بين سويسرا وبغداد محاولاً أن يخفف ما استطاع، ولكن بعد فوات الأوان، من وطأة هذه المغامرة الجديدة أوّلاً، والتخفيف من الضغط العالمي، ولاسيما ضغط بريطانيا وسفارتها التي كان لها في هؤلاء التياريين مما يسمّى بالليڤي خيرة الجنود والضباط الأقوياء بكلّ معنى القوة»[٣١].

* * *

والواقع أنّ من جنى على التجربة الديمقراطية هو الموقف الذي اتخذه الشعبيون الدستوريون ابتداء من أحداث آب وانتهاء بتصفيتهم وتصفية جمعيتهم على يد الدكتاتور العسكري بكر صدقي. وبمساهمتهم الفعالة في انقلابه وقعوا بسذاجة غريبة شقت على الفهم ضحية يأس مبتسر من التغيير ونبذوا الطريقة الديمقراطية الليبرالية، وسمّها إن شئت بالتقدمية، حين آل بهم إلى الإرساء على ما توصل إليه القوميون فيما بعد ومارسوه عملاً وفي كل حين - وهو أن التغيير لا يمكن أن يحصل بغير انقلاب عسكري يقوم به ضباط الجيش «الأشاوس». وكأني بهم وقد فقدوا الثقة بالمبادئ التي دعوا إليها قبل فقدانهم الثقة بأنفسهم، الثقة بمقدرتهم على توجيه الشعب والرأي العام توجيهاً ديمقراطياً وطنياً. وبقيتهم التي فضلت بعد انشعابهم بقيت ضعيفة لا تقوى على الصمود أمام تيار العروبية ولم تستفق قط من صدمة الانقلاب العسكري.

ركبت جمعية الإصلاح الشعبّي موجة ذلك الانتصار الصغير التي دفعت بها عاصفة

---

(٣١) محمد مهدي الجواهري (ذكرياتي، ج١، ص٢٩٥، دمشق). (ما في الأقواس هو من وضعنا).

التأليب الحكومية، ونادت بوجوب سنّ قانون الخدمة الالزامية فوراً، فالوطن في خطر. ومرّت اللائحة مرور البرق بعد أن تراكم عليها تراب سبع سنين والفضل يعود لمعركة الديره بون الفاصلة طبعاً، لا بل مذابح سيميل وبيخير ودهوك.

في العام ١٩٣٤ وقت تشريع القانون وفي العام ١٩٣٥ عندما وضع موضع التطبيق، كانت نسبة المتعلمين في العراق كما ذكرنا سابقاً لا تزيد عن ٨,٢٪ من مجموع السكان العام[٣٢] ويدخل في هذه النسبة كل الطلاب والتلاميذ الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة (سن الخدمة العسكرية)، وهم وسائر الموظفين الحكوميين المنضوين أو المؤجلين غير خاضعين للخدمة. ويدخل في النسبة أيضاً المستخدمون في مصالح تجارية واقتصادية خاصّة ورجال الدين والعلماء وطلبة المعاهد المعفوّون من الخدمة.

فإن أخرجنا هؤلاء (ما عدا المستخدمين الأهليين الخاضعين للخدمة) فقد لا نجد واحداً بالألف من بقية السكان ملماً بالقراءة والكتابة، ومن بين هؤلاء قد لا يزيد من تصلح سنه للخدمة الالزامية عن ٣ أو ٤ بالمائة.

ثمّ إن القانون كان عظيم التسامح بأخذه بكثير من مبادئ قانون التجنيد الإلزامي العثماني للإعفاء من الخدمة فضلاً عن رجال الدين وتلاميذ معاهدهم العلميّة وتأجيل الخدمة عن تلاميذ المدارس المداومين، فقد أخذ بمبدأ الإعالة والبدل النقدي.

وراح العراقيون الكارهون التجنيد الإجباري غريزياً - بذكرياته الأليمة أيام العهد العثماني - يستخدمون خبراتهم السابقة في التهرب من الخدمة والتحايل على عملية السّوْق بشتىّ الطرق. ولجأت الحكومة في أحيان كثيرة إلى القوة في فرضه. ولم يكن في وسع الحكومة وقتذاك تشكيل مفارز لتعقيب الهاربين منه في مناطق الأهوار وفي مجاهل جبال كردستان، إلاّ أنها جابهت انتفاضات مسلحة بسبب تطبيقه اقتضى منها استخدام الجيش[٣٣]. مع هذا فقد كان عدد المجندين كبيراً جداً والحاجة تدعو إلى

---

(٣٢) عبدالرزاق الهلالي، معجم العراق، ج١، ص٢٦٧، بغداد مطبعة النجاح. قال: «لم تزد نسبة عدد المتعلمين في العراق عن ٨. ٢٪ من مجموع السكان، وبلغ عدد المعلمين والمعلمات في العام ١٩٣٣ زمن الاستقلال (١٣٥٠) معلماً ومعلمة، خمسة أسداسهم من خريجي دار المعلمين والمعلمات». أنظر أيضاً: (تكوين العراق الحديث، هنري فوستر، ترجمة عبدالمسيح جويدة، بغداد ١٩٥٤ ص٤٧٨)، لم ترتفع هذه النسبة كثيراً خلال ستين طبعاً.

(٣٣) في ٢١ من نيسان ١٩٣٦ كانت ثورة الرميثة الثانية بسبب الامتناع عن تطبيق قانون الخدمة =

تخريج المزيد من الضباط. وقد تمّ ذلك بسبب تخفيف شروط القبول والإغراء بالمركز والمراتب وقد ألمعنا إلى هذا بل فصّلنا فيه.

إلاّ أن البرزخ العظيم الذي كان يفصل الضابط المتعلم عن الجندي الأمي لم يُردم، بل لم تجر محاولة جديّة لردمه، وبقيت الجسور التي تصل ما بينهما مثلث الطاعة والضبط والثقة العمياء(٣٤).

كان جيشاً أمياً بخلاف ضباطه وقد بقي كذلك جيش ضباط، لا جيش جنود، رغم محاولات ضيقة بذلت بفتح دورات تعليمية للجنود المستجدين أثناء الخدمة.

والجيش على كل حال هو صورة مصغّرة للمجتمع. وفي العراق لم يكن من الممكن وبالسهولة التي تصورها المفكرون العروبيون أن يخلقوا جيشاً شبيهاً بالجيش الألماني أو الفرنسي موحد الاتجاه، مستعداً بأفراده ذهنياً للدخول في رابطة روحيّة أو عقائدية مشتركة على أساس من التفاهم والقناعة الذاتية. وليس من الممكن أن نأخذ برأي الأستاذ ساطع الحصري في دفاعه عن فكرة التجنيد الإلزامي في العام ١٩٢٨، إلاّ دليلاً على الشغف الذي يشعر به هو وأمثاله في غرس الفكرة القوميّة على نطاق جماهيري لتغدو حركة شعبية واسعة، وإلاّ فلا مندوحة من محاولة تحقيق ذلك عن طريق حياة الجندية، التي تقوم على مبادئ الانضباط والطاعة والثقة العمياء. وهو ما لا يمكن استخدامه بين الجماهير. وعند هذه النقطة التقت آمالهم بطموحات الضباط السياسية وقد باتت واضحة في أوائل الثلاثينات بعد النصر الكبير، ولهذا فالفضل يعود إلى. . .

= الإلزامية. كما كانت ثورة اليزيدية في تشرين الأول ١٩٣٥، وثورة القرنة في أواخر آب ١٩٣٥، إثر العرائض العديدة التي قدمت إلى الملك والحكومة مناشدةً عدم تطبيق القانون بحقّهم.

(٣٤) يحضرني في هذا ما كتبه العميد الركن جاسم كاظم العزاوي (من ثورة ١٤ تموز، بغداد، ص٩٤). وهو أحد الضباط الذين شاركوا في انقلاب ١٩٥٨ - قال: «من البديهي أن عشرة طلاب عسكريين من الكلية العسكرية يقومون بواجب المئات من الجنود الذين يتركون لأهدافهم بحكم الانضباط فقط دون أن يعلموا شيئاً عن واجباتهم، حتى أن بعضهم كان يعتقد صباح يوم ١٤ تموز بأن ما حدث كان تمريناً ليلياً. إذ همس أحدهم في أذن صاحبه عندما أشرقت الشمس: ألم ينته التمرين الليلي بعد لنعود إلى ثكناتنا؟». أقول: «رأيت بنفسي كم كان الجندي المكلّف الكردي يعاني في فهم الإيعازات والأوامر وما يولده ذلك من الاضطراب في التدريب والانضباط بعد مرور أحد عشر عاماً على تطبيق القانون. كما وجدتُ عدداً من ضباط الصف الكرد الأذكياء أتقنوا تلك المصطلحات وكانوا يشرحونها للجنود باللغة الكردية في الوقت الذي لم يكن بوسعهم التحدث بالعربية بطلاقة».

«الدور السياسيّ الذي لعبه الجيش العراقي في مرحلة معينة من مطلع القرن العشرين وأوائل التأريخ الحديث، لاسيما في سنة ١٩٤١ . فقد حاول الإنكليز بشتى الوسائل، لاسيما بعد نشوب ثورة ١٩٢٠ الكبرى أن لا يكون الجيش العراقي إلا مجرد قوة پوليسية تحل محل احتلالهم العسكري وانتدابهم المباشر، لكن جهودهم لقيت ما تستحقه من فشل ذريع. فقد نظر الشعب العراقي إلى جيشه نظرة وطنية دائماً، وبدأ الجيش يحظى بتأييد الشعب وكافة قواه الوطنية بعد انتصاره في قمع التمرد الآشوري في ١٩٣٣، ونعتقد أن أسباباً عديدة دفعت الشعب إلى تأييد الجيش حينذاك، على الرغم من وجود الضباط الإنكليز على رأس قيادته. ومنها ما يعود إلى حرمان العراقيين على امتداد قرون عديدة طويلة من كيانهم المستقل وجيشهم المستقل منذ سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م بالإضافة إلى الاحترام الخاص والتقدير الفائق الذي أولاه المجتمع الإسلامي للمحاربين دفاعاً عن الوطن والمجاهدين في سبيل الله».

ويؤكد الكاتب تلك الفكرة في موضع آخر بشكل أوضح:

«إن قمع تمرّد الآثوريين في العام ١٩٣٣ كان البداية للتقدير الفائق الذي أسبغه الشعب على جيشه الباسل. وإن قمع نهوض الفلاحين في سنة ١٩٣٥ كان البداية للتدخل العسكري في النشاط السياسي»(٣٥).

وهكذا ترى الكتاب القوميين يجدون في انتصارات الديره بون نقطة التحول الكبرى في تأريخ الجيش العراقي السياسي. وعلينا أن نقرّ مرغمين والحالة هذه بصحة

---

(٣٥) يمكن أن تتخذ هذه الفقرة وما قبلها (ص٨٥ المرجع السالف: دور الجيش) نموذجاً مثالياً لكيفية تطويع الأحداث واستحداث الفِكَر خدمة لغرض معين يقصد الكاتب القوميّ منه أن يوحي به للقارئ. فواضح أنه لم يكن يوجد جيش عراقي في أثناء ثورة العشرين. كما لم يكن هناك ضابط بريطاني واحد على رأس قيادته ولا في أي قيادة أثناء العام ١٩٣٣ أو قبلها أو بعدها، وإنما كان ثم بعثة عسكرية استشارية لها ضباط ملحقون بالوحدات بصفة مراقبين فحسب. ثمّ إن إطلاق صفة (العراقيين) على سكنة هذه البلاد وقتذاك وجعلهم ذوي كيان مستقل هو في الواقع تحدّ سمج لا يقرّه من حظي بأقل الإلمام بتأريخ هذه البلاد، التي عرفت قديماً باسم (ميسوپوتاميا). إن الكاتب بطبيعة الحال ينحو منحى الأسلوب الذي جرى عليه البحث العلمي الأكاديمي السوڤياتي. وقد كان أولئك العراقيون الباحثون عن لقب الدكتورية في معاهده أنجب طلبة وأكفأهم وأحسنهم إتقانا للصنعة.

ما توصلوا إليه. وكيف لا؟ فهناك أحداث لا تعد ولا تحصى في مجرى التأريخ البشري أصغر بكثير من واقعة الديره بون غيّرت مصائر شعوب وأحدثت تحولات خطيرة في مجرى التأريخ العام.

هذه مسألة واحدة قد أستحق عليها لوم قارئي بسبب إقحامها في موضوع لا يمتّ إليها بصلة. وليتسامح معي فيتخذها نموذجاً للنتيجة التي توصلت إليها أنا أيضاً من الكتاب العروبيين حول أحداث آب ١٩٣٣.

إنها مسألة تطلب تفسيراً «علمياً» لها من الأكاديميين المؤمنين بالتفسير الماديّ للتأريخ على أساس النظرية الديالكتية - المادية: بعوضةٌ لا يزيد طولها عن نصف سنتمتر ولا يُرى خرطومها إلاّ بالمجهر، من النوع الذي يطلق عليه علماء الحيوان اسم (أنوفيليس) الناقل لمكروب الملاريا الخبيثة، استقرت في وقت ما من يوم ١٣ حزيران ٣٣٢ قبل الميلاد على ذراع أعظم فاتح عرفه العالم في كلّ زمان ومكان، وفي عاصمة لما يدعى اليوم بالعراق - في مدينة بابل، أثناء ما كان هذا الفاتح تلميذ الفيلسوف أرسطوطاليس الذي عرفناه باسم الأسكندر المقدوني منهمكاً في تخطيط مستقبل إمبراطوريته الممتدة من نهر الكنج في الهند شرقاً حتى صحراء مصر غرباً، ومن سواحل البحر الأسود شمالاً حتى نهاية الخليج الفارسي جنوباً بعاصمتها الشرقية الكبرى (بابل). كان يوم لسعته البعوضة كما كتب مؤرخوه المرافقون عاكفاً على وضع تصاميم الطرق النهرية والبرية والمسالك البحريّة التي تخرج فيها وتدخل إليها، فقضت عليه في ظرف أربعة أيّام ولم يتجاوز الثانية والثلاثين.

في مدى عشر سنوات استطاع هذا الفاتح تلميذ أرسطوطاليس أن يقيم أعظم إمبراطورية شهدتها القرون القديمة والوسيطة. ولولا هذه البعوضة، ماذا كان سيؤول إليه مصير العالم لو امتد به الأجل ثلاثين سنة أخرى لتطبيق نظامه السياسي في المزج بين حضارتي الشرق البابلية - الآشورية وحضارة الغرب الهيلينية؟

من الطبيعيّ - ولا قياس مع الفارق - أن تبدو بعوضة المقدوني بآثارها أعظم من ديره بون بكر صدقي، بنتيجة واحدة هي أن كلتيها قضتا على حياة صاحبيهما، بموت معجّل.

ولا عجب والحالة هذه أن تكون قتول آب عاملاً مركزياً في الانعطاف المأساوي لتأريخ العراق الحديث.

وقد رأينا كيف كانت ولادة الجيش العراقي عسيرة، مبتسرة، جنين لم يكمل عدّة

الحمل الطبيعية. أخرج من الرّحم بصورة قسريّة وليداً تحمل (جيناته) استعداداً مرضياً موروثاً. وبدأ منذ قيامه على رجليه طفلاً ضعيف الساقين صغير الرأس كبير البطن. أغدق عليه ضباطه والساسة الذين تعاونوا على خلقه آيات الحمد والثناء، كُلمّا زادت إخفاقات وحماقات آمريه الثوريين. وأمطروه بألقاب التمجيد والتعظيم، فلُقّب بالباسل والبطل والمغوار، والمظفر وما إلى ذلك بزيادة الانقلابات العسكرية الناجحة. فهذه كانت تُعدّ معارك ميدانيّة في نظر الانقلابيين وفي نفع الشعب العراقي.

وأولئك الضباط المحترفون الأكفاء منه، الذين وصفتُهم ووفيتُهم حقَّهم من الإطراء فيما سبق، كانت جريمتهم وقوفهم على الحياد، كُلما أثارت عصبة صغيرة من زملائهم رفاق السلاح إعصاراً، أو ريحاً نكباء يروح كثير منهم ضحاياها عندما تجرفهم معها، وعندما يبدأ الانقلابيون يقتلون بعضهم بعضاً في نزاعهم الشرس على السلطة.

في أحيان كثيرة يبدو الوقوف على الحياد نوعاً من الجريمة لاسيما في أثناء النزاع على السلطة.

من جملة القوانين التي اشترعها (صولون) الأثيني[٣٦] قانون يقضي بنزع حقوق المواطنة عن كلّ من يقف على الحياد في أثناء ثورة أو تمردٍ.

كان قانوناً غريباً عَسرَ على الديمقراطيين آنذاك فهم الحكمة في وضعه، فسألوا واضعه تفسيراً. هذا المشترع البارع لم يكن يرى بقاء أي مواطن فاقداً الشعور بالمصلحة العامّة منصرفاً إلى شؤونه الخاصة فحسب، مهتماً بما يعود عليه بالفائدة متجرداً من أي إحساس باضطراب سياسيّ يداهم بلده، بل وجب عليه فوراً أن يختار الجانب المحق أو المصيب في نظره من الطرفين المتنازعين.

* * *

في لعبة الشدّ والجذب القوميّ على السلطة التي أطلقها الساسة القوميون كادت الغلبة تكون دائماً للضباط القوميين والخيبة من نصيب الآخرين. وكثيراً ما ألجأتهم تلك

---

(٣٦) صولون Solon: (في حدود ٦٣٩-٥٥٩ ق.م) مشترع يوناني، وشاعر أحد (الحكماء السبعة) انتخب في ٥٩٤ ق.م أرخوناً (حاكماً مدنياً)، فألغى القوانين الدراكونية وحرّر العبيد وألغى ديونهم وقسم المواطنين إلى أربع درجات بنسبة دخولهم وأجرى إصلاحات في النظام الديمقراطي منها إعطاء الحق لجميع الطبقات في انتخاب ممثلين عنهم في الجمعية العامة والمحاكم القضائية وقاوم الاستبداد والحكم المطلق.

الخيبة إلى التآمر على رفاق الأمس بطاقم قومي آخر من الضباط، فيتذابحون ويكاد يُفني بعضهم بعضاً.

لم يبلغ المفكرون القوميون ودعاة العروبة مطلقاً مبلغاً كافياً من النضوج ليدركوا بأن هؤلاء، ضباط الجيش الذين اعتمدوهم ووضعوا فيهم آمالهم في الوحدة والاستقلال والسلطان، هم في الواقع يشتغلون لحسابهم ومنهم من اتخذ القومية قناعاً لطموحه، ومنهم من جعل المبادئ القوميّة أو الوطنية كما يدعونها أحياناً جزءاً لا يتجزّأ من مصالحه الخاصة ولهفته للسلطة.

وكثيراً ما يضيع العامل الشخصي والدوافع الذاتية المصلحية في أثناء محاولة الحكم على الأحداث التأريخية من الوجهة العامّة والتنظير العقائدي. فهؤلاء الضباط العقائديون أو القوميون إن شئت كانوا يتأثرون أبداً بعين الحقد والحسد خطى زملاء لهم في الجيش العثماني وجريرتهم الوحيدة أنهم انحازوا إلى الجانب الغالب بمحض الصدفة، لتصعد بهم المراتب المدنية إلى الوزارة أو الوظيفة الكبيرة. جاء كلهم من طبقة فقيرة، ومكنتهم مناصبهم من الوصول إلى الثروة والغنى، في حين كان على زملائهم المسلكيين الآخرين أن يقنعوا برواتبهم المحدودة وينتظروا الترقية على أيدي هؤلاء زملاء الأمس، ليتقاعدوا بالأخير ويصبحوا نسياً منسياً.

لم ينجح المفكرون القوميون ودعاة العروبة في خلق حركة جماهيرية عروبيّة واسعة النطاق قادرة على إيصالهم إلى السلطة وتحقيق برامجهم، فكان الجيش أملهم وملاذهم الأخير. وها هم يومها يتطلعون إلى المعجزة العسكرية والاجتماعية التي حققها النظامان القوميان في ألمانيا وإيطاليا، فضلاً عن نهضة تركيا الكبرى، حيث كان الجيش القاعدة التي استند إليها العمل القوميّ.

إلاّ أن العراق بتكوينه الديموغرافي لم يكن ألمانيا ولا إيطاليا. كذلك ضباط جيشه، وسائر جيشه. كان لهاتين الدولتين كيان سياسيّ دوليّ سابق، وجيوش لها تقاليدها خاضت حروباً دولية وتعوّد ضباطها وقادة جيوشها إطاعة نظام الحكم الراهن بها على علاته وكيفما كان. في حين نشأت دولة العراق من العدم ونشأت قواتها المسلحة من العدم، وافتقد كلاهما تلك التقاليد الموروثة، وبقدر ما افتقد العراق المجتمع الحضري المنظم حازت هاتان الدولتان أعلى قدرٍ منه.

لا أريد الإطالة والإسهاب في العموميّات وهو ما جنبت القارئ منه جهدي - وسأضرب هنا مثلاً واقعياً: فبكر صدقي الكرديّ الأصل كان قبل انقلابه وثيق الصلة

بساطع الحصري وسامي شوكت قطبي القوميين العروبيين يتلقى منهما النصح والإرشاد بوصفه وطنياً عروبياً تحقق على يده إنقاذ البلاد من أطماع ونوايا الآشوريين وحليفتهم بريطانيا.

وبكر صدقي إنما اعتمد على ضباط عربٍ في اغتيال جعفر العسكري، وأولى ثقته بضباط عربٍ ولم يولها لضباط كرد، حتى أنه أوكل إليهم أمر حمايته الشخصية. ووجه المفارقة هو أن زعيم كتلة الضباط العرب الذين ائتمروا على حياة بكر صدقي وهو (العقيد عبدالعزيز ياملكي) كان ضابطاً كردياً، يعاونه صلاح الدين الصبّاغ، أشهر دعاة القوميّة العربيّة في المؤسسة العسكرية العراقية. وقد بدا (الگيلاني) ذاهلاً حائراً كسير القلب بعد أن قلب بكر صدقي له ظهر المجن واعتزم الفتك به بعد إنجاح انقلابه:

«كنت ساعدتُ بكر صدقي منذ أن أبرز كفاءته المشهودة في حركات تأديب التياريين عام ١٩٣٣ وكان هو يخلص لي إخلاصاً مطلقاً ويتظاهر بالتفاني في محبته لي، حتى إنه كثيراً ما كان يفتح باب سيارتي لأنزل منها أو يمسك بمعطفي لألبسه. وكنت لا أردّ له رجاءً ولا يردّ لي أمراً. فلم يكن والحالة هذه ما يستلزم إساءة الظنّ فيه»[٣٧].

وكان لبكر صدقي كأي قائد كبير بطانته وشيعته من الضباط يتظاهرون بالانتساب إليه صدقاً أو كذباً و«يلتزمهم» هو بالمقابل، ليتمتعوا بنوع من الحصانة تضمن لهم الترقية أو التنسيب إلى وحدات ومراكز مريحة في الجيش، وتجعلهم في مأمن من العقوبات إلى حد ما. وتلك عادة أصبحت تقليداً في الجيش العراقي ومرضاً خطيراً لا أظنّه برؤ منه حتى هذه الساعة. فيقال مثلاً عن طريق الغمز أو الاضطغان: هذا النقيب مُلتزم من قبل اللواء أو العميد الفلاني. وفي أحيان كثيرة يخترع هؤلاء الضباط انتساباتهم اختراعاً ويتعمدون إشاعتها في دوائرهم سعياً وراء تلك الامتيازات وما أكثرها. وهم يعملون كل ما في وسعهم للتقرب من ذلك الآمر ذي الحول والطول وإظهار الوّد والإخلاص له بشتىّ الوسائل[٣٨].

---

(٣٧) من رسالة كتبها الگيلاني إثر الانقلاب لصاحب (الوزارات العراقية) وهو في منفاه. أنظر نصها في الكتاب الثالث.

(٣٨) أكدّ عبدالسلام عارف أنه بثّ لنفسه شائعة كونه من المحسوبين على رئيس أركان الجيش الفريق الركن رفيق عارف مستفيداً من اللقب المشابه. كما عُلم أن عبدالكريم قاسم كان مسؤولاً =

ما شككت قط في أن كثيراً من الضباط العراقيين كانوا يملكون ذلك القدر من الكرامة وعزّة النفس بحيث جعلتهم يترفعون عن أمثال هذه الأساليب، ويعتمدون فحسب على سموّ أخلاقهم وكفاءاتهم المسلكيّة، وقد عرفت من هؤلاء كثيرين. وتألمت لمصائر من جرفتهم الانقلابات بتيارها أو أصبحوا لها وقوداً وحطباً.

* * *

عندما لا يعود الكذب والاختلاق والتجنيّ على الحقائق مصدر عجب ودهشة فعلى المرء أن يدرّب نفسه على العجب والدهشة عندما يواجه بالصدق من الأنباء وبالحقائق من الأحداث.

وأنا ما ادعيتُ يوماً بأني المحق الصادق بين المختلفين والمتجنين على الوقائع. فما أفعله هو مجرد عرضٍ لأحداث التأريخ العراقي الحديث بوجهٍ غير مألوف وباستناد إلى الوثائق والوقائع المرفوضة أو المستورة عمداً. وقصارى أملي فيه هو تحريض القارئ على التفكير والمقارنة والمضاهاة. وأنا أكتب بمعرفةٍ تامّة بأن ما أكتبه جديد وما أعزفه هو نغمة غير مألوفة ستثير حتماً نفرةً واستنكاراً وستزيد من خصومي وهم كثيرون والحمد لله. على إني لست مثل (ڤولتير) الذي طلب منه أصدقاؤه وهو على فراش موته أن يلعن الشيطان فأجاب: «ليس الوقت مناسباً لأكسب خصوماً جدداً». إذ سأبقى ألعن كلّ شيطانٍ، وأنفذ إلى أغوار أفعاله ما وسعني ذلك وأفضحها وأنا هنا أتصدّى - إن شعر القارئ - لمسألة خطيرة بمثابة رأي عامٍ تمّ الإجماع عليه، تمهيداً لإنزاله منازل المسلمّات في التأريخ.

الرّأي العام في ظرفٍ زماني ومكاني معيّن قد لا يكون معبّراً تعبيراً حقيقياً عن شعور مجتمع ما. ومع هذا فهو ضروريّ وثمين وفي الوقت الذي نجده يعوّق التطور الاجتماعي يكون عاملاً في المحافظة على حضارة.

وتثقيف الرأي العام هو الأسلوب السليم الحقيقي الوحيد للتقدم الحضاري، والقوة المجردة هي ذريعة مؤقتة. وبتسارع النموّ الثقافي، لا بازدياد عدد الأوراق التي

= وراضياً بإشاعة كونه من مقربي نوري السعيد، وإن هذا السياسيّ كان يلقبّه تحبباً بـ(كرّومي!). وما من شك في أن (ناجي طالب) المرفّه جداً عسكرياً كان مُحصناً بالتزام البلاط له متفيئاً بظله منذ أن كان واحداً من مرافقي الملك. وهكذا تسلسل المحسوبيات والملتزمات لتصير تقليداً يساعد في كثير من الأحيان على إخفاء النوايا وستر التآمر.

تلقى في صناديق الاقتراع، هي السبيل التي لم يجد المجتمع البشري أفضل منها للتعبير عن الرّأي العام.

هذا هو درس افتقدته في كلّ ما قرأتُ من الآثار القلميّة التي خلفها الكتاب القوميّون العروبيون. فهم لم يشجعوا قطّ عملية إحلال صناديق الاقتراع محلّ صناديق العتاد. بل حتى أولئك المدعون بالديمقراطية والمطالبين بإحلال الإرادة الشعبية محلّ إرادة الفرد الدكتاتور. أولئك الذين أطلقنا عليهم اسم الدستوريين نجد الصفوة المثقفة منهم بأعلى الثقافة يسايرون ذلك الرأي العام الذي أوحي به من فوق لمجتمع متأخر في أدنى درجة من الثقافة بدل أن يحاولوا أن يكونوا هم قادته وموجهيه.

إن انسياق محمد حديد وعبدالفتاح إبراهيم وعبدالقادر إسماعيل وزملائهم وراء هذا الرّأي العام يحزنني قدر ما يؤلمني الإصرار عليه وبعد مرور أكثر من خمسة وخمسين عاماً. وقد عرفتهم معرفة وثيقة وكانت لي معهم صحبة.

في ٢٣ من شهر آب ١٩٣٣ عاد السفير البريطاني (فرانسيس همفريز) إلى بغداد من لندن. وفي حقيبته تأكيد من الحكومة البريطانية للحكومة العراقية، بأنها لا تنوي التدخل بأيّ شكلٍ كان لصالح الآشوريين «فهدأ روع الگيلاني» على حدّ قول ستيفن لونگريك[٣٩].

---

(٣٩) س. هـ. لونگريك S. H. Longrig: (العراق بين ١٩٠٠ و١٩٥٠ تأريخ سياسي واجتماعي واقتصادي Iraq: 1900-1950, A Political, Social and Economic History).



الفصل السادس عشر

العراق مصدر الإشعاع القومي. الاتجاه نحو ألمانيا الهتلرية والاشتراكية القومية (النازية). طريق اللاعودة بالمفاهيم الفاشية. الدعاية النازية عبر الأثير وفي ميدان الصحافة. بنية الجيش الألماني تثير إعجاب الطبقة العسكرية في العراق. الزائرون تبهرهم في ألمانيا المظاهر وعلائم الانتعاش الاقتصادي الواضحة. ألمانيا النازية معروضة للعالم دون قيود. من أوائل الزوار الدكتور (سامي شوكت). ابتداعه نظام الفتوة. (أنطون سعادة) والحزب القومي السوري. (أحمد حسين) وذوو القمصان الخضر في مصر. رعاية الإنكليز للاتجاهات المتشددة في البلاد الناطقة بالعربية وتشجيعهم الصلات مع ألمانيا وإيطاليا الفاشيتين لوقف انتشار المفاهيم الاشتراكية والشيوعية. تطعيم الاتجاه الجديد في الدراسة بمعلمين قوميين من لبنان وسورية وفلسطين. الأستاذ ساطع الحصري، الرابطة بينه وبين الملك. إطلاق الحرية للتوجيه القومي العربي في سياسة التعليم. فشل محاولة فك ارتباط القومية بالدين. نادي المثنى وأعضاؤه. الشيوعية في مواجهة الغزو النازي. بقاء الأفكار النازية في تعاليم واتجاهات القومية العربية بعد هزيمة ألمانيا والقضاء على الحزب النازي. التمرد اليزيدي. قضية عبدالله فائق المحامي وزميله. نظام الفتوة وعسكرة التعليم. أصل نظام الفتوة. الشحنة الأمنية في عصر السلاجقة (القرن الثاني عشر الميلادي). مناورة الخليفة الناصر لدين الله. مفارقات في تطبيق النظام. الطابع الهزلي. فضائح. طموح (سامي شوكت). إلغاء النظام بعد القضاء على حركة مايس.

لم يكن ترويج لقب (بروسيا العرب) للعراق وليد خيال مجرّد ومن قبيل الأوصاف والتشبيهات ذات الإيقاع الجميل التي يتعمدها الكتاب العرب لإحداث أكبر ما يمكن من الأثر، بل كان له وجهٌ من الواقع. فالعراق كان أول دولة منتدبة نالت استقلالها ولها أكبر جيش تعتزّ به، بعد الانتصار الذي حققه في الشمال والجنوب. وفيها تتابعت

حكومات تدعي صدقاً أو كذباً باتجاهها القوميّ وبروح الأخوة العربيّة، لمعظم رؤسائها ووزرائها وأصحاب المناصب الكبرى فيها خلفية قوميّة. وإلى العراق كان يلجأ الكتاب والساسة القوميون الملاحقون في البلاد الناطقة بالعربية بسبب نشاطهم العربي. فالعراق والحالة هذه هي الصخرة التي ستبنى عليها الوحدة العربية مثلما بنيت الوحدة الألمانية على صخرة پروسيا[1].

لم يكن باليسير مقاومة الإغراء، ولا تجاهل المعجزة القومية الكبرى التي يحقّقها نائب العريف الألماني في بلاد فاقت ما يحيط بها من البلاد تقدماً، وقطعت أشواطاً في مضمار الحضارة. ونهضت من أعظم كبوةٍ ادّخرها التأريخ لشعبٍ، وراحت تنفض عنها غبار الهزيمة الكبرى وتكسر القيود التي فرضها الحلفاء في ١٩١٩، واحداً إثر الآخر من دون عناءٍ أو مقاومة تذكر من آسريها وبسرعة خاطفة.

وبقي الضباط العراقيون الكبار يذكرون بإعجاب وحنين مدربيهم الألمان والقادة الذين استخدمهم الجيش التركي قبل الحرب وفي أثنائها. وكان عدد منهم قد خدم بإمرة الفيلدمارشال فون درگولتسه في العراق أثناء الحرب. ومنهم من كان عضواً في البعثات العسكرية إلى ألمانيا، ولم يفلح الأسلوب العسكري البريطاني الذي طبّقه البريطانيون ولا بعثاتهم العسكرية في طمس تلك الذكريات والإعجاب.

والناس البسطاء الذين يتجمعون في المقاهي لينصتوا بخشوع ورهبة إلى صوت مذيع (حيّ العرب) القادم من آلاف الأميال عبر الهواء، بوساطة هذا الصندوق السحريّ الذي أطلقوا عليه اسم (الراديون) على وزن الگرامافون (الحاكي). ظل ذات الصوت الراعد يصبّ حمماً على الاستعمار البريطاني وأذنابه، غير متحرج قطّ من تطريزها

---

(١) دولة عسكريّة. حكمت ألمانيا حتى قيام النازية. كانت واحدة من عشرات الدويلات الألمانية ضمن (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) في العام ١٦١٨ حكمتها أسرة هوهنزلن. وفي ١٧٠١ أعلن ملكها فردريك الأوّل نفسه ملكاً عليها. وقد تعاظمت قوتها الحربيّة خلال حكم خلفائه وأظهرهم (فردريك الأكبر) الذي جعلها أعظم قوة عسكرية في شمال أوروپا. أصيبت پروسيا أثناء حروب نابليون بنكسات، إلاّ أنها ساهمت في سقوطه. وفي العام ١٨٦٢ نصب (أوتو فون بسمارك) مستشاراً أي رئيس وزراء، وتمكن هذا بإرشاد ملكها ڤلهلم الأوّل، وبنتيجة سلسلة من الحروب والدبلوماسية البارعة، من إقامة الوحدة الألمانية في ١٨٧١ وإعلان ملكها ڤلهلم إمبراطوراً على ألمانيا، عقب انتصار ساحق على فرنسا. وبقيت پروسيا تهيمن على مصائر ألمانيا حتى أعلن هتلر في العام ١٩٣٤ بمرسومٍ الوحدة السياسية الألمانية وإلغاء الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به دويلات الاتحاد.

بأجمل الشتائم ونعوت الهجاء المحببة إلى قلوب الجمهور وبتعابير سوقية دارجة وكل ما يعافه الذوق السليم طوال عشر سنوات متوالية إلى أن أسكتته المدافع السوفياتية وإلى الأبد وهي تدك برلين.

وأولئك القوميون المثقفون الذين كانت أعينهم في موضعها الصحيح، خلافاً لغيرهم أولئك النزر اليسير من الذين خلقت عيونهم خلف قحوف رؤوسهم، ماكان بوسعهم إلاّ أن ينظروا بإعجابٍ إلى ما حققه النظام النازي، وأن يرقبوا باهتمام بلغ حدّ الهيام المشوب بالحسد والغبطة التحولات الاجتماعية والخط التنظيمي الرائع في توجيه الجماهير، الذي يسلكه هذا النظام بتعبئة عسكرية الطابع، لا يغيب عن أذهانهم لحظة واحدة صور المسيرات والاجتماعات الجماهيرية الهائلة التي ينظمها ويقودها (الشباب الهتلري) و(فرق الصاعقة S.A) ذراع (الحزب القومي الاشتراكي لعمال ألمانيا) الذي وثب إلى الحكم في العام ١٩٣٣[٢].

---

(٢) أرى أن أزوّد القارئ بمعلومات مركزة حول هذا الحزب الذي زجت مفاهيمه وإرادة زعمائه العالم بأسره في أتون الحرب العالمية الثانية، بكل الأهوال والمصائب التي جرتها على الجنس البشري. الاسم (نازي Nazi) أو (نازية Nazism) مشتق من الأحرف الأولى لاسم الحزب الطويل: (الحزب القومي الاشتراكي لعمال ألمانيا National Sozialistche Deuteche Arbeitee Partei) خرج هذا الحزب من بين أنقاض الفوضى الاجتماعية والاقتصادية التي عمت ألمانيا بعد هزيمتها في العام ١٩١٨، وبرز قوةً سياسية يعتد بها خلال الأزمة الاقتصادية التي أخذت بخناق العالم العام ١٩٢٩. وبلغ عدد أعضائه المنتسبين إليه في العام ١٩٣٢ ما زاد عن ٩٢٠ ألف عضو. وباستخدام زعيمه أدولف هتلر مقدرته الخطابية العجيبة ودعاية الحزب التي بلغت حد الإتقان، وضع الحزب برنامجه السياسيّ الجذاب المحبب لأوسع مشاعر الطبقات المتضررة والجماهير. والفكرة التي استند إليها البرنامج هي القوميّة الألمانية المتفوقة والتميز العنصري ومحاربة الساميّة، وإخضاع الفرد إخضاعاً كاملاً لمصلحة الدولة (سلطوية الدولة المطلقة على حياة الفرد). وقد ضمّن هتلر مبادئ حزبه في كتابه (كفاحي Mein Kamph)، الذي ألفه في العام ١٩٢٣ مؤكداً فيه أن النهضة الألمانية لا تتّم إلاّ بإعادة تسليحها وبناء جيشها. وبوجوب التوسع الأقليمي، وهو لا يتم إلاّ بتوفير المجال الحيوي Lebenzroum للعنصر المتفوق السيّد الألماني، واستعادة الكرامة والعزّة القوميّة بإخضاع الأمة إلى نظام موحد عسكريّ تحت شعار «رايخ واحد - أمّة واحدة - زعيم واحد Ein Reich, Ein Volk, Ein Fuhrer».

ودعت أولى مواد البرنامج النازي إلى وحدة كلّ الألمان في ما دعاه (ألمانيا الكبرى)، وأطلقت واحدة من مواده دعوى معاداة الشعوب الساميّة بوصفها شعوباً منحطة، وركزت على المجتمع اليهودي في ألمانيا، واعتبرته أساس النكبات التي حلّت بالأمة الألمانية. فنصت على تجريدهم =

= من حقوق المواطنة في ألمانيا واستبعادهم من الوظائف العامة. ومنعهم من العمل في الصحافة. وطرد كلّ من اتخذ ألمانيا موطناً له بعد الثاني من آب ١٩١٤. ودعت المادة الثالثة عشرة من البرنامج إلى مساهمة الدولة في أرباح المشاريع الصناعية الكبرى وسيطرتها على الإنتاج. وقضت المادة الرابعة عشرة بإلغاء بدلات إيجار الأراضي وتحريم المضاربة بها بيعاً وشراء، وفرضت المادة الثامنة عشرة عقوبة الموت على الخونة والمرابين والمتلاعبين بالأسعار. ودعت المادة السادسة عشرة إلى بناء طبقة وسطى في المجتمع قويّة (لم يكن وجود اسم العمّال في عنوان الحزب إلاّ مخادعة). وشددت على ضرورة تأميم المخازن الكبرى وتأجيرها لصغار التجار ببدلات إيجار منخفضة. وأوجبت المادة العشرون وتاليتها العمل على إلغاء معاهدتي ڤرساي وسان جرمان. وأوصت المادة الخامسة والعشرون بخلق جهاز حكم مركزي للدولة. وأعلنت المادة الثانية والعشرون الحرب على الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين إلى النفس الأخير، واعتبرت الاتحاد السوفياتي العدو الأكبر لألمانيا. وقد أدرك هتلر وزعماء الحزب أن الخطب الحماسيّة والبرنامج البرّاق لا يكفيان وحدهما لاجتذاب الجماهير والحصول على التأييد الشعبي بأفكار قليلة بسيطة يمكن غرسها أينما تريد، بل هي في حاجة إلى رموز ظاهرة، تجمعهم حولها، وكذلك إلى أعمال عنف وإرهاب بحق الأعداء الذين يعملون لغير مصلحة العموم، تزيد من تعلق الأتباع بالحزب وتربطهم إليه بعامل المشاركة في الجريمة في حالة نجاحها، وتمنحهم شعوراً بالتفوق والرضى في ممارسة سلطانهم على الضعفاء الخائري العزم. لذلك قام هتلر نفسه الذي مارس فن الرسم فترةً من الزمن بتصميم شكل العلم والشعار والرمز. وصار العلم الذي اخترعه (وهو أرضية حمراء تتوسطها دائرة بيضاء رُسم داخلها صليب معقوف الحواف Hakenkreuz) الزخرف الموغل في القدم قدم الإنسان في هذا الكوكب. فقد وجد منقوشاً في خرائب طروادة (٩٠٠ق.م) وفي مصر الفرعونية والصين عند البوذيين والهنود الحمر في أمريكا). ووصف هتلر اختراعه الفريد في كتابه كفاحي بقوله: «إنه لرمز مؤثّر حقاً. ففي الأحمر نجد فكرة الاشتراكية بحركتنا. وفي الأبيض تتجلى الفكرة القومية وفي الصليب المعقوف تبدو رسالة الكفاح لسيادة الرجل الآري والانقياد له». إنه عين العلم الذي يرفعه اليوم أولئك الشباب الحليقو الرؤوس في ألمانيا، أثناء مسيراتهم وأعمال العنف التي يرتكبونها بحق الأجانب من العمال الوافدين من الشرق. ونظم زمراً من المحاربين القدماء الغلاظ في فصائل اتخذ لها فيما بعد اسم (فرق العاصفة Stormabteeilung) الذي عرف بالحرفين الأولين من اسم عضو الفرقة (إس. إس Slosna Slodat) وجعل لهؤلاء بزّة رسمية بنيّة اللون، على غرار صنوهم الفاشيست في إيطاليا. واخترع لهم نوعاً جديداً للتحية بدلاً من المصافحة يتم برفع الذراع اليمين إلى الأعلى مبسوطة الكفّ، باتت فيما بعد التحية النازية الرسميّة. فكانوا الذراع الباطشة والجلاد المنفذ.

وفي آذار من العام ١٩٣٣ أنيط تأليف الحكومة بالحزب النازي رغم افتقاره إلى الأكثرية المطلقة وبمساعدة السياسيين والصناعيين، الذين كانوا يأملون بثقة في مقدرتهم على توجيه هتلر لأغراضهم واستخدام قوته السياسية. فبقي مستشاراً للرايخ خلال العامين ١٩٣٣ و١٩٣٤ فقط ثم عكس عليهم الآية بإقامة الدكتاتورية النازية، بفضل الشرطة السريّة (الگستابو) وفرق الصاعقة =

أنعش برنامج هتلر في التوسع والصناعات الحربيّة بصورة مؤقتة وضع ألمانيا الاقتصادي. وقضى تقريباً على البطالة بالاستخدام الإضافي من العمال في التنظيمات العسكريّة، وفرق العمل التي يشرف عليها الحزب. وكان الواقع المرئي هو أن الزعيم (الفوهرر) بنظامه شبه العسكري، وبجرائمه التي لم يعرف التأريخ البشري لها مثيلاً، أطلق قوى ديناميكية ذات طاقة لا تحدّ - كانت كامنةً في الشعب الألماني مدة طويلة ووجهها إلى الغايات التي أوضحها في كتاب (كفاحي). والواقع هو أن الرعب الذي نشره الگستابو والخوف من معسكرات الاعتقال كان يجثم دائماً أبداً على النفوس وينتظر كل من يخرج عن الصفّ القوميّ وكلّ من كان شيوعياً أو اشتراكياً أو ليبرالياً مجاهراً (زائداً عن الحد المقرر) وعلى كل محبذ للسلام ومعادٍ للحرب وكل من كان يهودياً أو غجرياً (كاولياً) أو من الشعوب المنحطة.

في السنوات الأولى لم يصب الإرهاب النازي كثيراً من الألمان. وأولئك الذين يُغرون لزيارة ألمانيا في المبدأ، وللحج فيما بعد من الأقطار الناطقة بالعربية، ماكانوا يشعرون قطّ كغيرهم الوافدين من الأقطار الأخرى، بالضغط والخوف الذي تشيعه الدكتاتورية. ولأن عيونهم كانت في مكانها الصحيح الذي وجب أن تكون فيه فقد

= (S. A) ناشراً إرهاباً لا مثيل له على الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين والنقابات واليهود والكنيسة، بفتح معسكرات الاعتقال لاستقبالهم أو باغتيال زعمائهم، وبغرف الغاز وغيرها من أساليب القتل الجمعي فيما بعد. في ٣٠ من حزيران ١٩٣٤ أنجز المذبحة العظمى داخل حزبه، وبها صفى أهم خصومه ومنافسيه من العسكريين والمدنيين وفيهم منافسه الأكبر (الكابتن روهم) رئيس فرق الصاعقة، والجنرال (فون شلايخر) مستشار ألمانيا السابق، والجنرال (فون بربدون)، و(گريگور شتراسر) الأيديولوجي النازي، و(رايخ كلاوسفيز) رئيس منظمة العمل الكاثوليكي. إلى جانب مائة وخمسين قائداً وضابطاً من حرس الصاعقة وضعوا صفاً واحداً أمام جدار المدرسة الحربيّة في (ليتهرفلده) وحصدوا برشاشات فصائل الإعدام (الحرس الأسود). وقد بلغ عدد قتلاه بحسب الكتاب الأبيض الذي أصدره المهاجرون بذكر الأسماء ٤٠١. لم ينج من القتل حتى الكاهن (برنهارت شتمگل) الذي ساعد هتلر في كتابه (كفاحي) ونظمه له وقوّم أسلوبه. عملية التطهير هذا أصبحت مثلاً وسنةً احتذتها فيما بعد سائر الأنظمة الدكتاتورية. واعتمدها (ستالين) بصورة خاصة في عمليات التطهير الدموية الكبرى خلال (١٩٣٥-١٩٣٩) التي شملت آلافاً مؤلفة من ضباط الجيش الأحمر (بينهم عدد من الماريشالات والجنرالات الكبار وزملاؤه أعضاء المكتب السياسي). وفي أواسط العام ١٩٣٧) فصل هتلر الحرس الأسود عن الـ(S. A) وجعل هملر قائداً له. ليصبح جيشاً قائماً بذاته مقابل الجيش النظامي ضماناً لولائه وخضوع قادته.

بهرتهم رؤية ما حققه النظام من انتعاش وحيوية في النفوس. وجوه ضاحكة مفترة، أجسام متينة للشباب والأحداث لوحتها الشمس، القضاء التام على البطالة، اجتماعات عامة ورفاقية، حفلات رائعة شبه سياسيّة، الألعاب ودورة الألعاب الأولمپية في ستاديوم برلين الذي شيد خصيصاً للمناسبة ليكون أعظم ساحة ألعاب بنيت بالمناسبة - في العالم. وكان الزوار العرب الذين بدأ عددهم يتزايد بالتدريج يلاحظون تقاطر الأجانب إلى (الرايخ الثالث)[٣] والبعثات التي تنعم بضيافته.

كانت ألمانيا النازية مفتوحة ومعروضة للرؤية دون قيود، بخلاف الاتحاد السوڤياتي مثلاً. ومن هنا تأتي المقايسة. فوكالات السياحة المنبثقة فجأة أصابتها حمى انتعاش لا مثيل لها وكسبت للبلاد مبالغ طائلة من العملة الأجنبية فضلاً عن الدعاية الضرورية للنظام الجديد. وقد بدا وكأن زعماءه الجدد هؤلاء ليس لديهم ما يخفونه عن عيون الأغراب.

والأجنبي يستطيع دخول البلاد بالغ ما بلغت خصومته للنازية، وبإمكانه أن يرى ويتدارس كلّ ما يريد رؤيته والإطلاع عليه، طبعاً باستثناء المنشآت العسكرية ومعسكرات الاعتقال، التي لم يكن يعرف العالم عنها شيئاً فقد تمّ إخفاؤها بدقة.

كان الدكتور سامي شوكت مدير المعارف المسؤول الأول عن سياسة التعليم في العراق لمدة تزيد عن عشر سنوات من أوّل الزائرين العراقيين الذين بهرت أعينهم أساليب النازيين في تربية جيل من الشباب قوي صحيح الجسم مخلص لدولته القوميّة معتز بعرقه الألماني النقيّ. وجد سامي شوكت الشباب بهذه الوسيلة يتدربون على الحياة والعمل والموت في سبيل (الرايخ الثالث). ومع أن عقولهم كانت تسمم عمداً، ودراستهم تتقطع. فقد بدا له ولغيره من حجيج البلاد الناطقة بالعربيّة أن الفتيان كانوا سعداء ممتلئين رغبة في الاستمتاع بالحياة التي توفرها (شبيبة هتلر).

ولا شكّ في أن عملية جمعهم كما يقول المفكر القوميّ (ساطع الحصري) من كل

---

(٣) كلمة (رايخ Reich) الألمانية مفردةً تعني مملكة أو أمبراطورية. وفي مفهوم النازية أن الرايخ الأوّل هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي ازدهرت في القرون الوسطى. والرايخ الثاني هي ألمانيا التي وحّدها أوتو فون بسمارك في العام ١٨٧١ بعد الهزيمة التي ألحقتها پروسيا بفرنسا وكلاهما أضاف مجداً إلى الاسم الألماني. أما جمهورية (ڤايمر) الديمقراطية، التي قامت بعد الحرب العظمى وقضى عليها هتلر، فقد مرّغت ذلك الاسم الجميل في الوحل بحسب رأي الدعاية النازية، فجاء هتلر بـ(الرايخ الثالث) لانتشال ذلك الاسم.

الطبقات والمراكز الاجتماعية وأنماط الحياة ليسهم الجميع في واجبات واحدة وليعيشوا حياةً واحدة دون تفريق بين من عانى الفقر والخصاصة أو تمتع بالرفاء والغنى. بين من جاء من بيت عامل أو فلاح أو انحدر من أسرة تاجر كبير أو بيت أرستقراطي، ولتغرس في كل منهم شعوراً واضحاً بوجود الأمة والوطن وتعلمه التضحية بالدم والنفس في سبيل بلاده ووطنه.

كان إغراءً لا يقاوم. ولنكن منصفين ومعتذرين للقوميين العروبيين في كلّ من العراق وسورية، وللقوميين المصريين في مصر، فهؤلاء الذين زاروا إيطاليا الفاشية، وأولاء الذين تقاطروا إلى ألمانيا منهم ما أراهم أكثر ملاماً وانتقاداً من الألوف المؤلفة الذين زاروا ألمانيا وبينهم كثير من الليبراليين والديمقراطيين الأوروپيين، إن لم يعودوا وقد (اهتدوا) إلى الدين الجديد، فهم متسامحون على الأقل مع ألمانيا القوميّة وربما متحمسون بما وجدوه من «إنجازات إيجابية» على حدّ قولهم[٤].

وكان السياسيون والكتّاب القوميون العرب في هذا الوقت بالذات يكافحون في سبيل الاستقلال التام أو التخلص من التبعية والهيمنة الأجنبية، المتمثلة في يد بريطانيا وفرنسا الثقيلة. كما كان المصريون من جانبهم يكافحون (وطنياً) في سبيل إجلاء القوات البريطانية وإنهاء الاحتلال.

من سوء حظ هؤلاء أن قامت الدولتان الفاشيتان في تلك المرحلة الدقيقة. ومن سوء حظهم أن يكون زعماؤهم وقادة الفكر قليلي الإلمام بتأريخ الشعوب ووضعها الاجتماعي ودرجة تطورها الحضاري، ليتخذوا من ألمانيا وشعبها نموذجاً. وليحاولوا تطبيق ما يحدث فوق أديمها على بلادهم.

ما حصل جديرٌ بالإهتمام حقّاً. وقد وقع في زمن كاد يكون متقارباً. ففي لبنان وسورية ظهر الحزب القومي السوري بزعامة (أنطون سعادة) وفي مصر نبط حزب مصر الفتاة بزعامة (أحمد حسين) المعروف بحزب ذوي القمصان الخضر. وهما حركتان غير

(٤) لم يشذ عن هذا حتى بعض من عرف من الساسة الدوليين العظام بالنظر البعيد الثاقب. فلويد جورج الذي وجدناه يقود إنگلترا إلى النصر في الحرب العظمى ويدخل معركة الانتخابات بعد الحرب تحت شعار (أشنقوا القيصر)، عاد من زيارته لهتلر في (أوبرسالزبرغ) العام ١٩٣٦ مسروراً معجباً بـ(الفوهرر) ومدحه علناً ونعته بالرجل العظيم الذي لا يفتقر إلى النظر الثاقب والإرادة القومية لحلّ مشاكل الشعب الألماني الاجتماعية العصرية. «وهي دمّلة ظلت تقذف بقيحها في إنگلترا» بحسب تعبيره.

رسميتين. وفي العراق ابتدع الدكتور سامي شوكت بدعم من الحكومة القومية ومساندة القوميين وتشجيعهم ما عرف بالفتوة أو نظام الفتوة.

وكلّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة كان يفكر بشكل من وحدة عربيّة، أو وحدة الناطقين بلغة الضاد ولكلّ كان مفهومه الخاص.

كان الحزب القومي السوري في المبدأ يهدف إلى تحقيق وحدة سورية الكبرى، ثم أضاف إليها العراق فيما بعد باستثناء كردستان ثم ضمّ إليها جزيرة قبرص. وفكّر ذوو القمصان الخضر في أن تكون مصر على رأس اتحاد يتمّ بين الدول الناطقة العربية.

وسامي شوكت بفتوته كان يأمل بوحدة عربيّة يقوم العراق على رأسها. وكل هذه الحركات لم تكن تخفي إعجابها وتعلقها بالنظامين النازي والفاشيّ والنسخ على غرارهما تقليداً حتى في المظاهر.

إن متابعة المراسلات والتقارير التي كانت تصدر من السفارة البريطانية إلى الوايت هول حول الوضع الداخلي في العراق وهي كثيرة لا تنمّ عن شعور بالقلق أو عدم ارتياح ملحوظ حول التحوّل القومي العاطفي نحو النازية.

وربما كان هناك ما يشير إلى ضيقٍ يسير بنشاط المفوضيتين الألمانية والإيطالية في عالم الدعاية، وبضمنه حفلات الإستقبال لأعضاء نادي المثنى والشباب القومي المتحمس، ولقاءات عدة صديقة بين رجال حكم اشتهروا بمواقف معينة متصلبة مع البريطانيين، فضلاً عن ساسة عرفوا عند القوميين بموالاتهم لبريطانيا. ولم يكن البريطانيون يرون في ذلك خطراً على نفوذهم. فالخطر الرئيس عند الستراتيجيين البريطانيين في ذلك الوقت كان الاتحاد السوڤياتي والكومنترن وتنامي الحركة الشيوعيّة في العراق وهذا هو الذي تكفل لهم هتلر بصدّه.

من وجه آخر بدا من كان له أيّ صلة بالبريطانيين في نظر القوميين شخصاً ينبغي الحذر منه على الأقل، وباحتمالات معينة عميلاً وجاسوساً يجب عزله. في حين كان المختلف إلى السفارتين الألمانية والإيطالية والمشارك في أنشطتهما الدعائية قومياً أصيلاً مخلصاً لوطنه وعروبته.

وصدرت تراجم عربيّة لكتاب (كفاحي) ووجدت نسخٌ منها طريقها إلى أيدي الناشئة، عُزيت إحداها لـ(يونس السبعاوي) أحد قادة حركة مايس، وإن ظهرت دون اسم للمترجم. وادّعى (يونس بحري) بترجمة ثانية لـ(كفاحي). وعمد المترجمون إلى

تغطية وحذف ما كتبه هتلر عن الشعوب السامية ومنها العرب، طبعاً. وفي هذا يقول (السيد بحري) مدافعاً:

«إن أولئك الذين يزعمون بأن الزعيم الألماني هتلر قد وضع العرب في الدرجة السفلى من ترتيب القوميات هم مغرضون وعملاء وضدّ القوميّة العربيّة. في حين أن من يقرأ ترجمتي لذلك الكتاب وترجمة الشهيد يونس السبعاوي يجد أن العرب هم من أبناء الدرجة الأولى من الأقوام الساميّة التي وضعها هتلر في الدرجة الرابعة من تسلسل القوميات العالميّة: الآريون (ثم) الأغريق (ثم) اللاتين (ثم) العرب (ثم) السلاف»(٥).

---

(٥) يونس بحري: (أسرار ٢ مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية الإنكليزية، بغداد، ص٩٥). (أذكر أن الترجمة التي وقعت بيدي في العام ١٩٣٩ أو١٩٤٠ لم تكن تتجاوز الثلاثمائة صحيفة من القطع المتوسط. وقد وقعت بيدي بعد سنوات عديدة نسخة ألمانية في مكتبة مونيخ العامة (الطبعة الأولى) وهي في جزئين قد يبلغ عدد صفحاتها ٧٨٢. فما الذي حذفه المترجمون العرب وما الذي أبقى عليه منه، وماذا حوّروا فيه أو رمجوا أو أضافوا؟ ثم قرأت ترجمة إنگليزية دقيقة له. وقدرت بما لي من خبرة طويلة في الترجمة أن الترجمة الكاملة العربية له يجب أن لا تتم بأقّل من ألف صحيفة. والظاهر أن المترجمين العرب توخوا استخلاص ما وجدوه ملائماً ومناسباً. وأسقطوا ما قد يخلّف انطباعاً سيئاً ويولد استخفافاً بالمؤلف. ففي الأصل كثير من الأفكار المرتبكة التي تثير أكثر من الابتسام والهزء بقائلها. أنت تقرأ فيه آراء شخصية في كل موضوع يخطر بالبال من الحضارة إلى الثقافة، إلى المرسح والسينما، إلى الفن إلى الكاريكاتور، إلى الأدب والتأريخ والجنس والزواج والفجور والسفلس، (خصص هتلر لموضوع هذا المرض عشر صفحات كاملة).

كما تقرأ في الكتاب تخطيطاً لدولة ألمانيا المقبلة والوسائل التي يجب أن تستخدم لجعلها «سيدة العالم» بحسب تعبيره. وحدد كيفية التوسع الإقليمي وقال إنه يجب أن يتم على حساب روسيا ودول شرق أوروپا «إن الحركة القومية الاشتراكية يجب أن تكافح لإزالة عدم التكافؤ بين كثافة نفوسنا ومساحة أراضينا. وإن نحن تكلمنا عن أراضٍ في أوروپا الآن، فبإمكاننا أن نضع روسيا ودويلات الحدود نصب أعيننا أساساً. فهذه الإمبراطورية الجبارة في الشرق تمّ نضجها للانهيار ونهاية حكمها من قبل اليهود هو نهاية حكمها كدولة». وتحدث كثيراً عن الجنس الآري المتفوق ورسم صورة لكيفية صيرورته سيد العالم، بأن يطأ الأقدام الأخرى بأقدامه «فمن أجل إقامة حضارة أسمى» كان وجود أنواع منحطة من البشر أمراً لا بدّ منه - كتمهيد سابق! وأهم ما يلفت النظر في «كفاحي» هو محاولة صاحبه تعريف القوميّة بجهل مطبقٍ في التأريخ وعلم الأجناس. وإليك غاية ما توصل إليه بعد الجهد الجهيد ومحاولات عديدة «خلافاً للعالم البرجاسي والعالم الماركسي - اليهودي، تجد في الدولة لا أكثر من وسيلةٍ إلى غاية. وغايتها تتأوّل في حفظ الوجود العنصري، لذلك فهي لا تؤمن قط بالمساواة بين الأقوام، لكنها وبوجود =

واستخدمت في العراق كما في ألمانيا النازية موارد الدولة وسلطتها لنشر مبادئ القومية وبث الروح القوميّة العربيّة في المدارس والكليات والمعاهد العلميّة، ناهيك بالجيش. أولي اهتمام بتوجيه مناهج الدراسة إلى هذه الغاية. كما حرصت مديرية المعارف على استقدام واختيار المعلمين المتشربين بالفكرة، وممن يعتمد على مؤهلاتهم في نشر مبادئ القومية بين الطلاب بحماسةٍ ودأب.

وكان المسؤول الرسمي رائد العاملين على نشر تلك الروح الأستاذ ساطع الحصري، الذي أصرّ (فيصل) على تعيينه أوّل مدير عام لوزارة المعارف. كان الحصري موظفاً في وزارة (نظارة) المعارف العمومية العثمانية، ومن مواليد حلب. دُرّب ليكون معلماً. وتولى عدداً من المناصب التعليمية في زمن العثمانيين. وقد أسند إليه فيصل منصب وزير التعليم خلال فترة حكمه سورية. وأسرع باستقدامه إلى العراق من دمشق مع رستم حيدر وصفوت العوا.

لا يعلم أي رابطة روحية تلك التي ربطت هذا الرجل بفيصل. ومن يتابع سيرتهما بدقة سيجد حتماً كم هما يختلفان في المشارب والاتجاهات الفكرية. ليس هناك من سبب نجده إلاّ رغبة شخصية في إحاطة فيصل نفسه في العراق بمن يتوسم فيهم فائدة. والأستاذ محمد مهدي الجواهري، في الفصل الذي عقده للحصري في ذكرياته، لم يُنر لنا السبيل أيضاً لاستكناه تلك الرابطة، التي جعلت (فيصلاً) يلتزمه ويطلق له العنان في توجيه سياسة التعليم، متحدياً به في أحيانٍ كثيرة مستشاري الوزارة البريطانية الذين كانوا ينفرون منه بشكل عام - رغم معرفة الجواهري الوثيقة بالشخصيتين فقد كان قصاراه التأكيد بالشرح كلّ ما تواتر عن الحصري ومنقول عنه وملاحظ فيه. وأبرز المتواتر المؤكد هو أنه كان في أوّل توليه المنصب يجهل العربيّة ويستعين بمترجم تركي، وأنه بقي لا يتقن

= هذا الاختلاف تعترف بقيمتها العليا أو الدنيا وتشعر بواجبها في انتصار الأصلح والأقوى، وتتطلب خضوع الأضعف والأحط بالنظر إلى الإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون إنها لا تستطيع أن تمنح حق الوجود حتى لفكرة خلقية إن مثلت كخطر على الحياة القوميّة لحملة الأخلاق العليا. ففي عالم مولد نغل يشوبه العنصر الزنجي تشوه إلى أبد الآبدين كل مفاهيم الإنسانية في الجمال والجلال، فضلاً عن كل الأفكار الخاصة بمستقبل جنسنا البشري الرفيع. ونحن نشعر جميعاً بأن البشرية ستواجه في المستقبل البعيد مشاكل لا يقوى على حلّها إلاّ أرفع عنصر بشري هو (الجنس السيد) مدعماً بوسائل وإمكانات الكرة الأرضية بأسرها». (كان يُنظر إلى كل ما جاء في (كفاحي) نظرة استخفاف ويعد تخريفاً وهذراً لا طائل تحته، حتى بدأ هتلر يطبق برنامج حزبه رسمياً بوحي من أفكاره تلك).

اللغة ويتكلمها برطانة تركية حتى بلوغه سنّ الكهولة. وهو أمرٌ من الغرابة بمكان من مؤلفٍ لا تجد له بغير هذه اللغة كتباً. ويثير الجواهري أيضاً، كما أثار (كليفلاند) كاتب سيرته أيضاً، مسألة صدق ادعائه بانحداره من أسرة عربية وهي مسألة ثارت شكوك حولها دون داعٍ. ففي رأينا أن القوميّة والانتماء القومي هما مسألة شعورٍ. فإن قال الرجل إنه عربي فهو عربي، كمن ينطق بالشهادة عن إيمانٍ ليغدو مسلماً. وقد رأينا من الكرد من هو أشدّ من العربي عروبةً، ولطالما نعتنا أولئك المتحمسين للنازية بأنهم هتلريون أكثر من هتلر. ولا سبيل لنا إلا اعتباره أول مفكري القوميّة العربيّة أقرت آراؤه وانتشرت في كل أنحاء الدول الناطقة بالعربية، ببروز شخصيته في بغداد في العشرينات والثلاثينات واحتلاله أكبر منصب تربوي في البلاد مما زاد في تعاليمه ثقلاً ومكانة.

بعد حركة رشيد عالي الگيلاني بُدئ بتطهير وزارة المعارف، التي اعتبرت مركز نشر الآراء القوميّة المتطرفة المشايعة والمعادية للبريطانيين.

ترك الحصري منصبه التعليمي - إلى منصب فنيّ آخر - لتلميذه الدكتور سامي شوكت الذي زاد على آرائه تطبيقاً عملياً باستحداثه نظام الفتوة شبه العسكري وبإيغاله في الاستمداد من المعين النازي ونظرية التفوق العنصري(٦).

أدرك الحصري بنظرته النافذة، وبعين الحاسّة التي نجدها عند صاحب كفاحي، التأثير الديني في عرقلة المسيرة نحو القوميّة وكم وقف الدين عقبة في سبيل الوحدة الألمانية. فاهتم كثيراً بتفنيد وادّراء هجمات علماء الدين، الذين اعتبروا الإسلام فوق القوميّة ووضعوه في المقام الأسمى، ورأى أن في تأكيد الهوية القوميّة للمسلمين فحسب خطراً على التماسك الإسلامي بحدّ ذاته، وأن الوحدة العربيّة يجب أن تسبق الوحدة الإسلامية التي سوف لا يتعذر بلوغها. إذن فمعاداة الوحدة العربيّة سيكون في الواقع عقبة أمام وحدة المُسلمين.

---

(٦) ترك الحصري مديرية المعارف إثر الضجة التي أقامتها عليه الشيّعة. وعين مديراً عاماً للآثار القديمة. وبنتيجة عملية التطهير الواسعة التي اضطلعت بها الحكومة العراقية بعد حركة رشيد عالي في مايس ١٩٤١، جُرد من جنسيته العراقية وطرد من البلاد، إلاّ أن نفوذه الفكري بقي يسود الحركة القوميّة. وفي سورية تولى منصباً تعليمياً، ثم أسند إليه إثر تأسيس الجامعة العربيّة رئاسة المكتب الثقافي، ففسح له المجال لنشر عدد كبير من الكتب ضمّنها آراءه القوميّة، وقيل إن لها الفضل الكبير في هداية جمال عبدالناصر إلى فكرة الوحدة العربيّة وجعلها القطب الأيديولوجي لنظامه حتى وفاته.

وأنكر الحصري أن يكون الإسلام أو أي دين قادراً على إقامة وتأمين كيان سياسيّ. وهو بذلك ينحو منحى مفكري الألمان القوميين ويرجّع صداهم ليس غير. مؤكداً كما أكّد هتلر بأن الفرد لا يجد تحقيقاً كاملاً لشخصيته إلا في دمج نفسه بقوميّته، وبتسليمه مقدراته ومحض الولاء الكامل للدولة. نقل (الكاتب) للحصري قوله في محاضرة ألقاها على أعضاء نادي المثنى:

«من يرفض أن يفنى في قوميته التي ينتمي إليها قد يجد نفسه في بعض الأحيان فانياً في قومية أخرى قد تتغلب يوماً ما على بلاده، لذلك أقول دائماً وبدون تردد: الوطنية والقوميّة هما فوق كل شيء بل حتى فوق الحرية وقبل الحريّة».

وكان نادي المثنى هذا أوّل محاولة للتجمع التنظيمي القومي في العراق. واسمه مقتبسٌ من القائد الشجاع البارع (المثنى بن الحارث الشيباني) أحد أبطال فتوح العراق العربي في ٦٣٥م. كان القائد العربي الوحيد الذي قُتل أثناء المعركة.

وبرنامج النادي المسطر ينصّ على بثّ الروح القومية العربيّة والمحافظة على التقاليد العربيّة وتقوية الشعور بالرجولة العربيّة عند الشباب والعمل على بناء حضارة عربيّة جديدة بنتيجة تغذية التراث العربي وتوحيده بما هو ذو قيمة من الحضارة الغربيّة[٧].

بقي هذا النادي محدود النفوذ والشهرة زمناً، ثم مالبثت أن ارتفعت شهرته وصلب عوده، عندما وثّق روابطه بعدد من ضباط الجيش ومعظمهم من الموصليين وأبرزهم العقيد صلاح الدين الصبّاغ.

كان تيار النازيّة يجري في عروق الدعوة القوميّة دون أن يعترضه عائق، بإغضاء البريطانيين ورضاهم وأملهم في أن يكون هذا الوليد، الذي خرج من رحمهم ومن بنات أفكارهم، قادراً على الوقوف في وجه الأفكار الشيوعية، وقد لقيت اهتماماً ملحوظاً في أوساط العمّال وطلاب المعاهد الدراسية العالية بفضل نشاط الحزب الشيوعي الذي

(٧) في العام ١٩٣٦ كان الدكتور صائب شوكت (شقيق ناجي شوكت) رئيساً للنادي ومن أعضائه البارزين الشقيق الآخر الدكتور سامي شوكت، وصديق شنشل المحامي والدكتور عبدالمجيد القصّاب وفائق السامرائي المحامي والسيد محمد مهدي كبّه والدكتور فريد زين الدين، والأستاذ عبدالرحمن البزاز، وقد بلغ قمة نفوذه خلال الأعوام ١٩٣٨-١٩٤١. فطورد بعدها وشتت شمل أعضائه، إلاّ أن نواة له أخرجت الحزب القومي الذي عرف بحزب الاستقلال في ١٩٤٦.

تأسس في العام ١٩٣٤. وبعد أن تكاثرت الدلائل على أن أعضاء ومؤازرين له كانوا وراء الإضرابات العمالية والاجتماعات الجماهيرية، مما أقلق البريطانيين إلى حَدّ كبير. وبخاصة تلك البيانات والنشرات التي كانت الجماعات الماركسية والحزب الشيوعي في بغداد يوزّعها، وكلها تنديد بالاستعمار البريطاني. فلأوّل مرة بدأت كلمة «الإمپريالية»[٨]

---

(٨) استخدمت هذه الكلمة في إنكلترا بحدود أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر - كإدانةٍ لما بدا تحكماً وسوء استخدام للسلطة البريطانية في المستعمرات خارج أوروبا. ومع ذلك فقد وجده بناة الإمبراطورية البريطانية مصطلحاً جيداً يصح إطلاقه على أنفسهم فروجوا لاستعماله، وكانوا راغبين جداً في أن تنسب إليهم هذه الصفة (أي الإمبريالية - Imperialists). لكن ما إن جاءت نهاية القرن التاسع عشر، حتى ساد للاسم معنى معاكس جديد. عندما صار المقصود منه استخدام سلطة الدولة البريطانية في ما وراء البحار استخداماً شاذاً وتسخيرها لخدمة المصالح الاقتصادية للوطن الأم. ما هي تلك المصالح الاقتصادية؟ وكيف يعمل الإمبرياليون من أجل تحقيقها وجني فوائدها؟ كان هذا هو الميدان الذي جالت فيه الأقلام وصالت، وكان موضوع مناقشات كثيرة في مفتتح القرن العشرين، لاسيما عند طبقة الكتاب الاجتماعيين والاقتصاديين الذين شايعوا نظريات كارل ماركس وبشروا بها، وأشهرهم بلا جدال (لينين) وكتابه (الإمپريالية أعلى مراحل الرأسمالية) الذي ألفه في العام ١٩١٦، صوّر فيه احتكار الرأسمالية المالي الذي سيقع سائر أقطار العالم فريسته الحتمية. وبعد هذا التعريف الذي اشتهر بالتعريف اللينيني للإمپريالية سار الكتاب الماركسيون على نهجه في استخدام تعبير الإمپريالية لوصف العلاقات بين ما اعتبروه الغرب الرأسمالي وبين بقية العالم. وفي أحوال غير هذه ندر التعبير أن استخدم بشكل علمي دقيق، إذ خرج عن المعنى التكني المرصد له ليغدو من أوصاف التشنيع والتشهير والقذف بكل ما يفترض في السيطرة والتحكم من أي جهة سياسية أجنبية مكروهة عند مستخدمه. لكن وفي أوائل الخمسينات من هذا القرن لم يتردد القوميّون العرب من استعادته واستخدامه في أوسع نطاق ممكن للتعبير عن نفوذهم ومحاربتهم النفوذ البريطاني. وقد بقي يطرز أدبياتهم حتى أفلت شمس القوميّة العربيّة. وقد بدا في أوائل السبعينات من القرن الماضي وكأن هناك ميلاً إلى إسقاط المؤرخين والكتاب هذا التعبير، فأهملوا استخدامه في الغرب لكنّ أنفاسه ظلت تتردد في أجواء الماركسية. ففي عرف أولاء أن الكلمة وإن لم يعد لها موضع لصيرورتها تعبيراً مبتذلاً غير دقيق - إلا أنها ذات مفهوم تأريخي ثمين رغم عدم دقتها. إذ آلت المحاولات لإيجاد بديل أدق إلى الفشل. واتخذت كلمة الإمپريالية مفاهيم وأزياء شتى بحسب أذواق الكتاب واتجاهاتهم، إلاّ أن أشيع التعاريف وأكثرها استعمالاً في الوقت الحاضر على ما يبدو هو «ممارسة مجتمع ما سلطة على مجتمع آخر». وبهذا التعريف المتواضع تكون الإمپريالية ظاهرة اجتماعية من الظواهر التي تلازم كل عصر من العصور التأريخية للمجتمعات البشرية المنظمة، على أن هناك اتفاقاً ذا نطاق واسع بأن الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان العصر الكلاسيّ للإمپريالية. فهذه الفترة كانت فعلاً فترة نمو القوة الأوروبية نمواً مدهشاً بعامل الفتح العسكري وخلق إمبراطوريات جديدة، ولم تشذ الولايات المتحدة عن هذا. فقد كان لها =

تظهر إلى جانب كلمة «الاستعمار» أو وحدها في الأدبيات الشيوعية لتأخذ طابع الشتيمة ويكل ما في معناها من استفزاز للنفوذ البريطاني. واختير تعبير «عملاء الإمبريالية»

= إمبراطوريتها أيضاً. مع هذا فلو وضعنا في حسابنا الشعوب التي تمّ إخضاعها والمساحات الشاسعة من الأراضي التي استولى عليها، فأن تراث الإمبرياليات السابقة الأخرى كفترة استعمار الأمريكيتين في القرن السادس عشر، وفترة استعمار الهند في القرن التاسع عشر، كانت فترات مذهلة لا يمكن أن تقاس بها الإمبريالية العربيّة. فالأولى لا تقاس كالثانية بمسطرة الفتوح العسكرية: (للتوسع في هذا الموضوع ينصح بالرجوع إلى كتاب ريتشارد كولمر وأج. دي. شمدت Richard Kolmer, H. D. Schmidt الموسوم: الإمبريالية: تأريخ ودلالات العالم السياسي Imperialism: The Story and Significance of a Political World ط. كمبردج في ١٩٦٥).

ذكر الحسني: المرجع السالف ج٤ ص٢٩) ما أورده هنا نصاً: "إنتشرت الأفكار الشيوعية بين الأهلين في بغداد انتشاراً كبيراً في أيام هذه الوزارة (وزارة المدفعي) واشتبهت الشرطة بعدد من الكتاب والمحامين ببثهم هذه السموم في العراق. فقبضت عليهم في يوم ٤ تشرين الأوّل ١٩٣٤ وساقتهم إلى الناصرية لإجراء محاكمتهم فيها. ولبثوا في السجن مُدّةً ظهرت براءة البعض منهم وحكم على البعض بعقوبات منوعة» آه.
كان (فهد) على ما أعتقد وتساعفني الذاكرة واحداً ممن حكم عليهم (أنظر ما سبق). والذي يدهشني حقاً أن كتاب (حنا بطاطو) وهو أهم وأكبر مرجع لتأريخ الحركة الماركسية والشيوعية في العراق، المتتبع لحياة ونشاط كلّ من برز فيها، يخلو من أي تنويه وإن كان عابراً بهذا الحديث المركزي. وبقدر ما يمكنني التعليق على هذا النص فأنا أذكر أوائل العام ١٩٣٥ وفي الناصرية وكنتُ قد رافقت طالباً من طلاب المتوسطة وهو في طريقه إلى دار الحكومة (السراي)، الذي لا يبعد أكثر من مائة متر عن مدرستنا. كان يحمل رزمة فيها ثياب ومتاع لرجل معتقل قال إن اسمه (عبدالحميد الخطيب) وهو شيوعي مشهور تربطه صداقة بقريبه صاحب الهديّة. وأذكر أني مُنعت من دخول السراي ووقفت أمام المدخل أشاهد زميلي يسلّم الرزمة لرجل مرسل اللحية كان جالساً على كرسي أمام حديقة السراي التي تتوسطها. وبعد سنة وبعض سنة تذكرت الرجل والإسم عندما وقعت بيدي كراريس ثلاثة أو أربعة لكتاب مسلسل عنوانه (روسيا الدامية) وعلى جلدته صورة قلميّة لدبّ (الشعار الروسي) يحمل اسم عبدالحميد الخطيب مؤلفه، وهو بجملته وصف لمعاناة الروس في ظلّ الحكم الاشتراكي. كنتُ آنذاك أقرأ كلّ ما يقع بيدي وقد تتبعتُ الكراريس كُلّها. وأقرّ بأنّ ما قرأته في هذا المسلسل كان له تأثيره الباقي. وقد ظهر فيما بعد أن ما ورد في الكتاب عن المجاعة الكبرى التي أهلكت ملايين وتصفية الكولاك (الفلاحين الملاك) الدموية التي باشرها ستالين هي حقيقة تأريخية لا مجال للطعن فيها. يذكر (حنا بطاطو) أن هذا الرجل كان أحد المدسوسين على الشيوعيين منذ العام ١٩٣٤ وما أظنه كذلك بواقع الحال. والغالب أنه عقد صفقة مع السلطة أثناء توقيفه وبحالته التي رأيتهُ فيها. أفكان من ضمن الزمرة التي ذكرها (الحسني) عرضاً ولم يعط لها تفصيلاً؟

خصيصاً لتنعت به الطبقة الحاكمة. ويعين القوة والشراسة كانت الحركات الماركسية تهاجم النازية والفاشية وتنبّه من طرف غير مباشر الحركات القوميّة إلى خطر انزلاقها نحو تبني مفاهيم وآراء هذين النظامين. إلاّ أنها انزلقت هي نفسها ما إن تورط الدستوريون إلى هاوية مساندة دكتاتورية بكر صدقي العسكرية حيناً من الزمن، وانكشف لها ذلك عندما لجأ هذا الدكتاتور في قمع إضرابات العمال وكتم أنفاس النقابات إلى عين الوسائل التي أدانوها في أثناء حملتهم على النظامين الفاشيين.

كان كلّ من القوميين والماركسيين ينتظر زعامة تصلح الأمور وتنقذ البلاد من فساد الطبقة الحاكمة وأنانيتها. القوميّون الجدد بدأوا يفقدون ثقتهم بمعظم رجال الحكم القوميين القدماء. والماركسيون كانوا يعملون لثورة پروليتارية شبيهة بما حصل في أكتوبر بروسيا، وبألمانيا وهنگاريا بعد الحرب العظمى. وكلاهما كان يتطلع إلى زعامة جماهيرية. وجد القوميون في هتلر مثلاً أعلى. ووجد الشيوعيون صورتهم المثلى في (جوزيف ستالين)، الذي رفعته الأدبيات الشيوعية إلى مقام أنبياء الاشتراكية الثلاثة الكبار وأخفت دكتاتوريته اللاپروليتارية مجاهرة وبدقة فائقة.

سرعان ما انكشف للإثنين أن رجل الانقلاب ليس رجلها وإنما هو لا يعدو مغامراً عسكرياً أفّاقاً يعمل لحسابه فقط، وشأنه شأن سائر المغامرين العسكريين الذين عزيت إليهم انقلابات دول أمريكا اللاتينية.

وكان من الطبيعي أن يحظى الاتجاه القومي بنوع من الرعاية والتشجيع من المقامات البريطانية لأنه خطّ معاد للشيوعية الأممية، التي تجد في الدعوة القوميّة أيّاً كان مصدرها خطراً على الوحدة العمالية الدولية، رغم اتفاقهما على التنديد بالإمپريالية والاستعمار والتبعية الأجنبية، بريطانيا وفرنسا، إن شئت تحديداً.

أرجو أن لا يعجب القارئ من استطراداتي المسهبة حول النظام النازي ومحاولتي عرض صورة شاملة قدر الإمكان لنظرياته ونشاطه وأساليبه الدعائية، فقد بقي تأثيرها عند القوميين العرب ولم يفلحوا في استخلاص أنفسهم منه، وطبعت الحركات القومية العربيّة كلها بطابعه الخاص واحدة بعد الأخرى. ولم تتخلص منها قطّ حتى أفل شمسها وعفي عنها. رغم محاولة عدد كبير من المفكرين والزعماء القوميين إضفاء طابع الديمقراطية والليبرالية على برامجهم القوميّة. محاولات باءت بالفشل دوماً وسحقت تحت أقدام العسكريين القوميين أو المتخذين الزيّ القوميّ عند استيلائهم على السلطة. وعلى هذا يمكن القول إن الأفكار النازية عاشت في البلاد الناطقة بالعربيّة زهاء

ربع قرن بعد انهيار النظام النازي على رؤوس بناته بهزيمة ألمانيا في ١٩٤٥.

وإلى حين عَمدَ رجال الحكم العراقيون إلى مسايرة الانعطاف القومي المحليّ العام نحو ألمانيا النازية لم يجدوا في ذلك نوعاً من تناقض بين هذا وبين ولائهم لبريطانيا. بل كان مصدر ارتياحٍ لبعضهم من المدنيين والضباط العثمانيين السابقين، ممن احتفظ أبداً بعطف خاصّ على ألمانيا والألمان وتألموا في قرارة أنفسهم من هزيمتها في الحرب العظمى. فضلاً عن أن التقارب كان يتفق وسياسة بريطانيا الخارجية العامة وقتذاك.

وزاد تقرّب الحكام العراقيين من ألمانيا بعد رفع ممثليتها الدبلوماسية إلى مرتبة المفوضية وتوقيع معاهدة التبادل التجاري بين البلدين أيام وزارة (الهاشمي) في آب ١٩٣٥. ولم يكن الموقع العراقي غير نوري السعيد إزاء توقيع الدكتور (فرتز گروبه) الوزير المفوض والعضو البارز في الحزب النازي خريج مدرسة (غوبلز) في الدعاية، التي كانت مفوضيته حتى إغلاقها عشية إعلان الحرب ملتقى كبار القوميين العراقيين ومصدر دعاية واسعة متقنة للنازية ولما حققته من إنجاز.

تلك المعاهدة رفعت ألمانيا إلى مرتبة الدولة صاحبة الحظوة الأولى في التبادل التجاري، وهو المقام الذي كانت تنفرد به بريطانيا في العراق. والأهم من هذا أنها صارت وسيلة لتزويد الصهاينة بالمال، الذي كانت هجرتهم اليهودية إلى فلسطين بأمس الحاجة إليه، كما سنكشف عنه فيما بعد.

* * *

عنصر المشابهة وعامل استمداد القوميّة العربيّة من الفلسفة النازية يقف عند حدود معينة لم يكن من مصلحة العرب أن يتخطوها أو يتجاهلوها. ألمانيا كانت تريد أن تتخلص من قيود معاهدة ڤرساي واحتلال الحلفاء لأغنى بقعة فيها، وإعادة بناء جيشها القوي الطائر الصيت ولمّ شعث الألمان والأراضي الألمانية، التي ضُمت إلى الدول الأوروبية الوسطى بعد الحرب. وكلّ هذا يتفق مع تطلعات ومطامح القوميين العرب في التخلص نهائياً من السيطرة الأجنبية واستقلال البلاد الناطقة بالعربية وإقامة الوحدة العربيّة، التي انداحت فيما بعد وخرجت عن نطاق الهلال الخصيب والجزيرة لتمتد من المحيط إلى الخليج، وبناء جيش عربيّ قويّ للدفاع عن التراب العربيّ ضدّ الغاصبين، وخصوصاً لادّراء هجمة الصهيونية على جزءٍ من الوطن العربي الكبير والعمل على استعادة المجد المؤثل بالتذكير بوقائع الفاتحين العرب وبالمزايا والفضائل الخلقية

الرفيعة التي تحليّ بها الأجداد[٩]. مثلما دأب النازيون على التذكير بالمجد الألماني ابتداء من فرسان التيوتون وانتهاء بفردريك الأكبر وهندنبرگ.

إلاّ أن النازية استعانت على تنفيذ برامجها بمزايا وصفات في الشعب الألماني يفتقد العرب أغلبها. فالألمان الذين كانوا قد تعودوا النظام، وتميزوا بتقدم حضاريّ، ووحدة لغوية وعنصريّة، وطووا صفحة الخلاف المذهبي منذ أكثر من ثلاثة قرون، وتمرنوا زمناً طويلاً على إطاعة القوانين الصادرة من الأعلى بالغ ما بلغت من الشدّة والتعسف، لم يجدوا حراجةً في التأقلم مع نظامهم الجديد، الذي تمكن بضربات حاذقة من القضاء على الفوضى والبطالة والتخلص من قيود الحلفاء.

وهذا هو الحدّ الذي وجب على القوميين العروبيين ومفكريهم أن يقفوا عنده، ليخمنوا مثلاً كم ستكون درجة نجاحهم باتخاذهم ما يفعله النازيون هؤلاء مثلاً يُحتذى وإلى أي مدى يمكنهم التوفيق ثم الاستفادة، بين ما أنجزه هؤلاء وما يستطيعون هم

(٩) لم يكن المعلمون الذين أُختيروا لتدريس العلوم الاجتماعية من البلاد الناطقة بالعربيّة يقدمون لتلاميذهم تاريخ العرب بشكل صحيح. وأذكر ما أذكر الكتاب الذي قررت وزارة المعارف وضعه مقرراً بيد طلاب الصف المنتهي من المدارس المتوسطة عام ١٩٣٧ والذي تزيد عدد صفحاته عن الأربعمائة عنوانه (تأريخ الأمة العربيّة) لمؤلفه محمد عزة دروزة الفلسطيني. حشر فيه المؤلف حكايات كثيرة حول الخلق العربي تفتقر إلى سند تأريخي وتجري مجرى الأساطير. فتحت عنوان (وفاء العرب) وردت حكاية السموْال بن عادياء، الذي فضّل أن يرى ابنه يقتل أمامه على أن يُسلّم ما اتُمن عليه. ولم يذكر المؤلف بطبيعة الحال أن السموْال كما وردت قصته كان من شيوخ العرب اليهود. وأن اليهودية تعتبر تشريفاً للعربي في مجتمع جاهلي يعبد الأصنام. وفي فصل آخر عن (كرم العرب) قرأنا أسطورة حاتم الطائي الذي كان يوقد ناراً أمام خيمته في الصحراء استجلاباً للضيوف ويطلق عبده في الفيافي ليجلب له ضالاً على أن يعتقه عند ظفره بواحد، وفي تلك المرحلة من الحداثة ما كان الطالب على مستوى من التفكير ليناقش في مسألة عدد العبيد الذين كان يملكهم هذا المحسن العظيم ويطلقهم من ضيعته في الصحراء ليتصيدوا ضيوفاً. وقرأنا عن (زرقاء اليمامة) من جديس التي كانت تتمتع بباصرتين أشد مضاءً وأبعد مدى من أي ناظور اخترعه البشر. إذ كانت ترى الشيء من مسيرة ثلاثة أيام (خمسين ميلاً على الأقل) ولا تقف أمامها قلعة أو غابة عائقاً. ولم يكن بمقدور مؤلف الكتاب بطبيعة الحال أن يتحرى الأسباب الحقيقية التي أدت إلى سلسلة الحروب المعروفة بـ(حرب البسوس) لا لأنها كانت بسبب مقتل تافه اسمه (بسوس). حروب إن صحت مكانتها في تأريخ الجاهلية فأسبابها تتعلق بشؤون اقتصادية بحتة وهي المنافسة على حقوق الرعي والزعامة. أمثال هذه الحكايات الأسطورية تجدها في تأريخ كلّ الأمم، إلاّ أنها لا تدخل متاهة التعليم ولا تروى لبعث الروح القوميّة. وإنما يتزود بها الأمهات ليقصصنها على أطفالهن استجلاباً لنومهم.

إنجازه. وعناصر الاختلاف تبدو كثيرة، ومعقدة.

فالنظرية النازية تقوم على نقاوة العنصر الآري الجرماني، الذي يكفل بناء الرايخ الثالث من مجتمع قومي خالص توفرت فيه شروط النقاوة كما رسمتها الدولة. في حين لا يرى العروبيّون مبدئياً ذلك شرطاً ولا يجعلون منه عقبة فيمن يؤمن بعروبيته وقوميته أياً كان منبته. وكذلك لا يؤمن القوميون العرب بسيادة عنصر متفوّق على عنصر آخر، نظرياً على الأقل، ولا أن يسخر قوماً لخدمته، مسلماً كان أم غير مسلم. بل يرحّب القوميون العرب بالمسيحيين والكرد والمستعربين أو غيرهم ممن اقتبل القوميّة العربيّة عن قناعة وإخلاص للفكرة.

على أنهم ينسون في أحيان كثيرة أنّ العرب هم آخر الأقوام النازحة الطارئة على البلاد الناطقة بالعربيّة من الجزيرة بسبب الفتح ونشر راية الإسلام. وعلى أساس من هذا يعتبرون العراق مثلاً - وبكامل حدوده التي رسمتها قوة أجنبية - جزءاً لا يتجزّأ من الوطن العربي الكبير، ثم يتفضلون على الأقليات العراقية من سكنة البلاد الأصليين أو الذين استقروا فيها قبلهم بالمساكنة والعيش معاً لكن بالشروط التي يضعونها. ويتغاضون تنازلاً منهم وتفضلاً عن بقاء الكرد في جبالهم ولا يحاولون إجلاءهم عنها. كما فعل النازيون بالعناصر الساميّة.

إلاّ أنّ القوميّة العربيّة ظلّت أبداً تستمد قوتها من العامل الديني. وهو يلوح في تعاليم مفكريها ودعاتها دعامة مركزية لا سبيل للاستغناء عنها. في حين لم يكن للدين أهمية في النظرية العنصّرية النازية.

لو نحّينا جانباً تصورات هؤلاء في إمكان خلق مجتمع قوميّ متجانس بالتربية العسكرية الجماعية، وحياة الثكنات والمخيمات بغية إزالة الفروق الطبقية والفكرية والمذهبية الخ كما ذهب إليه الأستاذ الحصري وخليفته الدكتور سامي شوكت، فستبقى العقيدة الدينية والمذهبيّة التي تنعت عادة بـ«الطائفية» تفسد كلّ زواج محتمل بين الأفكار النازية والطموح القوميّ العربيّ.

لم يحاول الشيّعة والسنيّة مثلاً أن يحلّوا فيما بينهم معضلة عدم رؤيتهم هلال العيد في يوم واحد. فلا قوة في الأرض ولا لشهادة أعاظم فلكيي العالم مقدرة أو تأثير على حل هذا الخلاف بين الفريقين، في حين لا يحتاج إلى جهدٍ كبير في تبني الطائفتين موقفاً موحداً عندما يعلن للملأ بأن الدين في خطر فالدفاع عن الإسلام ضد المعتدين عليه فرضٌ واجب على كلّ مسلم. ولهذا لم تجد الحكومة العراقية صعوبة تذكر في

التأليب الديني ضدّ الآشوريين، ومكّنها في الوقت نفسه من إطفاء أول بوادر الثورة في الجنوب، أو تأجيلها إلى حين بتحويل الأنظار إلى الآشوريين في الشمال.

من ذيول مذابح آب تبرز واقعة مأساوية وجدت لها نماءً في تأريخ العراق تصحّ مثالاً لفعالية العامل الديني في التأليب القومي، ويأتي في سياق انتفاضة اليزيدية المسلحة احتجاجاً على تطبيق قانون التجنيد الإلزامي، وفيها فاز الجيش بحصّة مكمّلة أخرى من الضحايا(١٠).

وفي محاولة ربط قيام يزيدية سنجار بأحداث آب ١٩٣٣ يقول الحسني (وهو ينقل الرأي الرسمي):

«كان للآثار التي تركتها ثورة التياريين على الحكومة العراقية في آب ١٩٣٣ والدعايات التي يبثها أعداء العراق في الخارج تأثير كبير على مشايخ اليزيديين حملهم على امتشاق الحسام في وجه الحكومة... كما أن الأجانب في سورية كانوا يحثونهم على التمرد ليوهموا عصبة الأمم بأن من العبث منح سورية استقلالها بعد فشل التجربة في العراق»(١١).

ويستبق (الحسني) ذلك بالقول الغريب:

«عرضت الحكومة على اليزيدية استعدادها لتكوين فوج يزيدي خاصّ يضمّ اليزيدية المجندين كافة، فيقوم هذا الفوج بطقوسه وآدابه يرتدي من اللباس ما لا يتعارض وشعائره!»(١٢).

واجه الجيش بأسلحته الحديثة ومدافعه لوحده ومن غير معونة بريطانية هذه المرة بضع مئات من القبليين الكرد بأسلحة تكاد تكون أثرية. وحقق انتصاراً سهلاً بقصف مدفعي وجوي مركز على جبل سنجار. وكان انتقاماً فظاً قاسياً يفوق ما أقدم عليه الجيش في ثورات الجنوب. وبصدد المحاكمات التي أجراها المجلس العرفي العسكري يذكر:

«عثر المجلس العرفي (كذا) على وثائق أثبتت تحريض بعض المثقفين

---

(١٠) أنظر تفاصيل ذلك في الكتاب الثالث.

(١١) الحسني: (المرجع السالف) ج٣ ص١٥٠.

(١٢) كذا: ص١٤٩. لمعارضة اليزيدية التجنيد الإلزامي والقرعة العسكرية تاريخٌ في عهد العثمانيين، سفكت فيها دماء وأرغمت الحكومة بالأخير على إعفائهم منه، لأنه لا يتفق وتقاليدهم الدينية.

المتصلين بأعداء العراق على قيام اليزيديين بهذه الثورة، فلم يتوان عن طلبهم لإجراء محاكمتهم. وكان بين الذين صدرت أحكام الإعدام بحقهم شخصان معروفان في الموصل، قيل عنهما إنهما كانا من عُمّال الفرنسيين في الموصل. وقد تدخل السفير البريطاني في هذه الأحكام وقال إنه يخشى أن يكون للعاطفة الدينية دخل فيها وطلب تدقيق قضايا المحكومين من قبل هيئة عدلية تؤلف في بغداد لهذا الغرض. فجيء بالأوراق التحقيقية وتولى السيد رشيد عالي الگيلاني بصفة كونه وزيراً للعدلية بالوكالة تدقيقها بنفسه. فلم يجد ما يستلزم إبدال عقوبة الإعدام بغيرها لاسيما بوجود اعترافات المحكومين فنفذ الحكم حالاً»[١٣].

جريمة المختارين اليزيدية السبعة الذين شنقوا هي امتناعهم عن تقديم قوائم المكلفين بخدمة العلم. أمّا الأثنان اللذان وصفهما الحسني «بالمثقفين» فأحدهما عبدالله بولص (فائق) المحامي المعروف بـ(عبدالله فائق) وهو رجل قانون كلدآشوري ينحدر من عائلة عريقة مكّنته حالته المالية من إكمال دراسته في كليّة (مدرسة الحقوق) ببغداد. وهو من مواليد ١٨٩٠ ولا بد أنه كان من زملاء (رشيد عالي) أثناء الدراسة. مارس المحاماة في أواخر الحكم العثماني، وكان عضواً مناوباً في محكمة الاستئناف وقتذاك. ثم انصرف إلى المحاماة وعدّ أبرع المحامين في المنطقة العدلية الشمالية. وكان وهو المسيحي الوحيد موضع حسد وغيرة من زملائه المحامين. ولا بد أن نجاحه في مهنته كان يقابله عداء واضطغان من الخصوم الخاسرين. عُرف ببعده عن أي نشاط سياسيّ وانصرافه التام إلى ممارسة المهنة. ولم يكن له أيّ دور في قضية النزاع على ولاية الموصل، رغم أنه كان يعدّ أحد أشهر اثنين بين الطائفة الكلدآشورية وقتذاك.

والثاني هو الكلدآشوري أيضاً ويدعى (عبدالكريم قره گله) كان من أكبر المزارعين وأصحاب الأراضي في نواحي سنجار وفيشخابور، ومن أوائل من استخدم المكننة

---

(١٣) يورد الحسني إحصاءً دقيقاً بثمرات المحاكمات العرفية في جبل سنجار: من بين ٥٢٤ رجلاً استسلموا للجيش سيق إلى المحاكمة ٣٩٦ متهماً، حكم على ١١ منهم بالموت نفذ بتسعة وأبدل الحكم بحق اثنين. وبلغ عدد المحكومين بالسجن مدداً مختلفة ٣٢٦ شخصاً. والذين حكم عليهم بالسجن في الإصلاحية لصغر سنهم ثلاثة وعلى ٤٩ بالإبعاد. وحكمت المحاكم المدنية على ٧ بعد إلغاء الأحكام العرفية. (المرجع السالف: حاشية ص١٥٢).

الزراعية والأساليب الحديثة في استغلال الأرض بنصب المضخات واستخدام آلات الحصد والبذر والجرارات. وأنشأ بسبب من ذلك علاقة زراعية مع اليزيدية والآشوريين فيها مصالح متبادلة وولاء وثقة، وكلّ هذا أوغر عليه صدور منافسيه من الملاك والمزارعين الموصليين، الذين اعتادوا التعامل مع أهالي تلك المناطق.

والتهمة المضمونة النتائج التي تستخدم عادة في الموصل لغرض الإيقاع بالخصوم المسيحيين واليهود واليزيدية وتشويه سمعتهم هي التطاول على الدين الإسلامي، فإن لم تنجح فهناك تهمة التعامل مع العدو. ولكثرة استخدام هذه الوسيلة المخيفة عبر الأجيال كُنّا نتبادل السؤال على سبيل التفكهة والنكتة عندما يصاب أحدنا بأذى لا يستحقهُ ماذا عمل فلان؟ ويكون الجواب: «كَفَر». إنها كلمة واحدة فقط لكنها تغني على الشرح.

وقد جربت بـ(عبدالله فائق) قبل حكم الموت عليه بثلاث سنوات: ففي يوم ١٦ من شباط ١٩٣٢ شخص إلى بلدة سنجار للمرافعة في قضية مدنيّة هامّة.

وفي اليوم التالي سيق إلى محكمة الجزاء هناك، متهماً ليشهد عليه ثلاثة شهود ملقّنين واثنان من رجال الشرطة بأنه شتم النبي (محمد). فصدر عليه الحكم بالحبس الشديد لمدة ثلاثة أشهر وأرسل إلى الموصل مصفداً بالحديد ليودع السجن. ومن هناك استأنف الحكم فأُخلي سبيله بكفالة انتظاراً لموعد المحكمة.

وبدأ أولئك الذين دبروا له المكيدة، وهم من أصحاب النفوذ، يثيرون الناس. ويخاطبون المشاعر الدينية عند مسلمي المدينة. فعقدت اجتماعات عامّة ذات طابع قوميّ - دينيّ في المساجد والمحلات العامة، قام فيها خطباءُ من علماء دين ومحامين وعدد من القوميين البارزين. وقامت جريدة (العمال) الموصليّة بإلقاء النار في الحطب، ضمن الحملة الشعبيّة، بنشر قرار التجرَيم والحكم خلافاً لأحكام قانون المطبوعات بغية إبقاء نار الفتنة حية. فثارت ثائرة القوميين والمسلمين الموصليين. وعقد الشباب القومي اجتماعات عامّة في حمام الصالحية وجامع الپاشا وألقيت خطبٌ نارية ضد المسيحيين كافة.

قال لي أولئك الذين عاصروا الحادث كان الهياج أعظم بكثير مما حصل قبل تسع سنين في سوق العتمة مع الليڤي الآشوري. فأغلقت دكاكين المسيحيين واليهود، وأوصي الصبية بعدم الخروج إلى الشارع وملازمة البيوت. وتعطلت الدراسة في المدارس الطائفية، وهو ما أذكره بصورة خاصة ولم أكن أعرف له سبباً في حينه. وساد

رعبٌ وقلق نفوس زهاء عشرين ألفاً، الأمر الذي حمل المطران (يوسف غنيمة) الوكيل البطريركي على مقابلة متصرف اللواء، وذكّره بأن ما يحصل يسيء إلى موقف العراق أمام عصبة الأمم في الوقت الذي يجري البحث حول الاستقلال. وعندئذ فقط تحركت ماكنة الدولة في بغداد، ووجهت إلى المتصرف رسالة تأمره فيها: «أن يقبض على زمام الأمور فوراً»، فلم تمض ساعات حتى هدأ كل شيء وكأن أمراً ما لم يحصل. ثم نقلت قضية «كُفْر» عبدالله بولص إلى بغداد للنظر فيها استئنافاً، وقضت محكمتها بإلغاء الحكم وبرّأته(١٤).

---

(١٤) في العام ١٩٤٦ سيق مؤلف هذا الكتاب بتهمة مماثلة. جيء له بشهود معظمهم وكلاء أمن، ليشهدوا عليه بأنه عقد اجتماعاً في جامع النبي يونس بقرية نينوى تطاول فيه على الدين الإسلامي. وكان قد قصد تلك الأنحاء بوصفه مراسلاً لجريدة الوطن لسان حال (حزب الشعب) لاستطلاع أحوال الزراعة بطلب من المزارعين وكتابة تقرير حول ذلك، تأييداً لمطالبتهم بالمعونة الحكوميّة. فدُبّرت له تهمة عقد اجتماع غير قانوني مبدئياً. إلاّ أن القاضي (عبدالباري توفيق) شاء أن يزيد في الكيل بعد الحكم بالحبس على المؤلف بتهمة لا تتجاوز غرامتها عشرة دنانير، بفتح قضية جنائية أخرى وفق المادة ٨٩ فق (أ) إلى الأشغال الشاقة لمدة سبع سنين. وفي حينه سحبت وزارة العدلية هذه القضية قبل المرافعة وأغلقتها وفق قرار عام اتخذته الحكومة في حينه بغلق الدعاوى السياسية عن الأحزاب.
وفي مجال عملي القانوني خلال السنوات التالية نشأت بين الكاتب وبين خيرالدين العمري رئيس بلدية الموصل علاقة مودّة (أشغل قبلاً منصب وكيل رئيس التشريفات في البلاط الملكي، وكان نائباً أكثر من مرّة). وانقلبت العلاقة إلى صداقة لتنداح إلى عدد كبير من أفراد آل العمري. وكثيراً ما روى لي ذكرياته حول رجال الحكم والأحداث في العراق. من ذلك انطباعاته عن مذبحة (سيميل)، حيث كلّفت بلديته بطمر جثث القتلى. ومما أذكره عنه قوله إنه لم يكن يطيق رؤية (إسماعيل عباوي)، وهو الضابط الآمر بتنفيذ المذبحة وأنه أمر فرّاشه بمنعه من دخول مكتبه إطلاقاً. ذات مرّة وكنت في مكتبه ومعي أكثر من زائر توجّه اليّ بصراحته المعهودة قائلاً: «أريد أن أعترف لك وأعتذر». وفي دهشةٍ مني استرسل يقول: «قبل سنوات جاءني عدد من وجهاء البلد يقصون عليّ باستنكار وسخط رواية عن محام مسيحيّ اجترأ على الدين الإسلامي في مسجد. وطلبوا أن نباشر عملاً جماعياً ضده». فأجبتهم: «إن كان ما ذكرتموه صحيحاً فمن السخف أن يُفعل شيء كما تقترحون، وليس له عندي إلاّ أن أستقدمه واضربه عدة أسواط على قفاه كما نفعل بالصبية الأشقياء، أو الأفضل أن أدعه لأبناء طائفته يتصفون منه، لأنه أساء إليهم أكثر مما أساء إلى الدين الإسلامي هذا إن كان صحيحاً ما عزوتم إليه. إلاّ أني أشك كثيراً فيه. فمسيحيّ يمتهن القانون ويطعن بالإسلام في محلّ عبادة الإسلام وبين جمهور من المسلمين ويخرج سالماً مشيعاً بحفاوة؟ وفي بلدٍ محافظة كالموصل؟ أظن أن الأخلق بالجلد هم الشهود. بل ذلك الموظف المسؤول (وكان المتصرف) هو الذي يستحق =

إلاّ أنّ الحال كانت تختلف في صيف العام ١٩٣٥ عن شتاء العام ١٩٣٢، فقد أصبح العراق دولة مستقلة، والأمر بمصائر المواطنين رهن إشارتها ولا سلطان لدار الاعتماد البريطاني.

لم تمر هذه الجريمة القضائية بسهولة على ما يبدو. كان رشيد عالي يريد أن يبرهن على استقلاليته في الرأي، وحريته في تحدّي البريطانيين وإلقاء درس على الأقليات بأن زمن التشبث بحماية بريطانيا قد ولّى إلى غير رجعة. على أن هذا الدّرس ارتدّ عليه بشكل غير متوقع[١٥]، فقد اضطرت الحكومة بعد قيام الضجّة إلى فحص دستورية تخويل القائد العسكري بمقتضى مرسوم الإدارة العرفيّة المرقم ١٨ الذي وضعه الگيلاني نفسه في ذلك العام، فوجد أنه مخالفٌ صراحة لحكم الفقرة ١١ من المادة ١٢٦ من الدستور العراقي، التي أناطت صلاحية تنفيذ أحكام الموت بالملك وحده، بعبارة قاطعة حاسمة «لا ينفذ حكم الإعدام إلاّ بتصديق الملك» وتمّ إلغاء المادة[١٦].

= الجلد لأنه أمر بتحريك مثل هذه القضيّة». وقد أطلعني في وقت ما على جانب من مذكراته التي كان يكتبها في حينه. وما أدري هل أن وحيده (حسن) وهو محام قد نشرها؟ فقد وجدت تنويهاً بها في كتاب أو اثنين وقعاً مؤخراً بيدي طبعاً مؤخراً وفيها إشارة إلى أنها ما زالت مخطوطة. من المؤسف أن يكون أمثال خيرالدين (توفي في ١٩٥٥) في العراق قِلّة.

(١٥) عَلمتُ فيما بعد أن وفداً ترأسه البطريرك الكلداني (وكان عضواً في مجلس الأعيان) قد قابل السفير البريطاني ثمّ وزير الداخلية والعدلية (الگيلاني)، وإن هذا الأخير وعد بأن يوصي بعدم تنفيذ الحكم في أبرز شخصيتين من الطائفة.

(١٦) عُدّل المرسوم في ٦ نيسان ١٩٣٦. إن جرائم القتل القضائي التي ارتكبتها مجالس الجيش العرفية في ثورات الجنوب كانت كذلك غير دستورية. وهي تلك التي ارتكبها قائد القوات بكر صدقي أثناء قمعه تلك الانتفاضات. أقول بقيت مأساة عبدالله بولص وعبدالكريم قره گلّه والمختارين السبعة الذين شنقوا معهما تملأ ذهني سنوات عديدة. بعد أن سمعت زائراً لنا من أقرباء الوالدة كان كاتباً في مكتب محاماة أولهما. وقضى ما ناله هو والموقوفون الآخرون من التعذيب أثناء التحقيق العسكري لحمله على الشهادة ضدّ مخدومه. ثم جاءت ظروف غير متوقعة عرفت خلالها أرملته وأولاده في بغداد وثار في نفسي الفضول لتقصي الأمر. فعلمتُ مما علمت أن دوائر التحقيق حاولت كما يقول (الحسني) إيجاد صلة للاثنين المغدورين بالآشوريين النازحين إلى سورية. فزوّروا رسائل زعموا أنها صادرة من عبدالله فائق وعبدالكريم إلى الآشوريين وأنها وقعت بيدهم، وأن المتهمين أصرّا أثناء المحاكمة على استكتابهما ومضاهاة تواقيعهما فلم يستجب لطلبهما.

وفي أوائل الخمسينات حانت فرصة لسؤال أحد الأعضاء المدنيين في المجلس وهو (محمد بهاءالدين اليازجي) وقد تقاعد وزاملني في المهنة. سألته عن الدلائل التي توفرت للحكم =

والمرء يعجب كيف غفل أو أغفل هذا الوزير هذا الحق الدستوري، عندما أعّد لائحة مرسوم الإدارة العرفية وهو رجل قانون وأستاذ قانون العقوبات في كلية الحقوق العراقية ووزارته هي التي تعدّ اللوائح القانونية. كان (رشيد عالي الگيلاني) يحقد على الآشوريين وكل من له صلة بهم حقداً شخصياً لا يشرّف سياسياً ورجل دولة.

* * *

في العام الدراسي ١٩٣٥ طبّق نظام الفتوة شبه العسكري في المدارس العراقية. ووافق ذلك أول دعوة للمكلفين بالخدمة العسكرية وفق قانون التجنيد الإلزامي.

وفي آب ١٩٣٦ رتّب على عجل وفد «فتوة» ورياضة لديار ألمانيا بمناسبة استعّدت لها ألمانيا النازية استعداداً لم تحظ به دورة سابقة للألعاب الأولمبية. فرصة ذهبية لتدهش العالم بما حققه (الرايخ الثالث) في ظل النظام الجديد.

أزيل من الدكاكين والفنادق والمشارب والمحلات العامة بكل هدوء شعارات ولافتات عنصرية مثل: «اليهود هنا لا يُرحّب بهم Juden unerwenscht» وتوقفت ملاحقتهم وملاحقة المسيحيين المعارضين. وأقام زعماء النازيين كلّ بدوره ولائم فخمة للزوار الأجانب. انبهرت عيون الشباب العراقيين بما لقوه من حفاوة وتكريم. ودعي أعضاؤه للمشاركة في «الليالي الإيطالية» التي أقامها الدكتور (غوبلز) وزير الدعاية في (ڤانيسي)، حيث ضمت أكثر من ألف مدعوٍ للغشاء في جوّ ومشاهد تذكر المرء

= فأجاب: «أنا كنت عضواً مخالفاً وأن الحكم صدر بالأكثرية». ووجهت السؤال عينه للنقيب (يحيى زهدي) وقد تقاعد وأصبح صاحب أراضٍ وزراعة في سنجار! فأجاب باقتضاب وشيء غير قليل من العصبية: «هذا شيء مضى وفات. أنا لا أعرف ماذا أكلت قبل يومين».

بعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ استعنتُ بواحدٍ من كبار الضباط في وزارة الدفاع ليفسح لي إلى ملّفات قضايا المجالس العرفية في خزانتها الخاصة. وكان همي أن أجد فيها علاقة ما بين التهمة وبين القضية الآشورية. كانت ملفات قضايا المجالس العرفية منسقة ومحزومة بعناية، ومن جملتها أضابير المجلس العرفي العسكري في سنجار، إلاّ أنه لم يكن بينها ملّف محاكمة عبدالله وعبدالكريم. ولم أعثر عليه رغم البحث. وكان هناك دفتر سجلت فيه أرقام القضايا وتواريخها وليس بينها رقم أو عنوان للقضية. فرجحتُ أن أوراق القضية قد أتلفت عمداً. وتأكد لي ذلك من قضية مماثلة فيما بعد. وهي قضية المؤامرة الشهيرة التي أحيل من أجلها حكمت سليمان إلى المجلس العرفي وحكم عليه مع آخرين بالإعدام في ١٩٣٨. ففي كتاب عنوانه: (نوري السعيد ودوره في السياسة العراقيّة حتى العام ١٩٤٥) لمؤلفه سعاد رؤوف شير محمد - طبع بغداد ١٩٨٨. وقعت عيني (ص٦١) على هذه العبارة: «إن أوراق القضية وقعت بيد نوري السعيد لتضيع بعد ذلك».

بـ«ليالي ألف ليلة وليلة» على حدّ ما وصفتها الصحافة .

تألف هذا الوفد من التنظيم الجديد الذي شاءه الدكتور سامي شوكت لناشئة العراق، وهو مدين للفكرة بالأساس إلى ما شاهده من تنظيم مماثل أثناء زيارته السابقة لألمانيا، وبتشجيع من سلفه ومعلمه الروحي (الحصري). وهو الخطوة الأولى لعسكرة التعليم في العراق. إلاّ أن نظام الفتوة الذي استنّه (سامي شوكت) لم يكن بسعة نطاق النظام الذي فرضه النازيون غير أن الهدف واحد.

ما إن جاء هتلر إلى الحكم حتى بدأت عسكرة التعليم بشكل جدّي وبنطاق شامل، فقضى أن ينتظم الناشئة ذكوراً وإناثاً، إبتداءً من السادسة حتى الثامنة عشرة (وهو سنّ الخدمة العسكرية) في منظمات أطلق عليها اسم (الشبيبة الهتلرية). والانضواء إليها واجب، ويعاقب الآباء الذين يحاولون منع أولادهم من الانخراط فيها بأحكام سجن ثقيلة، حتى ولو أصبح بعضهم ضدّ استخدام بناتهم في واجبات معينة.

إبتداء من السادسة حتى العاشرة ينتظم الصبي في تشكيلات تمهيدية للشبيبة الهتلرية. وفي العاشرة وبعد مروره باختبارات في الرياضة وحياة المخيمات والتأريخ القومي يتخرج ليغدو (فتى Junfolk) ويؤدي اليمين التالية:

«أمام هذا العَلَم الدمويّ الذي يمثّل زعيمنا، أقسم بأني سأوقف كل نشاطي وقواي لمنقذ بلادنا أدولف هتلر. وسأكون على استعداد تام ورضى أن أبذل حياتي فداءً له دون تردد. فليكن الله في عوني».

في الرابعة عشرة يدخل الفتى في منظمة (شبيبة هتلر) الأصلية، ليبقى فيها حتى يبلغ الثامنة عشرة ليعيش خلالها حياة المخيمات والمعسكرات المؤسسة وفق النظام العسكري. حيث يتلقى الفتيان تدريباً عسكرياً منتظماً على صناعة الحرب، لا على أسلوب التخييم والتعسكر الرياضي والكشفي. كانت هذه الفرق تواجه السائحين والزوار أينما توجهوا - وهي تزحف في الغابات وتتوقّل الروابي والآكام تحمل البندقيات وتشد على ظهورها تجهيزات الجندي الكاملة. وكان ثم أيضاً ما دعي بـ(عصبة الفتيات الألمانيات Bund Dautscher)، ينتظمن إليها عندما يبلغن الرابعة عشرة ببزة خاصّة ولا يحيد تدريبهن عن تدريب أمثالهن من الفتيان في عمر مماثل.

وكما أصدرت الحكومة العراقية في نفس العام ١٩٣٩ نظاماً جديداً أكثر دقة وتفصيلاً لنظام الفتوة السابق، كذلك أصدرت حكومة ألمانيا قانوناً يقضي بإلزام جميع الفتيان والفتيات بالانضواء إلى التشكيلات الطلابية شبه العسكرية بنفس الأسس التي

بني عليها قانون الدفاع الوطني. جاء في إحدى الخطب التي ألقاها وزير الشباب الألماني (بالدر فون شيراخ):

«الغاية من تدريب الفتيان تنمية أجسامهم لتشتد سواعدهم وتصّح أبدانهم ولتقوية إيمانهم بمستقبل بلادهم وبأنفسهم ولتبثّ في نفوسهم شعور الزمالة والرفاقية، التي تمحو كلّ الفروق الطبقية والاقتصادية وتزيل كل الحدود الاجتماعية حيث يعيشون في ثكنة واحدة ويأكلون على مائدة واحدة ويسمرون ويأخذون معاً بأسباب التسلية، ويقوى شعورهم بقوميتهم».

وهي عين الفكرة التي ساورت الأستاذ الحصري عندما كتب في تحبيذ التجنيد الإلزامي كما يذكر القارئ.

لا يمكن القول بأن فكرة إنشاء الفتوة العراقية قد نبعت في رأس الدكتور سامي شوكت كردّ فعل آني عميق لما شاهده في ألمانيا النازية فحسب، فقد زوّد فكرته بأرضيتها ذلك الاندفاع القويّ نحو العسكرية في العراق بدعم ونشاط القوميين الجدد. والحكام الذين كانوا يهتبلون كلّ فرصة تعنّ لإثبات عروبيتهم، والبرهنة بأنهم لم يتخلفوا عن ركب القومية، أو يتخلوا عن أهداف الثورة العربيّة الكبرى ومبادئها، ما كان يسعهم أن يظهروا حماسةً أقل من حماسة القوميين الجدد.

وكالتجنيد الإلزامي كان المشروع عاطفياً بأساسه. إذ لم تسبقه دراسة ميدانية لقياس تحبيذ الرأي العام العراقي. ولم يُستشر في وضعه ذوو الخبرة من رجال التعليم والسلطة. وقدمت لائحة النظام للمجلس بما يشبه السّرية لتمريره بسهولة ومن دون مناقشة أو صوت معارض[١٧]. وجاءت المادتان الأولى والثانية من النظام بعين الأسس والغايات التي وردت في الفقرة المثبتة آنفاً من خطبة (فون شيراخ):

«الغاية من النظام تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق وخصال الرجولة والمفاداة وتدريبهم على التمارين العسكرية والرماية وما يتبعها من

(١٧) أصدرته حكومة الهاشمي، ونشر في ١٧ من تشرين الثاني ١٩٣٥، وطبق على من شملتهم أحكامه في مبدأ السنة الدراسية التالية. على قدر ما تساعفني الذاكرة وبسبب اقتضابه وعموميات مواده، كانت وزارة المعارف تصدر بين آن وآخر تعليمات وأوامر تفصيلية في كيفية العمل به. من المفيد أن نذكر هنا أن أمور التدريب العسكري للفتوة عهد به إلى المقدمين (ثم العقيدين) صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد. وهما من الضباط القوميّين أقطاب حركة مايس ١٩٤١.

خصال حسب النظام والطاعة ويكون النظام عسكرياً في أوقات التدريب وسائر الأوقات».

وقضت المادة العاشرة بأن تكون ألبسة الفتيان شبه عسكرية. وأن يستفاد من وحدات الجيش في المراكز التي توجد فيها. وأن تدخل في المنهج تمارين أسبوعية خلال السنة الدراسية في التدريب العسكري للصفوف المنتهية من المتوسطات والثانويات ودور المعلمين والصنائع وأن يخص في المنهج لتعليم المصطلحات العسكرية والمعلومات البسيطة عن تأريخ الحرب.

بدا العراق بين الأعوام ١٩٣٥ و١٩٣٩ رائد القومية العربيّة الأوّل وفارسها المجلّى دون منازع. ولا أستثني منها تلك الفترة القصيرة التي أراد بها خصوم بكر صدقي أن يبدو نظامه فيها خصماً للقضايا العربيّة، وعدواً للقوميين، لا بُدّ وأنها كانت أخطر ما يمكن توجيهه من التهم في بلاد «پروسيا العرب» ولا أدّل على سخفها وتهافتها إلى جانب خطورتها وشدّة وقعها من نجاح الضباط القوميين في القضاء على حياته وعلى نظامه معاً دون صعوبة تذكر.

وبعد هذا بين مقالات الصحف والخطب في تمجيد القضية والوحدة العربيّة، وبين ضجّة إذاعة برلين وصخبها وصبها اللعنات على الاستعمار البريطاني وأذنابه، وإذاعة قصر الزهور - هدية الفوهرر الألماني للملك المعتوه غازي - وهي تهدد باستعادة الجزء المنتزع من العراق ورفع يد البريطانيين عنه، بلغ اعتداد ضباط الجيش بأنفسهم وزهوهم بالانتصارات المتتالية على فلاحي الجنوب وقبائل الشمال، حد العبث بالحكومات واحتكارهم حقّ عزلها ونصبها، وفيمن يكون رئيس الحكومة أو وزيراً ومن لا يكون.

وسواء إن جاز حقاً لنا أن نطلق صفة «القومية» على هؤلاء الضباط وإن لم يكن جائزاً، فالظاهر أنهم كانوا وسط خيلائهم يعتزون بتلك الصفة ويحاولون إثباتها كلما عنّت فرصة لهم. وغالباً ما كانت تعود هذه الفرصة بالمزيد من المتاعب والفوضى السياسية، وتكاثر عدد الانتهازيين والنفعيين داخل الجيش وخارجه. وبلغ من سلطان الضباط القوميين أن راح السياسيون يخطبون ودّهم توصلاً إلى الحكم. وتكررت حكاية (پيگماليون وگالاتيا)[١٨] مرات على المرسح السياسي العراقي. وكان نوري السعيد

(١٨) في الأساطير الإغريقية القديمة أن پيگماليون Pygmalion ملك قبرص نحت تمثالاً لگالاتيا =

أظهر ممثليها لفترة منذ الزمن. فقد فرضه الضباط القوميون[١٩] رئيساً للحكومة، ومن مجهوداته في إثبات قوميته وتبديد الشكوك التي اكتنفت حياته بوصفه صنيعة بريطانية، أن وزارته أصدرت نظاماً جديداً للفتوة بدل النظام القديم تمّ فيه تدارك ما غفل عنه النظام القديم والإفادة من تجارب تطبيقه.

عمدت الحكومة إلى تطبيقه كذلك بجدية تعادل ما لقيه من استخفاف وعدم اكتراث من طلاب المدارس وذويهم ومن المعلمين أنفسهم[٢٠].

لم تكن الحكومات العراقية تأبه قط بمعرفة ما يريده الأهالي وما يكرهونه.

بالرغم من وضوح مصدر فكرة عسكرة التعليم، فقد حاول مبتدعو نظام الفتوة أن ينأوا به قدر ما استطاعوا عن أصوله النازية، ويظهروه بمظهر عربي أصيل، له جذروه التاريخية العميقة في التأريخ العربي وكتبوا في ذلك ما تيسر لهم كتابته.

فكلمة (فتوة وفتوات) المصرية التي ينعت بها الرجال المسيطرون الأقوياء والمعادلة لكلمتي (قبضاي وقبضايات) اللبنانية السورية، تجدها أحياناً في كتب المؤرخين العرب والإسلام الأوائل وحدها وبمفردها، أو مع كلمة عيّار وعيّارين، أو مرادفاً لها. قالوا ولم يفصّلوا في الأسباب الحقيقية. بأن الفتوة هي منظمة شبه عسكرية من مبتدعات الخليفة العباسي (الناصر لدين الله ١١٨٠-١٢٢٥م). وكنت واحداً من الطلاب الذين طبّق هذا النظام بحقّهم. ومن هنا نشأ اهتمامي بفحص نصيب هذا الزعيم من الصحة بتتبع تلك الأصول التأريخية التي عزوها لفتوة (الناصر لدين الله).

= Galatia فكان بدرجة من الدقة والجمال أن وقع في غرامه وصار يخطب وده يقدم له الهدايا ويغمره بعبارات الوجد حتى رقّ قلب (أوفروديت) الإلاهة له، فنفخت في التمثال نسمة الحياة فاستوى أمرأة ليتزوجها خالقها. كان نوري السعيد أحد اثنين يعزى إليهما خلق نواة الجيش العراقي.

(١٩) اتفق من تولى الكتابة في هذا أن الزعامة في هذه الكتلة القوميّة انتهت إلى سبعةٍ، هم العقداء صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب (وهو الشيعي الوحيد فيهم). وعبدالعزيز ياملكي (زعيمهم الأوّلي)، واللواءين حسين فوزي (كُردي) ومحمد أمين العمري. وقد انفصل الثلاثة الأخيرون بالتالي وانصرفوا إلى مهنتهم. ويذكر الصباغ (المرجع السالف ص٧٠) أن نوري السعيد أثناء اجتماعة بالأربعة الأوائل وبمحضر من رئيس أركان الجيش طه الهاشمي: «أنه وَعَدَ أن يكون قيام الوزارات وتسلمها الحكم برأي الجيش».

(٢٠) النظام رقم ٢٧ لسنة ١٩٣٩ نشر في الوقائع بتأريخ ١٥ أيار ١٩٣٩. (أنظر نصّ النظامين في ملحق هذا الفصل).

نشأت (الفتوة) في أوائل القرن الرابع الهجري (حوالي ٩٥٠م) وورد أول ذكر لها في كتب الأوائل كمؤسسة اتحادية شبه عسكرية ضمت عناصر شيعية أصلاً ارتبط أعضاؤها بروح التكاتف والتضامن والرفاقية، وانتشرت في معظم مدن العراق كحركة مناوئة للسلطة، ثم اعتراها التفسخ والتحلل بما انتظم فيها من عناصر غير نظيفة. في أحيان كثيرة عندما تفقد السلطة المركزية سيطرتها أو يتنابها وهن تجد هؤلاء (الفتيان) ويطلق عليهم المؤرخون أيضاً اسم (العيّارين) - فرصتهم في ممارسة سلطة إرهاب حقيقية على الأغنياء والتجار في المدن، وعلى الأجهزة الحكومية حتى في بغداد نفسها. وعندما تكون السلطة قوية تراهم يقفون وراء الخليفة ويستغلون ذلك ستاراً واقياً لمصالحهم عن طريق تقوية السلطة، مثلما كانت المافيا تنتهج مع الحكومات الإيطالية.

على أنهم اختفوا وخرجوا من عالم السياسة والنشاط عندما وضع السلاجقة يدهم على مقدرات العراق وسيطروا على الخلافة وخلقوا نظام الشحنة (الشرطة الأمنية) في بغداد وغيرها من المدن الكبيرة. إلاّ أن نشاطهم لم يقض عليه. إذ كانوا يخرجون إلى العلن عندما تثور ثائرة الأهالي ضد الحكام، فيشاركون فيها سعياً وراء غنُم لأنفسهم.

إن (الناصر) أنهى حكم السلاجقة فعلاً - ربما كان هذا الخليفة أذكى خلفاء العباسيين وأقدرهم إطلاقاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار الظروف السياسية للفترة التي حكم خلالها - لكن كان يوجد هناك رجال طموحون إلى السلطة والزعامة ووجهاء وأغنياء كبار انتهزوا فرصة القضاء على حكم السلاطين السلاجقة، فشجعوا عصابات الفتوة وغذوها بالمال والحظوة لاستخدامها في حماية مصالحهم وتمشية أمورهم المالية وتثبيت نفوذهم والانتفاع بقوتهم عند الحاجة. فما كان من (الناصر) الداهية الأريب الذي رأى عهده عودة سلطة الخلافة الفعلية وحرر البلاد من سيطرة السلاطين - إلاّ أن سحب البساط من تحت هؤلاء الطامعين في الحلول محلّ السلاجقة بفعل قوة الفتوات، بإعلانه شرعية نظام الفتوة ومساندته لها. ثم أعلن نفسه «حامياً» لها ورئيسها الأعلى الروحي لا التنفيذي - أي أن يكون مرشداً خلقياً وموجّهاً بحسب المبادئ التي تؤمن بها وتسلّم، وهي المبادئ التي قام هو بوضعها وصياغتها لقلبها إلى أداة تعمل من أجل إحلال التعاضد والتكاتف بين أفراد المجتمع. ثم إنه حمل الأشراف وسراة القوم في بغداد على الانضمام إليها. وابتكر للفتوات لباساً خاصاً يميزهم، ومنع من لا يلبس هذا الزي من الانتساب إلى الفتوة. وقد أدّى هذا وبشكل ما إلى أن تتخذ الحركة بعد

أكثر من قرنين على نشوئها صفة التلمذ أي الحاجة إلى توفّر شروط معينة للقبول وإلى مراسيم معينة عند منح العضوية. الأمر الذي جعل بعض المؤرخين والمستشرقين الأوروبيين في القرن التاسع العشر - وهم أوّل من نبهوا إلى وجودها - يظنون خطأً بأنها نوع من الأخويات العسكرية أو تشكيلات الفرسان، مثل عصبة فرسان التيوتون أو فرسان الهيكل (الداوية أو الهيكليين) في الحروب الصليبية.

وفي الوقت عينه استخدم (الناصر) دعاية للفتوة واسعة النطاق[٢١] مجنداً للسلاطين والحكام المسلمين في آسيا تنظيم فرق فتوة مماثلة في بلادهم تحت رعايته، ووافق عدد كبير منهم لأسباب سياسيّة بحتة. وماتت الفتوة بموته وانقلب أعضاؤها إلى مجرد عصابات معظمها يعيش على المجتمع طفيلياً يحتال على مورد رزقه بأساليب بعيدة عن الأخلاق.

إلاّ أن أعظم نجاح حققته الفتوة كان في آسيا الصغرى، وسميت هناك بـ(آخي

---

(٢١) عن ابن الأثير في (الكامل في التأريخ، ج١٢، ص٤٤٠، بيروت ١٩٦٦): «وجعل الناصر لدين الله همّه في سراويلات الفتوة. فبطّل الفتوة في البلاد جميعها إلاّ من يلبس منه سراويل يُدعى إليه. ولبس كثير من الملوك سراويل الفتوة. وعرف هؤلاء كما ذكرنا بالعيّارين». والعيّار في اللغة كل من يطلق نفسه على سجيتها وهواها فلا يعترف بقانون ولا يتقيد بأمر صادر من السلاطين والأمراء والخلفاء، وكثيراً ما تكون تلك الأوامر ظالمة مجحفة بحقوق الناس. فكان العيّارون والفتوات يلتزمون جانب العامة. وكثيراً ما ساندوا الفقراء وغصبوا الأغنياء، فيكون على السلطة أن تتدخل في معارك شوارع وتستخدم قواتها المسلحة. مثال ذلك ما ذكره المؤرخون عن حادث اعتصاب (فتنة) أثارها الفتوات في العام ١٠٠٢م. يقول عنها (الكامل): «إنها ألجأت بهاءالدولة البويهي إلى أن يبعث قائد جيشه أبا علي ابن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر أمرها، فوصل بغداد وقُمع المفسدون». كما ظهر أمرهم كذلك في العام ١٠١٠ والعام ١١١٣. وفي العام ١١٣٥م أحدث الفتوة العيّارون ثورة في بغداد بسبب «اجتماع العساكر بها» أي احتلالها بجيوش السلاجقة «فضجّت الأهالي من أعمالهم». ويظهر أن العامة ساندوا الفتوات أثناء الاشتباكات. فابن الأثير يذكر أنّ مدير الشرطة (رئيس الشيخية) واجه ثورة شعبيّة من أهل الأحياء الغربية فيها فأحرق الشارع كلّه. بعض المصادر تنوه بأن الفتوة كان لها أعضاء تنظيمها السري الخاص ودرجاتها وزعمائها ووسائل يتعرف بها أحدهم إلى الآخر تماماً مثل أعضاء المحافل الماسونية. كما كانت تتبع تقاليد وقوانين خاصّة شبيهة بتلك التي سادت تعامل عصابات العالم السفلي في شيكاغو ونيويورك وغيرها من مدن الولايات المتحدة طوال أكثر من نصف قرن، ومثلها أيضاً كان بعض زعماء الفتوة يتمتعون بمساندة الحكام وذوي السلطة يقاسمونهم أسلابهم ونوهت التواريخ بأسماء بعضهم كابن بكران وابن البزاز اللذين كانا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي يتمتعان بحماية الوزير وزوجة السلطان (المرجع السالف).

ورونود) كما عرفت أيضاً بالفتوة. وقد ألفت رسائل عديدة فيها باللغتين التركمانية والفارسية. (لم يُعثر على أي رسالة بالفتوة باللغة العربيّة) وبالعنوان الواضح (فتوتنامه) أي كتاب الفتوة. من ذلك رسالة فيها تعزى إلى (آخي أحمدي أردبيلي) وأخرى لفتىً آخر هو (آخي أمير محمد) كانت قد قدمت له واحدة من أشهر الفتوتنامات وهي التي كتبها (نصري) من فتوات القرن الثالث عشر الفرس.

هناك رسائل عديدة أخرى في هذا المجال محفوظة في المكتبات الشهيرة ما زال معظمها مخطوطاً. ويظهر منها أنه لم يكن هناك عائق أو اعتراض في أن ينضم الفتى إلى مجموعتين أو أكثر منها، وأن يحرز درجة قيادة في إحداها بصرف النظر عن طبقته الاجتماعية التي انحدر منها.

إذن كم كان طريفاً ومقبولاً أن تجد العسكرية التعليمية في العراق أصولاً عربيّة لنفسها في زوايا التأريخ؟ ولتلتقي أهدافاً وأساليب بالنظم العسكرية التعليمية للنظام الجديد في ألمانيا وإيطاليا. إلاّ أن التاريخ يحملنا رغم أنوفنا على الشك في عروبة الفتوة أصلاً. فسكنة بغداد وهي المدينة التي نظمت فيها الفتوة كانت كسائر المدن في العراق العربي منذ القرن العاشر (الرابع الهجري) خليطاً من أقوام وافدة بينها قلة من العرب لا يعتد بها. كان ثمّ الغزّ والصغديون والجيورجيون والأرمن والكُرد والفرس والديالمة والمغول والتتر، فضلاً عن بقية من سكانها الأوائل. وهذا يفسر لنا خلوّ الآثار الكتابية عن الفتوة من أي رسالة أو بحث باللغة العربيّة، فالعرب على فرض وجودهم في بغداد هم آنف وأعلى من الرضى بالانتساب إلى نظام مشبوه يضم طبقات منحطة من المجتمع. ولم يكن اهتمام (الناصر) لجمع هذا الشتيت في تنظيم واحد إلاّ وسيلة للسيطرة عليهم واتقاء شرهم كما ذكرنا. ليس في ما ذكرته الآن عن الفتوة شيء من تراث الدعاية التي بثتها للنظام وزارة المعارف وقتذاك، في محاولة لإبعادها عن التأثير النازي ورسم صورة مقبولة لها عند الرأي العام، وتشويقها للطلبة والمربين. وما توصلت إليه إنما كان ثمرة متابعة لاحقة. دفعني إليها مما دفعني مروري بمرحلة فتوة سامي شوكت في سنتين من سنوات الدراسة درّبت خلالها على شيء من النظام العسكري وفنون القتال والرماية بالذخيرة الحيّة كما يقولون، بالبندقية النظامية التي كان يستخدمها الجيش العراقي والبريطاني من طراز (لي أنفليد ٣٠٣). وربما كان هناك سبب آخر لا أذكره الآن.

فمن كلّ ما وقع بيدي من كتب التأريخ والمذكرات التي تناولت تلك الفترة من

أحداث العراق ضمناً لم أر أحداً يتطرق إلى هذا الفصل المجنون من التمثيلية القوميّة الحالية محليّاً. ولا أستثني من ذلك تأريخ الوزارات العراقية ذا الأجزاء العشرة وبصحائفها التي تزيد عن الآلاف الثلاثة والمائة والست والثمانين، فأنا لم أجد بحثاً ولا تنويهاً مقصوداً مهما صغر عنها، وكلّ ما عثرتُ عليه فيها أن ذكرها جاء عرضاً في الفقرة الأولى من المادة (٧) من منهاج وزارة جميل المدفعي في العام ١٩٣٨ بهذه الصورة:

«الاتجاه بمنهاج التعليم إلى ناحية تضمن إعداد النشء قوياً قديراً على الإنتاج محباً للنظام متشبعاً بالشعور الوطني وبروح الفتوة»

كما جاء في سجلّ الحسني لوقائع ١٩٣٨ ما يلي: «في آب ١٩٣٨ أختير عشرون (فتى) من فتيان مدارس العراق لتمثيل الفتوة العراقية في يوم الشبيبة الهتلرية الذي أقيم في أوائل أيلول. وكان برئاسة أكرم فهمي نائب حامي الفتوة. وقضى حوالي الشهرين في ألمانيا وعاد في ١٢ تشرين الأوّل متمتعاً بضيافة الحكومة الألمانية ورتبت لوفد الفتوة مقابلة رسمية مع أدولف هتلر. وقامت بعض الصحف وفي مقدمتها جريدة (العقاب) لصاحبها يونس بحري، وهي جريدة تسيطر المفوضية الألمانية على سياستها وتزوّدها بالمال، بنشر تفاصيل عن الحفاوة والزيارات التي نظمت لهذا الوفد»[٢٢].

وبدا لي أن الأستاذ (الحسني) كان يريد أن يجنّب نفسه متاعب وإرهاصات لا يحبها بطيّه هذه الصفحة، سيما وقد نشر هذا الجزء من كتابه بعد سنوات من التصفية النازية في العراق وخروجه من المعتقل الذي زجّ فيه مع بضع مئات ممن عرفوا بالنشاط القومي إثر انهيار حركة مايس. وإن كان لهذا أسبابه الخاصّة وهو على كلّ حال كرونيكلي (أي مدوّن وقائع) وليس مؤرخاً - فما بال الآخرين؟

هذا كتاب الأستاذ (بطاطو) الذي خرج إلى يد القراء في العام ١٩٧٨، وقد خلا كنظيره وبصحائفه المائتين والثلاث والثمانين والألف من أي ذكر لنظام الفتوة، أي شيء عن مؤسسها وحاميها الدكتور سامي شوكت ونشاطه القوميّ في التعليم، فيما حفل مؤلفه الضخم بأحداث ووقائع وإحصاءات مفصلة عن الاتجاهات الثقافية والتعليمية في العراق، لم يبخل على قارئه بتفاصيل سفرة عضو في الحزب الشيوعي إلى روسيا وعودته منها.

---

(٢٢) المرجع السالف: ج٣.

وقس على هذا كتاب المؤرخ البريطاني (ستيفن لونگريك)[٢٣] الذي لم ير ما يستوجب التنويه بهذه المرحلة البارزة من اتجاهات التعليم في العراق بأيّ درجة من التعليق أو ذكر لهذا النظام في كتابه الكبير بصفحاته الستمائة، وقد تناول أبحاثاً أقل شأناً منها بكثير. وعلى هذا قس البقية.

وجدتُ بعد لأي تنويهاً «بصناعة الموت» في كتاب الدكتور مجيد خدوري[٢٤] عندما تطرق إلى سياسة سامي شوكت في توجيه التعليم، لكني افتقدّت عنصر الفكاهة في تنويهه بالفتوة. فقد عرفتُ هذا الباحث الألمعي لماماً وتميزتُ فيه خلال لقاء أوحد خاطف روح انتقاد مرحة وشخصية لا تخلو من ظرف. وقد عاصر تلك الفترة أستاذاً في دار المعلمين العالية ولبس الزيّ العسكري الذي فرضه (حامي الفتوة) على أفراد أسرة التعليم. وللفتوة جانبها الفكه، ففي العادة تخلو كتب التاريخ والمذكرات والأبحاث المتعلقة بأحداث العراق السياسية من الطرافة وعنصر الفكاهة لتشيع في نفوس قرائها شعوراً بالرتابة والملالة، ولا يبدو منها صانعو تلك الأحداث كأشخاص أحياء بل كدمى آلية تحركها يد الكتّاب في رقعة ضيقة محدودة بإطار هذه الواقعة أو تلك، وهو عنصر حيّ فاعل هام لا يبخل به أمثالهم من الكتاب الأجانب على قرائهم حيثما وجدوا لذلك سبيلاً، ما أدّت هذه الجهامة والجدّية إلى إعطاء صورة غير حقيقية عن صاحب الدور الفعال في تلك الأحداث، طمست فيها تماماً معالم شخصيته ونياته ودوافعه الذاتية، فبدا وكأنه جزءٌ مسيّر منجرف في تيار الأحداث، لا عاملاً مسيّراً لها. لذلك ولأقدم لقارئي صورة واقعية لتلك الحقبة التي مرت على سياسة التعليم قررتُ أن لا أحرم القارئ من ذكرياتي وانطباعاتي عنها.

كانت اللامبالاة وعدم الاكتراث يسود ساعات التدريب الثقيلة. ولا أذكر أحداً منّا تعامل معها بجديّة. ومما أذكره صورة كبيرة جانبية نصفية للدكتور سامي شوكت بوصفه

---

(٢٣) س. لونگريك S. Longrig: (العراق ١٩٠٠-١٩٥٠: التأريخ السياسي، الاجتماعي والاقتصادي Iraq 1900-1950: A Political, Social and Economic History، أوكسفورد ١٩٥٣). خدم المؤلف في العراق ضابطاً سياسياً ومستشاراً مستخدماً لدى الحكومة العراقية. وتجده في كتابه كثير المجاملة لرجال الحكم، حذراً جداً من ذكر ما يسيء، طاوياً صفحات من تأريخه قد تثير حساسيات معينة ولذلك لم يكن كتابه موضوع اعتماد.

(٢٤) العراق المستقّل ١٩٣٢-١٩٥٨: دراسة في الشؤون السياسية العراقية Independent Iraq 1932-1958: A Study of Iraqi Politics، لندن ١٩٦١.

حامي الفتوة إلى جانب صورة الملك وهو بنطاقه العسكريّ وبشاربه الشبيه بشارب هتلر المشذب، وقد ثبت تحتها على الجدار رقعة بخط ثلثي كبير فيها هذه الفقرة: «إخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم» - حديث نبوي شريف.

وضع هذان الرمزان في كلّ صفٍ من الصفوف، وقد خطر ببالي فيما بعد أن أبحث عن هذا الحديث في صحيح البخاري والصحاح الثلاثة الأخرى المعتمدة، فلم أجد له أثراً. فمن هو ذاك المرائي الذي نحّله لسان الرسول؟ وسواء في الأمر أكان الحديث صحيحاً أو منحولاً أو موضوعاً لهذا الغرض بالذات فقد اتخذت كلمة «اخشوشنوا» فيه للدعاية وللتعليقات الشيطانية فيما بيننا، إذ لم يكن بيننا مع الأسف موسر أو مترف بحاجة إلى «الاخشيشان!» إلاّ نفر ضئيل. وقد فرض النظام على الفتى أن يخيط على حسابه بزته العسكرية من قماش (الخاكي) الخفيف المعروف، وكان علينا أن نرتديها صيفاً وشتاءً أثناء التدريب، فنضطر لمواجهة الشتاء القاسي إلى تكديس ما أمكن من الثياب الداخلية تحت القمصلة والسروال وهو أشبه بسروال الجندي الألماني. أمّا النطاق الجلدي فكانت الدولة مصدره وهو طبق شكل نطاق الجندي الألماني الذي يرى الآن في أفلام الحرب.

بعد إكمال التدريب دون السلاح جيء بنا يوماً إلى الثكنة الحجرية[٢٥] إحدى مقرات الجيش وسلّم لكل منا بندقية غارقة في الزيت الثخين، لنقضي يوماً كاملاً في تنظيفها تحت إشراف نواب عرفاء أنيط بهم واجب التدريب برعاية ضابط الجيش في المنطقة. كانت عقوبة التخلف عن التدريب صارمة قد تصل حدّ الحرمان من سنة دراسية واحدة، وبسبب هذا كان الدوام على التدريب منظماً إلاّ أنه بقي ذا طابع هزلي وواجباً ثقيلاً فيه عنصر إرغام.

وارتدى المدرسون والمدرسات البزات العسكرية من الخاكي، وهي بالأصل لا تختلف عن بزة الضباط ابتداء من السدارة ونزولاً إلى النطاق والسروال، وأعطيت لهم رتبهم التي يستحقونها بحسب رواتبهم الشهرية كما جاء تفصيلها في النظام، وقد اتفق

---

(٢٥) بنى هذه الثكنة الفريق محمد إينجه بيرقدار، الذي نصب والياً على الموصل في ١٨٤٠. من الطريف أن نذكر أن الموصل كانت أوّل مدينة من مدن الإمبراطورية العثمانية أعلن فيها تطبيق نظام القرعة العسكرية. فحصلت ثورة في المدينة ألجأت الفريق إلى توجيه مدفع الثكنة إلى المدينة مهدداً بدكّها.

بمحض صدفة أن تكون شاراتها مطابقة لشارات ضباط الليفي الآشوري، وهو ما غفل عنه واضعو النظام على ما أظن. فأدىّ ذلك في الموصل إلى مواقف مضحكة كما سيرد فيما بعد. كما قضى النظام أن يكون للفتيات رتب، إلاّ أن ذلك لم يطبق بحسب علمي. وأعطيت ألقابٌ لموظفي الوزارة وأعضاء أسرة التعليم. فوزير المعارف هو (أمير الفتوة) ولم يجد له النظام رتبة أو زيّاً، إلاّ أنه حددها لمدير المعارف العام وهو سامي شوكت، فدعي بلقب (حامي الفتوة) ومنح مدير التربية البدنية العام لقب (نائب حامي الفتوة) تليها ألقاب أخرى متدرجة بحسب الراتب والشارات على الكتف، ومنها عرفنا الرواتب التي يتقاضاها كلّ واحد من مدرسينا ولم ينج أكثرهم من تعليقاتنا الساخرة حول طريقة ارتدائهم بزاتهم وسيرهم وتبخترهم فيها. كان ارتداء الزي العسكري مقصوراً على أوقات الدوام. إلاّ أن بعضهم كان يستثقل تغيير ثيابه بعد انتهاء ساعات الدراسة، فتراهم يخطرون في الشوارع ليثيروا انتباه المارة إليهم.

ولابُد لي من قول الحقيقة هنا، فمما خبرته، وما سمعت عنه في مدن الشمال الكبرى التي طبق فيها النظام، خلصتُ كما خلص واضعوه أنفسهم بالأخير إلى هذه النتيجة:

إن كان الغرض من إنشاء الفتوة تنمية الروح القوميّة والشعور بالمسؤولية تجاه الوطن وبذر الروح العسكرية في الطلبة فقد فشل فشلاً تاماً. ولم ينل (سامي شوكت) معقب التدريب على صناعة الموت غير السخرية والازدراء في آخر المطاف.

«وصناعة الموت» هذه يجملها في خطاب له ألقاه في خريف العام ١٩٣٥ بعد استنان نظام الفتوة مباشرة:

«نحن نقرأ ونسمع بأنه لا يوجد استقلال سياسي بدون استقلال اقتصادي، ولا استقلال بدون التعليم. مع هذا فمصر والهند رغم كونهما غنيتين ومتقدمتين ثقافياً فهما لا تنعمان بالاستقلال، في حين أن أفغانستان حيث الحياة ما زالت في القرن الرابع عشر، والمملكة العربية السعودية حيث يعيش الناس على التمر وحليب الجمال[٢٦] ولا حظّ لهم من العلوم العصرية واليمن التي بدون ثروة هما مستقلتان. . . إن لم يكن عند مصطفى كمال أربعين (أربعون) ألف جندي مدرّب على صناعة الموت، هل كُنّا سنرى تركيا تستعيد أمجاد السلطان

(٢٦) في ذلك الحين لم يكتشف النفط هناك بعد.

سليم؟ وفي القرن العشرين لو لم يكن (بهلوي) يملك ألف ضابط أتقنوا هذه الصناعة المقدسة، هل كنا سنرى إعادة أمجاد داريوش؟ ولو لم يكن عند موسوليني عشرة آلاف من ذوي القمصان السوداء الذين تمرسوا في صناعة الموت لما كان قادراً على وضع تاج الإمبراطور الروماني على مفرق فكتور عمانوئيل. السبب بسيط جداً، شباب العراق وناشئتهم يجب أن يُدربوا ليكونوا جنوداً يتقنون صناعة الموت»[٢٧].

أُريد لهذه النفايات الفكرية أن يؤمن بها عشرات الألوف من طلبةٍ بلغوا سِنّ الوعي والإدراك، ولا أقول سنّ الرشد، وأن يهتدي بها في مجال الممارسة المهنية أكثر من خمسة آلاف معلم ومعلمة أو منتمٍ إلى أسرة التعليم خلافهما. كان الاندفاع نحو عسكرة التعليم لا يمكن مقاومته كما يبدو، فصالح جبر الشيّعي المثقف الذي كان وزيراً للمعارف عندما استنّ نظام الفتوة لم يكن يخفي تأففه وسخره بالأمر كله في مجالسه الخاصة. وفي العام ١٩٣٩ كان الدكتور فاضل الجمالي، وهو شيعي أيضاً ومن خريجي أشهر المعاهد العلميّة في الولايات المتحدة، مديراً عاماً للتدريس والتربية يرتدي بزّة الفتوة بعنوان (الناظر الأول) ويحمل على كتفيه رتبتها المقررة وهي شريط من القصب (المذهب) وسيف وقلم متقاطعان فوق لوحة الكتف[٢٨].

---

(٢٧) من كرّاس نشر في العام ١٩٣٥ ووزع على المدارس يحمل عنوان: (هذه أهدافنا).

(٢٨) أذكر منظره بالضبط وكأنها البارحة: في صيف العام ١٩٣٩ كنت قد نلت الشهادة الثانوية وشخصت إلى بغداد أنشد قبولاً في واحدة من البعثات العلمية الدراسية. انتهى المطاف بي فيما بعد إلى كلية الحقوق العراقية. حملت أوراقي إلى الوزارة بغية تقديمها لمدير التدريس والتربية (الجمالي)، ومعي كتاب توصية له. فإذا به يخرج يحمل أوراقاً ببزة الفتوة كاملة وبسروال قصير يبدو منه ساقان مكتنزتان وبنطاق عسكري تنفر منه بطنه الكبيرة وعلى شفته العليا شارب مقطوم هتلري، ووجهه الصبوح الذي ينفرج عن ابتسامة لا معنى لها تندّ منه عينان قلقتان تحت نظارتين. ولم أستطع مغالبة ضحكتي، وفيما أنا أحاول سترها شاءت الصدف أن يمرّ بالمنظر الأستاذ (رفيق حلمي) الوطني الكُردي، وكان مديراً لمتوسطة الناصرية أيام نقل إليها منفياً وأيام كنتُ فيها، فإذا به يقف برهة وقد استهواه منظر (الجمالي) مثلي في ما يبدو، لترتسم على وجهه ابتسامته العريضة الملتوية التي عهدتها فيه قبل ثلاث سنين.

وأرغب بهذه المناسبة ألاّ أحرم قارئي من واقعة هزلية أخرى. قلتُ إن الأشرطة التي قضى النظام بوضعها فوق الكتفين تطابق تماماً أشرطة القصب التي تميّز ضابط الليڤي الآشوري. شاء سوء حظ مدرس الجغرافية (يعقوب الأخضر) أن يلتقي في الشارع ثلّة من الجنود الآشوريين فنظروا إلى أشرطته الثلاثة التي تميز الفارس الأوّل وفق نظام الفتوة، ولم ينتبهوا إلى سدارة الأستاذ =

كان الجميع يتحدث عن الوحدة العربيّة والجيش والسبيل العسكري لإنقاذ الوطن السليب من أيدي الصهاينة. وراحت تشع الأفكار القوميّة من نادي المثنى بمرشده الروحي (الحصري)، وتلميذه (السيد محمد مهدي كبّه)[٢٩] الذي لقبّه أحد الصحفيين المصريين بـ(غوبلز القوميين) بسبب المقالات الحماسية التي تنشرها له الصحف القوميّة، حول الوحدة العربية الكاملة، حيث يتحد فيها العرب شعوراً وفكراً، ويشاركون في آمال وتطلعات واحدة، و هذا ما يمكن تحقيقه بزرع نفس المبادئ العربيّة، وبجعل الفرد ملكاً للدولة. وكان هناك أيضاً (علي ناصرالدين) وهو تلميذ آخر للحصري يردد مؤيداً:

«العروبة هي دين الأمّة العربية. والفرد العربي يجب أن يشعر أنه الشعب، وأن الشعب هو».

سنرى فيما بعد أن التأثير الذي أحدثته النظرية الألمانية في القوميّة، مع أفكار (الحصري) وكتاباته، انعكست في أفكار (ميشيل عفلق) أحد مؤسسي حركة البعث العربي الاشتراكي وأفضل مفكر قومي على نهج (الحصري). وآمن الجميع بأن نظام الفتوة هو واحد من الطرق الفعالة التي تفضي إلى هذه النهاية.

* * *

ورد نظام الفتوة بصيغة المذكر. وفي اللغة نستخدم ضمير التذكير والمذكر الصرفي وجوباً عندما يراد به الجنسان في حالة اجتماعهما. وقد يكون إغفال المؤنث مقصوداً من المشترع بتفادي ضجة احتجاج شعبيّة قد يحدثها شمول النظام الجنس اللطيف في مجتمع ما زال يعتبر المرأة متاعاً من جهةٍ وجزءاً لا يتجزّأ من مقومات الشرف من جهةٍ أخرى. وصدرت تعليمات وزارية بلزوم ارتداء المعلمات الخاكي أيضاً، تحت العباءة السوداء (وهي زيّ النساء الشائع الذي يخرجن به إلى الشارع وقتذاك) لكن بدون نطاق عسكريّ كالذكور من المعلمين. لا بدّ أن ذلك كان للحيلولة دون إبراز صدورهنّ بشكل مغرٍ وعلى أن يكتفى منهن بحزام جلدي.

= (وكانت الرتبة عندهم تعادل رتبة (راب تريما) أي (آمر المائتين)، فبادروا تلقائياً برفع أيديهم اليمنى بالتحية العسكرية الرشيقة. وارتبك المدرس وأخذ يتطلع يمنة ويسرة ولم يردّ التحية وراح الجنود الليفي الأربعة يتلفتون إلى الخلف وقد احتدم جدال بينهم. فيما راقبنا ثلاثتنا نحن تلاميذه الواقفين على الرصيف المنظر الطريف وكان مصدر تعليقاتنا ردحاً من الزمن.

(٢٩) رئيس حزب الاستقلال فيما بعد. وعضو مجلس السيادة بعد الرابع عشر من تموز.

ولبست المعلمات الخاكي، ووقع ما لم يكن في حساب الوزارة مطلقاً. فقد استغلت بائعات الهوى والقوادات والقوادون هذا الزي. وكانت به فرصتهم الذهبية في تقديم بضاعتهم بلباس الخاكي تحت العباءة على أساس كونهن من أسرة التعليم يتعاطين الفحش سِرّاً. وشاعت حكاياتٌ فاضحة وتناقلت الألسن في المجالس والمنازل أنباء فضائح لا أساس لأغلبها. فأسرعت الوزارة إلى إلغاء أمرها. وانتهت محنة المعلمات المسكينات، بعد أن نلن الكفاية من الطعون بفضيلتهن والشبهات بسلوكهن بفضل حامي الفتوة.

إلاّ أن للعملة جانبها الآخر. ففي الوقت الذي بدت تمارين الفتوة عبئاً ثقيلاً وواجباً بغيضاً عند معظم الطلبة المكلفين لاسيما المجدّ منهم في طلب العلم والمعرفة والتواقين إلى مسلك في الحياة لا تسمع فيه قعقعة السلاح ولا صيحة الحرب، بدا وكأن هناك عدداً منهم (ربما هم أولئك الذين اعتمدوا اتخاذ الجيش مسلكاً ومستقبلاً) راقت لهم الفكرة ووجدوا فيها بغيتهم. فقد عثرتُ بعد زهاء نصف قرن على واحد من هؤلاء فتىً آخر مثلي يشيد بالفتوة وينقل عنها طرفاً مما نشرته وزارة المعارف في حينه عنها على سبيل الدعاية والتحبيذ[٣٠] في كتاب متأخر.

---

(٣٠) للمقارنة أيضاً (أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية العراقية، ط، لندن ١٩٨٦، الص ١٨-١٩. تأليف العميد الركن إسماعيل العارف). جاء هذا النص: "تولى في أواسط الثلاثينات مديرية المعارف العامة الدكتور سامي شوكت فحاول أن يقلد ما كان يجري في ألمانيا النازية عندما زارها واطلع على تنظيمات الشباب الهتلري شبه العسكري فيها. فأدخل نظام الفتوة في المدارس المتوسطة والثانوية في العراق واتخذ له شعاراً عبارة (إخشوشنوا) ونشر مفاهيمه بين الشباب في المدارس والكليّات. ثم قررت الحكومة تعيين ضابط من الجيش ليدرب طلاب الصفوف المنتهية من الثانويات والمتوسطات تدريباً عسكرياً لمدة ساعة واحدة كل يومين بالأسبوع عصراً بعد انتهاء الدروس اليومية. ثم وجد لباس الفتوة وبدأ الطلبة يرتدونه أيام التدريب العسكري، وكان يتألف من بذلة شبه عسكرية مع لباس الرأس من قماش الخاكي، فكنّا نرتدي البدلة أيام التدريب ونخرج من المدرسة بمسيرة عسكرية مخترقين شوارع بغداد الرئيسية ومنشدين الأناشيد الحماسية ونحن في طريقنا إلى ساحات التدريب. لقد كانت تلك محاولةً جيدة لإحياء الروح العسكرية بين الشباب وبعث الحماس الوطني بينهم ورفع معنوياتهم واعتزازهم بتأريخهم وافتخارهم بأمتهم ووطنيتهم، وقد داعب ذلك النظام طموحات الشباب العراقي الذي كان يتطلع إلى بناء وطن قويّ مستقل يتصدر حركة التحرر الوطني والقوميّ للشعوب العربيّة، التي كانت تنظر إلى العراق في ذلك الحين على أنه (پروسيا العرب). استخدمت فكرة نظام الفتوة من حركة الفتوة العربيّة التي تكونت عبر التاريخ منذ أزمان بعيدة =

إن الإخفاق الذي منيت به عملية تقليد النازية في زرع الروح القوميّة أو الوطنية (كما سميت أحياناً) في نفوس الناشئة العراقية قد يعود في نظري وبالدرجة الأولى إلى قلة اهتمام الدعاة القوميين ومفكريهم بطبيعة تكوين المجتمع الذي اتخذوه حقلاً لتجاربهم القوميّة. من المؤسف حقاً أن لا يكون هؤلاء على معرفة صحيحة بتأريخ النفوذ العربي في الأقطار الناطقة بالعربيّة ولاسيما العراق. بل ربما ما كانوا على استعدادٍ ليتدارسوا تقلبات حظوظه وتفاعله مع الرواسب التاريخية والاجتماعية السابقة لمرحلة السيادة العربيّة. كانوا ينظرون إلى هذا التأريخ من خلال زجاج ملوّن بآرائهم السياسية والقوميّة العلمانية، مسقطين من حسابهم النظريّ عاملاً مركزياً فاعلاً في الاتجاه القوميّ لم يستغن القوميون قطّ عنه باطنياً وإن حاولوا استبعاده ظاهرياً. كانوا أعجز من أن يدركوا قوة الركن الديني في تأريخ العرب بوجهيه النافع للقوميّة العربيّة والضار بها.

فالعرب ما صعد نجمهم في تأريخ إلاّ بالإسلام وما بنوا حضارتهم به إلاّ بالدينامية التي أشاعتها هذه العقيدة في همم أقوام أخرى أخضعوها ردحاً من الزمن بالسلاح. لذلك كان على الذين أرادوا فهم الشرق العربي فهماً صحيحاً، بغية إصدار أحكام صحيحة، أن يدرسوا الإسلام وأن يدرسوا على ضوئه بناء مجتمعاته وعن علاقة الإسلام بالأقليات الدينية.

الإمبراطورية العثمانيّة، كما كان الحال في الإمبراطورية العباسية - والأموية التي

= بمفاهيمها الخلقية العالية كالشجاعة والصراحة والصدق والدفاع عن الضعيف والتضحية في سبيل الحق والعدل. وانتعشت كنظام اجتماعي وسياسيّ في زمن واحدٍ من أعاظم خلفاء بني العباس المتأخرين هو الناصر لدين الله العباسي. تنبّه الخليفة إلى أهمية نظام الفتوة عندما لاحظ وسمع كيف هبّ فتيان بغداد بعفويّة بطوليّة لمساعدة الخلافة على طرد بقايا السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية وجعلوا من الخلفاء ألعوبةً بأيديهم فاتجه (الناصر) إلى الاعتماد على القيم الأخلاقية العالية التي يغرزها نظام الفتوة لتوحيد الإمبراطورية العباسية التي وهنت وزالت هيبتها وتمزقت أوصالها وتفرقت إلى إمارات منفصلة عن مراكز الخلافة. فاعتبر الانتماء إلى نظام الفتوة شرفاً يباركه الخليفة أمير المؤمنين. ونصّب نفسه رئيساً أعلى وحامياً للفتوة فانضم إليها القادة وأعيان القوم والأمراء وحكام الولايات، فكان يرسل البعثات الرسميّة من لدنه لتخلع عليهم لباس الفتوة المهيب باسم أمير المؤمنين» آه. (كان المؤلف أحد الضباط الأوائل الذين فكروا بالإطاحة بالحكم الملكي وانضموا إلى المجموعة الأولى التي صممت الانقلاب. وقد عُيّن وزيراً للتربية والتعليم في الفترة الأخيرة من حكم عبدالكريم قاسم.

سبقتها - كانت تتألف من قوميات متباينة وديانات عديدة. والعرب الذين كانوا واحدة من تلك القوميات ظلوا كغيرهم لا يشعرون بأن الحكم التركي هو حكم أجنبي لأنهم معه على دين واحد. ولفظة (الأجنبي) لم تكن في ذلك الحين تعني ما تدّل عليه في القرن العشرين، أعني الانتماء إلى دولة أجنبية أو قومية أخرى، أو أن المقصود باللفظ هو شخصٌ غير مرغوب فيه عند استخدامها سياسياً.

إلاّ أن الصدمة النفسية جاءت عندما هبت ريح حركات أوروپا القوميّة في شراع البلاد الناطقة بالعربيّة. وبدأ الاتصال الفكري عندما راحت تلك البلاد تأخذ أطرها السياسية لتغدو أعضاء في الأسرة الدولية. هي الصدمة الكبرى الحادّة التي لم يصمد لها القوميّون العروبيون عقلانياً نتيجة تعرّفهم السريع بالغرب، الذي يدين بسياسةٍ أساسها المصلحة الذاتية والقوة. ولذلك ما عتم ابتهاج النظريين العروبيين بتحرير بلادهم والخلاص من ويلات الحروب أن انقلب إلى خيبة أمل مرة وغضب كاسح وحقدٍ دفين على أولئك الأجانب الذين حرروا بلادهم من حكم ليخضعوها لحكمهم ونفوذهم.

وأدخل هؤلاء إلى الشرق العربي أنظمة سياسية جديدة باسم الديمقراطية لا عهد لهم بها، وحاولوا تطعيم مجتمع إقطاعيّ مشيخيّ بطبيعته، دينيّ تقليدي بروحيته، بمبادئ تلك الأنظمة الغريبة عنه ولم تكن النتائج جيدة. لم تكن الديمقراطية مادة للاستيراد والتصدير. ولا ضمان في أن ينجح نظام ديمقراطي فوراً في تربة غضّة يعدها أصحاب التربة أنفسهم ولذلك تعثرت الديمقراطية في العراق. فالديمقراطيون الليبراليون أو بالأحرى القوميون الديمقراطيون قرنوها بالمحتل الأجنبي واعتبروها واحدة من وسائله في تحكيم قبضته وتدريب صنائعه المحليين على الإفادة الشخصية، يقابل ذلك نفرة وضيق ونفاد صبر من الأساليب الدستورية المعقدة في تنظيم نشاط جهاز الدولة، بتحديده السلطة العامّة وتقنينه الدقيق للمسؤوليات وهو ما لم تعرفه الطبقة الحاكمة الجديدة أو تألفه، وهي التي عاشت في جو الحكم المطلق وبحاكمٍ يحصر في يده كلّ السلطات وينفذها في آن واحد. لذلك وجدت هوى في نفوس الطبَقة الحاكمة، فحاول معظم أفرادها ممارستها تحت ستار النظام الدستوري السائد. واستمدّ القوميون منها ما وافق أفكارهم. لكن ذلك لم يكن سهلاً كما تبينوا.

فدكتاتورية النازيين والفاشيست ما تمكنت من حَلّ المشاكل التي اعترضتها إلاّ بوجود أرضيّة صالحة في مجتمعاتها. وهي مشاكل تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي تصدى لها القوميون في البلاد الناطقة بالعربيّة، فضلاً عن الاختلاف في بعض

الأهداف. وقد أتينا في ما سبق إلى عناصر المشابهة.

تتألف ألمانيا من الشعب الجرماني الذي يتكلم لغة واحدة خالية من مشكلة تعدد اللهجات، كما أنه يدين بتراث دين واحد حُلّت مشكلة الخلاف المذهبي فيه حلاً أبدياً منذ زمن بعيد. ونظرية نقاوة العنصر الألماني، وهي ليست من ابتكار النازية، ترفع الألمان إلى مرتبة العرق الأعلى الذي قُدّر له أن يسود الأقوام الأخرى ويسخّرها لخدمته (وقوانين نورمبرگ) التي اشترعها هتلر، وكانت تقضي بطرد كل عنصر غير جرماني من المجتمع الألماني، لها أصول تأريخية - دينية عند الألمان[٣١].

الشعب الألماني شعبٌ متجانس، عبد للنظام، ذو تقاليد عسكرية كانت جزءاً من شخصيّته القوميّة، لا يجد حرجاً في إطاعة الدولة التوتاليتارية أو العسكرية. اقتضت له زلزلة هائلة كالحرب العظمى الثانية لوضعه على الطريق الديمقراطي.

وفي حينه كانت البلاد الناطقة بالعربيّة تفتقر إلى هذه المؤهلات، فمجتمعاتها غير متجانسة بلهجات لغوية متباينة، ونفرة طبيعية من سلطات الدولة المتحكمة، تترجمها ثورة مستديمة صامتة على الحكام المستبدين بها تتفجر أحياناً لتسلك سبيل دولة لا جدوى فيها وتترجم بمحاولات مستمرة في التحايل على القانون والنظام بغية الخلاص من تبعاته وأعبائه.

---

(٣١) صدرت في ١٥ من أيلول ١٩٣٥. وبمقتضاها جُرّد اليهود من الجنسية الألمانية وحقوق المواطنة. وأنزلتهم منزلة الرعايا والعبيد. إذ حظرت عليهم الزواج بالآريين وإقامة علاقة جنسية معهم خارج نطاق الزوجية. ومنعتهم من استخدام خدم ألمان تقل أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاماً. وقد صدر خلال السنوات الأربع التالية (١٣) قانوناً ومرسوماً ملحقاً بتلك القوانين تتضمن تجريد اليهود من صفة الآدمية، وأُخرجوا من الوظائف العامة والمدنية والصحافة والراديو والأعمال الزراعية والتعليم والمسرح والسينما وطُرد تجارهم من الأسواق. وحرم المرسوم الصادر في ١٩٣٨ عليهم مزاولة مهن المحاماة والطب والتجارة.

كانت المسيحية الألمانية مدربة تدريباً تأريخياً على كره الساميين، فلم تثر هذه القوانين احتجاجاً عاماً أو استنكاراً. كان (مارتن لوثر) مؤسس المذهب البرتستانتي وهو ألماني خصماً عنيداً للسامية. ومؤمناً متحمساً بالطاعة المطلقة للسلطة السياسيّة. أراد أن تتخلص ألمانيا من اليهود تماماً. وحرّض مواطنيه ونصحهم «بأن يجرّدوهم من كلّ نقودهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم وإشعال النار في كنائسهم ومدارسهم، وأن تهدم بيوتهم وتدمر تدميراً وأن يحشروا تحت سقف واحدٍ في أسطبل كالغجر وأن يُتركوا في شقاء وعبودية ينوحون ويشكون إلى الله ما فعلنا بهم دون انقطاع» (أنظر: فروث نيومان Frowt L. Neumann : البهموث The Behemouth، ط، نيويورك ١٩٤٢، ص١٩٠).

لم يكن لحُلم (الحصري)[٣٢] بجعل الجيش نواة لهذا التجانس القوميّ حظّ كبير من النجاح، مثلما لم تتح لطموح (سامي شوكت) في خلق روح عسكريّة قوميّة عن طريق تطبيق نظام الفتوة على الناشئة أي فرصة من النجاح. وددت لو تابع (الحصري) وأمثاله الملابسات والعثرات التي جلبتها التجربة وكانت في وقتٍ ما الوسيلة المركزيّة لخلق المجتمع القومي المتجانس المنشود في نظرهم، أي تطبيق قانون التجنيد الإلزامي.

والعراقيون الذين هم من جيلي والجيل الذي تلاه يذكرون جميعاً كيف راح المكلفون بالخدمة وذووهم يلجأون إلى الإفادة من الثغرات والثقوب التي لا ينجو منها أي قانون بغية التخلص من الخدمة البغيضة بذكرياتها الأليمة في نفوسهم. وكان قانون الدفاع الوطني سمحاً كريماً بها وقد أخذ بأحكام كثيرة من القانون العثماني المماثل، ولجأ الأهلون كالسابق إلى الاحتيال عليها والإفادة منها بشكل صريح. فأصبح يدل مما يدل على ضعف المشاعر القومية والوطنية والكره المتأصل في إطاعة قوانين الحكومة وأوامرها.

أجل، فرغم كلّ هذا ازداد الجيش كمّاً. ولم يتقدم خطوةً واحدةً كيفاً، إلاّ أن القوميين والحكومة ظلوا يقيسون قوته بضباطه فحسب. في حين بدت الهوة العقلية بين الضابط والجندي تزداد وضوحاً واتساعاً بعد سوق المجندين. ولم يكن هناك من سبيل إلى ردمها ولا فكرت الحكومات في محاولة ما. وظلّ قياس قوة الجيش العراقي عندهم بالعدد والتسلح لا بالروح القتالية أو المعنويات. وكانت كفاءات الضباط المحترفين، وقد أعطيتهم حقهم من الثناء، تضيع بدداً بين سواد وأوزاع جنوده وبين الضباط السياسيين الطموحين قوميّاً وتحكّمهم وبين جمود الضباط العثمانيين السابقين وبلادتهم، ولا مبالاة الذين انتظموا في السلك العسكري بدوافع أخرى آخرها خدمة الوطن والدفاع عنه[٣٣].

---

(٣٢) من كتاباته «يعيش الجندي ضمن مجموعة من أبناء البلاد يؤخذون من مختلف المدن ومختلف العقائد والبيئات فيعيش معهم خاضعاً لنظام واحد يشمل الجميع دون استثناء عاملاً لغاية هي أسمى من كلّ الغايات، غاية تتوخى حياة الوطن وعزّ الأمة. إن حياة الجندي تجعله يشعر شعوراً واضحاً بوجود الأمة والوطن وتعلمه التضحية بالدم والنفس في سبيل بلاده ووطنه». (أنظر ما سبق). يُلاحظ في كتابات الحصري اللاحقة في الستينات أنّ حماسته قلت كثيراً في اعتماد الجيش العروبي سنداً للقوميّة وأداة لتحقيق آمالها.

(٣٣) ليس في وسعي أن أعزو إلى الحاكمين والقوميين تلك الدرجة من الغفلة والعناد، بل الجهل =

كان على القوميّة العربيّة ومفكريها أن يستمدوا عنصر الحيوية والقوة الجماهيرية من معين آخر، وهو الإسلام بطبيعة الحال. فالنبيّ عربي النجاد. وبفضل الإسلام خرج

= بمدى صدود العراقيين عن التجنيد الإلزامي، سيما بعد أن اضطروا بعده إلى إخماد الانتفاضات المسلحة التي نشأت عن تطبيقه باستخدام الجيش. وأظن أن بعضهم كان يحسب لذلك حسابه ويخشى ردود فعله، ولا يخفى عني مثلاً لباقة (الهاشمي) في الإغفال العمدي ذكر نية تطبيقه في منهاجه عند تطرقه إلى الجيش. إذ جاء ما نصه: «توسيع الجيش على أساس الكفاءة للدفاع ضدّ التجاوز الخارجي وللسير بالبلاد لبلوغ الأماني الوطنية وذلك بتزويد وحداته ومعدّاته وبتوسيع القوة الجوية إلى الحدّ الذي يطمّن البلاد على سلامتها». (الحسني: المرجع السالف ج٣. ص١٤٩). لقد استُخدمت الوسائل الشرعية وغير الشرعية للتخلص من خدمة العلم، ومن بعض انعكاساتها في مؤسسة الضباط أن نشأ خلال فترة تطبيقه طبقة من ضباط التجنيد خربي الذمم يقبلون الرشاوى والوساطات لإعفاء المكلّفين، حتى بات هذا الفرع من الجيش بمثابة منفى يبعد إليه كلّ مغضوب عليه من الضباط، أو من شُكّ في ضعف كفاءته.

من الأساليب التي يلجأ إليها المكلفون للإعفاء مثلاً الانخراط في المدارس الدينية أو الدوام في المدارس الأهلية ودفع أجورها العالية بعد الرسوب المتوالي في المدارس الرسمية، كفرصة أخيرة لنيل الشهادة الثانوية وهي أحد أبواب الخلاص من الخدمة، ومحاولات الإعفاء من الخدمة بحجة الإعالة تؤدي أحياناً إلى زواج المكلف بيتيمة الأبوين. أو باصطناع عجز طبي للأب. ومما أذكره خلال السنوات ١٩٤١-١٩٤٣ حين كنت أستعين على نفقاتي الدراسية بإلقاء دروس في اللغة والتأريخ على طلاب مدرستين أهليتين في بغداد: ففي ثانوية (أنيس عادل) بالباب الشرقي كان ما يقارب نصف مجموع طلاب الصفوف المنتهية ممن تجاوز الثامنة عشرة (وهو سن الدعوة للخدمة) أو ناظرها، وأكثر من ثلث أمثالهم في مدرسة الثانوية الأمريكية الأهلية بمحلة السنك. وفي العام ١٩٤٥ كان معظم الطلاب في مدرسة الثانوية الأهلية بالموصل ممن تجاوزت سنه الثامنة عشرة تكرر فشلهم في المدارس الرسمية، فانتموا إلى هذه المدرسة بدلاً من دفعهم إلى الثكنة العسكرية.

فضلاً عن هذا فقد أخذ القانون بالبدل النقدي الذي يختصر التدريب إلى ستة أشهر بدلاً من السنتين. وكانت ثم تلك الامتيازات الاستثنائية الخاصة التي تدّخر لأبناء الذوات والأثرياء المتنفذين منهم لا يعدمون علاقة بالمؤسسة العسكرية المحلية، وعن طريقها يضمنون أن لا يبقى أبناؤهم يوماً واحداً في ساحات التدريب. وتقع الخدمة من نصيب من لا يقوى على ذلك. ففي العام ١٩٤٧ وأنا في الوحدة العسكرية المرابطة في الموصل، جرى سوق المكلفين للدروة السادسة والعشرين على ما أذكر. لم أجد بين المئات الستة أو حواليها الذين سيقوا للخدمة إلاّ نفراً معدوداً من أهل المدينة. أما بقيتهم فمن الفلاحين وأهالي القرى والقصبات. قليل منهم من كان يفهم العربيّة. وأقل من قليلهم نال حظاً من التعليم. ومما أذكره أيضاً أني خلال الأشهر القليلة من خدمتي عالجت أكثر من ثلاثمائة قضية هروب من الجيش بقيت معلقة ضد الهاربين منذ أن تمزق الجيش إثر الهزيمة التي أعقبت حركة رشيد عالي في ١٩٤١.

العرب ليمثلوا على مرسح التأريخ البشري دوراً حضارياً مشمخراً، وكثيراً ما كان المؤرخون يفضلون تعبير (الحضارة الإسلامية) بديلاً عن (الحضارة العربيّة) بفضل ذلك الدور العظيم. وتأريخ العرب وتراثهم مرتبط بالإسلام ارتباطاً لا انفصام له. وقد لا تجد مثيلاً لهذه الرابطة في تأريخ أمم غير الأمة العربيّة.

كان يتعذر على العروبي أن ينأى بنفسه عن الإسلام أو يسقطه من حسابه في مجال العمل القوميّ والدعوة له. ولم يحصل في مدى علمي أن تقرّب مفكّر بآرائه إلى الجماهير المسلمة المؤمنة، أو بنشاطه بينها إلاّ وهو حريص على إظهار إيمانه، أو التظاهر به والمشاركة غير الصميمية في شعائره.

إلاّ أن الإسلام هو كالمسيحية دين تبشيري وليس ديناً قوميّاً منغلقاً على نفسه كاليهودية والهندوسية. لذلك أدى استخدامه عروبيّاً إلى مشاكل وخلّف آثاراً بعيدة المدى. لم يكن من الناحية العقائدية مورداً صافياً في كلّ وقت وحين. بل إن حصيلته في بعض الأوقات كانت التعصّب الأعمى، والحقد المتبادل، وزيادة التنافر بين المذهبين الرئيسين السنيّة والشيعيّة لاسيما في العراق. فهؤلاء الأخيرون وإن كان الشعور الديني يدفعهم أحياناً إلى مظاهرة السنية ومساندتهم، إلاّ أن نظرتهم إلى الإسلام بوصفه ديناً تبشيرياً بقيت قائمة والشيعي الهندي عند الشيعي العربيّ أقرب إليه من السنيّ العربي، تعاملاً وتطبيقاً رغم التظاهر بغير ذلك.

والدين هو بصورة عامة سكين ذات حدين كلاهما ماضٍ قاطع. بتر أحد حدّيها القوميين العرب المسيحيين الذين أخذوا ينأون بأنفسهم عن الحركات العربيّة، وكانوا كما رأينا روّداها الأوائل ونفيضتها ومن جهة أخرى استخدم القوميون العرب الإسلام في إثارة الجماهير وتوجيهها في محاربة الخصوم السياسيين، كالشيوعيين والديمقراطيين الليبراليين بقذف تهمة الإلحاد في وجوههم، لشلّ نشاطهم السياسيّ بين الجماهير المؤمنة. وفي بعض الأحيان لم يسلم الشيعة من طعن القوميين السنيين بعروبتهم. ووقتما كانوا يردون على المطالبة الكُردية بالحقوق القومية والسياسية بأنهم في غنى عنها لأن رابطة الإسلام كافية.

وفي الوقت الذي وجدت حكومة الگيلاني القوميّة ومساندوها القوميون أن الظروف تستدعي قيام حملة دعائية ضدّ الآشوريين لتأليب الرأي العام، صوّرتهم صحافة ذلك الحين بالأوّل بأنهم خصوم الكُرد البارزانيين وغيرهم من القبائل الكردية المسلمة يريدون الانقضاض على أراضيهم ونزعها منهم عنوةً. ولما فشلت الحملة في

تحرك مسلح للكُرد ضدّهم، عادت الصحافة فصوّرتهم حلفاء للكرد يساندون بعضهم بعضاً ضدّ العرب العراقيين وضدّ حكومة بغداد. وعندما تتابعت ثورات الكُرد وانتفاضاتهم عادت الصحافة للمرّة الثالثة فصورت الجهتين دمى وخدماً للبريطانيين يحركونهم بقصد زعزعة الحكم الوطني.

ليس من المعقول أن تلجأ مجموعة من المواطنين أو جزءٌ من البلاد إلى رفع السلاح ومقاومة الحكومة دون أن يكون هناك سبب. والسبب هو أكثر من مجرد حُلم رآه الشيخ أو الرئيس في المنام، أو لأن مسؤولاً إدارياً سجن شخصاً من أتباعه لأنه لم يدفع ضريبة عن غنماته. إن الحكومة كانت دائماً تحبس الأسباب الحقيقية ولا تحاول مناقشة الأمر على صعيد الصحافة، إلاّ بما يتفق وإخراج القضية بمثابة تمرد أو عصيان أهوج. ففي موضوع قيام الشيخ أحمد البارزاني مثلاً صورت الحكومة حملتها العسكرية عليه بمثابة حملة جهاد إسلامية بسبب زيغه وارتداده عن الدين الإسلامي.

وبعين المنوال لم يكن كافياً عند القوميين أن يضعوا أحداث آب في صيغة: «أحفاد آشور ضدّ أبناء يعرب». فقد كان الأسلم والأضمن أن يضعوها للأغلبية العراقية بصيغة: «الإسلام ضدّ المسيحيّة». وهكذا كان.

كانت المناسبة الأولى لزواج القوميّة بالعقيدة الدينية. وقد لحقتها مناسبات أخرى أُرغمت خلالها القومية العربيّة على أن تبدو مسلمةً أولاً وعربيّة ثانياً. فخلفت عند أفول شمسها وفي أعقابها حركة التشدد الإسلامي التي عُرف أعضاؤها بالأصوليين، وما هم من الأصالة الإسلامية في شيء - بالدماء التي سبحت بها البلاد الناطقة بالعربيّة وغير الناطقة بالعربيّة سواء بسواء.

كما بقيت تحمل في رحمها نطفة النازية وعقابيلها إلى الأخير.

ملحق
نظام الفتوة رقم (٥٠) لسنة ١٩٣٥

نحن ملك العراق، بعد الاطلاع على المادة الثانية من قانون المعارف العامّة وبناءً على ما عرضه وزير المعارف ووافق عليه مجلس الوزراء أمرنا بوضع النظام الآتي:

المادة الأولى: يسمّى هذا النظام بنظام الفتوة.

المادة الثانية: غايته تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق، وخصال الرجولة والمفاداة وتدريبهم على التمارين العسكرية والرّماية وما يتبعها من خصال حسب النظام والطاعة.

الباب الأول: المخيّم

المادة الثالثة: تقوم وزارة المعارف بإنشاء مخيم صيفي سنوي في بقعة مناسبة من الجبال لفتيان المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع.

المادة الرابعة:

(أ) يكون الاشتراك في هذا المخيم اختيارياً على الطلاب في المدارس والصفوف التي تعينها وزارة المعارف وفي الوقت الذي تعيّنه.

(ب) لا تقّل دورة المخيم عن الشهر الواحد.

المادة الخامسة:

(أ) تقوم وزارة المعارف بتجهيز المخيم بكل المعدات وبإعاشة الفتيان ودفع أجور نقلهم من المخيم وإليه.

(ب) تعين وزارة الدفاع من تعتمد عليهم من فضلاء الضباط للقيام بالتدريب العسكري وتقديم الأسلحة والعتاد لهذا الغرض.

المادة السادسة: يجوز لفتيان المدارس الخصوصية من المستوى المعين للمدارس الرسمية أن يشتركوا في المخيم على أن يحصلوا على موافقة وزارة المعارف وعلى أن يدفعوا أجور نقلهم ونفقات إعاشتهم.

المادة السابعة: (أ) تقوم وزارة المعارف بوضع منهج لدورة المخيم بعد استشارة وزارة الدفاع فيما يتعلق بتنظيم المخيم والتدريب العسكري والرماية.

(ب) يشجع الطلاب في أوقات الفراغ على القيام بأعمال مختلفة، كالمطالعة

والأسفار القصيرة والأعمال اليدوية والألعاب الرياضية والرسم والتصوير الشمسي وغير ذلك. وتعد وزارة المعارف المعدات لذلك على قدر الإمكان.

المادة الثامنة: يكون النظام في أوقات التدريب في المخيم عسكرياً وفي سائر الأوقات عسكرياً - تربوياً. وتطبع وزارة المعارف التعليمات اللازمة لكيفية سير المخيم بمساعدة وزارة الدفاع.

المادة التاسعة: يعتنى عناية خاصة بصحّة الفتيان وتقديم الطعام من نوع الطعام الذي يقدم للجيش وتعيّن وزارة المعارف طبيباً خاصاً للمخيم.

المادة العاشرة: تكون ألبسة الفتيان شبه عسكرية وبسيطة ومن طراز تصنعه وزارة المعارف.

المادة الحادية عشرة: (أ) لوزارة المعارف أن تستفيد من وحدات الجيش في المراكز التي توجد فيها وأن تدخل في منهجها تمارين أسبوعية خلال السنة الدراسية في التدريب العسكري للصفوف المنتهية في المتوسطات والثانويات ودور المعلمين والصنائع، وعلى وزارة الدفاع أن تقوم بتعيين المدربين وتقديم الوسائط والعتاد لهذه الغاية.

(ب) على وزارة المعارف أن تخصص الوقت المناسب في المنهج لتعليم المصطلحات العسكرية والمعلومات البسيطة عن تأريخ الحرب.

المادة الثانية عشرة: تسعى وزارة المعارف في تعيين آمري الحظائر والطلائع من تشكيلات الكشافة من الناجحين في التدريب العسكري والمشتركين في الرمي.

المادة الثالثة عشرة: على وزيري المعارف والدفاع تنفيذ هذا النظام.

(كتب ببغداد في اليوم الثالث من شهر شعبان سنة ١٣٥٤ هجرية واليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٥ ميلادية)

الملك غازي، ياسين الهاشمي (رئيس الوزراء)، رشيد عالي (وزير الداخلية)،
نوري السعيد (وزير الخارجية)، جعفر العسكري (وزير الدفاع)،
صادق البصّام (وزير المعارف)، رؤوف البحراني (وزير المالية)
ومحمد زكي (وزير الاقتصاد والمواصلات)

نشر في الوقائع العراقية: العدد ١٤٦٩ بتأريخ ٧/ ١١/ ١٩٣٥.

نظام الفتوة رقم (٢٧) لسنة ١٩٣٩

بعد الاطلاع على المادة الثانية من قانون المعارف رقم () للسنة () وبناءً على ما عرضه وزير المعارف ووافق عليه مجلس الوزراء أمرت بوضع النظام الآتي:

المادة الأولى: الغاية من الفتوة والكشافة هي تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمّل المشاق والمفاداة وبث الروح العسكرية وصفات الرجولة والفروسية وما يتبعها من خصال حسب النظام والطاعة وذلك بواسطة التدريب العسكري على اختلاف أنواعه.

المادة الثانية: يشمل هذا النظام موظفي وزارة المعارف وتلاميذ مدارسها باستثناء موظفي دار الآثار القديمة والموظفين الآخرين وفقاً لتعليمات وزارية.

المادة الثالثة: يطبق على تلاميذ المدارس بما يخصّ تدريب الكشافة فقط وذلك بموجب تعليمات وزارية.

الباب الأول: المراتب والرُتب

المادة الرابعة: ينقسم موظفو المعارف إلى ثلاثة مراتب ويعتبرون ضباط فتوة:

أولاً: برتبة النظّار: الموظفين (كذا) من راتب ٤٢ ديناراً فما فوق.

ثانياً: الفرسان: الموظف من راتب ١٨-٣٦ دينار.

ثالثاً: النظراء: الموظف من راتب ١٥ دينار فما فوق.

المادة الخامسة: تطلق العناوين التالية لضباط الفتوة بموجب منصبهم ورواتبهم كالآتي:

أ- المدير العام: عنوان حامي الفتوة.

ب- مدير التربية البدنية والتدريب العسكري: عنوان نائب حامي الفتوة.

ج- الناظر الأوّل: الموظف براتب ٦٠ ديناراً.

د- الناظر الثاني: الموظف براتب ٤٨ ديناراً.

هـ- الناظر الثالث: الموظف براتب ٤٢ ديناراً.

و- الفارس الأوّل: الموظف براتب ٣٦ ديناراً.

ز- الفارس الثاني: الموظف براتب ٣٢ ديناراً.

ح- الفارس الثالث: الموظف براتب ٢٥ ديناراً.

ط- المؤيد الأول: الموظف براتب ٢١ ديناراً.
ي- المؤيد الثاني: الموظف براتب ١٨ ديناراً.
ك- النصير الأوّل: الموظف براتب ١٥ ديناراً.
ل- النصير الثاني: الموظف براتب ١٢ ديناراً.
م- النصير الثالث: الموظف براتب ١٠ دنانير.
ن- العاضد الأوّل: الموظف براتب ٨ دنانير.
س- العاضد الثاني: الموظف براتب ٦ دنانير.

المادة السادسة: يطلق عنوان (أمير الفتوة) لوزير المعارف.

المادة السابعة: يخضع تلاميذ المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين ومدارس الصناعة والمدارس العالية لمبادئ الفتوة.

المادة الثامنة: يعتبر جميع تلاميذ المدارس الوارد ذكرها في المادة القانونية فتياناً وتمنح الرتب الآتية للناجحين منهم في التدريب.

(أ) رئيس الفتيان، (ب) الفتى الأول، (ج) الفتى الثاني، (د) والفتى الثالث.

المادة التاسعة: يكتسي موظفو وزارة المعارف وتلاميذ المدارس لباس الفتوة بموجب تعليمات وزارية ويذكر فيها شكل اللباس ونوع التجهيزات والموظفين الذين يكتسُون ذلك اللباس. ولا يجوز اكتساء لباس الفتوة إلاّ لأغراض التدريب وفي المعسكرات والاستعرضات.

الباب الثاني: الشارات

المادة العاشرة: يحمل ضباط الفتوة الشارات الآتية حسب رتبهم وتعين قياس الشارات ونحلاتها بموجب تعليمات وزارية:

أ- لأمير الفتوة: عنوان حامي الفتوة.

ب- لحامي الفتوة: شريطان من القصب وسيف وقلم متقاطعان على قاعدة من القصب فوق البندقية.

ج- للناظر الأوّل: شريط واحد من القصب وسيف وقلم متقاطعان فوق البندقية.

د- للناظر الثاني: سيف وقلم متقاطعان على لوحة الكتف من البندقية بدون شريط.

هـ- الناظر الثالث: أربعة أشرطة من القصب بعرض ستمتر فوق لوحة الكتف.

و- الفارس الأوّل: ثلاثة أشرطة من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ز- الفارس الثاني: شريطان من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ح- الفارس الثالث: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ط- المؤيد الأوّل: أربعة أشرطة من القصب بعرض نصف سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ي- المؤيد الثاني: ثلاثة أشرطة من القصب بعرض نصف سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ك- النصير الأوّل: شريطان من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ل- النصير الثاني: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

م- النصير الثالث: ثلاثة أشرطة فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

ن- العاضد الأول: شريطان فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

س- العاضد الثاني: شريط واحد فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

المادة الحادية عشرة: يحمل الفتيان الشارات التالية:

(أ) رئيس الفتيان: أربعة أشرطة من الكتان الأبيض بعرض سنتمتر على العضد.

(ب) الفتى الأوّل: ثلاثة أشرطة.

(ج) الفتى الثاني: شريطان.

(د) الفتى الثالث: شريط واحد.

الباب الثالث: تدريب الفتوة والمعسكرات

المادة الثانية عشرة: تدخل وزارة المعارف في مناهجها التدريبية تدريب الفتوة وتعين أوقات التدريب والصفوف التي يشملها بتعليمات وزارية.

المادة الثالثة عشرة: تعيّن وزارة الدفاع، الضباط وضباط الصّف للقيام بتدريب الفتوة على الأسلحة. وتقدم الأسلحة والعتاد والمواد الأخرى لإجراء هذه الغاية.

المادة الرابعة عشرة: يعفى من التدريب للفتوة والاشتراك في المعسكرات التلميذ والموظف الذي يثبت بالفحص الطبي أنه غير لائق لخدمة الفتوة بموجب وصايا اللياقة البدنية للخدمة العسكرية، على أن يجري الفحص من قبل هيئة طبية تعينها وزارة المعارف.

المادة الخامسة عشرة: تخصص على الأقل ساعة في الأسبوع لتدريس المعلومات

العسكرية من قبل الضباط بموجب منهج تخصصه وزارة الدفاع وتعين ساعات التدريب في الصفوف بموجب تعليمات وزارية.

المادة السادسة عشرة: تقوم وزارة المعارف بإنشاء معسكرات صيفية سنوية في الأماكن التي تختارها مديرية التربية البدنيّة للفتوة بالمذاكرات مع وزارة الدفاع. يشترك تلاميذ الصفوف التي تعينها وزارة المعارف مع معلميهم في المعسكرات على أن تراعى في ذلك النقاط الواردة أدناه:

(أ) لا تزيد مدة المعسكر على شهر واحد.

(ب) تقوم وزارة المعارف بتجهيز المعسكر بالمعدات اللازمة وبإعاشة الفتيان والمعلمين ودفع أجور نقلهم من المعسكر وإليه.

(ج) تساعد وزارة الدفاع وزارة المعارف بما تحتاج إليه من تأسيس ذلك المعسكر.

الباب الرابع: الانضباط

المادة السابعة عشرة:

(أ) يعتبر التلميذ راسباً في صفّه إذا لم ينجح في موضوع المعلومات العسكرية في تلك السنة.

(ب) يعتبر التلميذ راسباً في صفه إذا تخلف عن حضور التدريب والمحاضرات العسكرية والمعسكرات بدون عذر شرعي أكثر من ربع مجموع المدة المقررة للتدريب العملي والنظري.

المادة الثامنة عشرة: يخوّل مدير التربية البدنية ومدراء المدارس بموجب تعليمات وزارية تطبيق العقوبات التالية على الفتيان:

أولاً: التدريب الإضافي.

ثانياً: خصم درجات من الخدمة النهائية للتدريب العسكري.

ثالثاً: إلغاء الرتبة.

المادة التاسعة عشرة: لوزير المعارف إصدار تعليمات لتطبيق مواد هذا النظام.

المادة العشرون: يلغى بهذا نظام الفتوة رقم ٥٠ للسنة ١٩٣٥.

المادة الحادية والعشرون: على وزير المعارف والدفاع تنفيذ هذا النظام.

كتب ببغداد في اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هجرية واليوم العاشر من شهر مايس سنة ١٩٣٩ ميلادية.

الوصي عبدالاله، نوري السعيد (رئيس الوزراء ووزير الداخلية وكالة)، وطه الهاشمي (وزير الدفاع)، وعلي جودت الأيوبي (وزير الخارجية)، ومحمود صبحي الدفتري (وزير العدلية). ورستم حيدر (وزير المالية)، وعمر نظمي (وزير الاقتصاد والمواصلات) وصالح جبر (وزير المعارف).

نشر في العدد ١٦٩٩ من جريدة الوقائع العراقية ١٥ مايس ١٩٣٩.

الفصل السابع عشر

ابعاد القضية الفلسطينية. الركن المركزي للقوميين العرب. قسطنطين زريق في «معنى النكبة». النازيون يشجعون يهود المانيا على النزوح إلى فلسطين إزاء فرض البريطانيين قيوداً صارمة على الهجرة. بيوتات عربية تسهّل الهجرة اليهودية. قوانين نورمبرغ ١٩٣٧. علنية التشجيع الألماني على الهجرة. (البارون فون مِلدنشتاين) الميدالية الألمانية – اليهودية. غوبلز ومفتي فلسطين الحسيني. الحسيني يرسل (موسى العلمي) مندوباً عنه إلى المانيا. سلاح المانيّ عبر العراق إلى الفلسطينيين وسلاح چيكي ونمساوي لليهود (فرقتا شتيرن وهاگاناه). ياسين الهاشمي يقتحم الميدان. كراس (إيخمان). تدريب الشباب اليهودي في المانيا قبل إرسالهم إلى فلسطين. القوميون ينسبون كل الجرائم إلى بريطانيا ويحملونها كل التبعات. (صلاح الدين الصباغ) عقلية قومية غريبة. كتاب (فرسان العروبة) خلط أيديولوجي ونقائض. الإسلام ركيزة للقومية لا غنى عنها في ميدان العمل القومي. تصنيف لرجال الحكم العراقيين على أساس أرومتهم العربية. الطابع السلبي الشكوكي للقومية العربية بعد الحرب. رسوخ الأيديولوجية النازية في فلسفة العمل القومي. آراء (الريحاني) تارجحه بين القومية السورية والقومية العربية. الديمقراطية الليبرالية في البلاد العربية. المفتي، هروبه من فلسطين ووصوله بغداد، تدخله السافر في شؤون العراق. المفتي يغدو المرجع الوحيد في تشكيل الوزارات العراقية وعزلها بفضل مركزه عند الضباط القوميين. اليسار الاشتراكي، جماعة الأهالي، التنظيمات الشيوعية الأولى. قانون مكافحة الآراء الهدامة

في آب ١٩٤٨ نشر الكاتب المؤرخ الدكتور قسطنطين زريق[١] كتيّباً بعنوان (معنى النكبة) بدأه بهذا القول الأليم:

---

(١) رئيس الجامعة السوريّة. ثم أستاذ التأريخ في جامعة بيروت الأمريكية وقتذاك. اهتم طوال حياته بالأمور العربيّة. وحوله استقطبت حركة القوميين العرب في تلك الجامعة. وقد أطلق كتيبه هذا =

«إن هزيمة العرب في فلسطين ليست مجرد نكسة أو نتيجة سوء حظّ مؤقت. إنما هي كارثة بكلّ معنى الكلمة، هي واحدة من أصعب النكبات التي ألمّت بالعرب عبر تأريخهم الطويل».

وعقّب باحثاً عن أسباب النكبة ليكتشفها في الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تسود البلاد الناطقة بالعربيّة:

«إن النصر الذي حققه الصهاينة لم يكن نتيجة تفوق (قومية) على قوميّة أخرى، بل بالأحرى هو تفوق نظام على نظام آخر. إنه نابع من واقع كون الصهيونية ذات جذور عميقة بالحياة العصرية في حين أننا في معظم الأحوال بعيدون عن الحياة لا نساهم فيها. هم يعيشون في الحاضر والمستقبل ونحن بقينا غارقين في أحلام الماضي. نقصر همّنا على الاعتزاز به... الحياة العربيّة بحاجة إلى إصلاح داخلي متطرف، يعني بين أمور أخرى عملاً تقدمياً ثورياً وزعامة حقيقية».

وبعد أن سلخ (زريق) خمسة وثلاثين عاماً أخرى من حياته المديدة نجده ينقلب على رأيه السابق، فينطلق وبيده مصباح ديوجينس[٢] باحثاً للأمة العربيّة عن:

= في حينه الأقلام العربيّة. وكان لحركته الطلابية العربيّة التي تسلمها فيما بعد تلميذه (جورج حبش) دورها الكبير في الاتجاهات القوميّة اللاحقة. وقد ركز في آخر كتاباته على ضرورة التعليم والدراسة. آخر ما أخرجته المطابع له كتاب نظري عنوانه (مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين، ط ١٩٧٣) وهو مجموعة من مقالات. ومنه اقتبسنا الفقرة التي تلت (ص١٦). وقد وجدتُ في كتاب له عنوانه (الوعي القومي) نشره في العام ١٩٤٠ عبارة أشكل عليّ فهمها في حينه ولا أجد تفسيراً لها الآن. ففي هذه الفقرة أيضاً تضيع الفكرة التي يريدها في ضباب غموض العبارة وهي نصاً: «ليس هناك أمل في بعث قوميّ عربي ما دام قاصراً على أن يستمد من الفلسفة القوميّة ما يعطيه شكلاً مادياً لروحه يحدد اتجاهاته ويعين أهدافه ويقرر سبل نهجه.» ص (١٩-٢٠). وفهم القوميون العرب منها على الأرجح ما دعاهم إلى محاولة تحديد محتوى القوميّة وأهدافها عن طريق وضع فلسفة لها. أمّا أنا فأقرّ بعجزي وبجهلي عن فهم هذه المعمّيات. وبالمناسبة فقد طرق سمعي أن بعض القوميّين المتنطعين الذين رأوه كانوا يشككون بإخلاص الدكتور زريق للقوميّة العربيّة لا لسبب إلا لأنه أبيض البشرة أحمر الشعر أزرق العينين أقرب سيماءً إلى الأسكتلنديين من الإنكليز أنفسهم، ويقولون إنه من أحفاد الغزاة الصليبيين! لذلك لا يحق له التحدث باسم العروبة والقوميّة وهذا أعجب العجاب.

(٢) Diogenes (بحدود ٤٢٣-٤١٢ ق.م) من فلاسفة الإغريق. نبذ التقاليد والأعراف الاجتماعية وسخر من معاصريه واحتقرهم. كان يدور وبيده مصباح «يبحث عن الرجل» في مجتمعه. =

«القيادة المخلصة الصحيحة الواعية والقادة، فهي خشبة الخلاص[3] في جميع الأحوال وفي حالة البلبلة والهيجان بخاصة. فعلى كلّ قائدٍ أو مدّع بالقيادة أو متنطع لها أن يتفحص ما إذا كان بالفعل قائداً أو مقوداً، أي ما إذا كان مهتدياً بأصدق ما يملك من فكر وإيمان أو منجرفاً مع التيارات الجامحة والمتقلبة الجائشة حوله وفي نفسه. إن هذا التفحص هو في آن منطلق لصحة نضاله أو فساده، ونتيجة ومقياس لهما وكذلك يقاس قدر نضال الشعب بأهليته للتمييز بين القيادة الصالحة والفاسدة وتهيّبه لاحترام الأولى وتوطيدها ولازدراء الأخرى وإزالتها».

قبل ٣٥ عاماً كان الدكتور زريق أقرب في تشخيصه إلى الواقع عندما وضع الأنظمة العربيّة موضع محاكمة، ولم ينبس بحرف عن القيادات العربيّة التي رافقت القضية الفلسطينية أو خرجت من رحمها. كان بعيداً كلّ البعد عن هذا التخريف والهذيان الخطابي المرصع بالجمل المنمقة والعبارات الفخمة المرصوفة باحثاً عن القيادة العربيّة المستقرة لمحاكمة نفسها وفحص الذات!

ليس في تأريخ البشرية ما يشير إلى قائد أو زعيم، أقدم على فحص الذات ومحاكمة النفس بالشكل الذي أراده (زريق) للقائد العربي المنتظر. إن المرء ليعجب حقاً من أستاذ اختصاصي في التأريخ أن يتطلب «قائداً عربياً أو مدعياً بالقيادة، أو المتنطّع لها» ليقدم طواعية وبملء اختيار إلى فحص الذات ومحاكمة النفس وإصدار قرارٍ شخصيّ بجدارته أو عدم جدارته للقيادة؟ وهو ما لم يتطلبه الله في أنبيائه المرسلين.

إنه نموذج لأمثلة كثيرة من أحلام اليقظة والغيبيات التي قاد مفكرو القومية العروبية جماهيرهم إليها، دون محاولة منهم في اطلاب صفات سهلة المنال كالتحلي ببعض الواقعية والصدق والأمانة والوضوح.

سبقنا (زريق) إلى متابعة حياة جمّ غفير من قادة فلسطين ومراقبة نشاطهم، كما

= ولقّب بالكلب وسمي أتباعه بال(كلبيين Kgnikas) ترك مقتنياته وعاش على الصدقة وكان يسكن برميلاً.

(٣) تعتبر «خشبة الخلاص» كما أرجح كناية عن الصليب الذي علّق عليه المسيح ومات فوقه من أجل خلاص البشر.

مرت أمامه كوكبة إثر كوكبة من الحكام العرب. ولا بُدّ أنه واضع طائفة كبيرة منهم على طاولة التشريح الذهني بعقلية المؤرخ، فواعجبي ألم يلحظ كيف كانوا يترامون بتهمة التقصير عن المساعدة والتفريط بالحقوق العربية. تهمة كان يقذف بها تقريباً كلّ قائد عربي أو رجل دولة في وجه الآخر عندما ينقلب عليه أو يختلف معه؟

ثمّ ألم يلحظ بأن الانتصار العروبيّ لمحنة الشعب الفلسطيني أو كارثته كما يسميها كان له أثره الكبير في صبغ الحركة القومية في البلاد الناطقة بالعربية بطابع العنف والاستعداء والتعصب؟

ما كتب عن فلسطين حتى اليوم يتخم مكتبةً عظيمة. ولكن في الوقت الذي بدأت أيادي أعداء الأمس تلتقي والأعناق تشتبك والحدود تزول والزيارات تتوالى، علينا أن نقرّ مرغمين بأنه لا العمل القومي العربي، ولا دروس القومية التي يطلع بها فلاسفة القومية على جمهورهم بين آن وآخر كان لها أثر في حلها. بل كانت هناك الإرادة وسياسة الأمر الواقع والتجارب والمحن القاسية، التي زُجّ فيها القوميون المتحمسون البسطاء زجاً ظالماً، ونجمت عنها سلسلة من الحروب الدموية لم تعد على محرضيها إلاّ بالخسران والبلايا.

في العام ١٩٤٨ قضت الإرادة الدولية التي مثلتها الدول الأربع الكبرى بتقسيم فلسطين إلى دولتين كاملتي السيادة. فرفضه الحكام العرب وهم يتبارون فيما بينهم في ميدان سباق الحميّة العربية والدعوة إلى نصرة الشعب العربي في فلسطين. فأضاعوا فرصة ظلوا يحنون إليها ويسفحون دماء شعوبهم لها، ليرضوا بعدها بالأقل من الذي رسمته خارطة تقسيم العام ١٩٤٨. وبالأقل من القليل الذي اقترحه المشروع البريطاني للعام ١٩٣٦، القاضي بإعطاء المساحة الكبرى من الأرض الفلسطينية للعرب وبتدويل القدس. ذلك الاقتراح الذي رفضه العرب بإباء وشمم وقامت من أجله تظاهرات عاجّة ماجّة في سورية والعراق ولبنان وفجّر ثورة مسلحة في فلسطين ذاتها وكان للقوميين العرب السهم الأوفر فيها، وأدت في العراق مما أدت إلى قيام حكومة الهاشمي – آخر الطارئين على القومية العربية – إلى تأسيس ما عُرف بكتلة الضباط القومية السريّة «لمد ثوار فلسطين بالسلاح والأرزاق وتدريب المتطوعين» وزاد تقربهم من النظامين النازي والفاشي وعقدوا صفقات سلاح كبيرة معهما.

كلّ هذا معروف وقد كتب فيه أكثر من الكثير، ولا داعي للإفاضة فيه، إلاّ أني أريد في الصحائف التالية التطرق إلى عمليّة خداع مزدوجة قد تكون خفيّة، أحكم

لزعماء القوميون العرب تغطيتها فباتت أشبه بالسرّ الدفين يكاد أثره يضيع في ملحمة فلسطين الكبرى.

ذات يوم دخل عليّ ابن أخت لي في الرابعة من عمره، وراح ينظر بعينين ملؤهما الرغبة والاستحياء إلى صفحة ملأى بالبرتقال. فأدركت ما يجول في ذهنه وكانت أمامي كأس جعة فيها ثمالة. قلت له - وأنا ما قصدتُ إلاّ تعويده على الصراحة والجرأة: انظر، لو شربت ما في هذه الكأس فلك أن تأخذ من الصفحة ما تشاء. ففعل وأخذ ما شاء وخرج وهو يكاد يتقيأ، وما أظنه استمتع بما ناله. بهذا ذكّرني موقف زعماء القوم.

كان الزعماء القوميون أو أولئك الذين ينعتهم (زريق) بالقادة انطلاقاً من حقدهم على البريطانيين، يفضلون كابن أختي أن يتجرعوا مرارة النازيين. لقد فرضت سلطة الانتداب قيوداً صارمة على الهجرة الصهيونية في حين كان النازيون يبذلون مع يهودهم جهوداً كبيرة لتشجيع هجرتهم إلى أرض الميعاد وكان الزعماء القوميون العرب يعلمون بهذا حق العلم.

وإليك مجملاً لحقيقة ما حصل:

في مرحلة الاستيطان اليهودي، أعطى الملاكون الكبار المسلمون والمسيحيون الذين أصبحوا فيما بعد زعماء المقاومة الفلسطينية فرصة كبيرة لليهود لإنشاء الوطن الإسرائيلي. وتسجل دائرة بيع العقارات أسماء بائعين لامعة في سماء القومية، منها موسى العلمي، والشيخ محمد الداوودي ويعقوب الغصين، وعوني النشاشيبي وفخري النشاشيبي، والشيخ محمود الداوودي، والشيخ أسعد الشقيري مفتي عكا، وفؤاد السعد، كما تسجل آل سلام وآل تويني وآل سرسق في لبنان.

وسئل الشقيري مرةً عن هذا فأجاب: نحن نبيع الأرض ليتوفر لنا المال الكافي لمحاربة الاستيطان.

كان الإغراء لا يقاوم، فالمبالغ التي تدفع ثمناً كانت ضخمة تزيد كثيراً عن قيمة الأرض الحقيقية.

في العامين ١٩٣٥و ١٩٣٦ وما تلاهما تسلّم النازيون عملية استيطان اليهود في فلسطين من بريطانيا ولم يمنعهم عن المضيّ فيها إلاّ اندلاع الحرب، فسُدّ الطريق أمامهم واستعاضوا عن عملية التخلص من اليهود بإخماد أنفاسهم بأفران الغاز والقتل الجماعي في معسكرات الاعتقال. كانت عملية تشجيع اليهود الألمان على الاستقرار في فلسطين تجري بانتظام وبنوع من العلانية في ألمانيا، وقت كانت إذاعة (حيّ

العرب) لمديرها القومي العربي الموصلي يونس بحري وطاقمه الدعائي يقيمون الدنيا العربية ويقعدونها على جريمة بريطانيا في تشجيع الهجرة اليهودية، ويبذلون كلّ جهد تقوى سواعدهم عليه لإثارة النخوة العربية في الصدور ويملأون الفضاء بنداءات التحريض على حمل السلاح لطرد اليهود والمستعمر واستئصالهما بحدّ السيف العربي. وأذكر مما أذكر أن إذاعة برلين كانت تحفل بالخطب والكلمات الحماسيّة، تستذكر فيها أحداثاً لامعة من تاريخ الفتوح العربيّة ومشاهير القادة والزعماء الذين حافظوا على عروبة فلسطين.

في أوائل العام ١٩٣٥ لم يبق من قوانين نورمبرگ التي مرّ ذكرها شيء مستور. كانت تلك القوانين تصدر تباعاً لتجرد اليهود شيئاً فشيئاً من كل آدميتهم، ففضلاً عما سبق بيانه حرمت المراسيم الأخيرة عليهم معظم أسباب الحياة وإدامة العيش بالضروريات. وفي أحيان كثيرة وجدوا في عدة مدن صعوبةً كبيرة إنْ لم نقل استحالة في شراء الغذاء. وكثيراً ما رؤيت لافتات على حوانيت الأغذية واللحوم والمخابز واللبنيات دوّن عليها عبارة «لا يسمح بدخول اليهود» وعزّ عليهم في مدن كثيرة الحصول على حليب الأطفال وامتنعت الصيدليات عن بيع أدوية لهم وأبت الفنادق إيواءهم ليلةً واحدة. كانت تطالعهم دائماً وأنى ذهبوا هذه اللافتات المخجلة: «اليهود ممنوعون منعاً باتاً من دخول هذه المدينة» أو «دخول اليهود في هذا المتجر سيكون على مسؤوليتهم الخاصّة».

وجد في ألمانيا حينذاك أكثر من سبعمائة ألف يهودي. وفي وقتها لم تكن تخامر النازيين فكرة استئصالهم جسدياً، بل كان شغلهم الشاغل هو البحث عن وسيلة للتخلص من وجودهم في ألمانيا. لذلك كان الوطن اليهودي الذي أقرّه وعد بلفور ومضى فيه البريطانيون شوطاً قبل أن يدركوا آثاره السياسية في علاقاتهم مع الحكام العرب - كان بنظر الألمان خير حَلّ ممكن للتخلص من اليهود. لكن كانت هناك عقبة، إذ مالبثت جمهرة الفلسطينيين أن أدركت المضاعفات الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي ستنجم عن ورود شعب دخيل. فبدأت فيهم مقاومة حقيقية لعملية الهجرة. ورُفض وعد بلفور رفضاً قاطعاً. لكن العرب في تلك الأيام وبالحقد المتأصل على الدولتين الإمبرياليتين كانوا عند النازيين أداة يحسن استخدامها ضد عدوّي ألمانيا الغربيين.

كان عليهم أن يتقربوا من الطرفين في آن واحدٍ. ولم يبد ذلك عسيراً، فهؤلاء

العرب يتابعون بدقة الإجراءات القمعية التي يمارسها النازيون ضد اليهود وليسوا بحاجة إلى برهان أكثر من هذا.

في العام ١٩٣٤ تمّ التوقيع في برلين على اتفاقٍ ماليّ سرّي بين بنك (الرايخ) وبين الوكالة اليهودية عُرف عند الإسرائيليين باتفاق (هاآفارا). والقصد منه تشجيع هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين. وبموجب هذا الاتفاق كان اليهود الراحلون إلى فلسطين ينالون نسبةً مئوية معينة من قيمة ممتلكاتهم التي يصادرها الألمان. ويتم استيفاؤها من أثمان البضائع الألمانية المصدرة والمباعة في فلسطين والبلاد العربية الأخرى، ويجري ذلك بإشراف لجنة مختلطة تمثل فيها الوكالة اليهودية طرفاً.

بعده ببضعة أسابيع عقد البنك نفسه مع الوكالة اليهودية اتفاقاً سرياً آخر حول العون المالي والتسهيلات المصرفية التي تقدمها ألمانيا للنازحين اليهود. وأكد الجانبان كما جاء نصاً في الاتفاق «ضرورة إبقاء ذلك سراً وعدم فضحه خشية الإساءة بالعلاقة الألمانية مع العالمين العربي والإسلامي».

وبمقتضى الاتفاق الأخير كان اليهود الألمان يُمنحون جوازات سفر تتيح لهم الذهاب إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية. فيغادرون ألمانيا على متن سفينة مقلعة إلى البرازيل أو الأرجنتين أو فنزويلا، حيث تنتظرهم في عرض المحيط الأطلسي سفينة ألمانية يقودها قبطان ألماني مزود بتعليمات صريحة تقضي عليه بالتوجه بهم إلى فلسطين. وفي بعض الأحيان كانت السفينة المقلعة تأخذهم إلى ميناءٍ من موانئ جزر الآزور وتكون بانتظارهم هناك باخرة ألمانية تقلهّم إلى أرض الميعاد.

وفي العام ١٩٣٧ عين الدكتور (شاخت) رئيساً لبنك الرايخ، وهو ذو شهرة عالمية مالية. وقد أطلق عليه لقب الخبير المالي الأعظم، وكان مسؤولاً عن تمويل الحرب العظمى والمستشار المالي المقرّب من (هتلر).

بعد أن قام (شاخت) بزيارة استطلاعية شبه رسمية لشخصيات عربيّة وألمانية في الشرق الأوسط، لاسيما في البلاد الناطقة بالعربية، تقرر توسيع شمول اتفاق (هاآفارا) لتغطية هذه البلاد كلها عن طريق السعي إلى توقيع معاهدة تجارية مع تلك البلاد تتيح للبضائع الألمانية مجالاً في أسواقها. فعقدت اتفاقية مع مصر وسورية، وبخاصة تلك الاتفاقية التي وقعها نوري السعيد والدكتور گروبه في بغداد. وبمقتضى هذه الاتفاقات تدفقت البضائع الألمانية إلى الأسواق العربية بفضل التجار اليهود وغير اليهود. ومن أثمانها كانت تقتطع حصّة اليهود المهاجرين لقاء التعويضات وتبعث بها الملحقيات

التجارية في البعثات الدبلوماسية الألمانية إلى المستوطنين الجدد القادمين من ألمانيا[٤].

وعملاً بمشورة (شاخت) أمر (هتلر) بتمديد العمل بالاتفاق رغم المخاوف التي ساورت وزارة الخارجية من مصير علاقاتها مع الحركات القومية في البلاد الناطقة بالعربية وبصورة خاصة مع قوميي مصر، والقوميين العرب في العراق وكانت قد قطعت شوطاً بعيداً.

وجُددت الاتفاقية مرّة أخرى، لكن بإدخال قيادة الجيش الألماني العليا (الڤيرماخت) طرفاً، وبموجبه تقرر أن يقوم (الڤيرماخت) بتزويد اليهود النازحين إلى فلسطين بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة ابتداء بالمسدسات والبندقيات والرمانات اليدوية وانتهاءً بالرشاشات. وفي أعوام ١٩٣٦-١٩٣٨ فتحت لهم أبواب مخازن السلاح الجيكوسلوڤاكي والنمساوي بعد ضم البلدين إلى الرايخ. وبهذه الأسلحة تزوّدت جماعات (الهاگاناه) وفصائل (الأرگون تسڤاي ليومي) الإرهابيتين بزعامة (مناحيم بيگن وإسحاق شامير).

في العام ١٩٣٧ - على كلّ حال - نُزع رداء السريّة عن الجهود الألمانية المحمومة في إنشاء الوطن القومي اليهودي الذي كان يجري تحت غطاء العمل المدني والدپلوماسي. ففي أوائل العام ١٩٣٤ وتنسيقاً مع السياسة المالية والعسكرية كما مَرّ، أُنشئت إدارة خاصة في جهاز شرطة الأمن (S.S) بعنوان (قسم الشؤون اليهودية). وسُلمت مسؤوليته إلى ضابط صغير كان له دورٌ فعّال في ترويج الدعوة للوطن القومي اليهودي، هو البارون فون ملدنشتاين (Von Mildenstein). هذا الضابط قام بدراسة لثورة فلسطين والشعور المعادي لليهود عند قوميي البلاد الناطقة بالعربية دراسة مستفيضة، وأُفسح له سبيل المشاركة في مؤتمرات عديدة للمنظمات الصهيونية العالمية، وقام بزيارات لفلسطين واجتمع بشخصيات عربيّة. ثمّ نظم تقريراً قد يعد بالنسبة للظروف السائدة وقتذاك من بين أدق التقارير، حول الوضع في فلسطين، بلغ فيه حداً ملفتاً للنظر من الألمعية والذكاء ومما جاء فيه:

«إن فلسطين بلد متناقضات تبلغ غاية من الشدة ومن مظاهر العنف. وهي تسير بخطى حثيثة نحو الانفجار إن لم يجد العرب واليهود صيغة ووسيلة للتعايش معاً

---

(٤) ك. پولكن K. Polkehn الصلات السريّة: الصهيونية وألمانيا النازية :The Secret Contacts Zionism and Nazi Germany 1933، نيويورك ١٩٤١، ص٢٦٦.

بسلام. إن وجود أكثر من ربع مليون يهودي في فلسطين هو واقع لا يستطيع أن ينكره أحدٌ، إلاّ أنهم ليسوا بحاجة إلى دولة خاصة منفصلة، لأن هذا النوع من الكيان السياسي (أي الدولة) لا يمكن أن يعطي ضمانة أتوماتية للبقاء وللمحافظة على الهوية القومية اليهودية. وإن إمكانية عودة اليهود الجماعية إلى فلسطين ليست بالأمر العسير، بل هي ممكنة رغم وجود القاعدة الاقتصادية الفلسطينية المتخلفة، شريطة أن يعمد اليهود إلى خلق وطنهم القومي باستثمار وتطوير واستغلال أراضيهم».

وانتهى (فون ملدنشتاين) في تقديمه هذا المنشور في صحيفة (در آنكريفت Der Angerift) اليومية بالقول: «ليس اليهود وحدهم المستفيدين من هذا، بل العالم جميعاً لأنه مؤشر إلى بداية الطريق في تحقيق الشفاء لجرح في جسم العالم دام قروناً عديدة، هو المشكلة اليهودية».

لم يكن (فون ملدنشتاين) صديقاً لليهود، فهو على أية حال عضو في الحزب النازي وضابط من ضباط الـ(S.S). إلاّ أنه كرؤسائه يخصّ بعطفه تلك الفئة من اليهود الذين يسمون أنفسهم «صهاينة» أما أولئك الذين يدعون بأنهم ألمان أولاً ويهود ثانياً، أو الذين ينكرون يهوديتهم جملة وتفصيلاً، أو الذين لا مكان لمشاعر قومية في نفوسهم فهو يسقطهم من حسابه ولا يؤيدهم، فيكون موقفه والحال هذه مطابقاً لموقف حزبه. وبعبارة أخرى إن مساندة حزبه للصهيونية نابعة من الملائمة النفعيّة فحسب، لأنه لا يتعارض وتطبيق النظرية كما وصفها هتلر في (كفاحي) من أن القومية هي نتاج اتحاد سريّ (Mystical) بين شعب وتربة تأصلت فيها جذوره تأريخياً. وبما أن اليهود يفتقرون حسب ادعاء النازيين إلى هذه الرابطة مع التربة الألمانية، فهم يعتبرونهم أجانب يعيشون في وسطهم، وصفتهم التي يعرفونها بهم «إنهم فصيلة من البشر منحطة طفيلية وضيعة لا جذور لها».

في واحدة من زيارات (فون ملدنشتاين) فلسطين العام ١٩٣٥ التقى بيهودي وقامت بينهما مودّة. فكتب عنه: «إنه يهودي جديد يتعهّد أرضه بالفلاحة». اليهودي الجديد هذا تتمثل فيه كلّ خصائص (بن گوريون) المكتنز، رأى فيه اليهود المكافح بوجه مصاعب عظيمة من أجل مدّ جذوره في أرض الجدود. يهودي يخالف ما أشيع في ألمانيا النازية عن اليهود بأنهم يأنفون من تلويث أيديهم بالتربة، عاجزون عن التفكير في المثاليات.

مضى (فون ملدنشتاين) في رسم صورة جذابة حافلة بالإطراء لهذا اليهودي بشكل ما عاد يترك شكاً بخصوص نسبه الآري المتفوق. وما من شك في أنها تركت قراء

الجريدة يهزون رؤوسهم دهشةً غير مصدقين.

ليس في الإمكان معرفة درجة نجاح (فون ملدنشتاين) في تحويل الرأي العام الألماني، رغم أن الجريدة التي يشرف عليها جهاز (هملر) الأمني أمرت بصنع عدة آلاف من المداليات الفضية والبرونزية بمناسبة الزيارة النازية لفلسطين نقش على وجهٍ منها شارة الصليب المعقوف، ونقش على الوجه الآخر نجمة داود السداسية وتمّ توزيعها في فلسطين بنطاق واسع.

ولأمر ما كتم ذلك عن الرأي العام العربي إذ لم أجد رغم بحثي الطويل إشارة إلى ذلك في صحيفة أو كتاب أو خطاب عربي أو لكاتب عربي.

يتمثل النجاح الذي حققه (فون ملدنشتاين) ومعاونه (إيخمان) ومكتب الإدارة اليهودية الذي عرف رسمياً بـ(٢: ١١٢) في قبول وموافقة قيادة الـ(S.S) العليا على خطتهم، ومؤداها أن حَلّ المشكلة اليهودية في ألمانيا النازية والدول الأخرى التي أخضعتها (النمسا وچيكوسلوفاكيا) وقتذاك إنما يتمّ بهجرة جماعية ليهودييهم إلى فلسطين. وقد نال (فون ملدنشتاين) جراء تقاريره ومقالاته وأنشطته ترقيات سريعة وفي أواخر العام ١٩٣٥ عين رئيساً للمكتب اليهودي في جهاز الأمن الذي كان يرأسه (راينهارد هيدريخ Reinhardt Heydrich) وهو ذراع الاستخبارات لجهاز الـ(S.S)(٥). وما أن احتواه منصبه حتى انطلق في وضع خطته موضع تطبيق.

جوهر الخطة هو تسخير طاقات الدولة لترويج وتحبيذ الفكرة الصهيونية وتقوية نفوذ منظماتها عند اليهود الألمان وبالوجود الواقعي لسياسة الإذلال والإرهاب والعزل الاجتماعي وأساليب القمع الأخرى التي يتعرضون لها. وكذلك ترغيب من لم يُظهر منهم اهتماماً كبيراً بالهجرة. ووضعت هذه السياسة خطاً فاصلاً بين ذوي الاتجاه القومي أي الصهاينة الذين يرغبون في الهجرة أو يروجون لها، وبين أولئك الذين انصهروا بالألمان وعدوا أنفسهم ألماناً، أي أولئك الذين «يريدون تدمير الحزب القومي الاشتراكي الألماني النازي».

وراح الـ(S.S) يعمل بدأب على تقوية المركز الصهيوني في المجتمع اليهودي.

---

(٥) حاكم بوهيميا فيما بعد. وقد تمّ اغتياله بيد رجال الحركة السريّة الچيكية أثناء مرور سيارته بالقرب من قرية ليديش (تبعد عن پراغ بحوالي ١٦ ميلاً إلى الشمال الغربي) في العام ١٩٤٢. فقام الگشتابو بتدميرها تماماً وقضوا على رجالها البالغين رمياً بالرصاص وسبوا نساءها وأطفالها. وقد أقيمت قرية جديدة قربها. وأضحى موقعها مزاراً وطنياً.

وزُوّد رجاله ووكلاؤه بتعليمات خاصّة تقضي ببذل المساعدة والتشجيع لدعاة الصهيونية من الكوادر المتفرغة النشطة، وعلى تثبيط همم اليهود غير الصهاينة والتضييق عليهم. ومُتّع الصهاينة بامتيازات خاصّة محرّمة على الآخرين منها مرسوم صدر في آذار ١٩٣٥ إلى دوائر الشرطة في ألمانيا، أمر فيه القادة والضباط بصراحة وبشكل واضح بمساعدة ورعاية تجمعات الشباب الصهيوني وتفضيلها على المجموعات الأخرى كالسماح لأفرادها بارتداء أزياء عسكرية. وتشجيع المقرات الصهيونية التي فتحتها الوكالة بإجازة الحكومة للتدريب على الأعمال الزراعية والحرفية والمهنية، تهيئةً لشباب اليهود وتعويداً لهم على حياة الفلاحة والكدح في فلسطين. كما فتحت الدوائر الحكومية أبوابها لاستقبالهم وحُقق نوع من الاتصال والتنسيق مع قيادة الحزب النازي في حين أنها ظلت مغلقة بوجه أولئك المنصهرين (أي اليهود المعتزّين بألمانيتهم). وفي قوانين نورمبرگ نفسها التي جردت اليهود من جنسيتهم الألمانية وأطلقت عليهم اصطلاح «أشخاص بلا وطن» تضمنت استثناء خاصاً للصهاينة. ففي حين حُرّم عليهم رفع العلم الألماني، سُمح لهم برفع العلم الصهيوني (وهو العلم الإسرائيلي الحالي بالضبط بخطيه العرضانيين ونجمته الوسطى)[٦] وحمل الشعار الصهيوني. وبمناسبة الحملة المساندة للصهيونية كتبت جريدة (دار شفارته كور) الرسمية الناطقة بلسان الإس. إس (S.S) في العام ١٩٣٦ تقول:

«قرب ذلك الزمن الذي ستتمكن فيه فلسطين من استقبال أبنائها مجدداً، أولئك الذين افتقدتهم منذ أكثر من ألف عام. ألا فليقصدوها مشيّعين بخالص تمنياتنا وبأفضال الدولة الألمانية».

في الوقت نفسه كان الألمان النازيون بالتعاون بين وزارتي الدعاية والخارجية مجدين في إقامة صلات حميمة مع الزعماء القوميين العرب لاسيما الفلسطينيين والعراقيين.

ومن ذلك أنه جرى في شهر أيار من العام ١٩٣٧ لقاء بين القنصل الألماني في

---

(٦) راجت في البلاد الناطقة بالعربية في الخمسينات مقولة بحثها الكتاب بجديّة وخطورة حول هذا العلم. فقالوا إنه يرمز إلى خطة توسع إسرائيلي بعيدة المدى، فالخط الأزرق في الأعلى يرمز إلى نهر النيل غرباً حيث تمتد الإمبراطورية الإسرائيلية والخط الأزرق الأدنى يرمز إلى نهر الفرات حيث تصل إليه حدود تلك الدولة. وحقيقة الأمر هي أن الخطين يرمزان إلى مثيلهما في الإزار التقليدي الذي يأتزر به اليهود في كل العالم عند القيام بالشعائر الدينية ليسّ إلاّ.

أورشليم القدس وبين المفتي أمين الحسيني، الذي عيّنه البريطانيون لهذه الوظيفة قبل عامين - وتناول البحث موضوع توريد السلاح للفلسطينيين ومسألة مدى المساعدة الألمانية في النضال ضدّ تأسيس الدولة اليهودية. وجرت في الوقت ذاته مداولات مماثلة في بيروت بين ممثلي المنظمات القوميّة السورية والقنصل العام الألماني هناك.

أصرّ الدكتور (گوبلز) على عقد هذه اللقاءات، مبيناً في واحدٍ من تقاريره:

«إن الزعماء القوميين العرب يستمدون نفوذهم الحقيقي بين الجماهير من إظهارهم المزيد من العداء لبريطانيا، ونشاطهم في التأليب عليها طالما بقيت سلطتها في فلسطين. لذلك لا يُخشى مطلقاً من تكوّن رأي عام ضدّ ألمانيا في البلاد العربيّة بسبب تشجيعنا الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فأيّ عاقل تراه مستعداً ليصدق بهذا؟» (هكذا وردت نصاً).

بقي (گوبلز) مصراً على توثيق العلاقات مع القوميين العرب واستغلال روح العداء لبريطانيا إلى أبعد حَدّ ممكن وبذل وعوداً كبيرة وكانت النتيجة أن أرسل (المفتي الحسيني) ممثله في سويسرا (موسى العَلمَي) إلى برلين للمشاورة مع الزعماء النازيين ففعل. وفي آب ١٩٣٧ قررت الحكومة الألمانية إرسال دفعتين من السلاح عبر العراق والمملكة العربيّة السعودية إلى (اللجنة العليا للدفاع عن فلسطين) في حين كانت الأسلحة الچيكية والنمساوية تتدفق على سكان المستعمرات الصهيونية في فلسطين لتسليح مجموعات الهاگاناه والشتيرن.

افتضح أمر وجود (موسى العلمي) في ألمانيا فأسرعت وزارة خارجيتها بإخراجه كشخص متسلل غير مرغوب فيه خشية تأزيم علاقاتها مع بريطانيا، وفي عين الوقت أقدمت سلطات الانتداب وبوجه الاضطرابات المسلحة الكبرى على حلّ (اللجنة العليا) وأصدرت أمراً بالقبض على (المفتي) المتخفي، الذي لم يجد صعوبة في مواصلة الاتصالات السريّة في القدس مع وكالات الألمان. واتفق على إرسال (سعيد الإمام) رئيس النادي العربي في دمشق وهو من الزعماء القوميين للمداولة في برلين مع وزارة الخارجية بصدد إرسال الأسلحة عبر العراق والعربية السعودية.

في العام ١٩٣٦ وقبل انقلاب بكر صدقي، كان ياسين الهاشمي يحاول الدخول بكل هيبة عرويته وجلالها إلى حلبة المشاركة في المباراة القوميّة رغم أنه كان آخر الداخلين إليها بحسب التسلسل الزمني. ووافق دخول هذا الوقت العصيب الذي نتحدث عنه داخل العراق وخارجه. وقد بدأ كما يظهر بمراجعة خلاّن الحركة الوطنية

القدماء في سورية وهم يفاوضون السوريين على معاهدةٍ ودستورٍ مع الفرنسيين، كما واجه الاعتصاب الفلسطيني العام المسلح الذي سمي بالثورة الفلسطينية الكبرى في بعض المآثر، إثر مشروع التقسيم البريطاني المقترح. ولعّله كان من بين المسؤولين تأريخياً ولو بصورة غير مباشرة عن تسلسل كل الأحداث بكارثة مايس الوطنية، وعلى أقلّ تقدير بإيقاده نار الطموح في نفوس بعض الضباط الذين انتقاهم ولفتوا أنظاره إليهم بمجاهرتهم بعروبتهم وقوميتهم في كلّ مناسبة. وفي ظني أن بداية الأمر قد يؤرخ بيوم اعتزامه مناصرة الانتفاضة الفلسطينية العنيفة تلك، ولا يداخلني شك في أن زعماء الاعتصاب هناك استنجدوا به. فاستعان بشقيقه (طه) وكان يحمل أعلى رتبة ومنصب في الجيش العراقي، وتمّ الاتفاق على إنشاء خلية سرية من ضباط لا يشك في إخلاصهم للقضية العربيّة لتدبير أمر تسريب الأسلحة والتجهيزات إلى فلسطين. وكان من الطبيعي أن كلاً من المقدمين (ثم العقيدين) فهمي سعيد وصلاح الدين الصباغ وهما اللذان عهد إليهما بالإشراف العسكري على تطبيق نظام الفتوة كما مرّ، ثمّ ضم إليهما العقيد محمود سلمان والمقدمين والرواد رشيد فليح وحمد السعدون وخيري خورشيد، هذه هي الخلية التي عهد إليها بعمل ذي طابع سياسي عقائدي كان محوره المؤامرة على حكومة انقلاب بكر صدقي بعد أشهر.

كان الدكتور (فريتز گروبه) الوزير المفوض في بغداد والرياض معاً قد شدّ أواصر صداقة متينة بالشيخ (يوسف الياسين) مستشار الملك عبدالعزيز آل سعود وسكرتيره الخاص، وأقنعه بشكل ما أن ألمانيا النازية تقف بجانب العرب على طول الخط. ولم يكن (الياسين) ولا سيده بحاجة إلى كثير من الدلائل. وها هي أنباء اضطهاد اليهود تملأ الصحف الغربية والأمريكية. ثم إن العربية السعودية كانت دولة فقيرة جداً، كان عليها أن تنتظر عشر سنوات أخرى ليسيل ثراؤها على بطاحها ويغرقها بالذهب الذي يكتنزه ابن سعود ويحرص عليه كما أُثر عنه وكُلما حانت فرصة لإضافة شيء منه إلى مجموعة عملته الذهبية النادرة. وألمانيا على استعدادٍ لتحقيق مبتغاه وقد تمخض هذا - طبقاً للإفادة التي أدلى بها الدكتور (گروبه) أثناء التحقيق معه كمجرم حرب بعد نهاية الحرب - بإرسال الملك السعودي (خالد المهدي) ممثلاً شخصياً له إلى برلين لشراء السلاح وبحث المسألة الفلسطينية.

من العجيب المخجل حقاً أن يعتمد كلّ هؤلاء الجهل بصلة الصهاينة بالنازيين، وبالمساعدات العسكرية والمالية التي كانت تُرسل إليهم طوال أربع سنين.

ماذا كانت الممثليات الدبلوماسية والقنصلية العربية تعمل في ألمانيا؟ والطلبة العرب بمئاتهم ولا أقول بآلافهم الذين يدرسون في المعاهد الألمانية؟ والصحف الألمانية التي تنشر المقالات عن التعاون النازي الصهيوني؟

أكانت بريطانيا وفرنسا تستحقان هذا «الحقد» من القوميين العرب؟ الظاهر لم يكن أحد منهم يهتم بالتفكير، فالحقد يعمي البصائر كما يقول الشاعر الروماني (ڤرجيل)[٧] و«من الصعب عليك أن تقاتل الحقد. فهو يشتري كلّ ما يريده وإن كان الثمن حياتنا».

لكن الزعماء العرب الذين ساندوا نضال الفلسطينيين كانوا رجالاً بالغين راشدين. لا كابن أختي الذي غامر حُباً بالبرتقالة ليتقيأ ويفسد مزاجه بمرارة ما شربه في سبيل الظفر بها.

لا أدري كم التذّ بالبرتقال بعد التجربة المرّة. لكني أعرف كما يعرف غيري نتيجة التجربة المرّة من آثار النكبة العظيمة التي انتهى بها التعاون الألماني العربي في حركة مايس ١٩٤١.

ففي أواخر أيلول من العام ١٩٣٧ وهو التأريخ الذي تمّ فيه إبرام نوع من حلف عربي - ألماني حول مساندة الفلسطينيين، كان كلّ من (هاگن) و(إيخمان) وهما من ضباط الإس. إس (S.S) الكبار في طريقهما لزيارة أحد قادة (الهاگاناه) في القاهرة حيث كان قد وصلها، وقد تنكرا بصفة مندوبين مراسلين لصحيفة (برلينر تاگبلات) وما أن افتضح أمر الزيارة، وهوية المندوبين حتى راحت إذاعة (حي العرب) تجأر وتدافع وتنفي مدعيةً بأن المقصود بالمقابلة هو (المفتي الحسيني) «لإجراء مفاوضات سريّة معه من أجل توحيد النضال المشترك ضد الصهيونية العالمية».

في العام ١٩٣٨ لم يعد التعاون النازي - الصهيوني سراً، إلاّ عند جمهور القوميين العرب كما يظهر. فبكلّ وضوح وصراحة بدأ مكتب أمور الهجرة اليهودية (١١٢ : ٢) أعماله العلنية. وفيه صعد نجم (أدولف إيخمان) الذي ضمّه (فون ملدنشتاين) فيما بدأت صورة الأخير في المشهد تزول تدريجياً. إذ لم يبلغ عدد الذين أقنعوا بالهجرة فهاجروا فعلاً غير ستين ألفاً خلال (١٩٣٣-١٩٣٨) في حين كانت تقديرات الگشتابو تفوق هذا العدد بأربعة أضعاف على الأقل لذلك وُجد من الضروري استبدال الخطة

---

(٧) Virgil ١٩-٧٠ ق.م: أحد أعظم شعراء الملاحم الرومان. ومن أعظم ما خلف: القصيدة الملحمة (الأنبياء) وقد اقتبسنا هذا البيت منها.

بأخرى، وهي الدعوة السافرة إلى إنشاء دولة يهودية قوية في الشرق الأوسط. ونشر الگشتابو كراساً يتضمن شرحاً مبسطاً للفكرة كان له صداه العميق عند اليهود في العالم أجمع. واضطرب له البريطانيون أضطراباً عظيماً.

لم يكن مؤلف هذا الكراس غير (أدولف إيخمان)! وتلك من مفارقات الدهر العجيبة. إذ ما مرّت بضعة أشهر على نشر كتابه حتى وجد نفسه يدفع الألوف المؤلفة من اليهود إلى غرف الغاز بدلاً من دفعهم إلى فلسطين.

في هذا الكراس الطريف ردد (إيخمان) صدى أفكار رئيسه حتى إنه لم يبخل عليه بالإطراء أثناء محاكمته في أورشليم القدس (العام ١٩٦١) بقوله عنه:

«كان إنساناً لين العريكة عطوفاً مخلصاً للقضية اليهودية، وكان العامل الرئيسي في عقد صفقات ترحيل اليهود الألمان إلى فلسطين خلال الأعوام التي تلت، وقد ظلت متواصلة حتى أوقفتها الحرب العظمى».

خلال تلك السنوات التي نوّه بها (إيخمان) تواصل التعاون بين النازيين والوكالة اليهودية بشكل وثيق، وأنجزت دوراً يتسم بالذكاء والبراعة، حيث إنها أنشأت بموافقة (هملر) وتعاون فصائل (الگشتابو) معسكرات خاصة لتدريب اليهود عسكرياً - ممن اختار الهجرة إلى فلسطين والانضواء فوراً إلى فرق (الهاگاناه). وقد جرى ذلك في عين الوقت الذي كانت الخطط في دائرة (هملر) تعدّ لجمع اليهود الرافضين وإيداعهم معسكرات الاعتقال وهي العملية التي أعطي لها اسم (أندلوزفونك).

في شهر حزيران ١٩٣٩ استقبل هتلر (الشيخ خالد المهدي) مبعوث الملك السعودي، في مقرّه الصيفي بـ(برختسگادن). وتشير الوثائق الألمانية التي ضبطت بعد الحرب وبينها محضر المقابلة إلى أن (الفوهور) قال للشيخ:

«إن لألمانيا وللعرب أعداء مشتركين. وإنه يتعهد بتقديم الدعم الشامل للعرب مؤكداً احترامه العميق للإسلام وعطفه على المسلمين».

وبنتيجة مفاوضات تالية تعهدت ألمانيا بمنح السعودية قرضاً بمبلغ ستة ملايين مارك لشراء أسلحة وقدمت لابن سعود هدية مقدارها أربعة آلاف بندقية حديثة مع عتادها. (لم يبحث شيء حول القضية الفلسطينية)[٨].

---

(٨) پولكن: المرجع السالف ٧٥-٧٦. وكذلك (وثائق حول السياسة الألمانية الخارجية Documents on German Policy، واشنطن، ١٩٥٣).

وتشير هذه الوثائق عينها إلى أن (هتلر) وبعد شهر ونصف من مقابلته للشيخ خالد المهدي ألقى في ٢١ من آب خطاباً في قادة القوات المسلحة الألمانية، وردت فيه هذه الفقرة:

«إننا سنحث الشعوب العربيّة على إثارة الإضطرابات ووضع العراقيل في المستقبل. علينا أن نحكُم ونحاكِم كأسيادٍ وأن نرى في هذه الشعوب (العربية) وفي أفضل الأحوال، نصف قرودٍ مدهونة باللاكية لا يمكن معاملتها بغير السوط»[٩].

بمختصر القول: وقعت القوميّة العربيّة في حبائل النازية. وغاصت في أوحالها المهلكة. وبدت محاولات مفكريها ودعاتها للتنصل منها بعد اندحار ألمانيا والقضاء على الحزب النازي غير كافية حقيقة بأن تصمد أمام قوة الأساليب والنظريات القوميّة التي انبثقت عن الحركات القومية التالية. فقد كانت كلها مشبعة بأفكار النازيين، طابعها العنف، والتعصب والتفوق القوميّ[١٠] ولم تنل شعبيةً قط.

لم يتمتع القوميون العروبيون في سورية بتلك الحرية التي متّع الحكم البريطاني بها

---

(٩) المرجع ذاته: ١٦٧-١٧٩. وبخلاف هذه المراجع المذكورة آنفاً في هذا الفصل أشير على الراغب المستزيد إلى مراجع أخرى اعتمدتها أيضاً هنا ومنها: هـ. ج. أدلر H.G. Alder، اليهود في ألمانيا The Jews in Germany، مطبعة جامعة نوتردام في إنديانا ١٩٦٩. وهانا أرندت Hanna Arendt «إيخمان في أورشليم Eichman in Jerusalim، مطبعة فايكنيك - نيويورك ١٩٧٠. وس. م. بكلوسكي S.M. Belkoskey، الصورة المشوهة The Distorted Image، مطبعة اليفين - نيويورك ١٩٧٥. وجي. كي. ديكنسن J.K. Dickinson، ألمانيا واليهود Germany and Jews، كودرانگك، شيكاغو ١٩٦٧. ولوسي داڤيدوريتج Lucy Dawidauricz، الحرب ضدّ اليهود The war against the Jews، مطبعة هولف ورايتهارت ونتسن نيويورك ١٩٧٥. وگ. ل. موسّ G.L. Mosse، الألمان واليهود Germany and Jews، ط. هوارد فرنيك. بنيويورك ١٩٧٠ ووليم شايرر William Shrier، قيام وسقوط الرايخ الثالث The Rise and fall of the third Reich، وقد أنجزنا ترجمتنا لهذا السفر الضخم من طبعته الرابعة عشرة وتم طبعها بجزئين بعناية دار ئاراس للنشر - أربيل، ٢٠٠٢.

(١٠) من الأمثلة: «المواجهة الحقيقية المباشرة بين العراق وبريطانيا التي كان الآثوريون أداة مخططاتها المشبوهة. ومن هنا كان نجاح الجيش العراقي في قمع التمرد الآثوري بمثابة انتصار على بريطانيا أدىّ إلى إفشال مشاريعها الهادفة لتمزيق الوحدة الوطنية والإقليمية للعراق». مقتبس من كتاب: (دور الجيش العراقي المرجع السالف: ص٨٥، للدكتور فاضل البراك، ط. بغداد ١٩٧٩). مثل هذا الهذيان تجده في معظم الكتب التي تخرجها مطابع بغداد وأكاديمياتها في عهد التغلب البعثي على الحكم.

إخوانهم في العراق. كانت يد الفرنسيين ثقيلة. إلاّ أن روح الجهاد في سبيل التخلص من الانتداب نشطت بالشكل الذي توقعه الفرنسيون تماماً بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على العراق. وبعد اضطرابات وتظاهرات ومجابهة شعرت حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية في ١٩٣٦ بأن الوقت قد حان لإجراء بعض تغيير في سياستها هناك. فبادرت إلى عقد اتفاقين مع سورية ولبنان بعين خطوط المعاهدة البريطانية - العراقية للعام ١٩٣٠. إلاّ أنها خصّت لبنان بحرية أوسع. لكن البرلمان الفرنسي لم يصادق عليهما بسبب معارضة اليمين، والمعاهدتين المعقودتين مع الدولتين الإقليميتين الدرزية والعلوية، اللتين أدمجتا بدولة سورية كما تقدّم.

في ذلك الوقت بالضبط أقدم (الهاشمي) ورهطه وجماعة نادي المثنى القومي على توثيق الصلة بالوطنيين السوريين العاملين لإلغاء الانتداب. وزاد التعاون إلى الحدّ الذي وُعد قوميو سورية ووطنيّوها بتزويدهم بالسلاح وفتح مخازن الجيش العراقي لهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوفد السوري الذي شخص في العام ١٩٣٦ إلى پاريس لمتابعة موضوع المعاهدة حلّ ضيفاً على المفوضية العراقية هناك.

في نهاية العام ١٩٣٨ أعلن وزير الخارجية الفرنسيّ أنه لن يتابع مسألة تصديق المعاهدة مع سورية. فساد القطر السوري اضطراب عظيم وقام الوطنيون والعروبيون والقوميون السوريون بمظاهرات صاخبة عاجلة. وقابل (گابريل پوو Gabriel Puoue) المندوب السامي ذلك بتعطيل الدستور وحلّ البرلمان السوري في ٩ تموز وإعادة تشكيل دولتي جبل الدروز واللاذقية.

في عين السنة تمّ التخلي نهائياً عن لواء الإسكندرونة للأتراك. والقوميون بعتبرونه جزءاً لا يتجزّأ من سورية. كان ذلك لقاء معاهدة التعاون المتبادل بين تركيا وفرنسا.

رغم الإنعطاف السوري إلى ألمانيا النازية، وقوة التأثير الدعائي لها هناك، فقد بقي العراق مركز الثقل القوميّ وبسبب ذلك صار ملجأ العروبيين السوريين والفلسطينيين عندما كانت تلاحقهم سلطة الانتداب.

مع قوة الدعاية النازية، والحكايات التي تنشرها الصحف وينقلها (الحجاج) العائدون من بلاد الفاشية حول التقدم والرفاه، فإن الانعطاف العربي إليها ظلّ كما قدمنا ينبع من العداء لبريطانيا وفرنسا، أكثر مما هو بسبب إنجازاتها. وتركزت أمنية القوميين في أن تقوم نهضة مماثلة في البلدان الناطقة بالعربية في ظلّ شعارٍ قومي موحّد، هو الوحدة العربية.

قبل أن يطوي العقد الرابع من القرن العشرين كتابه، أضاف القوميون العرب هدفاً وشعاراً ثالثاً إلى هدفيهم السالفين: التخلص من النفوذ الأجنبي والاستقلال الحقيقي. وشارك الجميع في إنماء الحقد على الإنكليز في العراق؛ الدستوريون، والشيوعيون، والقوميّون، والوطنيون الكُرد، والأقليات المسيحية واليهودية. فأوسع للنازيين باب الغزو الفكري، وفتحت له القوميّة العربيّة أبوابها على مصاريعها.

حقد تأصل بالتدريج بعامل الترديد والتكرار المستمرين، حتى تعذر اقتلاعه بل مقاومته بل التخفيف من حدته ولا أحد يتعب نفسه بالبحث عن أصوله وأسبابه، فلكلِ ما يشكوه من بريطانيا. ولو عرضت واحدة من المداليات التي وزعها عملاء النازية في فلسطين بالآلاف ونجمة داود والصليب المعقوف عليها لأسرع بإجابتك: «هذه دعاية إنكليزية، الإنكليز صنعوها ووزعوها».

ولو حلفت لشابٍ قومي من أعضاء نادي المثنى أو طالب الثانوية المتحمس (للفتوة) بأن الترجمة العربية لكتاب (كفاحي) ناقصة ومزورة بخصوص العرب، لكذّب ترجمته الإنكليزية فوراً بقوله: «الإنكليز هم الذين وضعوا فيه العرب في أدنى درجة من سلّم الأجناس البشرية». وعلى سبيل الجدال ردّ عليّ أحد الزملاء القوميين:

«لو صح ما قلت، كيف رضي هتلر بمشاركة الأفارقة الأمريكان في دورة الألعاب الأولمبية وقدم بنفسه المدالية الذهبية لأحد الفائزين منهم».

الحق يقال إنه أفحمني في حينه ولم أجد له جواباً وقتها.

وقوي الحقد الممتزج بالرهبة والمهابة على البريطانيين إلى الحدّ الذي صار يعزى إليهم كلّ ما يحلّ بالبلاد من أرزاء وبلايا. فقبلوا دون مناقشة عقليّة الكذبة التي روجتها المفوضية الألمانية حول يد الإنكليز في حادث الاصطدام الذي أدى إلى مقتل ملكٍ لا يملك من الملكات العقلية مقدار ما يملكه طفل. وإن الإنكليز أيضاً كانوا وراء ثورات الشيخ محمود والشيخ أحمد. كما كانوا أيضاً وراء انقلاب بكر صدقي، ثم وراء اغتياله. وهم وراء أحداث آب ١٩٣٣، وهم الذين شجعوا مار شمعون وسراة الآشوريين على الانتفاضة، لأنهم كانوا يريدون أن يخلقوا منهم دولة ضمن دولة بنيّة زعزعة الحكم الوطني العراقي. وليس هذا من قبيل المبالغة. فمن العيب والعار على هذا القلم أن يعمد إلى التضليل، وصاحبه أحد آلاف مؤلفة ممن أدمتهم وعبثت بحياتهم أنانية السياسية البريطانية.

بلغ بالقوميين وبالناس الآخرين جنون اتهام البريطانيين بكلّ كبيرة وصغيرة في هذا

البلد أن ضاع معه المجرمون الحقيقيون أو تنوسي أمرهم وغفرت لهم أدوارهم، حتى بدا وكأن للمارد الإنكليزي واحدة من صفات الخالق: الوجود في كلّ زمان ومكان.

كثيراً ما كان البريطانيون يستنكرون ويحتجون رسمياً على تصرفات مسؤول حكومي، ويحار المرء في تلك الأجوبة المسكتة التي يخترعها ذلك المصاب بعقدة الحضور الإنكليزي، كذلك الذي فسر احتجاج بريطانيا واستنكارها لمذابح آب ١٩٣٣ بأنها ما كانت إلاّ لتغطية دورها فيها.

من أعجب ما سمعت من تعليل للإجراءات البربرية التي اقترحها وزير الداخليّة (الكيلاني) لتأديب ومعاقبة ثوار الجنوب على القيادة العسكرية، وبرغم وجود كتاب رسميّ بهذا موقع بتوقيعه يقضي باجتثاث النخيل والشجر وإحراق المزروعات وإتلاف الماشية وتدمير القرى وتنفيذ أحكام الموت بتفاصيل تبعث الرعدة في البدن، فقد سمعت مما سمعت أن هذا الوزير أرغم على ذلك. فالآمر الحقيقي هو مستشار الداخلية البريطاني وإن الاحتجاج والاستنكار الذي أبدته السفارة وقتذاك إنما كان بمثابة تغطية لدورها فيها!

بعد قيام دولة إسرائيل وارتفاع علمها بين أعلام الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، روج بعض الكتاب القوميين في البلاد الناطقة بالعربية مقولةً، مؤداها أن التهاويل المختارة لهذا العلم ترمز إلى خطة التوسع الإقليمي على حساب تلك الدول. فقبلتها حكوماتها وشجّعت انتشارها بوصفها حقيقةً لا مرية فيها. وانطلقت الأقلام تنذر وتحذر من الخطر الصهيوني. ولم ينبر واحد من مئات زاروا ألمانيا في وقت التعاون النازي الصهيوني، ولا ممن درس وعاش في الأقطار الأوروبية والولايات المتحدة بتصحيح الإشاعة. وليس بينهم من فاتته رؤية ذلك العلم يرتفع رسميّاً على مقرات الوكالات اليهودية المنتشرة في تلك الأقطار، قبل أن يتحقق حلم اليهود بإقامة كيان سياسي لهم بأكثر من عشرين سنة. وقد ذكرنا فيما سبق معنى الرمز الحقيقي له.

ويطيب للساسة في العراق أن تعزى هذه الصفات الإلهية للإنكليز بين آن وآخر ليستروا بها تصرفاتهم المعيبة، وليعتذروا عن أعمال قبيحة أقدموا عليها - فيساعدوا على ترويجها ويستخدمونها هم أنفسهم أحياناً.

قلنا، ساهم الدستوريون الديمقراطيون في الإعداد للانقلاب العسكري وإنجاحه كما ساهموا مبدئياً في جهازه الحكومي. وكل هذا لا يتفق ومبادئهم وما كانوا عليه وقتذاك، وهذا موطن العجب - يرون داعياً للشك في خطر الانقلابات الفاشية العنيفة

في أوروبا الوسطى فضلاً عن ألمانيا وإيطاليا - على الديمقراطية التي بشروا بها. فقد ركزوا كالقوميين على الإمپريالية البريطانية وبدوا أشدّ وطأة عليها من أولئك. والأمر يصدق أيضاً على الشيوعيين الذين رحبوا كذلك بالانقلاب واعتبروه عملاً وطنياً، ثم مالبثوا أن أدركوا مغبة حمايتهم، بعد أن نزلت يد (بكر صدقي) الثقيلة بضربتين قاتلتين، على الدستوريين من جهة بغلق وإلغاء (جمعية الإصلاح الشعبي)، وقمع إضرابات العمال بقسوةٍ وصرامة من جهة أخرى.

وعندما انسحب الدستوريون من الحكومة، وعُطلت جريدة (الأهالي) وأسقطت الجنسية العراقية عن الشقيقين عبدالقادر إسماعيل البستاني والدكتور يوسف من أقطاب (الأهالي)، أسرع (الچادرچي) بمغادرة العراق خوفاً على حياته كما يبدو، وعقيب الحملة النكراء التي حملتها الصحف القوميّة على الجهتين.

وأكد بكر صدقي في حديث له مع المحامي والصحافي علي محمود الشيخ علي، وهو قوميّ معروف أسندت إليه فيما بعد وزارة العدلية في حكومة الدفاع الوطني الگيلانية التي أعلنت الحرب على بريطانيا، أكد دعمه للقوميين العروبيين وللقضايا العربية فصاروا يتقربون إليه ظاهرياً لاحتلال المراكز التي تركها الدستوريون. وكانت في الواقع مناورة متبادلة بين الدكتاتورية الجديدة والقوميين. فهؤلاء لم يكونوا يقصدون من وراء التقرب للحكم الجديد غير إبعاد العناصر الأخرى العدوّة. وربما كانت هناك خطة مشتركة بين أعضاء نادي المثنى وبين الضباط الناقمين ورجال الحكم، الذين طردهم الانقلاب وهي كتلة تزعمها نوري السعيد وطه الهاشمي والگيلاني. فقد كان القوميون والكتلة المؤتمرة بحكومة الانقلاب، وحياة صاحب الانقلاب، وراء الحكاية التي ثبتت في تأريخ العراق كحقيقة - رغم سخفها وظاهر تصنيعها - حول نية بكر صدقي في إقامة دولة كردية مستقلة. فهذا الدكتاتور كان يعمل لحسابه ليس إلاّ. والقوميون ورجال السلطة المبادة كانوا أعرف بهذا من غيرهم[11].

---

(١١) استرعيت انتباه القارئ (الكتاب الثالث) إلى أنّ الإشاعة الأخرى التي أطلقها القوميّون إسناداً لهذه المقولة - حول تقريبه الضباط الكُرد وإبعاده الضباط العرب - هي الأخرى مصنعة مكذبة واقعياً. فالمقربون الحقيقيون من هذا العسكري كادوا يكونون كلهم من العرب وليس بينهم كردي، وأولئك الذين ائتمنهم واختارهم لاغتيال جعفر العسكري كانوا عرباً، ومرافقوه وحراسه الشخصيون كانوا عرباً ورئيسهم كردي لأسرته تاريخ في العمل الوطني. والواقع هو أنه لم يكن يولي ثقة تامّة بأيّ ضابط كردي.

من هاتين الجهتين برزت كتلة الضباط القوميين الذين اعتمدهم طه الهاشمي والسعيد والگيلاني وأضرابهم للقيام بالانقلاب المضاد. وقد نجحوا وقضوا على حياة الدكتاتور وحكومته. إلاّ أنهم لم يفعلوا أكثر من إعادة الطبقة الحاكمة القديمة إلى السلطة دون محاولة تقديم وجوه جديدة، أو عرض برنامج قومي أو وطني للإصلاح.

ماذا كان هؤلاء الضباط القوميون يريدون من وراء اغتيال بكر صدقي؟ كانوا يريدون القضاء عليه فحسب.

ذات مرّة نفد صبر رجل الدولة الروماني (كاتو)[١٢] الأكبر عندما وجد زملاءه أعضاء مجلس الشيوخ يريدون إعادة تعيين عين أولئك الرجال الذين ثبت فساد ذممهم وقلّة درايتهم في تمشية أمور الدولة وعدم لياقتهم لمراكز الحكم، فقال لهم ساخراً: «من هذا يبدو لي إمّا أنكم لا تضعون للحكم قيمة كبيرة. أو أنكم ترون بأن الجديرين بالحكم نفرٌ قليل».

والواقع هو أن الصفقة على رأس بكر صدقي عُقدت على مثلث: الحقد والثأر واللهفة إلى استعادة السلطة المنزوعة، وكلها غطيت بعباءة القوميّة الشفافة. ومع هذا فقد كانت الدعاية لما أنجزه الضباط القوميون متقنة إلى أقصى حَدّ. وبدا العراق إثر ذلك وكأنه يحتل الموقع المركزي الذي تشع منه أنوار القومية العربيّة. ونال صحافيو سورية ولبنان المرتزقون مكافآتهم السخية من الخزينة العراقية عن الضجة التي أقاموها قبلاً حول الانتفاضة العربية وحكومة الانقلاب وراحوا بعدها ينعمون بهبات الحكومات العراقية، التي أسرعت بتبني قضيتي الوحدة العربيّة وجهاد فلسطين في تلك الفترة بشكل صريح.

لو غيّبنا عن أذهاننا لفترة وجيزة تقحّم الضباط السياسيين وأتباعهم من الضباط الصغار ميدان السياسة بدعوى القومية، والمتحمسين لهم من قلة من طلاب المدارس، وبخروجنا من دائرة الماضي إلى الحاضر وإلى ما عقب هذه المرحلة الخطيرة حتى الوصول إلى زمننا هذا، وبتأملنا كل القياديين القوميين الذين برزوا خلال هذه العقود الستة من القرن الماضي لا نجد المنتصر إلاّ الدولة أو أولئك الذين يهيمنون على الأنظمة والحكومات أو يصنعونها. وفي كلها تقريباً كانت العسكرية صاحبة الدور

(١٢) Cato: ماركوس بورشيوس ١٤٩-٢٣٤ ق.م: خطيب وكاتب روماني شهير تولى منصب القنصلية وقتاً ما.

الرئيس الفاصل، بمساندة الطلاب والغوغاء، وهما مادتان مستعدتان دوماً للاستفزاز والاستنفار. وهؤلاء الذين ائتمروا بحكم (حكمت سليمان) لم يكونوا عرباً، بل هم خليط من الضباط العرب والترك مثلما كانت جماعة الدكتاتور. فالقاتل كان تركمانياً، والشريك المحرض كان كردياً، ومن جاء به إلى محل الحادث كان عربياً ورئيس المؤامرة هو كردي.

إلاّ أن شخصية العقيد (صلاح الدين الصباغ) ما لبثت أن هيمنت على الموقف كلّه، سياسياً وقوميّاً. إنّ حصيلة فترة الاعتقال والتشرد التي عاشها هذا الضابط بعد سقوط حكومة الدفاع الوطني في ١٩٤١، وقبل أن تنتهي حياته بتنفيذ حكم الموت عليه كانت كتاباً ضمّنه آراءه القومية وشرح فيه عقيدته وأفكاره السياسية - تماماً مثلما أخرجت لنا فترة اعتقال هتلر إثر حركته الفاشلة في ١٩٢٣ كتاب (كفاحي). وما ندري أهو الذي اختار لمخطوطة كتابه عنوان (فرسان العروبة)، أم أن ناشريه هم الذين اختاروه له. وقد طبعه القوميون أكثر من مرة وتلاقفته الأيدي سرّاً في وقت ما، ثم عُرض علناً وتهافت القوميون عليه، وراح كتّابهم يقتبسون منه، ويسندون آراءهم إليه. فأُتيح لنا أن نطل منه على ما كان في خاطر صانع الحكومات، مُقيمها ومقعدها، معزّها ومذلها، كما يدعي رئيس تلك الكتلة العسكرية التي زجت الجيش العراقي في مغامرة عسكرية خائبة مأساوية[١٣].

ذكر الصباغ أنه مصريّ الأصل من مدينة دمياط، عربي النجاد من ناحيتي الأم والأب. نزح جده من المدينة المصرية فسكن صيدا في نهاية القرن التاسع عشر. ثم نزح أبوه منها، فسكن قرية نينوى التي تقع على بعد ميلٍ من مدينة الموصل على الضفة اليسرى من دجلة. وأنه ولد في هذه القرية في العام ١٨٩٨ . وأنه دخل الكلية العسكرية بإستنبول في العام ١٩١٤، وفي ١٩١٧ منح رتبة ملازم ثانٍ ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة. وخدم في جبهات مقدونيا وفلسطين في عين الوحدة التي خدم فيها الملازم (محمد أمين

---

(١٣) الصدف وحدها هي التي دفعتني إلى الاستقصاء والاهتمام بتعقيب حياة هذا الضابط قبل اطلاعي على كتابه. ففي أوائل الخمسينات أوكلني وزير المالية في قضية نزاع على ستّ أو خمس قطع أراضٍ زراعية في أنحاء قرية نينوى أمام محكمة استيناف تسوية الموصل، مسجّلة باسم مالكها صلاح الدين الصباغ. كانت السلطات قد صادرتها واعتبرتها ملكاً للخزينة ضمن قرار الإدانة والحكم الذي صدر عليه. فادعى بعض الأهالي في القرية (ربما كانوا من أفراد أسرته) بحق التصرف بها ونازعوا الحكومة ملكيتها.

الحسيني) مفتي فلسطين فيما بعد.

ولم يكن له دور في ثورة الشريف حسين. إلاّ أنه سارع إلى الانخراط في صفوف الجيش العراقي حال تشكيله بعين رتبته الأولى، ثم رقي إلى رتبة نقيب وانخرط في صفوف الخيالة ودخل مدرسة الأركان في أول تأسيسها. وفي العام ١٩٣٦ كان برتبة مقدّم ركن. وقد أرسل خلالها في بعثة عسكرية إلى إنكلترا في العام ١٩٢٥ وهناك بنى بفتاة إنگليزية، توفيت بعد عامين أو أقل بمرض عضال هو (اللوكيميا) كما قيل.

نشأ صلاح الدين في أسرة رقيقة الحال واحترف أبوه مهنة الصياغة ومن هنا جاء لقبه. والظاهر يؤيد فقر الحال من انتقال الجدّ والأب بين مصر وفلسطين والعراق، ثم الاستقرار في قرية حقيرة (آنذاك) كنينوى التي ماكان يزيد عدد بيوتها عن خمسمائة، ثم دخوله في السلك العسكري في هذه السنّ المبكرة، وهو كما قدّمنا المسلك الوحيد الذي يتيح لأبناء الفقراء فرصة التقدّم.

لانعرف بالضبط مبدأ سريان حُميّ القومية العربيّة في عروق الضابط صلاح الدين. ويقيناً أنه لم يكن قد أصيب بها عندما ربط حياته الخاصّة بالزواج من الفتاة البريطانية. إلاّ أن (يونس بحري)، الذي كان قد جاء بجهاز الإذاعة المسماة (إذاعة قصر الزهور) هدية من هتلر للملك غازي، يذكر بأن (الصباغ) كان واحداً من الضباط القوميين الذين يحفون بهذا الملك الشاب ويحتفلون به. كما أن العميد الركن إسماعيل العارف الذي نوّه بأن (الصباغ) الذي كان كثير الزيارات للكلية العسكرية في العام ١٩٣٧ أيام تلمذته فيها، تراه يصفه بهذا:

«لم يكن يفهم معنى الوطنية أو القومية، في حين يزداد إلحاحه على المناقشة فيها. وغالباً ما كان يحاول عند التقائه بمجموعات من الضباط (الصغار) أن يتحدث إليهم في شتى المواضيع السياسية. وبالرغم من التفسيرات التي يدلي بها أمامنا لمفهوم الوطنية، فقد خرجنا من تلك المناقشة أكثر تشوّشاً بصدد تلك المفاهيم»[١٤].

وأقرّ بأنني خرجتُ بعد قراءة كتابه بعين النتيجة التي توصل إليها تلميذ الكلية العسكرية (إسماعيل العارف) آنذاك، آسفاً من جهة على الأشهر التسعة التي عاناها الصباغ في كتابته، أكثر من أسفي على الطريقة اللاإنسانية التي انتزعت بها حياته والحقد

(١٤) المرجع السالف: ص٢٥.

البربري المتجلي في عرض جثته مشنوقة أمام وزارة الدفاع. لا شك في أن ذنوبه وجريمته لم تنف جريمة حاكميه وجلاديه، فهم الذين وضعُوه على الدرب القومي الملتوي الزائف الذي يغطي مصالحهم الخاصة وشهوتهم إلى السلطة. ويذكر (عارف) وهو ضابط حديثاً جرى بينه وبين الصباغ بمحضر ومشاركة من الملازم الأوّل طه الشيخ أحمد[١٥] في أوائل العام ١٩٤٠ عندما كان نوري السعيد رئيساً للحكومة التي فرضها صلاح الدين الصباغ وزملاؤه الثلاثة على البلاد. قال عارف:

«عدّدتُ له بعض الأسماء اللامعة من السياسيين الذين كنت أعتبرهم من المجرمين بحق الوطن وعلى رأسهم نوري السعيد فثار عليّ وأخذ يرتجف حنقاً وقال: إنك تتهّم هذا الرجل بالخيانة وهو الذي ضحّى بمستقبله في سبيل الثورة العربيّة وترك كليّة الأركان التركية والتحق بالملك حسين[١٦] وهو الذي ناضل في سبيل تحقيق استقلال البلاد العربيّة من السيطرة العثمانية وجازف بحياته في سبيلها. ثم راح يعدد مزيداً من المزايا التي لم أكن أعرفها عن نوري السعيد ثم إنه نادى طه الشيخ أحمد، الذي أمّن على أقوالي. إلاّ أن الصباغ ظلّ عصبياً وترك المعسكر منزعجاً»[١٧].

---

(١٥) عرفت العميد الركن طه الشيخ أحمد وهو برتبة نقيب يساهم معنا في تحرير مجلة (المجلة) الموصلية، التي كان يصدرها الأديب الكبير المأسوف عليه عبدالحق فاضل وزميله يوسف الحاج الياس المحامي، وكان يوقع القصص التي يكتبها بحرف (ط) فحسب. لقيتُه مرات في مكتب المحامين وأنا في الخامس الثانوي. وأتيح لي لقاء آخر به في زيارة قمت بها لمكتبه في وزارة الدفاع العام ١٩٥٩، لأرى صورته في العام ١٩٦٣ من تلفزيون بغداد مع جثث عبدالكريم قاسم والآخرين. (أنظر ج٢: ص٨٩٦ من كتابنا: العراق في عهد قاسم).

(١٦) لم يكن الأمر كذلك، فقد كان نوري السعيد مريضاً راقداً في البصرة عند استيلاء الإنكليز على البصرة في ١٩١٥، فأُسر وسيق إلى الهند، ومن هناك أقنع بالانضواء إلى ثورة الشريف حسين. والحكاية معروفة ولا سبيل إلى الطعن فيها، وما من شك في أن الصباغ كان يجهل ذلك.

(١٧) كتب الصباغ رسالته هذه إلى القوميين أثناء ما كان معتقلاً في أحد السجون التركية منتظراً إجراءات استرداده بطلب من الحكومة العراقية. فبعد هروبه من العراق إلى ايران مع الآخرين دبّ الخلاف بينهم هناك وانقلب إلى ملاسنة وتبادل التهم كما روي. وكان كلّ واحدٍ منهم يلقي تبعة ما حصل على الآخر. وقد بلغ الأمر بهم حَدّ الشتائم السوقيّة البغدادية الدراجة. ولم ينج (المفتي) منها. إلاّ أنه كان يستعين - بحسب رواية أحد الحاضرين - بمن يفسّر ما يشقّ عليه فهمه منها. وسلطت التهم على (الصباغ) بنوع خاص فنبذ الباقين، ولم يسارع بالرحيل، فأدركه الاحتلال البريطاني لإيران وجدّتِ السلطات العسكرية في البحث عنه. لكنه ظل متخفياً هناك =

وبعد أشهر قلائل وفي العام ١٩٤١ عندما بدا نوري السعيد للصباغ خائناً بحق العروبة، فقذف به وبزملائه خارج السلطة وجاء برشيد عالي الگيلاني، سنحت (للعارف) الملحاح الفرصة ليذكّر (الصباغ) بما عزاه من فضائل وخص به من ثناء لنوري السعيد بقوله: «لقد غضبتم عندما تكلمنا بصراحةٍ معكم قبل أشهر». فلم يجد الصباغ ما يرد به غير قوله: «كل شيء يأتي بوقته!».

وهذا قول رائج في العراق، وحكمة مبتذلة. فكلّ شيء يأتي في وقته الذي يختاره له صاحبه ويراه مناسباً لتغطية غفلته أو عنجهيته أو اعتزازه برأيه عندما يبدو خطله.

وكلّ شيء يأتي بوقته، حتى تلك النوازل والبلايا التي تسبب من عملك الآمن حتى لو بدا التناقض والمفارقة الذهنية واضحة من الأحكام والتصرفات بما فيه الكفاية.

وترى الصباغ جرياً على قاعدة «كل شيء يأتي في وقته» يتيه في عباب ما لا يحصى من النوبات العصبية والعاطفية المتناقضة في كتابه، تراه تارة يصبّ حمماً على الشعب البريطاني الذي شرّفه طبعاً باتخاذه واحدة من نسائه زوجاً، مسنداً إليه كلّ عيب خلقي. ثم ما يعتم تارة أخرى وقد نسي أن يعود بعد قليل مشيداً بأخلاق هذا الشعب وبسموّها ومتانتها! فلكلّ مقام مقال عنده.

الصباغ يمثل عقليّة الضباط القوميين السياسيين القلقة الحارة، المشبعة بالخيالات الواسعة والثقة بالنفس يمثلها أصدق تمثيل وربما كانت هذه الجامعة الوحيدة التي تجمعهم في كلّ البلاد الناطقة بالعربيّة. فالضباط العرب السياسيون عموماً وكما سنرى فيما بعد لا تجمع بينهم أيديولوجية واحدة، ولا يملكون وجهة نظر صميمة من بنات أفكارهم «كل شيء يأتي بوقته» إن صح التعبير. وهم عندما يختلفون في آرائهم ووجهات نظرهم لا تجد النزاع المحتد بينهم يقلّ صرامة وقسوة عن النزاع الذي ينشب بين القوميين المدنيين. والفرق هو أن النزاع الفكري أو العقائدي بين العسكريين (رغم روح الرفاقية المهنية le spirital corps) يتم حسمه بحدّ السيف وقطع الرؤوس. في حين يتّم عند الآخرين عادةً بالتشنيع وتبادل الاتهام بالخيانة والعمالة وبكل ما في لغة

= عاماً كاملاً، وأطال لحيته واتخذ زي الدراويش المتصوفة البكتاشية وحمل البلطة شعارهم وسار حافياً ينقر على الدفّ أحياناً ويشارك في حلقات ذكرهم راقصاً على إيقاعه أحياناً. ثم نجح في اجتياز الحدود إلى تركيا من بلدة (ماكو) الكردية. ولكن الأتراك أمسكوا به. وفي أيلول ١٩٤٥ سُلم للبريطانيين المنتصرين في الحرب، فهرب منهم لفترة وجيزة ،ثم ألقي القبض عليه وسلم للعراقيين. وطبع كتابه لأول مرة في لبنان العام ١٩٥٦ وتلته طبعات.

العرب من أوصاف مهينة عن طريق القلم واللسان، إلاّ أنهم لا يتعففون عن استخدام عمليات التصفية الجسدية لو ملكوا السلطة و«كلّ شيء يأتي بوقته».

بقيت فكرة القومية العربيّة - بأي شكل أيديولوجي تزيّت به وانتشرت - بعيدة كلّ البعد عن مبدأ مقنن محدد، أو نظام مبتنٍ على أسس واضحة من المعتقدات والآراء، ويُجمل الدكتور (نُسيبه)[١٨] الأسباب التي أدت إلى هذه النهاية المأساوية بقوله:

«إن الخيبة المرّة في المستقبل العربي، التي عقبت الحرب الكونية الأولى، ختمت على الحركة القومية العربية بطابع تشاؤمي سلبي شكوكي، حتى أصبحت أدبيات القومية العربية منذ ذلك الحين مريرةً رتيبة تتميز بما يعارضُ أكثرَ مما تتميز بما يُقترح».

في هذا الرّأي كثيرٌ من الواقع، إلاّ أنه ليس كلّ الواقع. فهو لا يتكرم في كتابه الجليل ببيان مبررٍ كافٍ لهذه الخيبة. من حيث إن التأريخ المعاصر يثبت بأن أهل البلاد الناطقة بالعربية لم يكن حالهم بعد الحرب بأسوأ من حال شعوب البلاد الإفريقية، أو شعوب جنوب آسيا. بل كان أفضل بكثير من بعض شعوب الشرق الأوسط نفسه. وكغيره من القوميين يغرق أبداً في العموميات ولا يلتفت إلى العامل الشخصيّ.

ولو أخذنا بآراء الصباغ بعيداً عن هذا العامل وتأملنا ما طرحه بشكل تجريدي لوجدناه يعكس بالضبط الشعور القومي السائد في العراق، وهو شعور فعلي وإن لم يكن معلناً عنه بمثل هذه الصراحة حتى ساعة كتابة (فرسان العروبة).

الصباغ يشعر ويفكر ويحبّ ويبغض ويعمل كـ«عربي مسلم». والعروبة والإسلام عنده ظاهرتان أيديولوجيتان (بالتعبير العلمي Ideological Phenomina) مرتبطتان بعضهما ببعض برباط غير قابل للانفصام لا في الحاضر ولا في المستقبل. ومن بين عدد كبير من الأشخاص الذين نوّه بهم في كتابه مدحاً أو ذماً تقريضاً أو قدحاً، ليس هناك عربيّ واحد غير مسلم، وليس هناك مسلمٌ واحدٌ غير عربي قال فيه كلمة طيبة. وأبناء بلده العراق، المسلمون الذين هم ليسوا عرباً، أي الكُرد بالدرجة الأولى، هم خونة انفصاليون. وبموقفه من هؤلاء ومن الآشوريين والمسيحيين عموماً يكشف الصباغ عن عنصرية في نهاية التعصب والبعد عن الإسلام، الذي يقدسه وعن مبادئه

---

(١٨) واحد من القوميين العرب المعروفين. كتابه (The Idea of Arab Nationalism، فكرة القومية العربية، ص٨١، ط. نيويورك ١٩٥٦).

الأصلية. ومنه تجد كم كان تأثير الأفكار النازية عميقاً على القوميين العرب في ذلك الحين[١٩].

ويعبرّ الصباغ عن قوميته بشكل في غاية البساطة: إنه مسلم والإسلام عدوّ للكفار وحكم الكفار. وإنه عربي والعروبة ترفض وجود الجيوش الأجنبية على الأرض العربيّة. إنه جندي والجندي لا يقوده أجانب. وهو يرى كما يرى كثير من المسلمين أن هناك شيئاً في «الإمپريالية» معادياً للإسلام أساساً. وهو يتمثل في الكفاح التأريخي بين المسيحية والإسلام الذي لم ينته، لكنه يدور في ميادين قتال وساحات معارك مختلفة وبأسلحة مختلفة. فالإمپريالية عنده هي امتداد للحروب الصليبية. والمصالح البريطانية تفضل تجزئة الأرض العربيّة، وهي مع فرنسا وإيطاليا وإسپانيا تعمل للمحافظة على استمرار هذه التجزئة بإدامة الحكم الأوروبي.

وبصراحة يُحسد عليها يجد الانحياز والأغراض البريطانية واضحين في التفضيل الذي تخصّ بريطانية به الأقليات غير المسلمة كاليهود في فلسطين وكالآشوريين في العراق. وأمكنه أيضاً ولا أدري كيف إضافة محاباة الفرنسيين للدروز وللعلويين واليضرية بوجه السنيّة، ومحاباة المسيحيين في لبنان إزاء الشيعة والسنية والدروز.

---

(١٩) عند نشر ترجمة (كفاحي) العربيّة التي جهد ناقلوه في حذف كلّ ما يشير إلى وضع كاتبه العرب ضمن الأسافل في سلم الشعوب المتأخرة، بقي القوميون العروبيون إلى النهاية يدافعون عن صحة الترجمة، لاسيما أولئك الذين تمتعوا بضيافة الرايخ الثالث وحفاوته الخاصّة، وشاهدوا بأعينهم ما أراد حكام ألمانيا أن يشاهدوه من تقدم وازدهار، فعادوا وهم يلهجون بالثناء. وليس بوسعي إلاّ أن ألتمس لهم العذر عند مقارنتهم على سبيل المثال بأعظم المفكرين الاقتصاديين وكتّاب الاشتراكية السوڤياتية والذين نالوا رواجاً منقطع النظير عند الاشتراكيين في العالم كله من مؤسسي مدرسة لندن الاقتصادية الشهيرة دولياً. ومنهم جورج برنارد شو المرسحي والكاتب الكبير صاحب كتاب: (المرأة الذكيّة تقود إلى الاشتراكية)، وأسقف كانتربري هيوليت جونسون مؤلف كتاب (السُدُس الاشتراكي في العالم)، الذين نظم لهم ستالين زيارات عدة قبيل الحرب، فقد انطلت عليهم عملية الخداع الكبرى وعادوا ليكتبوا الكتب الشيقة عن التقدم الذي حققه السوڤيات في ظلّ الاشتراكية. كتب كانت تتلاقفها أيدي المثقفين وتفعل في النفوس فعل السحر. لم يبق أي واحد من هؤلاء في قيد الحياة عندما راحت المعاول تهدم الطبقة الظاهرة من البناء لتكشف عن التفسخ والفساد العظيم في أعماقه. في حين ساعف الأولين انهيار النظام الهتلري المريع، ذلك النظام الذي تمنّوه لقومهم حيناً من الزمن، وتبينوا بعد تصفيته ما أخفي عنهم من مظالمه وجناياته. ومع ذلك رفضوا إعادة النظر فيما اقتبسوه منه من آراء. وقد قرأنا مؤخراً لبعض من ظلّ يشيد به ويحنّ إليه من القومين العرب وهو أعجب العجاب.

وكسامي شوكت وساطع الحصري لا يخفي إعجابه بما حققه أتاتورك في تركيا، فيعقب إثر حضوره في العام ١٩٣٨ تشييع جنازته:

«رأيت آثار التقدم فأصابتني بدهشة، ثورة اجتماعية في التعليم، في الثقافة، في الاقتصاد، والأمور الروحية. رأيت فخر الأتراك بوطنهم الأم، فخرهم بقوميتهم باعتمادهم على النفس، باستقلالهم».

ويدير رأسه إلى إيران ليراها تشبه تركيا من أوجه كثيرة: «إن استقلال مثل هذه البلاد هو قوي في حين استقلال العراق شكلي. العراق يحبو في حين أنها تعدو، لأنها حُرّة في اختيار سبيلها الخاص ولا أحد يسيطر عليها. حرة في التسلح كما تريد وكما تملي عليها الاعتبارات الجغرافية والستراتيجية»[٢٠].

عند تقديمه مختلف الشخصيات والتعريف بها، كثيراً ما تجده يقول عن أصدقائه «إن فلاناً الفلاني عربي النجاد والعقيدة كاللواء إبراهيم الراوي مثلاً». أو إنه «عربي الأصل والشعور». كما وصف زميله العقيد محمود سلمان. وأما عن نفسه، فيصفها مفاخراً «أنا عربيّ من جهتي أسرة الوالدين». وهو أمرٌ فيه أخذ وردّ، بواقع نزوح جده من دمياط، وهي مدينة مصرية عتيقة تكاد تكون ميناءً ثانياً رئيساً لمصر، وفيها أخلاط من الجنسيات الوافدة من حوض البحر المتوسط، فضلاً عن سكانها المصريين الخلّص. تبادلتها أيادي الفاتحين مراراً عديدة[٢١].

من الناحية الثانية كثيراً ما يبدأ الحديث عن خصومه بتعاريف تتعلق بأصولهم العرقية تحقيراً كنوري السعيد القومي الأمي خائن اليوم ووطني الأمس، إذ يصفه بقوله «أبوه يدعى سعيداً إلا أنه ليس من أبناء عائلة سعيد، لكنه تركي من قونيه». ورفض داود الحيدري «لأن الدماء العربيّة لا تجري في عروقه». فهذا السياسي هو كردي مستعرب.

أما أولئك الذين يضعهم في عداد الأصدقاء وهم ليسوا عرباً فيبدو أنهم يحتاجون منه إلى الغفران والصفح، كموقفه مثلاً من (أمين زكي): «ولد في بغداد من أب

---

(٢٠) المرجع السالف: ص٥٨.

(٢١) يشاهد المرء في دمياط من النماذج الآدمية الأنثروبولوجية ما يزيد عما يشاهده مثلاً في الموصل أو في بيروت. فقد تمثلت فيها سحن المصريين القدماء والمماليك واليونان والطليان والفرنسيين والكُرد والعرب والسودانيين. والذين عاصروا الصباغ وشاهدوه (شاهدته مرةً واحدة) لا شكّ سيستبعدونه عن الأصل العربي الذي ادعاه ببياض بشرته وشعره المائل للشقرة وقامته الطويلة ورأسه المستطيل، وهي الصفات التي تتميز بها العناصر الشمالية من البلاد الأوروبية.

كردي، إلاّ أنه مخلص للقضية العربيّة ومدافع متحمس عن الإسلام ويكره الإمبريالية وعملاءها».

والأعجب من هذا إعلانه أسفه على العائلة المالكة، التي لا يستطيع أن ينكر عروبتها وإسلاميتها: «إني آسف لأقول بأن العائلة المالكة اختارت إنكليزياً يهودياً طبيباً خاصاً بدلاً من طبيب عربي نقيّ الدم في الوقت الذي تئن فلسطين تحت نير الصهيونية اليهودية. كيف ينال العرب استقلالهم عندما يتصرّف زعماؤهم بهذا الشكل؟».

ففي عُرف الصباغ إن العائلة المالكة العراقية لو استخدمت طبيباً عربياً مسلماً بصرف النظر عن كفاءته أو حذقه فإنها ستسدي للقضية الفلسطينية خدمة كبيرة، وتبرهن بأنها تعمل فعلاً للقضية العربيّة.

ومن معلمي الصباغ الروحيين عبدالكريم الريفي، وعبدالقادر الجزائري وأحمد عرابي، وسعد زغلول وأبو دره الفلسطيني ويوسف العظم من سورية[٢٢] والشريف حسين بن علي، كما قبل بالمفتي محمد أمين الحسيني مرشداً روحياً له.

وهو يرى أن القوميّة العربيّة ومعاداة الإمبريالية أمران متحدان لا يفصل بينهما فاصل ولا يعطي بطبيعة الحال شرحاً لما يقصده بالإمبريالية إلاّ أنه ينظرها بمنظار الكره الشوفيني لكلّ ما هو أجنبيّ:

«أنا لا أؤمن بديمقراطية الإنكليز، ولا بنازية الألمان، ولا ببلشفية الروس. أنا عربي مسلم لا أرضى دون ذلك بديلاً من مزاعم وفلسفات».

وقوله أيضاً منتقلاً إلى الكوزموبوليتية دون أن يشعر كما يبدو:

«مبادئها من تراث الأنبياء ومن وحي الإله لإسعاد كلّ حيّ على وجه الأرض وهي تكفينا شرّ البلشفية والنازية والديمقراطية الإنكليزية. فهي أسماء براقة تخفي وراءها تيارات من الأخلاق المادية الغربيّة تعمل للقضاء على المثل العليا التي كان أسلافنا مبدعيها وحاملي مشعلها».

وما لبث أن نسي الصباغ تنديده بالديمقراطية وكفره بها، فكتب في عين الصحيفة: «إني أتوق إلى جمهورية پرلمانية تسودها الديمقراطية والعدالة على

---

(٢٢) لم يعرف عن هؤلاء دعوة للعروبية أو القومية العربية ولم يهتم أحمد عرابي أو سعد زغلول بمصائر البلاد الناطقة بالعربية مطلقاً. أما يوسف العظم فالمعروف أن أسرته الشهيرة التي عملت للقضية العربية هي كردية الأصل مستعربة.

أن يكون الجيش والقوة العسكرية اليد الحامية والمدافعة والضاربة للجمهورية وأن تقوم الحكومة بوضع السياستين الخارجية والداخلية، شريطة أن تنسجم مع الستراتيجية العسكرية التي تقررها قيادة الجيش بعيداً عن مداخلات السياسيّين»[٢٣].

لم يؤثر عن الصباغ أنه كتب شيئاً حول آرائه القوميّة قبل هذه (المذكرات)، وقد كان على اتصال وثيق بنادي المثنى وأعضائه يحضر كثيراً من الندوات القوميّة التي كان يقيمها. ولا بد سمع أكثر من محاضرة للأستاذ الحصري أو لسامي شوكت وغيرهم. ولم يقع بيدي شيء كتبه أحد عن سلوكه القومي خلال تلك الفترة غير ما أورده ذلك الضابط الصغير النابه (إسماعيل العارف) وهو، وهنا وجه الغرابة، تجده يتفق تمام الاتفاق مع ما أوردناه من مقتطفات: عاطفة قوميّة غلابة وقلقة، عاجزة تمام عجز عن تفهم الظروف الاجتماعية، قاصرة عن وضع إطار فكري محدد لأهداف واضحة، لم تجد منطلقاً لها غير العنف والإكراه.

والصباغ عند كلّ من كتب عن وقائع (١٩٣٧-١٩٤١) في العراق وعن حركة مايس التي ختمت بها، يعتبرونه الرجل القومي واللولب المحرك الآمر الناهي. ويكاد كلهم يُجمع بأنه هو الذي دفع بالعراق إلى هاوية مايس، وإنه هو الذي أطلق قوى الشرّ وقضى على تردد زملائه في صِدام عسكري مع بريطانيا، ساحته العراق، مشفوعاً أحياناً بتحريض وببركات مرشده الروحي مفتي فلسطين أحياناً، وبمد يده على قبضة مسدسه أو إشهاره في وجه من يحاول مخالفته من الرجال السبعة أو الثمانية، الذين زجوا الجيش والبلاد في مغامرة مايس وطوحوا بمقدراتها ومستقبلها[٢٤].

---

(٢٣) (فرسان العروبة) ص١٨٥: المقتبسات السابقة هي من الص ١٢ و١٣ و١٨.

(٢٤) وجدتُ في كتاب يونس بحري (أسرار حركة مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية - الإنكليزية). نصّ رسالة زعم المؤلف أن الملك غازي كتبها للصبّاغ معلناً انضمامه (كذا!) إلى مجموعتهم. وأنا أنقلها هنا رغم شكيّ القوي في كل ما يكتبه هذا الرجل واضعاً في حسابي حالة هذا الملك المتخلف عقلياً.

١ آذار ١٩٣٩

أخي صلاح الدين

لقد أيقنت الآن ويؤسفني أني تأخرتُ، إنكم يا أخي صلاح الدين مخلصون في عملكم وإنكم أنتم تنصرون القضية العربيّة في العراق. لذلك قررت أن أكون أحد إخوانكم في الجيش العراقي وأن أضع يدي في أيديكم. غازي

بكلّ ما في هذه الآراء من فجاجةٍ واضطراب ذهنيّ حتى لو تناولناها بعقلية ذلك الزمن وروحيته، ربما أدرك القارئ بعض العجب والحالة هذه - في إسهابي وأخذي به إلى رحلة طويلة خلال ما كتبه هذا الضابط وهو أسير في سجنٍ لم يخرج منه حياً.

كان قصدي وما زال أن يشاركني القارئ في العثور على جواب صحيح للسؤال عَمّا يحدو بهذا الضابط وأمثاله، الذين ظهروا على مرسح القوميّة العربيّة فيما بعد: إلى الربط بين القوميّة ومعاداة الإمپريالية من جهة، وبين الكره الشوفيني لكلّ ما هو أجنبي مع التعصب الديني من جهة أخرى، أهو رداء تقليديّ لبسه القوميون المحدثون وكسوه المفهوم الجديد لها؟ أم هل إن عداء القوميّة للإمپريالية هو لا أكثر من مصطلح الساعة ضربت سكّته من معدن أو هوية غير متغيرة لنظام تقليدي نابع ومستمد من آراء ومعتقدات خاصة بالدولة الإسلامية أوّلاً والعربيّة ثانياً؟ ثمّ ما هو العنصر المؤقت العابر في هذه الأيديولوجية، وما هو العنصر الثابت الباقي على الزمن الطويل؟ وما هو العامل الفاعل منها، وما هو المظهر المعلن فحسب؟

بالنسبة إلى معظم أيديولوجيي القوميّة العربيّة وزعمائها تجد دعاوى القومية العربيّة الحديثة والمفاهيم الإسلامية التقليدية تمتزج بعضها ببعض ورغم اختلاف اتجاهاتها بالأصل، فهما يؤثران أحدهما في الآخر حتى يبدو الأمر أحياناً وكأنهما ينبعان من جذر مشترك. العامل الديني والعامل القومي يختلفان عن بعضهما اختلافاً بيناً، ويبعث كلّ منهما استنتاجات متناقضة في أغلب الأحيان. فكيف امتزجا هنا؟

إن المسألة ليست مسألة أصل تأريخي، ولا ثمرة عوامل سايكولوجية خاصة، بل حتى ليست مسألة تأكيد لواقع. بل هي مسألة «الكيف» ضد «الكمّ». فكثيراً ما حصل في عالم الإسلام في القرن التاسع عشر (ولنأخذ إيران وتركيا مثلاً) أن قيادة متعلمة (حكومة كانت أم هيئة غير ذات سلطان) قامت بصياغة وجهة نظر دنيوية ذات طابع قوميّ - إن قبلتها طبقة واسعة من السكان بالروح المتحفظة التقليدية التي تمتد جذورها إلى الاعتياد على التقليد الديني[٢٥]. وهذا يفسّر قبول البلاد الناطقة بالعربيّة ذات الغالبية

---

(٢٥) يطيب لي بهذه المناسبة التمثل بأبيات أربعة للشاعر المفكر إيليا أبو ماضي

لمّا سألتُ عن الحقيقة قيل لي ... الحق ما اتفق السوادُ عليه
فعجبتُ كيف ذبحت ثوري في الضّحى ... والهند ساجدةٌ هناك لديه
نرضى بحكم الأكثرية مثلما ... يرضى الوليدُ الظلم من أبويه
إمّا لغنمٍ يرتجيه منهما ... أو خيفة من أن يساء إليه

الإسلامية الساحقة بفكرة القوميّة التي طرحتها حلقات ضيقة صغيرة من مثقفين بثقافة الغرب ذوي نظرة ليبرالية دنيوية، ولم تكن صدفةً محضة أن يضطلع المسيحيون فيها بمثل هذا الدور الكبير.

أصبحت القوميّة العربيّة بين الحربين العالميتين حركة جماهيرية في البلاد الناطقة بالعربيّة وتبناها سكان القرى والمدن، الذين ما زالوا يعيشون تحت خيمة كثيفة من التقاليد الدينية. تبنوها كعقيدة لكنهم وضعوا عليها طابعهم الخاص. وقد بدت لفترة قصيرة بعد الحرب العظمى الأولى كحركة تطمح بصورة أساسية إلى الاستغراب (السير على الخط الغربي Westernization)، وبدت في العقد الرابع من القرن تميل أكثر إلى مقاومة الإستغراب، لا تقتصر فحسب على مقاومة السيطرة السياسية الغربيّة، بل تتعدّاها إلى رفض عناصر المدنية الغربيّة ومفاهيمها الاجتماعية. ويعزى هذا التحول أيضاً إلى تأثير عوامل اجتماعية واجهتها البلاد الناطقة بالعربيّة من جهة وإلى ما حصل في أوروبا أيضاً. فالعقد الذي توسط بين انفجار الأزمة الاقتصادية العالمية في ١٩٢٩ وبداية الحرب العظمى الثانية تميز بانتصار الرجعية والفاشية وباندحار القوى التقدمية والمبادئ الديمقراطية في المجال الروحي فضلاً عن المجال السياسي، ليؤدي إلى تقوية الرجعيّة المتعصبة في حلقات القوميين العروبيين. لذلك وجدناهم ولاسيما ضباطهم السياسيين ورجال السياسة منهم، يجتذبون الجمهور وجانباً من المثقفين، فيناضلون - نزولاً عند رغبة الجمهور - في سبيل تقاليد الإسلام والعروبة معاً. وفي وسط ترحيبهم بتأثير العصر ينساقون في سبيل بعيد عن المفاهيم الديمقراطية، ويتشبعون بروح القوميّة الفاشية الاعتدائية التي نبطت في أوروبا. وهذا وحده يفسر لنا كيف تمكن الصباغ من تبرير تعدد الزوجات في الإسلام. والدفاع عن تحالف سياسي عسكري وأيديولوجي مع النازيين، مثلما يفسر لنا تحالف عبدالناصر مع الاتحاد السوڤياتي وإشباع بلاده بالخبراء السوڤيات، في حين غصت سجونه بالشيوعيين واليساريين الاشتراكيين دفاعاً عن الإسلام وشعائره وتطبيقاً لفتاوى علماء الأزهر[٢٦]، في حين لم يتردد في وضع حبال

---

(٢٦) في العام ١٩٦٤، أصدر مفتي مصر فتوى ببطلان زواج أي طرفٍ من الزوجين يعتنق المذهب الشيوعي. وحكم بوجوب الطلاق. كان الكواكبي الحلبي وقد مرّ ذكره يميز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزاً دقيقاً. فيؤكد تأكيداً شديداً على المكانة الخاصّة التي يجب أن يحتلها العرب في الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم. ويرى أن عرب الجزيرة هم =

المشنقة حول أعناق أقطاب الإخوان المسلمين، الذين حاولوا الاعتداء على حياته.

ربما وجدنا في (أمين الريحاني) اللبناني الماروني نموذجاً للحيرة والقلق الذي تملك المسيحيّين في البلاد العربيّة بسببٍ مما ذكرناه. فأدّى بهم لنبذ الادعاء بالقوميّة العربيّة، والنأي بأنفسهم عن العمل لها عموماً. حيرة وقلق أشاعتهما في نفوسهم حالة من اليأس في تقويم الاتجاه الأعوج الخطر الذي سلكته المسيرة القوميّة.

وربما اعتبرها صلة بين القوميّين المسيحيين الأوائل وبين قلةٍ ووشلٍ من متحلقي الدكتور قسطنطين زريق.

بدت الفكرة القوميّة عند الريحاني سحابة يكتنفها غموضٌ متعمّد تجده تارة يتحدث عن «الأمة السورية». ثم ينقلب ليتكلم عن «الأمة العربيّة» و«الأمة اللبنانية»، وأحياناً تجد هذه الأوصاف في مقالةٍ واحدة من كتابه. في الواقع وجدناه حتى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين يؤمن بالوحدة السورية «الذات السورية، التربة السورية، الوطن السوري، الأمة السورية، القوميّة السورية الخ».

من مقالة له حوله التطور والاستقلال يقول:

«أنا سوريّ أولاً ولبنانيّ ثانياً وماروني بعد ذلك. أنا سوري أنشد بالسورية القوميّة الجغرافية السياسية، أنا سوري مسقط رأسي نهضة العرب على الأتراك. أنا سوريّ يودّ أن يرى في سورية حكومة دستورية لامركزية عمودها القوميّة الجغرافية وأساسها العدل والمساواة بالحقوق والواجبات. أنا سوريّ لبناني أعتقد بفصل الدين عن السياسة، لأني مدرك أن حجرة العثرة في سبيل الوحدة القوميّة، إنما هو التحزب الديني»(٢٧).

= المؤهلون لإعادة مجد الإسلام قوميّاً، لأنّ العناية الإلهية حمتهم من الفساد الخلقي الذي ألمّ بالترك. (أم القرى. وكذلك طبائع الإستبداد، ص٢٣٩ وما بعدها).

(٢٧) ١٨٧٦-١٩٤٠: قضى شبابه في الولايات المتحدة يتعاطى الأعمال الحرّة. ثم عاد في أواخر العشرينات إلى لبنان وكتب كثيراً وساح كثيراً في أرجاء البلاد الناطقة بالعربية - وهو من الأدباء السياسيين، تعرّف إلى اللغة العربيّة حتى أتقن التعبير بها وكتب بها وبالإنكليزية. من كتبه (قلب العراق الملك فيصل) و(ملوك العرب) و(تأريخ نجد الحديث) و(المغرب الأقصى) و(الريحانيات) مجموعة مقالات. وقد أعيد طبع بعض كتبه بعد وفاته مراراً. كانت سياحاته عند بعض القوميين مصدر شكّ، وفي حينه أشاعوا عنه بأنه عميل سعودي أمريكي. الاقتباسات التي أوردناها هي من كتابه (القوميات، بيروت، دار الريحاني ١٩٥٦).

في ١٩٣٠ وما بعدها صار يتحدث خلاف ذلك صار يتحدث بالعروبة ويحصرها قصداً بوحدة الهلال الخصيب والجزيرة العربيّة فحسب من دون مصر والمغرب. في عين الوقت لم يتخلّ عن فكرة الوطن السوري.

في العام ١٩٣٤ جاء في رسالة أثبتها ردّاً على خطابٍ من شاب عربي قومي متسائل:

«أجل، الوحدة العربيّة ممكنة، بل هي محققة، إن لم يكن اليوم فغداً، بعد سنةٍ، أو بعد خمسين سنة. والاتحاد الجزئي اللامركزي هو أولى الخطوات، لأنّ الحكومات العربيّة لا يمكنها أن تتنازل عن حقوق السيادة الإقليمية».

والوحدة العربيّة عنده هي: «وحدتها الطبيعية التأريخية القوميّة، فننضَم كلّنا: اللبناني والسوري والفلسطيني والعراقي والنجدي والحجازي واليمني. كيف لا؟ والبلاد كلها من حلب إلى عدن ومن العريش إلى خانقين كلّها عربيّة؟»[٢٨].

وفي معرض آخر يعرف عن إيمانه بهذا الشكل: «إني العربي الدم والقوميّة عربيّ الحس والنزعة، عربي القلب والروح، عربيّ اللسان وليس في البلاد العربيّة، من حلب إلى عدن ومن القدس إلى بغداد ما هو أقدس عندي من فكرة الوطن»[٢٩].

والعروبة عنده «وبالأخير» هي قبل كلّ شيء، قبل الإسلام وقبل المسيحية: «وليدرك ذلك المسيحيون، وليدركه المسلمون، العروبة فوق كلّ شيء وقبل كلّ شيء... كل طائفة عندنا وطن قائم بذاته، فالسنّة (كذا) والشيعّة في العراق والمارونية وأخواتها في لبنان، والوهابية في نجد والزيدية في اليمن، إنما كلها من هذا القبيل واحدة، كلّها تقدم مصالحها على المصلحة الوطنية الكبرى، لذلك أقول بالخروج من الفكرة الطائفية إلى الفكرة القوميّة»[٣٠].

في وسط تأرجحه بين القوميّة السورية والقوميّة العربيّة، وفي بحرانٍ من حيرته القلقة هذه، تبقى فكرة واحدة ثابتة عنده واضحة لا مراء فيها، وهي بحثه عن الليبرالية الديمقراطية التي افتقدها في البلاد الناطقة بالعربيّة وخط الاستبداد السياسي ونكبة

---

(٢٨) المرجع المعتمد السالف: ص١٥٢ ج١.

(٢٩) كذلك: ص١١٢، ج١.

القومية العربيّة وقومييها بحكام متعسفين أحسن وأجاد في وصفهم ولا عجب، كاتب سلخ أكثر من ربع قرن من حياته في ظلّ حكم ديمقراطي. وهذه الفقرة التي أنقلها الآن تغني عن المزيد من الاستشهاد، قال:

«كان لي صديق أديبٌ وديع النفس لطيف الكلمة طلق المحيّا، إلاّ أنه كان حاكماً غضوباً متعسفاً عتياً. سألته عن سبب هذا التباين الخلقي في سلوكه كأديب وكحاكم، فقال لي: اعلم أن الحكم في الشرق لا يقوم بغير العنف وعلى الحاكم أن يكون قبل كلّ شيء حاكماً، فلا يبتسم علناً ولا يلين رسمياً لأحدٍ من الناس. والحكم والتحكم هما من مصدر واحدٍ، وإنما العاجز من لا يستبد. (وأنشد قائلاً):

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد　　　وشفت أنفسنا مما نَجِد

واستبدّت مرةً واحدة　　　إنما العاجز من لا يستبد

كان صديقي مع ذلك عصريّاً في نواحي حياته الرسمية كلّها، أما الحكم في الشرق القديم فلم يألف النقد، وما عوّده الشعراء غير المديح، وما كان صديقي نسيج وحده في عقيدته السياسية وسلوكه، بل هو مثالٌ سوي لكبار الموظفين وصغارهم. إن الاستبداد درجات: رجلي على رأسك يا هذا، ورجله لحاه الله على رأسي. لا أخاف على الحكومات الوطنيّة الجديدة المستقلّة إلاّ من التقاليد الشرقية وقد أمست غرائز تبدو في أصحابها حالما يرقون منصّات الأحكام. وما دام الواحد منهم يحسب نفسه فوق الانتقاد بل فوق القانون، فالأمة (العربيّة) في خطر أشدّ من خطر الاستعمار الأجنبي. هي في خطر من ظلم القوميين (الوطنيين) واستبدادهم»[٣١] ا.هـ.

نقول: كل ما أنبتته حكاماً مستبدين، دكتاتورين، طغاة. شيء غاب عن أمين الريحاني وأضرابه: الحاكم المستبد هو أقرب شبهاً في معشر الحيوان بالبومة كلما زاد تسليط النور عليه ضعفت قابلية الإبصار فيه.

إن أبرز الشرور العديدة التي هي من مظاهر الحكم المستبد المطلق، بل وأعظمها وطراً في نظري، هو أن لا يعود أي من الأصدقاء والمقربين الكثيرين الموثوق بهم

---

(٣٠) كذلك: ص١٤٧.

(٣١) المرجع السالف: الص ٣٦ -٣٧، ج٢.

يجرؤ على الكلام بحريّة وأن يقول الحقيقة الصريحة.

ويسجّل هذا المظهر لكلّ الأنظمة القائمة في البلاد الناطقة بالعربيّة تقريباً، لاسيما تلك التي نجمت عن مغامرة قوميّة لعسكريين أو بمساندة عسكريين. وكثيراً ما يسجل الرّأي العام والجمهور رأيه في فكاهات مُرّة تتحدى السلطان، وتستظهر على جبن الأصدقاء والمقربين.

هذه فكاهة سياسية قرأتها قبل أكثر من عشرين عاماً صور فيها مبتدعها المصريّ حصيلة الأنظمة القوميّة العسكرية في ثلاثة أقطار بما يغني عن صفحات وإليك هي:

«سئل مصري وسوداني وعراقي: «ما رأيكم في أكل اللحم؟» فأجاب الأول: «ما معنى «لحم»؟» وأجاب الثاني: «ما معنى «أكل»؟» وأجاب الثالث: «ما معنى «رأي»؟»».

* * *

في العام ١٩٣٨ حين كان العراق يستحق لقب «بروسيا العرب» بجدارة، وبفضل تحكم الضباط القوميين في السلطة ونصب الحكومات وعزلها، مالبثت فلسطين أن أصبحت الابن المتبنّى لفكرةٍ كانت تحتاج بعد استقلال العراق والتحدي الظاهري للنفوذ البريطاني، والوعود المبذولة بسخاءٍ من الجانب الألماني والإيطالي، إلى هدف آخر تتبناه مع هدف طرد الفرنسيين من سورية ولبنان، وتحقيق استقلال الأردن التام.

فكان من الطبيعيّ أن يبرز شعار «فلسطين قضيّة العرب الكبرى» ليتقدم سائر الشعارات القوميّة بسبب الظروف التي كانت تعم ذلك القطر.

بدا شعاراً أشبه بسكين حجريّ في حرب حديثة. ولست أدري كم كان واضعوه والعاملون له يدركون ذلك في حينه. وقد اقتضى عقود من السنين وحروبٌ مخجلة النتائج مهلكة للوصول إلى شيء شبيهٍ بهذه المعادلة:

«إن لم يحقق اليهود تسوية سلميّة مع الفلسطينيين، أو يسحقوهم سحقاً أو يبيدوهم، فإنهم لا يستطيعون الوصول إلى اتفاق ذي معنى، لا مع العراق ولا مع مصر وسورية أو أية دولة عربيّة أخرى. وبالكلام الصريح فالموضوع هو تغافُل سياسيّ بحت لا دخل فيه للقوميّة أو الدين ولا تأثير فيه لأيّ عقيدة فكرية»[٣٢].

---

(٣٢) يشهد الله عَليّ أني دونت هذه العبارة (بدءاً من شعار أشبه بسكين) في دفتر ملحوظات قبل أكثر =

إلاّ أن الأمزجة في العام (١٩٣٨-١٩٣٩) لم تكن مستعّدة لقبول مثل هذه المعادلة. وكان عليها أن تنتظر أكثر من نصف قرن ليخرج الناتج منها صحيحاً. وبوصفه «بروسيا العرب» تبنى العراق القضية الفلسطينية كما قدّمنا، وتبارى المتنافسون على الحكم فيه على إظهار حماستهم لها تقرباً من الضباط القوميين الذين فتحوا الكليّة العسكرية العراقية في أوجه كلّ عربي قادم من الأقطار العربيّة. واستقبلوا المفتي أمين الحسيني استقبال الفاتحين، ووضعوا موارد الدولة في خدمته وحاشيته وفتحوا مكاتب المتطوعين تمهيداً للتدخل الفعلي المسلّح. وكل هذا معروفٌ ولا حاجة للخوض فيه، ونحن نقصد غير المعروف ونكشف عما كان مستوراً.

في العام ١٩٣٩ كانت القيادة العليا الألمانية (الڤيرماخت) بأمرٍ توجيهي من هتلر قد سبقت فوضعت خططها لبدء الحرب الثانية. ومن مقتضى هذه الخطط أن يستعان برتل خامس لإحداث اضطرابات وثورات في كلّ البلاد الخاضعة للنفوذ البريطاني، وفي مقدمتها البلاد الناطقة بالعربيّة، رتل خامس ليس إلاّ، وليس الإعداد لحرب.

علقت وزارتا الدعاية والخارجية الألمانيتين بقدر ما يتصل الأمر بهما كلّ آمالهما على (عزيز علي المصري) في مصر[٣٣]. وعلى المفتي الحسيني، الذي استطاع أن يتسلل في أوائل ١٩٣٩ إلى لبنان، ووصل بغداد في تشرين الأول، وفيها أقام هيئة أركان تابعة له، وأنشأ يتدخل في شؤون العراق الداخلية تدخلاً سافراً بفضل أصدقائه الضباط القوميين:

> «وراح يضربُ على نغمة: إنكم اقترفتم خطأ كبيراً بقطع علاقاتكم مع ألمانيا. وأنشأ تحت قيادته ما دعي بـ(لجنة تعاون البلدان العربيّة). وسارع في الانضمام إليها كثيرٌ من الزعماء القوميين في سورية وفلسطين وشرق الأردن فضلاً عن العراق. ومنحت الحكومة العراقية المفتي هبة قدرها ١٨ ألف پاون أسترليني فضلاً عن مرتب شهري قدره ألف دينار. رغم أنه كان منذ ١ كانون الثاني ١٩٣٩ يتلقى معونة مالية سنوية من الاستخبارات الألمانية (آبفيور) تزيد

= من ٢٨ عاماً. رافقني طوال سنوات السجن وما بعدها. وهي واحدة من خاطرات متسلسلة زمنياً كتبتها تباعاً، تتحدى التزوير والتصنيع وتصمد لكل فحص مجهري أو مختبري forenice. وأنا ما ادعيت قط لا بهذا ولا بغيره المقدرة على خرق حجب المستقبل والتنبؤ. إلاّ أن حصيلة حرب ١٩٦٧ أدت بي إلى مثل هذا الاستنتاج، فدونته في حينه وأنا في السجن.

(٣٣) سيأتي الحديث عنه في موضعه المناسب.

عن (١٠٠٠٠٠) باون، إلى جانب معونات السفارة الإيطالية في بغداد».

ويقول الحسيني بدوره: «خرجتُ من القدس مساء ١٣ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٣٧ إلى يافا ومنها إلى لبنان بقارب شراعيّ صغير. فاعتبرتني السلطات الفرنسية لاجئاً سياسياً. وبقيت في لبنان عامين كاملين، ثم غادرته مساء ١٣ تشرين الأول ١٩٣٩ إلى العراق، فوصلتُ بغداد بعد يومين. وكان قد سبقني إليها نحو مائتين من قادة الثورة الفلسطينية وكبار المجاهدين الفلسطينيين. فقوبلوا أحسن مقابلة من السلطات العراقية ومن إخوانهم العراقيين. واستقر رأينا على أن لا يتدخل الفلسطينيون خلال إقامتهم بالعراق في الشؤون الحزبية والسياسات المحلية ولا يتسببوا في أي إحراج وإزعاج للسلطات العراقية. وكان هذا وفقاً للخطة التي التزمناها في كل قطرٍ حللنا به من الأقطار العربيّة، حتى إنني كنت وإخواني نعتذر من عدم تلبية كثير من الدعوات الكريمة التي كانت توجه إلينا من الهيئات والجمعيات والأفراد من البصرة والموصل وغيرهما من كبريات المدن العراقية».

كان الحسيني يكذب على نفسه وعلى التأريخ بصفاقةٍ لا حدود لها. فبعد بضعة من فقرات مقاله هذا، نسي قراره بعدم التدخل فقال:

«(بعد الأزمة الحكومية في شباط ١٩٤١) وعلى الأثر ذهبتُ مع بعض الأصدقاء صبيحة يوم ١٩ شباط إلى البلاط الملكي، حيث كان عدد كبير من الزعماء والوزراء يتباحثون. وفي مساء اليوم التالي ذهبتُ والمرحوم أمين التميمي لزيارة نوري السعيد في منزله. فعتب علينا (كذا) لأننا لم نعمل على حسم الخلاف بين إخواننا رجال العراق. ولما أجبته بأن خططنا هي أن لا نتدخل في الشؤون الحزبية والمحلية قال إن هذه الشؤون في صميم القضية العربيّة. وانتهى بنا الحديث إلى لزوم السعي لجمع كلمة الزعماء والأحزاب في هذه الظروف والوصول إلى صلح وتفاهم وتعاون فيما بينهم وتشكيل وزارة ائتلافية تمثل جميع الأحزاب ويختار الوصي عبدالإله رئيسها، وأن تكتب اتفاقية في هذه المقترحات يوقع عليها جميع رؤساء الوزارات السابقين وتوضع عند الوصي للعمل بمقتضاها. وعلى الأثر زرنا رئيس الديوان السيد رشيد عالي ثمّ الوصي، فأبدى ارتياحه للمقترحات وشجع على العمل بها. فاجتمع الرؤساء (رؤساء الحكومات) في بيتي وهم السادة رشيد عالي، ناجي

السويدي، نوري السعيد، علي جودت، جميل المدفعي، توفيق السويدي، ناجي شوكت، السيد محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان، ووقعوا الاتفاقية، فأخذتها وسلمتُها إلى الوصي فقبلها شاكراً».

إن لم يكن هذا تدخلاً فأيّ وصفٍ يمكن أن يُعطى؟

ويعقب المفتي بعد هذا استطراداً كأن الأمر لا يعنيه في شيء كثير:

«وقد كان القادة العسكريون متعاونين مع المخلصين من الزعماء السياسيين في معارضة المطالب البريطانية لمخالفتها المعاهدة ولما تعود به من ضرر على العراق، ولذلك كان الإنكليز يرغبون في الخلاص من أولئك القادة والزعماء. وقد كانت لي صداقة سابقة ببعض أولئك القادة وهم محمود سلمان وصلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد من أيام الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، إذ كنا ضباطاً في ألوية الفرقة (٤٦) في الجيش العثماني، وكنا على اتفاق في الآراء والمبادئ. فلمّا لقيتهم في بغداد عام ١٩٣٩ ألفيتُهم وقد أصبحوا من كبار قادة الجيش العراقي يلتهبون حمية وحماسة ورغبةً في خدمة العراق والوطن العربي ويتطلعون إلى من يتعاون معهم في هذا الميدان. فحاولوا ذلك مع نوري السعيد بادئ الأمر، ثم التفوا حول طه الهاشمي الذي كان وزيراً للدفاع حينئذ، حتى كان الإنكليز يطلقون عليهم عبارة المربع الذهبي The Golden Square (بإضافة العقيد كامل شبيب)، لكن آمالهم خابت. فاتجهوا نحو رشيد عالي وتعاونوا معه وتعاهدوا على العمل بإخلاص ورويّة! في خضم الحرب العالمية الثانية[٣٤]».

---

(٣٤) ما بين الأقواس من إضافتنا. الفقرات الواردة في المتن هي مقالة كتبها الحاج أمين الحسيني لمجلة (المصوّر) القاهرية (أيلول ١٩٧٢) رداً وتوضيحاً لمذكرات الدكتور كمال الدين جلال، التي نشرها في العددين المؤرخين ٢٦ تموز و٢ آب ١٩٧٢ من مجلة (آخر ساعة) المصرية بعنوان (العلاقات التي قامت خلال الحرب العالمية الثانية بين هتلر وموسوليني زعيمي دولة المحور وبين بعض رجالات العرب)، أما عنوان مقال المفتي فهو: (إتهامي بإثارة الخلاف بين الفلسطينيين باطل).

والمقال برمّته كاد يكون تنصلاً تاماً من أي مسؤولية له في الإقدام على تلك الجناية الكبرى على العراق والعراقيين والتي عُرفت بـ(حركة مايس ١٩٤١)، والقوميون الذين اعتزوا وما زالوا بتلك الحركة، ما زال بعضهم يعتبر المفتي واحداً من مسؤولين كبار ثلاثة عنها إكباراً له وتعظيماً. وهو في مقاله هذا مثلهم يحاول إلقاء ذنب ما حصل على الاستفزاز البريطاني والمبادأة =

وهكذا، فبأمثال هؤلاء الزعماء العروبيين والفلسطينيين كادت قضية «العرب الكبرى» تغدو «نكبة العرب الكبرى» بما أحدثته بصورة مباشرة من هزّات سياسية عنيفة وانقلابات دموية في مختلف الأقطار العربيّة طوال ستين عاماً، لم ينجح فيها أي بلد ادعى حكامه بالعمل للقومية العربية وخدمة مصالحها وأهدافها، وباستخدام اللاأخلاقية السياسية بإتقانٍ لا مزيد عليه.

= بالعدوان! عملية إلقاء الذنب على الآخرين التي يجيدها ساسة البلاد الناطقة بالعربية أيما إجادة.
كتب الحاج المفتي هذا المقال وهو في السابعة والسبعين من عمره المديد الذي طال به أربع سنوات أخرى. وهو في بيروت يعيش في بحبوبة بفضل الهبات المالية التي كان يسعفه بها ضابط عراقي آخر اسمه عبدالكريم قاسم طوال ثلاث سنوات على الأقل، عن طريق صكوك باسمه ترد من بغداد ويتسلمها من السفارة العراقية ببيروت. وذكر لي أحد الموثوقين أن مجموع ما وصله قد يزيد عن مائتي ألف دينار عراقي (٦٠٠ ألف دولار أمريكي على الأقل). من الصعب جداً أن نصل إلى تفسير منطقي من خلال التكوين المعقّد لعقلية عبدالكريم قاسم لهذا السخاء الذي خصّ به المفتي. ومكافأته على ما أحدثه نشاطه الفلسطيني في العراق من شرور وندوب في نفوس المواطنين. ربما كان قاسم يحاول يائساً شراء ولاء شخصية عروبية جهادية في وقت اشتدّ عليه هجوم القوميين العروبيين، وهو إزاء الحملات الشرسة التي كانت إذاعة صوت العرب تشنها عليه متهمة إياه بالشعوبيّة والتنكر للقضايا العربيّة. وظاهر الحال يدل أيضاً على أن الحاج المفتي كان يخشى من جانبه أن يفتضح أمر تلقيه الصكوك من الدكتاتور العراقي، فتلقى الشكوك في عروبيّته ويفقد بقية احترام عند القوميين العرب. لذلك اعتاد أن يبعث أحد أتباعه إلى السفارة لتسلم الصكوك، فيكتفي السفير بأخذ توقيع المتسلم. لكن حصل في العام ١٩٦٠ أنّ عبدالكريم قاسم، المغرم إلى حدّ الجنون بقاعدة وضع الرجل المناسب في محله المناسب، نسّب للبنان نجيب الصائغ المحامي، سفيراً عراقياً وهو من المسيحيين الكلدان الكاثوليك. ففي تقديره ليس هناك وسيلة للتقرب إلى لبنان الذي تحكمه الطائفة المارونية الكاثوليكية أفضل من ذلك. وحصل أن أصر هذا الدپلوماسي على أن يحضر المفتي بنفسه ليتسلّم الصكّ ويوقع على تسلمه باسمه الصريح وردّ الرسول خائباً. وكان السفير المسيحي الذي لم يقم في العراق سفير مسيحي قبله أو بعده يفكر بعقليته القانونية وبدقة مركزه وبالعواقب عند الإنكار. وهو الذي خبر الحياة السياسية السريعة التقلب في العراق. وما من شك أنه أدخل في حسابه واقع كونه شقيقاً لداود الصائغ المحامي، الذي اعترف به نظام قاسم سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي المجاز. كلّ هذا دفع السفير إلى التمسك بموقفه. وأبى المفتي أن يضع توقيعه أو يأتي بنفسه لتسلم الصكّ. ورفع الأمر إلى الوزارة واستشير قاسم شخصياً، فحكم إلى جانب سفيره. وربما وجد في موقف مبعوثه الدبلوماسي هذا فرصة لإضافة وثيقة أخرى من الوثائق في المستقبل. واضطر الحسيني إلى القدوم بنفسه أخيراً لتسلم الصكّ. (تجد تفاصيل أخرى في الرسالة التي كتبها إلى السفير جواباً للعميد خليل إبراهيم حسين. ج٦: موسوعة ١٤ تموز، بغداد ١٩٨٩، دار الحرية للطباعة والنشر).

في عام الانقلاب العسكري كانت الحركة الاشتراكية (الشيوعية) قد تعدّت طور الزحف على الأربع ويدأ قدماها وذراعاها يتلمسان جدار الدولة والحكومة ببعض الحاجة. فتوقر آذانهما بنداءات يهتف بها، وشعارات ترفع بين آن وآخر في تظاهرات ومسيرات حول الجوع وفساد الطبقة الحاكمة، واستغلال الفلاحين والكادحين. فضلاً عن منشورات تجد سبيلها إلى المقاهي والمنازل، أو ترسل بالبريد، فيبدو من خلالها واضعوها وموزعوها خطراً جدّياً على السلطة وعلى النفوذ البريطاني. وكان للحزب أيضاً جريدة باسم (كفاح الشعب).

من طابع الحركات السرية أن تبدو من الخارج أكبر من حجمها بكثير. وأعضاؤها أقلّ تعرضاً للتقويم والمفاضلة، بل هم في حصانة من الانتقاد أو المعارضة التي يتعرض لها السياسيون وأعضاء الأحزاب العلنية والمشتغلون في الأمور العامة. لذلك لم يكن يُعرف عن الشيوعيين العراقيين وحزبهم المعلن أكثر من أنهما يرددان صدى أوجاع المواطنين ويعكسان صورةً دقيقة لأوضاع العامة، تبدو مقبولة دائماً رغم عنصر التهويل والمبالغة فيها أحياناً.

وعلى العموم، حظي اليسار الاشتراكي بتأييد وعطف فئات كثيرة من المثقفين سيما أولئك الذين قضوا ردحاً من الزمن خارج العراق سعياً وراء الدرجات العلمية من الجامعات الأجنبية ومعظمهم من طلاب البعثات. عادوا مشبعين معجبين بالأفكار التقدمية، التي كانت تجد سبيلها إلى نفوسهم سهلاً في جو الحريّة الفكرية وبفضل الأنظمة السياسية في الديمقراطيات الغربية وأمريكا.

إلا أن قلة من هؤلاء تقحّمت ميدان النشاط الفكري العملي، بعكس أولئك الذين استهوتهم المبادئ القوميّة المشبعة بالنظريات العنصرية النازية والفاشية. ورغم تفوق الأولين عددياً فإنهم قنعوا بالوظائف والمراكز الحكومية التي أهّلتها إليهم درجاتهم العلمية. واقتصرت جهودهم على حديث الصالونات، واقتناء الكتب والمطبوعات (التقدمية)، حيثما تيسر ذلك وتبادلها فيما بينهم. وكان بينهم أبناء أسر معروفة متنفذة جاهروا فيما بينهم بتلك المبادئ بعضهم بشعور حميم بالبؤس العام والحاجة إلى التغيير وبعضهم تنفراً من الأفكار النازية، وهؤلاء يدركون أنهم بمواجهة السلطة لا يتمتعون بالحصانة التي انفرد بها القوميون أمثالهم[٣٥].

(٣٥) تيلمان H. Tillman : السياسة الألمانية العربية في الحرب العظمى الثانية Deutschlannds =

وازدادت خبرة جهاز دائرة التحقيقات الجنائية[٣٦] في تعقيب الشيوعيين بزيادة نشاطهم وانضم عدد كبير من الدستوريين والإصلاحيين (جماعة الأهالي) إلى الحركة الاشتراكية الجديدة بدافع خيبة الأمل. وبهدى وإرشاد من الموظفين البريطانيين المستخدمين في تلك الدائرة، أصابت نجاحاً في إلقاء القبض على أفراد منهم بين آن وآخر، واعتقالهم مدة لا تزيد عن بضعة أشهر أو استحصال أحكام سجنٍ بحقّ بعضهم.

كانت السلطة تعتبر النشاط الشيوعي في العراق جزءاً من حركة الشيوعية الدولية التي يمثلها الكومنترن[٣٧]. لكن وبتقديراتها البريطانية كما يبدو لم تكن تجد هناك صلة وثيقة منتظمة بين الحركات الشيوعية المحلية وبين الكومنترن حتى ذلك الوقت قد تستدعي إجراءات خاصّة، كإصدار تشريع خاص أشدّ في عقوباته عن القوانين السائدة وقتذاك.

وهكذا بقي الأمر. فمثلاً عندما أنزل بكر صدقي ضربته بالدستوريين اليساريين اكتفى بنزع الجنسية عن بعضهم وإبعاد أفرادٍ واعتقال عشرات من عمالٍ قبض عليهم أثناء تظاهرات وإضرابات، تمّ إطلاق سراحهم بعد لبثهم معتقلين فترةً من الزمن دون أن يقدموا إلى المحاكم[٣٨]. لكن أقبل العام ١٩٣٨ يحمل للسلطة وضباط الجيش مفاجأة مخفية غير متوقعة. كان رد الفعل فيها مساوياً لهول الصدمة.

في ذلك العام لم يكن بوسع الشيوعيين الادعاء بضابط واحد لهم في الجيش العراقي. وكانت ستمر أعوام ستة على الأقل قبل أن يفلحوا في ضم اثنين أو ثلاثة. لكنّ الشيوعيين نفذوا في تلك السنة إلى أحشاء الجيش وقدميه، ووجدوا سبيلهم إلى جنوده وضباط صفه، وكان الأمر بمحض صدفة كما تشير كلّ الدلائل.

مثل هذه الوقائع التي تقود إلى تحولات خطيرة في تأريخ أيّ بلدٍ - بالآثار العميقة

= Araber politik in Ziveeiten Welt Krieg ط. برلين، الص٨٠، ١٤٤، ٣٣٥) وهناك تفاصيل أخرى كثيرة ووثائق فيه حول ذلك.

(٣٦) عرفت بالأحرف الأولى الإنكليزية لعنوانها: C.I.A وهو اختصار لـ Criminal Investigation Agency

(٣٧) مزيج من الجزءين الأولين لكلمتي Communist International.

(٣٨) حنّا بطاطو: المرجع السالف، الص٤٤٥-٤٤٦. كان مصدره الرئيسي زكي خيري (ت. ١٩٩٥). فضلاً عن نشرة داخلية غير مطبوعة للحزب الشيوعي بعنوان: (الجيش العراقي). لم يتسن له كما يبدو الاتصال بالشخص الثاني (يوسف متي) الذي أشار إليه زكي خيري في معرض نشاطهما معاً في هذه الحركة.

التي تخلفها - لا يحفل المؤرخون العراقيون بها عادةً ولا يقيم الكتّاب لها وزناً. وبسبب من هذا يبدو التأريخ في الكتب الميسورة مقطعاً مبتوراً، بانتقالات فجائية في أحداثه لا مقدمات لها ولا أسباب. والصدف البحتة مكّنتني من جمع أطراف لهذا الحدث العميق الأثر على صغر حجمه. فقد أدّى إلى اشتراع قانون بربري لمحاربة حريّة العقيدة لا مثيل له سابق أو لاحق عند كلّ البلاد الناطقة بالعربيّة، وأقصد به القانون رقم (٥١) للسنة ١٩٣٨. الذي عُرف بقانون «مكافحة الآراء الهدامة».

وقد وردت هذه الحادثة بشكل استطرادي عابر في أوسع كتابٍ عن الحركة الشيوعية العراقية[٣٩] من دون ذكر أسباب ومقدمات.

في أثناء العمليات العسكرية التي استهدفت القضاء على ثورات الفرات الأوسط، هرب عدد كبير من الجنود وضباط الصف القبليين والتحقوا بصفوف الثائرين إلى جانب إخوانهم. وقد تمكنت السلطات العسكرية من إلقاء القبض على عدد منهم، تمت تصفية بعضهم بأمرٍ من قائد القوات فور وقوعهم في يد الجيش، وأُريد أن يُضبرب بعضهم مثلاً رادعاً لرفاقهم، فحوكموا عرفياً وعلّقوا على أعواد المشانق في الديوانية والناصرية.

إلاّ أن الأثر كان معكوساً، وعاد بعض ضباط الصف والجنود إلى ثكناتهم ومعظمهم من الشيعة وهم يغلون حنقاً وحقداً على الحكومة وعلى طائراتها «الإنكليزية»

---

(٣٩) (الطبقات الاجتماعية: المرجع السالف، ص٤٢٠). قال مؤلفه عنه إنه كان أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب في العام ١٩٣٥ (مجموعة زكي خيري)، وهو مسيحي كلداني ولد في ١٩١٤ ببغداد، وكان طالباً في كلية الحقوق ولم يكملها. كما اعترف بأنه لا يملك معلومات عنه بعد انقلاب البعث في ١٩٦٣. أقول أما أنا فقد عرفت (يوسف متي) في الخمسينات بسبب دعوى قضائية كلفت بالمرافعة فيها تخصّ أسرته. ولقيته مراراً قبل وهو يزاول أعمالاً حرة في بغداد مع أخوةٍ له. ثم وجدته محرراً في جريدة (صوت الأحرار) اليومية الشيوعية حتى إلغاء إجازاتها في ١٩٦٢. والتقينا ثانية في العام ١٩٦٨، في أرض كردستان المحررة، وهو قاضٍ. وفي أواخر العام ١٩٦٩ عاد إلى بغداد بعد تأكيد بالأمان من السلطة له. وأظنّه توفي في منتصف السبعينات. وقد قصّ عليّ أثناء وجودنا هناك تفاصيل كثيرة حول إلقاء القبض عليه وهو في مقعد الدراسة، وكانت محكوميته تزيد عن سنتين، لا كما ذكر بطاطو. فقد ذكر لي أنه كان يرسف في الحديد طوال مدة محكوميته، وهي ميزة مدخرة للمحكومين بالأشغال الشاقة التي يشترط القانون أن تزيد عن ثلاث سنين، وأنه كان يعمل في مقلع حجريّ مع غيره من السجناء العاديين.

التي كان لها الدور الرئيس في تمزيق شمل الثوار وتدمير القرى وإصلاء التجمعات بنيران رشاشاتها المميتة. وكاد كلّ واحد منهم يفجع بقريب أو نسيب أو صديق في تلك العمليات. ولم يكن بينهم إلاّ من قد أصيب أهله وبنو عشيرته بحرق مزروعاتهم وإتلاف مواشيهم وتدمير قراهم.

من جهة أخرى - وبسبب التضخم الذي حصل في الجيش إثر تطبيق قانون الخدمة الإلزامية - كانت وزارة الدفاع بحاجة ماسة إلى ضباط صف متعلمين، فبدأت تنشر إعلانات مغرية لطلاب أتموا المرحلة الابتدائية أو كانوا في المراحل الأولى من الدراسة المتوسطة، تدعوهم إلى الالتحاق بدورات عرفاء فنيين ومدربين، تنتظرهم ترقيات سريعة قد تبلغ بهم مرتبة الضباط بعد اجتياز امتحانات إن خاب أملهم في الوصول إلى تلك المرتبة، لأن القوانين لا تسمح بترقيتهم إلى أكثر من رتبة نائب ضابط حربي أو فني بعد خدمة قد تبلغ عشر سنوات. وفضلاً عن ذلك فقد ولّدت فيهم عنجهيّة الضباط واحتقارهم شعوراً بالنقمة والندامة، ولم تكن قوانين الجيش تسمح لهم بالتخلص من عقودهم والاستقالة.

عرفتُ كلّ ذلك من اثنين من هؤلاء جمعتني الصدف بهما، ومن صداقة شدّت عراها صدفةٌ أخرى بالسيد (يوسف متى) الذي ورد ذكره في كتاب (حنا بطاطو)[٤٠].

حول علاقته الوثيقة بهذه الحادثة التي سأفصل فيها، حيث وردت في كتابه ببعض اختصار، كانت البداية أن أحد العرفاء وقع بمحض الصدفة على نسخة من جريدة الحزب الشيوعي (كفاح الشعب). وهذا العريف هو واحدٌ من بضعة عشر ناقماً كانوا يجتمعون سرّاً ويخططون لاغتيال رئيس الحكومة والوزراء والسفير البريطاني. وقد تمكن هذا العريف عن طريق صديق من العمّال النقابيين من الاتصال بيوسف متّي ودعاه

---

(٤٠) أطلق سراحهما في العام ١٩٤١، وواصل أحدهما (إحسان يوسف) وهو مسيحي موصلي دراسته الثانوية والجامعية. وعين مدرساً للرياضيات، إلاّ أنه فصل في منتصف الأربعينات وأوقف مراراً بسبب عضويته في الحزب الشيوعي. ثم أعيد إلى سلك التعليم بعد ١٩٥٨. أمّا الثاني (عزيز آل شيال العلم) وهو موصلي أيضاً، فقد ألفيتهُ في العام ١٩٥٩ مديراً للمال في قضاء تلعفر. حكم عليه بالإعدام في العام ١٩٦٣ من قبل المجلس العرفي العسكري بعد انقلاب شباط في واحدة من القضايا الجنائية التي أحياها الانقلابيون ضدّ خصوم حركة الشواف الانقلابيّة في العام ١٩٥٩. وأبدل الحكم بالسجن المؤبد. وكان بين من هرب في ١٩٦٧ من سجن الحلة وقد لقيته ثانية في المنطقة المحررة من كردستان بعد أن ضمتنا غرفة الإعدام وفي السجن معاً مدداً طويلة.

إلى حضور اجتماعاتهم السرّية. فلبى الطلب متحمساً من جهة ومنذهلاً من جهة أخرى. وقد أنبأني أنّه حقق لقاءه مع لفيف منهم في الكرادة الشرقية بدار أحد العمّال، وأن الذي قادة إليهم هو عريف في الجيش كما ذكرتُ.

واتخذت هذه الحركة العفوية العاطفيّة منذ ذلك الحين طابع التنظيم الشيوعي على أساس الخلايا وراحت تتسع تدريجياً. وكان مركزها فوج المخابرات في حيّ الكرنتينة ببغداد. ثمّ تسللت الخلايا إلى صفوف الفرقة الثانية في كركوك، مما دعا الحزب الشيوعي إلى تشكيل لجنة عسكرية للعمل في صفوف الجيش، وراحت أدبيات الحزب تنتقل من يدٍ إلى يدٍ وكان لا بُدّ أن تفضح.

ذكر لي (عزيز) أنّ دائرة التحقيقات الجنائية كانت تتابع هذه الحركة وتعلم بأمرها منذ أولى مراحلها، إلاّ أن السلطة ووزارة الدفاع بصورة خاصة، إمّا أنها لم تكن في حينه تقدر خطورة الحركة، أو أنها كانت تخشى على سمعة الجيش. لكن عندما ضبطت عند أحدهم جريدة الحزب واعتقل، بدأت سلسلة من الاعترافات. هال الأمر في نظر السلطة، فقد كان ثم ما يزيد عن أربعمائة ضابط صفّ وجندي طالتهم تلك الاعترافات.

وأحيل ٦٥ منهم إلى المحاكم العسكرية بتهمة تنطبق على المادة (٨٠) من قانون العقوبات البغدادي، وهي تهمة القيام بحركة مسلّحة تهدف إلى تغيير نظام الحكم والإعداد لها، وعقوبتها الأعدام.

وقد حكم على العرفاء (علي العامر وعبدالرحمن داود وضاهي فجر) بالإعدام رمياً بالرصاص ونال الباقون أحكاماً مختلفة تتراوح بين عشر سنوات وثلاث. وبين هؤلاء الآخرين الصديقان اللذان نوّهت بهما[٤١] وأُفرج عن بقيّة المعتقلين المئات وطرد عدد كبير منهم. وحرصت السلطات على أن لا يذاع شيء عن تلك المحاكمات في الصحف وضرب ستار كثيف على إجراءات المحاكم العسكرية. كان المحكومون بالموت من الشيعة كما كانت غالبية المحكومين الآخرين، إلاّ أن الحكم بالإعدام أبدل

(٤١) (فرسان العروبة)، ص٧١: «رأينا توفيق السويدي يتقرّب إلينا ليحرضنا على إسقاط وزارة (زيد) بدعوى أنه كذا، ورأينا صبيح نجيب وإبراهيم كمال يشجعاننا على إسقاط (عمرو) لأنه كذا، ورستم حيدر شيعي ويشجع الشيعة، والآخر خائن وغيره شيوعي الخ وهكذا خبرناهم واطلعنا على دخائلهم وسرائرهم وعرفنا أن ألاعيبهم ومناوراتهم ما هي إلاّ حزازات شخصية تحركها تعليمات نوري السعيد وخطط الإنكليز الاستعمارية الضارة بالمصلحة القومية».

بتدخل من الحاج جعفر أبو التمن إلى الأشغال الشاقة لمدة ١٤ سنة وأطلق سراح الجميع في ١٩٤١.

وعلى إثر ذلك استنّ بعجلةٍ شديدة قانون مكافحة الآراء الهدامة المار ذكره ووضع موضع التنفيذ في الأوّل من أيار من السنة عينها. ولم يمرّ على الأحكام التي أصدرتها المحكمة العسكرية أكثر من شهرين حتى بدأت صفحة تنكيل سوداء في تأريخ العراق بحريّة الفكر والمعتقد التي ضمنها الدستور العراقي للعراقيين.

في هذا العام كانت السلطة الفعلية والهيمنة التامة على جهاز الدولة بيد الضباط القوميين وزعامة العقيد صلاح الدين الصباغ، يقيمون الوزارات ويقيلونها وكلمتهم نهائية لمن يكون رئيس الحكومة ومن لا يكون وهم يعتمدون على الوحدات التي يقودونها لإملاء إرادتهم على الملك. وها هم أولاء يواجهون من داخل تلك الوحدات خطراً على تلك السلطة يتمثل في حركة غير مألوفة لا من ضباط أمثالهم، بل من مجرد جنود وضباط صف صغار الرتبة تعودوا منهم الطاعة والانقياد لأوامرهم دون مناقشة، يتحركون وينشطون لا بوحي أوامرٍ من ضباط أمثالهم، بل بإرشاد ووحي من حزبٍ ذي طراز غير مألوف، عسكري الطابع سريّ، يختلف تماماً عن سائر الأحزاب الأخرى التي عرفوها[٤٢]. وسيلته الإقناع والدراسة، لا يعد بمنصبٍ أو فائدة شخصيّة. وإنما يطلب

---

(٤٢) في رحلة سريعة خلال تأريخ الحرب العراقيّة بعد قيام الملكية حتى ١٩٣٦. في البدء كان اتفاق بين وجهتي نظر الملك والمندوب السامي على عدم اللجوء إلى مبدأ قيام الأحزاب السياسية. إلاّ أن التكتل والتحزب كان قد نشأ بشكل طبيعي منذ الشروع في عملية انتخاب أعضاء المجلس التأسيسي بقيام حزبي (النهضة) و(الوطني) اللذين أعلن عنهما في آب ١٩٢٢. وكانا غير مجازين وبقيا يعملان بغطاء من السرية بعد إغلاقهما بأمرٍ من المندوب السامي إثر نشاط بضعة أسابيع. إلاّ أن إجازتهما أعيدت إليهما بعد التوقيع على المعاهدة في ١٩٢٦.
إلاّ أن المندوب السامي في عين السنة ١٩٢٢ أوعز للسيد محمود ابن السيد عبدالرحمن النقيب رئيس الوزارة وقتذاك بتشكيل الحزب الذي عرف باسم (الحزب الحرّ) ليمثل وجهة نظر الحكومة، بعد إجازة الحزبين الأولين بشهر واحد. ولم يحصل على شعبية ولم ينضمّ إليه أحد خلاف مؤسسيه العشرة والنيّف. فاختار إيقاف نشاطه في ١٣ من تشرين الثاني، أي بعد شهر واحد فحسب من تأسيسه. وفي ١٩ من آب ١٩٢٤ قام حزب حكومي ثاني باسم (حزب الأمّة) ولم يتمتع بنفوذ جماهيري، ثم اختفى باختفاء الوزارة التي رعته وأمرت به. وفي ١ من أيلول ١٩٢٤ تأسس في الموصل حزب (الاستقلال الوطني) خصيصاً لغرض الدفاع عن عائدية ولاية الموصل. وفي ٢٥ من كانون الأول ١٩٢٥ نظم هذا الحزب ما دعي بجمعية الدفاع الوطني لهذا الغرض. وطواه النسيان فور تحقق ضم الولاية ومعه اختفت الجمعية. =

من أعضائه والموالين له التضحية والتعرض للأخطار والملاحقة والمكابدة في سبيل العقيدة والنشاط. جعل قانون مكافحة الآراء الهدامة من المبدأ الشيوعي والتبشير به في القوات المسلحة جناية تصل عقوبتها إلى الإعدام وهذا هو النص:

«١- كلّ من حبّذ أو روّج بإحدى وسائل النشر الواردة في المادة (٧٨) في هذا القانون (أي قانون العقوبات) أيّاً من المذاهب الاشتراكية البلشفية والشيوعية والفوضوية والإباحية وما يماثلها، التي ترمي إلى تغيير نظام الحكم، والمبادئ والأوضاع السياسية للهيئة الاجتماعية المضمونة بالقانون الأساسي.

٢- يعاقب بالسجن أو الأشغال الشاقة لمدة أقصاها سبع سنوات كلّ من كان منتمياً لأحد الهيئات المذكورة. وبالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة للمشرفين والمديرين والمترأسين. ويعقوبة الإعدام إذا وقع التحبيذ والترويج على أفراد القوات المسلحة»[٤٣].

= وفي محاولة من عبدالمحسن السعدون كساء وزارته رداءً ديمقراطياً، أسس في ٦ من تموز ١٩٢٥ (حزب التقدم) بمناسبة اجتماع أول برلمان عراقي. وفي عين الوقت قامت الجبهة المعارضة لحكومته بزعامة الهاشمي بتأسيس (حزب الشعب). هذان الحزبان وما سبقهما لم تكن أحزاباً حقيقية كتلك الأحزاب المألوفة في النظم الديمقراطية - تعمل بمناهج ثابتة طويلة الأمد، ونشاط وفق نظام، وإنما كانت تتشكل لأغراضٍ پرلمانية موقوتة بحتة وتستقطب حول شخصيات مؤسسيها. فهي أحزاب ورقية لا تتمتع بجماهيرية أو شعبية دائماً في الأعلى ولا تخلو قط من أغراضٍ شخصية، إمّا للفوز بالحكم وإما لقلب الحكومة، تختفي سريعاً بعد أن تنهي مهمتها أو تحقق الغرض من وجودها، أو يثبت عجزها عن تحقيق أيّ من الهدفين.

وعلى هذا الأساس شكّل نوري السعيد في ٢٣ من آذار ١٩٣٠ حزباً سمّاه (حزب العهد) غرضه الحقيقي منه السعي لمصادقة البرلمان على معاهدة ١٩٣٠. فأسست الجبهة المعارضة بالمقابل (حزب الإخاء الوطني) انضمت إليه فلول من الحزب الوطني (١٩٢٢) الذي ورد ذكره. وبقي يرفع لواء المعارضة حتى فاز رئيسه ياسين الهاشمي في ١٧ آذار ١٩٣٥ برئاسة الحكومة. وحال بين هذا الحزب وبين الوصول إلى الجماهيرية التناقض البادي بين مصالح زعمائه وتهالكهم على المناصب الوزارية. وقد قضى عليه انقلاب ١٩٣٦. وفي عين السنة قضى هذا الانقلاب على جمعية الإصلاح الشعبي التي كانت تنشط كحزب سياسيّ. وفي ٢٧ من آب ١٩٣٤ أسس علي جودت مع رهط من الساسة (حزب الاتحاد الوطني) وقوامه أعضاء پرلمانيون مشايعون للحكومة. وقد اختفى الحزب يوم استقالة رئيسه من رئاسة الحكومة في ٣ من آذار ١٩٣٦.

(٤٣) مَرّ هذا القانون بالمجلس النيابي دون معارضة أو تعديل في صيغته أو مناقشة لمحتوياته. إلاّ أنه حظي - وهنا موطن العجب - باعتراض على الصياغة السقيمة في مجلس الأعيان من قبل الدكتور داود الچلبي أحد أعضائه. انتقد صياغته الركيكة ومطاطيته وعمومياته المقصودة ونبّه =

وأرجو أن لا يتوّهم القارئ بأن شنّ الحرب الرسميّة على اليسار الاشتراكي والديمقراطي التقدمي منح سواد القوميين بالآراء الجديدة التي يبشرون بها فرصة للنفوذ

= إلى خطورة التصديق عليه بشكله الحالي لأنه قد يوضع بيد حكومات مغرضة أو ناقمة تستخدمه للتنكيل بخصومها السياسيين أو كسلاح قمع لمطالب شعبيّة عادلة. وركّز على عبارة (وما يماثلها) الواردة في صلب المادة متحدياً أن يأتي بأي قانون عراقي أو أجنبي استخدم مصطلحاً شبيهاً بهذا، متسائلاً عن أي شيء يماثل الشيوعية أو الإباحية أو الفوضوية. وقال إن هذه العبارة قد تجعل القانون أداة خطرة بيد هيئة قضائية أو قاضٍ متحيز يأتمران بأمر السلطة التنفيذية أو يخشيانها. بل هو تهديد فعلي لكل حزب أو هيئة سياسية تعارض حكومة قائمة. كانت مخالفة الدكتور الچلبي للقانون الذي جعل ذيلاً لقانون العقوبات البغدادي الوحيدة في مدى علمي التي سجلت في محضر جلسات المجلسين. وقد صدق حدس الدكتور الچلبي. إذ سيق إلى المحاكم العرفية وحكم بموجبه أناس كثيرون بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعيّ. وهم إمّا شيوعيون أو اشتراكيون (غير بلشفيين) لا نشاط لهم بحسب ما تشترطه المادة. فضلاً عن أعداد كبيرة من الوطنيين الكُرد سيّما من أعضاء الحزب الديمقراطي الكردي، أو حزب (رزگاري) الذي سبقه.

وقد تجنب القانون بصراحةٍ مخجلة الأنظمة الأخرى التي كانت ترمي بجوهرها إلى تغيير نظام الحكم وأعني بها النظام النازي (القومية الاشتراكية) والنظام الفاشي. والظاهر أن «الإباحية والفوضوية» التي وردت في القانون أيضاً للشيوعيين دون غيرهم. وعلى سبيل المثال إن مذهباً أو حركة إباحيّة انتشرت في كردستان وبلغت أوجها في العام ١٩٤٤، تزعمها الصوفي (عبدالكريم شەدەّة). فقد شوهد أتباعه يدفنون أجسادهم حتى الأعناق في أكداسٍ من روث الحيوانات وهم يتلون الأدعية. ووجد بينهم نوع من شيوعية الأموال والجنس، وكانت جماعات منهم رجالاً ونساءً تتجول فوق الروابي والتلال بعد حلول الظلام، رجالهم في ثياب النساء وحليّهن. كما كانت حفلات الاستحمام المختلطة في المساجد والجوامع من مظاهر طقوسهم، وكثيراً ما كانت تغطس الكلاب في الحوض مع المستحمين. كما كانت أوعية البول تنتقل من يد إلى أخرى. وبلغ الأمر حداً أن اقتحمت جماعة منهم مسجد (سەرگەلو) وأحرقت علناً نسخاً من القرآن. وتطورت الحركة وانتشرت ولم يعد في الإمكان التستر عليها. وتحرج موقف متصرف (محافظ) أربيل (سعيد قزاز) وهو من ألمع الإداريين النزيهين القلة الذين أنجبتهم البلاد وأمضاهم عزيمة، فبادر باعتقال (مامه رضا) خليفة مؤسس الحركة (عبدالكريم شەدەّة) وبعث به مخفوراً إلى العمارة وأودع معتقل السياسيين الذين جرى حجزهم بعد حركة مايس. فما كان من أتباعه إلاّ أن هجروا قراهم بالمئات العديدة من نسائهم وأطفالهم وانطلقوا في مسيرة طولها خمسمائة ميل للحاق بدليلهم وهو في منفاه. وبصعوبة كبيرة أفلحت الشرطة في إيقافهم بكركوك. ولم يثبط عزمهم على مواجهة دليلهم رغم الجوع والإرهاق إلاّ نزول الحكومة عند رغبتهم بإعادة (مامه رضا) وتحديد محل إقامته في السليمانية ليتسنى لأتباعه زيارته (للتفاصيل انظر: كرد وترك وعرب، من ترجمتنا، ص١٨٧ وما بعدها).

الفكري العميق في الأوساط الشعبية. فقد كانت قضايا العروبة عندهم تحتل المقام الأول بمجرد شعارات لا غير. وافتقروا إلى برنامجٍ محلي كذلك الذي عرضته جمعية الإصلاح الشعبي. ثم إن اللجنة ضد الإمبريالية التي انبثق عنها الحزب الشيوعي كانت تعني بدرس المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والوضع الطبيعي الطبقي التحكمي وافتئات السلطة الحاكمة على الدستور وحقوق المواطنين مثل ما ورد ذكره سابقاً.

ولم تتغلغل أفكار القوميين العروبيّة في أوساط جماهيرية. وبقي الإعجاب الشعبي بما حققته ألمانيا وإيطاليا بنظامها القومي مجرد إعجابٍ وحماسةٍ من قبيل ما تندفع إليه أهواء العامّة بحكم المظاهر الخلابة، وهي أهواء موقوتة لا تتعدى القشرة والبشرة عرضة للزوال والاستبدال.

لم يكن الجيل القوميّ الناشئ قد تزوّد بمادةٍ قادرة على النفوذ إلى العُمق وبقي مستقطباً حول (نادي المثنى) في بغداد، ولم يحاول النزول إلى الشارع بحزبٍ سياسي أو منهاج إصلاحي، واعتمد على ضباط الجيش القوميين وشخص إلى الجيش ووضع فيه آماله في تحقيق شعاراته الثلاثة.

ملحق

هذا المقال القصير لا يحتاج منّا إلى تعليق وما احتواه لم يكن سراً في أي وقت من الأوقات:

استناداً الى وثيقة من عهد الانتداب

شخصيات فلسطينية تاريخية باعت الأراضي لليهود

الناصرة - اف ب - نشرت صحيفة «فصل المقال» الاسبوعية الصادرة في الناصرة، في اسرائيل امس قائمة نسبتها لوثيقة رسمية من عهد الانتداب البريطاني تضم اسماء قادة فلسطينيين تاريخيين قالت انهم باعوا اراضي فلسطينية للوكالة اليهودية بين الاعوام ١٩١٨ - ١٩٤٥.

وتحت عنوان «الآباء القابضون» نشرت الصحيفة التي يملكها عضو الكنيست العربي الاسرائيلي عزمي بشارة (يساري) قائمة جزئية باسماء ٥٤ شخصية فلسطينية «باعت اراضي لليهود» وقالت انها حصلت عليها من الارشيف.

واوردت الصحيفة في مقدمة التقرير ان «هذه تفاصيل جزئية للغاية حول دور قيادات وطنية فلسطينية تاريخية في تسريب اراضي فلسطين للوكالة اليهودية، قبل وقوع نكبة فلسطين الاولى عام ٤٨». واضافت ان هذه الوثيقة «تقدمها فصل المقال الى قرائها الاعزاء بمزيد من الاسى، اياما معدودة فقط قبل حلول الذكرى الثلاثين لنكبة فلسطين الثانية في ٥ يونيو ٦٧» اي حرب يونيو التي احتلت اسرائيل خلالها القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان.

محمد طاهر الحسيني وموسى العلمي

وتضم القائمة على وجه الخصوص اسماء محمد طاهر الحسيني وهو والد الحاج امين الحسيني مفتي القدس الشهير الذي حارب الانتداب البريطاني وقاد الثورة الفلسطينية في الثلاثينات. وكذلك موسى كاظم الحسيني جد فيصل الحسيني (لامه) المسؤول عن ملف القدس في منظمة التحرير، وخمسة اسماء اخرى من العائلة نفسها اضافة الى اسماء من عائلات العلمي والنشاشيبي وعبدالهادي والغصين وبسيسو الفلسطينية العريقة.

ومن ابرز هؤلاء موسى العلمي، احد اهم الشخصيات الفلسطينية التاريخية وعضو الوفد العربي الى مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ والذي تقول الصحيفة انه باع ٩٠٠ دونم من اراضي بيسان عام ١٩٣٠.

.. والنشاشيبي

وهناك راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس ١٩٢٠ - ١٩٣٤ الذي شغل منصب رئيس حزب الدفاع الوطني، والذي قالت الصحيفة انه باع مساحات غير محددة من اراضي يافا اضافة الى ١٢٠٠ دونم باعها عن طريق عمر البيطار الذي تولى رئاسة بلدية يافا عدة مرات وعمر بك السعيد قرب يافا، في اواخر صيف ١٩٣٤.

وتقول الصحيفة ان النشاشيبي الذي كان عضوا في الوفد العربي الفلسطيني الى مفاوضات لندن عامي ١٩٣٠ و١٩٣٩، باع اراضي في القدس اقيمت عليها لاحقا الجامعة العبرية على جبل سكوبس.

ومن الناصرة حيث مقرها، قالت الصحيفة ان ابراهيم الفاهوم باع ٨٠ دونما للوكالة اليهودية في منطقة الناصرة بين ١٩٤٤ و١٩٤٥ الى جانب يوسف وتوفيق الفاهوم واولادهما الذين باعوا مساحات غير محددة من ضواحي الناصرة.

وتضم وثيقة «الآباء القابضون» ايضا اسم مؤسس الصندوق العربي وعضو الهيئة العربية العليا يعقوب الغصين الذي باع مساحات غير محددة من الاراضي في «نس تسيونا» في يافا واشترك مع محمد توفيق الغصين ببيع ٢٠٦ دونمات في بيت حانون قضاء غزة عام ١٩٤٦ مقابل اربعة الاف جنيه فلسطيني و٥٠٠٠ اخرى على شكل قرض من الوكالة اليهودية.

وتمضي القائمة لتقدم اعضاء في المجلس الاسلامي الاعلى والهيئة العربية العليا واللجنة التنفيذية العربية وهي هيئات كانت تكثف تمثيل الفلسطينيين سياسيا انذاك، اضافة الى رؤساء بلديات وممثلي مناطق ومخاتير واعضاء شاركوا في مؤتمرات عالمية بحثت قضية فلسطين

الفصل الثامن عشر

حركة أيار (مايس)١٩٤١. محاولة وضعها في المكانة التاريخية الحقيقية التي تستحقها. عصبة العسكريين والمدنيين السبعة (التسعة؟ العشرة؟). الاتصال بدولتي المحور المانيا وإيطاليا. سياستهما. التوصية بتجنب عمل عسكري في الشرق الادنى باعتباره عملاً مخلاً بخططهما العسكرية. عشوائية صلاح الدين الصباغ وغباؤه العسكري. الجيش العراقي يتلقى ضربات قاضية من الجو. اضطرار البريطانيين إلى استخدام القوة. كم هي مكاسب القوميين وكتابهم من الإصرار على نعت حركة مايس بالثورة التحررية ضد الاستعمار البريطاني؟ رشيد عالي وفاضل الجمالي. مفاوضات سرية تقوم بها حكومة رشيد عالي في برلين. تدخل الحركة في موعد غزو الاتحاد السوفياتي. الحاج أمين الحسيني يغدو المرجع السياسي الأعلى في العراق. الخلاف المصطنع حول تفسير بنود المعاهدة العراقية البريطانية. ضجة صحافية، اجتماعات جماهيرية وخطب حماسية ضد الإنكليز. راديو بغداد في حملة قومية عنيفة على الحلفاء. حكومة الكيلاني تفشل في الحصول على تصريح الماني يؤيد استقلال البلاد العربية التام ووحدتها الشاملة. إيطاليا تعمل للحلول محل فرنسا في سورية ولبنان. ممثل المفتي كمال عثمان حداد في برلين. جواب وزارة الخارجية الألمانية مخيب للأمل. دولتا المحور تلعبان بالأماني القومية العربية. محادثات بين الكيلاني وصلاح الدين الصباغ. مذكرات علي محمود الشيخ علي. سير العمليات وهروب زعماء الحركة. تسللهم إلى إيران عبر الحدود وتبادل التهم والشتائم فيما بينهم

ليس من أغراض هذا الفصل استعراضٌ تاريخي - سياسي وعسكري - جديد لحركة أيار التي ما زالت تعتبر إلى يومنا هذا عند القوميين العروبيين مصدر وحي وإعجاب ومدرسة خبرة وتجارب للنضال القومي. فما خلفته لنا عنها أقلام الكتاب والباحثين، ومن جملتهم مدوّنو المذكرات الشخصية، أكثر من الكثير ومن بين

المؤلفات والكتب العديدة التي أوقفت لها جانباً من مجهودي، هناك ما لا يُحصى من الأبحاث والمقالات والفصول الاستطرادية المنشورة في الصحف والمطبوعات الدورية التي تناولت الحركة من هذا الجانب أو ذاك.

وما أرمي إليه هنا محاولة قد تكون شاذة في نظر المتحمسين لها والمكبرين لزعمائها لوضع الحركة في المكان الذي تستحقه من مسيرة القومية، الجهادي والفكري وفي تاريخ العراق الحديث خصوصاً، مجتهداً ما وسعني ذلك في إعانة قارئي على رسم صورة قريبة من الواقع لزعماء الحركة وقادتها، السبعة أو التسعة أو العشرة، الذين قامروا بمصير البلاد وأرادوا إقحامها في تلك الحرب العظيمة التي شملت معظم العالم وقتذاك عن سبيل مواجهة عسكرية اتفق كل من قرأت لهم عنها أنها مواجهة فاشلة يائسة منذ البداية. لم تكن ضرورة قومية أو وطنية تدعو لها ولا مكسب يرجى من ورائها، وقد اضطر كل من مجّدها وأشاد بسموٌ مقاصدها ونبل دوافعها مبدئياً على هذه النتيجة. إلا أنهم لم يخصصوا من مجهوداتهم القلمية حيزاً يذكر لاستقراء الآثار التي خلفتها في المسيرة القومية وفي مستقبل العراق السياسي. ولا تطرقوا إلى الخسائر في الارواح والممتلكات نتيجة لهذه الحركة.

وفي هذا الفصل سيتاح لي إشراك القارئ في بعض الانطباعات والوقائع التي شهدها الفتى ابن التاسعة عشرة بعينه خلال تلك الفترة المثيرة، معززة بما جمع من معلومات واختزن من انطباعات عن أولئك الزعماء الذين تحكمت قراراتهم في مصير الملايين فترة من الزمن عميقة الآثار على قصرها.

هذه العصبة المؤلفة من السبعة أو التسعة أو العشرة (بحسب ذوق المؤرخ واختياره) بدت من الأول وكأن أفرادها من أولئك الذين لا يبالون بما سيحكم التاريخ عليهم، ولا يهتمون بقليل أو كثير بما يهتم به عادة العقلاء من أبناء البشر، بما سيخلفونه من ذكر لذويهم وللمجتمع، ولا يملكون أي شعور بتلك المسؤولية الأدبية التي حملت القائد الفاتح والإداري الكبير العربي الشهير (المهلب بن أبي صفرة الأزدي) على القول:

لو أُعطيت ما لم يُعطه أحدٌ، لأجبت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا متُّ[1].

---

(١) ابن خلكان (٩-٨٣)هـ(٦٣٠-٧٠٢)م، وفيات الأعيان: والمهلّب قائد عربي وُلي البصرة وقاد =

وما أدري إلى متى سيواتي ذكراهم الحظ في أولئك الكتبة الباحثين الذين يصرون حتى الآن على نعت حركتهم بالحركة التحررية ويخلعون عليهم صفة البطولة ويعطرون ذكراهم بنعوت الشهادة والتضحية والتمجيد.

لن أحاول كثيراً في مجال وضع كارثة أيار ١٩٤١ موضعها الذي تستحقه في التاريخ، فقد تم ذلك منذ وقت طويل رغم الجهود التي تبذلها طائفة من الكتاب والباحثين الناشئين في العراق خريجي معاهد نظام البعث من متابعي نهجه القومي والسياسي السريع التقلب.

في العراق، دأب هذا النظام على تشجيع العبث بوقائع التاريخ وتزويرها بجرأة منقطعة النظير كلما وجد ضرورة تقضي بمتابعة هذا النهج أو ذاك[٢].

= جيوش الأمويين خلال عشرين عاماً في حرب مظفرة ضد الخوارج والأزارقة منهم. ومما يذكر أن القوميين في بغداد اطلقوا اسمه على ثاني نادٍ من نواديهم.

(٢) أصدر في العراق ١٩٨٦ ما يدعى بـ(مركز البحوث والمعلومات) كتاباً بهذا العنوان: العراق وسوريا ١٩٤١- دراسة وثائقية في الأبعاد القومية والسياسية لثورة نيسان - مايس في العراق خلال الحرب العالمية الثانية. وهو ترجمة كتاب قدمه مترجمه الدكتور مظفر الأدهمي أستاذ التاريخ المساعد في كلية التربية بجامعة المستنصرية صدّره بمقدمة طويلة ناهزت صفحاتها الستين. ونسي أن يذكر اسم المؤلف (جافر ورثر) وعنوان الكتاب باللغة الأصلية التي أُلّف بها وهي الإنكليزية، كما نسي أن يثبت عنوان ناشر الكتاب وموضع طبعه. ولا نريد أن تذهب بنا الظنون إلى أن هذا الإغفال كان متعمداً يُقصد به وضع العراقيل أمام الفضولي أو الشاك في أمانة الترجمة. ولقد شدد المترجم في مقدمته على هذه النقطة وكأنه اكتشف سراً خطيراً، إذ قال: «إن الثورة لم تقم بأوامر من برلين أو روما ولا علاقة لها بعمليات المحور العسكرية في البلقان وشمال أفريقيا». وليس في متن الكتاب المترجم ما يضيف شيئاً جديداً إلى المعلومات العامة التي أصبحت حقائق تاريخية منزلة منذ نصف قرن من الزمن. والظاهر هو أن غرض الترجمة كان مجرد التذكير بوقائع تتعلق بمقدمته المناسبة للتأكيد على مأثرة بعثة عابرة غابرة فيها، إذ قال: "تعد الثورة القومية التي قامت في العراق سنة ١٩٤١ واحدة من رموز التصدي الذي قادته حركة القومية العربية ضد البريطانيين وقد ارتأيت أن أطلق على ثورة ١٩٤١ تعبير ثورة نيسان - مايس رغم أن بعض الكتّاب وصف الثورة بأنها (حركة) وكانوا يقصدون بذلك بداية الثورة عندما قامت حكومة الدفاع الوطني. بينما أطلق عليها باحثون آخرون اسم الحرب العراقية - البريطانية ، وقصدوا بذلك التحدي العربي للغزو البريطاني في مايس. لكننا إذا تناولنا الموضوع بدون هذه التجزئة وتتبعنا مراحل الثورة منذ التفكير فيها وحتى نهايتها لوجدنا أنها وحدة متماسكة لا يمكن فصلها. فهي ثورة الضمير العربي المعبّر عن تطلعات الأمة نحو الوحدة العربية والحرية. وحين لم يتهيأ للثورة أن تقوم في فلسطين أو شرق الأردن، انتقلوا بها إلى بقعة أخرى من الأرض العربية فبدأوا يهيئون لها منذ ١٩٤١ والدور البارز فيها الذي لعبته =

وفي أيامنا الأخيرة، وبسبب من هذا، وجدنا أسيافاً جديدة تشهر في العراق دفاعاً عن كارثة أيار (مايس) وعن سمعة قادتها ومدبريها. مثلما راقبنا أكاليل جديدة تضفر وتكسى لحم المجد، ودماء القدسية.

عندما بدأت الفظائع التي ارتكبتها النازية خلال فترة سيادتها القصيرة تنكشف تباعاً للعالم والحقائق تنجلي عن الجنايات التي ارتكبت بحق البشرية، راح الكتاب القوميون العروبيون يبذلون جهوداً صادقة مستميتة لإبعاد الحركة القومية عن كل ما يصلها بالنازية والتفكير العقائدي المماثل. وفي جهودهم الخارقة التي بذلوها، لإبعاد الحركة عن النازية، لم يجدوا في سبيل هذا غير إقامتهم الحجة بأن ما حصل في ١٩٤١ لم يكن بإيعاز من برلين أو روما، ولا باتفاق بين زعماء الحركة وبين حكومتي برلين وروما، ولا علاقة لها ستراتيجية أو تعبوية بعلميات المحور العسكرية التي كانت تجري في اليونان وشمال أفريقيا، بل هي حركة وطنية قومية تلقائية ضد المستعمر ساندها الشعب العربي في كل مكان.

لم يكن هناك ضرورة لإقامة هذه الحجة، مثلما ليس هناك ضرورة لترديدها والاستشهاد بها، فلا أحد يريد أن يعزو ذلك إلى الحركة، وكل من عالج قصة الحرب العظمى الثانية أجمع بعد دراسة مستفيضة للوثائق أن دول المحور لم تكن راغبة في حركة عسكرية ضد الحلفاء في الشرق الأوسط وقد تلجأ بسببها إلى الإخلال بجدول خطط الغزو والعمليات العسكرية التي وضعتها القيادة الألمانية العليا منذ زمن بعيد، ومن ضمنها غزو الاتحاد السوفياتي. فقد كان جُلّ ما أملته وزارتا الخارجية والدعاية الألمانيتين من مجهودات السنين السبع في تطعيم الذهنية القومية العروبية بأفكارها ونظرياتها هو الوصول بروح العداء للبريطانيين والفرنسيين إلى الحد الذي يؤمّن لهم وفي الوقت المناسب إحداث اضطرابات داخلية وخلق المتاعب للدولتين صاحبتي النفوذ والانتداب هناك، وتهيئة الجو للتدابير والخطط السياسية التي اعتزمت الدولتان تنفيذها في البلاد الناطقة بالعربية بعد النصر النهائي.

وقد أدرك زعماء حركة (مايس) هذا الموقف الألماني- الإيطالي الصريح المحدد

= حركة الإحياء العربي في سوريا، والتي عُرفت فيما بعد باسم حركة البعث العربي ثم حزب البعث العربي الاشتراكي (ص١، ١٢، ٤٩-٥٠)». نقول: نعتقد أن هذا هو الغرض الأصلي للمترجم من إصداره الكتاب.

قبل (مايس) بحوالي السنة وضاعت مساعيهم في زحزحة المحور عن موقفه هذا، أي الحصول على ضمانة الدعم العسكري والسياسي في حالة (العدوان البريطاني). وكم من مرة كان موفدوهم يعودون من برلين وروما وقد فشلوا في انتزاع تعهد واحد بالدعم أياً كان شكله.

وهذه المذكرات التي خلفوها تُجمع كلها على فشلهم في مساعيهم ولا حاجة بنا قط للاستنجاد بالركام الهائل من الوثائق الألمانية وغير الألمانية التي اجتمعت لتأييد ذلك. وسنقتصر على ما علمه زعماء الحركة في وقته.

بافتراضنا شرف القضية التي عملت لها حركة (مايس) ونبل القصد في زعماء لها زجّوا العراق في مواجهة سيئة العقبى، أيكفي هذا لوصفهم بما وُصفوا به؟ ومتى كان شرف القضية ونبل المقصد عذراً لتبرير الفشل والإخفاق نتيجة التهور وسوء التقدير والاندفاع الطائش الذي لا تُحسب عواقبه؟

يقول أحد الضباط الذين ساهموا في الحركة، واصفاً ما حصل في مرتفعات الحبانية:

«لم يسبق في تاريخ الحروب أن يزجّ قائد بقواته في جحيم من النيران ثم يبقيها طعمةً لتلك النيران، التي ظلت مشتعلة أربعة أيام بلياليها وهي تلتهم قواته وسلاحه دون أن يحرك ساكناً ودون أن يصدر أمراً أو يتخذ أية إجراءات، أي إجراء كان، هجوماً كان أم انسحاباً أم تسليماً، لا بل وكان الإجراء الوحيد الذي اتخذه (يقصد كبير العقداء الصباغ) هو زجّ قوات جديدة في الميدان دون هدف ودون أمل. ولو لم يحدث ما حدث لقطعات الجيش العراقي على هضبات الحبانية لما صدّق إنسان هذه القصة المفجعة التي عشنا مآسيها. وما أن انتهى الأسبوع الأول حتى صار واضحاً للعيان أن الحرب قد حُسمت لصالح الإنگليز، وأن سقوط مدينة بغداد صار قاب قوسين أو أدنى»[٣].

---

(٣) الحرب العراقية - البريطانية ١٩٤١ دار الطليعة بيروت ١٩٦٩. كان الرائد الركن محمود الدرة مؤلف الكتاب معاوناً للعقيد الصباغ في تلك الفترة. وهو يشير إلى عاقبة عملية تطويق القوات العراقية لقاعدة الحبانية الجوية التي تعرف أيضاً بالقرية المنضمة إليها (سن الذبان). وفي تقرير للقوة البريطانية (دعيت فيما بعد بالجيش العاشر، ويرمز إليها عادة بالاحرف الأولى من عبارة (Persia and Iraqi): أي Pai- frace وهو ملخص لعمليات القوات العسكرية البريطانية في =

ويتفق معه وزير من وزراء حكومة الدفاع الوطني وهو غير عسكري:

لم يُتخذ أثناء الحرب كلها قرار سليم واحد. فقد أخذ (يقصد الصباغ) يتصرف أو يتخبط بأمر الحرب بمفرده دون علم رئاسة أركان الجيش بها أو استشارتها في أمر من أمورها عظم أم هان. وبدا من الأيام الأولى من حرب المواجهة من الوجهة العراقية ولا هدف عسكرياً أو سياسياً واضحاً لها. وإذا ما انعدم الهدف يغدو وضع الخطط عقيماً ويسود الارتجال والتخبط والفوضى، وقد أذهلت الحرب قائدها العام عن أبسط القواعد العسكرية، فترك جيشه طعمة للنيران.

والمراجع القومية كافة تجمع أو تكاد على الفقر الذهني العسكري والحماقات الستراتيجية والتعبوية التي اقترفها هؤلاء، ولا يقوم خلاف بين كتابها إلا عند توزيعهم تلك الحماقات على الرؤوس. والقادة أنفسهم يتبادلون اللوم فيما بينهم ويقذف أحدهم الآخر بشتى النعوت القبيحة وبكل نقيصة يجدها الآخر في القاذف. ويطول بنا الاستشهاد واستقصاء أقوال زيد عن عمرو أو بكر عن خالد[٤].

= العراق وإيران) جاء هذا: «إن القاعدة المطوقة كانت تحميها قوة تتألف من (١٢٠٠) جندي من الليفي التابع للقوة الجوية الملكية. نصفهم من العرب والكُرد والنصف الآخر من الآشوريين المسيحيين الذين لا وطن لهم. وبالرغم من المخاطر التي كانت تنتظرهم فقد أقاموا على ولائهم للقوة الجوية ولقضية الوصي على عرش العراق. محاربون أشدّاء لا يعرفون للخوف معنى ثبتوا في المعارك بأسلحة تقليدية من بندقيات ورشاشات لويس. يفتقرون إلى السلاح الحديث الذي يتزود به عادة أي فوج مشاة عصري. ويدعم هذه القوة (٣٥٠) جندياً بريطانياً».

(٤) لعلك واجد كثيراً من هذا في كتاب الأستاذ (عبدالمجيد حسيب القيسي): «التاريخ يكتب غداً: هوامش على تاريخ العراق القريب»، دار الحكمة لندن ١٩٩٣ وهو كتاب يقع في زهاء ثمانمائة صحيفة كبيرة، مؤلفه هو من القلائل الذين وجدوا في أنفسهم الجراءة والصراحة لوضع نكبة مايس الوطنية في المنزلة الحريّة بها من تاريخ العراق الحديث، وربما كان السبّاق الوحيد الذي قلب صحائفها الدامية بيد خبير عليم مستعيناً فحسب بذكرياته وصلاته ومستشهداً بالقليل من المذكرات والأبحاث التي تركها بعض المشاركين النادمين فيها. ألف كتابه هذا بمثابة رد على كتاب ألفه الدكتور نجم الدين السهروردي عن حميه رشيد عالي بعنوان: التاريخ لم يكتب غداً وهو كتاب مضحك وقد نوهنا به يذهلك منه فخر مؤلفه بعلاقته الصميمة بالنازية وذكر ما يخجل أي كاتب عصري يحترم نفسه عن تدوينه، ولاسيما إشادته بموقف الگيلاني من النظامين النازي والفاشي، وعلاقة الصداقة بين الفوهرر والدوتشي وبين حميّه، إذ يعدها من قبيل التشريف وعلو المكانة. في حين يساق اليوم إلى المحاكم في ألمانيا وغيرها كل من ضلع بجرائم النازيين =

وهناك منها الكثير. وسأقتصر إلى مثلين: أحدهما لقائد عراقي في قائد غير عراقي، والآخر لزعيم قومي غير عراقي في زعيم قومي غير عراقي:

يصف الصباغَ زميلُهُ وصديقه الحميم العقيد كامل شبيب:

«عربي الأصل والشعور، يمقت الاستعمار والإنكليز، لكنه أناني يغدر بصاحبه، وينقلب حية سامة في أقلِ من لمح البصر إذا أوجس خطراً. لأنه ساعة المحنة ثعبان جبان وبعد النصر غضنفر هصور»[٥].

ويصفه علي محمود الشيخ علي الوزير في وزارة الگيلاني:

«إن ضربة (سن الذبان) قد أثّرت على نفسية هذا القائد كامل شبيب تأثيراً فظيعاً حتى تركته لا يبدي ولا يعيد. ولقد رأيته في مقر القيادة الغربية قابعاً في زاوية في غرفة صلاح الدين منفوش الرأس جاحظ العينين باهت اللون لا يعقل ما تحدّثه به ولا يحير جواباً إن ألقيت عليه سؤالاً من شدة الذهول. وقد كانت الأوهام تنتابه انتياباً مروعاً، حتى أنه قفز فجأة إلى الشباك وأخذ يسدل الستائر بإحكام خشية أن تهاجم القوات البريطانية، فتلقي قنابلها على الغرفة التي يقيم فيها جنابه»[٦].

وبالمناسبة فهذا القائد هو الذي حمل زملاءه على الاعتصاب في معسكر الرشيد وأحدثوا انقلاباً جديداً وأرسلوا الوحدات العسكرية لاحتلال العاصمة وتطويق البلاط من أجل إلغاء أمر نقله الذي مزقه ووطئه بحذائه حين سُلم إليه.

ويقول كامل شبيب بدوره عن رشيد عالي والمفتي والصباغ في رسالة بعث بها من طهران إلى صديقه العقيد سعيد يحيى يطلب فيها التوسط له:

«لم نألوا (نألُ) جهداً في الحيلولة دون طيش الجماعة (يقصد العقداء الثلاثة

= وينال عنها في محاكم الدول أحكاماً ثقيلة. ويجمع السهروردي إلى هذا جهل عجيب بأحداث العراق من تاريخه القريب لا يختلف فيها أحد، بعناد غريب واعتزاز الجاهل بسعة معرفة يتوهمها في نفسه. تصدى الأستاذ القيسي لكل هذا ببراعة وأسلوب عربي محكم وتحليل صائب منطقي. كان من دواعي ارتياحي أني لا أنازع القيسي مقاماً ولا مباراة في ميدانه. فما أرمي إليه يختلف عما رمى، ومجالي قاصر على متابعة التأثير المدمر لكارثة مايس على مسيرة القومية العربية.

(٥) فرسان العروبة في العراق (ط. الشباب العربي) دمشق ١٩٥٦ ص٢٢.

(٦) المرجع السالف: علي محمود الشيخ علي، ص٦٦-٦٧.

الآخرين) واندفاعهم مع المفتي ورشيد، وكذلك توقعنا أنا وأنت الكارثة التي حلّت بالبلاد وبنا من جراء تصرفاتهم الفردية و لكن شاء القدر أن نُلوّث بأقذارهم النتنة. ورشيد عالي والمفتي القبيح تركونا. وثبت للإخوان أنهما لعبا علينا وعلى البلاد»[٧].

وأورد (البراك) (المثل الثاني) وهو نص مقابلة أجراها للزعيم القومي أكرم الحوراني أحد مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي، وهو واحد من المساهمين الفعليين في حركة (مايس) إذ أقبل من سورية في حينه مع فريق من المجاهدين لقتال البريطانيين:

«كان موقف الحسيني عامل ضغط للقائمين بالحركة وليس دعم (كذا)، حيث كان مندفعاً لمحاربة الإنكليز بأي شكل من الأشكال، وأهم هذه الدوافع هو فقدان موقعه كقائد ديني في فلسطين ويريد الحفاظ على موقعه دون دراسة الإمكانيات الموضوعية السياسية والقوة العسكرية ومراعاة الموقف الدولي. وكان مندفعاً بدون تحفظ مع الألمان ليس حباً بالنازية، وإنما كرهاً بالإنكليز واليهود. والحسيني هذا كان وطيد العلاقة مع الكتلة العسكرية التي حاربت الإنكليز في ١٩٤١ وقام بدور تعريفهم بالگيلاني»[٨].

كان أكرم الحوراني نفسه عاجزاً أيضاً عن دراسة الإمكانات الموضوعية السياسية والقوة العسكرية، والموقف الدولي عندما أقبل مع المتطوعين القوميين السوريين لمساندة حركة (مايس) ومشاركة الجيش العراقي الباسل في شرف الكفاح ضد المستعمرين البريطانيين، كما صرّح لجريدة البلاد عند وصوله. وربما أدرك فيما بعد سخافة ما فعل.

* * *

تُستخدم في البلاد الناطقة بالعربية بنطاق واسع تلك الحيلة التاريخية العريقة عراقة التاريخ القديمة قدم المجتمعات السياسية، وأقصد بها محاولة اختلاق العلل وتلمس المعاذير لتبرير الفشل الناجم عن القصور الذاتي. واستخدم التبرير ديماگوگيا وغوغائياً

---

(٧) الحسني: المرجع السالف: ج٦ ص٢٨. فيه نص الرسالة الكامل.

(٨) دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سنة ١٩٤١ للدكتور فاضل البراك (هامش ص١٥٠).

لكسب العطف الجماهيري وتحويل الرأي العام من ناقم متنمّر إلى مشايع مناصر. ويتم بهذا الأسلوب تبرئة الفاشل والإشادة بفشله وإسدال الستار على الجنايات السياسية والكوارث العسكرية وإنزالها في التاريخ بالشكل الذي يريد الجناة الفاشلون أن تبدو به، ويندفع الكتاب في إثرهم لإنزالها منزلة المسلّمات، بدعوى مساندة الجماهير وحكمه عليها. وتلك حقاً وكما يقول «ليفيوس»[٩]:

«هي من طبيعة الجماهير تجدها إما عبداً ذليلاً وإما سيداً قاسياً. إما منتصف الطريق إلى الحرية، فهي عاجزة عن حيازته أو المحافظة عليه بأي قدر في احترام للاعتدال أو للقانون، بل وأكثر من هذا فمن النادر أن تفتقر الجماهير إلى رجال يوجهونها إلى ما يريدون أن تعتنقه، أو تقدم عليه، وإلى الحد الذي قد يوقظون فيها الميل والاندفاع إلى سفك الدماء وارتكاب أعمال وحشية في نفوس أولئك الذين طُبعوا أصلاً على الرغبة الشديدة في ممارسة أعمال القتل والتعذيب».

على هذا التقويم أُطلق على أحداث (مايس) صفات رائعة جميلة، فسماها بعضهم بالحركة التحررية في حين أدت إلى فرض مزيد من السيطرة الأجنبية على البلاد، وأعطيت العنوان الفخم الحرب العراقية - البريطانية، في حين لم يكن هناك حروب ومعارك بالمفهوم العسكري المتعارف عليه. وإنما كان هناك مجازر ومسالخ بالعسكريين والمدنيين نتيجة قصف جوي شديد حسم القضية في بضعة أيام تقل عن أسبوع. ومنحها كاتب متأخر العنوان المهيب «رشيد عالي الگيلاني والحركة القومية ١٩٣٩-١٩٤١»[١٠].

---

(٩) تيطس ليفيوس Titus Livius (٥٩ق.م-١٧م) من كتابه: تاريخ روما. مؤرخ روماني لم يصلنا من كتابه هذا ذي المجلدات المائة والواحد والأربعين غير خمسة وثلاثين. وهذه الفقرة هي من الكتاب الرابع والعشرين الخاص بحروب هنيبعل (٢١٤ ق.م).

(١٠) الدكتور وليد حميدي الأعظمي: وهي رسالة باللغة الإنگليزية نال عنها درجة الدكتورية من جامعة برمنگهام - بريطانيا. طُبعت في العام ١٩٨٧ بهذا العنوان المسهب «رشيد عالي الگيلاني والحركة القومية في العراق ١٩٣٩- ١٩٤١ دراسة سياسية وعسكرية للحرب البريطانية في العراق والثورة القومية لأيار ١٩٤١». كانت الغاية الرئيسة من تأليف الرسالة نيل الدرجة العلمية التي حصل عليها نتيجة ذلك. وقد حفلت بالمراجع والأسانيد واستقراءات في الوثائق الخارجية. ولم يحاول المؤلف كثيراً في استقرائها والخروج منها بآراء خاصة. فبدا يناسبها كل عنوان إلا العنوان المضلل الذي اختاره لها. حرص فيها الكاتب حرصاً ملفتاً للنظر على أن لا =

هذه الحركة التي خلع عليها الكتاب القوميون أوصاف المجد لم تكن بجوهرها ونتائجها السياسية غير واحدة من سلسلة من التدخل العسكري والدبلوماسي البريطاني سبقها ولحق بها. انصبت أغراضها في وعاء الدفاع عن سلطة الطبقة الحاكمة العراقية وتعزيز مركزها. وفي كل مرة من هذه التدخلات العسكرية وجدنا للقوة الجوية البريطانية السهم الأوفر في إعادة الأمور إلى نصابها. حصل ذلك في ثورات الشيخ محمود البرزنجي الثلاث المنتهية بالعام ١٩٣٠. واستخدمت بنجاح تام في القضاء على تهديد مماثل آخر من انتفاضة الشيخ أحمد البارزاني في ١٩٣١، التي كادت تقضي على سمعة الجيش العراقي الحديث التكوين. وفي أحداث آب ١٩٣٣ لم تكتف القوة الجوية البريطانية التي زودت الطائرات العراقية بالقنابل لتنفجر على رؤوس الآشوريين وهم يعبرون الخابور، بل استخدمت بريطانيا كل أسلحتها الدبلوماسية لإطفاء النار المشبوبة في المحافل الدولية حول الفظائع التي ارتكبتها الطبقة الحاكمة وجيشها هناك. كما خفّت القوة الجوية البريطانية في العام ١٩٤٥ لإنقاذ سمعة الطبقة الحاكمة وجيشها من الحصار الذي ضربه عليها الثوار البارزانيون.

والمسألة بكل بساطة هي أن البريطانيين وبسبب الظرف العصيب الذي كانت إمبراطوريتهم تواجهه، لم يكن بوسعهم أن يقفوا موقف المتفرج من الانقلابات العسكرية والمؤامرات والجرائم في تلك الفترة كلها كما كانوا يفعلون في الماضي، فالإمبراطورية في خطر وهي تخوض معركة حياة أو موت، وهؤلاء الانقلابيون يتطلعون بجد ولهفة إلى عون من عدوهم و كل رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة!

هذا ما حصل في مايس ١٩٤١، طائفة من رجال الطبقة الحاكمة ألقت بحظوظها مع زعماء انقلابيين عسكريين تحكموا في نصب الوزارات وإقالتها خلال أربع سنوات. قضت مصلحة البريطانيين بمساندة الجانب الذي يؤيدها وأعادته إلى الحكم، ففعلت بتدخل عسكري سريع كان لقوتها الجوية فيه السهم الأكبر الذي ضمن لها النجاح. والفارق الوحيد الذي ميّز هذا التدخل في ١٩٤١ أن قنابر القوة الجوية البريطانية كانت

= يتعرض لأصحاب الأدوار فيها بسوء، لاسيما الشخصية المركزية التي توج بها عنوان رسالته. إنها وعلى أية حال دراسة أمينة بقدر النوع الذي اختار المؤلف من الوثائق واستشهد به متوخياً قدر المستطاع تجنيب الحركة والقائمين بها المسؤولية الأدبية والتاريخية وكل ما يشين مواقفهم (ذكر أن الكتاب ترجم إلى العربية في العام ١٩٨٧).

تسقط على رؤوس الجنود العراقيين بدلاً من حمايتهم، فنثرتها نثراً فوق مرتفعات الحبانية ومعسكر الرشيد وأماكن أخرى.

* * *

الا أن القوميين العروبيين وكتابهم يسفهون هذا الرأي بطبيعة الحال وما أظنني سأسلم من صولاتهم القلمية. رغم مرور أكثر من نصف قرن على حركة مايس، تراكمت خلاله وثائق وأسانيد كثيرة ساعدت في الكشف عن حقائق مجهولة فيها تستوجب إعادة النظر في كل ما كتب عنها في الماضي، فلم يحاولوا.

المنحى المعروف الذي انتهجه المدافعون عنها هو افتراضهم منذ البداية شرف أهدافها ونبل غاية القائمين بها، ووجدوا هذا كافياً لتبرير الفشل واغتفار العواقب. وبخلافهم فأنا لا أرى حسن النية وشرف القصد كافيين لتبرير قيام هذه الحركة أو لتنزيه القائمين بها، ولا أن يمنح فشلها عواقبها السيئة أي درجة من المشروعية.

وفي سبيل وضع هذه الحركة موضعها الحريّ بها في التاريخ، لا بد من الإجابة في رأيي عن هذه الأسئلة الثلاثة:

* ما هي الفائدة التي كان يتصورها القوميون العروبيون لأمتهم من نجاح تام تحرزه هذه الحركة - بفرض حسن نية القائمين بها وإخلاصهم للقضية؟

* كم كان التوقيت السياسي لهذه الحركة وعلى ضوء الأحداث الدولية وقتذاك صائباً؟ (وينضوي في الجواب على هذا السؤال تقويم الأهلية السياسية وبعد النظر والخبرة للقائمين بالحركة).

* ما مقدار ما كان زعماء الحركة يملكون من القيم الخلقية عموماً، ومن الفضائل العربية الأصيلة، والشرف العسكري بالنسبة للعسكريين مما يؤهلهم إلى احتلال موقع القيادة في حركة تحررية سامية كهذه التي وصفت بها حركة مايس؟

والإجابة عن هذه الأسئلة هي الغرض من كتابة هذا الفصل.

هناك ظاهرة تلفت نظري دائماً قدر ما تقلقني هي ميل العقلية في البلاد الناطقة بالعربية إلى تبرير حالات الفشل والإخفاق باختلاق العلل والمعاذير بحيث يبدو الفشل وكأنه مقدّر من عند العناية الإلهية ولا مناص منه أو أن يُكسى أحياناً كساء النجاح.

ولا أنكر أن هذا من طبائع البشر والشرق العربي لا ينفرد به إلا أن الغلوّ فيه هنا فاق كل الحدود، لاسيما عندما يحاول بعضهم أن يضع أسباب الفشل على عتبة باب الإمبريالية والاستعمار، وبكلمة أخرى بريطانيا بوصفها علة العلل.

وتلك حيلة رخيصة للتخلص من المسؤولية.

وفي العام ١٩٤٨ أحكمت ميليشيات اليهود نصف المدربة شبه النظامية تطويق لواء كامل من الجيش المصري في (الفالوغه) ولم ينقذه من استسلام تام إلا الهدنة. مع هذا فقد أُدخل آمره القاهرة دخول الظافرين ونعتته الصحف المصرية بـ(ضبع الفالوغه) وأمطرت صموده للحصار بعبارات الثناء والتمجيد من دون أن تذكر أن سبب الحصار كان يعود بالأصل إلى خطأ القائد.

لم يكن من المناسب طبعاً أن يلقب مثلاً بأسد الفالوغه أو نحوه، فمن طبيعة هذا الحيوان الوثوب والهجوم، أما الضبع فمن شأنه التخفي والتربص. وعُزي الفشل الذريع الذي منيت به القوات المصرية في تلك الحرب إلى ما ظل عبدالناصر يردده عذراً بالأسلحة الفاسدة. ومن طول الترديد لم يكن هناك بد من نزولها منزلة المسلّمات التاريخية. لم يُتعب أحد نفسه بالتفكير في صحة هذا ومقدار ما ينطوي عليه من حقيقة. إنك تكسر البيضة من رأسها، فتقذف بها عندما تجدها فاسدة ولست بحاجة إلى أكل شيء منها لتقنع نفسك بفسادها. والجيش لا يدخل معركة حقيقية بسلاح وعتاد لم يجربه قبلاً في تدريبه.

ثم إذا كانت الأسلحة الفاسدة علة هزائم ١٩٤٨، فالجيش المصري كان في العام ١٩٦٧ يملك أفضل سلاح صنعته المعامل الحربية السوڤياتية. وهنا لم تساعف أي علة في تبرير الفشل، لم يكن هناك مجال لوضعها عند عتبة الإمپريالية والاستعمار. فلولا الدول الغربية لدخل اليهود القاهرة ودمشق. واضطر عبدالناصر إلى الإقرار بمسؤوليته وأعلن عن اعتزامه الاستقالة في عين الوقت الذي أوعز بتنظيم المظاهرات والمسيرات والاجتماعات الصاخبة ضد قراراه هذا. وبكى البعض ورفع آخرون أكف الضراعة يناشدون القائد البقاء، فتنازل وقبل رجاءاتهم وضراعاتهم. وبهذا تنوسي أمر الهزيمة وسط الفرحة ببقاء الرئيس، وطغى الحديث عن شجاعة الرئيس الأدبية في الإقرار بالخطأ، على الحديث عن آثار الهزيمة وعارها.

وعندما كتب نبي البعث عفلق رسالته الذليلة في العام ١٩٤٩ لـ(حسني الزعيم) وهو سجين يعلن فيها ندامته على سوء سلوكه مؤكداً اعتزال العمل السياسي نهائياً، لم يجد أتباعه القوميون عذراً له غير قولهم، إنما فعل ذلك لتجنيب أعضاء الحزب مزيداً من الملاحقة والاعتقالات، فهو والحالة هذه عمل ذكي بارع فيه من الشجاعة الأدبية ما فيه. ويقي عفلق بعدها يقود الحزب ويغنيه بأفكاره وفلسفته القومية حتى وافاه الأجل

بعملٍ مخجل يكفي نصفه أو ربعه أو عشر معشاره للتطويح بمستقبل أي زعيم سياسي أو قائد حربي في بلاد غير البلاد الناطقة بالعربية، الا أن للقوميين العروبيين باختلاف مذاهبهم مقاييس خاصة للحكم على الإخلاص للقضية والصدق في المسعى.

نُسب لمن لا أشك في صدقه[11] قوله إن رشيد عالي، الذي شاطر الدكتور فاضل الجمالي غرفة الإعدام بالسجن المركزي في بغداد العام ١٩٥٩، صارح زميله أثناء ما كانا يتدارسان القرآن ويضعان تفسيراً جديداً لآياته، بأنه كان ضد أي صِدام مع بريطانيا، مؤكداً له أن العقداء الأربعة هم الذين جرّوا العراق إلى المواجهة خلافاً لرأيه. إن هذا يتفق وطبائع الرجل الذي كاد يُجمِع كل من نوه به أو ذكر له اسمه، لاسيما أولئك الذين زاملوه في الحكم أو تعاملوا معه إجماعاً تاماً بأن ثقته المطلقة بنفسه وبصواب رأيه ينسيه ما كان يؤمن به البارحة بحماسة ودأب بما يؤمن به ويعمل له اليوم. فمثلاً سهل عليه أن يحشر نفسه بين زمرة غلاة الدعاة للقومية العربية، ليبدو خلال وقت قصير زعيمها وقائدها الذي يلتف حوله رجالها، ناسياً أنه كان من أشد أنصار حزب الاتحاد والترقي حماسة ووطأةً على القوميين العرب وأحزابهم السرية أيام العثمانيين.

منذ أحداث آب ١٩٣٣، أتقن الگيلاني دوره القومي ونافس خصمه (نوري السعيد) فيه. كان (السعيد) وزملاؤه من حكام العراق يفخرون بأنهم من (الرعيل الأول) ولم يكن بمقدور الگيلاني منافستهم أو مشاطرتهم هذا اللقب. لكنه نجح أيما نجاح في أن يغدو من الرعيل الثاني (القومي) الذي ضم الناقمين الناقدين للأول، وأغرق رجالهم بتهم العمالة والاستخذاء للأجنبي.

---

(١١) نسب هذا إلى الأستاذ نجدة فتحي صفوت من حديث له مع فاضل الجمالي. وهو تأكيد لما سمعته قبلاً من مصدر آخر. إلا أن ما أدهشني هو ذلك الاعتداد الكاذب المفرط في رشيد عالي بصورة خاصة حول تأليفه تفسيراً لآيات القرآن. فهذا الرجل لم يكن حظه من لغة الضاد يسمو إلى حظ تلميذ مجتهد في آخر سنة من المدرسة الابتدائية، ولطالما أضحكتني أخطاؤه الصرفية والنحوية في كتابه: المسالك في شرح قانون العقوبات البغدادية، ولحنه القبيح في الرسائل التي نشرها له الحسني في تاريخ الوزارات. وأنا لا أستطيع إشراك الجمالي في هذا الحكم. وكل ما قرأته له مقدمة كتبها للأستاذ أحمد نسيم سوسه لكتابه: في طريقي إلى الإسلام (بمناسبة اعتناقه الدين الإسلامي). والمفروض في شارح القرآن أن يكون مالكاً ناصية اللغة عارفاً بأسرارها وما أظن أياً منهما بهذا المستوى، وإنما هي المكابرة واستمداد الغفران من الله عن السيئات كما يفعل الكثيرون من المحكومين بالموت.

رجل كهذا يسهل عليه بطبيعة الحال التنصل من المسؤولية وهو في موقفه هذا اليائس، بإلقائها على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه(١٢). وكذلك فعل زملاؤه الوزراء

---

(١٢) في العام ١٩٤٦ أو قبله نشرت مديرية الدعاية كراساً بعنوان (أحكام المجلس العرفي العسكري) ضمنته قرارات الإدانة والحكم فحسب، ولم تنشر وقائع جلساته لا في حينه ولا بعده وقيل إنها كانت سرية. ومع أني وجدت في عدد من مجلة (آفاق عربية) موضوعاً عنوانه (وثائق عن ثورة مايس: الملكة عالية تتحدث) وهي الإفادة التي قدمتها مكتوبة إلى المجلس العرفي العسكري. إلى جانب وقائع محاكمة الشريف شرف الوصي المنصوب بدل عبدالإله وتتضمن إفادته ودفاعه. وعلى مدى علمي ما أظن المجلة واصلت نشر وقائع محاكمات الوزراء والعقداء، ولم أجد أحداً من الكتاب ينقل نصاً منها لهؤلاء سواء من إفاداتهم أو دفاعهم. إلا أن ما كان يتردد في المجالس وما كنا نسمعه عن تلك المحاكمات وبقي يدور حول مواقف بعض المتهمين الكبار الذليلة ومحاولات معظمهم التنصل من مسؤوليتها بإلقاء الذنب على الآخرين لاسيما الغائبين منهم. روي عن الفريق أمين زكي وكيل رئيس أركان الجيش أنه وصف نفسه بالحيوان أو البهيمة وأنه كان يوقع البيان الصادر باسمه تحت تهديد المسدس. وعُزي إلى أستاذنا علي محمود الشيخ علي شيء قريب من هذا. وقال مدير الدعاية العام صديق شنشل أستاذنا أيضاً مدافعاً عن نفسه، إنه مجرد موظف صغير في وزارة الداخلية يأتمر بأمرة وزيره المسؤول وينشر ويذيع فحسب ما يرده من الوزارة ومن الجيش، في حين كان يلقي خطبه النارية ارتجالاً «أُطلق عليه في حينه لقب گوبلز العراق».
أما ذلّة أعضاء الطبقة الحاكمة المغرر بهم في مايس، فقد تمت وختمت على يد نوري السعيد نفسه في العام ١٩٥٤، عندما ضم إلى حكومته كلاً من محمد علي محمود للعدلية (كان في مايس وزيراً للأشغال والمواصلات) والدكتور محمد حسن سلمان للصحة (كان في مايس وزيراً للمعارف) وموسى الشابندر للخارجية (كان في مايس كذلك) وجعلهم يوقعون على حلف المعاهدة المركزية المسمى حلف بغداد، ذلك الحلف الذي أجمع القوميون العروبيون بسائر أحزابهم وفلسفاتهم على اعتباره حلفاً استعمارياً إمبريالياً، وفي العراق اعتبر بديلاً لمعاهدة ١٩٣٠ التي انتهى أجلها. وأنا أذكر بصورة خاصة هذه المناسبة وتعرفت باللواء الركن المتقاعد إبراهيم الراوي في أثناء زيارة قام بها لأحد الأطباء من أصدقائه في ألمانيا، فبمناسبة زيارته الموصل في أوائل الخمسينات (ربما في ١٩٥٣) وانجر الحديث إلى ذكرياتهما في برلين لم يبخل خلالها على الگيلاني بأشنع الأوصاف والنعوت وبالأخص عن بخله وجشعه، وأسلوب المصانعة والتذلل المخجل الذي كان يتعامل به مع موظفي وزارة الخارجية العسكريين الألمان تقابله عجرفة وتعالٍ إزاء بقية اللاجئين. وكان أثناء ذلك ينحو على نفسه باللائمة لأنه ربط مصيره في وقت ما بمصير أمثال الگيلاني حامداً الله على السلامة.
تذكرت هذا عندما طالعت في الصحيفة (٤٥٠) من كتاب الأستاذ القيسي والمرجع المنوه به سابقاً) نص جزء من مقال كتبه لواؤنا الركن إبراهيم الراوي ونشره في ١٩٦٥ بمناسبة وفاة الگيلاني فطاب لي أن أنقله هنا، يقول الراوي: «لعل ما قام به رشيد عالي رحمه الله في العام ١٩٤١ أشهر من أن يُنسى، فقد ترأس ثورة وطنية وهو يعلم حق العلم أنه يخاصم أعظم =

والعقداء الذين حكموا أو كتبوا مذكراتهم وقد خالط أغلبها الندم والاستغفار، وعاد بعضهم إلى أحضان الطبقة الحاكمة عزيزاً، منتهزين كل فرصة لإظهار ولائهم للوصي الذي خلعوه وعزوا إليه كل نقيصة في شهري نيسان ومايس.

لا يستدعي ذلك تساؤلاً حاداً وعجباً. فكما أن للسياسة أحكاماً في مجتمعها كذلك كان للعقيدة والكرامة أحكام. لكن، ما أمرُ أولئك الكتاب الذين أنزلوا معركة مايس منزلة احترام وأكبروا عمل فاعليها. وتكرموا على العقداء والوزير الذين نُفذ فيهم حكم الموت بمنزلة الشهادة وحجزوا لهم مقاعد في قاعة الأبطال والزعماء القوميين المخلّدين، ولم يخصوا أولئك الجنود المجهولين والأبرياء الذين فقدوا أرواحهم نتيجة هذه المغامرة بسطر واحد من الرثاء والتفجع، في حين نظمت القصائد وكتبت المقالات الطوال بمآثر وفضائل مسببيها.

التاريخ لا يحاكم صانعي أحداثه الجسام على النوايا والمقاصد فحسب، بل يحاكمهم أيضاً على عواقب التسرع والغفلة والقصور التام عن اتخاذ القرار الصائب والاندفاع الأهوج بعامل العاطفة. وفي عهود اليونان والرومان القديمة كان الزعماء والقادة يُحاكمون ويشهّر بهم، بل ينالون عقوبة الموت أو النفي الرهيبة بسبب فشل نجم عنه ضرر ببلادهم لا دخل للأقدار أو سوء الحظ فيه.

ولدينا كثير من الشواهد والأدلة عن غفلة قادة مايس وعجزهم العقلي وضعف في قابلياتهم العسكرية والسياسية التي سببت كارثة مايس. إن مذكراتهم وقراراتهم بحد ذاتها كفيلة بإصابة قارئها بالذهول بدرجة كافية لتصعقه صعقاً. إن سلوكهم قبل المواجهة العسكرية وفي أثنائها يكفي لتقدير الحد الذي بلغوه في اعتمادهم على نصر ألماني سريع. وفي أملهم الخادع الكبير بأن ألمانيا وإيطاليا ستضمنان بعد النصر

= إمبراطورية كانت الشمس لا تغيب عن حدودها، وهو الوحيد وبدون حليف عربي ولا يملك سوى إيمانه وإخلاصه واعتماده على جيشه، الذي كان مستعداً لخوض المعمعة للدفاع عن الكرامة والذود عن حياض البلاد. وهكذا أشهد العالم أن العراق لا يقبل حيفاً ولا يرضى بالهوان. وأنه وإن كان لم يحالفه النجاح في كل ما يريد، إلا أنه قام بأروع حركة شهدها التاريخ وله من صناديد العرب أسوة حسنة كالحسين ومصعب ابن الزبير ويوسف العظمة، ومتى كان للمؤمنين أن يحسبوا ما عندهم وما عند خصمهم من توازن في القوى حينما يحين الوقت وتقضي المصلحة العامة بالدفاع عن الكرامة ورفع الضيم عن العراق؟» وكان الراوي كغيره قد أعلن ندمه وأقرّ بخطأه في مشايعة الحركة ليظفر من نوري السعيد بمكافأة ما.

وتحطيم عدوهم بريطانيا استقلال البلاد العربية الناجز مع الوحدة وإجلاء اليهود التام عن فلسطين أيضاً.

* * *

في ١ من أيلول ١٩٣٩ اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية بدءاً بانقضاض الجيوش الألمانية على پولندا مزودة بأسلحة جديدة لا عهد للعالم بمثلها وبتاكتيك الحرب الخاطفة (krigbliy)، فاكتسحتها في ظرف أسبوعين واقتسمتها مع الاتحاد السوڤياتي، ثم تهاوت الدول الأوروبية بالتتابع. ففي ٩ نيسان ١٩٤٠ تم احتلال الدانمارك والنرويج معاً وبعدها بشهر واحد اكتُسحت هولندا وبلجيكا. وفي ٢٥ حزيران دخل الجيش الألماني المظفر باريس. وفي ٤ من شباط ١٩٤١ بدأ غزو دول البلقان فاكتُسحت يوگوسلاڤيا وبقيت بريطانيا وحدها تواجه جيوشاً جرارة معبأة لعبور القنال لتوجه الضربة القاتلة، في حين راحت أساطيل من الطائرات الألمانية تدك المدن البريطانية دكاً. ولم تعد عبارة ها قد أفلت شمس الإمبراطورية البريطانية تثير عند السامع عجباً أو دهشة، بل عُدت من حتميات التاريخ.

وفي حزيران ١٩٤٠ دخل الجيش الأحمر جمهوريات لاتڤيا وليتوانيا وأستونيا تباعاً وتم ضمها إلى الاتحاد السوڤياتي. وبدأت محاولة القضاء على استقلال فنلندا.

في السادس من شباط ١٩٤١ كان قد مرّ بعض زمن على المفاوضات السرية بين حكومة الگيلاني وموظفين صغار ألمان (أكبرهم سفيرهم في تركيا ووزيرهم المفوض السابق في العراق الدكتور گروبا) ولم يكن جماعة (مايس) طبعاً كغيرهم يعلمون أن غزو الاتحاد السوڤياتي كان قد تقرر منذ تشرين الأول ١٩٤٠ بالأمر التوجيهي المرقم (٢١) ووفق موعد محدد بالخامس عشر من أيار[١٣].

---

(١٣) يوجد نصه الكامل في عدد من الكتب الوثائقية والمجموعات. وقد بدئ بهذا: من مقر قيادة الفوهرر سري للغاية ١٨ تشرين الأول ١٩٤٠. على القوات المسلحة الألمانية أن تتأهب للقضاء على روسيا السوڤياتية في حرب خاطفة، قبل إنهاء الحرب مع بريطانيا وتحقيقاً لهذه الغاية، يترتب على الجيش أن يستخدم كل قطعاته الميسورة مع الاحتفاظ بالاحتياطي الذي سيقوم بحماية البلاد والمناطق المحتلة من هجوم مباغت. يجب أن نكمل الاستعدادات في ١٥ من أيار ١٩٤١ وأن يتخذ أشد الاحتياط والحذر من انكشاف خطة الهجوم وافتضاحها. يجب أن يقضى قضاء تاماً على مجموعات الجيوش الروسية في الغرب بعمليات جريئة تتم باندفاع في العمق إلى الأمام ودق أسافين من الدورع. وأن يحال بأي ثمن كان دون أي تقهقر لها منتظم إلى الفضاء الروسي الواسع من غير أن تمنى بخسائر الخ (والنص طويل).

في السادس من شباط ١٩٤١ عُقد بمقر أركان المخابرات العسكرية للجيش الألماني مؤتمر سري بين مندوبين من القيادة وموظفين من وزارة الخارجية. وكان الدكتور گروبا الذي غادر العراق إثر قطع العلاقات نجم الاجتماع اللامع إذ أُنيط به رسمياً رئاسة ما دُعي بـ(اللجنة العربية) في وزارة الخارجية. ونتيجة هذا الاجتماع تم وضع خطة لإثارة قلاقل واضطربات في كل البلاد الناطقة بالعربية، التي تخضع للنفوذ البريطاني، وعلى أن لا يؤدي ذلك بأي حال من الأحوال إلى تورط محوري عسكري فيها يخلّ بخطط القيادة العليا. وتوقيتها الزمني(١٤) كان قيداً احترازياً واضحاً.

في الوقت الذي كانت الدول والشعوب تمسح عن خارطة العالم بأحذية الجيوش النازية، كان زعماء القومية العربية في العراق وسورية، والقوميون المصريون مثلهم، يأملون تحقيق أمانيهم في الاستقلال والحرية على يدها.

لم يحاول النظامان الفاشيان إخفاء أو تكذيب ما تواتر عنهما وما عرفه العالم من الأساليب الدموية التي مارساها ضد معارضيهما في بلادهم، وقد ذاعت قصص مرعبة محدودة عن التصفيات الجسدية الجماعية لرجال الفكر والزعماء السياسيين خصومهم. مما لا شك فيه أن الاضطهاد العنصري الذي ركّزه النازيون على اليهود في بلادهم كان يشيع في نفوس القوميين العروبيين ارتياحاً خاصاً ينسيهم تشجيع الحكام النازيين يهودهم على استعمار فلسطين(١٥). كل هذا قريب العهد بالذهن، لكن هناك التجارب العربية المريرة من أحداث سابقة.

في العام ١٩١٢ انتزعت إيطاليا ليبيا من يد العثمانيين واستعمرتها بكل ما في كلمة الاستعمار من معنى وبقيت تحكمها حكماً مباشراً قمعياً لا تمازجه رحمة، وكنا نقرأ في الصحف القومية أنباء عن الفظائع التي يرتكبها الاستعمار الإيطالي والتصفيات الجسدية للثوار، ومنها الطريقة المبتدعة بإلقائهم من الطائرات في مجاهل الصحراء. مثلما قرأنا عن الفظائع التي ارتكبها الجيش الإيطالي في العام ١٩٣٥ عندما غزا موسوليني الحبشة وضمها إلى مستعمراته مستخدماً الغاز السام، كما تابعنا التدخل العسكري الألماني والإيطالي في الحرب الأهلية الإسپانية لصالح الجنرال فرانكو

(١٤) هـ. تيلمان (H. Tillman) ألمانيا والسياسة العربية في الحرب العالمية الثانية (Deutchlands Araber Politik im Zwetlen Weltkring) برلين ١٩٦٠ ص٣٣٥.

(١٥) راجع الفصل السابق.

وتثبيتهم حكمه الدكتاتوري على أنقاض الجمهورية.

كل هذا لم يكن خفياً عن زعماء حركة أيار، بل وأكثر من هذا؛ كانت هناك دروس بليغة ألقاها نائب العريف الألماني في مقرّه على رؤساء الحكومات وأساطين السياسة تصلح مثالاً لكيفية تعامل هذا الدكتاتور، ومدى احترامه لكلمة الشرف والعهود والمعاهدات الدولية. كانت هناك مهزلة ميونيخ التي قضت على سمعة رئيسي وزراء بريطانيا وفرنسا وأدت إلى استقالتيهما. وعجلت بموت الأول منهما قهراً(١٦).

في الوقت الذي كان الزعيم الألماني يعبث بمصائر الدول ويصادر حريات شعوبها ويقضي على استقلالها ويدوس بكعبه المواثيق الدولية، راح أبطال حركة مايس القوميون يرسلون إليه المندوبين للتفاوض معه على تحرير البلاد الناطقة بالعربية وتحقيق استقلالها الناجز وإقامة الوحدة العربية، مستجدين منه ومن زميله في روما تصريحاً، تصريحاً لا غير!

أكان المفتي أو الگيلاني أو العقداء على الأقل يطمعون حقاً في النظام الجديد الذي صممه الزعيم النازي للعالم بعد الحرب بمنزلة في البلاد الناطقة بالعربية أعلى من تلك التي حازها منه الأميرال (هورتي) في المجر أو كويزلنگ في النرويج أو أنطونسكو في رومانيا أيامذاك؟

لم يكن أي من هؤلاء القوميين الذين اجتمعوا في بغداد ليقامروا بمصير بلادهم في أي وقت من الأوقات أصلب وأشد وطأة على الاستعمار البريطاني، ولا أشهر وأعلى كعباً في النضال القومي من ذلك المحامي الهندوسي غاندي الضئيل الجسم الحافي القدمين، الذي كان إذذاك يقود أعظم حركة عصيان مدني عرفها العالم ضد البريطانيين شملت أربعمائة وخمسين مليوناً من الناس بمشاركة فعالة فيها. إنه لم يتردد قط في إعلانها هدنة مع مستعمري بلاده، بل تمادى وسمح وشجّع مشاركة هذه القارة وشعبها في المجهود الحربي ضد النازية، ولم يعترض على تجنيد فرق كاملة من أبناء شعبه وزجها في ميادين حربية بعيدة عن بلاده لتساهم في دحر قوى الظلام والبربرية، وكذلك تحويل نضال زعماء الحركات التحررية من السيطرة البريطانية والفرنسية في البلاد

---

(١٦) من تقرير للوزير المفوض الأمريكي ببغداد. نقلاً عن كتاب لوكارز هيرشكوفتش Lukarz Hirscauricz: الرايخ الثالث والشرق العربي The Third Reich and the arab East لندن ١٩٦٦، ص ١٠١ وما بعدها.

الآسيوية الأخرى ليتعاونوا مع ممثلي سلطاتهما في وجه الغزاة اليابانيين.

* * *

بدا الحاج أمين الحسيني وكأنه المرجع وإليه ينتهي الرأي، ليس لنباهةٍ ممتازة أو عبقرية خاصة تغلبت على سذاجة وغفلة للعسكريين، وغطرسة واعتزاز بالرأي أمام ذلّة وخنوع المدنيين وقفت إزاءه حيلة الگيلاني ودهاؤه مستسلمة ذليلة، لكنه حب السلطة المفرط والشهوة إلى الحكم وهو الذي كان يجمع ما بين الأطراف الثلاثة، بل خشية ضياعه منهم وهو جنون السلطة. فقد قيل قديماً إن السلطان المطلق الذي لا يقف عند حدود ينقل صاحبه إلى حالة من حالات الجنون، فلا يعود يفكر بالصالح الجيد وإنما يعد كل عمل صالحاً طالما كان في نظره جيداً.

وفي مثل هذه الحالة أراد الجميع أن يتوهموا بأن سواد الشعب العراقي يظاهرهم ويساندهم في خطواتهم. فتراهم يوعزون بإرسال برقيات التأييد ويأمرون بإقامة الاجتماعات الجماهيرية ويأمرون الصحف بكتابة المقالات المساندة، وكلها تنصب في عملية خداع الأكثرية الصامتة، لتبدو أعمالهم وكأنها معقولة أو ليلبسوها غطاء الشرعية.

يصف تقرير دبلوماسي محايد منزل المفتي بهذا القول: أصبح بديلاً للبلاط الملكي بعد أسابيع قليلة من حالة التشرد والتخفي. وتقنعني تحرياتي الخاصة أن المفتي الآن هو من أكثر الناس نفوذاً واحتراماً في العراق في الأوساط الدينية والسياسية. لقد حقق نجاحاً كبيراً في سورية وفلسطين وها هو يحقق أعظم النجاح في العراق. إنه في سبيل أن يغدو والحالة هذه قوة يُحسب لها حسابها في العالم العربي[١٧].

وأتى تقرير آخر إلى تفاصيل استقرار المفتي في بغداد بمؤامرة حبكها الگيلاني[١٨].

---

(١٧) من رسالة للسفير البريطاني بازل نيوتن إلى وزير الخارجية هاليفاكس في كانون الأول: FO .PRO. 24559-371 (No.31)

(١٨) وصل المفتي محمد أمين الحسيني بغداد في ١٥ من شهر تشرين الأول ١٩٣٩ سراً ومن غير علم الحكومة (وزارة نوري السعيد) بدعوة من الگيلاني والعقداء الأربعة على ما يبدو. وكان الفرنسيون في سورية يضيّقون عليه ويحدون من نشاطه، فاتصل كل من أمين التميمي وأكرم زعيتر الفلسطينيان برئيس الديوان الملكي رشيد عالي الگيلاني وطلبا مساعدته على تهريب المفتي إلى العراق من دون جواز سفر. وقد تم ذلك أيضاً دون علم نوري باشا (رئيس الوزارء حينذاك). وما أن علم هذا بوصوله حتى قرر أن يبعده ويجعل محل إقامته في منطقة كردية قريبة =

لم يكن المفتي مغفلاً ليأمل في تحرير لفلسطين خالية من اليهود بقوة الجيش العراقي، ولا كان هذا الغرض من مجيئه. لكنه كان يريد استعادة نفوذه السياسي المفقود بأي شكل كان وفي أي مكان آخر. فببصيرة الضابط العثماني السابق كان قد تقرب من البريطانيين وحاز ثقتهم فرشحوه لمنصب الإفتاء وهو منصب ديني بحت. وبقي يمارس سلطته الدينية بحمايتهم حتى خطر بباله أن يجند نفوذه ليقتحم الميدان السياسي، ويغدو مركزاً للتحرر القومي والنضال الذي يخوضه عرب فلسطين ضد الاستيطان اليهودي. فاتفق مع الألمان رغم علمه بمساعدتهم للصهيونية. ووجد نفسه يناضل في سبيل مركزه السياسي الجديد على جبهة بريطانية وجبهة الصهاينة وجبهة مزاحميه العرب على زعامة الحركة. وعندها لم تعد للبريطانيين فائدة منه فأسقطوه مثلما رفعوه، وغدا في ليلة وضحاها طريد عدالة. لم يكن خافياً على سلطة الانتداب البريطاني الصلات التي وثّقها هذا الرجل بألمانيا وفي أحرج الأوقات التي كانت تمر بها سلطة الانتداب[١٩] في فلسطين وبطبيعة الحال كان حلم المفتي الكبير أن تؤدي هزيمة

= من كركوك. إلا أن الكيلاني هيأ للمفتي زيارة خاطفة للبلاط الملكي فاستقبله بكل مظاهر التكريم والاحترام وبشكل رسمي وسجل اسمه في سجل التشريفات وأدخله على الوصي عبدالإله يحفُّ به (الصباغ) والعقداء الآخرون. فأُسقط في يد الحكومة واضطرت إلى اعتباره ضيفاً. فأُسكن في دار خاصة تقع في شارع الزهاوي بالقرب من البلاط الملكي. ومالبثت داره تلك أن صارت مقراً للاجتماعات والاتصالات على نطاق واسع إلى درجة أن الذين كانوا يقصدون البلاط الملكي في الأعياد والمناسبات الرسمية من رجال الجيش والسياسة وأرباب القلم وكبار الموظفين - يتوجهون بعد إنهاء زيارتهم إلى دار المفتي. (واحد من الأدلة الكثيرة على مقدار ما كانت الحكومات العراقية تتمتع به من استقلال في إصدار القرار أن وزارة الخارجية البريطانية أوعزت إلى سفيرها تقديم احتجاج رسمي على وجود المفتي في العراق باعتباره متهماً في قضية جنائية، فلم تُعر الحكومة العراقية أهمية للاحتجاج ورفضته كأية دولة مستقلة كاملة السيادة).

(١٩) في ٦ من شهر تموز ١٩٣٧ قدمت لجنة (بيل) التي ألفتها الحكومة البريطانية في لندن حول المشكلة الفلسطينية تقريراً أوصت فيه بتقسيم فلسطين إلى أقاليم ثلاثة: عربي ويهودي ودولي وإلغاء الانتداب. فيكون معظم السهل الساحلي بيد اليهود وسائر المناطق الداخلية بيد العرب لينشأ منها دولة مستقلة متحدة كونفدرالياً بالأردن وبموجب معاهدة. أما الإقليم الثالث ويشكل أورشليم القدس وبيت لحم والناصرة، فيبقى تحت الانتداب البريطاني حتى نهاية أجله وعندها يجري استفتاء ليقرر مصيرها. فرفض كل من العرب واليهود المشروع. إذ دعت لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية إلى عقد اجتماع عربي عام حضره (٥٠٠) مندوب من جميع الأقطار الناطقة بالعربية. وفي نهاية الاجتماع الموافق للعاشر من أيلول أصدر المجتمعون قراراً برفض =

بريطانيا لا إلى نهاية سلطتها في فلسطين بل إلى استئصال كل يهودي فيها وفي الدول العربية الأخرى، وبالتالي إلى تأكيد زعامته في البلاد وإن كانت تلك الزعامة خاضعة خضوعاً مطلقاً لأي ضابط من (الاس أس) أو من الڤيرماخت (الجيش الألماني).

ولذلك كانت الصلة والمحادثات قد بدأت بين الجانبين قبل نشوب الخلاف حول تفسير بنود المعاهدة البريطانية العراقية للعام ١٩٣٠ بوقت بعيد، هذا الخلاف كان مفتعلاً في الواقع إزاء نص صريح لا يقبل التأويل وُضع بصورة خاصة لمداركة قيام حالة حرب ضد بريطانيا وحاجتها إلى استخدام قواعدها وتسهيلات أخرى تتطلبها حالة كهذه[٢٠].

فالتخطيط للانحياز إلى معسكر محور برلين - روما وإن كان قد وضع قبل وصول

= المشروع جملة وتفصيلاً، ومقاومته، ورفض فكرة إقامة دولة يهودية، وإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية وإصدار تشريع منع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود، وتأليف حكومة دستورية تضمن حقوق الأقليات، وكذلك استمرار النضال من أجل إنقاذ فلسطين.

هذا مجمل ما ورد في قرار المؤتمر العربي العام. وفي أيلول ١٩٣٩ نشرت الحكومة البريطانية ما عُرف بالكتاب الأبيض وفيه أوضحت سياستها التي رسمها مجلس العموم وقد استهلته بهذا: «ليس من سياسة بريطانيا أن تصبح فلسطين دولة يهودية لكنها تعمل على إقامة حكومة وطنية فلسطينية يشارك اليهود السلطة فيها مع العرب وترعى مصالح الطرفين. وخلال العشرة أعوام الباقية من الانتداب تُقام دولة فلسطينية مستقلة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا.» وحدد الكتاب الأبيض الهجرة اليهودية للأعوام الخمسة التالية بـ(٧٥) ألفاً لكل عام وبعدها لا يسمح لهم بأي هجرة إلا بموافقة العرب. واقترح وضع قيود ثقيلة حول امتلاك اليهودي أي أرض. رفض اليهود المشروع ولو وافق عليه العرب لكانت الأمور ستصير إلى غير ما آلت اليه. رفضته اللجنة العربية العليا وانقسم الرأي حوله ريثاً من الزمن، ثم رُفض أخيراً ببيان ختم بالعبارة: «إن الكتاب الأبيض لا يتفق مع المطامح العربية ولا يحقق مطالب العرب التي تتخلص في أن تنال فلسطين استقلالها ضمن اتحاد فدرالي عربي وتبقى عربية إلى الأبد». بقيت بريطانيا خلال الحرب العظمى وبعدها تطبق ما تستطيع تطبيقه من الكتاب الأبيض لاسيما موضوع تحديد الهجرة وتعلن عن تمسكها به. أما كيف أرغمها التصلب العربي وضغط أمريكا على التخلي التدريجي عنه فهذه حكاية يعرفها الجميع ويضيق هذا الكتاب عن التفصيل فيها.

(٢٠) المادة الرابعة من المعاهدة «إذا اشتبك أحد من الفريقين الساميين المتعاقدين في حرب يبادر الفريق السامي المتعاقد الآخر فوراً إلى معونته بوصفه حليفاً وفي حالة خطر حرب محدق يبادر الفريقان فوراً إلى توحيد المساعي في اتخاذ تدابير الدفاع المقتضية. إن معونة العراق في حالة حرب أو خطر حرب محدق تنحصر في أن يقدم لبريطانيا في الأراضي العراقية جميع ما وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ومن ذلك استخدام السكك الحديد والأنهر والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات».

المفتي، إلا أنه تبلور بمحيثه وعندما فرض العقداء الأربعة رشيد عالي رئيساً للحكومة من خلال أزمة افتعلوها. والگيلاني نفسه الذي أحدث شبه قطيعة مع الطبقة الحاكمة كان يشعر طوال الفترة بأن مركزه مزعزع وحكومته زائلة. فقد فُرض على البلاد بقوة السلاح ومن غير رغبة السفارة البريطانية.

وإزاء هذا الحلف بين الطبقة الحاكمة والبريطانيين لجأت حكومة الگيلاني إلى الضجة الإعلامية والتعبئة الجماهيرية تماماً مثلما فعلت في العام ١٩٣٣. إذذاك كان الخطر الآشوري أما الآن فالسبب هو المعاهدة العراقية - البريطانية. وفي ٢٠ من أيار ١٩٤٠ كتب السفير البريطاني لوزارة الخارجية:

«منذ أن تولى رشيد عالي (في نيسان) رئاسة الحكومة بدأت في الرأي العام حركة ملحوظة تستوجب القلق. فقد أخذ ينمو إلى التوجه نحو التطرف. إن الدعايات التي يقوم بها السياسيون الفلسطينيون والسوريون واللاجئون إلى العراق، والنشاط الذي يبدونه بات عظيم التأثير. وقد تصاعد الشعور المعادي لبريطانيا بشكل علني ملفت للأنظار في كل مكان»[٢١].

تمثيلية العام ١٩٣٣ تتكرر تماماً: اجتماعات صاخبة، مقالات نارية، خطب حماسية من راديو بغداد، نشاط غير عادي للعقداء الأربعة وأنصارهم من الضباط في وحدات الجيش. في ١٨ أيلول ١٩٤٠ وكنموذج لما كان يحصل عُقد ذلك الاجتماع الكبير، الذي دعا إليه نادي المثنى بمناسبة ذكرى مرور ربع قرن على إعلان الثورة العربية الكبرى. وذكرت الصحف أن المفتي تصدر الاجتماع على رأس ما دعته بالتجمع القومي ووصفته جريدة (البلاد) بهذا الشكل:

«حضر الاجتماع عدد كبير من أعضاء التجمع القومي في العراق وعلى رأسهم سماحة المفتي الأكبر للشقيقة فلسطين. وألقيت خطب قومية من بينها كلمة الأستاذ أكرم زعيتر بعنوان: (ثورة العرب لن تنتهي) أشار فيها إلى أن هذا الاحتفال السنوي يمتلك في هذا العام طبيعةً خاصة، ثم تطرق إلى نكث الحلفاء وعودهم التي قطعوها للعرب، وقيامهم بتجزئة الوطن العربي وتعنتهم الحالي رغم ظروف الحرب الناشئة بعدم إعطائهم العرب تصريحاً أو وعداً يُفهم منه أن حق العرب في وحدتهم وحريتهم مضمون. وناشد العرب

(٢١) من السر بازل نيوتن إلى اللورد هاليفاكس (سرّي) F.OO. 371-4558 NO.22.

استغلال فرصة الحرب ليوحدوا الرأي وينظموا أمرهم ليطلقوا صرختهم مدوية. وأكد أن الأمر يتطلب الجد والإقدام والمغامرة».

وتشير وثيقة بريطانية إلى «أن العقيد الركن كامل شبيب قائد الفرقة الأولى وجّه من الراديو كلمةً بهذه المناسبة هاجم فيها بشدة تلك الدول التي لم تحافظ على وعودها للعرب ومنها بريطانيا. كما ذكرت أن الصحف العراقية قاطبة شنّت حملة على الحلفاء الغربيين الذين خانوا العرب ومنهم بريطانيا التي أنشبت أظفارها في الوطن العربي. وأن الأمل أصبح ماثلاً للعيان في التخلص من سيطرة المستعمرين»[٢٢].

ظاهر من هذا أن أقطاب حركة أيار حزموا أمرهم على التعامل مع دول المحور، والوثائق الألمانية التي استولى عليها الحلفاء بعد الحرب تؤيد إلى حد كبير ما ذكره السيد كمال عثمان حداد مبعوث المفتي الخاص المطلق الصلاحية إلى ألمانيا، وما ذكره السيد ناجي شوكت وزير العدل حول مباحثاته مع فون پاپن سفير ألمانيا في أنقرة، والغرض كما قالا:

«هو الحصول على تصريح من دولتي المحور تتضمن اعترافاً باستقلال تام ووحدة شاملة للدول والبلاد الناطقة بالعربية».

وبطبيعة الحال، كان هذا مطلباً قومياً يشمل البلاد الناطقة بالعربية جميعاً. وفي ذلك الوقت كانت العربية السعودية واليمن تمارسان استقلالاً تاماً في شؤونهما الداخلية والخارجية فضلاً عن العراق، أما مسألة خضوع البلاد للسفارة البريطانية فقد كان قريباً من حديث خرافة. فمنذ العام ١٩٣٣ كانت الحكومات العراقية تستقل في اتخاذ القرار النهائي في الأوقات التي تختلف وجهة نظرها مع وجهة النظر البريطانية. وقد رأينا مصير الاحتجاج الرسمي الذي قدمه السفير البريطاني حول وجود المفتي.

ها هنا حرب طاحنة وخطط توسعية واضحة ونضال دموي مصيري بين أعظم إمبراطورية في العالم وبين أقوى ماكنة حربية شهدتها البشرية، لا تعلم نتيجته، ولا ما ستمخض به تلك النتيجة بخصوص مستقبل البلاد الناطقة بالعربية. وهو بالتالي ميدان صراع لم يُدع إليه العراق، ولم يكن ثم أي احتمال ليغدو جزءاً منه!

لكنها مغامرة وإقدام كما قال الخطيب أكرم زعيتر في اجتماع أيلول. مغامرة بان فشلها قبل أن تبدأ. فقد رفض المحور رفضاً مؤدباً قاطعاً إصدار تصريح بالشكل الذي

---

(٢٢) من السر بازل نيوتن إلى وزير الخارجية اللورد هاليفاكس (سرّي) F.O. 371-4559. P.R.O.

أرادته كتلة المفتي - الگيلاني - العقداء، ولم يغير هذا الرفض - وهنا موطن العجب - من موقف الكتلة في استجداء التعاون وأبوا إلا أن يتشبثوا بذيل الحصان.

بدأ الحوار فور وصول المفتي في أواسط تموز ١٩٤٠ وكانت فيه الخيبة الأولى. فقد أبلغ السفير الألماني الوزير العراقي ناجي شوكت بعد اجتماعات عدة في أنقرة:

«إن حكومته لا تشغل بالها بالقضايا العربية بنوع خاص ولا يتسع لها الوقت الكافي للاهتمام بمثل هذه الأمور في الوقت الحاضر، وإنها تركت ذلك لحليفتها إيطاليا. مع هذا فإن الحكومة الألمانية يسرّها أن ترى البلاد العربية مستقلة استقلالاً تاماً ناجزاً»(٢٣).

كان السفير في الواقع ينقل النتيجة التي تم الوصول إليها في برلين. فالوثائق الألمانية تكشف عن محادثة جرت في السابع من تموز ١٩٤٠ بين (الكونت تشيانو) وزير الخارجية الإيطالي وبين هتلر حول مصير البلاد الناطقة بالعربية والموقف منها، ولم يُخف (تشيانو) هدف إيطاليا في الحلول محل فرنسا في كل هذه البلاد التي تقع تحت نفوذها فضلاً عن مستعمراتها في أفريقيا وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي المعروف بـ(ليڤانت). ولم يُبد هتلر أي اهتمام بالمشاركة ووافق على إطلاق يد إيطاليا حرة.

وفي العاشر من تموز كتب المدير العام للدائرة السياسية السابعة في وزارة الخارجية الألمانية تعليقاً على مذكرة قدمت له بعنوان: حول الموقف في منطقة البحر والشرق الأوسط بخصوص أهداف ألمانيا ومصالحها في العالم العربي. وكان من رأيه أن تُعطى إيطاليا الأولوية المطلقة في إعادة التنظيم السياسي للبلاد العربية، وأن ألمانيا لا مطمع لها أو ادعاء قيادي في سائر المنطقة العربية وهي لا تشارك إيطاليا في ادعائها بها، لكنه استدرك، فقال:

«على أن ذلك لا يعني بأنها غير مهتمة أو أنها تتنازل عن أية مصالح اقتصادية فيها وبضمنها الخطوط الجوية ونفط العراق، وهما على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها، وأنها سوف تتوصل إلى اتفاق بهذا الصدد مع إيطاليا. إن الفوهرر حريص على امتلاك حقوق نفط الموصل بأي وجه كان لحرمان

---

(٢٣) الحسني، المرجع السالف، ج٥، ص١٢٠. ومراجع أخرى عديدة وهناك تفاصيل أخرى حول المقابلة.

الإنكليز منها وليس هناك أي سبب يحذو بألمانيا إلى إبداء عطف نحو العرب الذين هم أصلاً معادون للأوروپيين، تمزقهم الخلافات الدينية والعائلية والقبلية. وعلى ألمانيا أن لا تخاطر بسمعتها هناك إن كانت غير راغبة في المخاطرة بمكابدة أشد النكسات حدة لوقت طويل الأمد»[٢٤].

في ٢٢ من تشرين الأول ١٩٤٠ وصل مندوب الجماعة المدعو كمال عثمان حداد برلين، وقدم نفسه لوزير الخارجية (فون نيوراث) بوصفه مندوباً عما دعاه بـ(الحركة القومية العربية) وهو تعبير غامض اختُرع لحركة لا وجود لها. وكان برفقته ناجي شوكت وزير العدل في وزارة الگيلاني، لاستطلاع رأي روما وبرلين في الموقف الذي تقفه دول المحور من القضية العربية.

ولم يكن الجواب مشجعاً قط. وبقي لا يخرج عن نطاق التفاهم الألماني - الإيطالي السالف حول الدور الإيطالي. فعلى إثر تلك الوفادة قامت وزارة الخارجية الألمانية بإصدار تعليمات لسفرائها وقناصلها بعدم البحث مع الزعماء العرب البارزين في المنطقة حول مستقبل النظام السياسي في المنطقة العربية وإن اضطُروا أو أُرغموا فعليهم أن يتخذوا موقفاً غير ملزم non committal.

والرسالة الدائرة أو التعميم على الدبلوماسيين التي بحثت الأمر أفصحت بكل جلاء عن الموقف الإيطالي - الألماني في منطقة البحر الأبيض المتوسط إذ جاء فيها هذا:

«إن ألمانيا ليست وراء أي مصالح سياسية في منطقة البحر المتوسط التي يكون العالم العربي جزءها الشرقي والجنوبي. لذلك فستترك ألمانيا لإيطاليا القيادة في إعادة تنظيم المنطقة العربية السياسي، ويترتب على هذا أن تتنزل ألمانيا عن أي ادعاء لها بالتوجيه والقيادة السياسية، أو أي مشاركة في تلك القيادة مع إيطاليا في البلاد العربية التي تتألف من شبه الجزيرة العربية ومصر وفلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان والعراق»[٢٥].

واضح أن ألمانيا في تلك الفترة كانت تتحاشى تضارب المصالح مع إيطاليا وقد بان تهرّب الدولتين من إعطاء أي تعهد لمندوبي بغداد، بخصوص ما طلبوه حول

(٢٤) وثائق الخارجية الألمانية السياسية (١٩١٨-١٩٤٥) المجلد العاشر، ص١٥٤-١٥٥ لندن ١٩٥٧.

(٢٥) الوثائق. المرجع نفسه ص ٥١٥-٥١٦.

مستقبل البلاد العربية بعد انتصارهما النهائي. ووضح الأمر وانكشفت النيات بعد صدور التصريح الألماني المرتقب وقد بُثّ في زمن واحد بالعربية من إذاعتي برلين وباري في ٢٣ من تشرين الأول ١٩٤٠:

«إن حكومة الرايخ الثالث بتمام التفاهم والتأييد من حليفتها إيطاليا تعلن ما يلي: إنها كانت دوماً وفي الماضي تشعر برابطة من الصداقة الوثيقة مع البلاد العربية، وإنها تتمنى للشعوب العربية تلك الحياة السعيدة التي تليق بمكانتها التاريخية والطبيعية وبأهميتها بين شعوب العالم كافة، ولذلك فهي كما كانت في الماضي تتابع الآن نضال هذه الشعوب في مجال العمل للاستقلال. إن الشعوب العربية التي تجاهد وتكافح في هذا السبيل بوسعها أن تعتمد وتضمن عطف ألمانيا في المستقبل. وستتخذ حكومة الرايخ الثالث موقفاً إيجابياً من قضية مساندة استقلال البلاد العربية، وبذلك سيتحقق حلم القوميين العرب في الخلاص من الاستعمار البريطاني - الفرنسي وينعمون بالحرية التي طالما افتقدوها».

لم يكن التصريح سرياً وقد سمعته الملايين كما نقلته إذاعات غربية أخرى، والظاهر هو أن حكومة ألمانيا النازية كانت صادقة في تصريحها وتعني كل كلمة فيه، لأن شريكتها إيطاليا هي التي أوحت لها به. ولو تُرك الأمر لها وحدها لما وجدت أي حرج في الإدلاء بأي تصريح يتفق وما طلبه موفدو المفتي - الگيلاني، ليكون مصيره فيما بعد مصير أي عهد أو ميثاق آخر قطعته على نفسها مع دول وشعوب أخرى. والمفتي بعد ليس أعظم شأناً من چمبرلين والگيلاني ليس أهم من ديلادييه والزمن ليس العام ١٩٣٨ بل ١٩٤٠ وفيه ألمانيا أعظم قوة في العالم.

لا أدري كم كان المندوبان الفاشلان يعبران بصدق عن خيبتهما وعن رد فعل الآخرين السلبي من هذا التصريح كما دوّنا في مذكراتهما. وأنا أرجح أن زمرة بغداد لم تكن مستعدة قط للاعتراف بالفشل في مسعاها في تلك الفترة التي صعدت الحماسة القومية والعداء للبريطانيين إلى الأوج. فاختارت طريق اللاعودة بل إنه لم يكن يتضمن الحد الأدنى من الوعود الغامضة أيضاً التي تضمنها كتاب الوزير المفوض الإيطالي للگيلاني قبلها بشهرين ونيف[٢٦].

---

(٢٦) صورة الكتاب منقولة عن تاريخ الحسني، المرجع السالف:

لم يكن عسيراً على أي قومي مخلص عاقل أن يدرك بأن دولتي المحور تلعبان بالأماني القومية العربية لعبة غير مشرّفة. إنهما لم تعطيا حكومة الگيلاني بارقة رجاء أو بصيصاً من أمل وإن كان زائفاً يمكن استخدامه لتقوية المعنويات أو لتبرير موقفه الصلب إزاء نزول القوات البريطانية.

مع كل هذا لم يُرخ زعماء القوم قبضتهم على ذيل الحصان وواصلوا التشبث به وكتب أحد المندوبين وهو (كمال عثمان) عن التصريح يقول:

«إنه جاء مخيباً لآمال القوميين العرب لغموضه ولعدم إشارته إلى تعهد ألماني - إيطالي يتضمن استقلالاً عربياً ناجزاً ووحدة للأقطار العربية، تشير بشكل لا يقبل اللبس إلى مشروع مستقبلي يتضمن قيام إمبراطورية عربية في الشرق بزعامة العراق تحت الحماية الألمانية - الإيطالية دون أن يفصح بشيء عن شمال أفريقيا، مؤكداً نية إيطاليا في نقل مستعمرات شمال أفريقيا (وهو ضمن الإدعاء القومي بالوحدة) من اليد الفرنسي إلى اليد الإيطالي»[٢٧].

ويستطرد (حداد) قائلاً:

إنه قدم بعد عودته الخائبة من برلين تقريراً مفصلاً لكتلة الگيلاني - المفتي - العقداء مبيناً فيه أن الاعتماد على ألمانيا وإيطاليا عبث لا طائل تحته. لكنه اقترح بدل

= عزيزي صاحب الفخامة: أمرني معالي الكونت تشيانو وزير الخارجية بأن أبلغ فخامتكم أن إيطاليا طبقاً للسياسة المتبعة حتى الآن ترمي إلى تأمين الاستقلال التام والاحتفاظ بالكيان السياسي لكل من سورية ولبنان والعراق والبلاد التي هي تحت الانتداب البريطاني، ولهذا فإن إيطاليا ستقاوم كل ادعاء بريطانيا وتركي(!) لاحتلال الأراضي، سواء كان ذلك في سورية أو لبنان أو العراق وتفضلوا بقبول خالص تحياتي.

بغداد في ٧ تموز ١٩٤٠
گابريللي (الوزير المفوض)

وهو كما ترى تصريح ليس صادراً عن حكومة.

(٢٧) من كتابه: حركة رشيد عالي الگيلاني ١٩٤١ - صيدا ١٩٥٠. إلى جانب سذاجة اقتراحات هذا الرجل ورغم أنه دوّن كتابه بعد تسع سنوات من الحركة واتضاح حقائق كثيرة، فقد أبى إلا أن يعايش القارئ تفكيره في تلك الأيام، ولذلك نجد في كتابه ظلالاً عميقة من الحقائق بلغ من وضوح بعضها أن تكاد تُلمس باليد، لاسيما وصفه بعض الوقائع التي كان فيها شاهداً واستعراضه نفسيات بعض رجال السلطة وموقفهم عند غلبة العواطف عليهم. لذلك تجاهل أو كاد أولئك الذين تحمسوا في الدفاع عن كارثة مايس. إلا أن محمود الدرة (المرجع السالف، ص١٥٤) يذكر أنه طلب لسيده المفتي من الألمان مبلغاً قدره مليون پاون استرليني فعاد خائباً.

ذلك اقتراحاً غريباً إن دلّ على شيء فعلى جهله بالوضع السياسي والعسكري الراهن أيضاً، أو ربما عن ايمانه بما دار من قول في تلك الدائرة الضيقة عن قوة الجيش العراقي: فاقترح أن تحقيق استقلال العراق(!) و سورية وفلسطين إنما يتم بتقوية الجيش العراقي. كما زعم أنه اقترح على الكتلة الوقوف على الحياد التام بين الطرفين المتحاربين.

ولم يذكر كيف يمكن أن يتحقق تقوية الجيش وكيف يمكن اتخاذ موقف الحياد بوجود القوات البريطانية الفعلي في البلاد الناطقة بالعربية. كما أكد حسب زعمه ضرورة التقرب إلى الاتحاد السوڤياتي، إذ يمكن أن يكون ذلك ورقة رابحة بيد العرب تدفع ألمانيا إلى الاستجابة للمطالب العربية[٢٨]. وينتهي كمال عثمان حداد إلى القول:

«اجتمع أقطاب التجمع القومي العربي إثر ذلك وأصدروا قرارهم هذا، إن هدف حركة القومية العربية هو تحرير العالم العربي وتوحيد أجزائه كافة وإنشاء نظم سياسية واقتصادية واجتماعية فيه أعدل وأصلح من النظم الراهنة، تستهدف ترقية مستوى الشعب وزيادة رفاهه المادي والمعنوي وجعله قادراً على المساهمة في العمل لخير المجموع البشري. وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلاّ بوجود برامج مفصلة تتناول حياة العرب في مختلف النواحي وترسم ما يجب أن يُعمل في كل منها لبلوغ الهدف المطلوب، لكن البرامج المفصلة وحدها لا تكفي وما كانت يوماً لتنفيذ نفسها بنفسها، لذلك يجب أن يقوم على تنفيذها حزب قومي عربي عام يدعو إلى الإصلاح ويعمل له ويسعى لتولي الحكم وتسييره حسب المنهج القومي ويقف عند إنشاء حزب قومي عربي في أقرب فرصة ممكنة»[٢٩].

ويظهر أن تلك الـ«أقرب فرصة ممكنة» لم تحن قط. فالفرصة واسمها فرصة قد تعنُّ أو لا تعنّ وإن جاءت فلمرة واحدة على الأغلب ولا أكثر. والإمكان يحدده العزم والقابلية والمقدرة. والقرب والبعد أمران اعتباريان تحددهما الظروف والإرادة وهؤلاء الذين اجتمعوا ببغداد ليحددوا المطالب القومية ولتحرير العالم العربي. ولتأسيس حزب يقوم بهذه المهمة العظيمة بقوة الجيش العراقي لا شك أنهم اختاروا أسوأ الأوقات

---

(٢٨) المرجع عينه، ص٨١-٨٣.

(٢٩) المرجع نفسه، ص٨٤.

للشروع في حين يقضى على مظاهر المدنية والتراث التاريخي يُسحق سحقاً بسُرفات دبابات الحرب الخاطفة، ومعالم الحضارة البشرية تُدمر تدميراً وتُهدم على رؤوس مبدعيها بآلاف الأطنان من القنابل المنثالة جواً وأرضاً وفيما تستعد الفرق العسكرية بملايين من المحاربين لشن أعظم حملة عرفها التاريخ البشري. ثم ماذا يعني التقرب من الاتحاد السوڤياتي وقتذاك؟

من المسلّم به أن زعماء حركة مايس وكذلك الأستاذ حداد كانوا يجهلون قرار هتلر بالشروع في عملية بارباروسا[٣٠] بهدف القضاء على الاتحاد السوڤياتي بحرب خاطفة. وأن استعدادات القيادة الألمانية العليا لها كادت تبلغ أشدها تماماً عندما حُرِّك الجيش العراقي لتطويق القاعدة الجوية البريطانية في الحبانية.

لكن كان معروفاً للعالم بأسره إذذاك أن الاتحاد السوڤياتي وألمانيا النازية كانتا وقتذاك مرتبطين بمعاهدة عدم اعتداء، وأنهما راحا منذ البداية يسابق أحدهما الآخر في التهام أكبر عدد ممكن من الدول والشعوب والقضاء على استقلالها. فما هو نصيب البلاد الناطقة بالعربية من كل هذا في عالم قد يحظى برسمه نصر لهما؟ أما كان هناك احتمال باتفاق آخر شبيه باتفاق سايكس - بيكو - سازانوف؟ ما الذي جعل هؤلاء يمضون في آخر الشوط، إن كانوا حقاً يعملون للقضية العربية لا لأنفسهم[٣١].

يذكر المؤرخون لتلك الفترة أن العقداء الأربعة أرغموا طه الهاشمي على تقديم استقالته ولم يفلحوا مع الوصي في إسناد الرئاسة لمرشحهم الگيلاني، وأن الوصي هرب مع زعماء الطبقة الحاكمة الموالية، وأن رئاسة أركان الجيش أذاعت بيان نبأ إسناد الحكومة للگيلاني الذي قام بتأليف وزارة دعيت بـ(حكومة الدفاع الوطني)، وأن هذه

---

(٣٠) ذو اللحية الحمراء (Barbarossa) وهو اللقب الذي عرف به إمبراطور ألمانيا فردريك الأول (١١٢٣-١١٩٠) الذي أتمّ توحيد ألمانيا باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد غرق أثناء ما كان يقود الحملة الصليبية التالية.

(٣١) انظر ما سبق في هذا الفصل، ما كان خفياً حينذاك أنه وبعد أسبوعين فحسب من تصريح ٢٣ تشرين الأول أن اجتماعاً سرياً جرى بين مولوتوف رئيس الوزراء الروسي وريبنتروب وزير الخارجية الألماني في برلين، حاول الأخير منهما خلاله تشجيع السوڤيات على مد نفوذهم نحو الخليج الفارسي والبحر العربي وآسيا الوسطى، إلا أن مولوتوف لم يقتنع، بل وضع أمام زميله ادعاءه (التاريخي) بفنلندا والدردنيل ورومانيا ومجال نفوذ في بلغاريا. ففي ذلك الحين لم يكن الاتحاد السوڤياتي ينظر إلى الخليج والبحر العربي إلا كأهداف من الدرجة الثانية.

الحكومة دعت المجلس النيابي في العاشر من نيسان ١٩٤١ لخلع الوصي ونصب وصي آخر محله.

لكن كل ذلك لم يكن كافياً للخروج من المأزق. كان الساسة الحاكمون الجدد وربما العقداء أيضاً يعلمون بأنهم قطعوا الجسور التي تصلهم ببريطانيا في حين لم يفلحوا مقابل ذلك في مد جسر ثابت واحد مع دول المحور. وسنكون بدرجة كبيرة من قصر النظر لو قدّرنا في حكام العراق القوميين درجة من الغفلة والتبلد الذهني، بحيث لم يدركوا أثر تصريح تشرين الأول بأن ألمانيا ليست مستعدة بأي حال لتغيير خط سيرها أو تعديل منهاجها الحربي والسياسي حباً في البلاد الناطقة بالعربية أو بشعوبها عموماً كما جاء في التصريح. ولا في سبيل زمرة صغيرة في بلد صغير بعيد عن الساحة التي تدور فيها أخطر المعارك الحربية والسياسة لا أهمية ستراتيجية له في عملياتها المقبلة. ثم إن البلاد الناطقة بالعربية هي مجال نفوذ إيطالي صرف وألمانيا في غنى عن إثارة شك عند حليفتها بتصريح يخالف مقاصدها.

أن تعلن دولة عظمى موقفها السياسي منك ومن مطالبك بهذا الشكل الصريح فتتيح لك مجال الاختيار، وتفتح أمامك باب المراجعة والتراجع رحباً؟

مثل هذا الحظ لا يواتي القيادات السياسية أو الزعامات القومية أو الوطنية دائماً. الا أن حكام بغداد لم ينتهزوا الفرصة وظلوا يمسكون بذيل الحصان النافر حتى عزم البريطانيون على التخلص منهم والعمل على إعادة مشايعيهم من أفراد الطبقة الحاكمة بأي ثمن. كم كانت حكومة الگيلاني وعسكريوها يفكرون حينذاك بالمصلحة القومية وبمصير العراق وأهله؟

عندما أبدل السفير البريطاني بآخر وعندما بات في حكم المؤكد أن القوات البريطانية التي نزلت البصرة سيتم تعزيزها ومضاعفتها وأنها نزلت لتبقى لا لترحل، أدرك هؤلاء أن أيام المجد والتمتع بالسلطة باتت معدودة[٣٢]. وازداد ضغط المفتي

---

(٣٢) السفير الجديد السر كيناهان كورونواليس كان أحد خلصاء فيصل الأول المقربين وهو الذي اختارته الحكومة البريطانية لمرافقته إلى العراق من الحجاز. بقي مستشاراً لوزارة الداخلية منذ العام (؟) حتى (؟) عندما أصر الگيلاني على طرده وعدم تجديد عقده لخلاف شديد بدأ منذ ١٩٣٣ حول معالجة المشكلة الآشورية انقلب إلى عداء مستحكم. لم يكن الگيلاني يحتاج إلى دليل آخر ليدرك ما ينتظره لذلك بدأ يلح إلحاحاً شديداً على السفير الجديد بتقديم أوراق اعتماده للوصي الجديد فيلجأ هذا إلى التسويف والمماطلة. إلا أن الدليل الآخر الذي أزال كل =

واللاجئين الفلسطينيين على العقداء الأربعة، فلا أرض بعد العراق تحميهم من السخط البريطاني، بله من انتقام الطبقة الحاكمة العراقية المزاحة ورد الكيل مضاعفاً. لم يبق غير احتمال واحد. ماذا لو حاولوا وضع دولتي المحور أمام الأمر الواقع بالمخاطرة بمواجهة عسكرية مع عدوتهما تؤدي بالنتيجة إلى تدخلهما السريع عسكرياً؟ وبكلمة أخرى وضع العراق وشعبه على خط النار، وجعله ساحة أخرى من ساحات الحرب العالمية الثانية. إن نصيب استنتاجنا هذا من الصحة يستند إلى الدلائل التي سنوردها الآن وإلى درجة اقتناع القارئ بها. أثبت الدكتور إرنست فون ڤايسكر المدير العام لوزارة الخارجية الألمانية في مذكراته دهشة الألمان من التعرض العراقي لمعسكر الحبانية:

«نحن كالإنگليز أُخذنا على حين غرة بحركة مايس ولم تكن لدينا أية خطة أو تفاهم مسبق مع الگيلاني بهذا الصدد»[٣٣].

وأكد (السر رايدر بوللارد) السفير البريطاني في طهران جهل الألمان التام بالمواجهة برسالة بعث بها لوزارته.

«دلائلنا تثبت أن الالمان هنا فوجئوا بحركة الگيلاني»[٣٤].

ويذكر المؤرخ كريستوفر بكلي:

«وقتذاك لم تكن توجد دلائل واضحة حول درجة صلة رشيد عالي ببرلين، إلا أن الدلائل تؤكد أنها لم تكن وثيقة. فمعيار الإسناد الجوي الألماني للحركة يثبت بأن هتلر والقيادة العامة الألمانية لم يكن بوسعهما استثمار الفرصة في العراق. ومع هذا فإن رشيد عالي طلب من الدكتور گروبا مساعدات عسكرية، فأعلمه هذا أن ألمانيا لا تستطيع تقديم أية مساعدة مالم تبدُ بشائر النصر في اليونان ويتم طرد البريطانيين منها. وفي اليوم الأول من أيار أعاد رشيد طلبه مرة أخرى، فقدم گروبا شروطاً لها وهي: السيطرة على السكك الحديد. ونقل النفط من كركوك إلى ألمانيا، ووضع جميع حقول النفط تحت

= شك هو قيام السفير في (؟) من نيسان بإبلاغ الحكومة العراقية بأن قوة بريطانية أخرى بحجم لواءين هما في طريقهما إلى البصرة.

(٣٣) مذكرات إرنست فون ڤايسكر (The Memories of Ernst Von Weisaeker).

(٣٤) وثائق الخارجية. في ١٥ نيسان. من السفير البريطاني في طهران إلى وزارة الخارجية: F.O. 371-27064 E- 1465.

تصرف ألمانيا فوافق رشيد عالي»[٣٥].

وهذا دليل آخر:

في (٢٥) من أيار حين كانت حكومة الگيلاني تلفظ آخر أنفاسها والقادة يتهيأون للهرب، أصدر هتلر أمراً توجيهياً للقيادة العليا الألمانية برقم (٣٠) جاء فيه هذا:

«قررت تشجيع التمخضات السياسية في الشرق الأوسط، بمساندتي العراق بإرسال هيئة عسكرية مع عدد قليل من الطائرات والأسلحة للعراقيين، وسواء في الأمر إن أمكن (إن كان الأمر كذلك وبأية وسيلة) فشنّ هجوم على قناة السويس بعد طرد البريطانيين من موقعهم بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي - إلا أن ذلك لا يمكن تقريره إلا بعد إنجاز عملية بارباروسه»[٣٦].

---

(٣٥) خمس فضائل "Christopher Buckly "Five Vertues. London, 1977. ص٨٥.

(٣٦) اخذت هذا النص من كتاب وليم شايرر (The Rise and Fall of The Third Reich) الطبعة الرابعة عشرة، نيويورك١٩٦١. ص١٠٨٦. وهي مقتبسة من (Fuhrer Conferences On Noval Affairs) ط لندن، الص ٥٠-٥١، الأميرالية البريطانية. وقد جاء الأمر التوجيهي المذكور برقم ٢٥ أيار ولكن بتاريخ ٣٠ من أيار بشكل يختلف قليلاً وبتفصيل أكثر في الجزء الثالث من كتاب (الحرب العظمى الثانية) بقلم ونستن چرچل بهذه العبارة: «إن حركة حرية العرب في الشرق الأوسط هي حليفتنا ضد بريطانيا، وعليه فإن قيام ثورة في العراق له أهميته الخاصة. إن ثورة كهذه تمتد خارج العراق لتظاهر الجيوش التي تحارب بريطانيا في الشرق الأوسط وتؤدي إلى عرقلة خطوط مواصلاتها فتحدث شللاً فيها وتضعف من طاقة الشحن البحري البريطاني فتؤثر تأثيراً سيئاً على وضعهم في ميادين الحرب الأخرى. لذلك قررت دعم حركات الشرق الأوسط بمد يد المعونة إلى العراق. أما إمكانية ذلك، والطريقة التي سيتم بها فأمر لا يزال في طيّ الغيب، لأن ذلك لن يتحقق إلا بعد نجاح الهجوم على قناة السويس.» ورغم وجود خلاف جوهري بين النصين فإنهما يفصحان معاً عن قلة اهتمام هتلر والقيادة الألمانية بما يحصل في العراق بدليل جهلهما بالنتيجة المأساوية التي آلت إليها وقت صدور هذا الأمر. نقول: مع الأهمية الخاصة التي تعزى لتاريخ چرچل عن الحرب العظمى، فقد وجهت إليه مطاعن تتعلق بعدم دقته في سرد الوقائع والأحداث وتصرفه الشخصي في انتقاء ما يعجبه من فقرات من الوثائق التي استخدمها. واستعجاله في إثبات روايات معينة معتمداً فحسب على ما تعيه الذاكرة منها. وأقرب مثل لذلك ما جاء في الوثيقة التي نقلنا منها قوله: «هبط في مطار بغداد الضابط الألماني الذي أنيط به إنجاح عمليات قوات المحور الجوية في العراق وفي رأسه رصاصة أصابته من حلفائه بطريق الخطأ. وهو ابن الفيلدمارشال فون بلومبيرگ. لكن خلفه الجنرال فيلمي (Filmy) كان أسعد حظاً من سلفه فقد هبط في بغداد سالماً ولكنه لم يوفق في عمل شيء».

نقول: الرائد إكسل فون بلومبيرگ كان يقود واحدة من طائرات مسز شميدت المقاتلة القاصفة =

من جهة أخرى كان يبدو من العقداء الأربعة شيء شبيه بالثقة المطلقة في صمود الجيش العراقي أمام القوات البريطانية. على الأقل طوال فترة مناسبة يثبتون فيها للمحور أهميتهم الستراتيجية ليرغموه على التدخل والمساعدة وبكل جهل منهم بما خططه هتلر لغزو الاتحاد السوفياتي.

هذه الثقة تكشف عنها الرواية التالية يرويها الملازم إسماعيل العارف قال:

عُينت رقيباً على المحادثات الهاتفية من بين ضباط آخرين يؤدون المهمة في بدالة الهاتف المركزية الواقعة في شارع الرشيد بمحلة السنك ببغداد. وفي ذات يوم سألني أحد عمال البدالة ما إذا كنت أرغب في التنصت إلى محادثة تلفونية بين رئيس الوزراء رشيد عالي الگيلاني وبين العقيد صلاح الدين الصباغ. فطلبت منه أن يفتح لي خط الرقابة للاستماع إلى ذلك الحديث، وقد جرى على الشكل الآتي:

رشيد: صلاح بگ! علمت أن الإنگليز قد أنزلوا قطعات إضافية دون موافقتنا هل عملتم شيئاً ضدهم؟

صلاح الدين: نعم رشيد بگ! إننا على علم بذلك وأرجو أن لا يشغلك الأمر وسنلقيهم في النهر ركلاً بأرجل الجنود.

رشيد: صلاح بگ! المسألة مهمة تحتاج إلى إجراءات فورية وأرجو أن تبادروا إلى تنفيذ شيء قبل أن يوطدوا أقدامهم.

صلاح الدين: إطمئن رشيد بگ! كل شيء سيكون على ما يرام وقد أصدرت

= الثلاث التي وصلت بغداد في ١١ أيار. ولم تُنط به مسؤولية كتلك التي عزاها إليه چرچل. أما الجنرال فيلمي فلم تطأ قدمه أرض العراق وإنما وصل حلب بعد هروب القادة والزعماء. واقتصر عمله على إخلاء المجاهدين الفارين وتأمين إيصالهم إلى ألمانيا ومن بينهم القائد الفلسطيني فوزي القاوقچي الذي كان قد أصيب بجراح بالغة.

وبالمناسبة أيضاً فإن السيد طالب مشتاق، أحد المشاركين في حركة مايس زعم في مذكراته «أوراق أيامي» بيروت ١٩٦٨، الص ٣٩٧: «إن الميجر فون بلومبيرگ قُتل في أثناء معركة جوية!» وهو لا يتفق مع التحقيق الرسمي الذي جرى. وكل ما في الأمر أن مطلق الرصاص هو عريف في المطار حسب الطائرة إنگليزية. إذ لم يكن للعراقيين عهد بالطائرات ذات الجناح الواحد، إلا بعد أن ظهرت البريطانية منها في سماء بغداد لأول مرة. وقد نُعي الضابط في الإعلام الألماني بهذا الشكل.

الأوامر إلى قطعاتنا بالبصرة لمقاومة الإنزال وضرب القطعات البريطانية.

وانتهى الحديث عند هذا الحد. وأطبق الطرفان سماعتيهما فهالني حقاً ما سمعت وبدا لي أن الأمر خطير لا يسمح بمعالجته بهذا الأسلوب[٣٨].

كان هذا في أواخر نيسان على الأرجح كما يدل عليه موضوع المكالمة. إلا أن (كمال عثمان حداد) ينقل لنا صورة أخرى مماثلة بعد مضي ١٥ يوماً على القتال غير المتكافئ وتحقق النتيجة. قال وهو شاهد عيان:

«حصلت مشادة كلامية عنيفة بين رشيد بگ والقائد صلاح الدين. كانت نظرية هذا الأخير أن الألمان اكتسحوا اليونان وأخذوا يتقدمون في الجزر الجنوبية مثل (كريت) وغيرها وأنهم لا محالة سينزلون قوات مهمة في سورية، وأنه يجب الصبر والثبات ورفض مفاوضة الإنگليز وإلا فسنخسر الجانبين (القصد هنا انه الاستسلام). أما رشيد بگ، فقال: أنا لست بالرجل العسكري لكن خمسة عشر يوماً مضت على الحركات وأنتم تهددونني كل يوم بالتسليم. ثم إننا اتفقنا على سياسة معينة. ولم نعد ألمانيا بالحرب إلى جانبها. وهذه فرصة مناسبة للعودة إلى ما اتفقنا عليه من سياسة الحياد التام ومفاوضة الحكومة البريطانية للاعتراف بحكومتنا كحكومة البلاد الشرعية. وأصرّ رشيد بگ على موقفه وغضب القائد صلاح الدين الصباغ وأخرج مسدسه بحركة عصبية فحال دونه السيد السبعاوي. وفهمت أن (البرقية) مزقت وأن رشيد بگ مصر على الاستقالة. وما هي ساعة حتى هرع القواد جميعهم لاجتماع عقدوه ودعوا إليه سماحة المفتي ورجوه استرضاء رشيد بگ. وكانت مهمة شاقة حاول فيها المفتي إقناعهم بقبول شروط تركيا. فاعتذر صلاح الدين عما بدر منه، وقال يجب أن لا نسرع في عقد الصلح مع الإنگليز فإنهم البادئون بالعدوان ومن الضروري أن نستمر في المقاومة شهرين أو ثلاثة أشهر لنرى ما يستجد من الأمور وما سيؤول إليه الهجوم الألماني العتيد في جزيرة (كريت) فإني أرى

---

(٣٨) إسماعيل العارف، أسرار ١٤ تموز، ص٣٨. وبالمناسبة تذكرني هذه المحادثة بعبارة وردت في خطبة نورالدين الأتاسي رئيس الدولة السورية في ذكرى احتفال بمولد حزب البعث العربي الاشتراكي تاريخ ٧ نيسان ١٩٦٧ ألقاها من ستاد يوم جمعة دمشق قوله: سنجعل من جنود الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط طعاماً للأسماك.

الألمان لن يتخلوا عن احتلال سورية والتقدم منها نحونا وربما تخضع تركيا لهم وتتغير الأحوال». [٣٩]

* * *

يقول علي محمود الشيخ علي:

«كان (المعروف) أن العراق قد ضمن مساعدة دول المحور قبل أن توارد في القتال، حتى أن القائد صلاح الدين وفي اجتماع مجلس الدفاع الأعلى يوم ٢٧ نيسان ١٩٤١ أعلن أن سماء العراق ستكتظ بالطائرات الألمانية في الدقيقة التي تنطلق فيها أول طلقة بريطانية ضد العراق[٤٠]. . . وكان رئيس الوزراء يثق بما يثق به الجيش، ويثق الوزراء بما يثق به رئيسهم، ثم يثبت أن هذه الثقة المتسلسلة خاطئة. فلم تكن هناك معاهدات أو اتفاقيات أو عهود أو مواثيق لا سياسية ولا عسكرية بين دول المحور وحكومة العراق، وليست هناك خطة مشتركة عن الاصطدام وكيفية توقيته وعن وجود المعاونة وصور المساعدة. ولو كان لوزراء يعلمون بعدم وجود النصير وعجز الجيش وضعف القيادة لتبدلت آراؤهم ولكانوا أكثر اعتدالاً ومرونة. أما مصدر الثقة فهو المفتي نفسه، فقد ثبت أخيراً أن للمفتي الأثر الأقوى في تنمية هذه الثقة في صدور قواد الجيش ورئيس الوزراء. وكان في أيام الاصطدام كثير الاتصال بهم واسع النفوذ عليهم بدرجة أن كلمة واحدة منه كانت كافية لإلغاء أخطر قرار يتخذه مجلس الوزراء»[٤٠].

مع ذلك كله كان صاحب هذه المذكرات يرى الحرب ضرورية لا مناص منها:

«كان من الضروري أن يقرر مجلس الوزراء (الحرب) لأن بريطانيا أصبحت عدواً بالنظر لعدوانها، وأن ألمانيا وروسيا كلتاهما (كذا) كانتا عدواً (كذا) لبريطانيا، ولأن عدو عدوي داخل في صداقتي، وهو مثل بليغ في مغزاه واضح في معناه لا تستغني المجتمعات البشرية عن اكتفاء حكمته ولا بد من

(٣٩) العبارة بين القوسين الكبيرين هي لنا، والبرقية التي ورد ذكرها هنا هي كما يذكر المؤلف برقية الشكر التي نظمت جواباً على عرض الحكومة التركية وساطتها على حكومة الگيلاني. ومنها إشارة إلى قبول العرض مبدئياً. (يبدو وزير العدلية هنا وكأنه لا يدري شيئاً عن تصريح ٢٣ تشرين أو لم يسمع به).

(٤٠) علي محمود الشيخ علي: المذكرات ص٦٩ بيروت ١٩٦٧.

الاهتداء بهديه في كل عصر ومصر»[٤١].

فيكون رسم المواقف السياسية وتحديد علاقات الدولة الخارجية وكيانها كله بالحكم الشعبية والأمثال والأقوال المأثورة في عرف أستاذنا (الشيخ علي)[٤٢].

ويصف الوزير الآخر الدكتور محمد حسن سلمان الموقف الحربي في مذكراته وهو غير عسكري بهذا:

«لم يتخذ إجراءات كافية لحماية تلك القطعات (المحاصرة لقاعدة الحبانية) فلا خنادق لحماية الحدود ولا تغطية جوية ولا خطة عسكرية سوقية واضحة لأي عمل عسكري وكان الوضع سائباً وإلى آخر درجة من الإهمال. وهاجم الطيران الإنگليزي معسكر الرشيد مستهدفاً أهم المراكز الستراتيجية ومرابض الطائرات ومخازن الذخيرة والعتاد والوقود وغيرها من الأهداف المهمة. ومما جعل النصر بعيد المنال مع الأسف تناقص العتاد واختلال التموين وازدياد التذمر والفوضى بين قطعات الجيش وكانت الخسائر فادحة»[٤٣].

الرئيس الأول الركن محمود الدرة - وكان كما ذكرنا يشغل منصب معاون آمر الحركات لدى العقيد صلاح الدين الصباغ - يصف ما حصل في أول يوم من بدء القتال:

«في صبيحة يوم ٢ مايس ١٩٤١ حلّقت حوالي خمس وأربعين طائرة وبدأت بقصف القوات العراقية من مواقعها الدفاعية. فاضطر العراقيون إلى فتح نيران مدافعهم على قاعدة الحبانية. واستمر القصف الجوي على القوات العراقية بسنّ الذبان تسع عشرة ساعة في اليوم الأول، وفي الأيام الأربعة التي تلته لم تتحرك القوات العراقية من مواقعها الدفاعية، بل لم تقم قيادتها في الفلوجة بتنفيذ خطة إزاء القصف الجوي. وتركت لكل قطعة من قطعاتها حرية العمل من غير تنسيق»[٤٤].

---

(٤١) كذا: ص٤٤.

(٤٢) كذا: ص٦٣.

(٤٣) كان من المقرر أن يكون رشيد عالي الگيلاني أستاذنا المحاضر في مادة قانون العقوبات (القسم الخاص) إلا أننا لم نر وجهه وأناب عنه علي محمود الشيخ علي، ولم يبق هذا طويلاً إذ افتقدناه بعد فشل الحركة وسجنه. كانت ساعات دروسه الأخيرة على ما أذكر شرح موقف الحكومة الحازم من مطالب إنگلترا التعجيزية.

(٤٤) «صفحات من حياة بيروت» ١٩٨٥، الص ١٥٦ وما بعدها.

في اليوم السابع من مايس ترك العقيد كامل شبيب الجبهة إلى بغداد وهو شبه مجنون كما وصف أصحاب المذكرات حالته، وأصرّ الگيلاني على إعدامه (والعهدة في هذا على قول أصحابه) بجريمة الفرار من جبهة القتال، ولكن الوزراء الآخرين توسطوا له. ويقدم لنا علي محمود الشيخ علي له وصفاً آخر له مشيناً:

«إن ضربة سنّ الذبان قد أثّرت في نفسية هذا القائد كامل شبيب تأثيراً فظيعاً حتى تركته لا يبدي ولا يعيد. ولقد رأيته في مقر القيادة الغربية قابعاً في زاوية في غرفة صلاح الدين (الصباغ) منفوش الرأس جاحظ العينين باهت اللون لا يعقل ما تحدثه به، ولا يجد جواباً إن ألقيت عليه سؤالاً من شدة الذهول. وقد كانت الأوهام تنتابه انتياباً مروعاً حتى إنه قفز فجأة إلى الشباك وأخذ يسدل الستائر بإحكام خشية أن تهاجم الطائرات البريطانية، فتلقي قنابلها على الغرفة التي يقيم فيها جنابه»[٤٥].

واتهم الصباغ صديقه الآخر العقيد فهمي سعيد (موضع سره وثقته) بمخالفة أوامر القيادة وأُحضر إلى بغداد وحار (الصباغ)، الذي كان يتولى القيادة العامة وإدارة العمليات، ماذا يفعل به. ثم أصدر أمراً بتعيينه قائداً للفرقة الخامسة التي لا وجود لها إلا على الورق[٤٦].

أما وزير الخارجية موسى الشابندر فقد اختفى عن الأنظار بنهاية الأسبوع الثاني وفشلت الجهود في العثور عليه. ثم عُلم أنه رحل إلى الموصل بمعية الوزير الثاني محمد علي محمود وصعب عليهما فيما يبدو الشخوص إلى تركيا، فعادا إلى بغداد ليرحلا إلى خانقين. وفي ٢٧ من مايس اجتازا الحدود إلى إيران.

وفي اليوم السادس عشر - كما يذكر بعضهم - هرب ناجي السويدي وزير المالية، وهو الرجل الذي وضع مواهبه القانونية في خدمة الكتلة الانقلابية لإكساء

---

(٤٥) المرجع السالف، (الدرة)، ص ٢٦٨-٢٩٩. تم انسحاب القطعات العراقية الكامل من مرتفعات الحبانية في السادس من مايس (أيار) بعد الغارات الجوية والقصف المدفعي، ولم تقع مواجهة معركة بين القوات الأرضية تستأهل نعتها بهذا الوصف.

(٤٦) شكلت الفرقة الخامسة في عهد عبدالكريم قاسم (المعلومات التي أوردناها هنا عن مصائر قادة مايس وأحوالهم في هذه الفترة وردت في سائر المراجع التي اعتبرناها هنا ولم تكن سراً في أي وقت، لهذا انتفت الحاجة إلى إثبات مصادرها. كانت الأوامر تكتب باسم رئيس أركان الجيش ووزير الدفاع الغائبين، وتُذاع في غيابهما على الأغلب).

عملية خلع الوصي وتشكيل الحكومة الگيلانية ثوباً دستورياً. وفي إيران قبضت عليه السلطات البريطانية مع الآخرين الذين لم يفلحوا في التسلل إلى تركيا[٤٧]. وفي اليوم الثامن عشر تعلل الدكتور محمد حسن سلمان وزير المعارف بمرض لم يجد له علاجاً في بغداد. فغادرها إلى بيروت بإجازة مرضية ومنها التحق بالگيلاني وبباقي الجماعة في برلين. وفي نهاية الأسبوع الثاني من هذا الشهر القومي العظيم رأى الگيلاني أن يتحول من التفكير في مصير بلاده وفي حمايته من المستعمرين إلى التفكير في مصير عائلته وفي حمايتها. فسفّر زوجه وابنه وبناته إلى (أنقره) وكذلك فعل الوصي الجديد (شرف). وسارع رئيس أركان الجيش بالوكالة الفريق أمين زكي في التاسع والعشرين منه للانضمام إلى العقيدين الهاربين (قيل إنه كان قد هيأ سيارة خصوصية منذ نهاية الأسبوع الأول لهذا الغرض).

كان هذا الضابط الذي يعلو العقداء الأربعة بثلاث رتب قد لازم منزله، تاركاً إدارة العمليات والحركات (للصباغ)[٤٨]. لم يعتبره المؤرخون القوميون بطلاً فقد اشترى حياته وأنقذ عنقه بوصف نفسه بالدابة والبهيمة أمام حكامه، فخسر بالمقابل لقب الشهيد. وكان السبعاوي آخر من رحل، قالوا إنه رجل في الواقع أبى أن يترك العاصمة وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً. واعتزم الدفاع حتى النفس الأخير بكتائب الشباب التي كان يترأسها وبعض الوحدات العسكرية المرابطة، لكنه أدرك رفاقه واجتازوا الحدود معاً. هربوا بهدوء تام دون أن يشعر بهم أحد، وفق خطة ناجحة من دون كل ما خططوا في مجال إدارة الحرب تحت غطاء اعتزام مواصلة القتال في خطوط دفاعية مهيأة شمال

---

(٤٧) هذا الفقيه القانوني الذي تقلبت به الوزارات، وكان رئيساً للحكومة عام ١٩٢٩ وواحداً من أعضاء اللجنة التي أعدت لائحة الدستور العراقي. يذكر شقيقه (توفيق) عن تورطه في حركة مايس هذا القول: إنه أقدم على خطوة رهيبة باشتراكه في حكومة رشيد عالي وتحمله نتائج أعمالها التدميرية، فقبض عليه في إيران وسيق مع جماعة كبيرة إلى المنفى حيث اختلت صحته واستسلم لليأس القاتل وتوفي في ١٩٤٢ في سالسبوري (من أعمال روديسيا = زمبابوي الحالية) كتاب (وجوه عراقية، دار الرياض للنشر). ويزيد الكاتب العراقي مير بصري على هذا قوله: ولعل من غرائب القدر أن ناجي السويدي، وهو السياسي المحنك المتزن قد اشترك في حكومة الدفاع الوطني وناصر الحرب التي بدت يائسة لا مخرج منها (إعلام السياسة في العراق الحديث، لندن، دار الرياض، ص١١٦).

(٤٨) كان الصباغ يوقع عنه أوامر الحركات ويصدرها باسمه في أغلب الأحيان ومن دون علم وزير الدفاع ناجي شوكت، الذي آثر البقاء في تركيا.

مدينة كركوك. وإشغال ضباط الوحدات بالاستعداد لها[٤٩].

قال كتاب تلك الفترة ومؤرخوها، ولا سبيل لنا إلا تصديقهم، إن الصباغ ظل ملازماً غرفته في وزارة الدفاع طوال ذلك الشهر العصيب لا يخرج منها لتفقد قطعات الجيش، خلاف ما طُبع عليه خلال السنوات الماضية من حركة دائبة وزيارات متتالية لمعسكراته والاجتماع بضباطه وإلقاء دروس في الوطنية والقومية عليهم. وهو يؤيدنا في ذلك، فليس في مذكراته التي خلفها ما يشير إلى زيارة واحدة قام بها.

في أي مرتبة نضع هؤلاء القادة الذين نُعتوا بالأبطال والشهداء في المراتب التي هيأها التاريخ للذين دخلوه بالحق أو بالباطل؟

كتُب التاريخ تحفل بأخبار قادة عسكريين ومدنيين ناضلوا وعملوا مخلصين متفرغين في سبيل قضية أو عقيدة، فخابوا لكنهم فضلوا إنهاء حياتهم بأيديهم على الوقوع في أيدي المنتصرين. وتطالعنا فيه صور قادة كبار وأمراء جيوش، لم تكن لديهم قضية معينة ولا عقيدة يقاتلون من أجلها سوى أداء لواجب أنيط بهم فشلوا في تحقيقه أو أخطأوا فأخفقوا ولم يترددوا في إنهاء حياتهم. وأقربهم إلينا ربابنة السفن الغارقة بعد إشرافهم على وضع آخر راكب في قارب النجاة وفي مقدور معظمهم النجاة.

ونجد في التاريخ أيضاً أنباء كثيرة عن حكام مستبدين عابثين، تجردوا من كل القيم الخلقية، لكنهم فضلوا الموت بأيديهم على الوقوع في قبضة مطارديهم. فأين زعماء حركة مايس القومية التحررية من هؤلاء؟ وما هو المثل الذي يضربه هروبهم للقوميين العرب اللاحقين؟ وفي أي مرتبة يوضع هؤلاء في سجل التاريخ؟

بالأخير، وبالأخير فقط لم يفكر أحد منهم فيما سيُقال عنه غداً، وبدا وكأن تعلقهم بالحياة يفوق هيامهم بالسلطة والنفوذ. وبكل ما زعموا أنهم نذروا حياتهم لأجله. عندما أخطأهم التوفيق في الاستئثار بالسلطة، راحوا يتشاتمون ويتلاعنون

(٤٩) حدثني الأديب والشاعر الكبير عبدالحق فاضل في حينه، وكان يقضي دورة الضباط الاحتياط في الكلية العسكرية أيامذاك، إن طلاب الكلية كافة حُشدوا ونقلوا إلى محطة قطار كركوك ببغداد وأركبوا المقطورات ومكثوا مسمرين في مقاعدهم ساعات بطولها، ولم يتحرك القطار بهم. ثم قام ضباطهم ومعلموهم بإنزالهم والعودة بهم من حيث جاؤوا. وقد فهموا في حينه أنهم سيشغلون خطاً دفاعياً شمال كركوك. كان ذلك في اليوم التاسع والعشرين. لم تكن أقوال عبدالحق موضع شك عندي مطلقاً. مع هذا فقد أيد ذلك لي عدد كبير من الضباط الذين كانوا طلاباً بالكلية العسكرية آنذاك.

ويرمي أحدهم الآخر بكل نقيصة، وانصب حنقهم على الأموات منهم لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وقذف الآخرين بعين ما قذفوهم به. وأقلّ التهم زمالتهم وقبولهم مسؤولية السلطة معهم.

اني لأعجب مثلاً من قول علي محمود الشيخ علي «ولو كان الوزراء (وهو منهم) يعلمون بعدم وجود النصير وعجز الجيش وضعف القيادة؟» و«أن مصدر الثقة هو المفتي ورئيس الوزراء» وأن «الثقة كانت بدرجة أن كلمة واحدة من المفتي كانت كافية لإلغاء أخطر قرار يتخذه مجلس الوزراء». ألا يدرك هذا الوزير بقوله هذا أنه يتهم نفسه بالقصور وضعف النفس، والجبن وفقدان أي إحساس بالكرامة في وضع مثل هذا؟[٥٠]

وتلك التي سموها بالحرب العراقية - البريطانية. كم يصح أن يطلق عليها وصف «الحرب»؟

لم تكن حرباً بالمعنى الذي تنعت به الحروب من أي وجه نظرت إليها. فالوحدات التي احتلت مواقع في المرتفعات المحيطة بالقاعدة العسكرية البريطانية لم تكن تدري أنها تُستخدم في قتال إلا بعد أن مزقتها الغارات الجوية تمزيقاً.

وهذا الذي وصفه مؤرخو حركة مايس العرب بالخلاف على تفسير بنود معاهدة ١٩٣٠ كان أصلاً خلافاً مفتعلاً. فبصرف النظر عن خلو المادة الخاصة بشرعية وجود القوات البريطانية من أي غموض، كان هناك التواجد العسكري البريطاني المستمر غير المنقطع منذ نزول أول فوج بريطاني ثغر البصرة في العام ١٩١٥، وهو وجود لا يحدد بحجم أو عدد بمائة أو ألف أو مائة ألف، وجود أملته معاهدة دولية. طبقتها الحكومات العراقية المتعاقبة بأمانة، ولم تُقِم أية واحدة منها عقبة أو تثير احتجاجاً حول عدد القوات المتواجدة في قواعد بريطانيا العسكرية بالعراق فليس هناك تحديد لحجم القوات في نص المعاهدة.

ويذكر مؤرخو حركة مايس أنفسهم أن حكومة رشيد عالي نفسها أرسلت وفداً عسكرياً على مستوى عال للترحيب بالوجبة الأولى من الوحدات البريطانية النازلة في البصرة[٥١].

---

(٥٠) راجع المقتبس كاملاً في ما سبق من هذا الفصل.

(٥١) كان يرأسه اللواء الركن صاحبنا إبراهيم الراوي قائد الفرقة الثالثة والميجر جنرال (ووتر هاوس) رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق.

ولم يثر الخلاف المفتعل إلا عندما أدرك زعماء حركة مايس من البناء العسكري البريطاني المتعاظم أن البريطانيين ضاقوا ذرعاً بوجودهم، واستنتجوا، ولم يكونوا بعيدين عن الحقيقة، بأن من أهداف إنزال المزيد من القوات هو بناء القوة التي تضمن للبريطانيين القدرة على إزاحتهم عن السلطة، وموتهم السياسي.

وكل المصادر التي بأيدينا، ومعظمها مؤلفات عربية، كتبها أنصار ومشايعون للحركة ومنهم من شارك فيها عسكرياً، تكاد تجمع بأن القوة الجوية البريطانية حسمت القضية التي سموها حرباً خلال الأسبوع الأول من ذلك الشهر، وما تبقى كان أعمال دوريات يتخللها زحف سريع لا يلقى مقاومة، ومناوشات موضعية تنتهي بانسحاب أمام القوات المتقدمة.

ذات يوم، وبعد مرور سنين عديدة، دار الحديث عن حركة مايس بيني وبين صديق من الضباط العراقيين المثقفين الواسعي الإطلاع - ويا ما أكثرهم - كان ضابطاً صغيراً من الوحدات التي احتلت مرتفعات الحبانية، وهو الآن ذو رتبة قيادية عالية، كان يؤكد لي خطأ كل من سمى ما جرى بالحرب. وفي وقتها كنت في شك من الأمر ولم أشاطره الرأي ربما بوقوعي تحت تأثير التقرير الذي كتبته قيادة الجيش العاشر عن تلك العمليات العسكرية لوزارة الحرب البريطانية، لاسيما عن معارك في الفلوجة. فأسرعت أذكره به، فاجاب مبتسماً:

ان كنت تحسب العسكريين البريطانيين من طينة تختلف عن طينة الآخرين في تجسيم أعمالهم ومبالغتهم في وصف عمليات موفقة سهلة لم تقتض منهم جهداً كبيراً، ولا يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم ولا لعدوهم خسائر كبيرة فيها، فأنت واهم. إنهم كغيرهم لا يستنكفون عن المبالغة والضرب في آفاق الخيال، وها أنت ترى لو أنعمت النظر فيه أنه لم يأت لوصف معركة واحدة، غير اشتباكين صغيرين أحدهما بقوة لا تزيد عن سرية واحدة في الحبانية، والأخرى في الفلوجة بقوة فصيل واحد يقودها عريف آشوري(٥٢).

حدثني ضابط آخر لا أريد التنويه باسمه، وكان ملازماً في الوحدات التي طوقت قاعدة الحبانية، قال إن كثيراً من الضباط والجنود اعتراهم نوع من الهستيريا والخيال بسبب القصف الجوي الشديد المتوالي. وضرب لي مثلاً بضابط تجد اسمه في قائمة

---

(٥٢) Paiforce: (تقرير القيادة المشتركة) انظر الترجمة الكاملة له في الحسني (المرجع السالف).

اللجنة العليا للضباط الأحرار الذين هندسوا وحققوا انقلاب الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ، أُنيطت به قيادات عسكرية هامة واستوزر مرات وبدا في حين من الزمن من غلاة القوميين العروبيين العاملين في سبيل الوحدة. قال صاحبي عنه إنه فقد وعيه تماماً وصار يصرخ ويحاول الخروج من الخندق. ولم يكن ثم وسيلة للسيطرة عليه غير ربطه بالحبال التي نستخدمها لعقال البغال.

وحكاية بطل الرابع عشر من تموز عبدالسلام محمد عارف مع مدرعته في الفلوجة هي حكاية مشهورة، تناقلها زملاؤه حيناً ثم أثبتها بعضهم كتابةً. ومجملها أنه وفي السادس من أيار وعلى إثر انسحاب وحدات الجيش من الفلوجة إلى بغداد، أُرسلت مدرعتان إحداهما بقيادة الملازم (هندي صالح الفلاحي) والثانية بقيادة (عبدالسلام محمد عارف) ووجهتهما الحبانية، فهوجمتا جواً بالقرب من موضع يقال له: القنطرة الحمراء وحطمت قنبلة مقدمة مدرعة الملازم هندي فتركها، فما كان من عبدالسلام وقد رأى ما حل بمدرعة صاحبه إلا أن ترك مدرعته وألقى بنفسه في نهر الفرات فانحدر به تياره إلى الفلوجة. وبقي منتظراً حتى أسره الرتل البريطاني المتقدم مع غيره من الضباط الذين قُدموا للوصي عند عودته. فصاروا يتسابقون إلى لثم يده والهتاف بحياته، وذكر أحد الضباط منهم أنه كان أعلى الأصوات الهاتفة بحياة الملك وشجب أفعال عصابة الگيلاني، حتى أنه جلب إليه أنظار المسؤولين. فصدر أمر تعيينه آمراً للمعتقل الذي ضم المشتبه بتعاونهم مع الحركة من العسكريين[٥٣].

---

(٥٣) التفاصيل في (ست سنوات من تاريخ العراق لخيرالله طلفاح، ص١٥١، ط بغداد ١٩٧٢).
وكان واحداً من المعتقلين الذين أحيلوا إلى التقاعد. راجع كذلك: التاريخ يكتب غداً. (المرجع السالف) ص ٢٢٤.

ملحق

من ذيول حركة مايس

نص إفادة أو اعتراف جاء في استجواب العقيد محمود سلمان أحد متزعّمي حركة مايس (العقداء الأربعة) في القضيتين اللتين وحّدتا (القضية المرقمة أ - ٤١/٢٨٣ والقضية المرقمة ٤١/٢٨٤ التي حكم بها المجلس العرفي عليه بالإعدام في الرابع من أيار (مايس) ١٩٤٢):

«نحن القواد الأربعة صلاح الدين وكامل شبيب وفهمي سعيد وأنا، المتقاربين بالرأي والتي هي النخبة الصالحة لخدمة البلاد صمّمنا أن نسيطر على الإدراة والوضع. وكلما نشاهد شيئاً نعتقده خطراً على البلاد كنا نقرر الإنذار للجيش. وبعد القرار كنا نبلغ رئيس أركان الجيش أحياناً وكنا نجلب رئيس أركان الجيش ونبلغه بقرارنا. وكان هذا من المسالمين ويرغب الهدوء والسكينة لكننا عندما نبلغه بخطورة الواقع يوافقنا وأعني برئيس أركان الجيش أمين زكي سليمان. وإن مقرّراتنا كانت تصدر من قبلنا كهيئة... إن المسيطر علينا هو صلاح الدين الصباغ. وأحياناً كان ينفرد خلسة برأيه بدون عرضه علينا، مثلاً في الحرب التي جرت في شهر مايس ١٩٤١ بين العراق وبريطانيا بلغنا أن تركيا توسطت لعقد صلح بين الفريقين وأن صلاح الدين ذهب مع إبراهيم الراوي لمجلس الوزراء وهو الذي رفض قبول توسط تركيا. وكما فهمنا من جملة كلامه «لا صلح قبل الجلاء» نحن نعهد ونعتقد بصلاح الدين سابقاً بأنه مخلص وقلبه سليم وأحياناً وإنْ ينفرد برأيه، كنا نتداول الرأي ونجبره على الموافقة. وإن صلاح لم تكن له قابلية ليكون زعيماً للبلاد... إن الذي أجبرنا نحن القواد أن نتدخل بسياسة البلاد وإدارتها أولاً للمصلحة العامة وجلّ قصدنا ممانعة الإنكليز الإضرار بالعراق وليس لنا أي مطمع بوزارة وإن الذي أجبرنا على هذه المداخلة هي الظروف التي حلّت بالبلاد منذ أمدٍ بعيد وعدم وجود قوة متوازنة تحمي البلاد حيث تارة العشائر تتدخل وطوراً حروب داخلية تسقط الوزارات. فاعتقدنا أن جميع هذه الطرق سقيمة والأوفق مداخلتنا نحن القواد الأربعة خدمة لمصلحة البلاد» آهـ.

ملحوظة: تكوّن المجلس العرفي الذي حكم قادة حركة مايس من العقيد مصطفى راغب رئيساً والعضوين العسكريين محمد علي سعيد والرائد عبدالله رفعت النعساني ومن العضوين المدنيين القاضيين خليل أمين المفتي وعبدالعزيز الخياط.

الفصل التاسع عشر

(تتمة) الحقيقة في توجيه الشعور القومي العربي. الآثار البعيدة والقريبة. البريطانيون يشجعون المسيرة القومية باعتبارها خصماً لليسار. المد اليساري يكافح بشدة. الوجه الهازل والوجه الماساوي في حركة مايس. ذكريات خاصة وانطباعات شخصية. الزعامات المحلية تتبنى السياسة البريطانية إزاء اليسار وإزاء الأفكار النازية. كتائب الشباب بزعامة يونس السبعاوي خلال شهر أيار. صيد السحرة تعقيب الجواسيس الوهميين وأصحاب أجهزة اللاسلكي. عيّنات من هذه المضاحيك. أكاذيب إذاعة برلين. يونس بحري ورسائله إلى راديو بغداد والشعب العراقي. الخسائر التي مني بها الجيش العراقي. قصف الموصل. خسائر المدنيين. مذبحة الأول من حزيران بيهود بغداد. لجنة التحقيق. المجلس العرفي العسكري لمحاكمة القائمين بالحركة وأعمال النهب. مشاركة المتطوعين القوميين السوريين برئاسة أكرم الحوراني (لجنة نصرة العراق). موقف اليسار العراقي. الشيوعيون يستوحون موقف الاتحاد السوفياتي قبل الغزو. التحرك الكردي على الصعيد السياسي. رفض الكرد العراقيين التعاون مع الكيلاني وعصبته. بعض التحرك السياسي عند المثقفين والوطنيين الكرد. المطالبة بحقوق المواطنة المتساوية. مقاطعة حركة مايس في السليمانية. معسكرات اعتقال جنوب العراق للعناصر الممالئة. انحسار المدّ القومي

لم تهتم حكومات العراق بما يقوله عنها العراقيون قطّ، ولم يهتم العراقيون بما يقرره حكامهم، ولم يكن هناك وسيلة ناجعة لمعرفة ما يريده هذا الشعب وما لا يريده، ما يستحسنه من عمل حكومي وما يستقبحه. وتصدر الأحكام عادة على النتائج والعواقب، يصدرها الكتاب والباحثون كل على هواه وبدرجة تقديره الشخصي لإحساس الجمهور الغالبة. وهو ما نسميه برأي الأغلبية. لكن لم يكن هناك رأي

للأغلبية، إذ لا وجود لأغلبية في مجتمع عُوِّد على الانتهازية، والتصفيق للمنتصر، والبصاق على المغلوب.

كانت هناك أغلبية ساحقة تلوذ بالصمت في أغلب الأحيان، وأقلية ضئيلة صاخبة تحسن صناعة الضجيج دُربت تدريباً خاصاً على النهوض بما يطلب منها في الوقت المناسب، ويسهل عليها حشد الغوغاء وإطلاقهم في مسيرات وتظاهرات، مثلما كان يسهل عليها تنظيم اجتماعات عامة في أماكن العبادة وغيرها من المحلات، ويعامل الخوف من نقمة السلطة برزت ظاهرة الرياء عند وجهاء القوم ومقدميهم، لاسيما عندما يكون التهديد حقيقياً. ومن بين الكثير الذي كتب عن حركة مايس القومية وزعمائها العروبيين وعالج مقدماتها وأسبابها وطابعها القومي ومواقف قادتها ومصائرهم، لم أجد ما ينفع الغلة عن النتائج والآثار في العراقيين عموماً وفي مستقبل القضية القومية خصوصاً. بالأحرى لم يجرؤ واحد من الكتّاب على استعراض ردود الفعل والإفصاح في المجتمع العراقي خلال ذلك الشهر وما بعده.

وموقف الكتاب الذين نقصدهم مستوحى من الموقف الرسمي ومتأثر بخطاه. الجمهور كمية مهملة عند الحكام، فلماذا يكون أمره موضع اهتمام الكتاب؟

الشعب العراقي لا يمارس حقاً دستورياً واحداً من حقوقه ومثله مثل سائر البلاد الناطقة بالعربية، لأنها بعيدة عن صناديق الاقتراع مستبعدة عن صنع القرار لا تفكر حكوماتها باستطلاع رأيها أو استفتائها في قضية عامة اعتزمتها وقررتها. والحكومة تعبئ تلك الأقلية الصخابة وتثير ضجة استحسان حول الموقف الذي اتخذته فيها، لتعود فتقول لنا إنها ما اتخذت ذلك الموقف إلا نزولاً عند رغبة الشعب، ناسيةً أنها هي التي اختارته وأوحت باستحسانه.

كثيراً ما بدت لي أساليب هذه الحكومات في إقرار خطوة طائشة شبيهة بحكاية أشعب[1] (مع اهالي المدينة). وقف مرة على عتبة بيته وراح ينادي في الغادين والرائحين: في منزل فلان الفلاني وليمة مجانية لكل قاصد (فهرع الناس إلى بيت

---

(١) عرف في تاريخ الأدب العربي باسم شعيب بن جبير، وهو من ظرفاء المدينة، توفي في ٧٧١م =١٥٤هـ، وقيل إنه أناف على التسعين، وعرف بالطمع، فلُقب بأشعب الطمّاع، وضرب به المثل فقيل (أطمع من أشعب). أخباره في الأغاني والعقد الفريد ووفيات الأعيان وغيرها من أمهات الكتب العربية.

فلان) ثم مايلبث أن ينسى أنه هو صاحب الكذبة فيُهرع إلى الوليمة الخيالية أيضاً.

وكالحكام العراقيين نسي البريطانيون أنهم أعطوا البلاد دستوراً ديمقراطياً وأن المسؤولية الأدبية التي ضمنها لدولة العراق السر فرانسيس همفريز في قاعة مجلس العصبة العام تقضي بأن تعمل حكومته شيئاً في سبيل الدفاع عن هذا الدستور في وجه منتهكه، وأن تأخذ بيد أولئك الناس البسطاء الذين أخرجوا فجأة من دهاليز القرون المظلمة، إلى شمس القرن العشرين. ولم تختلف أساليب التعبئة الجماهيرية لمساندة حركة مايس عن الأساليب التي اتبعت من قبل في أحوال كهذه، إلا أنها هنا لم تكن موجهة ضد أعداء النظام المحليين: الكُرد والكُرد اليزيدية والآشوريين والشيعة في الفرات، بل كانت ضد المستعمر البريطاني. كما اختلفت أيضاً بطابعها القومي العام الذي خرج عن النطاق المحلي بمشاركة الحركات القومية النامية في بعض البلاد الناطقة بالعربية مشاركة فعلية، وكذلك بظهور القضية الفلسطينية قضية مركزية فيها تبعاً لذلك.

كل هذا من الأمور المعروفة المسلّم بها ولا يحتاج أمرها إلى تفصيل. إلا أن هناك نقاطاً لا يسعني إغفالها أو الإشارة إليها عرضاً. وأول ما أسترعي إليه الانتباه هنا هو الموقف البريطاني من تلك التعبئة الجماهيرية المتسمة بالبلادة والغباء. فمنذ أن بدأت النظرية النازية العنصرية تتسلل إلى الأفكار القومية العروبية لتمتزج بها امتزاجاً عضوياً، بدا وكأن البريطانيين لا يشعرون بخطر هذه المادة المتفجرة عندما يُشعل فتيلها اندفاع قيادات قليلة الصبر، قصيرة النظر، مشحونة بتلك المادة السريعة الاتقاد الضاغطة على أعصاب الزعامات الشرقية، مادة العداء للأجنبي (المحتل) المستعمر.

كان الموقف البريطاني - الفرنسي اللين المتسامح من الغزوة الفكرية النازية - الفاشية للأقطار الناطقة بالعربية جزءاً من السياسة العامة التي اتبعتها هاتان الدولتان الديمقراطيتان طوال السنوات العشر التي سبقت الحرب إن اخترنا أقصر المدد - وهي نتيجة ظاهرتين أولاهما الانطباع الشديد الذي خلفته مآسي الحرب العظمى والخسائر الهائلة التي نجمت عنها في نفوس الشعبين. الأمر الذي كان يحدو بالحكومات المتعاقبة فيها إلى تبني سياسة اجتناب الحرب بأي ثمن. وثانيهما الخطر الآتي من الشرق الأوروبي متمثلاً في الثورة العالمية التي دعت إليها ماركسية الاتحاد السوفياتي ضد العالم الرأسمالي.

قلنا: لم يكن النظامان الفاشيان في نظر الدولتين العظميين مصدر خطر حقيقي

على العالم الرأسمالي في أي وقت من الأوقات، بل حتى في الأيام الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية. فالنظرية العنصرية التي قضت بسيادة العنصر الآري واستئصال اليهود الساميين وجعل القوميات الأخرى خدماً للسيد الآري المتفوق، كانت في نظرهم ثرثرة صبيانية صادرة من رأس ملتاث، وبعكس ذلك فإنهما وجدتا جدية في العهد الذي قطعه هذا الرأس المهووس باستئصال شأفة الشيوعية والقضاء على الاتحاد السوفياتي قلعتها الحصينة، وقد قدم هو والنظام الآخر الدليل على وعده الجازم بتصفية الشيوعيين والاشتراكيين وتنظيف التربة الألمانية منهم خلال سنتين فقط من وصوله للحكم. وإذا كان الأمر كذلك في أوروبا، فلماذا لا تتبع عين السياسة في البلاد الناطقة بالعربية المهددة بخطر تغلغل الشيوعية وغزوة الأفكار اليسارية الماركسية؟

هذه السياسة العامة لم تكن ترى أي بأس في نشاط نازي فاشي داخل البلاد الناطقة بالعربية الداخلة في دائرة نفوذها، ولا في الزواج الذي تم بين أفكار كتاب (كفاحي) وبين الفكر القومي العروبي. وقد وجدنا نوري السعيد الذي عرفه تاريخ العراق الحديث واحداً من أشهر الأمناء على مماشاة السياسة البريطانية وأنصارها في البلاد الناطقة بالعربية - وجدناه يعتمد على عين العقداء الأربعة والضباط القوميين الآخرين لوصوله إلى الحكم في العام ١٩٣٩، بل يتمادى في إرضاء البريطانيين طمعاً في التقرب من القوميين وخطب ودهم. ووجدناه يضم الدكتور سامي شوكت إلى وزارته التي ألفها في شباط من العام ١٩٤٠ وزيراً للمعارف. بل وأكثر من هذا فقد أعلنت وزارته التي شكّلها في العام ١٩٣٩ بنظام جديد للفتوة أكثر دقة وتنظيماً وإحكاماً وشمولية من سابقه وألصقه بالجيش وبوزارة الدفاع. واختار العقيد صلاح الدين الصباغ آمراً مشرفاً على التدريب العسكري فيه وجعله حلقة الاتصال بين وزارة المعارف ووزارة الدفاع، وكان وزيره سامي شوكت يؤم مكتبه الرسمي بثيابه العسكرية مختالاً حريصاً كل الحرص على استخدامه لقب (أمير الفتوة) الجديد في توقيعاته وكتبه الرسمية.

وتم في عهد نوري السعيد تجديد الاتفاق الذي عقد بين المفوضية الألمانية ومديرية الدعاية والنشر على إقامة وكالة أنباء برقية في دمشق لتكون بمثابة مركز استعلامات وتبادل للأنباء مع وكالة الأنباء الألمانية الرسمية (د.ن.ب). فكانت المصدر الرئيس لكل ما تنشره الصحف العراقية من الأنباء العالمية مستقاة من المنابع الألمانية.

ووجدت المفوضية الألمانية بتمادي الزمن أنها لم تعد بحاجة إلى بذل جهود كبيرة لكسب الصحافة العراقية وأربابها إلى جانبها[٢]. فقد كان التيار جارفاً والناس يتلهفون لتعقيب انتصارات ألمانيا الدبلوماسية والعسكرية. وما وجدوا أنفسهم إلا وهم يسيرون في التيار القومي المتعاطف مع ألمانيا النازية - وقد عُرف كثير منهم قبلاً بالاعتدال والانتمائية أو اتهمت طائفة منها بعلاقة مع السفارة البريطانية. فبدا وكأن هناك مباراة في اقتناص الخبر المثير من الصنف الذي ذكرناه - ناهيك بالصحف المعروفة بنزعتها العروبية كجريدة (الاستقلال) والصحف التي كانت تتلقى مخصصات مالية كجريدة (العقاب) المسائية اليومية.

إن دراسة عابرة للوثائق البريطانية تكشف من ناحية عن مدى قلق السفارة البريطانية من تفاقم الدعاية النازية وازدياد روح العداء لبريطانيا ليقابلها من ناحية قلة اهتمام (الوايت هول) بالتقارير التي يتلقونها، أو أنه لم يكن يشارك سفارتهم رأيها بسبب السياسة العامة التي عرفت في حينه بسياسة (الإغضاء والإرضاء) إزاء دول المحور وقد قلنا فيها الكفاية[٣]. ظل تشجيع البريطانيين الشعور القوي في البلاد الناطقة بالعربية أياً كانت أشكاله ومراميه يمضي قدماً دون عائق ومهما علا صوت القوميين في لعان المستعمر والاستعمار لإدراكهم بالتجربة أن ذلك لا يعني شيئاً كثيراً ولا يستبطن أمراً جُلاً وأنه يمكن معالجته عند وصوله درجة الخطر ولم يجدوا في تسرب الأفكار النازية إليه ما تدعو الحاجة إلى عملية وقائية. وانصرف المجهود إلى مكافحة اليسار بكل أشكاله، لاسيما ذلك اليسار الاشتراكي الذي يستوحي أهدافه من الماركسية واشتراكية الاتحاد السوفياتي أو يتلقى الوحي من هذه الدولة. فببركات النفوذ البريطاني وبدفع من تلك السياسة البغيضة استُنَّ قانون مكافحة الآراء الهدّامة الموجه رأساً إلى استئصال تلك البذرة الخبيثة. فكان أول قانون تسنّه دولة في القرن العشرين لمكافحة حرية العقيدة

(٢) مثال ذلك جريدة (العالم العربي) لصاحبها ورئيس تحريرها (سليم حسون) وجريدة (البلاد) لصاحبها ورئيس تحريرها (روفائيل بطي)، وهما مسيحيان موصليان.

(٣) في العام ١٩٣٥ غزا الطليان الفاشيون الحبشة وقضوا على استقلالها. فكان موقف اللامبالاة الذي وقفته بريطانيا وفرنسا من العدوان سبباً في مقتل عصبة الأمم وعاملاً مشجعاً لقتل معاهدة فرساي وتمزيق بنودها تحت أقدام الجيش الالماني بدءاً باحتلال حوض الراين بعدها بسنة واحدة، ثم التدخل العسكري الألماني - الطلياني للقضاء على الجمهورية الإسبانية وإقامة دكتاتورية الجنرال فرانكو.

بفرضه عقوبة الموت على مروّجي تلك الأفكار. وهو قانون لم تجرؤ الدول الدكتاتورية على استنان مثله[٤].

---

(٤) انظر نص القانون في آخر الفصل. هناك تقرير حول الوضع السياسي العام بعثت به السفارة البريطانية لوزارة الخارجية متصدر بعنوان (الدعاية النازية في العراق): F.O. 624-24-448. غفل عن تاريخ كتابته أو يوم إرساله: وهذه ترجمته ويعتقد أنه كتب في أواخر العام ١٩٤٠، أو في زمنٍ ما خلاله وهذا هو:

«يستخدم النازيون الوسائل التالية من أجل ترويج أفكارهم في العراق:

١- الصحافة: استخدمت جرائد عديدة بشكل أو بآخر بغية إثارة المشاعر العامة بالكراهية للبريطانيين عن طريق تحرير مقالات توجيهية، ومن تلك الصحف صحيفة العالم العربي الواسعة الانتشار، وكانت البادئة، فقد راحت تنشر مثلاً ترجمة كتاب (كفاحي) متسلسلاً، والشائع في بغداد أن صحفاً معتدلة كثيرة، تتلقى مخصصات مالية من المفوضية الألمانية.

٢- رجال الدين المسلمون: يأتي علماء الشيعة والسنية في الدرجة الثانية من الأهمية في خطط الدعاية النازية، ويزعم بعضهم أن طائفة منهم تتلقى مساعدات مالية من المفوضية الألمانية، وقد كاد يكون في حكم الثابت أن البارزين من الخطباء وأئمة المساجد يتلقون رواتب شهرية لقاء مواعظهم الدينية أيام الجُمَع. وتتجه خطبهم تلك على الأكثر إلى الدعاية السياسية ضد البريطانيين وضد اليهود. هناك مجلة أسبوعية دينية اسمها (الناشئة الإسلامية) أوقفها صاحبها (كمال الدين الطائي) على نشر مقالات لترويج مثل هذه الدعاية والمشاعر بين العراقيين.

٣- الجمعيات والنوادي: دأبت المفوضية الألمانية منذ العام ١٩٣٥ على تشجيع وتمويل كل جمعية أو ناد معاد للبريطانيين، وفي وقت ما من هذا العام قام كل من الدكتور (أمين رويحة) وهو قومي فلسطيني والدكتور (صائب شوكت) شقيق رئيس الوزراء السابق (ناجي شوكت) والشيخ (محمد مهدي كبة) وهو أحد مؤسسي حزب الاستقلال المنحلّ بتأسيس نادي (المثنى). وفي السنة التالية تأسس في الموصل نادٍ آخر باسم نادي الجزيرة برئاسة (نجم الدين جلميران). وبعده بفترة وجيزة أسس الدكتور (سعدالدين) في البصرة نادياً آخر باسم نادي (المهلب) وكل هذه النوادي الثلاثة أسسها النازيون (كما أُشيع) لغرض الدعاية. كما ظهرت في الوقت عينه جمعيات سياسية تعتقد الاستخبارات البريطانية أن معظمها كان يتلقى مساعدة مالية من المفوضية الألمانية، ومنها جميعة الشباب المسلمين، وجمعية الهداية الإسلامية، فضلاً عن الجمعية السورية المسماة عصبة العمل القومي بمقرها العام في دمشق وفرعها في بغداد وجمعية الجوال العربي و جمعية الدفاع عن فلسطين التي أسسها (درويش المقدادي وسعيد الحاج ثابت).

كل هذه الجمعيات كانت ناشطة في الدعاية للنازية، وكما يظهر إن أغلبية المتعلمين العراقيين هم إما أعضاء ناشطون في هذه الجمعيات والنوادي أو هم أنصار لها، وكثير من أعضائها يحتلون مناصب هامة في الدولة أو أنهم يتمتعون بمكانة اجتماعية ومراكز مالية جيدة» ا.هـ.

نقول: بقدر ما يتعلق الأمر بنادي الجزيرة ورئيسه نجم الدين جلميران، فباعتقادي أن هناك مبالغة في وصف اتجاهه القومي، عرفتُ المؤسس مدير المدرسة المتوسطة الشرقية وأنا في سنتها الأخيرة ١٩٣٦، ثم عرفته صديقاً وكانت لي علاقة بمعظم أعضائه وهم موظفون ورجال =

ووجه الغرابة في هذا القانون أنه لم يكن يشمل بأحكامه حتى على وجه التمويه الدعوة إلى النازية والفاشية ونشر أفكارهما، ولو لغرض تغطية المقاصد الأساسية منه على الأقل. وبقي هذا القانون يُستخدم سلاحاً بتاراً في يد الحكومات العراقية ضد معارضيها الدستوريين الديمقراطيين والحركات اليسارية القومية الكُردية فضلاً عن الشيوعيين.

جاء العون - كما ترى - للقوميين من الجهة التي ينازلونها في الظاهر وترك لهم المجال حراً بأيديولوجياتهم المطعمة بالنظريات الشوفينية. هذا الموقف البريطاني إزاء النشاط القومي وغلبة الفكر النازي عليه أدى إلى مضاعفات مرضية في المجتمع العراقي. ومن نتائجه أن هبطت إلى أدنى مستوى تلك الهيبة ومظاهر الجلال الذي كانت تحظى بها بريطانيا من أصدقائها وأعدائها على السواء.

فقدت الأقليات المسيحية ما كان قد تبقى للبريطانيين عندها من ثقة في ضمان نوع من الحماية لها من التعصب الديني، الذي يتخذ الآن طابعاً قومياً أو بالأحرى من الشوفينية القومية العربية التي تشتمل بجلباب الدين، وأخذ أولو الرأي والمثقفون وبعض الضباط الكُرد يفتشون عن هويتهم القومية كردّ فعل معاكس، وجرت محاولات لإحياء تكتلات وجمعيات سرية قومية سابقة وتأليف أخرى جديدة[٥]. ولم يكن بين هذه

= أعمال ومعلمون ومحامون وأطباء وصيادلة وتجار وبينهم عدد كبير من المسيحيين، ولم يكن ذا طابع قومي ظاهر قط. وأسرة چلميران هي أسرة كُردية الأصل مستعربة، وإن كان نجم الدين ذا ميول قومية فما من شك أنه حملها معه بعد إنهاء دراسته في الجامعة الأمريكية، إلا أنه لم يُبد أي نشاط قومي ملحوظ قدر معلوماتي لا هو ولا النادي الذي كان يرأسه حيناً خلال شهري نيسان وأيار (مايس)، بخلاف النشاط الكبير الذي يمارسه الناديان الآخران. [راجع الملحق الثاني لهذا الفصل]

(٥) في أوائل العام ١٩٣٨ شكّل الشيخ لطيف ابن الشيخ محمود جمعية برايَتي = الأخوة في السليمانية، وهو تنظيم قومي سرّي انضم إليه سراة القوم هناك. ومن أعضائها البارزين محمد صديق شاويس وأخوه إسماعيل حقي وملا أسعد إمام وخطيب مسجد السليمانية. وفي عين السنة قام لفيف من الشباب الكُردي بتأليف حزب آخر باسم (آزادي كورد= التحرر الكُردي) ونبعت من هؤلاء منظمة (داركَر) انتظم فيها المثقفون الكُرد، وقد أسسها نوري صديق شاويس (عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكُردستاني فيما بعد) والشاعر يونس رؤوف (مؤلف النشيد الوطني الكُردي - أي رقيب) وعبدالله توفيق جوهر. وقد نما هذا الحزب وكان له أعضاء وخلايا خلال ١٩٣٩-١٩٤١ في سليمانية وأربيل وخانقين والموصل وبغداد، ومناهجه قومية صرفة «النضال من أجل الحكم الذاتي في العراق واستقلال كل كُردستان» =

العناصر القومية من هو أسوأ حالاً من الأقلية اليهودية، فقد ظلت أبداً تأمل بالحماية البريطانية وإليها مرجعهم الأخير.

في هذا البحر العباب من الميول والاتجاهات السياسية بدا التمييز بين معسكرين واضحين ضرباً من المحال.

قلة قليلة جداً من المسيحيين انحدر بهم التيار العام إلى المعسكر القومي، لا لشعور خالص بالهوية العربية، بل بقوة تيار الإعجاب بما يحققه الألمان من إنجاز سياسي عسكري ولخيبة أمل في الخط السياسي البريطاني وبالأغلب الحرص على أن يكونوا إلى جانب الغالب. إلا أنهم كانوا دائماً قلة.

لم يكن عجيباً أن نجد اتجاهاً مفاجئاً لهذه الأقليات نحو اليسار الذي كان يمثله آنذاك الحزب الشيوعي العراقي. فقد كان في المعسكرين الديمقراطي أو اليساري - وكما عرفا بهذا الاسم تفريقاً لهما عن المعسكر القومي - من هذه الأقليات المثقفة عدد لا يوائم نسبتها إلى المجموع السكاني العام، وبلغ بعضهم فيها مراتب القيادة[٦].

وفي الكلية وبين تجمعات التلاميذ كنت أجد مقياساً تقديرياً للوضع العام. وكلية الحقوق التي انتسبت إليها هي الطليعة السياسية للكليات والمعاهد العلمية العالية الأخرى. وفيها بدأت أولى تجاربي ومراقبتي لتطور الأحداث خلال الفترة التي سبقت الحركة، كما كان الشارع والصحف دليلاً على درجة الخداع التي بلغتها حكومة الگيلاني في تهيئة الجو العام والجمهور لمواجهة الأسوأ عما سيسفر عنه ذلك النزاع المفتعل أساساً بينها وبين الطرف الآخر[٧]. قرأت المقالات النارية اللاهبة التي كانت

= ومحاربة الفاشية والهتلرية من أجل الديمقراطية لكننا ضد الإمپريالية، لاسيما الإمپريالية البريطانية».

(٦) اتخذت حكومات وجهات قومية هذا الواقع فيما يعد تعلّة لإيهام الحزب الشيوعي بارتباطه بالصهيونية وترويجه آراءها.

(٧) جاء في كتاب المستشرق الألماني پرليتس، ثورة العرب (Der Aufrtand Araber)، ڤينيا وموينخ ١٩٦٠، ص١٦٣: إثر مقابلة له مع رشيد عالي في القاهرة أنه سأله عن موقف الألمان من حركة أيار ودوّن إجابته هكذا نصاً: لم ينفذ الألمان تعهداتهم ولو فعلوا وأرسلوا لنا الطائرات والمستشارين والأسلحة التي وعدونا بها لكنّا انتصرنا وطردنا الإنكليز لا من العراق وحده، بل من عموم الشرق الأدنى. كان اتفاقنا مع برلين تاماً دقيقاً في جزئياته وعلى كل شيء: الخطط، التوقيت، حجم المساعدات، الخ... إلا أنهم خانونا (قارن بين هذا القول وبين ما نقله الجمالي من قول له وقد ابتناه في الفصل السابق ليس من المعقول أن يتآمر هؤلاء =

تذكّر بأمجاد الأجداد وفتوحاتهم وقصائد من شعراء مجهولين مغمورين لا يعرف عنهم عالم الأدب والأدباء شيئاً - مما يجري مجرى معلقة عمرو بن كلثوم:

«إذا بلغ الفطام لنا وليدٌ   تخر له الجبابر ساجدينا»

وفوقها كلها برقيات التأييد والتشجيع المنثالة على تلك الصحف وهي حافلة بكل ضروب الملق، والمداجاة والمداهنة ولنا إليها عودة.

بطبيعة الحال لم أكن من الفريق القومي العربي، إلا أني كنت شديد التحمس للتراث العربي الإسلامي العلمي والفكري وللغة العرب بنوع خاص، في حين كنت آنذاك أبدأ تقويمي للقوميين العرب خلال مراحل الإطلالة الأولى على التراث الأدبي والفكري الغربي - ولك أن تسخر مني - على ضوء مدى معرفتهم بلغتهم وإتقانهم التعبير بها. وإن لم تخني الذاكرة فقد كان اهتمامي بمدرسيْن يزيد كثيراً عن متابعتي دروسهما. يبدو أولهما متلجلجاً يحاول جاهداً إخراج جملة عربية فصيحة، فيخونه لسانه ويلجأ إلى العامية البغدادية وما كنت حديث العهد بها بحكم إقامتي في مدينة الناصرية عامين دراسيين. وعندما كان يعصي على ثانيهما التعبير اللغوي السليم تراه يلوذ بالدارج البغدادي ليستقر بالأخير في حمى اللهجة الموصلية الدارجة، التي تثير الابتسام عند البغداديين والجنوبيين. ويبدو كلاهما لغزاً محيراً للطلبة الكُرد.

ويعكس ذلك كان إعجابي بالأساتذة المصريين. لا تراهم قط يلجأون إلى تعبير عامي مصري ولا يعوزهم التعبير وقلما يلحِنون. وبدت المعادلة عندي في غاية البساطة. هؤلاء الأساتذة والطلبة القوميون الذين كانوا يقفون خطباء فينا خلال تلك الأسابيع التي سبقت العاصفة كتّاب تلك المقالات الحافلة بالأخطاء النحوية والصرفية، وأولئك الشعراء الذين قلّ أن سلمت قصائدهم الحماسية من إقواء وخلل في الوزن أو سنادٍ، إن هؤلاء القوميين غير صادقين في دعوتهم للعروبة، بدليل قلة اهتمامهم بأهم مقومات أمتهم وهو اللغة.

كان هذا طراز تفكير ابن التاسعة عشرة، وأرجو أن يقتصر قرائي في السخرية

= الناس جميعاً على الزعيم الوطني القومي لينحلوه قولاً معيناً. ففي العاشر من نيسان ١٩٤١، وهو يوم خلع الوصي ونصب وصي جديد، ألقى الكيلاني خطاباً في أعضاء المجلس جاء فيه: «أحب أن أعرض على حضراتكم وكما اتضح لديكم أن هذه الحركة الوطنية هي حركة داخلية محضة ليس لها أية علاقة بأية دولة أجنبية دافعها الغيرة والوطنية وباعثها الحمية القومية» (النص الكامل في الحسني المرجع السابق ص٢٢٤).

وبظاهر سخفه. إلاّ أنه - وأقرّ بكل جد - كان عاملاً واحداً من عوامل عديدة أبعدتني عن تلك الضجة الكبرى التي أقامها زملاء خطباء في أبهاء الكلية وقاعاتها. وعافت نفسي سماع تلك الخطب التي تندد بالمستعمر وأذنابه، بعبارات مكررة وأنفاس لاهثة متقطعة تقابلها هتافات مقتضبة. في أواسط نيسان انفلت حبل الدوام تماماً. وافتقد الطلاب والطالبات اليهود، فقد آثروا أن يتغيبوا وقد أحسوا بدنو العاصفة ولا شك، وتغيبت أنا كذلك مع آخرين. إلا أننا دعينا تحت التهديد بالصارم من العقاب للحضور وتلقي التعليمات حول واجباتنا في كتائب الشباب، فقد أعلننا رئيسها الأعلى (السبعاوي) أعضاء فيها مجندين. وشملت الدعوة طلبة الكليات جميعاً وحددت مهامها بالحراسة في مناطق بغداد ومعاونة رجال الأمن على حفظه. وحماية مؤخرة الجيش من التخريب وتعقيب الجواسيس ومروجي الدعايات السيئة المغرضة الخ. وكان مقرها وزارة الاقتصاد وهي الوزارة التي يتولاها السبعاوي.

لم يكن هناك ضرورة لتدريب مسبق، فكلنا اجتاز مراحل تدريب الفتوة في المرحلة الثانوية. وأُعطيت لنا ثياب الخاكي بسراويل قصار كتلك التي تشبه بزة الكشافة مع شعار للكتائب يلصق على الصدر. لم يُعط لنا سلاح على ما أذكر. وقالوا إن عصاً صغيرة تكفي(٨).

كان تنظيماً غير محكم يفتقر إلى تسلسل المسؤولية. فما أذكره أن التعليمات الوحيدة التي تلقيناها هو القيام بواجب الحراسة في أقرب مركز للشرطة وأن ضباط ومفوضي المراكز أُخطروا بذلك. إذن فقد كانت لنا سلطة فعلية! ومن دون محاسبة أو رقيب أو مرجع لحكم على صواب ما نفعله.

تشاء الصدف العجيبة أن أكون سبباً في إنقاذ حياة وسلامة منزل من النهب الذي يدعى باللغة الدراجة (فرهود) من جهة كانت مصدر راحة ورضا على النفس لا يملك إلا أن يشعر به كل من قام بعمل جليل، إلا أن الحادثة وإلى جانب أمور أخرى أشاعت في نفسي اشمئزازاً ونفرة وعزماً على ترك بغداد مهما كلف الأمر والتوجه إلى مدينتي. وقد فعلت بعد أسبوع واحد ونيف. وبعدها لم أقم بالتجوال الليلي أو النهاري مطلقاً،

---

(٨) سمعت من الزملاء بعد الدوام أن بعض المتحمسين الفدائيين من تلك الكتائب قد سُجلت وانتظمت في فصائل قادها رئيسها بنفسه إلى موضع بالقرب من ضاحية السويفية، حيث شاركت كما قيل في التعرض للقوات البريطانية بضع ساعات.

فقد كانت تجربة قاسية وهي مما لا ينسى[٩].

والظاهر أن حمى تعقيب الجواسيس والمتخابرين مع العدو باللاسلكي وغير

---

(٩) كان المنزل الذي أسكنه في الباب الشرقي بالقرب من نهاية الشارع الذي عرف في حينه بشارع غازي، وفي تلك المنطقة صفوف من المنازل الحديثة البناء التي تنم عن يُسر أصحابها المالي، واخترت زقاقاً رحت أقطعه ذهاباً لأدلف منه إلى الآخر إياباً، والوقت ليل استرعى انتباهي شخصان بثياب عربية يقفان أمام باب أحد المنازل يتشاوران وبيد أحدهما قضيب معدني. فدنوت منهما وأنا أخطر ملوحاً بعصاي وسألتهما عن سبب وجودهما مذكراً بقرار منع التجوال، فأجاب أحدهما: سيدي من هذا المنزل تُرسل إشارات لاسلكية. لم تكن لي خبرة بكيفية عمل اللاسلكي وكنت أقدّر أن هذين الشخصين مثلي أيضاً لم يتح لهما أي وقت لمعرفة طريقة استخدامه، إلا أني تقدمت من الباب ورحت أتنصت تنصت الخبير العارف. كان المنزل معتماً لا يصدر منه صوت أو يتسلل منه ضوء، طرقت الباب مراراً فلم يجبني أحد. وأُسقط في يدي، ثم خطر ببالي الاستنجاد بالسلطة التي أضفتها علي ثيابي. وفي أثناء ذلك زاد المجتمعون وبلغوا أكثر من عشرة وبينهم من يحمل هراوات. وصحت بواحد كان يقف بعيداً بأن يذهب إلى مركز الشرطة القريب ويستدعي المفوض، إلا أن القادمين الجدد كانوا في عجلة من أمرهم يريدون التحقق من وجود اللاسلكي. وخطرت ببالي فكرة أقنعت بها الآخرين وهي أن نعتلي الجدار الفاصل بين المنزل والدار الملاصقة، وكنت أريد كسب الوقت. ففعلنا وقد تبين أنه منزل خصص لتعاطي الدعارة السرية. واعتليت الجدار المنخفض مع اثنين لأجد رجلاً ضخم الجثة ببذلة (روب) جالساً القرفصاء في زاوية من السطح تكاد تخرج أنفاسه من حلقه فرقاً ورعباً، انكب على قدمي وأمسكها بكلتا يديه وهو يلفظ الكلمة المأثورة (انا بيختك). فطمأنته وأخذته إلى المنزل، فجلس يرتعد وقلبنا الأثاث بحثاً عن اللاسلكي.

وفي خلال ذلك عرفني بهويته قائلاً إنه شريك في سينما الزوراء ووضح من اسمه وكنيته أنه يهودي، في تلك الأثناء وصل مفوض الشرطة، وتبين أنه على معرفة به. بدا لي المفوض من أولئك المسلكيين الذين عجمت تجاربهم مع الغوغاء عودهم. فبعد أن فرّق المتجمهرين مهدداً متوعداً وعرف بأن الشخصين كانا ممن استغنى عنهما صاحب الدار قبلاً. فانتهزا فرصة التعتيم للانتقام. قال لي وقد سرنا بأنه استدعي لمداركة حالة مماثلة في تلك الليلة عينها، وكان الشخص الذي حال دون عملية اقتحام ونهب مماثلة جار مسلم أبت شهامته أن يقف موقف المتفرج. فأسند ظهره إلى باب جاره اليهودي مهدداً المهاجمين بعصا. وأظنه ذكر لي بأن الحادثة كانت في محلة أبو سيفين.

بعد الحادث ببضعة اشهر لقيت صاحبي هذا الذي سلم من الغائلة واقفاً أمام باب سينما الزوراء، فسلمت عليه سلام العارف بهويته فأشاح بوجهه جانباً كذلك الذي يشك في أنه ليس المقصود بالسلام. وبقيت في حيرة أهو يتجاهل معرفتي عمداً أم لأنه يريد أن يطرد من ذهنه موقفاً أو ربما متوقعاً أن أطلب منه مكافأة، لكني استبعدت الفكرتين فوراً وعللتها بالنسيان وسرت في دربي.

اللاسلكي لم تكن قاصرة على العاصمة والناس يتطوعون لهذه المهمة الوطنية أو القومية بوصفها واجباً. وربما أن الأقليتين اليهودية والمسيحية كانتا أبداً موضع شك في ولائهما للعدو البريطاني. فقد تركز البحث عن هؤلاء الخونة فيهما - فمن كل الحوادث التي خبرتها أو سمعت بها كان المتهم مسيحياً أو يهودياً.

وكانت إذاعتا بغداد وبرلين مسؤولتين عن انتشار هذه (الحمى) فضلاً عن تحذيرات الصحافة. وقد سمعت بأن نتفاً مكررة من تلك النداءات المحرضة في تعقيب الجواسيس والكشف عنهم وإخبار السلطات يطلقها المذيع من الراديو. إلا أني لم أسمع قط بالقبض على جاسوس حقيقي ولم أقرأ نبأ عن نجاح السلطات في الكشف عن أي جهاز لاسلكي. وبعكس ذلك وجدت المنشور الذي أذاعته السفارة البريطانية على العموم يتبادله الناس بحرية ويقرأونه وقد وقعت بيدي نسخة منه[١٠]. ولم تتخذ

---

(١٠) تجد نص البيان في (الحسني، المرجع السالف) وقد صدر بتوقيع السفير كيناهان كورنواليس، وهو بيان فيه من السخف وقلة الفطنة ما يحمل على الدهشة لصدوره من سياسي ودبلوماسي باقعة مثله، وان كان لا يقتضي من المرء كسر البيضة من أكثر من طرف واحد للتأكد من فسادها، إلا أني سأكسرها هنا من الطرفين بإثبات الفقرتين الأولى والأخيرة من هذا البيان العجيب. وقد وجه بالعنوان: (إلى أهالي بغداد) فحسب وبتاريخ ٥ من أيار (مايس):

"كلكم على علم من الأحداث السياسية الأخيرة المؤسفة التي جعلت الحياة مؤلمة في أعينكم كما إنكم كذلك على علم من أن هذه الأحداث قد سببها شرذمة صغيرة من ضباط الجيش تؤيدهم فئة ضئيلة من محترفي السياسة ممن لا يخافون الله ولا يستحون من الناس، الذين لا يسعون إلا إلى تولي السلطة واكتناز المال السحت على حسابكم، إن هذه الفئة في أثناء بضعة الأسابيع الأخيرة لم تقتصر على اغتصاب الحكم في بلادكم الحرة هذه، بل طغت إلى حد السعي إلى القضاء على حياة وصيكم عبدالإله خال مليككم الطفل، فاضطروا الوصي إلى الهروب في سبيل النجاة مع الآخرين من زعمائكم الوطنيين المعتبرين الذين خافوا الطغيان من تلك الفئة.

ويختم البيان الطويل بهذه الفقرة: (مخاطباً العراقيين هذه المرة):

«إني أنا كورونواليس الذي عرفتموني حق المعرفة يا أهل العراق، أقسم لكم أغلظ الأيمان بأن بريطانيا العظمى لا نية لها قط باحتلال عراقكم أو بنزع استقلاله منه، إن قيام بريطانيا بشيء من هذا القبيل لمما ينافي كل المنافاة السياسة التي اتبعناها منذ عشرين عاماً كما يعلم جميعكم تلك السياسة، التي في سبيل تنفيذها تعاونت أنا شخصياً مع الطيب الذكر المرحوم جلالة الملك فيصل الأول، الذي شرفني بصداقته وثقته خلال سنين عديدة إلى أن وافاه الأجل المحتوم. ألا فليحيى حفيد فيصل الأول جلالة الملك فيصل الثاني وليحيى استقلال العراق الحقيقي.»

تساءلت في حينه ما الذي كان كورنواليس يقصده بعبارة الاستقلال الحقيقي؟ وما زلت حتى كتابة هذه السطور عاجزاً عن حل اللغز.

السلطة أي إجراء حتى محاولة لجمعه أو تحذير الناس من اقتنائه أو القبض على موزعيه الذين كانوا يتزودون به من دار السفارة وينحدرون عبر النهر إلى الرصافة، وهؤلاء هم من خدم السفارة موظفوها العراقيون.

وفي الموصل كانت المخابرات بين الخونة وبين العدو تتم بوسائل أخرى فضلاً عن اللاسلكي مع الطائرات البريطانية. وقد رأيت (شابو) طحان البرغل الذي يعرفه الموصليون جميعاً، وهو يساق إلى المركز العام مخفوراً مع أداة الجريمة بتهمة مماثلة[١١]، ربما في يوم ما من منتصف الشهر.

* * *

عوّد حكام العراق المتعاقبون الأهلين على المراءاة، وتغطية حقيقة ما يضمرون بإظهار خلافه، وهو ما تصح تسميته بالتقنية السياسية.

وقد استخدمت وسائل الإعلام الحديثة لهذا الغرض بنطاق واسع وبنجاح عظيم في أحداث آب ١٩٣٣ والانقلاب العسكري الأول في ١٩٣٦ ثم في التغييرات الحكومية التالية. فبات عند رجال السلطة الجدد ضرورة لا بد منها وسنداً لا يستغنى عنه في دعم مركزهم، كما كان عند المطلوب منهم واجباً ووسيلة لرد أذى محتمل أو نفي تهمة عدم الولاء. وهؤلاء الذين حكم القدر عليهم بالتبعية السياسية تراهم لا يتغيرون وأسماؤهم تتردد في البرقيات ورسائل التأييد لكل عهد أو حكومة جديدة تطالب بها، لا يصعب عمل قائمة بهم تبدأ برؤساء العشائر مروراً برؤساء الطوائف ورجال الدين الكبار، ثم برؤساء الصنوف والحرفيين والوجهاء، وتنتهي بكل من أراد أن يتطفل على الآخرين

---

(١١) يطوف (شابو) وهو من أهل إحدى القرى المسيحية التابعة لقضاء زاخو على المنازل مع مساعديْن كرديين يحملان آلة طحن وعجلتيها أيام موسم تهيئة البرغل (الكسكسي عند أهل المغرب)، وقد شاهدت بعيني حادث إلقاء القبض عليه بتهمة مخابرة طيران العدو. شاهدته بين ثلة من الشرطة بقيادة مفوض يذهبون به إلى المركز للتحقيق وفي أعقابهم جمع غفير من الصبيان والفضوليين. كانت زوجه قد غسلت سرواله الداخلي الأبيض الوحيد ونشرته على عمود في سطح الخان، المؤلف من عدة طبقات ليجف. فراحت الريح تعبث به وتدخل فتحتيه الكبيرتين لتملأه هواء، وبات يبدو للمارة شيئاً شبيهاً بالقطعة القماشية الأسطوانية المجوفة التي تعلق على أقطاب في المطارات لتعين مسرى الريح وهداية الطائرات. وهي الوسيلة الوحيدة أيامذاك. لم يلبث (شابو) طويلاً وأُطلق سراحه، إلا أن حكاية سرواله المجرم شاعت وعدت من النوادر والفكاهات. ومما أذكره أنه كان لـ(شابو) هذا ابن يدعى سعيد، وهو معلم للموسيقى كان قد لحّن نشيداً حماسياً عربياً قومياً مشهوراً وما زال ينشده تلاميذ المدارس بحسب علمي.

بحشر اسمه في قائمة صنف من هذه الأصناف لغرض ما، ليس أقلها شأناً استرعاء الأنظار إليه. فقد كانت برقيات تأييد النكرات الخاملي الذكر العقيقة الأولى لولوج باب الوجاهة.

ويلحق بهذا التهريج الإعلامي ما كنا نسميه (بجوق المحطة)، وهم ممن ذكرتهم تجدهم دوماً متحفزين متربصين بكل قادم خطير المقام والمنصب ليهرعوا خفافاً وثقالاً إلى محطة القطار مستقبلين مصافحين دون دعوة. وجوه مألوفة لا تتغير، لا تشكو نقصاناً أو زيادة كبيرة في تلك المناسبات. تميزت حملة التأييد والانتصار للحركة والإشادة بقيادتها بسعة نطاقها. وقد أمرت بها الحكومة وشددت على موظفيها الإداريين كما هي العادة على إشراك أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين ذكرناهم فيها. وكان سيل برقيات التأييد والمعاهدة على الإخلاص لا ينقطع عن الإذاعة، ولتجد طريقها فيما بعد إلى الصحف، برقيات من علماء الدين والمجتهدين الكبار مع طائفة مختارة من فتاويهم، برقيات من رؤساء العشائر عرباً وكُرداً، برقيات من رؤساء الأصناف والوجهاء، برقيات من أناس لم يسمع أحد بهم ولا شأن يذكر لهم.

ولفت نظري بصورة خاصة رسالة (التأييد المطلق) التي وجهها الحاخام (ساسون خضوري) رئيس الطائفة اليهودية في العراق. والبيان الذي أذاعه وضمنه برقية البطريرك الكلداني (يوسف عمانوئيل) معرباً فيه عن استعداد ابناء طائفته للتضحية والفداء في سبيل الوطن ضد العدو الغادر، وبرقية الشيخ سعيد بگ أمير اليزيدية، الذي وعد وتعهد بالمساندة المسلحة حالماً تصدر إشارة له، وعلى غرار أقرانه من الشيوخ الكُرد والعرب الذين تعهدوا بمثل ذلك أيضاً.

لم أجد بين من سبقني في الكتابة عن حركة مايس من تطرق إلى موقف الشعب العراقي على ضوء مقدار ما تحويه من الصدق مظاهر الولاء والمشايعة القولي، وكم كان يحتوي من الجدية. وإلى أي حد ترجم عملياً عندما حزبت الأمور وأطبق المنتصرون على العاصمة وهرب القادة وعمّت الفوضى وسفكت الدماء وهتكت الأعراض وانتهكت الحرمات، وتسابق مرسلو برقيات التأييد إلى إرسال أخرى جديدة احتفاء بعودة الشرعية وهزيمة الخونة، وإعلاناً لولائهم، من دون حياء أو خجل. ولي قصة فريدة في هذا الصدد ليس من الكياسة أو المروءة في شيء أن أتجاوز عنها هنا، سيما بعد أن ذاع أمرها وشاع تناولها حديث المجالس في الموصل حيناً من الزمن تندراً، على سبيل استذكار المفارقات التي حفلت بها تلك الفترة.

الشيخ حمّوشي الرومي، وهو الاسم الذي عُرف به ولقبه ينم عن أصله مثلما نمّ لقب ابن الرومي الشاعر العربي المغلق على أصله اليوناني[١٢]، رجل في حدود الخمسين أو دونها بقليل طويل القامة وسيم غاية الوسامة، أبيض البشرة بحمرة تشوبها، أنيق الثياب بجبة سوداء سابغة وكوفية ناصعة البياض فوقها عقال مضاعف مقصب، دليلاً على قيامه بفريضة الحج كما أظن. يبدو بهيئته هذه ومشيته الوقورة شخصية مهيبة لا يسعك إلا احترامها فور رؤيتها. وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه شيخ طريقة صوفية أظنها واحدة من فروع البكتاشية[١٣]، وله تكيته ومجلسه، يشاع عنه أنه من أصدقاء الإنگليز وأنه يعتمد عليهم مالياً ويزودون مجلسه بالقهوة والشاي والسكر وما إلى ذلك. تفقد هذه الشخصية هيبتها واحترامها معاً ما أن يحاول صاحبها المشاركة في حديث أو إبداء رأي، إلا أنه مع هذا القصور تراه لا يفوت فرصة أو مناسبة للظهور وإشعار المجتمع بوجوده وبأهميته. راح الناس العارفون بأمره يضايقونه خلال شهري نيسان وأيار بخصوص موقفه من الحركة التحررية المعادية لبريطانيا بالاستفسار الخبيث: لم نسمع لك برقية تأييد أيها الشيخ؟

مرت الأيام الأولى من مايس وهو صامد، بالأخير أسقط في يده وأحرج مركزه وهو يسمع سيلاً من برقيات يرسلها من يعتبرهم أحط منه مكانة. فاختلى بصديق وموضع سر، وهو الموظف العثماني السابق والكاتب في مديرية المعارف وقتذاك محمود سيرت، وطلب منه أن يكتب برقية جيدة ويظهر أن صديقه هذا أدى واجبه بأحسن ما يكون. فبعد أن بلغ القلق بصاحبنا منتهاه بتأخير نشر البرقية أو إذاعتها وبتوالي الأنباء السيئة عن موقف الحكومة المتداعي، فوجئ بالمهنئين المادحين موقفه الوطني الرائع المتجلي في عبارات برقيته ومنها علم بأنها نشرت متأخرة جداً.

فأسرع شيخنا إلى المكتبة ليبتاع كل ما بقي من نسخ الجريدة وأخذها إلى صاحبه لاهثاً وقال له: «اقرأ لي كتابتي!».

بهذه العبارة كان المتحدثون يختمون قصة الرومي مع برقيته. لا يعير كتابنا

---

(١٢) علي ابن العباس بن جريج (تصغير جورجيس ٨٩٦-٨٣٦م) من عباقرة الشعراء العرب صاحب مدرسة في الشعر العربي خاصة.

(١٣) ويعرف بالحاج بكتاشي ولي، صاحب الطريقة التي تُنسب إليه وهي دروشة استحدثها في القرن السادس عشر الميلادي في تركيا، وقد اعتنقها ومارس طقوسها جنود الإنكشارية (يفي جري).

ومؤرخونا اهتماماً في العادة بالجانب المرح والهازل من الكوارث الوطنية. أنا لا أشك قط في أن للكثير الذين عاصروا الأحداث أمثالي ما يرددونه من تلك «المضحكات الثمينة»، التي تنبع عادة من أصول الكوارث والبلايا حارةً تنبض بالكثير من الحيوية والواقعية ولا يمكن أن يستغني عنها المؤرخ الصادق. إن حركة الجماهير والكتل الشعبية ومتابعة مواقفها لا تقل أهمية عن متابعة تصرفات كتابنا، إهمال الأولى أم عدم إيلائها الاهتمام الحري بها، في حين حصروا اهتمامهم بالأخرى. وإلى هذا يعزى الجمود الذي يشيع في آثارهم عامة مهما توخوا الحياد في سرد الوقائع واستخلاص النتائج. ولا ينضوي إلى هؤلاء جمهرة المؤرخين ورواة الأحداث المتجاوزين بشكل مقصود عن ولوج هذا الباب بهدف الابتعاد بالقارئ المتتبع عن الحقائق وتضليله، خدمة لغرض معين افتَرَضَه مقدماً، وتقصي الآثار التي خلفتها حركة مايس في مسيرة القومية العربية من الجانب الجدي وهو جانب معتم يائس من أي ناحية نظرت إليه.

قيل وقلنا ما فيه أكثر من الكفاية عن الضعف العقلي لقادتها الميدانيين والنظريين وقالوا هم أكثر من هذا عن بعضهم بعضاً، تقاذفوا الأوصاف الكريهة والتهم الشنعاء، وراح يعزو هذا لذاك الفشل، ويحمّله تبعة اتخاذ القرار الأهوج بالمواجهة، ومع هذا كله لم يتعفف أي واحد منهم لا عن خداع الناس البسطاء بل عن خداع نفسه، وحقننا بمصل التشبث بالأمل في المساعدة الخارجية في بادئ الأمر، ثم بمخدر من مستحضرات مختبراتهم. وبهذا الصدد يطيب لي أن أعرض مثلين فحسب من أمثلة عديدة أخرى:

كانت إذاعة بغداد تتحدث يومياً عن المساعدات العسكرية الهائلة القادمة من دول المحور رايتها في ذلك تلك الرسائل الجفرية التي تتبادلها القيادة العليا الألمانية مع وزارة الدفاع العراقية، تسمعها يومياً مئات الألوف من العراقيين من إذاعة (حي العرب) من برلين بصوت المذيع الشهير (يونس بحري) يبدأها بالشكل الآتي:

من القيادة العليا الألمانية إلى رئاسة أركان الجيش العراقي ببغداد. دونوا ما يأتي

ثم يأخذ بسرد أرقام لا أول لها ولا آخر زهاء ثلاث دقائق أو أربع وعلى هذا النحو.

أربعة، تسعة، ثمانية، واحد، صفر، خمسة (فاصلة)، ستة، ثمانية، اثنان، تسعة، سبعة، صفر (فاصلة).

وهكذا يمضي هذا المذيع في إرسال برقيته الرمزية. كأن ليس هناك وسيلة مضمونة أخرى لإبلاغ أمثال هذه الرسائل السرية البالغة الخطورة غير إذاعته.

وينثال الراديو العراقي ليعقب مسرعاً وبجدية على هذه الاتصالات الخطيرة بين الدولة الألمانية وبين حكومة الدفاع الوطني، كلما خطر ببال السيد بحري أن يبعث بطائفة من تلك الأرقام - تحت تأثير الكحول على الأغلب وهو من مدمنيه.

وأعجب العجاب هو تلك البلاغات الحربية التي تصدر عادة يومياً عن دائرة الأركان العامة أحياناً مرتين في اليوم الواحد. لا تجد فيها كلمة صادقة واحدة. والناس ينتظرونها بلهفة، وبعض العارفين بحقيقة أمرها ومبلغ كذبها يستخفون بها ويطلقون النكات عليها إثر تلاوتها. فمن المعروف وما ثبت بعد ذلك أن الغارات البريطانية على معسكر الرشيد ومطار الموصل أدت إلى تدمير وإحراق الطائرات العراقية كافة أو أعطبتها بشكل لا يرجى إصلاحه، وأن هذه الطائرات ذات الجناح المزدوج القديم لا قبل لها بالتصدي للقاصفات الحديثة المستخدمة في الحرب العالمية الثانية، على فرض وجود بعضها سليماً. بل وأعجب من ذلك أن تلك البلاغات بقيت لا تتحدث بشيء عن العمليات الأرضية حتى آخر بلاغ منها(١٤)، واكتفت بالثرثرة عن الطائرات العراقية،

---

(١٤) هذه ثلاثة نماذج من تلك البلاغات:

* البلاغ الحربي رقم (١٥) الصادر عن دائرة الأركان العامة في مساء يوم ١٣ أيار ١٩٤١ عن حوادث يوم ١٢ منه:

- القيادة الغربية: حلقت ثلاث طائرات قاصفة معادية صباحاً فوق حامية (النقطة). وألقت بعض القنابل ولم تحدث أضراراً تذكر، وقد اسقطت إحدى الطائرات المعادية وأُسر من فيها.

- منطقة الموصل: حلقت طائرات قاصفة معادية فوق الموصل صباحاً، فهاجمتها إحدى طائراتنا المقاتلة واسقطتها وأُسر من كان فيها.

وتصدت لها طياراتنا، فولت طيارات العدو هاربة من غير أن تجرؤ على إلقاء قنابلها وعادت طياراتنا سالمة واستمرت على القيام بأعمال الدوريات.

- الغارات الجوية المعادية: حلقت بعض الطيارات المعادية فوق مدينة (كلمة غير واضحة) المكشوفة ولم تحدث أضراراً تستحق الذكر.

- الشرطة: حلقت طائرتان معاديتان فوق مخفر للشرطة ورمت بعض القنابل إلا أنها لم تحدث أضراراً.

* البلاغ الحربي رقم (١٨) الصادر عن دائرة الأركان العامة في مساء يوم ١٧ من أيار ١٩٤١:

القوة الجوية: قامت طياراتنا باستطلاعات موفقة فوق مناطق العدو كما أنها قامت بقصف =

في حين كانت بداية النهاية قد لاحت للجميع المطلع على سير العمليات، بما فيه من انسحاب الوحدات العسكرية من مواقع الحبانية.

أكان مجرد سوء حظ أن يبتلى العمل القومي العربي بزعماء وقادة بلغوا هذا المبلغ من الافتقار إلى روح المبادرة والتجربة وبعد النظر والدراية الستراتيجية والفهم بالموقف السياسي الدولي؟

قد يصدق هذا القول تماماً على العسكريين منهم. إلا أن المرء يقف حائراً متهيباً أمام مجلس قضاء مدافعاً عن سياسيين مجربين كالگيلاني ومثقفين في أعلى درجة يمكن أن يبلغها المرء في ذلك العصر كناجي السويدي. إلا أن ذلك التهالك على السلطة الذي قرنّاه فيما سبق بحالة جنون تعجز العقل عن التفكير السليم، وتحول بينه وبين الاهتمام بمصائر الآخرين، وما تجره أعمالهم من كوارث على المجموع، وهي ضريبة واجبة الدفع لا مندوحة منها.

والضريبة التي دفعها العراقيون في هذا الشهر لا تتمثل في نظري بالخسائر المادية - وهي ما يمكن التعويض عنه والعيش بدونه - بل بالدماء التي سفكت والأرواح البريئة التي زهقت في مرتفعات الحبانية، وفي الفلوجة، ومعسكر الرشيد، وفي الموصل وخلال مذابح بغداد. وهذا ما أهمل البحث فيه واستقصاء أخباره من كتب عن تلك الحركة التحررية وهو ما يهمني الكلام فيه بنوع خاص.

يثبت تقرير سري لوزارة الحرب البريطانية أن الخسائر البشرية التي مُني بها الجيش العراقي بلغت ٣٣ ضابطاً و٤٦٤ جندياً وضابط صف من القتلى و٥٤٩ مفقوداً (هم في عداد القتلى أيضاً) فضلاً عن ٦٥٩ جندياً و٣٦ ضابطاً جريحاً. ولا يذكر التقرير شيئاً عن القتلى المدنيين نتيجة قصف معسكر الرشيد، وبلدة الفلوجة ومذبحة رأس الجادة في الموصل بصورة خاصة. لا شك في أن موضوع الضحايا المدنيين لم يكن لاستقصائه أو لذكره في المصادر البريطانية محل، لأنه اعتراف ضمني بخرقهم قواعد

= معسكر سنّ الذبان قصفاً مؤثراً أحدث فيه خسائر كبيرة في الأنفس وأضراراً في المعدات، وقد صلت طياراتنا بنيران رشاشاتها بعض قطعات العدو ووقعت فيها بعض الخسائر في الأنفس. وقد عادت جميع طياراتنا إلى قواعدها سالمة.

الشرطة: صدت قوات الشرطة بالتعاون مع القوات الوطنية هجوماً للعدو على بعض مخافرنا في الجنوب (؟) وقد ردت العدو على أعقابه بعد أن أوقعت فيه خسائر جسيمة.

القانون الدولي(١٥) ومعاهدة جنيف حول إدارة الحرب. ثم إن هذه الأرقام بطبيعة الحال تعتمد على إحصاء وزارة الدفاع العراقية.

ويضاف عدد المفقودين في العادة إلى عدد القتلى وهم ممن لم يُعثر على بقاياهم أو دليل يثبت هوياتهم. فيكون مجموع ما فقده الجيش العراقي من أرواح ١١٥٠ ضابطاً وضابط صف وجندياً(١٦) بإضافة العقداء الأربعة الذين نفذ فيهم حكم الموت، لا انتصافاً للشعب العراقي أو جزاءً لما ألحقوه به بل - والحقيقة يجب أن تُقال - انتقاماً ومثلاً رادعاً ضربته الطبقة الحاكمة العراقية المنتصرة بالأخير لزمرة عسكرية خرقت كل الحدود المسموح بها في لعبة الاحتراب على السلطة. مثلما فعلت ببكر صدقي قبلاً. وليس ثم دليل أبلغ على تعليلنا هذا وهو سلامة الفريق المدني المشارك من حبل المشنقة(١٧).

لم يعر أحد من الكتاب الذين سبقوني اهتماماً بتقصي الحقائق عن الخسائر في

---

(١٥) الجيش العراقي والقوة الجوية الملكية البريطانية للفترة المنتهية بـ(٣١) تموز ١٩٤١ war office (Secret) No. 208-1585 Report No. 35: on the Iraqi Army and the R.A.F for the period up to 31 july 1941. إلا أن الأستاذ عبدالمجيد القيسي يأتي (المرجع السالف ص٥٥٩) بأرقام أخرى من دون ذكر مصدره، فيقول إن عدد القتلى من الضباط والجنود بلغ ١٢٥١ و٧٩٦ جريحاً، كما قدرت الخسائر المادية بمليون ونصف المليون دينار عراقي بقيمة ما قبل خمسين سنة تقريباً، أعني ما يعادل القوة الشرائية للدينار قبل الانهيار النقدي الحالي لما بين٣٠ و٤٠ ضعفاً.

(١٦) من الضحايا الذين فقدوا حياتهم نتيجة الغارات الجوية على معسكر الرشيد أذكر كلاً من رأس العرفاء الطيار ميخائيل ساعور، ورأس العرفاء الطيار نجيب محيو، وهما من أنسباء أقرباء لي، فقد أنيط بهما حراسة الطائرات، ومخازن العتاد، فلم يحاولا ترك المعسكر كما فعل غيرهما (يذكر من كتب عن الحركة أن العقيد محمود سلمان أحد الأربعة، كان يلازم منزله في الأيام الأخيرة وأنه لم يبرح وزارة الدفاع في الأيام الأولى). وأذكر كذلك أني كنت واحداً من المشيعين للجنازة الرمزية التي تمت مراسيمها بكل المظاهر العسكرية، وبعد انتهاء الحركة لكل من الملازمين (سالم سمحيري) و(فضيل متي هندو) وأولهما جار لنا وقد ضمتنا مدرسة واحدة، وثانيهما رفيق دراسة لم يُعثر على جثتيهما واعتبرا من المفقودين ثم أعلن رسمياً بأنهما في عداد القتلى.

(١٧) خرج ناجي شوكت والشريف شرف وعلي محمود الشيخ علي والبحراني، ومحمد حسن سلمان ومحمد علي محمود بأحكام سجن ألغيت فيما بعد، ولم يسلم (السبعاوي) وهو المدني الوحيد الذي لقي حتفه. فقد كان رجلاً طارئاً على الطبقة الحاكمة لا تربطه بأي من أعضائها رابطة مصاهرة أو صداقة أو نسب، وربما كان أصدق من الجميع مع نفسه وعقيدته.

الأرواح التي تكبدها القطاع المدني، ولم تقدم الحكومات التالية على عمل في هذا السبيل. ولكن هناك مؤشرات قوية إلى أن ضحايا القصف الجوي في الموصل قد يضاهي عددهم ما فقده الجيش العراقي بحسب التقرير الذي ورد ذكره.

في بداية الأسبوع الثالث من حركة مايس نالت مدينة الموصل نصيبها كاملاً من ويلات الحرب وبصورة غير متوقعة مطلقاً. كان سكان الأحياء الشمالية الغربية من المدينة قد اعتادوا في موسم الصيف ارتياد المقاهي، وبعضها يبعد عن منشآت السكك الحديد مئات قليلة من الأمتار، وتكتظ هذه المقاهي في العادة قبيل الغروب بمئات من الرواد.

في مساء ذلك اليوم - بعد الغروب بقليل - حلقت طائرة قاصفة بريطانية ذات محركين وبعد أن دارت دورة واحدة سمع الموصليون وهم في منازلهم دوي انفجار عظيم وهزة شبيهة بزلزلة خفيفة. سقطت حمولة الطائرات من القنابل وسط المقهيين فكانت مجزرة رهيبة حصيلتها ثلاثة وثمانون قتيلاً وفق أقل التقديرات وأكثر من مائة وفق أعلاها. فضلاً عما يزيد عن ٢٥٠ جريحاً. لم تكن المدينة بوسائل إسعافها القاصرة ومستشفاها الوحيد مستعدة لمثل هذه الكارثة. لا سيارات إسعاف ولا ممرضات ولا أطباء. والمستشفى الجديد لم تكتمل ردهاته. جُنِّد طلاب المدارس لنقل المصابين وفرز جثث الموتى وجمع الأعضاء المتناثرة والأشلاء المختلطة بالمقاعد الخشبية للمحطة، واستخدمت عربات الركاب بالأجرة التي تجرها الخيل ودراجات الطلاب، فضلاً عن القليل الميسور من السيارات العسكرية وسيارات شرطة الگمارك.

كان منظراً يفتت الأكباد. فقد انتشرت النسوة والأطفال في أرجاء المقهيين يبحثون عن ذويهم صارخين مولولين. وتوالى العمل في نقل الجثث والمصابين من الجرحى طوال الليل، وحتى ضحى اليوم التالي.

قريب لي وهو طالب ثانوي شارك بدراجته في عملية النقل والفرز طوال الليل وأقبل وقد تلطخت ثيابه بالدماء وصف بجمل متقطعة وأنفاس لاهثة وحركات عصبية - لم تبارح مخيلتي قط - المنظر مشبهاً إياه بمحل قصابة واسع الأرجاء تسبح أرضيته بالدماء وتنتشر فوقه الأحشاء والأطراف الآدمية، أرجل بأحذيتها، رؤوس بكوفياها وعُقُلها، أذرع وسيقان تكاد لا تميزها عن قوائم المقاعد الخشبية المحطمة، النساء

والأطفال يتنادون بأسماء أزواج وإخوة وآباء. منظر فيه من البشاعة ويقصر اللسان ويشلّ القلم عن وصف دقيق له(١٨).

منع الرقيب العسكري الصحف عن ذكر أي شيء عما حصل. وصدرت البلاغات الحربية التالية المعتادة وهي خالية من أي تنويه بتلك المجزرة، كما لم يأت لها ذكر في المصادر التي تيسرت لي. وضاعت جهودي في العثور على وثيقة تنوه بأمرها من بين المصادر والوثائق البريطانية. كما لم يرد لها على مدى علمي أي ذكر في صحف بغداد. والواقع هو أن مؤامرة صمت مزدوجة تلقائية دفعتها إلى زوايا النسيان وأعماق الذاكرة. كانت مصلحة البريطانيين أن يُكتم أمر عملية القصف العشوائي لأهداف غير عسكرية نجمت عنها مقتلة عظيمة لأبرياء إلى جانب ما ستخلفه في ضمير العراقيين من سخط ونقمة. ومن جهة أخرى، فقد ظل سواد الشعب العراقي بنظر الحكومات على الدوام وقوداً رخيصاً للنار التي تشعلها أطماع المحتربين على السلطة والحكم، فضحاياه في معترك الانقلابات هي أبداً كمية مهملة في نظر المحتربين وفي نظر الكتاب والمؤرخين على حد سواء.

وبطبيعة الحال كانت إذاعة مثل هذه الفاجعة تناقض الاتجاه العام الذي استُخدم في صياغة البلاغات الحربية، التي دأبت على تمويه الحقائق خشية هبوط المعنويات وفقدان الثقة. وقد كُتمت عن الشعب العراقي نتائج الغارات الجوية الفتاكة في سنّ الذبان، ومعسكر الرشيد والفلوجة فلماذا لا تُكتم فاجعة الموصل؟

---

(١٨) لا مندوحة هنا من استبعاد العمد وسوء القصد، والأمر يعزى إما إلى ضعف الرؤية عند قائد الطائرة أو إلى قصوره الفني، وواقع قرب الهدف الأصلي المطلوب قصفه من هذه المقاهي، فقد كان الهدف إحداث عطب كبير في منشآت السكة الحديد في الموصل، لوقف عمليات نقل الأسلحة الفرنسية عبر محطة تل كوچك وهي نقطة الحدود السورية، فيما يذكر أن حكومة (فيشي) وافقت على اقتراح ألماني لتزويد الحركة في العراق بالفائض من الأسلحة والعتاد الذي يستخدمه الجيش الفرنسي في سورية. وقد وصلت أول شحنة منها في ١٣ من مايس على ما تذكره المصادر والوثائق. تذكر المصادر البريطانية أن تحذيراً شديداً عمم على الطيارين البريطانيين باجتناب قصف المدن المكشوفة والمدنيين مهما كلف الأمر، فمثلاً كانت بغداد مدينة مكشوفة، وربما كانت وزارة الدفاع أهم هدف حيوي. ومما أذكره في هذا الصدد دعماً لرأيي أن الجهات البريطانية قامت بصرف التعويضات لذوي القتلى والمعوقين والمتضررين من قصف الموصل بعد نهاية الحركات وعودة الأمور إلى حالتها الطبيعية، بمعرفة بلدية الموصل ووفق قوائم معدة لهذا الغرض.

وبعكس ما كان يُتوقع من جمهور متحمس مساند لحكومته في صراعها القومي بتصاعد النقمة والغضب إثر المقتلة، فقد ساد وجوم عام جو الموصل. وبدأت أسهم البريطانيين ترتفع عند رجل الشارع بشكل غير منتظر. ولم تعد البزات العسكرية الألمانية والإيطالية تثير إعجاباً وتجمهراً كلما خطر ببال أحدهم السير في الشوارع العامة أو ارتياد الدكاكين والمخازن. ولم تعد إذاعة (حيّ العرب) من برلين تجتذب الأسماع كما كانت من قبل. وراح النفر الذي ناصر قضية الحلفاء من المبدأ يقول ما كان يخشى أن ينال منه أذى قبل أيام. وكنت تسمع بعدها عبارات لا تتوقع أذنك أمثالها قط قبل الغارة، كقولهم مثلاً هؤلاء الإنكليز! من يستطيع الوقوف بوجههم؟ أو أين هو الطيران الألماني؟ وراح الناس يقارنون بين ما كانوا يسمعونه من الراديو وما رأته أعينهم، وصاروا يهزأون ببرقيات التأييد التي تُتلى من الإذاعة وبأصحابها يعلقون عليها تعليقات ساخرة ليس فيها تحفظ كبير.

لم تتعرض الأقليات في الموصل خلال هذا الشهر إلى أذى ولم يقع اعتداء على أحد. وانفردت بغداد بتلك المذبحة التي استهدفت اليهود في يومي ١ و٢ من حزيران حين فقد الضباط سيطرتهم على وحدات الجيش المرابطة في المدينة وضواحيها، وانتشرت عصابات لهم مع الغوغاء ورعاع القوم تنهض وتقتل.

ستبقى حقيقة ما حصل في هذين اليومين يحف بها الغموض التام. ولا نملك وثيقة إدانة واحدة إلى جانب التقرير الرسمي الذي أصدرته لجنة التحقيق المعينة رسمياً، وهو التقرير الذي أثبتناه في الباب الرابع الخاص بالوثائق والاستشهادات من هذا الكتاب.

وفي هذا التقرير - رغم وصفه الدقيق القريب من الواقع لما حصل - ثغرات كبيرة وإغفال متعمد لما يجب التفصيل فيه، واقتضاب مقصود لما عمدت أن تمر به لجنة تحقيق رسمية مروراً عابراً، فمن بين ٢٩٧ سطراً كبيراً استغرقه التقرير لا تجد غير سطرين ونصف سطر خصصت لأهم محتواه طرّاً وهو عدد القتلى والجرحى: فقد اختصر الوضع اختصاراً مشيناً بهذه العبارة المقتضبة:

«أما جميع القتلى بالنظر إلى ما جاء في إفادة حاكم التحقيق أنهم ١١٠ بضمنهم ٢٨ امرأة وهم إسلام ويهود ولم تعرف هويات قسم كبير منهم أما الجرحى فكانوا ٢٠٤ وهم إسلام ويهود».

لا شك أن ضغوطاً أو ميلاً ذاتياً في أعضاء تلك اللجنة حملها على هذه الصياغة

الغربية، فليس في التقرير ما ينبئ أن منزلاً واحداً من منازل المسلمين تعرض للنهب أو أن أحداً منهم قُتل بيد أخيه المسلم. هناك أفراد قلائل من الناهبين صُرعوا برصاص الشرطة التي تدخلت بعد أن صدرت إليها أوامر صريحة بإطلاق النار على المعتدين.
ومن الواضح أن هذا الإصرار على حشر كلمة (الإسلام) مع اليهود كان يرمي إلى تصوير الأحداث على أنها مجرد أعمال إجرامية ذات طابع عام لا تستهدف اليهود بنوع خاص. في حين أن التقرير نفسه يحصرها باليهود. وكل ما جاء في التقرير عن قتلى المسلمين أن مسلماً واحداً قتله الجنود بسبب حمايته لمنزل أحد اليهود ومحاولته صد المعتدين. فراح ضحية شهامته. وأكثر من هذا فقد جاء في التقرير أن رجال الشرطة والجيش كانوا خلال عمليات النهب والقتل يطلقون نيرانهم في الهواء إرهاباً وأنهم كانوا يخشون التعرض للضباط والجنود الذين يقومون بأعمال القتل والنهب.

وأغرب ما في التقرير أن اللجنة اعتمدت في إثبات عدد القتلى بمائة وعشرة على قول حاكم التحقيق فحسب، من دون أن تطلب منه أن يعرض عليها نتائج تحقيقاته وملفات القضايا التي حقق فيها. ومن غير أن ترى أية ضرورة - كما يبدو - لاستدعاء ذوي القتلى وضبط إفاداتهم أو التحري في الشهادات الكتابية للزمن أو فحص قيود وسجلات الوفيات.

بل والأغرب من هذا كله أن يطعن واحد من أعضاء اللجنة الثلاثية هذه بصحة الرقم ويؤيده في هذا الطعن مدير شرطة بغداد، فقد جاء في هامش الصفحة ٢٦٩ من كتاب الحسني (ج٥) هذا:

«أكد لنا السيد علي خالد حجازي مدير شرطة لواء بغداد حينذاك والسيد عبدالله القصاب أحد أعضاء اللجنة موضوع البحث بأن عدد القتلى كان يناهز ٦٠٠ نسمة ولكن الحكومة حرصت على ذكر الرقم الذي ورد في التقرير!».

وماذا عن الجانب اليهودي؟

شرعت لجنة التحقيق في أعمالها بدءاً باليوم الثالث من حزيران وأصدرت تقريرها في الثامن من الشهر التالي. وفي خلال هذه الأيام الخمسة والثلاثين، ورغم إعلان الأحكام العرفية لم يسع تلك اللجنة كتمان كل ما كان يحصل أثناءها من اعتداءات:

«إن حوادث التهديد لحد الآن لم تنقطع من قبل بعض الضباط وبعض أفراد الجيش، وقد وقعت كثيراً من هذه الحوادث في الآونة الأخيرة، إذ كان بعض الضباط والأفراد يتجولون في أزقة اليهود يتهددون ويتوعدون كل من يدلي

بأخبار ضد أفراد الجيش والأهلين، وإن قسماً من الأفراد ونواب العرفاء أخذوا يخوفون اليهود بالتهديد ويحصلون على الدراهم منهم. لذلك فإن اليهود محجمون عن الإخبار لأي سلطة كانت حول حوادث القتل والسلب والنهب ما لم تتخذ الحكومة الإجراءات الكافية لمعاقبة الفاعلين وإيقاف تيارات تهديداتهم. وترتئي اللجنة (إذا كان ذلك بالإمكان) إرسال الجنود والضباط إلى المعسكرات الخارجية في الوقت الحاضر ليطمئن اليهود ويأمنوا تهديداتهم وليقدموا على الإخبار».

ويقرّ التقرير بأن:

«البادئ في المذابح هم بعض الجنود وبعض ضباط الجيش فهم الذين بدأوا بالقتل والنهب والسلب وقد شاركهم بعض الشرطة من أفراد وضباط. وشجعوا بذلك العامة على تلك الأفعال الشائنة. وقد ثبت بأن الغاية لم تكن للنهب والسلب فحسب، وإنما كانت بدافع الانتقام. حيث ظهر من هذه الحوادث بأن السالبين لم يستطيعوا حمل بعض المسلوبات لضخامتها، فحطموها بمواضعها كي لا يُستفاد منها. وقد حطموا زجاج الأبواب والنوافذ وقطعوا التجهيزات الكهربائية. وكانوا يفتحون حنفيات الماء ويتركونها تجري كي تغرق الدور مما يدل على روح الانتقام. ومما يبرهن على هذا الشعور أكثر من ذلك هو الفتك الذي شمل حتى النساء والأطفال».

لم تكن اللجنة بحاجة إلى إيضاح الدافع إلى الانتقام، ولماذا خص الجيش به اليهود العراقيين هذه المرة دون غيرهم؟

ها هي مأساة آب العام ١٩٣٣ تتكرر. وهذا كل ما في الأمر.

ذكروا أن المجلس العرفي العسكري عالج عدداً من قضايا القتول وأعمال السلب والنهب، ولكن لم أسمع عن ضابط أو ضابط صف أو جندي حوكم بجناية القتل. ولم أجد في بحثي الطويل عن نبأ نُشر في صحيفة من صحف ذلك الزمن إعلاناً واحداً عن حكم صدر بهذا المجال[١٩].

---

(١٩) كل ما وقعت عليه من هذه الأحكام بمحض الصدفة هو مأساة الملازم الثاني الخيال (قسطنطين عبدالله) الموصلي، كان قد أنيط به وبفصيله حراسة قطاع محلة السنك، ووقف أعمال النهب والسلب فأدى واجبه كما ادعى ولم يقع حادث اعتداء في منطقته، إلا أن آمره الزعيم حميد =

ولو نحن تدبرنا الأمر على ضوء الأسلوب القانوني الذي اتبعته الطبقة الحاكمة المتصرة في معاقبة أولئك الذين انتقضوا عليها لزال العجب من موقف السلطة الجديدة إزاء هذه المذبحة بل إزاء الحركة عموماً[٢٠].

= نصرت، ارتأى أن يقدمه هو وعريف الفصيل (علي محسن) إلى المجلس العرفي العسكري بتهمة سرقتهما مجوهرات وحلي من عوائل فلسطينية لاجئة كانت نزيلة في فندق الرصافة، الذي اتخذه هذا الضابط مقراً له وحكم كلاهما بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة. وكانت الأدلة شهادات المجاهدين الفلسطينيين النزلاء. ذكر لي هذا الضابط أنهم شهدوا عليه لأنه أسمعهم كلاماً قاسياً واتهمهم بأنهم علّة ما حصل وأنه حجزهم في غرفهم ومنع الزوار عنهم طوال يومي ١و٢ حزيران وما بعدهما. وقد أخذ المجلس بشهادتهم الملفقة ولم يسألهم عن مصدر الحلي والجواهر وهم لاجئون يعيشون بضيافة الحكومة. قضى هذا الضابط وعريفه محكوميته ليستخدمه أحد أكبر رجلي أعمال ومزارعين في الموصل مديراً لشؤونه المالية ومحاسباً! كان المحكوم صديقاً لرفعت الحاج سري ومن دورته في الكلية، وقد شد الرحال إلى بغداد بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ في محاولة من الضباط المحالين إلى التقاعد وعادوا بترفيع الا أن طلبه أُهمل.

(٢٠) قد يخطر ببال أحدهم أن يتساءل: لو لم ينجح الگيلاني في الإفلات بنفسه أكان حكم الموت سينفذ به كما نُفذ بالسبعاوي؟ وبعين الدرجة من الفضول يلوح السؤال: ما الذي حدا بالسلطة لتستثني المفتي من إجراءات الاتهام. وقد كان هناك إجماع بأنه الرأس المدبر والإرادة المحركة لما أطلق عليه مؤرخنا الحسني الفتنة العمياء في طبعات كتابه (تاريخ الوزارات) قبل ١٩٥٨. لا شك في أن نجاح الگيلاني في إفلاته من قبضة الحكام العائدين كان مصدر ارتياح كبير لهم أزاح عن كواهلهم الحمل الثقيل في مسألة حياته أو موته تنفيذاً للحكم الصادر عليه. فبحساب كل الاعتبارات يمكننا أن نجزم وبكل اطمئنان أن لا أحد كان يجرؤ من رجال الحكم على المطالبة بمحاكمته خشية فقدانهم ورقة فلسطين الرابحة في لعبة القومية، فقد أُهمل وغاب عن مرسح السياسة حتى ظهر للعلن في العام ١٩٤٦، حيث أُعيد انتخابه رئيساً للجنة العربية العليا للدفاع عن فلسطين ونعم بضيافة الملك فاروق حتى العام ١٩٤٨، حيث انتخب رئيساً للجمعية العامة والمجلس الأعلى للحكومة الفلسطينية. وانتخب في العام ١٩٥١ رئيساً للمؤتمر الإسلامي العالمي المنعقد في كراچي، ودعي إلى بغداد في العام ١٩٥٢ ليرأس مؤتمر العلماء المسلمين. وجددت رئاسته في العام نفسه للمؤتمر العالمي الإسلامي، وحضر مؤتمر باندونگ رئيساً للوفد العربي الفلسطيني وحل ضيفاً على عبدالناصر ثم اختلف معه في العام ١٩٥٧. ودعاه عبدالكريم قاسم إلى بغداد في العام ١٩٦٠ (أثناء ما كان الگيلاني في غرفة الإعدام!) وتكفل بالإنفاق عليه كما أوردنا سابقاً.

نقول: من الواضح أن المنحى الذي انتحاه المجلس العرفي العسكري في توزيع وتحديد العقوبات كان بإيحاء وتخطيط أملته الحكومة، ويؤيده الرأي الذي بسطناه، فالمادة (٨٠) من قانون العقوبات ودلالة المادة (١١) من مرسوم الإدارة العرفية، وهما المادتان اللتان استندت إليهما أحكام المجلس العرفي العسكري - تفرض إيقاع حكم الموت بكل متزعم لحركة ترمي =

والمسألة في حقيقتها، وكما اختير لها أن تبدو، هي أن هذه القلة من المحكومين كانت جريمتهم أنهم شذوا شذوذاً فاضحاً عن القواعد المتفاهم عليها منذ زمن بعيد - في لعبة النزاع على الحكم باستخدامهم أسلوب عنف جديد لقلب نظام الحكم خرج عن النطاق المحلي الداخلي، بكل ما فيه من تطاول على رئيس الدولة. فإذا كان لا بد من عقاب فأشده صرامة يجب أن يحصر بأضيق نطاق وبالضبط بأشخاص طارئين على الطبقة الحاكمة، وهكذا كان.

وأما أولئك الذين حجزوا في معسكرات الاعتقال بسبب ما نسب إليهم من نشاط ملحوظ في تلك الحركة، فقد نعموا بما يتصور أن يحظى به معتقل سياسي من رعاية واحترام. وكان بينهم رجال ارتقوا أرفع المناصب فيما بعد وبلغ بعضهم منصب الوزارة. وعاد الموظفون منهم إلى وظائفهم بعد تسريحهم واحتسبت لهم مدد الاعتقال لغرض الترفيع، في حين خصص لغير الموظفين أجور يومية كافية لمداركة أسباب عيشهم داخل المعتقل، وسمح لهم بكل ما يتمتع به الرجل الحر خارج المعتقل بما في ذلك معاشرة الزوجات[٢١].

* * *

= إلى قلب نظام الحكم بالقوة، وهو الوصف القانوني الذي أعطي لحكومة الدفاع الوطني. فالتطبيق الصحيح لهاتين المادتين كان يقضي بأن يعتبر أولاً وقبل أي أحد كل أعضاء الوزارة الكيلانية، زعماء في الحركة لأن مسؤولية الوزراء على أية حال هي مسؤولية تضامنية لا يمكن تجزئتها ولا يصح معها فحص موقف كل عضو من أعضاء العصابة على حدة وفرض العقوبة نسبة إلى نشاطه الخاص فيها، وإذذاك لن يكون بالإمكان إلى حد ما اعتبار العسكريين الأربعة في عداد الزعماء المتزعمين وفرض عقوبة الموت عليهم فهم بالمقارنة مع أعضاء الحكومة لا أكثر من موظفين يأتمرون بأمر تلك الحكومة اللاشرعية ويطبقون سياستها، لذلك كان من الصعوبة بمكان رفع عامل الانتقام الشخصي في تنفيذ أحكام الموت، أو إغفال التحيز الواضح في إنقاذ حياة الوزراء وافرادهم بأخف الأحكام (لم يقض أثقلهم حكماً أكثر من ثلاث سنوات سجيناً).

(٢١) (من أوراق أيامي) لطالب مشتاق، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٥٦. يقول: "قُسم المعتقلون في معتقل العمارة على درجتين الأولى والثانية، وكانت تدفع إلى معتقلي الدرجة الأولى مخصصات يومية قدرها ٤٠٠ فلس، وقد خصصت غرفة خاصة لكل واحد من معتقلي الدرجة الأولى. أما معتقلو الدرجة الثانية فوضعوا في ردهات وقد خصصت إدارة المعتقل عدداً من الخدم يقومون بتنظيف الغرف والردهات ومساعدة المعتقلين في شراء ما يحتاجون إليه من مواد غذائية. وانتظمت حياتي بعد وصول عائلتي واستقرارها في العمارة وأصبح طعامي مؤمناً =

فتحت حكومة الكيلاني الحدود العراقية لاستقبال المتطوعين من القوميين العرب. وأقبل ممن أقبل (أكرم الحوراني) الشاب الملتهب حماسة على رأس رهط من المسلحين السوريين وأعلن للصحف العراقية فور قدومه: إنهم جاؤوا لتعزيز قوات الجيش العراقي والمشاركة معه في معركة الشرف والكرامة، ولكنه لم يلبث أن انسحب بهدوء في أواخر الأسبوع الثالث. وأقبل المحارب الفلسطيني فوزي القاوقجي بحوالي مائة متطوع، شتتت الفرقة الغربية الأردنية الزاحفة على بغداد شملهم عند تعرضهم لها في الرطبة على الحدود. ونقل القاوقجي إلى حلب مصاباً بجروح بالغة[٢٢] ومن ثم إلى ألمانيا.

= على أحسن حال وغرفتي قد فُرشت بشكل مريح وملابسي تُغسل وتكوى بانتظام وأطفالي يزورونني في كل يوم، وقرينتي تأتيني بطعام الغذاء. فنتغذى سوية مع أطفالنا في غرفة خاصة داخل المعتقل. وهكذا أصبحنا نعيش حياة رتيبة لكنها مستقرة ومريحة. كانت المشكلة الوحيدة عدم وجود حمام. ولكن بعد عدة أشهر من إقامتنا شيدت الحكومة لنا حماماً جيداً للغاية لا يقل عن حمامات السوق. (ارتقى فن الاعتقال والسجن بتعاقب الحكومات العراقية ملكياتها وجمهورياتها ابتداءً من معتقل نقرة السلمان ومروراً بمعتقل أبي غريب وبالسجن رقم واحد وانتهاء بقصر النهاية. وليس لغير من زار أحد هذه المعتقلات أو عدداً منها نزيلاً إلا أن يقارن ويتدبر).

(٢٢) تم إخلاء المتطوعين والقوميين العراقيين الهاربين من جهة الغرب بتعاون سلطات فيشي في سورية مع بعثة الجنرال فيلمي الألمانية التي استقرت في حلب. وقد تولى هذا الضابط الألماني نقل القاوقجي وجماعته، واستخدم الهاربون القادرون على حمل السلاح جنوداً في الجيش الألماني، فقد قررت القيادة الألمانية العليا تأليف فوج أو أفواج منهم، وأعطوا بزات عسكرية ألمانية مع وضع شارة على ذراع كل جندي نقش عليها كلمتا (Frie Arabia). وأُنيطت بالجنرال (فيلمي) قيادة هذه الوحدات، وخصص له معسكر تدريب في بلدة دورين على الحدود البلجيكية، ونقلت وحدات منه إلى جبهات القتال. ولما وصل فوزي القاوقجي إلى برلين وشفي من جرحه اقترح على القيادة الألمانية إناطة قيادة الجيش به. منحه هتلر رتبة (كولونيل: عقيد) وخاصة بعد أن أعلمه أنه من حملة وسام الصليب الحديدي المهدى إليه من قبل القيصر ڤلهلم الثاني في الحرب العالمية الأولى. وكانت آخر المعارك التي خاضها هذا الجيش العربي العراقي هي معركة (مجاز الباب) بضواحي مدينة تونس تحت قيادة رومل ومني بضحايا كبيرة. وبعد انسحاب جيش رومل أرسل هذا الجيش إلى الجبهة الشرقية في روسيا «وهناك في معركة ستالينگراد لم يسلم من هذا الجيش إلا بعض الضباط العراقيين، وأخص منهم بالذكر الدكتور النطاسي البارع ناجي عبدالرزاق الذي نجا بأعجوبة» (عن يونس بحري: أسرار ٢ مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية الإنكليزية، بغداد ١٩٦٠ ص١٠١). ويؤيد السهروردي (التاريخ لم يبدأ غداً: الص ٢٠٧-٢١٦ في واحدة من المناسبات النادرة التي لا يحاول مجانبة الحقيقة بها هذا =

أما في سورية فقد كان الانتصار القومي لقضية العراق قاصراً على حركة قومية أطلقت على نفسها اسم (حركة الإحياء العربي) وقد تسمّت فيما بعد بـ(حركة البعث العربي)، ويقول البعثيون إنها أساس حزب البعث العربي.

أقامت هذه الحركة لجنة باسم (لجنة نصرة العراق) وطفقت توجه نداءات وبيانات تحث العرب في كل مكان على التطوع والمشاركة في القتال الدائر في العراق، ووصلت بياناتها هذه إلى الصحافة العراقية، فاستنتج بعضها أن (آلافاً)[٢٣] من المتطوعين المسلحين وصلوا العراق للمشاركة في الحصاد والانتظام في صفوف الجيش العراقي، وقد جرى توزيعهم على الجبهات الحربية.

كان الاعتقاد أن النصر لا بد منه، أو أن الحرب في أسوأ تقدير ستكون طويلة الأمد وأن الوضع يتطلب تنظيماً حياتياً جديداً للعرب يتلاءم مع هذه الحرب. وكان مما اقترحته (حركة نصرة العراق) على العرب منهاجاً يومياً لمواجهة الموقف، هو البيان التالي:

«أيها العربي: إعلم أن العراق في هذه الساعة يناضل من أجل أمنية كل العرب، الوحدة العربية، واعلم أن انتصار العراق منوط بك وحدك فاعرف واجبك وقم به.

أيها العربي حيثما كنت: ضح برفاهك أياماً تضمن لأمتك السعادة أجيالاً امتنع عن الملاهي جميعها وساعد العراق المجاهد. إذ لا يليق بك أن تلهو بينما

= المصير المحزن الذي آل إليه الفيلق العربي كما نسميه)، فيقول: «وقد حث السيد رشيد عالي الگيلاني والحاج أمين الحسيني هتلر وموسوليني على التعجيل بالعمل في قلب الشرق الأوسط ولهذا الغرض بُدئ بتشكيل فيلق عربي بمساعدة الجيش الألماني. وفي الجبهة الروسية كان مقر هذا الفيلق في مدينة ستالينو القريبة من ستالينگراد، وقد بلغ تعداده ٢٠ ألفاً (!) وقاتل الفيلق هناك غير أن بعض أفراده رفضوا القتال. وكان بين الرافضين من العراق علي الجرجفجي وناجي عبدالرزاق القيسي، الذي أصبح دكتوراً فيما بعد. وقد نُقل الإثنان من الجبهة إلى السجن العسكري في برلين وبنتيجة القتال في الجبهة الروسية فقد قتل جميع أفراد الفيلق العربي الذين نقلوا إلى جبهة موسكو باستثناء ثلاثة فقط. أما الجنود الذين كانوا قد بقوا في ستالينگراد فقد أعيدوا إلى ألمانيا، وقد بقوا على قيد الحياة وهم ١٤ ضابطاً و٢٢٠ جندياً، وكانت نهايتهم في تونس». هكذا تشاء الأقدار أن تكون الجبهة الروسية ميداناً للجهاد في سبيل تحقيق الأماني القومية العربية، فما أعجب مفارقات التاريخ!

(٢٣) جريدة الاستقلال البغدادية: ٦ أيار ١٩٤١.

العراق يريق دمه في سبيلك. إلغ الضيافات ولا تقبلها من الآخرين وبقيمتها قدم لجرحى العراق العربي أضمدة وأدوية. في كل اثنين وخميس، اقتصر مع أسرتك على أكل لون واحد بسيط. وأرسل ما توفره إلى العراق ليشتري أسلحة وأعتدة. تعوّد الخشونة في عيشك والبساطة في ملبسك واعلم أن كل عربي قد أصبح اليوم جندياً.

أيتها الفتاة العربية: لا تنسي أنك ستكونين أم الجنود والأبطال العرب فانتبهي لرسالتك وما تفرضه من مسؤولية.

أيها العرب حيثما كنتم: لترتفع قلوبكم إلى الله في كل ساعة تسأله أن ينصر العراق. ولتكن تحيتكم فيما بينكم بعد الآن (نفدي العراق).

ألصق هذه الورقة في بيتك إقرأها واعمل بتعاليمها».

وشكلت هذه الحركة لجاناً في المدارس السورية وسمتها (اللجان المدرسية لنصرة العراق).

ورسموا للتلاميذ دعاء وعهداً إلى الله يتلوه أعضاؤها عند اجتماعاتهم، وهو طويل جداً سأكتفي بإثبات فقرته الأولى:

«أقسم بالله العظيم والعروبة الخالدة أن أبذل لنصرة العراق كل جهودي المادية والمعنوية. اللهم أنت الذي أردت أن يكون العرب أمة موحدة قوية هادية تحمل إلى العالم رسالتك، تريد اليوم أن تعيد إليهم وحدتهم وقوتهم ليعودوا إلى حمل هذه الرسالة من جديد. اللهم هبني قوة الإيمان وصفاء الذهن وصلابة الإرادة لأكون جندياً نافعاً فعالاً في الجهاد الذي يقوم به العراق من أجل وحدة العرب... إلخ...».

لم يحسب واضع التوصيات حساباً للصعوبة في تطبيق ما أمر به ولم يشر المصدر الذي نقلنا منه النداء[٢٤] إلى مدى تأثيره وإلى مقدار استجابة ما دعاه بالجماهير العربية إليه. فالتوصيات التي فرضها كان في تطبيقها بعض الصعوبة كالامتناع عن الضيافة والاستضافة، الذي يتضمن إغلاق باب بيتك في وجه الأقربين والأصدقاء وأن يغلقوا بدورهم أبواب منازلهم في وجهك. أو أن تمتنع ويمتنعوا عن تقديم فنجان قهوة أو

---

(٢٤) العراق وسورية (ترجمة وتقديم الدكتور محمد مظفر الأدهمي، ص٥٣-٥٤) بغداد دار الحرية ١٩٨٦.

شاي عند الزيارة. أما التوجيه بعدم ارتياد الملاهي[٢٥]، فسيؤول تطبيقه بالطبع إلى غلق المقاهي الشعبية، لأنها وسيلة التسلية واللهو الرئيسة في البلاد الناطقة بالعربية.

وما من شك في أن التوجه إلى العناية الإلهية بالدعاء لتحقيق وحدة العرب - بعد أن شاءت إرادته أن يحمل الگيلاني والمفتي عبء الجهاد في سبيلها، وأن يكون العراق ساحتها وميدانها - إنما يستقيم تماماً مع أساليب العمل القومي العربي في الرجوع إلى الله قبل الرجوع إلى أنفسهم لإحداث التغيير المؤمل «ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم» (الأنفال).

كثيراً ما نسي القوميون العروبيون هذه الحكمة الإلهية.

* * *

لم يختلف موقف اليسار الماركسي العراقي (الشيوعيون ورفاق الطريق) عند قيام الحرب العالمية الثانية عن مواقف الأحزاب والمنظمات الشيوعية والماركسية الأخرى في العالم، وهي تستوحي سياستها المحلية من التعليمات التي يصدرها الكومنترن وتطابق بالنتيجة سياسة الاتحاد السوڤياتي العامة، وقد بدت بعد معاهدة الاعتداء بينه وبين ألمانيا النازية بهذه الصيغة الواضحة المقتضبة:

«هذه الحرب هي حرب بين كتلتين رأسماليتين إنها حرب إمپريالية لا تختلف عن الحروب التي سبقتها وليست من مصلحة الپروليتارية، إنها تعكس المنافسة على مناطق النفوذ وعملية انتقال المستعمرات من يد إلى يد».

واستتبع ذلك أن صدرت تعليمات من الكومنترن للأحزاب الشيوعية في الدول المتحاربة بمعاداة هذه الحرب، بما في ذلك بث الفكرة بين العمال والأعضاء عن طريق النشرات وتحريض العاملين منهم في المصانع الحربية على الاعتصاب والإضراب والتراخي، والحث على التهرب من الخدمة العسكرية.

لم يكن لهذه التعليمات من أثر أو معنى في بلاد المحور التي قضت على الأحزاب الشيوعية والاشتراكية قضاء تاماً، ولا في البلاد التي وقعت في قبضة المحتل النازي. ولذلك انصبت المجهودات في تحقيق ذلك وانحصرت في بريطانيا وفرنسا والدول الأخرى المعنية. واستتبع ذلك أن يقف اليسار الماركسي وفي طليعته الحزب الشيوعي

---

(٢٥) الملاهي في اللغة هي آلات الطرب مطلقاً وتحديداً ولا تنصرف إلى أماكن اللهو والتسلية، وهو الذي قصده واضع النداء بلا ريب فأخطأ التعبير.

العراقي موقف المؤيد من حكومة الگيلاني حكومة الدفاع الوطني، لأنها تقف في وجه أكبر إمبريالية عرفها تاريخ البشر.

ومع ذلك كان الشيوعيون يدركون الاتجاه القومي العربي الكاسح إلى الأفكار النازية، فدعوا في بيان لهم مؤرخ في شباط ١٩٤١ موجه إلى أبناء الوطن كافة، بصرف النظر عن روابطهم الطبيعية أو اتجاهاتهم السياسية، إلى وجوب وقوف العراق على الحياد في الحرب الحالية وعدم جعلها ساحة حرب. والعمل على إقامة اتحاد عربي يهدف إلى المحافظة على حياد الدول العربية مدعوماً بالتعاون العربي على الصعيد الشعبي ومن خلال منظمات شعبية عربية. إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد فسرعان ما حملتهم الموجة القومية العاتية عندما تسارعت الأحداث. ففي صباح يوم ٣ أيار (مايس)، وعلى إثر القصف الجوي العنيف لمعسكر الرشيد وصدور البلاغ الحربي رقم (٢) مشيراً إلى ذلك، أصدر الحزب الشيوعي نشرة خاصة دعا فيها الشعب العراقي إلى مساندة الحكومة الجديدة دون تحفظ والالتفاف حولها. ثم وجه إلى رئيس الحكومة رسالة في ٧ من مايس بدأها بهذا:

«إن الحزب الشيوعي العراقي يهنئ فخامتكم على مشاعر الود والمساندة التي خصّكم بها الشعب وهو يقدر حق التقدير صعوبة المسؤولية التي تتحملونها في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا... إن الحزب إذ يساندكم فهو لا يقوم بذلك عفوياً أو اعتباطياً، بل على أساس مقاييس علمية مستمدة من تعاليم ماركس ولينين الثورية. وستكون هذه التعاليم أيضاً دليلنا في تقييم أي اتجاه تسلكه الحركة في المستقبل. وبناء على ذلك يرى الحزب من واجبه الوطني أن يعرض لفخامتكم رأيه في أمور معينة من شأنها أن تلحق أضراراً بالحركة الوطنية، وبالدرجة الأولى يأسف الحزب الشيوعي، بل يستنكر الأعمال الاستفزازية التي تدبر ضد إخوتنا اليهود من قبل أذناب الإمپريالية البريطانية من جهة، ومن قبل مروجي دعايات الإمپريالية الألمانية من جهة أخرى...
الاعتداء على الحريات، اقتحام المنازل وسلب الممتلكات، وضرب وقتل الناس هي أعمال ليست ضد القانون والعدالة فحسب، بل هي ضد القيم الإنسانية في الشهامة والمروءة والنبل. إن هذه الأعمال الإجرامية تسيء إلى سمعة الحركة الوطنية وتؤدي إلى شق صفوف الجبهة الوطنية، ومن الذي يستفيد منها غير الإمپريالية؟ وفي الوقت الذي نعلن شجبنا لهذه الأعمال

واحتجاجنا عليها، لا يمكننا الإنكار على الأقل وجود بعض الخونة من الطائفة اليهودية المرتبطين بالعصابة الشريرة عصابة عبدالإله - نوري السعيد وزبانيتهم. لكننا نرى أن العقاب الذي يجب أن ينزل بهم ويتم وفق أحكام القانون.

في الدرجة الثانية تأتي أمور الدعاية. على مديرية الدعاية والنشر أن تهتم بتوجيه الشعب العراقي وفقاً للخط الوطني الصحيح. لكننا لاحظنا وبكل أسف أنها سلكت سبيلاً مضراً بمصلحة الشعب. لم نسمع مؤخراً إلا التأكيد على القضية العادلة لدول المحور وما من شك في أن فخامتكم تتفق معنا بأن هذه الدول لا تقل إمپريالية عن بريطانيا.

والنقطة الثالثة هي مسألة المعونة الخارجية. إن تأكيدكم في تصريحاتكم المتتالية بحصانة الحركة الوطنية من أي وصمة لعلاقة خارجية مما يدعو إلى الاطمئنان. فالاعتماد على أية معونة من أية دولة إمپريالية هو في مستوى الغدر بالحركة والسقوط في أحضان إمپريالية أخرى. . . وليس هذا مما يرغب فيه فخامتكم بالتأكيد. ونحن ننوه بهذا، استناداً إلى أنباء انتشرت بشكل واسع نقلاً عن مصدر مسؤول بأن قوات عسكرية أجنبية ستصل إلى العاصمة للدفاع عن استقلال العراق إلى جانب الجيش العراقي الباسل. إن صحت هذه الأنباء خلافاً لما نرجو فإن حركتنا الوطنية ستتلوث وتصبح جزءاً من الحرب الإمپريالية الثانية. وهي حرب حذرنا بلادنا منها وأنذرنا بوجوب ابتعادها عنها. وفضلاً عن ذلك فقد كنا أكدنا في الماضي ونؤكد الآن مرة أخرى أن الاتحاد السوڤياتي هو الدولة الوحيدة التي يمكن الركون إليها دون أن تصاب سيادتنا الوطنية بسوء. ونعتقد أن فخامتكم يشاركنا هذه النظرة. قد يفترض بعضهم أن المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوڤياتي ستؤدي إلى استظهار الشيوعية في بلادنا. لكن يكفي الإشارة إلى أن الاتحاد السوڤياتي ساعد تركيا وإيران في حرب الاستقلال وبقيت بلادهما غير شيوعية. ثم إن الشيوعية ليست طرداً يحمله أحدهم من بلد إلى آخر، بل هي حركة جماهيرية تنبع من أحوال الإنتاج والتوزيع الاقتصادي بالدرجة الأولى. هناك قضية أخرى وهي قضية السجناء السياسيين، فإن عطفكم لم يشمل الجنود الشيوعيين الشجعان الذين حكم عليهم في سنة ١٩٣٨».

والبيان طويل وإذا كان الگيلاني قد استجاب للطلب الأخير فأطلق سراح هؤلاء الشجعان، وهم الوجبة الأخيرة من المسرحين الذين حكمت عليهم المجالس العرفية العسكرية[٢٦]، فإن المطالب الأخرى التي تضمنتها المذكرة أهملت بطبيعة الحال. ولست ادري أكان الشيوعيون يجهلون بأن الحلف مع الشيطان قد تم منذ أشهر أو أنهم عرفوا به وكان قصدهم من التحذير تسجيل موقف ليس إلا. أما أنا فأرجح وجود الاحتمالين معاً. كان الشيوعيون العراقيون يتابعون الخط السياسي الذي سارت عليه موسكو في تعاملها مع دول المحور بدقة متناهية. يقفون حيث تقف ويسيرون حيث تسير وبهدي من ميثاق عدم الاعتداء. لا يدرون بطبيعة الحال، ولا أحد كان يدري، بوجود ملحق (پروتوكول) سري بالميثاق حول اقتسام الغنائم بين الاتحاد السوڤياتي ودول المحور بعد القضاء التام على الدولتين الإمپرياليتين البريطانية والفرنسية[٢٧].

كانوا يشاركون كثيراً من الناس العاديين معرفتهم بأن الانقلابيين العراقيين ربطوا مصائرهم بدول المحور قبل انقلاب نيسان ولم تبق مفاوضاتهم مع برلين وروما سراً. إلا أن الحزب الشيوعي الذي كان يعاني التشتت والانقسام والاحتراب على الزعامة بعد تشكيله مباشرة وجد من الضروري أن لا يبدو متخلفاً عن ركوب الموجة القومية - الوطنية وإلاّ عُدّ صنيعة للإمپريالية ووضع في قائمة الخونة. وإن وجد أي تردد فما من شك في أن الاتحاد السوڤياتي أعطى رأيه ضمناً في انقلابيي نيسان بالموافقة على

(٢٦) أعلنت حكومة الگيلاني عفواً عاماً عن جميع السجناء والمبعدين والمعتقلين من ضمنهم معتقلو الكُرد ومبعدوهم، وأيضاً عن المحكومين في قضية (حكمت سليمان).

(٢٧) لم يُعلم بهذا الپروتوكول السري إلا بعد الحرب والاستيلاء على وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ولقد تأخر الكشف عنه حتى قيام الحرب الباردة حرصاً على علاقة الحلفاء بالسوڤيات وعندما جرى اقتسام پولندا في حينه زُودت الأحزاب الشيوعية بالتبرير الديالكتي الذي صاغته موسكو وهو أن سبق الجيش الأحمر في احتلال هذا الجزء كان مفاجأة غير سارة للنازيين. كما أن الغرض منه هو استعادة الأراضي التي فقدتها روسيا أثناء حربها الخاسرة مع الپولنديين في العام ١٩٢٠. كذلك قدمت موسكو للعالم تبريرات مماثلة لشن حربها على فنلندا، وقضائها على استقلال دول البلطيق وضمها إلى الاتحاد السوڤياتي مع ضم الجزء الشمالي الشرقي من رومانيا. لم تجد الشيوعية العالمية في عملية اقتسام پولندا تكراراً لاتفاق ألماني- روسي أيام قياصرة الألمان وأباطرة الروس على اقتسامها وإعطاء حرية استرقاق شعوب البلطيق ثانية، (تجد نص ميثاق عدم الاعتداء مع الپروتوكول السري الموقعين في ٢٣ من آب ١٩٣٩ في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص ٢٤٥-٢٤٧: المرجع السالف).

إنشاء العلاقات الدبلوماسية وتبادل التمثيل الدبلوماسي مع حكومة الكَيلاني واستجاب لرغبتهم في تبادل التمثيل الدبلوماسي. كان الاتحاد السوڤياتي في تلك الفترة، وكما أجمع المؤرخون على ضوء وقائع لا تُدحض، يحاول استرضاء ألمانيا النازية بكل صورة ممكنة وتجنب أي احتكاك بها[٢٨] مطبقاً ميثاق عدم الاعتداء والبروتوكول بأمانة ودقة.

كان سكوت القوميين العرب على عملية مصادرة حريات شعوب أواسط أوروپا والقضاء على دولها مشابهاً لسكوت الأحزاب الشيوعية عن العمل الروسي المشابه. ووجه الغرابة هنا هو أن القوميين العرب وصحفهم دأبوا على شجب العدوان الروسي، مثلما دأب الشيوعيون على استنكار وشجب العدوان الألماني. دون أن يجد كلاهما وجه شبه في العملين!

وفي خلال فترة الأسابيع الثلاثة التي تقدمت الغزو الألماني للاتحاد السوڤياتي كان هناك تعاون حقيقي بين جهات تقدمية ماركسية وبين بعض انقلابيي مايس في إيران يرمي بكل سذاجة طفولية إلى طلب (المعونة العسكرية من الاتحاد السوڤياتي) لاستئناف القتال ضد البريطانيين في العراق!! وقد بدئ بتنفيذ الفكرة فعلاً وقت أن بدأت الجحافل الألمانية تتدفق عبر حدود طولها ٢٤٠٠ ميل وانطلقت القاصفات تدك المدن الروسية بوابل من قنابلها[٢٩].

---

(٢٨) بعد التوقيع على الميثاق والپرتوكول بين من كان قبل ساعات من ألد الأعداء والخصوم ظل ستالين يتوجس خيفة وفي قلبه شك عميق في صدق الألمان، لنجده يختلي بوزير الخارجية الألماني (فون ريبنتروب) ليقول له: إن الحكومة السوڤياتية تنظر إلى الميثاق نظرة جدية للغاية وإنه ضامن بكلمة شرف منه أن الاتحاد السوڤياتي لن يخون شريكه. (المرجع السالف: الوثائق ص ٢٤٨).

(٢٩) يحسن بالقارئ مراجعة ما كتبه الأستاذ بطاطو (ص ٤٠٨-٤٦٠): المرجع السالف، بتفصيل وجدية لا يُحسد عليها، فقد ذكر ما خلاصته أن واحداً من الشيوعيين البارزين ممن هرب مع العروبيين وهو قاسم حسن راجع السفارة السوڤياتية في طهران بصحبة صديقه يونس السبعاوي، ووضعا أمام السفير الروسي اقتراح قادة حركة مايس الهاربين طلب العون العسكري من حكومته (نشر بيان رسمي حول تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوڤياتي ببغداد في نهاية الأسبوع الثالث من مايس ولم يتحقق تبادل فعلي). فأبدى السفير استعداده لتسهيل مهمتهما في الشخوص إلى موسكو وبحث الأمر مع الحكومة السوڤياتية، فغادرا العاصمة الإيرانية وبعد أن قطعا زهاء ثلاثمائة كيلومتر سمعا بأنباء الهجوم الألماني فعادا. نقول: الظاهر أن السبعاوي وزميله قد أساءا فهم الأحداث الدامية التي وقعت في ١و٢ من حزيران في بغداد، وترجمها =

في الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ انقلبت تلك الحرب التي وصفها الشيوعيون في شتى أنحاء العالم بالحرب الامبريالية وبسحر ساحر إلى حرب عادلة، تشنها قوى الظلام والرجعية على القوى الديمقراطية والتقدمية[٣٠].

وكان على الشيوعيين العراقيين أن يبدلوا موقفهم من الإمبريالية البريطانية بشكل ينسجم مع الوضع الجديد. سيما بعد أن قامت جيوش تلك الإمبريالية بالمشاركة مع الجيش الأحمر في احتلال إيران وإلقاء القبض على الهاربين من زعماء حركة مايس ومن مشايعيها، وبينهم عدد من الشيوعيين والتقدميين.

قلنا: كانت الحركة الماركسية وقتذاك (ونسميها بالحركة التقدمية) تعاني فوضى

= السبعاوي بثورة شعبية واسعة النطاق ضد المحتل يجب استغلالها يدعمها ويقودها جيش غاضب مصمم على أداء رسالته القومية وانه لا يحتاج إلا إلى دعم عسكري من جهة معادية للحلفاء بعد أن خذله المحور.

يستنتج مما كتبه بطاطو عن قاسم حسن أن الرجل لم يحظ منه بأي احترام وقد وصفه بأنه مثال بليغ للانتهازية والنفاق السياسي. وأذكر أن العلاقة بينه وبين السبعاوي تعود إلى أيام دراستهما الحقوق العراقية، وأذكر أني ابتعت منه كتيباً بحجم الكف من تأليفه مصدّر بعنوان طويل أوله إن لم تخني الذاكرة (جهاد فلسطين). وقد اعتبر من الشيوعيين القوميين وأصبح سفيراً في عهد عبدالكريم قاسم.

(٣٠) يصف عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني في كتابه: أنا أقرّ (I Confess) هذا التحول المفاجئ الذي أدى به إلى الاستقالة من الحزب، فيقول إن الحزب بدأ منذ اندلاع الحرب يعد منشورات وبيانات تدور حول طبيعة هذه الحرب التي لا يستفيد منها غير تجار الحروب وأنها ليست من مصلحة البروليتاريا، ولذلك يجب على العمال البريطانيين مقاطعتها بالتهرب من الخدمة العسكرية والإضراب وعرقلة المجهود الحربي.

ويقول إنه كان يركب دراجته في الصباح الباكر ليوزع حصصه من المنشورات على الأعضاء ويلصقها في الأماكن العامة رغم ملاحقة الشرطة التي لم تكن تملك من الصلاحية غير مصادرة تلك المنشورات وتمزيقها. ويصف الإرهاق والتعب الشديد الذي كان يصاب به الأعضاء المكلفون بالتوزيع حتى جاء يوم ٢٢ حزيران، حيث ورد الحزب إشعار من الكومنترن بوقف الحملة فوراً وانتظار رسول خاص بتعليمات جديدة. وقد جاء المندوب بعد أيام قليلة، وفي اجتماع للجنة المركزية أبلغهم أن الحرب أصبحت الآن حرب تحرير بعد تعرض الاتحاد السوفياتي للغزو وهي تهدف إلى القضاء التام على الفاشية والنازية. قال المؤلف (أخذ بعضنا ينظر إلى الآخر نظرة ذهول وحيرة إذ كان ذلك يعني دورة فجائية مقدارها ١٨٠ درجة. وراح كل منا يتساءل كم سيبقى لدينا من احترام عند أولئك الذين زوّرنا لهم الحقائق قبلاً وكم سيصدقون لقولنا فيما بعد؟).

فكرية وتناحر على القيادة، وفي خلال السنوات التي لحقت تأسيس الحزب الشيوعي العراقي وجدنا التقدميين عامة والشيوعيين يرون رؤية القوميين العرب السياسية ويتبنون شعاراتهم أيضاً وفي مقدمتها قضية فلسطين عندما باتت القضية المركزية في العمل القومي. وجد الشيوعيون وبينهم شيوعيون قوميون أن التمسك بنضال الپروليتاريا العالمية وحده سيقصيهم عن القضايا الوطنية المحلية الآنية، ويعزلهم على صعيد البلاد الناطقة بالعربية ويجعلهم هدفاً سهلاً لطعن القوميين بإخلاصهم، سيما وأن أنصار التقدمية ومؤيديها، ومنهم أعضاؤهم الحزبيون، كانوا يضمون نسبة كبيرة جداً من أبناء الأقليات المسيحية واليهودية والصابئية والكُردية أكبر من حجم تلك الأقليات السكانية نسبةً للمجموع العام.

ثم إن شعارات مكافحة الإمپريالية والاستعمار والصهيونية العالمية والنضال في سبيل الاستقلال التام للبلاد الناطقة بالعربية والتخلص من النفوذ الأجنبي واستغلاله لا يتنافى قط مع تعاليم الماركسية ومبادئها، ولذلك جاء تأييدهم الأولي لحركة مايس منسجماً في الظاهر مع هذا الاتجاه ومطابقاً للتعاون الذي تم بين بعض الشيوعيين وبين الحركات القومية في العراق والأردن على إيصال السلاح إلى المجاهدين الفلسطينيين.

مع هذا لم تنج الأقليات العرقية والطائفية المسيحية من الفوضى الفكرية التي انتابت الانتماء القومي وبلغت أوجها في حركة مايس. والدعايات النازية والإعجاب بما أنجزه هذه النظام وشقيقه الفاشي لم تكن قاصرة على القوميين العرب المسلمين، بل تعدته إلى المسيحيين بمشاركة حماسية فعلية لعدد كبير من الشخصيات المثقفة إلى جانب شريحة كبيرة من العامة وباندفاع عاطفي مماثل لذلك الذي انتاب القوميين وعامة العروبيين المسلمين. وربما عزي السبب الرئيس لهذا الاندفاع من النوعين إلى خيبة أمل فيما كان يرجى من بريطانيا أو تخليها المتكرر عن حمايتهم ومساندة دعواهم بالضمانات والحقوق التي نص عليها في التعهد الدولي العراقي لعصبة الأمم. وقد برهنت وقائع عديدة بأن البريطانيين ليسوا على استعداد للتضحية بمصالحهم في العراق والمرتبطة على حلفها مع الطبقة الحاكمة والاعتماد عليها. كما انتهز هؤلاء المثقفون الفرصة في مايس للانسياب في الخط العام وركوب المزاج الغالب مع الراكبين، لأنه من باب آخر قد يصلح برهاناً على أن المواطن العراقي المسيحي لا يقل عن المواطن المسلم إخلاصاً للقضايا الوطنية وشعوراً بها، وأنه مثله يمقت

الاستعمار والنفوذ البريطاني[٣١] في العراق.

ولم يقتصر الأمر على بعض المثقفين وأصحاب المراكز الاجتماعية الملحوظة من المسيحيين، فقد سرى العطف على المحور والإعجاب بزعيميه وبالانتصارات التي حققتها جيوشهما إلى بعض من الطبقات الدنيا والبسطاء السذج، بلغت بفئات منهم حد الهوس الجنوني الباعث على الضحك والتندر به[٣٢].

مع هذا كله بقيت الأغلبية المسيحية كالطائفة اليهودية كمية مهملة لا يعتد بها إلا أن أفرادها خلال تلك الفترة لم يتعرضوا لأي اعتداء كما كان يحصل لليهود في المدن الكبيرة لاسيما بغداد.

أفلئن القوميين النظريين والعمليين كانوا قليلي الاهتمام بفحص الهوية القومية للمسيحيين؟ بطبيعة للحال لم يكن القوميون العروبيون يقبلون من اليهودي الادعاء بالعروبة كما لم يحاول أحد منهم ذلك على مدى علمي. والأمر يعود كما قلنا ورددنا مراراً إلى أن الفكرة القومية في العالم الناطق بالعربية بقيت حتى موت شعاراتها الأثيرة ثم اضمحلالها عملاً غير مستقرة على خط معين. ظلت فكرتها قلقة يحفّ بها الغموض. فالقرار فيمن يكون عربياً ظل إلى الأخير ضمن حدود الذوق والنزوة. وكان بوسع الفرد أن يقول إنه سوري أو عراقي أو مصري، أو حجازي، أو أن يقول فقط إنه مسلم، كما كان بإمكانه أن يضيف إلى أية واحدة من هذه النسب كلمة (عربي) أو أي كلمة أخرى، كأن يقول: مسيحي عربي بدلاً من قوله مثلاً: آشوري يتكلم العربية، أو فينيقي عربي اللسان، أو مصري عربي اللغة، وإذا كان المسلم الناطق بالعربية لا يرى إحراجاً ومشكلة، بل إقراره بعربيته إنما هو أمر طبيعي، فإن عامل الاختيار الفردي كان لأغلبية الأقليات التي تعيش في المجتمع المسلم الناطق بالعربية مصدر عذاب وحيرة.

---

(٣١) يتجلى ذلك من استقراء أسماء المعتقلين القوميين بعد الحركة، ففيها عدد كبير من المحامين والصحافيين والمدرسين ورجال الأعمال والتجار المسيحيين، الذين أبدوا نشاطاً ملحوظاً خلال شهري نيسان وأيار.

(٣٢) مما أذكره في هذه المناسبة أن صديقاً معلماً بناءً يعمل في ترميمات مطار الموصل اسمه (يونس) كان ينزل هتلر منزلة عبادة، حصل على علبة لحم محفوظ من أحد العسكريين الألمان الذين وصلوا الموصل، رُسم على ورقتها علامة الصليب المعقوف. فدعا رفاقاً له يشاركونه حماسته للاحتفال بفتحها وتناول ما فيها. وقد تابعت بنفسي الطقوس والمراسيم التي استخدمها المجتمعون في فتح العلبة بكلّ مظاهر الخضوع في تناول محتوياتها. وكان نصيب كل واحد منهم ملعقة صغيرة واحدة!

ومن حيث إن التعرف إلى الهوية القومية يجد ملاذه الأخير في اللغة كوسيلة لمخرج، فإن الفرد سيبقى يجاهد ويعاني في سبيل المفاضلة بين كثير من وسائل إثبات الهوية القومية.

وما من شك في أن الاشتراكية سواء بنمطها الماركسي المرتبك أو بمفهومها النازي المشوه كانت أكثر الفكر الغربية قبولاً واستواء عند الفكر العربي السياسي، كما كان الأمر بها في سائر الأقطار الأخرى في العالم. لكن بدأ شيء من الارتباك والحراجة عند محاولة تفاعل الإسلام والماركسية الاشتراكية في أنبوب الاختيار القومي، لا سيما عندما تكون الشيوعية نسخةً من الاشتراكية. فالماركسية بالنظر إلى الشيوعيين هي نظام يستند إلى نظرية، في حين بقيت القومية العروبية حركة سياسية في الجوهر لا تستند إلى نظرية. ففي خضم المعركة التي زعمها قوميو حركة مايس مع الإمبريالية والاستعمار البريطانيين وجدوا أن الإسلام بأصالته ذو مناعة وأنه محصن من الفكر الماركسي، وسموا الشيوعية بالعقيدة الوافدة، في حين وجدوا في المسخ الاشتراكي الذي أخرجه رحم النازية ما لا يتعارض ومبادئ الإسلام وأن بإمكانهم الاعتماد على الإسلام في دعم حركة مايس. وقد كانت عصبة الانقلابيين على دراية بهذا، إذ وجدت فيه غطاء تخفي تحته عواقب ورطتها، وتحقق به تأييداً جماهيرياً لا يمكن الاستغناء عنه. فكانت جهودهم تنصرف إلى خطب ود علماء الدين والجهات العلمية الإسلامية سنيّها وشيعيّها، لذلك احتثت عملية إصدار الفتاوى العديدة بالجهاد. وجُنّد خطباء المساجد والجوامع حيثما أمكن للتنديد بالعهد السالف ووصم الطبقة الحاكمة بالخيانة والعمالة. واحتثوا رجال الدين في كل مكان على إرسال برقيات التأييد.

لم تكن المسألة عند زعماء حركة مايس تتعلق بنظام حكم يجب تبديله ولم يفكروا ببرنامج اجتماعي واقتصادي لنظام جديد، وكل ما اتضح فيما بعد أن الفكرة القومية لم تكن فكرة موحدة اجتمع حولها زعماء الحركة، فقد كان لكل منهم مفهومه الشخصي لها - إن تسامحنا ولم نقل غرضه الشخصي من الانقلاب.

أولئك الذين هربوا إلى معسكر المحور مع أنصارهم ومؤيديهم لم يجدوا حرجاً مثلاً في الاستجابة إلى طلب القيادة العليا الألمانية بتشكيل فيلق عربي، يحارب كجزء من قوات المحور لا على أرض عربية ولا في سبيل تحرير الأمة العربية، بل كقوة مرتزقة في صفوف الجيش الألماني بين (رودين) و(تونس) و(ستالينو) و(ستالينگراد) حيث كانت مقبرتهم الأخيرة.

أراني شذذت عن موضوعي الأصلي، أعني استعراض الموقف الماركسي، فلأعد إليه:

في مبدأ الأمر ذهل الشيوعيون من الكارثة التي حلت باليهود، ولكن حيرتهم لم تطل، إذ كان عليهم أن يقفوا بوجه منتقديهم ومستنكري موقفهم داخل تنظيماتهم وخارجها. فدافعوا عن تورطهم الحماسي في مساندة حركة مايس وصدرت صحيفتهم (الشرارة) في أوائل نيسان بمقال تهاجم فيه منتقديهم مفلسفة موقفهم بكل ما يساعف المثقف الماركسي من حجة وقوة عارضة. وكان ذلك قبل غزو الاتحاد السوڤياتي بعشرة أيام. قالت الجريدة:

«قد يكون صحيحاً أن ما دعي بحكومة الدفاع الوطني كان يتألف من أفراد ينتمون إلى الطبقة الرجعية الحاكمة، ومن الشوفينيين المتشبعين بالأفكار النازية والفاشية، والعسكريين الذين تزعموا انقلابات عسكرية صرفة... إلا أن تأييدنا للثورة إنما كان انسجاماً مع انعطاف الجماهير، وبسبب معاداتها للإمپريالية البريطانية. وقد قال (لينين) نفسه إن مصلحة الثورة تتطلب في بعض الأحيان أن تترك المسؤولية عنها حتى في أيدي الرجعية، لأن قوة الحركة الوطنية قد تدفع قادتها رغم رجعيتهم إلى الاستمرار في خدمتها... إلخ»[٣٣].

إلا أن هذا الاعتذار لم يجدهم كثيراً وانفض عدد كبير من أنصارهم من حولهم وحصلت انشقاقات في الحزب، لا سيما من جانب الشيوعيين القوميين الذين لم يعجبهم وصف الحزب لرجال مايس بالرجعية، وكذلك من جانب الحرفيين الذين وجدوا في وصف الحزب لما وقع في نيسان - مايس انقلاباً لا تنطبق عليه شروط الثورة. وكان خلافاً شديداً راقبته وتابعته مشاهداً من مركز فريد خصّني به حسن الصدف[٣٤]. وأقصد به مكتب تحرير مجلة (المجلة)، الذي انقلب في الأشهر الأخيرة

(٣٣) لا يجرؤ الماركسيون - اللينينون على تحريف النصوص التي يستشهدون بها عند اقتباسها من هذين المصدرين. ومع أني لم أجد نصاً مطابقاً للنص الذي جاء في المقال من المجموعة الكاملة لكتابات لينين (ط. موسكو)، إلا أنه كان يقول شيئاً مشابهاً لهذا في حكومة (كيرنسكي) المؤقتة إثر ثورة شباط ١٩١٧ الروسية، سيما بعد إحباط مؤامرة الجنرال (كورنيلوف).

(٣٤) في العام ١٩٣٨ قام نوري السعيد أثناء وكالته لوزارة الخارجية بعملية تطهير شملت موظفي الوزارة الدبلوماسيين المشكوك في ولائهم للدولة (القصد هو التخلص من ذوي الأفكار التقدمية =

الثلاثة من العام ١٩٤١ ملتقى لجمهرة من المثقفين والسياسيين التقدميين، الذين مثّلوا أدواراً في حياة العراق السياسية، حيث كان يجري نقاش سياسي ترتفع فيه الأصوات ويبلغ درجة من الحدة لا تليق في رأيي بمقام المتحدثين[٣٥].

وعلى أية حال فبعد الثاني والعشرين من حزيران نفضت قيادة الحزب الشيوعي عنها رداء السرية ونعم اليساريون الناشطون بحرية اللقاء والاجتماع العلني حين صدرت

= والديمقراطية). وممن شملهم الطرد الأساتذة كامل قزانجي (نائب قنصل في بومباي)، ويوسف الحاج إلياس (معتمد الحزب الوطني الديمقراطي في الموصل فيما بعد)، والأديب والشاعر عبدالحق فاضل المحامي. وقد عاد الأخيران إلى الموصل وامتهنا المحاماة، إلا أن عبدالحق قام بإصدار مجلة (المجلة) الشهرية، وكان فيها أول خروجه إلى عالم الكتابة كما كانت بداية نشاطي الفكري القلمي، بتشجيع وتوجيه من تلك الشخصية الرائعة التي غمرتني بخلقها وتواضعها وسعة اطلاعها ووضعتني على بداية الخط الصحيح في المعرفة والتتبع الفكري، رغم فارق السن والمركز الاجتماعي. كما كان تأثير الثاني منهما على نهجي السليم في مزاولة مهنة المحاماة كبيراً. ولم يكن تأثير الأول (قزانجي) بأقلّ شأناً من الاثنين، وقد عرفته مدرساً للإنگليزية في متوسطة الناصرية، ثم صحبته أربع سنين ونحن طالبان في كلية الحقوق نشارك معاً في مراجعة دروسنا. بعد مرور عامين ونيف أُعيد عبدالحق ويوسف الحاج إلياس إلى وزارة الخارجية بإلغاء قرار الفصل، لكن يوسف آثر الاستمرار في مزاولة مهنة المحاماة في حين عاد عبدالحق. لم يكن بوسع يوسف وهو صاحب امتياز (المجلة) ان يستمر في إصدارها، وقد دعي هو وعبدالحق إلى دورة ضباط الاحتياط، فقرر سدها. إلا أن (ذا النون الحاج أيوب آل عبدالواحد)، الذي كانت (المجلة) فاتحة شهيّته كقصصي، عزّ عليه ذلك وكان إذذاك مدرساً للرياضيات في ثانوية بغداد المركزية، فأقنع يوسف وعبدالحق بنقلها إلى بغداد. وتم ذلك في ١٩٣٩ وقد داومت مع سائر المساهمين الأولين في التحرير نشر الأبحاث والمقالات الأدبية فهم (حسن زكريا، وأكرم فاضل) وانضم إلى المساهمين كتاب آخرون أذكر منهم سليم طه التكريتي وعبدالملك عبداللطيف نوري زميل الدراسة.

كانت إدارة المجلة في غرفة خارجية منفصلة في منزل (ذا النون أيوب) وفي هذه الغرفة الصغيرة العارية إلا من مقاعد ومنضدة عتيقة، بدت لي وجوه جديدة تختلف اليها، كما زحفت إلى المجلة مواضيع وأبحاث سياسية ماركسية ويسارية طغت عليها تماماً، ثم بدأت المجلة تنشر صوراً للحرب في الجبهة الشرقية كانت تتزود بها من دائرة العلاقات العامة البريطانية إلى جانب أنباء أخرى، وأُشيع أنها كانت كغيرها تتلقى مساعدة مالية لمساهمتها في المجهود الحربي ومساندة الجبهة الديمقراطية.

(٣٥) ممن كان يختلف إلى المكتب السيدان خدوري ويحيى قاسم الموظفين في السكك الحديد، وداود الصايغ وعبدالله مسعود القريني، ويوسف سلمان يوسف (فهد) وعبدالملك عبداللطيف نوري وهو زميل دراسة، والأربعة الأخيرون كانوا يساهمون في التحرير.

الأوامر لدائرة التحقيقات الجنائية بعدم التعرض لهم، بل شجعت بعضَ الدوائر على الإفادة من بعضهم وبعض مطبوعاتهم في المجهود الحربي ضد الفاشية. بهذا الشكل وجد الشيوعيون حبل الإنقاذ يُمد إليهم من جهة ما كانوا يتصورونها حتى في أبعد أحلامهم هي عدوتهم اللدود الإمبريالية البريطانية! ولم يعودوا يرون في الاحتلال البريطاني الثاني للعراق عملاً إمبريالياً[٣٦].

وهكذا كان، فبعد أن نفضت أدبيات الحزب الشيوعي العراقي يدها من مسألة الاعتذار عن مساندتها حركة مايس، راحت بالتدريج تنشر لائحة الاتهام لها[٣٧]. فبدأت بمحاكمتها بتهمة تجاهلها مطالب الجماهير، وإنكارها عليهم حقوقهم الدستورية، والتنديد برجعية زعمائها المدنيين ووصم العقداء الأربعة وبعض ضباط الجيش بالتشيّع للنازية والعسكرية البروسية. وأنها ربطت مصيرها بأفظع نظامين دكتاتوريين ظهرا في التاريخ، واعتمدت مساعدتهما ومساندتهما المطلقة، ووصفتها فيما بعد بـ(المغامرة الحمقاء) أو بأنها حركة فاشستية إجرامية[٣٨].

* * *

---

(٣٦) رأيت بعيني زكي خيري (عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي) يقتعد مكتبه في دائرة العلاقات العامة البريطانية، التي كانت تدار بإشراف (بيرون) وزوجه الصحفية الشهيرة (فريا ستارك) أثناء زيارة لقريب لي مستخدم ككاتب طابعة هناك.

(٣٧) في مقال عن الجيش العراقي للأستاذ ثابت حبيب العاني (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي منذ ١٩٣٦) نشر في مجلة الثقافة وهو مطبوع شيوعي (العدد ٢٦٦ أواخر ١٩٩٥) وجدت هذه العبارة «وكان من أبرز الجماعات التي ارتبط اسمها بتاريخ الانتفاضات في الجيش هي قادة حركة مايس ١٩٤١ التي تسمى حركة رشيد عالي الكيلاني، حيث سقط فيها الشهداء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان ويونس السبعاوي». وأقول: في الوقت الذي أستبعد أن يكون الكاتب غافلاً عن الحكم التاريخي الذي أصدره الحزب الشيوعي العراقي على هذه الحركة وزعمائها أرى بأفضل التقديرات أن إلصاق هذه الصفة بهم هنا وبعد أكثر من نصف قرن هو من قبيل المجاملة أو من طبيعة السخاء العربي في منح الألقاب المشرفة. فلفظة «الشهادة» في اللغة تعني الموت في سبيل تأييد حكم الله بالتحديد. وقد استخدمت في عصرنا هذا على سبيل المجاز لكل من لقي حتفه في سبيل قضية سياسية أو عقيدة، أو قتل في حرب محلية بحسب المزاج والتفضيل من قبل مختلف الجهات السياسية في البلاد الناطقة بالعربية. ولذلك كان خلع هذه الصفة عادةً اعتبارياً ندر أن اتفُق عليه. وهم في زيادة مطردة يخيل لي معها أنها تشغل بال المكلف باستقبال أرواحهم في الجنة، واحتجاز مقاعد لهم هناك. وربما اشتبك في نزاع مع الفرقاء فيمن يكون شهيداً ومن لا يكون أثناء عملية التصنيف!!

(٣٨) يراجع في هذا ما كتبته جريدة (الشرارة) في مايس - حزيران ١٩٤١ ثم ما كتبته جريدة =

في تاريخ الحركة القومية العربية في العراق لم تنزل بالدعوة العروبية ضربة مساوية أو مدانية للضربة التي سددتها حركة مايس لها وبآثارها المدمرة القريبة منها والبعيدة. آثارها القريبة التي لمست مثلاً بعد القضاء عليها مباشرة أنه تمت عملية فرز عظيمة بين القوميين الحقيقيين وبين القوميين المؤقتين والطارئين وهم الأغلبية العظمى وبينهم الفئة التي بهرجتها دعاية الألمان وانتصارات المحور، والفئة التي انساقت بتيار المشاعر القومية والوطنية الصرفة. ومن نتائجها أيضاً طلاق بائن وفرقة تامة بين القوميين والكلاسيكيين رجال الطبقة الحاكمة المشاركين في ثورة الحجاز وبقايا أعضاء الجمعيات العربية السرية في العهد العثماني، وبين القوميين الجدد من الشباب والناشئة التي أخرجتها مدرسة نادي المثنى وتعاليم ساطع الحصري ودرويش المقدادي ودروزه

= (القاعدة) في حزيران ١٩٤٣ ثم تقرير الرفيق فهد في مؤتمر الحزب (قضيتنا الوطنية) بتاريخ آذار ١٩٤٤ (أثبت بطاطو - المرجع السالف - ذلك بتفصيل وافٍ). من العبث الركون إلى رأي يبديه كاتب سوڤياتي في الشؤون السياسة أو الأحداث التاريخية، فليس ثم مؤلَّف كان يرى نور النهار هناك إلا وهو منسجم والخط السياسي الرسمي الذي تنتهجه الحكومة السوڤياتية في ظرف معين. فدور النشر تملكها الدولة والكتاب رقباء على أنفسهم قبل أن يعرضوا تأليفهم على السلطة التي تملك الأمر بالنشر. وفي إبان تصاعد الحرب الباردة في الستينات وما تلاها وباتجاه السوڤيات المحموم إلى مساندة الحركات القومية ودعم الحكام القوميين في البلاد الناطقة بالعربية لم يكن مصدر عجب أن تقرأ عن حركة الگيلاني آراء تختلف عن الآراء التي كتبت عنها أثناء الحرب العالمية (يستشهد البراك: المرجع السالف، ص٢٤٠، بكتّاب سوڤيات ثلاثة صدرت أبحاثهم ومؤلفاتهم بعد العام ١٩٦١).

في كتابي: مغامرة الكويت: الوجه والخلفية ج٧ - ط ستوكهولم ١٩٩١. أوردت مثلاً كهذا من التعامل السوڤياتي مع شخصية (تروتسكي) خصم ستالين الذي خطط مؤامرة اغتياله في المكسيك، وكان وزير الدفاع عند قيامه بعقد معاهدة برست ليتوفسك مع قيصر روسيا. وهذا هو: في دائرة المعارف الروسية: طبعة ١٩٢٧ كتب (مينتس Mints) وهو مؤرخ سوڤياتي: حمل تروتسكي إلى برست ليتوفسك صيغة لا سلم ولا حرب بتوجيه من الحزب الشيوعي وفي ١٩٢٩ كتب المؤرخ المعروف ياروسلاڤسكي Yarosloveskey من أجل إحداث أثر سايكولوجي مشكوك في جدواه أخذ تروتسكي على مسؤوليته الخاصة جانب المخاطرة التي كان يحتمل أن تؤدي إلى تدمير الدولة السوڤياتية بسبيل سياسة لا سلم ولا حرب. وفي ١٩٣٤ كتب المؤرخ السوفياتي كرونين (Kronin): أخفق تروتسكي في تنفيذ التعليمات التي زوده بها لينين شخصياً، وتصريحه لا سلم ولا حرب إنما كان خلافاً للأمر الذي صدر له من لينين وستالين. وفي ١٩٣٨ كتب المؤرخ بوبوف (Popov): إن هذا الحقير تروتسكي استطاع بمظهره المخادع ونفاقه إخفاء موقفه الإجرامي كمشعل للحرب بشعار لا سلم ولا حرب.

وأضرابهم. ومنها أيضاً عودة أعضاء تلك الفئة من الطبقة الحاكمة التي ساهمت في الحركة وقامت بأدوار رئيسة فيها إلى أحضان أمها، مشيعة بالازدراء والاحتقار، إذ عيب عليها تخاذلها وتراجعها المخزي، لاسيما مواقف رجالها الاعتذارية والتسابق إلى إظهار ندمهم، ومحاولاتهم التقرب من السلطة. كما كشفت عملية هروب فريق منهم ضعف نفوسهم ومدى تعلقهم بالحياة مقابل ما تظاهروا به من الإخلاص لمبادئهم القومية والتفاني في سبيلها. إنهم في أفضل الأحوال وبخير ما يمكن أن يُنعتوا مجرد ساسة يتحدثون للعموم بما له الوقع الحسن، ويعدون بما تصبو إليه النفوس وتهفو في ظروف معينة، لا يعبأون بالنتائج ولا يبالون بالخراب الذي يخلفونه وراءهم في حالتي النجاح والفشل.

لـ(ستراتوكليس) السياسي الماجن (القرن ٤ ق.م) قولة في هذا يصعب عليّ إغفالها: «إذن فأنا أتعشى من الأشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة».

ومن نتائج ذلك أنه تم إلغاء عقود ثلاثمائة واثني عشر مدرساً ومدرسة من تبعية سورية ولبنان وفلسطين ومصر[٣٩] ممن شايع الحركة أو لم يشايعها. وجرت عملية تطهير واسعة في الموظفين الحكوميين شملت ما يزيد عن الألف من متصرف ومدير عام إلى ملاحظ كاتب بسيط، وبينهم زهاء ١٥٠ ضابطاً وضابط شرطة، ولم تعد الكلية العسكرية تستهوي الأقليات المسيحية كما كانت في السابق. فانعدم أو كاد شوق شبابها إلى رهان مستقبلهم بالمسلك العسكري. كما أُلغي نظام الفتوة بعد أيام قلائل من عودة السلطة والقضاء على الحركة، وأُلغي معه استعمال ألقابها في المراسلات.

أغلقت أبواب نادي المثنى وسيق أعضاؤه البارزون إلى معسكرات الاعتقال، كما عُطلت الصحف المشايعة للحركة وزج عدد من محرريها في المعتقلات أيضاً[٤٠].

---

(٣٩) من التدابير العاجلة التي اتخذتها وزارة المعارف لسد النقص العظيم في المدارس الثانوية أنها دمجت مدة التدريب في دورة ضباط الاحتياط للصف المنتهي من دار المعلمين العالية بالسنة الأخيرة. فكان الطلاب يؤخذون فجراً للتدريب العسكري ليعودوا إلى مقاعد الدراسة في التاسعة صباحاً وهم ببزاتهم العسكرية!

(٤٠) يقول الحسني: المرجع السالف، ج ٥ ص٢٥. وهو الطبعة التي استبدل فيها وصف حركة مايس فكان (الحركة التحررية) بدلاً من (الفتنة العمياء): «توقفت أهم الصحف اليومية كـ(البلاد، والاستقلال، واليوم) عن الصدور منذ أن دخل الجيش البريطاني بغداد في ٢ حزيران. فلما هدأت الحالة شجعت السلطات بعض الموتورين وصغار الكتاب على إصدار صحف جديدة كانت مهمتها الطعن في رجال الحكم السابق والقذف فيمن ساعده وشايعه. وكانت هذه =

وأُسقطت الجنسية عن ساطع الحصري ودرويش المقدادي وطردا من البلاد مع جمهرة كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين والقوميين السوريين.

وفي معسكرات الاعتقال التي ضمت البارزين والخاملين من أشياع الحركة من قوميين حقيقيين وآخرين طارئين كانت هناك عملية فرز أخرى. فإلى جانب الزعماء القوميين الحقيقيين كان هناك عدد كبير من رفاق الطريق، وكان ثمّ من أبدى نشاطاً لا يمكن إغفاله بدافع من الانتهازية والحرص على مقعد في صفوف الغالب. خليط غريب غير متجانس لا يتبع جميعه فكرة موحدة أو ولاء حزبي أو سياسي في الخارج. جُمعوا وفق هوى في نفوس الحكام، لا يخلو بعضه من عداء شخصي وموجدة يحملها الحاكم على فلان الفلاني أو إخبار مذيل بتوقيع (مخلص للعرش والوطن) أو تقرير تنظمه دائرة التحقيقات الجنائية أو قوائم تخرج من باب السفارة البريطانية. ولم تكن السلطة أيامها بحاجة إلى سنّ قانون أو مرسوم جديد، فقد كفاها الگيلاني نفسه مؤونة ذلك بمرسومه السيّئ الصيت في العام ١٩٤٠[٤١].

ليس بوسعي أن أقدم وصفاً أدق وأبلغ من ذلك الذي جاء في كتاب ألفه أحد المعتقلين. وقد بدا فيه أولئك السيئو الحظ كالعناكب التي وضعت في زجاجة أحكم سدها:

«كان المعتقلون أنفسهم متخاصمين مشاكسين متباغضين، يقذف بعضهم بعضاً

= الصحف تعيش على المخصصات المعروفة وعلى ما تنفقه عليها دائرة العلاقات البريطانية والاستخبارات العسكرية. وكان القائمون ببعض هذه الصحف المرتزقة يخرون كالشهب فيموت أحدهم بالسفلس والآخر بالتدرن الرئوي والثالث بالزهري والرابع بالسحايا الدماغية وما إلى ذلك من الأمراض العفنة حتى خلا الجو منهم.» نجّى الله الحسني المؤمن بحكم الله وأطال عمره! أفكان هذا من قبيل الانتقام الرباني، وقد شاءت إرادته مقدماً أن يصب انتقامه على القائمين بالحركة، ولم تعد ثم حاجة إلى قصف أعمار هؤلاء المحررين المساكين بتلك الأمراض الخبيثة (السفلس والزهري اسمان لمسمى واحد).

(٤١) مرسوم صيانة الأمن وسلامة الدولة رقم (٥٦) الصادر في عهد وزارة الگيلاني الثالثة لاستخدامه ضد خصومه بالأساس، وفي الظاهر كما أشاعت حكومته لمكافحة الشيوعية والماركسية. وقد منحت المادة الخامسة فيه سلطة حاكم جزاء من الدرجة الأولى لوزير الداخلية وخولته أن يمنح سلطته هذه إلى المتصرفين (المحافظين) وبناء على اقتراح وزير الدفاع. ولذلك كانت أوامر الاعتقال تصدر منه رأساً أو من قبل المتصرفين دون الرجوع إلى القضاء. وكان يتم إطلاق سراح المعتقلين بقرار من وزير الداخلية.

ويطعن فريق في عرض فريق، ويسرق هذا من ذاك ويعتدي فلان على فلان ويشتم عمرو بكراً. ويسرق هذا من ذاك ويعتدي حسن على عليّ. . . وقد انصرفوا إلى الدس والوقيعة والإفساد وكانوا يفترون على إخوانهم كذباً ويشهدون على الأبرياء زوراً ويحثون السَوَقة على المسّ بالكرامات وإهانة الأشراف وأصحاب المقامات متوهمين أن الترفع عن مقابلة الصغيرة بمثلها ضعف ومسكنة. فساء ما يتوهمون. من المؤلم أن يكون بين المعتقلين لفيف من العمال والجاهلين، فكان شياطين الزعامة والثقافة يستغلون بساطتهم، فيستخدمونهم في الاعتداء على من لا يجاريهم في تخبطاتهم. وذلك بالضرب تارة وببذيء الكلام طوراً، حتى إذا استفحل أمرهم صاروا يذيقون أسيادهم مرارة العمل الذي كانوا يحرضونهم عليه»[٤٢].

أعلى رقم سجلته ضيافة معكسرات الاعتقال في الفاو والعمارة لم يزد عن السبعمائة إلا بالقليل. وقد أُطلق سراح الكثيرين خلال فترة الحرب وبقي العشرات حتى نهايتها، وفيها تم تسريحهم.

وإذا تركنا جانباً الانطباعات السيئة المحزنة التي تخلفت في نفوس هؤلاء ضد بعضهم بعضاً، والصورة القاتمة التي تكونت عند بعضهم عن زعمائها الذين راقبوا سلوكهم المعيب وهم وراء القضبان، وما قرأوه عنهم وما كتبوه فيما بعد[٤٣]، فإن

---

(٤٢) عبدالله حسن: يوميات ومذكرات معتقل. نقلاً عن (الحسني: ج٦ ص١١٦). لا يذكر تاريخ طبع الكتاب. نقول حُشر مع المعتقلين عدد من أرباب السوابق والمجرمين العائدين، وربما كان بعض الذين وصفهم المؤلف ممن استخدمه المعتقلون السياسيون للإهانة والاعتداء.

(٤٣) بدا من تصرفات المعتقلين من ضعف النفس ما يبدو من قوة الإرادة، فكلاهما لا حدود له.
والحسني (المرجع السالف) يثبت نص رسالة بعث بها آمر معتقل الفاو إلى المدعو ميجر لويد ضابط الارتباط البريطاني في البصرة جاء فيها هذا: «أخبر سعادتكم، عندي في المعتقل شخص يدعى السيد عبدالمجيد الهاشمي برتبة مقدم اللواء ومدير دعاية عامة سابقاً، وهو مستعد للتعاون مع السلطات البريطانية ويبث دعاته وفق رغبتكم، ويطلب مواجهتكم بالسرعة المستطاعة. وقد شاهدت منه الإخلاص والتعاون وأنا كفيل به وهو يطلب حضوره أمامكم.» (تاريخ الرسالة ١٢ شباط ١٩٤٣).
أكد لي من آثر أن لا أذكر اسمه، لأنه توفي منذ زمن وأنا لا أريد (كبعضهم الاستشهاد بأقوال من لا يستطيع أن ينفي أو يؤكد) أن صديق شنشل الذي كان واحداً من أقرب أعوان الگيلاني ساند عبدالسلام عارف في معارضته عودة الگيلاني إلى العراق. وقد انضم إليهما جابر عمر الوزير في وزارة ١٤ تموز الأولى، وكان أحد ملازمي الگيلاني الخلصاء في ألمانيا. ولم يخرج =

نتيجة الحرب وتأثير انتصار المعسكر الديمقراطي الأدبي وانهيار النظامين الفاشيين والكشف التاريخي الإعلامي عن الفظائع التي ارتكبها هذان النظامان بحق الجنس البشري حملت كثيراً من القوميين المشايعين لحركة مايس والمشاركين فيها على إعادة النظر في مواقفهم ونأوا بأنفسهم عن التحرك القومي ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وقُلص الجيش أفراداً وضباطاً. ولم تكن السلطة تبذل جهداً كبيراً. فقد جردت آلافاً كثيرة من الجنود وصغار ضباط الصف. وطالت قرارات الإحالة إلى التقاعد أكثر من مائة وخمسين ضابطاً، جلّهم من ذوي الرتب الصغيرة الذين أبدوا تحمساً ونشاطاً ملحوظاً بالمناسبة.

وبخلاف الضحايا الذين سقطوا صرعى في المعركة غير المتكافئة ضباطاً وجنوداً ومدنيين، فقد نكبت ألف أسرة بأرزاقها نتيجة طرد معيليها الموظفين من وظائفهم[٤٤].

* * *

كان من الطبيعي أن تخلف أحداث حركة مايس وما سبقها رد فعل في الوعي القومي الكُردي. ويظهر أن الدعاية النازية لم تجد لها تربة خصبة في كردستان العراقية، أو أن دعاتها القائمين بهذه المهمة في بغداد لم يعلقوا أهمية كبيرة على جدوى نشاط دعائي هناك وفي أوساط أقلية عرقية طالما أشهرت السلاح في وجه الحكومة المركزية سعياً لتحقيق مطالب قومية ذات صفة دستورية. وكان للكُرد كل مبرر للانحياز إلى جانب أعداء تلك الدولة، التي قضت على آمالهم في الاستقلال وساندت حكومات بغداد القومية وأعانتها عليهم، لكن الأمر كان خلاف المتوقع وأنا لا أستطيع الادعاء بأن

= أحد من الشخصيات القومية البارزة أسماؤها في حركة مايس لإستقباله عند عودته ذلك الاستقبال الذي وصفه الحسني (المرجع السالف: ج٦ ص٧٢) بالاستقبال الذي لم ير مثله إنس ولا جان (يقصد معشر الجن). والمسألة التي أشكل عليّ فهمها هي في الوقت الذي أمكن للحسني أن يستنجد بالإنس فحسب في ظروف هذا الاستقبال وحجمه، لا شك أنه عانى صعوبة في استطلاع رأي معشر الجن، فالمعروف أن تحقيق الصلة بالجن وهم أرواح لا جسم لها ليس سهلاً، ثم ما دخل الجن في قضية استقبال الگيلاني؟ (المتواتر أن من خرج لاستقبال الگيلاني لم يكن يزيد عن ٢٥٠ نفراً).

(٤٤) بقيت آلاف من قضايا الهروب إثر حركة مايس معلقة أمام المحاكم العسكرية المختلفة. وفي العام ١٩٤٧ وبمرور ست سنين وجدت امامي أثناء قيامي بواجب الادعاء العام العسكري في منطقة الموصل مئات تنتظر إحالتها إلى المحاكم العسكرية من دون أن يتم القبض على المتهمين الهاربين ورغم صدور بيانات عفو متعددة من وزارة الدفاع.

القوميين الكُرد المعروفين كانوا أبعد نظراً من القوميين العرب وأبصر في النتائج التي كانت الحرب ستؤول إليها وأنهم بنوا مواقفهم على أساس من هذا. إلا أنهم وأعني القوميين الكُرد وجدوا بأن الوضع الذي خلقته حركة مايس يجب استغلاله لبعث مطالبهم القومية القديمة حول الإدارة الذاتية، بما في ذلك إحياء التعهد الدولي الذي قدمته الحكومة العراقية في العام ١٩٣٢ لعصبة الأمم.

كان في السليمانية وأنحاء عدة من كردستان نشاط سياسي قومي يمثله حزبان كُرديان أشرنا إليهما، إلا أن التحرك الفعلي بدأ بترك الشيخ محمود الحفيد محل إقامته الجبري في منتصف مايس والشخوص إلى كردستان واتصاله بعدد من الشخصيات الوطنية الكُردية(٤٥).

ويظهر أن الشيخ تلقى رسالة شفوية من (جميل المدفعي) الذي كان في حاشية (الوصي) يحثه فيها على ترك بغداد إلى السليمانية وتنظيم مقاومة ضد الگيلاني لعلمه بأنه لم يكن هناك حب مفتقد بين الرجلين. وصل الشيخ مشارف السليمانية في ١٩ من مايس أو٢٠ منه. وبدأ يجمع مقاتليه حوله بمعونة ابنه الشيخ لطيف للهجوم على

---

(٤٥) لم يبد الشيخ محمود نشاطاً سياسياً خلال فترة إقامته الجبرية في بغداد، ومما لا يخلو ذكره من فائدة هنا، تلك المقابلة الصحفية التي نشرها له الصحفي الشهير نوري ثابت صاحب جريدة (حبزبوز) في العدد الصادر في ١٩٤١ من تشرين الثاني وبعد مرور بضعة أشهر على انقلاب بكر صدقي، وربما بعد محاولة اغتياله المدبرة من قبل قائد الانقلاب، وفيها أكد الشيخ بعده عن السياسة بقوله: «أنا لا أفرّق بين البلاد العراقية فالعراق كله وطني وسواء سكنت في زاخو أو كركوك أو في بلدي السليمانية أو في البصرة أو في الفاو لا أذكر أني قضيت سنة واحدة في بلدتي وأنا أعتقد أن الرجال المخلصين لوطنهم أمثال مصطفى كمال ورضا شاه وغيرهم من رجال أوروبا لا يفضلون الراحة والسكينة والعيش الهادئ في دورهم. وهذا هتلر وهذا موسوليني وهذا مصطفى كمال هؤلاء لا يملكون ملكاً مسجلاً والأحسن أن تذكر المرحوم سعد زغلول، ذلك الزعيم الكبير الذي ضحى بما يملك في سبيل مصر. أما إذا سألتني (يقاطع بالقول: العفو ما راح أسألك) كلا ستسأل لأنك حبزبوز، أما إذا قلت يا حضرة الشيخ أنت تملك قرى كثيرة فأنا أجيب على هذا السؤال باختصار فأقول: أنا أملك هذه القرى وهي ميراث آبائي وأجدادي لا أتأخر عن تقديمها للحكومة لتستخدمها في سبيل خدمة الشعب مثل إنشاء المستشفيات العصرية والمدارس.» كان هذا أفضل ما يمكن أن يتخلص به الشيخ من إجابة وهو يعلم حق العلم ان صاحب المقابلة هو من أنصار انقلاب بكر صدقي المتحمس له، وأن الظرف يتطلب منه أن يقول كلمة طيبة بحق من لهجت الحناجر بالثناء عليهم وبدت أمامهم بريطانيا ذليلة مجاملة آنذاك.

المدينة في الوقت الذي بدأ حكم الگيلاني يتداعى. إلا أنه لم يقم بذلك وفضل التعامل مع السلطة العراقية والبريطانية بالمفاوضات.

كان(س.ج. أدموندز) مستشار الداخلية قد كتب مذكرة مسهبة للسفير البريطاني الجديد تتضمن إقتراحاته لمعالجة الوضع الناجم عن التجمع المسلح في كردستان ووجهة نظره في المطالب التي قدمها «الشيخ» وهي مذكرة سرية قدمها للسفير البريطاني مؤرخة ٢٧ من تموز ١٩٤١ أجتزئ منها ما يتعلق بالموضوع:

قال إدموندز: «يمكن النظر إلى حركة القومية الكُردية من اتجاهين:

أولهما: هناك من يرى كالشيخ محمود وغيره من رؤساء العشائر أن الوقت قد حان لتقوم بريطانيا، إن عاجلاً أو آجلاً، بإزالة مظلمة الكُرد وتحقيق مطالبهم العادلة، وينضوي في هذا الصنف رجال القبائل وذوو العقلية العشائرية الذين يمازج مشاعرهم القومية نفاد صبر من القيود الإدارية التي فرضتها عليهم الحكومة المركزية.

وثانيهما: هناك من صح عزمه على وجوب النضال كشعب حول مستقبلهم السياسي لأنهم يعتقدون بأن الكُرد لا يمكن أن ينخرطوا في المشروع الامپريالي البريطاني ولا أمل في أن تثير بريطانيا حفيظة العرب لخاطر الكُرد. وإلى هذه المجموعة تنتمي غالبية المثقفين وضباط الجيش، على ان جانباً كبيراً من هذه المجموعة، الذي كان على صلة بالبريطانيين، فضل التعامل معهم على التعامل مع الألمان أو الروس»[٤٦].

ويذكر إدموندز أن خطة ما وضعت لثورة في كُردستان مركز انطلاقها مدينة السليمانية، ساهم بإعدادها عدد من وجهائها بالتعاون مع رؤساء العشائر المجاورة، وظهرت بين ١٥ و٢٠ مايس خطتان. أولاهما عملية مباشرة ضد حكومة الگيلاني، وثانيهما نصحت بالتأجيل والتلكؤ خوفاً من وصول قوات جوية متفوقة للمحور إلى الموصل وكركوك وسورية.

وفي الوقت الذي كانت المفاوضات تجري بين الشيخ وبين (المدفعي) رئيس الحكومة الجديد طوال شهر حزيران، بضغط من (إدموندز) نفسه كما تشير الوثائق،

---

(٤٦) عنوان المذكرة: الكرد في عراق أيار ١٩٤١ وهي ضمن الوثيقة: Baghdad No. 185: F.O. 371-27078

راحت السلطة تحشد قواتها في السليمانية وأعلنت الأحكام العرفية، وجرت خلال ذلك محاولات محددة لتولي الكُرد مسؤولية الإدارة عن طريق لجان محلية كردية في مناطق شهرزور وحلبجه ورانيه وتأسيس قوات من المتطوعين أُنيطت بها واجبات الحماية.

إلا أن جميل المدفعي وأعضاء وزارته لم يكونوا على استعداد للتنازل إلى أي حد للمطالب الكُردية، كما لم يكن الكُرد القوميون على استعداد لمواجهة عسكرية وقت أن كمل احتشاد عدة فرق بريطانية متأهبة لاحتلال إيران تحميها أسراب عديدة من الطائرات. لم يكن الوضع الدولي ولا الوضع السياسي المحلي يسمح لبريطانيا بغير الوقوف إلى جانب الحكومة التي أعادتها بالقوة المجردة. إلا أن ذلك لم يمنع السفير البريطاني من إبداء رأيه في الموقف، لاسيما حول موقف رئيس الحكومة والساسة العراقيين من المسألة الكُردية:

«رئيس الوزراء شديد التعصب ضد الكُرد، ومن أبعد الاحتمال أن ينتظر منه التصرف بشكل ودي، أو أن يتصف ببعد نظر. يقول لي إدموندز مستشار الداخلية، وهو من الخبراء في الشؤون الكُردية، إنه ومن خلال أحاديثه مع الساسة العراقيين، كثيراً ما لاحظ في بعضهم مشاعر نفرة وحقد ضد الكُرد، قد تبلغ حد تفضيلهم خسارة كردستان على بقاء الكُرد بينهم عراقيين مخلصين بمجرد اعترافهم بالهوية القومية الكُردية. هؤلاء الساسة هم على استعداد لترك كُردستان كلها على أن لا يتبعوا سياسة سمحاء حقة مع الكُرد»[٤٧].

أرسل الشيخ مبعوثاً شخصياً للسفير البريطاني مؤكداً ولاءه وصداقته للحكومة البريطانية، وأكد جواب السفير له أن القوات البريطانية المرابطة في العراق كفيلة بالتصدي لكل عملية اعتصاب أو اضطراب قد تعوّق المجهود الحربي. ورضي الشيخ فحسب برفع قرار الإقامة الجبرية عنه والاعتزال في قريته[٤٨].

---

(٤٧) المرجع السالف.

(٤٨) يخصص الأستاذ محمد رسول هاوار فصلاً كاملاً (الفصل ١٧ ص٧٨٩-٨١٤، ج٢) من كتابه الجليل (شيخ مةحمودي قارةمان و دةوّلةتةكةي خواروويي كوردستان: البطل الشيخ محمود ودولته في جنوب كردستان. ط. لندن ١٩٩١) لموقف الشيخ محمود في حركة مايس والظروف التي أحاطت بشخوصه إلى كردستان مستشهداً بكل مواقفه في الأحداث وكل من واصل الشيخ واستحثهم على استنكار ما يعرفونه حول ذلك. مجهود خارق يُحسد عليه، وقد =

ويشير إدموندز إلى أمر ما أظنه كان واقفاً عليه موقعياً. يقول إن الضباط الكُرد الذين حشدوا جنودهم حول بغداد أثناء الأزمة راحوا يعبرون عن استنكارهم وغيظهم من زجهم في نزاع لا شأن لهم به (كما أشار إلى أن هؤلاء الضباط قرروا عندما فكر الگيلاني بجعل كردستان آخر وقفة قتالية له (إحباط خطته) وفكروا في سحب وحداتهم إلى كركوك حيث كان جلّ جنود وضباط اللواءين الرابع والسادس من الكُرد. وأن يدعموا وحداتهم هذه بقطعات أخرى من منصورية الجبل (جلولاء) أو أن يشخصوا إلى كركوك والسليمانية هاربين من الجيش، وهناك ينظمون صفوفهم لمنع بقايا جيش الگيلاني وحكومته من اقامة خطوط دفاع، أي تسهيلهم للقوات البريطانية احتلال العراق في سبيل إنقاذ كردستان من ويلات الحرب.

وحول هذه النقطة الأخيرة، قد لا يسعنا القبول بها على علاتها ونحن لا نملك من دليل ينفيها أو يؤيدها. فمن المعروف أن إدموندز مستشار الداخلية آنذاك، كان حبيساً في دار السفارة البريطانية طوال شهر مايس يكاد يكون منقطعاً عن عالميه الخارجي وصلاته الشخصية، والراجح أنه استقى معلوماته هذه فيما بعد، أثناء استئناف عمله في وزارة الداخلية. ولعله بالغ في القول أو جسّم ما حكى له بعض الضباط الكُرد على سبيل إظهار عدائهم للحركة، فنوه بها لتبدو المقترحات التي أوردها في مذكرته أقوى وأشد وقعاً[٤٩].

حتى العام ١٩٥٨ لم يرو تاريخ العراق شيئاً عن ضباط سياسيين ناشطين في الحقل القومي الكُردي على غرار الضباط العرب. وكادوا كلهم يكونون من فئة المحترفين المهتمين بشؤون المسلك خلا نفراً من المستعربين، الذين ألقوا بحظوظهم مع الضباط العرب الانقلابيين وقد جاء ذكر بعضهم. ومن العقداء الأربعة فهمي سعيد هو كردي مستعرب[٥٠].

= تفضل عليّ بنص المقابلة التي نوهت بها. أعادت نشرها مجلة (كاروان) العدد ٢٦ الصادر بتاريخ تشرين الثاني ١٩٤٨.

(٤٩) الجفاء بين إدموندز والشيخ محمود ليس بسرّ، وربما رقي إلى مرتبة الكره. ومما يُذكر أن إدموندز الضابط السياسي في كركوك هو الذي اقترح ضرب السليمانية من الجو في العام ١٩١٩ (للاستزادة يحبذ الرجوع إلى ترجمتنا لكتابه: كرد وترك وعرب. وقد جاء ذكره سابقاً) ولعله أبرز هذه النقطة في مذكرته على سبيل التقليل من مقام ودور الشيخ في التحرك القومي الأخير.

(٥٠) هاوار: المرجع السالف، ج٢ ص٨١٢: يذكر أن فهمي هو من مواليد سليمانية وأن أباه انتقل =

مع هذا فمما لا يمكن نكرانه أن حركة مايس أحدثت هزة عنيفة في نفوس الضباط الكُرد الذين شاركوا في المواجهة العسكرية ضباطاً محترفين لا غير[٥١] وحملت بعضهم بعد سنتين أو أقل على المشاركة الفعلية في انتفاضات الكُرد القومية التالية. مع ذلك فمن الممكن أن نعد من آثار حركة مايس أنها أعادت الحياة إلى النشاط القومي الكُردي وإن لم يصل حد المجابهة.

كانت حركة الگيلاني درساً قاسياً للقوميين لا يُنسى، مثلما كانت المعتقلات التي فتحت أبوابها لهم مدرسة نموذجية لم يصمد في امتحاناتها النهائية إلا نفر قليل. خرجوا بعدد قليل وببرنامج ديمقراطي الصبغة، بعد ست سنين من سكوت كاد يكون مطبقاً، وبعنوان حزب رسمي هو حزب الاستقلال.

بعد انتكاسة مايس لم يعد العراق بؤرة العمل القومي العربي، وفقد لقب پروسيا العرب إلى الأبد، في حين راحت الدلائل تتتابع في انتقال مركزه إلى سورية بعد تخلصها من الانتداب الفرنسي.

* * *

= إلى بغداد وفتح دكاناً لبيع التبغ (نقلاً عن ابن العقيد فيصل) أنه كان وثيق الصلة بالشيخ محمود، لا يكلمه إلا باللغة الكُردية، وأنه اتصل به شخصياً بعد قيام حكومة الدفاع الوطني وطلب منه تأييدها، كما سهل في مايس خروجه من بغداد على أمل دعمه للحركة) وبسبب من هذا قد يصح التساؤل عن مدى إخلاص العقداء الأربعة للمبادئ القومية العربية ومقدار تجاوزه حدود الطموح الشخصي.

(٥١) هاوار: المرجع السالف، ج٢ ص٨١١ يذكر أن عزت عزيز، ومصطفى خوشناو كانا من جملة الضباط الأسرى الذين وقعوا بيد البريطانيين في اشتباك الفلوجة. وهذان هما من جملة أكثر من عشرة ضباط التحقوا في العام ١٩٤٤ بثورة البارزاني، وأُعدما الحياة مع اثنين آخرين في العام ١٩٤٧.

ملحق

ذيل قانون العقوبات البغدادي، رقم ٥١ للسنة ١٩٣٨ نشر في جريدة الوقائع العراقية بالرقم ١٦٣٣ وتاريخ ٩ أيار ١٩٣٨

المادة الأولى:

١- يعاقب بالأشغال الشاقة أو الحبس مدة لا تزيد عن سبع سنين أو بالغرامة أو بهما كل من روّج أو حبّذ بإحدى وسائل النشر المنصوص عليها في المادة ٧٨ من هذا القانون أياً من المذاهب الاشتراكية البلشفية (الشيوعية) والفوضوية والإباحية (الصهيونية)(١) وما يماثلها، التي ترمي إلى تغيير نظام الحكم والمبادئ والأوضاع الأساسية للهيئة الاجتماعية المضمونة بالقانون الأساسي، سواء كان ذلك مباشرة أو بواسطة هيئات أو منظمات تهدف إلى خدمة أغراض المذهب تحت ستار أي اسم كان كأنصار السلام والشبيبة الديمقراطية وما شاكل ذلك(٢).

٢- إذا وقع التحبيذ أو الترويج الوارد ذكرهما في الفقرة الأولى باستعمال القوة أو التهديد باستعمالها أو بأية وسيلة أخرى غير مشروعة، فتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو الحبس مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة.

٣- إذا وقع التحبيذ أو الترويج المار ذكرهما على أكثر من واحد من أفراد القوات العسكرية أو الشرطة يعاقب المحبذون والمروّجون بالإعدام أو بالأشغال الشاقة المؤبدة أو الحبس مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة.

٤- للمحكمة أن تقرر في أي وقت كان جمع النشرات من كتب ووسائل وجرائد وحفظها إلى حين صدور الحكم بالإدانة.

٥- (أ) كل عراقي يكون عضواً في جمعية غرضها أو خطتها التحبيذ أو الترويج الوارد ذكرهما أعلاه، سواء كانت تلك الجمعية مؤسسة في العراق بصورة قانونية أو غير قانونية أو في خارجه بصورة قانونية أو غير قانونية، يعاقب بالعقوبات المعينة في الفقرة الأولى من هذ المادة.

(ب) إن مؤسس الجمعية الوارد ذكرها في الفقرة (١) أعلاه في العراق ومديرها والقائمين بمساعدتها مادياً يعاقبون بالعقوبات المعينة في الفقرة (٢) منها.

المادة الثانية: ينفذ هذا القانون اعتباراً من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة الثالثة: على وزير العدلية تنفيذ هذا القانون.

كتب ببغداد في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٧هـ. واليوم الثالث من شهر مايس سنة ١٩٣٨ميلادية(*).

(*) يراجع في كتاب الوثائق مقتطفات من الرسائل التي كنت أتبادلها مع المؤرخ السياسي الشهير الدكتور مجيد خدوري العراقي المغترب رئيس معهد الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز في واشنطن، حول الهجمات الصحفية التي كان يتعرض لها المدرسون المسيحيون من مجلات وصحف إسلامية، وحول سلوك بعض الأساتذة الفلسطينيين والسوريين القوميين.

الفصل العشرون

تصورات جديدة للعمل القومي. بداية الحرب الباردة بين القوى العظمى وتأثير ذلك على الساحة العربية والفكر القومي. إنحياز أم عدم انحياز؟ وإلى أي جانب. الانتداب الفرنسي، مشاكله في سورية ولبنان. الأنانيات تقحم نفسها. الانتداب الفرنسي وسورية. المفاهيم القومية وتشتت آرائها. الحزب القومي السوري المناهض. الموقف المصري من القوميين السوريين. اضطراب القيم والموازين الفكرية. رحلة خلال تاريخ الحركة القومية السورية. انقلابات عاطفية. حالة اليقظة. العراق مركز الثقل القومي في الخمسينيات. التجزئة الفرنسية لسورية على أسس الطائفية والعنصرية والدينية. المندوب السامي (دي مارتيل) دكتاتوراً على سورية ولبنان. الكتلة الوطنية. إبراهيم هنانو. وفد سوري لمفاوضات على معاهدة سورية – فرنسية. الجبهة الشعبية الاشتراكية الفرنسية تسلم بأكثر قدر من المطالب السورية. المعاهدة بدلاً من الانتداب وتأسيس حكومة مركزية. مخاوف من تسليم الاسكندرونة للأتراك. الخلاف العميق المتفجر داخل الكتلة الوطنية السورية. المندوب السامي يعود ليحكم حكماً مباشراً. تصورات قومية في العلاقات بين الدول وشعوبها. جمال عبدالناصر. نعي ميشيل عفلق وإعلان إسلامه. عصبة (زكي الأرسوزي) البعثية. التأليف بين المجموعات القومية. تراشق التهم. الاتهام بالعمالة. قيام حزب البعث العربي. مهمة (فون هنتك). قتال بين قوات فيشي وقوات فرنسا الحرة. ديغول يدخل دمشق. الكيان اللبناني. الطائفة المارونية. التمسك بالكيان الذي خلقه الانتداب. الميثاق الوطني اللبناني

بعد الحرب العظمى واجهت الدول الناطقة بالعربية سواء تلك التي نالت استقلالها أو كانت مستقلة قبل الحرب، مشاكل معقدة أشاعت توتراً عاماً وقلقاً في الوسط القومي العروبي، بعضها يتعلق بمسألة الوحدة العربية، وبعضها يعنى بمسألة الانحياز العروبي في الحرب الباردة، وبعضها يمت بصلة إلى أمور الإصلاح والتغيير، الاقتصادي

والاجتماعي، والموقف من الشيوعية (المحلية) واليسار على العموم، ومن النظام الديمقراطي البرلماني.

هذه المسائل لم تكن مستجدة تماماً، فقد واجهتها قبلاً كما بيّنت في فصول سابقة، إلا أن حياة جديدة نُفخت فيها بعد زوال النازية والفاشستية كنظامي حكم، وبإزاء الحزم والشدة في استئصال مبادئهما عالمياً. زادت هذه المسائل أهمية في نظر العروبيين النتائج التي تمخضت باندحار العرب في فلسطين في العام ١٩٤٨. ولم يعد مفهوم القومية العربية كالسابق، أعني الاستقلال السياسي بل الوحدة بأي شكل كان وتحقيق ما نعته جمال عبدالناصر - آخر الأنبياء القوميين - بالعزة والكرامة والتحرر التام من النفوذ الأجنبي وضغوطه الاقتصادية. وطرحت التكتلات والأحزاب القومية الجديدة شعارات جديدة من أمثال العدالة الاجتماعية والتقدمية وطبيعة الإصلاح المنشود والمدى الذي يجب أن ينداح إليه الموقف المتطير من الاشتراكية، واتخاذ مواقف حدية من أولئك الذين يعملون لإحداث ثورة في النظام الاجتماعي والسياسي. وتسوية النزاع بين هؤلاء الذين عرفوا بالقوميين المتطرفين وهم الناشئة القومية الجديدة وبين المخضرمين القوميين وأنصارهم الذين فضلوا الاعتدال والإصلاح المتدرج وعرفوا بالقوميين المحافظين، ومعظمهم حكام وساسة ظلوا يدعون إلى اقتباس النظم والتقاليد الديمقراطية الغربية.

من المؤسف له - وكما سنأتي إلى شرحه - أن يسفر نشاط هذين الفريقين عن سلوك مطعون فيه وعن أنانية شخصية وتهافت على السلطة حتى لو تحقق ذلك بطرق لا تمتّ إلى سموّ القصد والمبدأ بأي صلة.

كان من تحصيل الحاصل أن ينتقل مركز النشاط القومي العروبي من العراق إلى سورية بعد الضربة القاصمة التي أنزلتها به حركة مايس، وكان خلال سنوات الحرب مجرد امتداد في حركة مقاومة الانتداب الفرنسي والبريطاني خلال الفترة التي توسطت الحربين العالميتين. كان القوميون العروبيون يعملون لإنهاء حكم الأجنبي والوصول بالبلاد إلى الاستقلال، مما جعل نضالهم يبدو في أول الأمر محلي الطابع: قوميو سورية ولبنان ضد فرنسا، وقوميو فلسطين والأردن والعراق ضد بريطانيا. ولذلك بدا موضوع الوحدة العربية موضوعاً ثانوياً. وصار المنطق القومي - رغم التنويه المتواصل بالوحدة - يشير إلى الواقع الجغرافي الذي خلفته مثلاً سلطات الانتداب - بصورة خاصة عند قوميي دمشق الذين وجدوا سورية الجغرافية، بعكس العراق، واقعة تحت

انتدابين، الانتداب الفرنسي في الشمال والانتداب البريطاني في الجنوب، وتلك حالة لم تكن مقبولة عندهم لكن التحرر كان يجب أن يسبق التوحيد المحلي.

بل كانت هناك مشكلة أخرى جغرافية وسياسية خلقها الانتداب الفرنسي لسورية الجغرافية، وهي التقسيم السياسي الطائفي لسورية بالذات. التقسيم الثنائي إلى الشام ولبنان أولاً، ثم التبعيض الشامي، أي تقسيم سورية إلى وحدات إدارية منفصلة مالياً وإدارياً وسياسياً بشيء أشبه بالدويلات أو الفدرالية. فها هنا العدو واحد والوحدة الإقليمية - أي وحدة سورية غير الكبرى - يجب أن لا تخضع لفترتين مرحليتين.

هذا التقسيم أدى إلى تمزيق القوميين لا إلى توحيدهم. فمن جانب نجد حزب الشعب المؤسس في سورية (١٩٢٥) يدعو إلى وحدة سورية الكبرى. ومن جانب آخر نجد الحزب القومي السوري الذي أنشأه أنطوان سعادة في لبنان (١٩٣٢) يدعو إلى الوحدة السياسية. ومن جانب آخر كان هناك القوميون الذين لم ينتسبوا إلى حزب الشعب، وجلّهم من رجال فيصل والثورة الحجازية، وقد استعمل الانتداب الفرنسي الفريق المدجّن منهم وسلم إليهم مراكز السلطة، لم يجدو أي حرج في الادعاء بالوطنية حيناً وبالقومية العروبية حيناً. وكان بينهم عدد كبير من الكُرد المستعربين، وقد ألف هؤلاء طبقة قائمة بذاتها تماماً مثلما حصل في العراق.

لكن كانت هناك جماهير من المثقفين الشباب الخريجين في جامعة دمشق وكلية اليسوعيين في بيروت والجامعة الأمريكية[1] في هذه المدينة بالأخص، تشبعت بالأفكار الغربية وكرهت الغرب في عين الوقت كما أبغضت كل من يتعامل معه ويسير في ركاب الدولتين المنتدبتين. وقد أرسلت الجامعة الأمريكية بدرجة رئيسة وجامعة دمشق إلى حد ما دفعات متتالية من الشباب المستوفز المتطلع إلى مكانة اجتماعية تليق بالمستوى

---

(١) عُرفت بهذا الاسم كما ذكرنا في فصل سابق، لأن مؤسسها كان أمريكياً مبشراً اسمه دانيل بليس. وبدعم من (أوفلي) القنصل الأمريكي في بيروت وقد سميت باسم المدينة. اهتمت بترجمة التوراة إلى العربية واستخدمت اللغوي الكبير إبراهيم اليازجي لذلك الغرض. كانت كلية الطب أول كلية فتحتها. وساهم هوڤارد ابن المؤسس في توسيعها وتزويدها بالمعدات الحديثة وابتاع مساحات جديدة من الأراضي بأموال البعثة التبشيرية. وما يذكر ان (هوڤارد) استغل علاقة صداقة بينه وبين الرئيس الأمريكي (ودرو ويلسن) فحمله على إرسال لجنة (كنگ- كرين) لدراسة الوضع السياسي في سورية. أوصت بإنشاء دولة سورية واحدة بضم فلسطين ولبنان إليها ووضعها تحت الانتداب الأمريكي كما سبق بيانه.

العلمي والثقافي الذي بلغوه وتناسب مؤهلاتهم وكفاءاتهم. ولذا فليس من العدالة والإنصاف أن يناط بمن يسعده الحظ منهم وظائف دنيا، أفي سلك التعليم أو في مكاتب الكوادر الإدارية أو أن يبقى جلّهم عاطلاً يأنف من القبول بهذه المراكز الحقيرة في بناء إداري سياسي، يقوم على رأسه ويحتكره أشباه جهلة من مواطنيهم بالمشاركة مع موظفي الاحتلال الأجانب المتغطرسين، الذين قد لا يقلّون عن شركائهم جهلاً ومحدودية، هؤلاء الذين أُودعوا مصائر البلاد وأهلها وانتهى إليهم القرار النهائي والكلمة الحاسمة فيها. ممثلو سلطة الانتداب في لبنان وسورية ما كانوا يتصفون بصورة عامة بميزة الكفاءة والاتزان، ولا يبارون خريجي الجامعات من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين بالثقافة والعلم. ومع ذلك فها هم يمثلون الحضارة الغربية التي استقوا هم من معينها وجرى تعليمهم وفق أساليبها. كثير من هؤلاء الموظفين المدنيين والعسكريين جُلب من مستعمرات فرنسا في شرق آسيا وأفريقيا وسلموا مناصب خطيرة وصُرفت لهم رواتب عالية جلُّها حصيلة الضرائب التي تجبى من أبناء جلدتهم، قد يعجزون عن الحصول على مثلها في بلادهم.

هؤلاء كانوا يكافئون شعور النقص فيهم ويغذونه بممارسة السيادة على الآخرين بشكل تعسفي لا يطاق في أحيان كثيرة. وبدا وكأن لكل من هؤلاء ذكرى مؤلمة شخصية عن معاملة غربيّ مهينة بوصفه رئيساً لا فضل في رئاسته إلا لكونه غربياً.

وتبدو هذه النظرة المحقّرة أحياناً في كتابات بعض هؤلاء الأغراب المصعرين خدودهم، فتحدث انطباعاً معيناً عند قارئها الغربي يخالف الواقع ليحملها معه عند قدومه، وبالمقابل يبدو هؤلاء للمثقفين العروبيين وكأن هذه الفكرة عن بلادهم وأهلها هي الطابع العام للسلوك الغربي.

والواقع هو غير ذلك. فكثير وكثير من موظفي الانتداب أتوا وهم مزودون بالعلم والمعرفة والثقافة التي تؤهلهم حقاً لمناصبهم. وكثير منهم تمكن من التوفيق بين مصالح بلاده وبين التفاني والتجرد في خدمة البلاد وأهلها خدمة صادقة حقيقية فاقت نزاهتهم وإخلاصهم أشد المواطنين نزاهة وإخلاصاً.

في العام ١٩٠٦ وعلى أثر حادثة (دنشواي) ورد الفعل البريطاني الأحمق القاسي ظهر في لبنان كتاب عنوانه: مصر الإنكليز[٢] قرأه المثقفون المصريون وشعروا بعمق

---

(٢) دوگلاس سليدن (Douglas Sladeen): كتابه (Eygept English) ط. لندن ١٩٠٨.

الإهانة، والسيئة تبقى في الذهن عالقة بينما تضيع الحسنة في أجواء الحقد الذي تشيعه الأولى، قال المؤلف:

«قضية التعلم في مصر لا تعدلها في الأهمية قضية أخرى غير ضرورة الاحتلال البريطاني. عند سماعك مصريين يتكلمون لا يسعك إلا أن تتصور بأن الرغبة الوحيدة التي تتملك الواحد منهم هو الارتقاء بعقله ورفع نفسه إلى مستوى الأوروبيين من ذوي الثقافة العالية، وواقع الحال هو أن المصريين لا عقل لهم قد يهضمون بعض مظاهر المدنية ويتشربون أفكارها، لكن ليس ثمّ رجل من الملونين يستطيع تقليد ياقات الرجال الإنكليز تقليداً دقيقاً. لكنه من ناحية القابلية الثقافية والمقدرة على التأنق، ليس رجلاً أبيض»[٣].

ومنه أيضاً:

«في مصر أيضاً كما في غيرها من البلدان رجال رفيعو الخلق (جنتلمانية) والجنتلمان المسلم ذو العقل الواسع من المدرسة القديمة هو إنسان رائع للغاية، لكن ومما لا سبيل إلى نكرانه أن المصري العادي عادة، هو كذوب، محتال، يقتل غيلة عند الحاجة وسنوح الفرصة، وهو كما نوهت في الفصل الخاص بالثقافة، من خلال حكايتي عن الصبي المصري- ليس رياضياً (Sportman) بالمعنى المقصود من الكلمة. ومهما بلغت مهارته في الألعاب الرياضية فإنه لا يستطيع أن يرقى إلى كفاءة الجنتلمان الإنكليزي ولا يقدّرها حق قدرها، غشّاش في عمله وهو صبي، كالغشاش في حرفته وهو رجل. واستغلال الفائدة لنفسه هو ستراتيجية جديرة بالثناء في عرفه»[٤].

مثل هذه الانطباعات التعميمية الظالمة المتسرعة، التي تنطوي على احتقار فاضح تزيد كثيراً في نقمة الانتلجسنيا في البلاد الناطقة بالعربية وتدفعهم إلى التعصب لقومهم العرب والتحزب له، باعتقاد منهم أن سائر الغرب يجدون في هذه الشعوب وهم في بلادهم مادة للضحك والسخرية. وكثيراً ما لمس بعض قصاد العلم منهم إلى بلاد الغرب تأكيداً على ذلك من شكل المعاملة التي يلقونها هناك شخصياً. كثير من هؤلاء فضلاً عن الناس العاديين لا تفوتهم ملاحظة قدوم الزائرين أو الموظفين أو رجال أعمال

---

(٣) المرجع السالف: ص٧٣.

(٤) المرجع السالف: ص٨٩.

من فرنسيين وألمان وإنگليز وأمريكيين وفي حقائبهم كتب مثل كتاب (دوگلاس سليدن) فيه حكايات لا نهاية لها عن تجارب هذا الموظف الأوروبي، أو ذلك الذي تمكن من تحمل سنوات خدمته الطويلة الرتيبة بروايات عن الجانب المسلي من تصرفات المواطنين الذين احتك بهم الحافلة بالغرائب والشذوذ. والواقع هو أن التسلية المشوبة بالاستصغار لعرب المدن والحواضر التي هي على طرفي نقيض من الاحتفاء والإكبار الرومانتي للبدوي العربي بعقاله وعباءته - لا يخلف عند الأول غير المضاضة ولا يجد منها الثاني مدعاة للاعتزاز بزيه هذا، الذي يأبى استبداله بالزي الأوروبي.

وهناك من لا يزال يذكر مثلاً أن واحداً من الأوامر التي صدرت للجيش الأردني بعد استغناء الملك المفاجئ عن خدمات الجنرال كلوب باشا (أبو حنيك) هو نبذ الكفّية الحمراء والعقال والاستعاضة عنهما بغطاء رأس شبيه بذلك الذي يعتمره أفراد الجيش البريطاني. والباعث على هذا الأمر هو الظن بأن قائد الجيش المعزول اختار الكفّية والعقال للفرقة الأردنية البدوية ليبقي الجندي الأردني على بساطته وسذاجته كسائر العرب من المدرسة القديمة طائعاً ذليلاً يحترم السلطة.

إن العدول عن تطبيق هذا الأمر بعد صدوره ثم إلغاؤه يعكس الاضطراب في القيم والموازين الفكرية السائدة في البلاد الناطقة بالعربية.

* * *

كانت سورية أقرب إلى الغرب من العراق، وأعرق صلة به واوثق، فمنذ أن طرد آخر فارس صليبي من البلاد بعد أن مكث الغرب الوسيط فيها زهاء قرنين من الزمن، والعلاقة متواصلة تجارياً ودينياً وسياسياً، في الوقت الذي لم تكن بلاد ما بين النهرين قد بلغت أي حد من الاحتكاك بالغرب. فكان السوريون أسرع من غيرهم لاستقبال حضارة القرن التاسع عشر الغربية وما فيها من الفكر الغربي. ومع هذا الاستقبال ورد ناتج سيّئ من أسوأ ما يكون هو العداء للغرب. فالغرب كان يبث أفكاراً وآراء توحي بردود فعل ضدها كالحرية، والاستقلال، وحق تقرير المصير، والقومية، وسمو النضال ضد المتغلب الغاصب. كل هذه المفاهيم قرأها ووعاها أولئك خريجو المعاهد التبشيرية الأجنبية في سورية ولبنان في كتب ومصادر وضعت بين أيديهم، كما لمسوا مردودها العملي أثناء دراستهم في مدن الغرب.

لذلك كان انقلاب التلاميذ على معلميهم طبيعياً وتحصيل حاصل. قرأوا عن الثورة الفرنسية والأمريكية وعرفوها أكثر مما عرفوا عن تاريخ بلادهم. ومن دروسها وعبرها

استخلصوا أمثلة بسيطة وهي أن لا إنسان ولا شعب يجب أن يقبل بحظوظه خانعاً مستكيناً، وأن من الحكمة والحق أن يحشد المرء طاقاته للقضاء على المتغلب المضطهد، وقد وجدتهم الانتلجنسيا السورية في الفرنسيين.

كثير من العرب المتحمسين للعرب في اقتبالهم أفكار الغرب وتقاليدهم الغربيين يرونه نوعاً من خيانة قومية أو وطنية، وبسبب من هذا الواقع إلى جانب رفضهم قبول أي عربي مهما بلغ استغرابه وتقبله الأنماط الأوروبية عضواً كامل العضوية في مجتمعهم. وقد وجدنا كثيراً من العروبيين السوريين الذين تعلّقوا بالغرب يشعرون في قرارة أنفسهم بنوع من الإثم والتجنّي على ثقافتهم القومية، بل بنوع من الغدر بها. ويحتد هذا الشعور عندما يفقد العروبيون المستعربون صلتهم بمجتمعهم من خلال عملية الانتقال ويخالطهم الندم ليباشروا عملية الرجعة، وها هنا عنصر الخطر الأعظم. كثير من المثقفين العرب في سورية، لاسيما أولئك الذين درسوا في معاهد الغرب واحتكوا بمجتمعه، عادوا مقتنعين بألا مكان لهم في وطنهم، وأن عليهم تطهير أنفسهم بالرجوع إلى العروبية، إلى العزة القومية والإشادة بالتاريخ والتراث. ومسَّ منهم الشغاف واقعهم المعاشي المزري. وفضلاً عن خصاصة مجتمعهم وبؤسه، فقد وجدت غالبية فيهم أبواب العمل مهما كان صغيراً هامشياً موصدة في أوجههم يبحثون لهم عن عمل خارج بلادهم ويقبلون بلهفة كل عرض كفيل بإنقاذهم من حياة البطالة ويكفيهم ذلّ السؤال وشظف العيش(٥).

---

(٥) بلغ عدد المعلمين والمدرسين والأساتذة المستخدمين في مدارس العراق من سوريين ولبنانيين ومصريين ذكوراً وإناثاً حدود (٣٥٠) وكلهم بلا استثناء من خريجي الجامعات والمعاهد العالية ذات الاختصاص. وتحفظ ذاكرتي أسماء بعض من زاول التدريس في ثانوية الموصل المركزية أيام كنت فيها ١٩٣٨-١٩٣٩. فصالح عقيل السوري مدرس مادة (الحيوان) عاد إلى العراق ممثلاً دبلوماسياً لبلاده بعد الاستقلال بمنصب قنصل عام، وأمين طليع المحامي اللبناني مدرس اللغة الفرنسية والتاريخ تبوأ منصباً قضائياً رفيعاً بعد الاستقلال، وكلاهما من القوميين (شاهدت بعيني ثانيهما - وأنا اتسلل إلى منزلي - يرافق على رصيف الشارع تلك التظاهرة التي انطلقت من المدرسة بقيادة شاب (هتلري) نحو القنصلية البريطانية وأدت إلى مصرع القنصل إثر سريان إشاعة مقتل (غازي) بيد (البريطانيين)، منهم الشاعر المطيل (أنور العطار) السوري، و(صفي البني) الشاعر والأديب الذي كان عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي السوري، ولا أنسى ذكر زميلتين لشقيقتي في التدريس لبنانيتين احداهما من آل الخوري والأخرى من أسرة جنبلاط في مدرسة (الناصرية) الابتدائية، عاليتي الثقافة والتحصيل أبتا إلا أن تبقيا سافرتين. ولم يثر =

لم يكن الاتجاه القومي النضالي قاصراً على تحدي الظلم والاضطهاد والعمل من أجل الاستقلال قدر ما كان موجهاً ضد العزل الاجتماعي في الوطن الأم، والمثل يصدق في الفرنسيين أكثر من الإنكليز بكثير. فقد كان جلّ من استخدمه الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان من إداريي مستعمرات أفريقيا وأقاصي آسيا الجنوبية بكل ما فيهم من: غطرسة وترفع عنصري وانعزال اجتماعي وتحكم سلطوي أبوي[٦].

ولا عجب قط في أن ينحو الاتجاه القومي هناك أيضاً منحى نازياً فاشياً، ليطبع الحركة بطابعها الأبدي. يصف المثقف اللبناني (إدوارد عطية) كيفية صيرورته قومياً عربياً ثم اشتراكياً عروبياً، إذ يقرنها بمناسبة معينة. كان قد درس في إنكلترا، وتشرب عادات أهلها وتقاليدهم، فعلق بحبهم وتشيع لهم بحماسة لا تعدلها حماسة. عاد إلى بلاده فلم يجد عملاً ووجد نفسه يقبل منصب أستاذ اللغة الإنكليزية وآدابها في كلية (غوردن) بالخرطوم (السودان) قبل الاستقلال. قال:

«ذات يوم جاء سعادة الحاكم العام لزيارة الكلية. فانتظمت هيئة التدريس الإنكليزية صفاً لاستقباله، وقدم له أعضاؤها بالأسماء واحداً بعد الآخر. أما هيئة التدريس من غير الإنكليز، فقد طلب منهم ملازمة قاعة المدرسين إذ لم يكن لهم حصة المشاركة في أي جزء من المراسيم. جلسنا في القاعة كما يجلس الأقرباء الفقراء المبعدون إلى المطبخ عند وجود ضيف كبير المقام في الدار.

عدت إلى منزلي مشمئزاً وأنا أتميز غيظاً بسبب هذا الإذلال. وهكذا تحررت، تحررت لا بفضل تحليل عقلي وتحكيم منطقي، بل بقوة رد الفعل العاطفي النابع من مشاعري الجريحة، تحررت من قيود الاستشراق السياسية التي زرعتها فيَّ تأثيرات حياتي الأولى. ووجدت نفسي أتفهم وأتعاطف مع مجموعة كبيرة من الرغبات نصف المبهمة والتيارات العاطفية المضطربة في الغالب، لكنها حقيقية رغم ذلك وكلها يقع في إطار مخطط (يقظة العرب). وهكذا اتجهت حياتي كلها إلى حصة معاكسة، فصرت قومياً عربياً،

= سفورهما أي تساؤل أو احتجاج. وقد أسعدتني الصدفة بعد ثلاثين عاماً بأن ألتقي بثانيتهما وهي تتولى أمر دائرة واسعة في وزارة الثقافة والإعلام ببيروت.

(٦) عربي يقص قصة دراسة في الولاءات: An Arab Tells His Story: A Study of Loyalties لندن ١٩٤٦. ص١٤٧.

وانصرفت بكل عواطفي إلى الهنود والمصريين، إلى الثورة المصرية، التي كنت لا أنظر إليها نظرة موافقة أو رضى»[7].

ليس على الأمثال قياس، وليس بالإمكان الخروج بحكم عام على موظفي الانتداب الغربيين لتصرف فردي جافٍ. إلا أن السيّئ كما قلت ينتشر بلاؤه في دائرة أوسع بكثير من الجيد. وإساءة الغربيين إلى سمعات بلادهم وشعوبهم كثيراً ما تمحو من أذهان العاطفيين المندفعين ما حققه غيرهم من جيد الأثر. لكن قابلية البشر على نسيان الجيد والحسن من الفعل أضعف وأسرع كثيراً من قابليته على نسيان الإساءة واغتفارها.

الجانب العاطفي عند القوميين العروبيين بصورة عامة ظل مركز الثقل في تكوين الآراء وتنظيم المناهج ووضع الخطط والدراسات والخطب والمحاضرات. ولا أذكر أني قرأت بياناً واحداً من تلك البيانات، التي كان يصدرها الانقلابيون القوميون عشية

---

(٧) المرجع السالف، ص٦٥: شبيه بهذا ما حصل للملازم الأول إسماعيل العارف، وهو قومي عربي من اللجنة العليا للضباط الذين حققوا انقلاب ١٤ تموز في العراق، وكان برتبة عميد ركن ووزير إعلام في عهد قاسم. ذكر في كتابه: أسرار تموز، حادثة مماثلة انتهت بخلاف ما انتهت إليه قصة (عطية). قال: كان ذلك في العام ١٩٤١ في حين كان صلاح الدين في تمرين مشترك بين وحدات بريطانية وعراقية، وكنت واحداً من المحكمين وكان يقود الفوج البريطاني مقدم شرس خشن الطباع يتصرف بعنجهية المستعمرين الذين تطبعوا عليها في الهند. وفي أحد الأيام عقد اجتماع خارج مخيم الفوج لاستقبال مراسل وكالة رويتر للأنباء، الذي كان يغطي أخبار التمرين، فجلسنا مع الضباط الإنكليز على شكل دائرة. وعندما حضر المراسل استقبله آمر الفوج وأخذ يطوف به على الضباط يقدمهم له بمناصبهم وأسمائهم، عندما وصل إلى مكاننا نحن الضباط العراقيين تجاوزنا ولم يقدمنا له. فانزعجت من هذا التصرف الخالي من الذوق والمجاملة واعتبرته إهانة لنا. أصررت على ترك الاجتماع وقمت لتوي وتوجهت إلى مراسل رويتر الذي جلس إلى جانب آمر الفوج مرتدياً بزة عسكرية تظهره برتبة رائد، وقدمت له نفسي كضابط عراقي من المحكمين، وأشرت إلى صاحبي مقدماً إياه وقلت إني آسف لترك الاجتماع لأني أشعر بأن عدم تقديمنا لك لا يخدم الغرض المطلوب من التمرين، ثم تركت الاجتماع وذهبت إلى خيمتي وبدأت أحزم امتعتي عازماً على الالتحاق بمقر المحكمين. ولم تمض لحظات حتى وصل خيمتي لاهثاً معاون آمر الفوج البريطاني، وكان دمث الأخلاق لطيف المعشر بسيطاً هادئاً أكنّ له حباً واحتراماً عظيمين، ورجاني أن أقلع عن ترك الفوج تجنباً لإثارة مشكلة بين الطرفين العراقي والبريطاني. فأصررت وقلت لن أغير قراري إلا إذا اعتذر آمر الفوج. فأقر المعاون رأيي وتركني ليعود بعد قليل بصحبة آمر الفوج، الذي اعتذر لي مقدماً حجته بأنه لا يعرف أسماءنا فقبلت اعتذاره.

انقلاباتهم، أو إعلاناً لانتصاراتهم، على قوميين آخرين وإزاحتهم عن السلطة وقد خلا من تلك العبارات التي يسهل عليك كثيراً تقصي منابعها العاطفية من الشعور بالمهانة والكرامة الجريحة والحقد الدفين الذي لا يسمح بفسحة صغيرة لشعور مضاد كالشعور بالمنّة والشكر والإغضاء والصفح.

يقول ابن الرومي:

وما لحقد إلا توأم الشكر في الفتى   وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي مساءة   فثم ترى شكراً على واسع القرض

* * *

مع هذا، وبكل هذا المقدار من الزخم القومي العروبي في سورية، بقي العراق مركز ثقله منذ آب ١٩٣٣ حتى ١٩٤١. وقد بدا هذا منطقياً بوجه تشجيع الاتجاه القومي ببركات الانتداب والنفوذ البريطانيين في العراق، بل ورعايته وتغطية اندفاعاته الهوجاء بخلاف الانتداب الفرنسي الذي كان يشجع الطائفية ويرعاها، وفي الوقت الذي كان على السوريين واللبنانيين أن ينتظروا أربعة عشر عاماً قبل نيل ما ناله العراق من الاستقلال والاعتراف به عضواً في الأسرة الدولية. كان مئات اللاجئين أو الباحثين عن عمل في العراق من أولئك المثقفين العروبيين الذين وضعتهم السلطات الفرنسية والبريطانية (لاسيما في فلسطين) تحت المراقبة والملاحقة أو في قائمة المشبوهين. إلا أن التبعيض السياسي والإداري الذي أقدم عليه الفرنسيون في سورية الجغرافية، إضافة إلى خضوعها للسيطرة الأجنبية خلال فترات طويلة من تاريخها المديد، لم يُنسِ أهلها قط تراثهم العربي الإسلامي. وقد بقوا يتوارثون كابراً عن كابر وعياً وإدراكاً لهوية بلادهم التاريخية والجغرافية باسم (سورية) العريق في القدم، أو (الشام) وهو الصدى القومي بكنيته العروبية الأصلية[8]، التي طمست إلى حين الاسم الأصلي الغابر،

---

(٨) قَصَدَ العربُ بالشام سورية على العموم وقسموها إدارياً إلى سبعة أجناد (الجند هو المدينة وملحقاتها) وهي فلسطين والأردن وحمص ودمشق وقنسرين، والعواصم والثغور. إلا أن أبا نصر إسماعيل الجوهري (توفي في ١٠٠٥م) يقصرها في معجمه الشهير (تاج اللغة وصحاح العربية) على الأجناد الخمسة الأولى. قال أبو الطيب المتنبي:

دون أن يشرق الحجاز ونجد   والعراقان بالقنا والشام

ويقصد العراق العربي والعراق العجمي وسورية الجغرافية، أما اليوم فالاسم قاصر على مدينة دمشق.

بحالاتها الخصوصية أنبتت في ربوعهم أول بذرة من بذور النضال ضد العثمانيين في سبيل الاستقلال بشعار عربي. وفي دمشق تأسست أول دولة عربية الكيان برئيس عربي في القرن العشرين لا تشوب أصلها شائبة.

فكما تقدم بيانه ظلت العروبية السورية تستمد قوتها لمدة من الزمن من ذكريات المملكة العربية التي أعلنها فيصل، قدر ما كانت تستمد من خلافه بني أمية، بل حتى وهي في ظل الانتداب. فالجمهورية السورية ظلت حاملة لواء القومية العربية والتحرر العربي والوحدة العربية رمزياً والعراق كان واحداً من المستوردين.

ذات مرة قال الدكتور ناظم القدسي وهو آخر رئيس جمهورية دستوري في سورية: «المشكلة عندنا نحن السوريين أننا لا نهتم فحسب بمشاكلنا، بل بمسائل تهم جميع العرب»[٩].

ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التي دعت الفرنسيين إلى تجزئتها دويلات - أي بنيّة إضعاف الشعور القومي وتبريره بغياب دولة مركزية شاملة واحدة يستقطب حولها هذا الشعور. بل ربما نظر إلى الأمر من جهة معاكسة:

«أي لو بقيت سورية وحدة غير مجزأة، فقد يكون هناك موازنة بين الشعور العربي والشعور السوري كما كان الأمر في العراق وقتذاك»[١٠].

* * *

في العام ١٩٣٢ وهو العام الذي شهد استقلال العراق أمر المندوب السامي الفرنسي بإجراء انتخابات عامة، ومع أن الكتلة الوطنية لم تفز بأغلبية المقاعد في البرلمان المنتخب، إلا أن الحكومة كانت تتألف من أغلبية أعضاء الكتلة الوطنية، وهي مجموعة من الساسة كانوا أعضاء في حكومة فيصل. اعتبرت هذه الكتلة خلفاً لحزب الشعب الذي كان قادته قد نفوا بسبب مساهمتهم في ثورة ١٩٢٦.

كان السوريون يعتقدون أن الفرنسيين سيسلكون معهم عين السبيل التي سلكها البريطانيون في العراق فخاب فألهم. حاولت الحكومة الجديدة إعادة التفاوض مع الفرنسيين على هذا الأساس، ولم يكن الفرنسيون راغبين في النزول عند كل ما طلبه

---

(٩) من حديث أدلى به لمراسل مجلة التايم الأمريكية في ١٥آذار ١٩٦٣.

(١٠) الرأي الأخير هو للمؤرخ ألبرت حوراني. أنظر كتابه: الفكر العربي في العصر الليبرالي (Arabic Thought in the Lebreal Age)، لندن مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٢ ص٣١٧.

السوريون. وفي ١٩٣٣ بدأت مفاوضة أخرى حول معاهدة حلف سوري - فرنسي لتنظيم العلاقات بين الطرفين وللنص على نقل السلطة إلى السوريين خلال فترة أمدها أربع سنوات تدخل سورية بعدها عضوة في عصبة الأمم دولة تامة السيادة. ومع أن هذه المعاهدة وضعت على أساس مشابه لمعاهدة ١٩٣٠ العراقية - البريطانية، فقد أبى الفرنسيون إلا إبقاء دولتي الدروز والعلويين خارج نطاق المعاهدة، الأمر الذي جعلها غير مقبولة من الحكومة ومن القوميين. وثارت عاصفة في البرلمان السوري (الجمعية العامة)، الأمر الذي اضطر المندوب السامي (پونسو) إلى تعليقها. وعندما استقال في العام ١٩٣٤ بدت مسألة الاستقلال السوري بعيدة عن الحل. وجرب المندوب السامي الجديد (دي مارتيل) أسلوباً عنيفاً فأرغم رئيس الوزراء على القبول بالمعاهدة بالشكل الذي ارتأته حكومته. وعندما رفضها البرلمان ثانية علق المندوب السامي الدستور إلى أجل غير مسمى. وراح يحكم البلاد مباشرة من وراء رئيس الوزراء، الذي بدا آلة في يده مكروهاً من كل الساسة القوميين والجهات الوطنية.

في تشرين الثاني ١٩٣٥ توفي الزعيم هنانو[11] في حلب، وانتهزت الكتلة الوطنية مناسبة التأبين الذي أقيم لذكراه في نهاية الأسبوع الثاني على وفاته، لإحياء المظاهرات ضد الانتداب بشعار وحدة سورية، بضم الدولة العلوية والدروزية والجزيرة والاسكندرونة إليها[12]. وتواصلت المظاهرات والإضرابات وحوادث الشغب خلال الشهرين الأولين من السنة التالية. وبلغت أقصاها عندما أمر المندوب السامي بنفي شكري القوتلي زعيم الكتلة الوطنية. فكان ثمّ إضراب عام واشتباك في دمشق بين قوات الأمن والمتظاهرين سقط فيه عدد من القتلى.

وفي آذار بدا وكأن دي مارتيل يميل إلى التفاهم، حين دعا القوميين - الوطنيين

---

(١١) ولد في أطراف حلب (كفر حازم) العام ١٨٦٩، وأبوه سليمان آغا هنانو من رؤساء الكُرد في المنطقة، وتولى مناصب إدارية في العهد العثماني وكان عضوا بارزاً في المؤتمر السوري بدمشق. عرف بنضاله العنيد ضد الانتداب الفرنسي، فاعتقله البريطانيون وهو في أورشليم القدس وسلم للسلطات الفرنسية وحوكم وُبرئ. ذكر المؤرخ اللبناني يوسف إبراهيم يزبك أن (فلاديمير لينين) كتب لهنانو أربع رسائل بخطه يدعوه إلى التعاون مع حركات التحرر في المنطقة (انظر المزيد عنه في أعلام الكرد لمير بصري لندن، ١٩٩١، ص١٠٠).

(١٢) يقطن الجزيرة خليط كاد يكون متساوياً من الكُرد والمسيحيين، وأما الاسكندرونة فقد كانت مأهولة بخليط من الترك والعرب والمسيحيين.

إلى المفاوضات مجدداً حول المعاهدة. وربما كان ذلك بإيعاز من الحكومة الاشتراكية الفرنسية (يسار الوسط) التي ألفها (ليون بلوم) الميّال إلى تسوية. اتفق على مواصلة المفاوضات وشخص وفد سوري إلى باريس لهذا الغرض مؤلف من الكتلة الوطنية(١٣).

ليس هناك من دليل يثبت بأن موافقة الفرنسيين على التفاوض مع هذا الوفد تعني اعتبارهم الكتلة الوطنية هي الممثلة الحقيقية لأهالي سورية. إلا أن قبولهم الوفد المشكل بهذه الصفة أوحى للسوريين بل أوحى للكتلة نفسها بأنها تمتلك حق التمثيل بهذه الصفة، التي لم تكن حقيقية في الواقع.

في نهاية العام ١٩٣٦ كان هناك الجبهة الشعبية الاشتراكية تحكم فرنسا. هذه الوزارة قلبت سياسة الانتداب المتبعة في سورية منذ العام ١٩٢٠ رأساً على عقب، وسلمت دون أخذ ورد بكثير من مطالب الكتلة الوطنية، منها أن تؤسس دولة مركزية تحكم سورية كلها من دمشق، كما وافقت على إنهاء الانتداب في العام ١٩٤٠ واستبدال معاهدة به.

عاد الوفد السوري ظافراً وجرت انتخابات اشتراعية في تشرين الثاني من العام نفسه، وفازت الكتلة الوطنية بطبيعة الحال، وألّفت وزارة جديدة ضمت معظم الساسة القوميين، الذين قُدر لهم أن يساهموا بأدوار خطيرة في عالم السياسة السورية(١٤). إلا أن إشاعات انتشرت في الأوساط القومية وأوساط المثقفين الوطنيين، ومصدر بعضها من أولئك الذين كانوا يتلقون علومهم في باريس، بأن موظفي المستعمرات الفرنسيين هناك يحاولون ممارسة نفوذهم ضد (ليون بلوم) لرفض المعاهدة عند تقديمها لمصادقة الجمعية الوطنية. ومما احتث الشك العميق في حسن النوايا الفرنسية وتصديق تلك الإشاعات هو الغضب الذي اجتاح السوريين والبلاد الناطقة بالعربية، عندما قررت فرنسا فصل لواء الإسكندرونة وضمه إلى تركيا.

كان من شأن ذلك إلحاق ضرر عظيم بحلب وبما يليها. فميناء الاسكندرونة هو ميناؤهم ومنفذهم التجاري المباشر إلى البحر، وحلب كانت أبداً تشعر باستقلالها عن

---

(١٣) حل الوفد ضيفاً على المفوضية العراقية في باريس، إثباتاً لتضامنه.

(١٤) ترأس هاشم الأتاسي الجمهورية وعهد لجميل مردم برئاسة الوزارة والداخلية ولسعدالله الجابري ولشكري القوتلي وزارة المالية ووزارة الدفاع، وانتخب فارس الخوري رئيساً للبرلمان، وكل هؤلاء من قومي عهد فيصل العرب ومن أسر دمشقية بارزة عريقة.

دمشق، كانت هكذا على الأقل منذ نهاية عهد الأمويين، فشعورها بخسارة الإسكندرونة كان يفوق شعور دمشق عنفاً وحدّة. وانصب اللوم إلى حد ما على الحكومة المحلية وعدّوها الشريك في صفقة التنازل، رغم أن السوريين أجمعوا على الادعاء وما زالوا بأن الإقليم هو عربي وهو جزء لا يتجزّأ من التراب السوري. لم يكن القوميون السوريون، ولا القوميون العروبيون المخضرمون، قادرين على منع الفرنسيين من التسوية السياسية التي أدت إلى ضم لواء الإسكندرونة إلى تركيا، إلا أنهم فقدوا شعبيتهم جراءها. ووجد القوميون العروبيون الجدد والانتلجنسيا العروبية وحركاتها، إلى جانب الحركة الشيوعية واليسار، في ذلك واحدة من الوسائل للتعبير عن سخطهم. وحاولت الحكومة احتواء الغليان ففشلت.

إلى جانب هذا كانت الأقليات الدروزية والعلوية تتوجس خيفة من التسلط الذي تمارسه حكومة سيئة في دمشق. كحلب نفسها، لم تكن هذه الطوائف والأقليات العنصرية لتشعر بأية ثقة بحكام دمشق السنيين القوميين الذين شرعوا حال تسلمهم زمام الحكم يوزعون على مناسيبهم ومحاسيبهم المناصب الإدارية ويقتنصون لأنفسهم الامتيازات المالية والنعم على أنصارهم في العاصمة والمدن الأخرى. في مثل هذه البيئة السياسية القلقة وجدت الأفكار النازية والفاشية سبيلها عريضاً لاحِباً. وخيّل لحكام دمشق لفترة معينة من الزمن أن بإمكانهم احتواء التذمر والشكوى العامة باللجوء إلى الأساليب التي اتبعها هتلر وموسوليني في عسكرة النظام. فقامت الكتلة الوطنية بتأسيس حركة بين الشباب القومي وألفت منهم وحدات شبه عسكرية أطلقت عليهم اسم (ذوي القمصان الفولاذية) تقليداً لذوي القمصان السود الفاشية وذوي القمصان الرمادية الهتلرية. هذه الفرق أخذت تشتبك في مشاحنات مع خصوم الكتلة الوطنية ومع اليسار والشيوعيين وتحدث تخريبات في ممتلكات أعداء الكتلة الوطنية، كما كان يفعل الشباب الهتلري باليهود وبالاشتراكيين والشيوعيين في ألمانيا.

وجاء عبدالرحمن الشهبندر الذي عاد من منفاه بسبب مشاركته في الثورة الدروزية كما مرّ، ليترأس جماعات قومية مناهضة للكتلة الوطنية. وفي خلال العامين ١٩٣٧ و١٩٣٨ فقدت الكتلة الوطنية مقامها وانتابها ضعف كبير بسبب التحاسد والتباغض والمنافسة فيما بين أعضائها. وجاء رفض الجمعية العامة الفرنسية الموافقة على المعاهدة ليقضي على مصداقيتها وشعبيتها. وحفل النصف الأول من العام ١٩٣٩ بالإضرابات والاعتصاب والشغب والاستعراضات واختلّ حبل النظام.

كان رد الفعل الفرنسي عنيفاً وقاسياً واستُخدم الجيش كالعادة. ووجد الشارع نفسه لأول مرة أمام وحدات تتألف من مجندين سوريين يقودها ضباط سوريون توجه نيران أسلحتها إلى صدور حشود المتظاهرين فيه وترديهم قتلى - هذه الوحدات هي نواة الجيش في سورية المستقلة. عاد المندوب السامي يحكم سورية حكماً مباشراً. فعلّق العمل بالدستور وحلّ المجلس النيابي واعتقل عدداً كبيراً من القوميين والسياسيين. وفي تموز ١٩٣٩ أعاد الوضع الإداري السابق في دولتي الدروز والعلويين وفي الجزيرة، واستقال (الأتاسي) وحكومته ووضعت الحكومة بيد مجلس مكون من المدراء العامين للوزارات. وكل هذا يعني أن عشرين عاماً من الحكم الفرنسي لم تحقق في سورية شيئاً.

على أن السوريين انطلاقاً من تجارب قليلة في صناعة الحكم كان يمكنهم أن يؤسسوا حكومة وبرلماناً وإدارات، إلا أن انشغالهم بمقارعة الفرنسيين الذين لم يسمحوا بفرصة كتلك التي سمح بها البريطانيون للعراقيين، أدى إلى ضياع كل مجهود - لو كان ثمة مجهود حقيقي - لبناء حكم ديمقراطي دستوري سليم. ولو شئنا إنصافاً لعذرناهم أكثر بكثير مما يسمح لنا التاريخ بالاعتذار للعراقيين الذين أضاعوا الفرصة هم أيضاً.

وفي خضم هذه الأحداث والمواقف ظهر في الميدان المثقفون الشباب الذين خرج منهم ساسة المستقبل. وجدوا أنفسهم فجأة ومن غير سابق تجربة ينزلون إلى الشارع ويسبحون في تيارات العقائد السياسية والمبادئ في أثناء محاولة العثور على حل لأزمة بلادهم.

ومن سوء حظ حركة التحرر السوري - وزميلتها حركة التحرر القومي العروبية - كاد هذا الجيل يكون كله من صنف صاحبنا الأستاذ إدوارد عطية. دخلوا الميدان مسلحين بنقمة على سلطة الانتداب الثقيلة وبكره لا يحد للإداريين الذين سلمهم الأجنبي مقاليد الحكم. ورغم محاولة بعضهم الصادقة في الارتفاع عن التعصب الديني والمذهبي في نشاطهم، فإن الخط العام المنتهج كان يأبى نقل الأقرباء الفقراء من المطبخ إلى قاعة الاستقبال. ولم تفلح حماسة أمثال إدوارد عطية إلى الانتماء العربي في القضاء على الامتياز الديني في حقل النشاط القومي العربي.

عاد كثير من الإداريين الأجانب إلى بلادهم بعد الخدمة في سورية كما في العراق

وهم معتقدون بأنهم بذلوا جهوداً صادقة كبيرة في وضع أسس عصرية للتعليم والقانون والاقتصاد والإدارة، وأن المعرفة والمهارات التي غرسوها هناك تساوي أو ربما تزيد عن أي منافع أو امتيازات خاصة جنتها حكوماتهم ومواطنوهم من الانتداب مقابل ذلك. كان قد عاد عدد كثير من هؤلاء وهم مقتنعون بأنهم نزلوا عن مسؤوليتهم في حكم هذه البلاد بأسرع مما تقضيه الحكمة والتروي - لاسيما بعض أولئك الذين بقوا بعد الاستقلال بصفة مستشارين أو ممثلين دبلوماسيين لبلادهم أو خبراء للحكومات المستقلة العسكرية الجائحة التي أسفرت عنها فترة الاستقلال وعقبت نهاية الانتداب فصاعداً، فقد بينوا كم كانت هذه الأحكام قريبة من الحقيقة.

لانفضح سراً إن قلنا بأن كثيراً من الساسة العرب أنفسهم شاركوا هؤلاء في هذه النظرة أو تلك. رأيت كثيراً ممن كتب عن ذكريات خدمته منهم - والعجب يتملكهم من إصدار الكتّاب العروبيين عموماً في البلاد الناطقة بالعربية مثل هذه الأحكام القاسية. أكان بإمكان الحكومتين الأوروپيتين المتسلطتين بموظفيهما الموقعيين تجنب تيار الشك والنقمة اللذين غُمرا بهما وكسر السد القائم بين المسرى القومي وبين الغرب؟

بطبيعة الحال كان هناك العامل الكبير الخفي، العلاقة بين التفوق والانحطاط وبين الرفع والخفض. علاقة التابع بالمتبوع بين العروبيين كأفراد مع الغرب، بين الثقافتين الغربية والعربية. إن الثورة العروبية التي بدت الآن في سورية واضحة لم يكن مأتاها هذا فقط. إذ لم يكن التعالي والاحتقار والتفوق والتسامي الذي ذكرناه السبب الوحيد، فقد وجد إلى جانبه سبب آخر هو (مجرد الوجود الغربي هناك)، وهو الذي يولد النقمة والمضاضة أيضاً ويجعل التعايش مع ممثليه جحيماً. وما من سبيل غير محاولة التخلص من هذه العقدة، ولا يتم هذا إلا بالاستقلال وبإخراج آخر موظف فرنسي من أرض سورية وليكن بعدها ما يكون. الاستقلال التام والسيادة، كانا الهدف السياسي الأول للسوريين العروبيين مخضرميهم ومحدثيهم.

وهؤلاء الآخرون الذين جاؤوا من پاريس متشبعين بالأفكار الاشتراكية التي بلبلتها المفاهيم النازية والفاشية قبيل الحرب وفي أولى مراحلها، عادوا وهم مقتنعون بأن أي حالة تقل عن السيادة المطلقة ليست سيادة حقيقية. لذلك ففي أثناء بحثهم عن الاستقلال التام كان سخطهم على الاستعمار الأجنبي يتخذ مظهراً من المصالح الاقتصادية، واستنكار تعاطف الأقليات الطائفية الدينية والعنصرية التي تعلقت بأذيال

الأجنبي بدافع الخوف من تسلط الأغلبية ولها فيه تجارب مرة تمتد إلى أكثر من اثني عشر قرناً[١٥].

كان كل ارتباط بأجنبي مرفوضاً عند هؤلاء العروبيين الجدد، ولذلك اتسعت دائرة شكهم لتشمل اليسار الماركسي والشيوعيين العرب، فهذان الفريقان عندهم مجرد عملاء للأجنبي كل بسلوكه الخاص.

وبمختصر القول فإن الاستقلال عند العروبيين المحدثين هو أكثر من مسألة قانونية أو عملية، إنه يستبطن الشعور بالحرية والثقة بالقدرة على التصرف والاختيار. وهي حالة عقلية أوحت في أحيان عدة بعمليات عاطفية ومحاولات تلقائية لتجربة واقعية تلك الحرية من دون حساب أو تدبر للعواقب. ومع أنه لم يكن يوجد لدى فصائل وشيع القوميين العروبيين المتعددة في سورية خلاف حول صحة مطلب الاستقلال، لكن قام خلاف كبير بينها في الرأي حول نقطة معينة وهي: «متى يكون أي تنظيم لعلاقة مع دول كبيرة خالياً من خيوط؟».

وللخلاص من هذه الحيرة ولنفي أي شك في (خيوط) أو صلة قد تقيد ذلك الاستقلال أو تنقص من تلك السيادة وجدوا ضالتهم في شيئين؛ وجدوها أولاً في (الوحدة). فوحدة البلاد الناطقة بالعربية ستؤمن لها حصانة، إذ ترفعها إلى مصاف الدول العظمى بقوة عسكرية يعتد بها وبموارد طبيعية هائلة. وثانيهما في الحرية، أي حرية اختيار النظام الاجتماعي لبلاد مثل اللوحة. والمعنى العملي للوحدة كان كما رأينا

---

(١٥) المجموع الكلي الرسمي للسكان الذي نشرته الحكومة السورية في يوم الإستقلال ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ هو ٢٨٥٠٥٠٠ منه ٤٥٣٠٠٠ مسيحي من مختلف الطوائف. وفي العام ١٩٦٠ يشير إحصاء الانتماء الطائفي إلى أن المجموع الكلي للسكان هو ٤٤٠٣١٧٢ منهم ٣٦١٠٠٠ مسيحي، أي بنقصان ١٤٠ ألفاً! ويذكر المسيحيون السوريون أنه رقم مفتعل لأنه صدر أيام الوحدة مع مصر وأنهم في الحقيقة يعدون أكثر من مليون. وفي العام ١٩٦٣ قدرت الحكومة السورية عدد المسيحيين بـ(٦٦٠) ألفاً. وفي مقال لمجلة نيويورك الأمريكية بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٧٤ عن سورية أعطي لمجموع سكان سورية رقم ٦٢٩٠٠٠٠ منهم ١٥٠٠٠٠٠ مسيحي، وربما كان في هذا الرقم مبالغة، لا شك أن عددهم اليوم لا يقل عن مليون بأي حال. جاء في كتاب منى ليليان السمان Mouna Liliane: أهالي سورية، دراسة جيوديموغرافية La Popolation de la Syrie Etude Gio-demographique باريس ١٩٧٨، ص٩: إن التوزيع الطائفي للشعب السوري في العام ١٩٦٠ يمثل ٣٤٤٦٢١ مسيحياً يقابله ٤٠٥٣٣٤٩ مسلماً (سنياً ودرزياً وإسماعيلياً وعلوياً وشيعياً) إلى جانب ٤٨٦٠ يهودياً، وليلاحظ أنها تُدخل الدروز في عدد المسلمين.

سابقاً غير واضح. ولقد وجدنا معظم الكتاب القوميين العروبيين يوجهون جلّ اهتمامهم في إقامة الرهان على أن تلك الوحدة قد سبق لها وجود، إلا أن النسيان لفّها بأكفان أو أنها تجوهلت. فالقضية عندهم هي كيف يمكن أن يجعل منها حقيقة ذات معنى الآن؟

بعد المحاولة (الشريفية) الفاشلة في الحجاز، لم يجرؤ أي زعيم سياسي عربي أو فرد عادي يرغب في الإبقاء على حيثيته وسمعته، أو يريد أن يحقق له مركزاً أو نفوذاً أو أن يبقي عليهما، على انتقاد هذا المثل الأعلى والهدف الأسمى الذي تمثله (الوحدة العربية) أو أن يأبى الموافقة على قول القائل بأن هذه الوحدة ستتحقق يوماً ما في المستقبل بشكل ما.

إلا أن عالَم ما بعد الحرب العظمى الثانية كان يختلف عن عالم ما بعد الحرب الأولى. كان عالماً يختلف عن ذلك الذي نشأت في أجوائه مفاهيم الوحدة وصورت أشكالها، ثم أن الفكرة بحد ذاتها في دمشق اعتراها تغيير ديموغرافي وجغرافي كبير عما كان قد تم لها في مكة عام ١٩١٥. والعالم الآن يزخر بالنظريات والعقائد السياسية والتفلسف. والأسلوب القديم الذي كان له المفعول الأكبر في نشوء فكرة الوحدة العربية كان مصدره التراث وركيزته الكبرى الإسلام، ووحدة الإسلام والمسلمين بضمنه. ومع أن القوى الفكرية العلمانية التي سادت عالم ما بعد الحرب زاحمت إلى حد ما النفوذ الظاهر للأفكار الإسلامية والوحدة الإسلامية، إلا أن الإسلام بقي ركيزة هامة للقومية العروبية لا يمكن الاستغناء عنها، بل آض عند بعضهم الركيزة الرئيسة.

مال القادة القوميون إلى أن يبدوا أكثر علمانية واستغراباً وأقرب إلى الروح الغربية من مواليهم وأنصارهم ونجحوا في كسب ثقة هؤلاء رغم علمانيتهم أو ربما بسببها، فتوكيدهم على الأهداف القومية أحدث تجاوباً في أناس ظل مرجعهم الإسلام وأسلوب تفكيرهم مستمداً من قيم إسلامية أكثر من امترائها من المعين القومي البحت بالمفهوم الحديث. فكثيراً ما كانت الدهشة تعزو زعماء القومية العربية المستغربين عند اكتشافهم المدى الكبير الذي استطاعوا به إطلاق الدعوة الإسلامية عند الجمهور[١٦].

ولقد وجدتُ من تعاقب الاحداث ما أيّد لي أن هؤلاء الزعماء لا يجدون بدّاً عند الأزمات أو عندما يضطرون إلى مقارعة خصومهم من الاستنجاد بحمية الدين وإثارة

---

(١٦) ولفرد كانتويل سمث Wilfred Cantwell Smith : أفكار القومية العربية The Ideas of Arab Nationalism. إيثاكا – أمريكا، جامعة كورنل ١٩٥٦، ص٨١.

الحماسة الإسلامية الكافية في الجمهور وإطلاقها من كل عقال. هذه الوصفة استخدمت بنجاح في وجه القوميين السوريين والشيوعيين واليسار بصورة عامة وبوجه الأقليات الدينية والعنصرية حتى إذا كانت تلك الأقليات مسلمة، لكن كان بعضهم يتهيب (إعلان جهادٍ) خشية عجز عن السيطرة أو استحالة وقفه عندما يبدأ. أي شكل تبناه القوميون في البلاد الناطقة بالعربية، وأي إطار احتوى هذا الشكل؟ فالمقصود الحقيقي بالأمة العربية أو الشعب العربي كان يختفي تحته ميل، بتطبيق عملي أو بدونه، استبعاد لغير المسلمين الذين يتكلمون اللغة العربية كلغة أو ليس بوسعهم الاعتماد عليهم في الانتمائية والصلة بالقومية العربية مهما كانت الأسباب التي تدفع هؤلاء لاعتبار أنفسهم عرباً. فلا يوثق بهم بعين الوجه الذي يوثق بأولئك الحائزين وثائق خالية من شائبة التزوير، تثبت عضوية وراثية في الإسلام. ولم يكن يدعو إلى العجب قط أن نجد أولئك الزعماء القوميين المحدثين يهتمون كثيراً في إبانة مظاهر التقى والعبادة، كالمشاركة في صلاة الجمعة وإعلانهم بصورة ما عن صيامهم في رمضان، وأداء فريضة الحج بشكل يزيد كثيراً عما أقدم عليه القوميون المخضرمون.

عندنا فريقان من هؤلاء: أولئك الذين يعتقدون بإخلاص ويقين بالدين الإسلامي وإنه ضرورة لا تستغني عنها القومية العروبية. وأولئك الذين لا يهتمون بالإسلام إلا بقدر ما يشيعه من حيوية ونشاط في العمل القومي ويجدونه وسيلة لا غنى عنها من أجل تأطير برامجهم ومفاهيمهم عند تقديمها للجمهور والتقرب بها على أسس من زيجة القومية العربية بالدين الإسلامي. ومحاولة التصنيف للفريقين محال هنا، فالله وحده أعلم بالسرائر.

بعد أن طرد المفكر العربي (ساطع الحصري) من العراق واستقر في سورية وفيها كتب جلّ مؤلفاته حول القومية، بدا وكأن انقلاباً عظيماً جرى في تفكيره القومي. إذ راح يوجه انتقاداً شديداً للأحزاب القومية العقائدية، وهدفه فيما يظهر حزب البعث العربي الاشتراكي، إلا أنه نادى بصورة خاصة بوجوب استبعاد الدين من العمل القومي. فتعرض لقاء ذلك لتقبيح وتجريح من القوميين الإسلاميين وطعنوا في قوميته وهجاه كتابهم وشعراؤهم وأسمعوه هجر القول[١٧].

---

(١٧) علق بذاكرتي من الهجاء هذان البيتان:

(ساطع) أظلم لما وُسِدَّ الأمر إليه =

ويتجلى التذبذب والحيرة والتعبير بله الحراجة حين يحاول أحد أنبياء القومية تفسير علاقتها بالدين. كتب عبدالناصر:

«الدائرة الإسلامية، دائرة إخوان العقيدة ويتجهون معنا إلى قبلة واحدة، وتهمس لهواتهم بنفس الصلوات هي دعوة إلى تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم بالطبع. أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط تقرّ بها العقيدة فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ. إن علاقة نحن الشعب المصري، الأمة العربية، العرب، بل الدائرة الإسلامية أو المسلمين أو العالم هي علاقة تاريخية من التعاون والتضامن السياسي وعلاقة أخوة في العقيدة، لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية»[١٨].

ولو ورد هذا في مجرى خطاب لعزونا التخبط والتناقض إلى مقتضى الموقف من إشاعة الحماسة في النفوس بعبارات وشعارات متناثرة لكنها صخّابة رنانة، لكن ها هنا عبارات متنوعة من كتاب دونت أفكاره بعد تأمل وفي حالة صفاء ذهني ليقرأها ملايين من الناس. وإليك دليلاً آخر. في العام ١٩٨٩ نشرت صحف بغداد في أواسط حزيران نعي مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق مذيلاً بتوقيع قيادته القومية والقطرية بهذه الصيغة:

«إلى مناضلي الحزب في أنحاء العالم: بمزيد من الأسى والحزن تنعى القيادتان القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي فقيد الحزب الرفيق ميشيل عفلق وأمينه العام... وتودان أن تعلنا بأنه كان قد اعتنق الإسلام ديناً ولم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة إعلان ذلك، حرصاً منهم ومنه على أن لا يعطى لهذا الخيار أي تأمل سياسي».

وحين لا يذكر الإسلام بصراحة تذكر رموزه ورجاله الذين وطدوا حكمه:

«العروبة روح حاتم (الطائي) ومعن (بن زائدة الشيباني) والسموأل (بن عادياء)

= هـدم ركـن الـديـن عـمـداً لـعـنـة الـلـه عـلـيـه

يقول الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، ص١٥٧: كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية، ومهما كان أصله ونسبه وسواء أكان مسلماً أو مسيحياً أو سواء أكان سنياً أو جعفرياً أو دروزياً وسواء أكان كاثوليكياً أم پروتستانتياً فهو من أبناء العروبة.

(١٨) فلسفة الثورة: بقلم جمال عبدالناصر، القاهرة ١٩٥٣ ط. وزارة الإعلام، ص٤٤، وما بعدها.

في كل نبيل عربي، وروح عنترة (ابن شداد) وطرفة (بن العبد) وامرئ القيس (بن حجر آكل المرار الكندي) والأخطل (غياث التغلبي) والمتنبي (أبو الطيب) في خيال كل شاعر عربي، وروح خالد (بن الوليد) وأسامة (بن زيد) وطارق (بن زياد) وصلاح الدين (بن ايوب) ويوسف العظمة على سيف كل جندي عربي، وروح علي (بن أبي طالب) وأبي بكر (الصديق) وعمر (بن الخطاب) على قلب كل متسلط عربي. والعروبة أن يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف. والعراقي أن له فراتاً في النيل. والعروبة دم زكي يجري في عروق جسد واحد أعضاؤه الأقطار العربية وكل ما يعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار:

عش للعروبة هاتفاً بحياتها ودوامها
وامدد يمين الحب يا لبنانها لشامها
انظر الى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت معـ ظمه إلى إسلامها»[١٩]

محاولات للانتماء العروبي مثل هذه لا تفلح مهما بلغت من سلامة نية وصدق في نقل الأقرباء الفقراء من (المطبخ) إلى قاعة الاستقبال. فامتياز الدين باق في الحقل العربي القومي رغم اهتداء (إدوارد عطية) واعتراف الشاعر القروي.

عند نشوب الحرب العظمى ١٩٣٩ كانت الطبقة المثقفة (الإنتلجنسيا)[٢٠] في العالم الناطق بالعربية تتداول مفاهيم الاشتراكية المتصارعة والمتناقضة أحياناً، ووجدنا

---

(١٩) القول والشعر لرشيد سليم الخوري اللبناني١٨٨٧-١٩٥٥: من شعراء المهجر وهو جزء من مقدمته لديوانه: القرويات، المطبوع ثانية في ١٩٥٣ في ليبيا، (طبعته الأولى في البرازيل) حيث كانت إقامة هذا الشاعر، والأسماء بين القوسين من إضافتنا.

(٢٠) لو فصلت كلمة (الإنتلجنسيا intellegence) عن مصدرها الاشتقاقي، فقد كان يمكن استخدامها وصفاً ليشمل فئات اجتماعية واسعة ويغطي مساحة عريضة لا صلة لها مطلقاً بالذكاء والفطنة الشخصية، لكن سأقصر مفهومها على الكتاب والفنانين والمهندسين والأطباء والصحفيين والمحامين والاقتصاديين ومن إليهم. وفي الواقع كل الطبقة المثقفة بقدر ما تم من تخصصهم العام. وفي البلاد الناطقة بالعربية يتكون معظم الإنتلجنسيا من أولئك الذين تلقوا علوماً عالية في المعاهد الوطنية والأجنبية والموظفين المتبعين والكثيري السفر والاحتكاك بالغرب وكل من حقق صلة فكرية بالغرب. هؤلاء هم صانعو الآراء ومروجوها، وهم خليط عجيب متنافر ومجموعة واسعة من ذوي التفكير الساذج والتفكير البالغ التعقيد.

أكثرهم في سورية ولبنان وفلسطين فائضين عن الحاجة وصُدِّر معظمهم إلى العراق وعادت جموعهم بعد حركة مايس. أرادوا بعد عودتهم أن يلتقوا بالجمهور على أسس تنظيمية سياسية، فلم يلقوا حظاً كبيراً من النجاح. هؤلاء الإنتلجنسيا لم يكن لهم جذور شعبية تقربهم إلى الجمهور ولا لغة مشتركة بينهم وبين الجماهير، وكان عليهم أن يضربوا على أوتار معارفهم ضرباً شديداً. وأن يدقوا أفكارهم في الرؤوس دق المطرقة على المسمار. وبدت الاستجابة من الطلاب وصغار الضباط السوريين أظهر عندما قام المدرسان ميشيل عفلق(٢١) وصلاح الدين البيطار خريجا جامعة السوربون بتأسيس منظمة الإحياء العربي وهو خلف لنبتة قومية ضعيفة عرفت باسم (حركة العمل القومي) نمت وأخرجت شطأها في ظل حكومة ڤيشي في العام ١٩٣٩.

إلى جانب هذه الحركة كانت هناك حلقة قومية أو عصبة أخرى يتزعمها فكرياً مدرس آخر هو زكي الأرسوزي وكان أكبر الاثنين عمراً عُرف بمقدرة على جمع لفيف من التلاميذ حول أفكاره، وبدا عازفاً عن المشاركة الطويلة في أي منظمة لا تقرُّ به زعيماً. إلا أن الفريقين رغم نشوئهما منفصلين، كانا قد توصلا إلى عين الفكرة التي قام عليها منهاج البعث فيما بعد. ولذلك لم يجد أتباع الأرسوزي أي حرج في الانضمام إلى بعث عفلق والبيطار فيما بعد.

نشط الأرسوزي(٢٢) في العام ١٩٣٨ في التأليب على الفرنسيين بسبب نزولهم

---

(٢١) يهتم كثير من خصوم البعث القوميين العروبيين والمسلمين والمتنطعين، وأيضاً بعثيو الضفة اليمنى، بالتحري عن أصل ميشيل عفلق العرقي إثباتاً لأصول غير عربية لأسرته متخذين من لقبها دليلاً. فيقولون أن جده قدم سورية من الولاية التي عرفت عند العثمانيين بـ(الافلاق) وهو تصحيف لاسمها السلافي (فلاقيا Valochia)، وكانت قد انسلخت عن الإمبراطورية العثمانية في ١٨٥٦ وتأسست منها وباتحادها مع إقليم مولداڤيا دولة رومانيا الحالية في العام ١٨٥٨. وما أرى هؤلاء إلا مخطئين، فاسم (عفلق) وهو كلمة رباعية لصفة ولإسم عربي ومعناه في المعاجم المعتمدة، المرأة السيئة الخلق أو المنطق أو العمل (باضافة أل التعريف اليه)، وهو ليس بغريب على الأسماع كما يبدو. وقد وجدته عتيقاً دارجاً فابن دانيال، وهو الشيخ شمس الدين بن عبدالله الموصلي الخزاعي المتوفى في (١٣١١ م =٧١٠هـ) مبتكر تمثيليات (خيال الظل) أو ما نسميه اليوم بـ(القره قوز) أو الدمى المتحركة، وهو أديب وشاعر ذائع الصيت في مصر التي رحل من الموصل إليها ومارس فنه فيها - تجده يطلق اسم (الشيخ عفلق) على شخصية في تمثيلية ظل من تأليفه عنوانها الأمير وصال.

(٢٢) ولد الأرسوزي في العام ١٩٠٥ وهو من طائفة النصيرية وقالوا إنه ورث العمل السياسي عن والده، الذي كان أحد الناشطين في الأحزاب السرية ضد العثمانيين. التحق بالسوربون بمنحة =

لتركيا عن لواء الإسكندرون. وترأس (عصبة العمل القومي) بعد أن خسر وظيفته التعليمية في العام ١٩٣٤ وبقي رئيساً لها حتى نشوب الحرب، وكانت تطالب باستقلال سورية وتحظر التعامل مع الفرنسيين بأي شكل. خلّف انحلال عصبة العمل القومي (فراغاً) عروبياً، فحاول هؤلاء الثلاثة مع أنصار قلة ملأهُ لكنهم اختلفوا في أول لقاء بينهم رغم اتفاق الأهداف: «التخلص من الانتداب التام، الأمة العربية أمة واحدة والهدف هو وحدتها».

لم يلبث الأرسوزي أن أنشأ ما دعاه (بالحزب القومي العربي) مؤكداً في كتاباته ضرورة رجوع العرب إلى الماضي ووجوب النفوذ عميقاً إلى قرونه السحيقة ليستوحوا منه، وعلى العمل للتخلص من النفوذ الأجنبي في بلاد العرب، وشدد على أن يكون للعرب زعيم واحد فقط قادر على تحرير طاقات الأمة العربية الحبيسة.

ولم يكن حزب الأرسوزي هذا الذي أُبدل اسمه فيما بعد إلى اسم (البعث العربي)(٢٣) إلا واحداً من المجموعات القومية الكثيرة والحلقات في المدن السورية

= دراسية مثل عفلق ونال بها الشهادة، وقد تتلمذ على الفيلسوف الكبير برگسون. وأثروا عنه قوله إنه كان من المعجبين بفلسفات نيتشه وفخته وديكارت وكانت، لكنه استقى مفهومه القومي من (فخته). بقي في تنظيم اللجنة التنفيذية لمؤتمر نصرة العرب المنعقد في أنطاكية وقد ضم أرمن وكرداً وجراكسة ومسيحيين من مختلف الطوائف فضلاً عن العرب، وكل من عارض في ضم اللواء إلى تركيا. وبقي الناطق الرسمي للمؤتمر حتى بعد انحلال عصبة العمل القومي المشار إليها، وترك إنطاكية بعد ضم اللواء واستقر في دمشق، وجمع حوله عدداً من مثقفي الشباب القومي (صاروا فيما بعد أعضاء مؤسسين لحزب البعث، منهم جلال السيد ووهيب الغانم وجمال الأتاسي أو علي حيدر وسامي الجندي) وهؤلاء لمعت أسماؤهم في الأحداث السياسية السورية، وكانت لهم أدوار هامة في تاريخ الحزب. يذكر آخرهم وكان في أول سنة جامعية أنهم بلغوا (٢٤) خلال السنتين التاليتين، ثم انخفض العدد إلى (٢١) عندما سجن ثلاثة منهم بسبب توزيعهم نشرات. وعلى إثر ذلك حظرت الإقامة على الأرسوزي في دمشق. وفي ١٩٣٩ عاد من العراق بعد سنة من الخدمة التعليمية ساخطاً لاعناً حكامه لأنهم (اغتالوا غازي). نزح بعد ذلك إلى اللاذقية ثم إلى طرطوس وتوقف عن النشاط مدة. وتفرق أتباعه لكنهم بقوا مؤمنين به. وفي أوائل الخمسينات عاد إلى مهنة التدريس في دمشق ووصف حين ذاك بذلك المثقف العلوي في العاصمة القريب من تلامذة الجامعة العلويين. وكانت وفاته في العام ١٩٦٩ أي قبل أن يجعل منه المؤسس الحقيقي للبعث بسنة واحدة.

(٢٣) كان ذلك في العام ١٩٤٠. ويتفق هذا التاريخ مع التاريخ الذي اثبته لميلاد حزبه ويعين الاسم (نضال البعث) ج١ ص١٨٦ دار الطليعة.

تراها تخرج فجأة من قدر الفوضى الفكرية الفائر في سورية ليغيب معظمها ولا يبقى ويشتد عودها لتترك أثراً باقياً في مسيرة القومية العربية وتاريخ النضال العربي، وتلك هي كتلة عفلق والبيطار.

أكمل هذان دراستهما الجامعية في السوربون أيضاً بمنحة دراسية وانضم أولهما إلى حلقات الاشتراكيين والشيوعيين والتقى عند بدء دراسته في ١٩٣٣ بثانيهما وارتبطا بصداقة لم تدم كثيراً، على نحو ما سنرى. وبعد أن أكملا دراستهما عادا فعُينا معاً في مدرسة التجهيز الثانوية الثانية، واختص عفلق بمادة التاريخ في حين اختص ثانيهما بتدريس مادة الفيزياء والطبيعيات. وبدا في كل منهما خيبة ونقمة وعدم رضا بوظيفتهما لأنهما وجداها لا تناسب درجتهما الجامعية العالية. كانا من الإنتلجنسيا الناقمين الذين زخرت بهم سورية وغصّت مقاهيها بهم. وببطء شديد بدآ يكسبان سمعة المفكرين والكتاب السياسيين، لاسيما الأول منهما وكان قد شارك في العام ١٩٣٥ مع الإنتلجنسيا اليسارية والأدباء التقدميين في إصدار مجلة (الطليعة) الأدبية الشهيرة، التي انتشرت انتشاراً واسعاً في عدد من الأقطار العربية، لاسيما العراق. ونشر مقالات في صحيفة (الطريق) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوري وأختها صحيفة (الأيام). وربما كان هذا السبب في ما أشيع عنه بأنه انتمى إلى الحزب الشيوعي عضواً أثناء وجوده في باريس، على أنه وقع أثناء دراسته الجامعية تحت تأثير الماركسية ولازم في سورية الجامعات الماركسية ردحاً من الزمن.

في غضون عمله جمع حوله عدداً من طلابه وحدد لهم لقاءات في منزله أيام الجمع. يقول أحدهم:

«كان طلابه ومريدوه هؤلاء يرددون أفكاره وبعضهم كان يتلوها. ونتغنّى بها كالسكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا. حيث لا فرق بيننا ولا يضعفنا أننا قلة وأننا وحدنا. لقد كان تفاؤل أستاذنا يغمرنا وقد أطلقنا عليه اسم محمد ميشيل. كان عفلق يقول لنا: ليس لنا أن ندعي بأننا أفضل من غيرنا، لكننا مختلفون عنهم وهذا الاختلاف هو الذي يجعلنا عرباً ويجعلهم غير عرب»[٢٤].

---

(٢٤) ذوقان قرقوط: ميشيل عفلق: الكتابات الأولى ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٣، ص٤٠.

في ذلك العام ١٩٤٠ نبعت فكرة التأليف بين المجموعات القومية، وأظهرها هاتان، في رأس مغترب سوري ثري في البرازيل عائد إلى سورية اسمه ميشيل فرمان ينتمي إلى الرابطة القلمية، التي كان منها الشاعر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وهو قومي المشاعر كما تقدم بيانه وصديق لميشيل هذا. قال إنه جاء لإنقاذ سورية من براثن الاستعمار الفرنسي وأبدى استعداده لتمويل الحزب العتيد، واقترح على الثلاثة عقد اجتماع بين الكتلتين مع ممثلين آخرين قوميين[٢٥]. فحصلت اتصالات وجرى اجتماع لا ثاني له. ومن خلاله تبين لميشيل فرمان والآخرين أن الخلاف لم يكن على المبادئ، بل على من يترأس التنظيم المنتوى. كان الأرسوزي وعفلق يريدانه كل لنفسه ويأبى أحدهما أن يتنازل للآخر عن القيادة أو أن يرضى بالمنزلة الثانية في الزعامة. وافترق الطرفان على غير لقاء. وعاد ميشيل فرمان إلى البرازيل يجرّ أذيال الخيبة.

يذكر سامي الجندي[٢٦] أنه عرض يوماً على الأرسوزي بياناً لعفلق والبيطار وجلال السيد مذيلاً بعنوان (البعث العربي). فعلّق الأرسوزي عليه بهذا:

«ها قد بدأت دسائس الاستعمار، إنه مخطط إمبريالي يرمي إلى قطع الطريق علينا إلى الشعب بحركة تنتحل اسمنا».

لم يكن في البيان طبعاً ما يشير إلى ميل نحو الاستعمار أو مهادنة له ولا ما ينمّ عن قصد الموقعين قطع طريق الأرسوزي وجماعته إلى الشعب. إلا أن تهمة (العمالة) للأجنبي ووصمة التقرب من المستعمر هي من التهم الرائجة القريبة التناول التي لا تحتاج إلى إثبات من مطلقها يترامى بها الخصوم القوميون فيما بينهم في ميدان الاعتراك على الزعامة أو كغطاء لعداء ونفور شخصي وهي مضمونة النتائج مثل عصا موسى التي يصيرها أفعى عند الطلب والحاجة. ويذكر الجندي أن صاحبه الأرسوزي:

«بات يشك في كل شيء يصدر عمّن لم يكن له تابعاً».

إن شكوكه هذه ورقة حاله حملاه على ترك العمل القومي نهائياً. لكن بقي الخلاف حتى يومنا هذا حول الأهمية النسبية لكل من الأرسوزي وعفلق في دفع حركة البعث لتصبح حزباً أطلق عليه اسم البعث العربي. فجماعة الثاني يدّعون أنهم استوعبوا مع عشرة من أتباع الأول الفكرة الأصلية له عندما انضموا صفقة واحدة إلى البعث

---

(٢٥) منهم شاكر العاصي والياس قندلفت.

(٢٦) سامي الجندي: المرجع السالف: (البعث: ص٣١).

الثاني. أما خصوم عفلق فيقولون إنه لم يأت بأية أفكار من عنده بل سرق أفكار الأرسوزي وأتباعه. وفي الواقع أنهما كانا عيارين من معين واحد. فكلاهما من طبقة واحدة وثقافة واحدة وأهداف واحدة. إلا أن الفرق هو ضعف في الاستمرارية عند الأرسوزي الذي توقف مرات عديدة واعتزل الحياة العامة والكتابة في أوائل الأربعينات، في حين كان الآخران ناشطين في إصدار البيانات باسم (حركة الإحياء العربي) ويستخدمان تعبير (البعث) في مناسبات معينة.

حركة الإحياء هذه لفتت إليها الأنظار من خلال نشاطها العقيم الفاشل الذي بذلته في تأييد حكومة رشيد عالي ومن ذلك بياناتها الصبيانية التي أثبتنا بعضها - وتنظيمها مظاهرات، وقيام بعض أتباعها بالرحيل إلى العراق للمشاركة في قتال الإنگليز برئاسة جمال الأتاسي أحد أعضائها البارزين، في حين رفض الأرسوزي رفضاً قاطعاً تأييد حركة مايس، وربما شعر بألاّ فرصة هناك للگيلاني في النجاح[٢٧]. وادّعى بعد عدة سنين أن انتهازية عفلق في هذا الحدث التاريخي كانت بمثابة دعم للمحور الذي ساند الگيلاني، وهو الذي يدعي بالتقدمية وأن بغضة به تنبعث من هذا السبب بالأصل. وربما كان هذا الادعاء تبريراً لموقف العداء الشخصي أكثر من كونه شرحاً أيديولوجياً لموقفه. فالواقع هو أن كلاً منهما كان على يقين بأنه القائد المناسب والأصلح لبعث العرب. يقين بدا معه كل محاولة للتقريب بينهما غير مجدية[٢٨].

في ١٩٤٠ أو ١٩٤١ عندما طُردت حكومة فيشي من سورية وتولت فرنسا الحرة والحلفاء أمرها، كان كل الكتل والتجمعات السورية الوطنية، بما فيها الحزب القومي السوري، يدعو إلى مبادئ قومية. وفيها قرر عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد تأسيس حزب البعث.

* * *

نشأت حركة البعث في أحضان وضع سياسي عالمي ومحلي خطير لا يمكن المرور به مروراً عابراً أو سطحياً.

---

(٢٧) سامي الجندي: البعث ص٣٣ رولو: لغز سورية.

(٢٨) رولو Rouleau: لغز سورية، وجون جي. دلفين John J. Delvin: تاريخ حزب البعث من نشأته حتى العام ١٩٦٠ The Baath Party:A History from its origin to 1960 -، مطبعة هوفر انستيوشن الولايات المتحدة ص ٩٥٩.

هؤلاء الثلاثة الكبار، الذين وضعوا الأسس الأيديولوجية للبعث يمكن أن نعدهم من طبقة الإنتلجنسيا الفرنسية الجديدة، تلك الطبقة التي أعلنت سخطها العظيم منذ ١٩٣٥ على الحكومات الفرنسية المتعاقبة واحتقارها لها ولجنرالاتها الجبناء المرتبكين واشمئزازها من تطاحن الأحزاب السياسية والنظام، وفلسفتها واحدة بعد الأخرى، بشعور من الخيبة المرة في زعمائها وساساتها المتخاذلين(٢٩).

لكن كم كان تأثير هزيمة فرنسا في ١٩٤٠ على الوضع السياسي السوري ومن ثم في إقدام الحركات القومية على الانتظام في أحزاب سياسية؟ الجواب يصطدم بعقبات كثيرة ويتضمن تعقيداً زاد بقيام فرنسا مزدوجة: فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديگول وفرنسا فيشي برئاسة المارشال بيتان. أولهما واصل القتال مع الحلفاء بعناد، وثانيهما وافق على توجيه سياسة فرنسا غير المحتلة بشكل لا يتعارض مع سياسة ألمانيا النازية الخارجية منها والعسكرية.

وكانت الإدارة الفرنسية في سورية ولبنان، كما هي في شمال أفريقيا إلى جانب القوات العسكرية الموالية لحكومة فيشي، وكانت في سورية بعثة تنسيق عسكرية ألمانية ويتعاون متبادل نقلت أسلحة فرنسية إلى العراق لمساندة حركة مايس كما تقدم بيانه(٣٠).

---

(٢٩) أثبتنا هذا العام الموافق لدخول الجيش الألماني أراضي حوض الراين الألمانية التي قضت معاهدة فرساي ١٩١٩ على بقائها منزوعة السلاح، وهو أيضاً تاريخ موت عصبة الأمم الأدبي والفعلي، بسبب الموقف المشين الذي اتخذته بريطانيا وفرنسا من غزو الطليان الحبشة، والتدخل الألماني - الإيطالي العسكري في الحرب الأهلية الإسبانية. يجمع العسكريون والساسة والمؤرخون الكبار بأن أي وقفة عسكرية حازمة من قبل فرنسا كانت كفيلة بتراجع القوات الصغيرة التي أرسلها هتلر إلى الراين لكسر بنود المعاهدة. وقد كشفت الوثائق المتحصلة بعد الحرب أن هذه القوات الصغيرة كانت قد تلقت أمراً بالعودة من حيث أتت إن اصطدمت بممانعة من القوات البريطانية والفرنسية، ولكان في ذلك القضاء على النفوذ النازي وسقوط هتلر، ولتبدل مسرى التاريخ البشري كله. (انظر مزيداً من التفاصيل في هذا عند أندريه فرنسوا پونسيه المندوب السامي السابق في كتابه: The Fateful Year ط. نيويورك ١٩٤٩. وكذلك بيرتينُكس Pertinox: حفارو قبر فرنسا The Grave diggers of France نيويورك ١٩٤٤.

(٣٠) من الطريف الذي يذكر بهذه المناسبة أنه في حزيران ١٩٤١ عندما أعلن ديگول في لندن عن تشكيل لجنة فرنسا الحرة برئاسته لمواصلة الحرب مع الحلفاء، كان جنرالاً صغيراً برتبة عميد غير معروف مطلقاً ووزير ضئيل المركز في آخر وزارة فرنسية. قال تشرشل للجنرال سپيرس =

بعد القضاء على الحركة، وبسبب تطورات الحرب في شمال أفريقيا وفي البلقان (استيلاء الألمان على اليونان وجزيرة كريت) وبموقف تركيا الغامض واحتمال الهجوم عليها، أدركت القيادة العليا الإمبراطورية في لندن بالاتفاق مع الجنرال ديگول وجوب انتزاع سورية ولبنان من قبضة حكومة فيشي. وكان الحلفاء قد ضربوا حصاراً اقتصادياً عليهما.

اتصل الجنرال (كاترو) ممثل فرنسا الحرة بالأميرال (دانتز) المندوب السامي التابع لحكومة فيشي حاثاً إياه على تسليم سورية ولبنان. ومما أدى به توسلاً لإقناعه قوله:

«معاهدة جديدة مع السوريين ضمانة لحقوق الفرنسيين في حالتي السلم والحرب وسيتم رفع الحصار الاقتصادي وتبقي على النقمة المضاعفة التي يكنها السوريون للفرنسيين جراء ذلك. وسيؤدي فضلاً عن ذلك إلى تصفية الخطر الداخلي المتمثل في الحركات القومية العروبية التي ارتمت في أحضان النازية، ولأن سورية ستكون إذذاك ضمن إطار المجال الامريكي - البريطاني الذي سيربح الحرب».

لم تحرز المفاوضات أي تقدم وزاد الحلفاء قلقاً وشعروا بضرورة القيام بعمل سريع. كانت الانتصارات الألمانية قد سلبت لب القوميين في سورية وامتلأت أعمدة الصحف بأنباء انتصاراتهم. وجرت لقاءات عدة بين زعماء سوريين وطلاب وصحفيين مع البعثة العسكرية الألمانية التي أُرسلت إلى دمشق برئاسة ڤرنر فون هنتگ Werner Von Hentig.

يضيف كاترو:

«ونظراً لتعقيدات الشرق الأدنى، انتلقت بالطائرة حاملاً أفكاراً بسيطة. كان ديگول يريد زيادة حجم قواته بضم القوات الفرنسية المرابطة في سورية. وفي الثاني من شباط هبطت الطائرات الألمانية في مطاري حلب ودمشق. كان كاترو يخشى أن يقاتل الفرنسيون الفرنسيين ووقع فعلاً. ففي ٨ من حزيران

= وهو قلق: «ديگول غير معروف في المحافل الدولية وعليك أن تجعله معروفاً». فطلب سپيرس مصاريف قدّرها بألف پاون. فأرسل هذا مصوراً لالتقاط صور للجنرال، وبان الغضب على ديگول عند مقابلته وقال لزملائه بشيء من الانفعال: يريدون أن يعرضوني مثلما يعرضون ماركة صابون جديدة. إلا أنه وافق أخيراً على الحملة الدعائية. [«ديگول» بقلم نيكولاي مولكانوف De Gaulle: Nicolai Molchonov الطبعة الإنگليزية - موسكو ١٨٥٠- ص١٢٨].

١٩٤١ شنت قواته والقوات البريطانية الهجوم»[٣١].

في ٢٠ من آذار كتب ديگول لكاترو من القاهرة:

«علينا أن نندفع نحو دمشق ولو بفوج واحد محمول باللوريات فالتأثير السيكولوجي سيتكفل بالباقي».

كان يدري جيداً أن القيادة البريطانية لن تقف مكتوفة اليدين أمام هزيمة تحيق بهذه القوة الفرنسية الصغيرة وأنها ستخف للمساندة فوراً. وهذا أفضل جداً من أن تكون المبادأة بيد البريطانيين.

وأراد ديگول فضلاً عن هذا الإعلان عن رغبة فرنسا في إنهاء الانتداب. كان ثمة منافسة قوية بين الحليفين حول الاستباق إلى دمشق. تعيد إلى الذهن منافسة العام ١٩١٨ وقد تقدم بسطها في فصل سابق. ويذكر جون باجت گلوب (گلوب باشا) قائد الفيلق العربي الذي زحف على بغداد من الأردن في أيار ١٩٤١:

«في الخامس من شهر شباط ١٩٤١ وصلتنا تعليمات سرية من قيادة الإمبراطورية في لندن تحثنا فيها على الاتصال بالأهالي في سورية لإيجاد قواعد مقاومة ضد النفوذ النازي والفاشستي، وأن أموالاً وضعت بتصرفنا لهذا الغرض. وتم الاتفاق على أن أقوم أنا بالاتصال بالقبائل السورية وأن يقوم كيرك المندوب السامي في الأردن بالاتصال بزعماء الدروز»[٣٢].

ولم يفصل گلوب في الأمر، إلا أنه لم يحقق لا هو ولا غيره أي اتصال بالقوميين في سورية، أو بوجوه الأسر العريقة في كل من حماه وحلب وحمص ودمشق، وكان هؤلاء في خصام دائم مع المندوب السامي الفرنسي الأميرال (دانتز).

---

(٣١) هذه وما بعدها، أنظر: جنرال جورج كاترو Gen. George Catroux: في معركة البحر المتوسط - الساحل السوري - شمال أفريقيا Dans la Bataille de Mediterranee ١٩٤٠-١٩٤٤ ط. باريس ١٩٤٩ يذكر في الص ٣٤-٣٦: «أن اجتماعاً جرى بينه وبين الجنرال ويفل قائد قوات الحلفاء العام والسفير البريطاني سر مايلز لامپسون بحثت فيه على مسألة الاتصال بالزعماء القوميين السوريين الموجودين في العراق، لكن عدل عن ذلك.» لأن أية محاولة للتفاوض معهم قد تثير مشاكل مع السلطات الفرنسية في سورية، كما سيكون ذلك عامل ازعاج للقوميين الآخرين الموجودين فيها، وكذلك سيسيء إلى المفاوضات السرية الجارية حينذاك بين الجنرال (ڤيڤيان) ممثل حكومة فيشي في أفريقيا الشمالية وبين الحلفاء.

(٣٢) جون باجت گلوب (John Bagot): قصة الفرقة العربية The Story of the Arab Legion، لندن ١٩٤٨، ص٣٠٧.

ويستخلص من الوثائق الألمانية المضبوطة بعد الحرب[٣٣] أن المهمة التي أوكلت لفون هنتگ كانت شبيهة إلى حد كبير بتلك المهمة السوداء التي أوكلت للدكتور فريتز گروبه في العراق: أعني الاتصال بالزعماء والقادة السياسيين العروبيين خصوصاً، وأن يروج لهم فكرة إمبراطورية عربية - إسلامية تحت رعاية المحور، ويؤجج نار العداء لبريطانيا عن طريق الضرب على الوتر الفلسطيني بإثارة مخاوفهم من قيام الإنگليز في حالة سيطرتهم على سورية، باقتطاع جزء كبير من شمالها وإهدائه لتركيا تحقيقاً لوعد صدر لها سابقاً على سبيل الترضية وضماناً لحيادها، أو دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء.

لكن الوقت لم يتسع لفون هنتگ كما اتسع لگروبه، ومع هذا فقد أصاب خلال الفترة القصيرة التي قضاها نجاحاً لم تغفل عنه الوثائق. ترك فون هنتگ دمشق بعد أسبوعين من عمل دؤوب شاق. ويستفاد من تقريره الذي رفعه إلى وزارة الخارجية أنه أوصى بضرورة تشكيل بعثة ألمانية وإرسالها فوراً لتعمل إلى جانب لجنة الهدنة الإيطالية التي لا تتمتع بأي احترام أو شعبية، بل هي موضع احتقار من السوريين وتعيش في عزلة تامة.

تفجرت المظاهرات في دمشق يوم ١٧ شباط وعزيت إلى زيادة أسعار الخبز الذي أمرت به الإدارة الفرنسية بسبب الحصار الاقتصادي. وانقلبت إلى عصيان سياسي عام دعا إليه القوميون القدماء بزعامة شكري القوتلي واتسع ليشمل لبنان. وفي ١١ من آذار تقدم وفد من الزعماء القوميين في دمشق بمطالب تضمنت إعادة الحكم بالدستور والحياة النيابية، التي كانت قد علقت. ففي تموز ١٩٣٩ وضع المعاهدة - السورية الفرنسية للعام ١٩٣٦ قيد التنفيذ.

وقد أشار (دانتز) في تقاريره إلى اليد الألمانية في تأجيج النار:

«إن الوكلاء الألمان هم المسؤولون عن إثارة هذه الاضطرابات. لقد أصبح للدعاية الألمانية تأثير عميق، وهم يتلقون إسناداً من حكومة رشيد عالي في العراق ومن الطليان»[٣٤].

---

(٣٣) المرجع السالف: الوثائق الألمانية، المجلد الحادي عشر. كذلك راجع مذكرات الحرب «نداء الشرف» بقلم الجنرال ديگول.

(٣٤) أوراق سياسية، العلاقات الخارجية للولايات المتحدة (B) ١٩٤٠ رقم (٣ و٢) ١٩٤١. علق =

في الأول من نيسان ألقى دانتز خطاباً من راديو بيروت أعلن فيه اعتزامه تشكيل حكومة سورية. وبعد ذلك بأسبوع واحد استدعى خالد العظم وكلفه بتأليف وزارة، ففعل. ولم يكن فيها ممثل واحد عن جبهة شكري القوتلي الوطنية. كما تم تشكيل حكومة مماثلة في لبنان برئاسة (إميل إدّه).

الصدف الغريبة تقول أحياناً كلمة حاسمة في التاريخ. لم يخطر ببال الحلفاء مثلاً أن هتلر أصدر قراراً نهائياً في التهيئة للهجوم على الاتحاد السوفياتي وأنه حدد له يوم ١٥ من أيار محشداً كل قواته. لم يكن هذا التحشد خافياً لكنهم ظنوا أن هدفه هو الهجوم على الشرق الأوسط عبر تركيا ومصر. ولولا هذا الظن لبقيت سورية في قبضة حكومة فيشي.

في ٩ من أيار وصل رودلف ران Rudolff Rahn المبعوث الخاص لوزارة الخارجية الألمانية للإشراف على إرسال المعدات الحربية إلى العراق. وفي ١٣ من أيار وصله أول قطار محمل بالأسلحة الفرنسية. فأُمرت القوة الجوية البريطانية بقصف السكك الحديد في الموصل لعرقلة وصول الأسلحة إلى بغداد، فسقطت القنابل على مرتادي المقاهي القريبة وأزهقت أرواحاً بريئة عديدة على نحو ما ذكرناه. وفي التاسع من حزيران شرعت قوات فرنسا الحرة تساندها قوات بريطانية في الهجوم لانتزاع سورية وأدرك ديگول أن بريطانيا لن تضيع فرصة الظهور بمظهر المدافع عن الحق العربي في الاستقلال بمنح سورية ولبنان استقلالهما. فاعتزم الإعلان عن تصميم فرنسا في إلغاء الانتداب على القطرين. وكما توقع فقد طلب البريطانيون أن يصدر التصريح عن البلدين أو على الأقل أن يبدوا فيه ضامنين للعهد الفرنسي، لكن ديگول تجاهل الاقتراح ورفض الصيغتين ونشر تصريحه الخاص[٣٥].

= القنصل العام الأمريكي في بيروت كورنيليوس فان انكرت على هذا القول: إن المندوب السامي الفرنسي صرح له أثناء حديثه معه بأن الإضراب العام والمظاهرات التي حصلت في شباط - آذار، كان الألمان وراءها. ويبدي (فان انكرت) دهشته من هذا الزعم، فيقول: إني متأكد بأن (دانتز) كان قبل بضعة أسابيع يتهم البريطانيين بإثارة القلاقل ولم يذكر الألمان مطلقاً. لكن القنصل يذكر في عين الوقت بأن القنصل العراقي العام في دمشق كان يتفاخر علانية بقوله إن القوميين في سورية هم حلفاء العراق ويزهو معلناً إنه الوجه السياسي لنشاطهم وإن ما يحصل في بغداد (ويقصد انقلاب نيسان العسكري وما جرى بعده) إنما هو جزء من الخطة المنفذة في سورية. آه.

(٣٥) في الثامن من شهر حزيران ١٩٤١ ووقت أن اندفعت القوات الفرنسية الحرة بإسناد القوات =

وبعد قتال عنيف تكبدت فيه قوات فرنسا الحرة خسائر جسيمة طلب (دانتز) وقف إطلاق النار. ودخل البريطانيون في مفاوضات معه متجاهلين ديگول. وفي الرابع عشر من تموز، وهو العيد الوطني الفرنسي، تم التوقيع على شروط هدنة وجرى بمقتضاها تسليم السلطة إلى البريطانيين، ولم يرد فيها ذكر لفرنسا الحرة. وتعهد البريطانيون بألا يتدخلوا في مسألة إخلاء قوات فيشي من القطرين.

وعندها عصف الغضب بديگول وأعلم البريطانيين بشكل صريح حاسم أنه لا يعترف بهدنتهم المعقودة (عُرفت بهدنة سانت جان دارك) وأنه أمر الجنرال (كاترو) بممارسة السلطة في سورية ولبنان وانتزاعها بالقوة عند اللزوم ومواجهة أية مقاومة من أية جهة كانت، وأعلن قائلاً إن قوات فرنسا الحرة المسلحة لم تعد بعد الآن تتلقى أي أوامر من القيادة البريطانية وهو على استعداد لخوض معركة مع البريطانيين في سبيل المحافظة على الممتلكات الفرنسية الشرعية! فما أشبه الليلة بالبارحة.

اضطرت بريطانيا إلى القيام بتنازل مزيف وقامت بعقد اتفاق إضافي مع ممثلي

= الأسترالية والبريطانية نحو سورية، أعلن الجنرال (كاترو) توليه سلطات ومسؤوليات المندوب السامي الفرنسي المغادر سورية، ونشر بياناً أشبه ببيان الجنرال مود عند دخوله بغداد في ١٩١٧، قال فيه: «جئت بهذه الصفة (صفة المندوب السامي) لأضع نهاية للانتداب ولكي أعلنكم شعباً حراً مستقلاً، وستكونون من الآن ذوي سيادة واستقلال في دولة متحدة أو عدة دول منفصلة، وفي كلتا الحالتين سيكون استقلالكم وسيادتكم مصونين بمعاهدة تحدد حقوقنا المتقابلة وعندئذ سيعلم شعبا سورية ولبنان بأن قوات الحلفاء إنما جاءت لتأكيد حريتهما لا لمصادرتها، إن هدف قواتنا هو مطاردة هتلر في سورية لئلا يكون (ليڤانت) قاعدة لهجمات العدو علينا وعلى بريطانيا».

وفي بيانه الخاص المؤرخ في ٢٨ من أيلول الخاص بالأقليات قال: «تعتبر فرنسا الحرة أن دولة سورية تؤلف سياسياً وحدودياً وحدة غير قابلة التجزئة، وحدة يجب الإبقاء عليها والحيلولة دون أي تجزئة فيها. وبناء على هذا فإنها ستنظر بعين العطف إلى كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تقوية الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية بين مختلف أجزاء سورية، ولهذه الغاية يتجه المفوض السامي المطلق الصلاحية لفرنسا الحرة في تعديل النصوص التي تحدد الشخصية القانونية الخاصة الممنوحة سابقاً لأقاليم معينة بشكل تكون معه خاضعة سياسياً للسلطة المركزية السورية. وسيبقى الاستقلال الإداري والمالي الذاتي قائماً إذا ظهر أنها شديدة الارتباط به. وعلى هذا الأساس سيتم التوفيق بين مبدأ الوحدة السورية وبين المصالح الخاصة لهذه الأقليات والطوائف التي تنص عليها القوانين الدستورية بخصوص الأفراد والطوائف سيبقى معمولاً بها تماماً كالسابق.» [نُقل عن الجريدة الرسمية لفرنسا الحرة Journal Officiel de la France السنة الاولى ١٣ في ٩ كانون الأول ١٩٤١].

ديگول ملحق باتفاقية الهدنة نزل فيه البريطانيون رسمياً عن السلطة في القطرين لفرنسا الحرة. فتوجه ديگول إلى بيروت ودمشق ودخلهما بكل المظاهر الفخمة التي أعدها أتباعه وجلس مع سراة القوم وأعلامِهم وجلّهم من الحرس القومي العروبي القديم ليضع معهم خطط المستقبل.

لكن البريطانيين لم يعبأوا باتفاقهم الجانبي وراحوا يتصرفون وكأن لا وجود له. ولم يعطوا ديگول ولا الممثلية فرصة كافية للاتصال بالقوات الفرنسية قبل نزوحها لضمهم إلى صفوفهم. وأسرعوا بنشر قواتهم في القطرين وشرعوا يتصلون بالعناصر القومية العروبية مثيرين في أنفسهم العداء القديم للاستعمار الفرنسي والتحكم الفرنسي والقسوة الفرنسية، وأُنزلت الأعلام الفرنسية ورفعت الأعلام البريطانية في مكانها.

عند ذلك أصدر ديگول أمراً قاطعاً لقواته القليلة بالدفاع عن (الحق الفرنسي) كما وصفه بقوة السلاح. وساد الذعر أصحابه المقربين وبدا الخطر حقيقياً في انفصام الحلف مع البريطانيين ووقوع اشتباك مسلح. كتب ديگول شارحاً موقفه:

«إن عظمتنا وقوتنا تكمنان في تمسكنا الصلب بحقوق فرنسا فحسب. وسنكون بحاجة إلى مثل هذه الصلابة حتى وصولنا إلى ضفاف الراين»[٣٦].

لم يفهم جماعة ديگول أن الموقف الذي آثره قائدهم كان محصناً مدروساً بدقة. فقد وضع في الحساب أن تشرشل الغارق حتى أذنيه في مشاكل الحرب والذي يجابه المحور وحيداً آنذاك لن يغامر بأي ما من شأنه أن يزيد في مشاكله، لاسيما بعد بذله المجهود العظيم وصرفه الأموال الطائلة في سبيل إنشاء فرنسا الحرة. فلم يكن لديه من سبيل إلا أن يحني رأسه لمطلب ديگول. حتى أنه سمح له أولاً بالقيام بالاتصال بقوات حكومة فيشي قبل رحيلها لإقناعها بالانضمام إلى قواته[٣٧].

كان ديگول يدرك أن البريطانيين سيستغلون عداء القوميين العرب لفرنسا في سورية ويستخدمونه لنسف أي جسر يمكن إقامته معهم. ففي مذكراته، التي رجعنا إليها كثيراً هنا، نعثر على نص برقية أرسلها من بيروت إلى اللجنة العليا لفرنسا الحرة بمقرها في لندن مؤرخة في الأول من شهر تموز ١٩٤١. وهذه هي: «من المحتمل أن تبدو

---

(٣٦) ديغول: المرجع السالف: المذكرات Memories ج٢ ث.١٩٣.

(٣٧) تمكن من أن يضم إلى قواته ٦٠٠٠ جندي و ١٢٧ ضابطاً فرنسياً من أصل جيش يزيد تعداده على ٣٠٠٠٠ رحلت بقيته إلى فرنسا.

مقاومة لسلطة فرنسا الحرة في الأقطار المنتدبة ومصدرها بعض المتعاطفين مع العرب المرتبطين بقيادة الشرق الأوسط والسفارة البريطانية في القاهرة ودائرة المندوب السامي في فلسطين، هؤلاء الناس تآمروا دائماً ضد فرنسا في الأقطار العربية، وهم على ما يبدو مصرون على الاستمرار في تآمرهم»[٣٨].

من الواضح جداً أن سياسة تشؤشل في ذلك الحين وبعد قمع حركة رشيد عالي ورغبته في محو الأثر السيِّئ الذي خلفته العملية في نفوس القوميين العروبيين وإزاء التهديد بالغزو الألماني لمصر[٣٩] أنه كان يريد التقرب من البلاد الناطقة بالعربية ولو على حساب حليفه. فكانت مشادة عنيفة بين الزعيمين[٤٠].

في العام ١٩٤٢ واستباقاً لمساعي بريطانيا المحمومة في تأليبها القوميين العروبيين ومساعدتها وتشجيعها المكشوف لهم، أعلن ديگول وضع التعهد باستقلال سورية ولبنان موضع تنفيذ وعدم تأخير ممارستهما السيادة والحياة الدستورية. وطبقاً لهذا تألفت في القطرين حكومتان حددت مهماتهما بإجراء انتخابات عامة وتشكيل مجلس نواب والعودة إلى العمل بالدستور. إلا أن بريطانيا سارعت بإصدار تصريح (مصادقة) على الخطوات الفرنسية وضمانة على إيفاء فرنسا الحرة بتعهداتها. تلك كانت السياسة التي أمر الجنرال إدورد سپيرس الممثل البريطاني في ليڤانت بتطبيقها في العام ١٩٤٢.

---

(٣٨) المذكرات: المرجع السالف، ص٤٣٣: ونجد في الصحيفة التي سبقتها برقية أخرى من ديگول لچرچل مؤرخة في ٢٨ من حزيران هذا نصها: «إن الأسلوب الذي تتبعه السياسة البريطانية بخصوص سورية سيكون تجربة على غاية من الأهمية لو بدا من تحركنا المشترك في سورية ولبنان ما يشير إلى التقليل من قيمة موقع فرنسا وإبراز الدور البريطاني فحسب إرضاءً لفيشي وبرلين وروما، فأنا واثق بأن ذلك سيكون له تأثير مأساوي على الرأي العام في بلادي».

(٣٩) بلغت قوات المحور في ذلك الوقت مسافة مائة وخمسين كيلومتراً من ميناء الإسكندرية أثناء اندفاع المارشال رومل داخل الحدود المصرية.

(٤٠) في ٢٩ من أيلول وعلى إثر الإجراءات التي تمت في ليڤانت (سورية ولبنان) جرى في داوننگ ستريت رقم ١٠ (مقر رئيس الحكومة البريطانية) لقاء عاصف بين الرجلين. كان چرچل شديد الحنق على موقف ديگول الصلب هناك وفي مدغشقر أيضاً الرافض للمشاركة البريطانية: (صرخ به تشرتشل - «تدعي أنك فرنسا؟ أنت لست فرنسا. أنا لا أعترف بك باعتبارك فرنسا. ومضى يتساءل بحدة: فرنسا؟ أين هي فرنسا الآن؟ أنا طبعاً لا أنكر بأنك وأتباعك عناصر هامة شريفة من الشعب الفرنسي، لكن هناك بالتأكيد سلطة أخرى غيرك يمكن إيجادها ولها أيضاً قيمتها». فقاطعه ديغول قائلاً بهدوء تام: «إن لم أكن في عينك ممثلاً لفرنسا، فبماذا وبأي حق تتعامل معي على مصالحها الدولية؟» فسكت تشرتشل ولم ينطق بحرف بعدها).

في لبنان كانت هناك مشكلة (المسلم العروبي القومي) و(المسيحي اللبناني) وبينهما القوى التي تحاول التوفيق بين الفكرتين. تلك هي القوى السياسية العقائدية والقوى الديمقراطية والقوى القومية السورية والقوى الاشتراكية، وكلها كانت تنمو بإطراد منذ العام ١٩٣٥ حتى ١٩٤٣. زاد الشعور بخطرها وقوة تأثيرها في المجرى السياسي المحلي، فقد كانت تدعو فضلاً عن التخلص من الحكم الأجنبي إلى نظام ديمقراطي وتطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. وبعضها كان يدعو إلى وحدة سورية الكبرى (سورية الجغرافية).

كان الحزب القومي السوري الذي ضم عدداً كبيراً من المثقفين من مختلف الطوائف والأديان والقوميات يرى في تبني العقيدة القومية السورية سبيل الخلاص الوحيدة من شباك الطائفية وأحابيلها. وفيه يكمن الحل لمشكلة الاستقلال الحقيقي.

وركز الحزب الشيوعي السوري - اللبناني (وقتذاك وقبل انشعابهما) نشاطه في تجنيد النقابات وخلق وعي جماهيري من أجل ضمان الحقوق الاجتماعية موجهاً إياه بالطبع إلى معارضة الانتداب كتحصيل حاصل، ولم يهتم أو يرصد جانباً من جهوده للعمل في سبيل وحدة القطرين معتبراً ذلك أمراً مفروغاً منه وسيتم تلقائياً بعد إلغاء الانتداب.

أما حزب الاستقلال الجمهوري الذي تأسس في ١٩٣٥ رافضاً في منهاجه الطائفية السياسية بصراحة فقد دعا إلى الديمقراطية وعلمنة الدولة والتقدمية.

وتألف أيضاً (حزب الميثاق الوطني) من الشخصيات الفكرية والسياسية المسيحية والدرزية، ودعا في بيانه الأول إلى المطالبة باستقلال لبنان بحدوده الحالية التي رسمها الانتداب مع إقامة علاقات وروابط أخوية بالبلاد الناطقة بالعربية واعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة. وإلى المساواة بين جميع اللبنانيين.

وفي العام ١٩٤٣ تألف حزب الكتائب اللبنانية (الفالانج) برئاسة پيير الجميل بطابعه المسيحي الماروني الغلاّب، بهدف الدفاع عن الكيان الوطني اللبناني أو ما سماه القومية اللبنانية في وجه المطالب السورية والأيديولوجية القومية العروبية والقومية الثورية مجاهداً في ضم المسيحيين كافة في كتلة سياسية ذات طابع عسكري كما ينم عليه اسم الحزب. ورغم تعصب الحزب الذي كان رد فعل للتعصب القومي العربي ذي الطابع الإسلامي، إلا أنه كان منفتحاً على العالم الناطق بالعربية تميز بالحرص على اللغة العربية وآدابها وتراثها. وكان هناك أيضاً حزب النجادة وهو مسيحي القوام.

وبقيت مطالبة الأحزاب القومية والمسلمين في لبنان مركزة حول هدف الوحدة مع سورية، ولم يصدر من أي كتلة (باستثناء البعث والحزب القومي العربي) أو حزب منها خلال هذه الفترة أي دعوة حول وحدة الأقطار العربية، ولم تعلن في مناهجها عن أية فلسفة عقائدية معينة خلا الحزب الشيوعي. والكل كان أفق نشاطه ينتهي بحدود لبنان. معظم هذه الأحزاب كان أشبه بتكتلات لا قاعدة شعبية لها بله مجموعات أشخاص بارزين عقلياً أو سياسياً أو اجتماعياً تعبّر عن وجهة نظر طائفة أو فريق عنصري معين أو مصالح فئة من فئات مجتمعاتهم الخالصة. والتعلق بأذيال فرنسا في لبنان لم يكن غير صدى بعيد للاضطهاد النسبي الذي عاناه المسيحيون عبر تاريخهم الطويل من حكام مسلمين أغراب انتهى إلى مذابح العام ١٨٦٠[٤١] وما تم على إثرها من تغيير سياسي في بنية هذا المجتمع.

---

(٤١) يشطّ بنا الحديث في هذا عن موضوعنا، والمناسبة ليست في تحري الأسباب والدوافع التي حدت بالدروز إلى مهاجمة المارونيين، وأعمال التقتيل التي قيل إنها كلفت هؤلاء زهاء عشرة آلاف من الضحايا وأدت إلى تشريد أكثر من مائة ألف منهم، لكن ما يتعلق بالموضوع هنا هو أن ضجة عارمة اكتسحت أوروبا ولاسيما في فرنسا التي انتهزت فرصتها فأنزلت في شهر آب ١٨٦٠ قواتها في بيروت. ولم يكن ليسع الدول الأخرى أن تترك لفرنسا تسوية الأمور وحدها وبادرت بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا فضلاً عن فرنسا بإرسال لجنة دولية إلى إستنبول. واتفق على تأسيس لجنة من مندوبي هذه الدول برئاسة وزير الخارجية العثماني، تم الاتفاق بنتيجتها على أن يُحكم جبل لبنان وفق ما سموه: بـ(Reglement Organique) الدول الموقعة الست (أضيفت إليها إيطاليا في ١٨٦٧ وأجري تعديل فيه في العام ١٨٦٤). بقي معمولاً به حتى ألغاه العثمانيون في العام ١٩١٥ إثر دخولهم الحرب. ولقد نجح هذا النظام خلال نصف القرن من عمره ونعمت في ظله الطوائف المسيحية ولاسيما الطائفة المارونية برخاء وأمن وطمأنينة وتقدمت لبنان بفضله تقدماً حضارياً مدهشاً ميزها عن سائر البلاد الناطقة بالعربية الأخرى. خلق هذا التنظيم من جبل لبنان إقليماً ذا حكم ذاتي عرف باسم (متصرفية جبل لبنان الممتازة) وبمقتضاه تقوم الحكومة العثمانية بعد المشاورة مع الدول الضامنة بتعيين (متصرف) له مسيحي عثماني غير لبناني، يساعده في الإدارة مجلس يتألف من اثني عشر عضواً لكل من المارونيين والدروز والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والشيعة والسنية عضوان (بموجب تعديل العام ١٨٦٤ زيد عدد الأعضاء المارونيين إلى أربعة والدروزيين إلى ثلاثة في حين قُلص الروم الكاثوليك والشيعة والسنية إلى عضو واحد). ويتم اختيار أعضاء مجلس الإدارة من قبل رؤساء كل طائفة بعد التشاور مع وجهائها ثم يصدر المتصرف أمراً بتعيينهم. وقُسم لبنان إلى ست قائمقاميات لكل واحدة مجلس إدارة يتألف من ثلاثة أعضاء حتى ستة. وقُسمت القائمقاميات إلى نواح، والمستوطنات إلى مشيخات يرأس كل مستوطنة شيخ من أهلها =

للمارونيين والمسيحيين عامة تعتبر فترة حكم الأمير بشير الشهابي (١٧٨٨-١٨٤٠) عصراً ذهبياً افتقدوه خلال السنوات العشرين التالية وبدا التطلع إلى فرنسا حاميتهم فيما سلف - وبعد أن بات الاستقلال حقيقة واقعة وكأنه شعور عفوي بضرورة الحماية في محيط إسلامي يكتنفهم. كان من شروط الانتداب الفرنسي على لبنان كما هو في سورية، أن يصاغ دستور للبلاد خلال ٣ سنوات. وجرى في العام ١٩٢٢ انتخاب مجلس تمثيلي مالبث المندوب السامي للبنان وسورية أن حّوله في العام ١٩٢٥ إلى مجلس تأسيس مهمته وضع الدستور، على غرار التنظيمات الدستورية Reglement Organique العثمانية وبخطوطها الرئيسة فتم ذلك[٤٢].

= وطائفتها. واتخذ الجهاز القضائي عين المبدأ. وكانت هذه التنظيمات الدستورية في غاية الدقة بحيث اشترطت أن يكون لليهود والبروتستانت مثلاً مقعد في المحاكم عندما يكون أحد الأطراف المتقاضية منسوباً إلى إحدى هاتين الطائفتين. ان الأحوال السيئة التي عاشتها البلاد الناطقة بالعربية في ظل الحكم العثماني خلال هذه الفترة بصورة خاصة ترغمنا على القول إن جبل لبنان نجح نجاحاً منقطع النظير في ممارسة هذا النوع من الحكم.

(٤٢) تنتسب الطائفة المارونية إلى القديس مارون (ت حوالي ٤١٠) وهو راهب ناسك من رهبان دير في شمال سورية. وهذه الطائفة الآن هي الوحيدة بين مسيحيي الشرق الأوسط التي تتمتع بما يشبه الوحدة الإقليمية الجغرافية والتكتل المذهبي - السياسي مثلما كان الآشوريون أتباع كنيسة الشرق يتمتعون به قبل الحرب العامة. أصول المارونية يحف بها الغموض، إلا أن مؤرخين لها يعزونها إلى المونوليثية (أي أصحاب المشيئة الواحدة) وهي بدعة ظهرت في القرن السابع، وهو ما ينكره المارونيون اليوم بشدة. كانت أول طائفة في الشرق تعتنق الكاثوليكية المارونية في العالم وتعترف بسلطة البابا الروحية مقيمة في عين الوقت على طقوسها الكنسية ولغتها السريانية الليتورجية من دون تغيير. وأثبت صحة مذهبهم مجمع فلورنسا الديني المنعقد في ١٥٨٤ ومنذ ذلك الحين لم تشب عقيدتهم الكاثوليكية شائبة، حتى إن الپاپا ليون العاشر بعث لهم بأول بطاركتهم (شمعون الحديثي) معززاً ببراءة تشيد بتمسكهم بالديانة والعقيدة الحقة وسط الكفار ومعاقل الزيغ مثل أزهار بين الأشواك. وحافظت على تماسكها وصمودها بوجه الحكام المسلمين، مثلما بقيت أمينة على تقاليدها واستقلاليتها قروناً عديدة برعاية وسلطة بطريركها الأنطاكي، الذي استقر في (قنوبين) بأعلى موضع من جبال لبنان قرب قرية (بشري). وقاتلوا وقاوموا كل محاولة لإخضاعهم، وتسنى لهم في فترة حكم الأمراء المعنيين ثم الشهابيين في أوائل القرن السابع عشر وما بعده مد مستوطناتهم إلى الجنوب. وبلغت قوتهم السياسية حداً وجد الأمير بشير الشهابي القرشي أن من المناسب التحول إلى الدين المسيحي. فأصبح مارونياً هو وجزء كبير من أفراد أسرته. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان المارونيون مستقرين في سلسلة متصلة من القرى والبلدات والمجمعات السكنية، اعتباراً من أبعد نقطة في الشمال (إهدن وبشري) وعكار ويجزء من بيروت حتى (جزين) فضلاً عن قلب جبل لبنان، كما كانت =

وتمثل هذا بتكتل مسيحي حول رئيس الجمهورية الماروني (إميل إدّه) وألّف أنصاره على غرار سورية ما عرف (بالكتلة الوطنية) لتواجه تكتلاً آخر تزعمه الشيخ (بشارة الخوري) الماروني أيضاً وعرف (بالكتلة الدستورية). أولاها كانت تشعر بضرورة اليد الفرنسية أو الغربية عموماً في لبنان مستقل، في حين سعت الكتلة الثانية إلى الانفتاح على المسلمين اللبنانيين والحركات القومية في سورية والدول الناطقة بالعربية.

كانت المنافسة بين فرنسا الحرة والبريطانيين على أشدها ولم يكن هناك شك في أن يد البريطانيين كانت هنا أرجح من يد الفرنسيين مما بدت في سورية. كان البريطانيون يفضلون ما عبّر عنه تشرشل بلقاء مع «أماني العرب ومشاعرهم».

وبمقابل أفول شمس الكتلة الوطنية، كانت جبهة الخوري تحقق انتصارات بمجاهرتهم بانتمائهم العروبي إلى حد ما. وما وجدت نفسها إلا وهي تسبح مع التيار القوي الذي خلقته السياسة البريطانية. وفي الوقت ذاته وقف حزب الكتائب المارونية

= لديهم مستوطنات متفرقة بين الدروز والسنية والشيعة والطوائف المسيحية الأخرى وتواجدوا في سورية أيضاً. ليس هناك إحصاء رسمي بعدد المارونيين، وقد عثرت على إحصاء يعود إلى العام ١٩٢٨ قامت به سلطة الانتداب (انظر إلى ص ٢٣٢-٢٣٣ من إيلي خضوري): السياسة في الشرق الأوسط Politics in the middle east. ط. أكسفورد ١٩٩٢) يثبت عدد من يعيش منهم في لبنان بحوالي (٢٢٨٠٠٠) يضاف إليهم زهاء (٣٠٠٠٠) يعيشون في الخارج محتفظين بجنسيتهم اللبنانية، فضلاً عن (٩٠٠٠٠) إلا أنهم ما زالوا يحافظون على علاقاتهم بالوطن الأم. ويوجد في لبنان مقابل ذلك (١٧٨٠٠٠) من السنية وما يقارب (١٥٥٠٠٠) من الشيعة، ولو أُضيف إلى المارونيين جميع المسيحيين الآخرين، فقد يبلغ العدد (٥٧١٠٠٠) في حين يكون مجموع المسلمين (٣٥١٠٠٠). وكلا هذين الرقمين مضلل ولا يُذكر فيه عدد الدروز. وقد استخدمت هذه الأرقام لتبرير وجود نسبة ستة نواب مسيحيين إلى خمسة مسلمين. على أنهم يقدرون اليوم في لبنان بحوالي مليون وربع مليون وهم مع الطوائف المسيحية الأخرى أقل بقليل من نصف مجموع سكان لبنان الكلي. يذكر عن الدكتور شارل مالك (وزير خارجية سابق وأستاذ في الجامعة الأمريكية) قوله على سبيل الفكاهة والدعابة: «المارونيون هو الجواب المسيحي للإسلام». وقد ربطتني به صداقة سريعة أثناء إقامتي في لبنان، جمعنا تشيعنا لأدب القصصي الروسي فيدرو دوستويفسكي وقد وجدته يحتفظ بنسخة من ترجمتي لروايته «ذكريات من بيت الموتى» وكانت قد طبعت في دمشق ١٩٥٤، أي قبل تعارفنا بسبع عشرة سنة، وهو والشيء بالشيء يذكر ماروني جديد وقد كان أرثوذكسياً فأبت زوجه إلا أن تعمل منه مارونياً لأنها مارونية!

بمواجهة مشاريع سورية الكبرى وبوجه كل الأحزاب التي لا تتمسك بلبنانيتها وفي مقدمتها الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي بقي مصراً على أن سورية الطبيعية تؤلف أمة موحدة القوام. وشن حرباً عواناً على (اللبنانية الطائفية) والعروبية والوحدوية سواء بسواء، وكان قد بدأها كما ذكرنا منذ العام ١٩٣٧ ولخص موقفه بهذا الشكل:

«إن الكيان اللبناني لم يلد من إرادة قومية يرتكز عليها ارتكازاً خصوصياً، ومن أجل إيجاد هذا المرتكز ما كان الحزب قد أقرّ بالحدود المرسومة في العام ١٩٢٠ إلا ليطمئن المسيحيون ولتلتقي القضية السورية الكبرى بالقضايا اللبنانية الخصوصية وللتوفيق بين القومية السورية وبين الكيان اللبناني. إن لبنان الحالي يتألف من مجموعتين بشريتين متساويتين في العدد تقريباً مسلمة ومسيحية، فضلاً عن أخرى درزية قليلة العدد لكنها هامة، ولم يحصل اتفاق بين هؤلاء الفرقاء لخلق الكيان اللبناني الحالي، بل وجد اتجاهان واضحان بقيا يتنازعان مصير لبنان: الاتجاه المسيحي - اللبناني - الفينيقي، والاتجاه الإسلامي العروبي - القومي. نحن لا نرى غير حل واحد لهذا النزاع وهو التمسك بالعقيدة القومية السورية الاجتماعية»(٤٣).

---

(٤٣) صرحت المادة (٩٥) من الدستور: «كإجراء مؤقت وتوفيقاً للمادة الأولى من صك الانتداب ولتحقيق العدالة والوئام تمثل الطوائف المختلفة تمثيلاً عادلاً بالنسبة إلى الوظائف العامة وفي تأليف الوزارات، على أن لا يخلّ ذلك بمصالح الدولة العامة». وكلمة طائفة أو طائفية هنا تقابل الكلمة الفرنسية التي استخدمها الانتداب لتمييز المجموعات العنصرية والمذهبية والدينية Confessionalisme. فهي بالمفهوم اللبناني معادلة لتعبير الدستورية Constitutionalisme، وقد ظهر ذلك المقصود جلياً من مشروع المعاهدة الفرنسية اللبنانية التي وقعت في العام ١٩٤٥.

يذكر (ميشيل شيحا) في كتابه: السياسة المحلية Politique Interieure بيروت ١٩٦٤ والنص مقتبس من كتاب (م. س. هدسن) الموسوم (الجمهورية المهددة Precarious Republic) نيويورك ١٩٦٨، الص ٩٢. وهو أحد أعضاء لجنة واضعي مسودة الدستور، قوله: «الطائفية في لبنان هي ضمانة لتمثيل سياسي واجتماعي عادل للأقليات الطائفية بأسرها إنها فوق كل شيء لأجل استتباب الأمن والنظام. إن لبنان مؤلف من أقليات طائفية متزاملة وتنضوي تحت الوصف الطائفي، لأنه كان أبداً ملجأ لحرية الضمير وكان ذلك ممكناً بسبب موقعه الجغرافي. فلأنه جبلي أمكن أن يدافع المرء عن نفسه ولأنه بحري كان من السهولة ركوب البحر وبالرغم من حصول أخطاء وتجاوزات فقد علّمت الطائفية لبنانَ كيف يكون متسامحاً. إن الموازنة اللبنانية المبتناة لا على انحياز بل هي حصيلة الحاجة إلى الإقرار بالخصائص التي تتميز بها الأحزاب =

من كل هذا نستنتج بأن التيارات السياسية التي كانت تسود الأفق السوري - اللبناني والعاملين فيه فضلاً عن الإنتلجنسيا في كل من القطرين يمكن حصرها في ثلاثة:

- التيار العروبي الذي يصرّ إصراراً شديداً على الانتماء العربي لسورية الكبرى ويعمل من أجل الوحدة العربية الكبرى.

- التيار اللبناني المنفرد الذي يتمسك بالكيان الذي خلقه الانتداب وبالحدود التي رسمها.

- التيار القومي السوري الذي يؤمن بوحدة سورية الكبرى (أعني سورية ولبنان وفلسطين والأردن وقبرص وشيء من شمال العراق).

* * *

أراد ديگول وهو في مقره بالجزائر استباق بريطانيا بغية إحباط مساعيها في القضاء على النفوذ الفرنسي، فقرر في يوم ٢٤ من كانون الثاني ١٩٤٣ من مقره في الجزائر بعث الحياة الدستورية في كل من سورية ولبنان. وأصدر أمراً للجنرال كاترو ممثله هناك باتخاذ الخطوات اللازمة لذلك، فبادر كاترو إلى الطلب من الحكومتين المؤقتتين اللتين عينهما في ١٩٤١ بتقديم استقالتيهما تمهيداً لإقامة حكومتين انتقاليتين تهيئان للانتخابات العامة.

وكان قد أعلن في السادس عشر من أيلول استقلال سورية رسمياً، وكما كان متوقعاً فازت الكتلة الوطنية في سورية بأغلبية المقاعد واختارت شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. وكذلك فازت شقيقتها في لبنان باستقلالها واختارت الشيخ بشارة الخوري رئيساً. كانت أغلبية الفائزين في الانتخابات تعتنق فكرة استقلال لبناني غير مشروط رافضة أي امتياز لدولة أجنبية. وحينذاك فقط بدأت تهب على أشرعة سفينة الحياة اللبنانية ريح عروبية خفيفة، وخرج كتاب سياسيون جدد يشيدون بـ(عروبة لبنان) ويستعيدون ذكر الدور البارز الذي مثله القوميون العروبيون في إقامة صرح القومية العربية أيام العثمانيين والشهداء الذين قدموهم في عالية ومشاركتهم في ثورة الحجاز

= السياسية نفسها. إن هذه الخصائص والفروق قد ينتابها الضعف وتزول ولكن ببطء، أما في الحال الحاضر فالكيان اللبناني يقوم على الموازنة الطائفية تماماً».

الشريفية، فضلاً عن جهود أدبائهم وشعرائهم في المهجر وغير ذلك[٤٤].

كان البريطانيون يبذلون جهوداً كبيرة في هذا المضمار. وقد وضعوا في لندن الخطوط الأولى للسيطرة على البلاد الناطقة بالعربية المستقلة لا تحت مظلة المعاهدات والانتدابات بل تحت خيمة جديدة هي خيمة الجامعة العربية وكل هذا سيأتي في موضعه المناسب.

تضمنت لائحة تعديل الدستور اللبناني حذف جميع المواد التي تربط لبنان بفرنسا، وأسرعت الحكومة الجديدة بإخطار المندوب الفرنسي السامي بوجوب تسليم الإدارة إلى موظفين لبنانيين لأنه ما عاد الآن أكثر من سفير لبلاده كسائر رؤساء البعثات الدبلوماسية الأخرى. واجتاح الغضب ديگول ورفض كل ذلك. وفي الخامس من تشرين الثاني أصدر وكيل المندوب السامي إيفس شاتينيو بلاغاً يعلن فيه معارضة فرنسا الحرة حق اللبنانيين في تعديل الدستور. فلم يأبه (رياض الصلح) ودفع بمشروع التعديل للمجلس، فتمت الموافقة عليه وسط صخب وضجيج. وفي ليلة الحادي عشر من الشهر عينه داهمت فصائل للقوات الفرنسية منازل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وألقت القبض عليهم وزجتهم في قلعة راشيا ووضعت كل واحد منهم في غرفة منفردة[٤٥].

وأصدر المندوب السامي في اليوم عينه قراره المرقم (٤٦٤) الذي ألغى فيه التعديلات الجديدة على الدستور وقضى بحلّ المجلس النيابي وتعليق الدستور، ثم

---

(٤٤) كان أنطون سعادة أول المعنيين في البلاد الناطقة بالعربية بوضع تقويم شامل لمفهوم الأمة والقومية والمجتمع ففي كتابه: نشوء الأمم، ط. ١٩٣٦ اعتبر الأمة مجتمعاً واحداً، والمجتمع هو بتعبيره: «المتحد الإنساني الأتمّ الذي تكون نتيجة تفاعل العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والثقافية عبر التاريخ ضمن بيئته وحدوده وخلال حياة خاصة مشتركة، الأمة جماعة وبيئة طبيعية معينة تسهل التفاعل والمشاركة في حياة واحدة متكاملة ووحدة اجتماعية ولأعضائها عقيدة متفاعلة راسخة بأن لهم مصالح في حياة عامة مشتركة على مستوى ثقافي معين وباستمرارية التفاعل والمصالح عبر التاريخ ولأمد طويل». وأضاف سعادة إلى هذا قوله: «إن الأمة السورية التامة القوام يجب أن تؤلف مع (الأمم العربية الأخرى) جبهة متراصة». وفي كتابه «نشوء الأمم» نجد في تفسيره معنى الأمة أو الشعب رفضاً قاطعاً لعامل اللغة. وهو يحل محله ما دعاه بالمصالح المشتركة والشعور القومي، وهما مكونا الوحدة السورية وأصلها.

(٤٥) المعتقلون الآخرون هم كل من كميل شمعون وسليم تقلا، وعادل عسيران وعبدالحميد كرامي، وأفلت كل من مجيد أرسلان وحبيب أبو شهلا.

أشفعه بالقرار المرقم (٤٦٥) القاضي بتعيين (إميل إدّه) رئيساً للدولة اللبنانية ولحكومتها. واتهم (هيللو) المندوب السامي في بيان ألقاه صبيحة اليوم التالي البريطانيين (دون ذكر الإسم صراحة) بكل ما جرى عند وصفه رجال الحكم المعتقلين بـ(أولئك الذين يحاولون إخراج فرنسا من الشرق لمصلحة دولة أخرى).

إلا أن موجة السخط الشديد الذي اجتاح البلاد وإجماع الأحزاب كلها دون استثناء على رفض أية معاهدة تعطي فرنسا امتيازاً خاصاً في لبنان المستقل[٤٦] وعجز (إميل إدّه) عن تأليف حكومة فتح الجو للبريطانيين فتدخلوا. تقدم الجنرال (سبيرس) باسم حكومته بمذكرة للجنرال كاترو يطلب فيها الإفراج دون إبطاء عن رئيس الجمهورية وأعضاء الحكومة وإعادتهم إلى مراكزهم. والخضوع لأحكام الدستور المعدل. وقد جاء فيها هذه العبارة العظيمة الدلالة:

«إن اضطراب الوضع في لبنان قد يمتد إلى سورية وهو بالتالي سيهدد المجهود الحربي ومواصلات الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط»[٤٧].

وهدد فيها بتدخل الجيش البريطاني. كان التهديد حقيقياً لا مراء فيه بوضع قطعات الجيش البريطاني تحت الإنذار. وأخذت لجنة فرنسا العليا برأي (كاترو) وتم الإفراج عن أعضاء الحكومة وإعادتهم إلى تصريف شؤون الحكم بعد اعتقال دام أحد عشر يوماً. إلى حين من الزمن بان هذا الكيان الذي خلقه الاستعمار بضم الأقضية العثمانية المسلمة الأربعة إلى جبل لبنان الماروني إنما وجد ليبقى رغم فقدان وحدة القوام فيه. لكن كانت هناك ضرورة شعر بها الجميع. ولو نحينا جانباً المنافسة الحادة بين الفرنسيين والبريطانيين، فقد التقى ذوو النزعة اللبنانية والنزعة القومية السورية والنزعة العروبية والإنتلجنسيا المستقلة كلهم التقوا لصياغة ذلك الميثاق الشهير غير المكتوب كالقانون الإنكليزي Common Law المعروف باسم الميثاق الوطني.

كان الميثاق كما يقول بعض مؤرخي تلك الفترة وليد لقاء تم بين شخصين لم يكن أحدهما قد التقى بالآخر قبل تلك السنة، هما الشيخ بشارة الخوري والرئيس رياض

---

(٤٦) إلتأم خلال ذلك ما دُعي بالمجلس الوطني الذي أعلن تضامنه مع الحكومة الشرعية. ومارست الولايات المتحدة ضغطاً كبيراً على لجنة فرنسا الحرة العليا للاعتراف بحرية الشعب اللبناني في اختيار نوع الاستقلال الذي يفضله. وكان من نتيجة الإجماع العام لكل الأحزاب أن توحدت منظمتا الكتائب والنجادة في حزب واحد برئاسة بيير الجميل.

(٤٧) كاترو: المرجع السالف، في معركة المتوسط، ص٢٦٣.

الصلح[٤٨]. وبهذا الصدد يذكر الشيخ بشارة:

«كان رياض الصلح يزورني بعد الانتخابات وعلى إثر تكليفه بتأليف الحكومة وفي منزلي بعالية وضعنا الخطوط الكبرى للبيان الوزاري. وخلال هذه الاجتماعات اتفقنا على الطريقة التي كان علينا اتباعها لننهي عهد الانتداب ولبلوغ الاستقلال ولإعلان الميثاق الوطني. هذا الميثاق هو اتفاق الفئتين اللتين يتألف منهما الوطن اللبناني. هذا من أجل بلوغ الاستقلال والتخلي عن

---

(٤٨) عندما بدأت نذر الحرب الأهلية تمور فوق أفق لبنان وقبل أن تخوض الميليشيات معاركها الدموية، تناولت أقلام الكتاب والساسة البحث في الأسس والظروف التي جاءت بهذا الميثاق، ومن أطرف ما كتب في هذا الباب المقال الذي نشره الأستاذ حنا غصن في مجلة (الأسبوع العربي) لصاحبها جورج أبو عضل الماروني في العدد المرقم ٢٠٠ وبتاريخ تشرين الثاني ١٩٧٤ اجتزئ منه هذا: «كان ميشال زكور وأسعد عقل وبعض السياسيين المسيحيين من ذوي النزعة القومية اللبنانية قد بدأوا منذ عام ١٩٢٩ يهاجمون الانتداب الفرنسي وينتقدون تجاوزاته مطالبين بالاستقلال، الأمر الذي حبّبهم إلى قلوب الأوساط القومية العربية باعتبار أن لبنانيتهم كانت تناسب القوميين العرب والوطنيين السوريين لاسيما وأنهم كانوا غير طائفيين. كل هؤلاء أدركوا أن وراء موقف رياض الصلح وغيره من القوميين العرب والوطنيين السوريين أسباباً جديرة بالاهتمام فالسلبية الإسلامية كان لها مبررها على اعتبار أن المسلمين العرب ثاروا على العثمانيين المسلمين لكي ينالوا الاستقلال لا لكي يقعوا تحت انتداب فرنسا. هذا التفهم أوجد علاقة شخصية بين هؤلاء الوطنيين اللبنانيين والمسلمين العروبيين. أثناء الحرب كان رياض الصلح وعدد من الوطنيين اللبنانيين والسوريين على صلة بالإنكليز، فطلب مني رياض الصلح أن أكتب مقالاً عنوانه (لماذا نحن مع الإنكليز؟). وبعد الانتخابات ذهب رياض الصلح إلى دمشق واجتمع بالزعماء السوريين كـ(سعدالله الجابري وفارس الخوري وجميل مردم بك) الذين أبلغوه تفضيلهم للشيخ بشارة الخوري كمرشح لرئاسة الجمهورية وأثار رياض الصلح في تلك الاجتماعات مشكلة الأقضية الأربعة مطالباً رفاقه في النضال القومي التخلي عن المطالبة بها لطمأنة اللبنانيين. وعارض فارس الخوري، لكن سعدالله الجابري وافق رياضاً. وكانت حجة رياض: ما الضرر في أن يكون عدد الدول العربية ستاً بدلاً من أربع؟ إن المسيحيين في لبنان وسورية لا يفرقون بسهولة بين الإسلام والعروبة، وهذا ما يتيح للاستعمار الغربي فرصة استغلال مخاوفهم واستخدامها لتهديد العالم العربي. ولذلك فإنه من الأفضل لقطع الطريق على مناورات الاستعمار أن يكون هناك دولة لبنانية تكرس الفكرة بأن العروبة لا تعني الإسلام. وذهب رياض الصلح إلى أبعد من هذا مقترحاً أن يكون لبنان ذا طابع مسيحي ليشعر كل مسيحي أنه يستطيع اللجوء والعيش في لبنان.» ويختم حنا غصن مقاله هذا بقوله: "عندما عدت مساءً من زيارة الصلح في دمشق إلى بيروت أسرعت بإبلاغ الشيخ بشارة ما حدث في دمشق، فدمعت عيناه وقال لي: بشارة لن ينسى لك هذه البشارة!

فكرة الحماية الأجنبية من جهة والتخلي عن الوحدة مع سورية من جهة أخرى»[٤٩].

ليس هناك وثيقة مدونة تفصل في مواد الميثاق ولا ورقة موقع عليها وإنه تفاهم قولي حول السياسة التي سينتهجها لبنان المستقل استقلالاً تاماً تُضمن فيه مصالح المارونيين وتجعل المسلمين يشعرون شعوراً أكيداً بأنهم يعيشون في دولة ليس للإسلام أو للعروبة المركز الأسمى فيها. هذا التفاهم أو الميثاق يمكن إجماله بنقاط كلية ثلاث:

أولاها: لبنان دولة مستقلة استقلالاً تاماً فيها يتخلى المسيحيون عن فكرة طلب الحماية الأجنبية، أو أي محاولة لوضع البلاد تحت النفوذ الأجنبي، وبالمقابل يتخلى المسلمون عن فكرة تحقيق أي اتحاد سياسي مع سورية أو أي قطر آخر ناطق باللغة العربية.

وثانيتها: لبنان سيكون ذا وجه عربي وتوجه عربي ولغة عربية وجزءاً من العالم العربي، لكنه يمتاز عنها بميزات خاصة يحرص عليها.

وثالثتها: لبنان يتعاون مع جميع الدول الناطقة بالعربية، ويكون فرداً في الأسرة العربية. شريطة أن تحترم الدول الناطقة بالعربية استقلاله وسيادته وبحدوده الحالية.

وكما يتضح، تخلى المارونيون فيه عن سياستهم التقليدية تماماً وكان لهم بمثابة قفزة في غرفة مظلمة ملأى بالأشباح والحفر لا يعرف أين ستستقر أقدامهم فيها، وقد بدا بالوضع السياسي السائد آنذاك تجربة لا بد منها ولا سبيل إلى بديل لها.

وادعى منذ قيام الحرب الاهلية وفتح السجلات القديمة عدد كبير من الساسة

---

(٤٩) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، مطبعة باسيل، بيروت ١٩٦٠ ص٤: ولد في العام ١٨٩٠ وتوفي في ١٩٦٤. في ١٩٤٣ انتخب لست سنوات رئيساً للجمهورية بحكم الدستور على أن لا يُعاد انتخابه إلا أنه عمل على تعديل الدستور بمجلس نواب زورت فيه الانتخابات لضمان الأغلبية المنشودة للتعديل في ١٩٤٨ أي قبل نهاية رئاسته بستتين - ليضمن إعادة انتخابه ثانية. وقد أزعج هذا معارضي حكمه وفريقاً من كتلته الدستورية تزعمه كميل شمعون وأجريت انتخابات تم التلاعب بها أيضاً في العام ١٩٥١. وكان هذا أكثر مما يمكن الصبر عليه، فأُثير الشارع وانطلقت مظاهرات وعمت إضرابات طوال سنة واحدة تمكنت الفئة المعارضة ذات الأقلية في المجلس من تأليب الشعب اللبناني كله ضد الرئيس وحكومته. والتف المسيحيون حول الصلح ولم يجدوا بديلاً مكافئاً له يعتمد عليه، وآثر الجيش البقاء على الحياد دونما تدخل. فلم يجد الخوري بداً من الاستقالة، وانتخب المجلس نفسه الذي جاء بعد ذلك خصمه كميل شمعون رئيساً للجمهورية.

المسيحيين والمسلمين، فضلاً عن الأحزاب ورؤسائها، مساهمتهم بنوع أو بآخر في صياغة هذا الميثاق. والحقيقة هي أن العوامل السياسية والمصالح الاقتصادية وحالة الرفاه التي تميز بها لبنان خلال فترة الانتداب بالتعاون المسيحي - الإسلامي التلقائي في بناء صرح لبنان الاقتصادي كانت هي القوة الدافعة لحماسة السياسيين في عقده وتطبيقة خلال فترة تزيد عن ربع قرن.

الفصل الحادي والعشرون

نشاة البعث. شعاره الأول (١٩٤٣) انتشاره بين التلاميذ والعسكريين «حرية. مساواة. إخاء». و«كان الشعار يستبدل أكثر من مرة». توزيع بيانات ومناشير تنحو عين ذلك الهدف الحماسي. كتبه زعيماه عفلق والبيطار. أعاد هذان الكرة بطلب إجازة حزب فرفض. بدأت السن عربية وغير عربية تتحدث عن خلو دورة عفلق الدموية من قطرة دم عربية واحدة فاسرة جده من جماعة الأرثوذوكس الذين كانوا يعيشون في إقليم أفالاشيا الذي كان يعرف عند الأتراك بالافلا ومنه جاء لقبه. والأصل عند البعث غير مهم فمادمت تعترف بانك عربي وقد بينته بنشاطك الصادق فانت عربي. طلبا إجازة من السلطات الفرنسية ورفض الطلب. أصدر جريدة (البعث) موشحة بشعار ثان «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». انتشار مفاهيم الحزب بين التلاميذ وصغار الضباط. دمج البعث والعربي الاشتراكي الذي كان يرأسه (أكرم الحوراني) وخروج الحزب الجديد باسم [حزب البعث العربي الاشتراكي] صارت الجريدة تعلن عن أهداف الحزب ونواياه وفتحت قاموسها الخاص بشرح غموض أغراضها ومفاهيمها من التعابير السياسية الجديدة. من هو العربي؟ ما يقصد بالاشتراكية؟ متى تنتظر الاشتراكية اقتصادياً. سيكون البعث نهاية تاريخ القومية العربية - الارتباط العضوي بالإسلام إلا أن القومية ستحل محله بالنهاية. أما الآن فيجب التمسك به. بؤس التنظيمات البعثية. حملات التطهير والتصفية من الداخل والخارج. البعث يدعو إلى وحدة ضيقة بين العراق وسورية. عود إلى الدكتور قسطنطين زريق. إزاحة منيف الرزاز القائد البعثي الواعي الديمقراطي. شكري القوتلي رئيس جمهورية لدورة ثانية. انقلاب حسني الزعيم في ٢٠ آذار. إرسال الزعماء والساسة إلى السجن وبضمنهم عفلق. بعض إساءاته: تسليم رئيس الحزب القومي السوري انطون سعادة إلى اللبنانيين بعد منحه حق اللجوء السياسي. الجامعة العربية، الميثاق الهزيل، فشلها الذريع المتواصل في حل أي قضية عربية. العراق في عهد الأحزاب ١٩٤٦. النشاط السياسي الكردي بعد رفض إجازتهم بحزب. الحديث حول إلغاء معاهدة ١٩٣١ لا استبدالها. قيام الأحزاب المشكلة حديثاً ضد المعاهدة بتظاهرات سفكت فيها دماء وأوقف العمل بتجديد المعاهدة أو استبدالها

في العام ١٩٤١ بدا وكأن سائر الكتل والأحزاب والمجموعات السورية - باستثناء الكتلة الوطنية والحزب الشيوعي السوري - يدعو إلى المبادئ القومية العروبية، وفي هذا الجو ولد حزب البعث كما مرّ بيانه.

أعلن الحزب عن نشاط له في أوائل العام ١٩٤٣ بين الطلاب بصورة خاصة، وفي صفوف العسكريين. ولم يحظ بإجازة رسمية للعمل العلني، إلا أنه راح يصدر بيانات ذات طابع ثوري ينخرط في بياناته شعار (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). ربما كان الحزب الجديد يشعر بضرورة صك شعار مضاد لشعار أو نداء «يا عمال العالم إتحدوا» الذي اعتاده الشيوعيون في كل مكان لتوشيح أدبياتهم ومنشوراتهم به، على أنه ارتُئِيَ بعد حين من الزمن أن يُعزز بشعار آخر عقائدي الصبغة. فظهر مثلث (وحدة حرية إشتراكية) وبدأ يطغى على الشعار الأول ربما لسهولته ولقصره، وهو لا أبا لك صدى بعيد لشعار الثورة الفرنسية حرية مساواة إخاء.

بدأ في هذه السنة كل من عفلق والبيطار يستخدمان مصطلح البعث، وكان أول تنويه بوجود (حركة البعث العربي) في تصريح مزدوج للاثنين دعماً لشكري القوتلي[١] وقت أن قرر الفرنسيون إجراء انتخابات عامة. وقدم كلاهما نفسيهما للناخبين ببرنامج مبني على أسس وطنية وقومية وكحزب سياسي يمثل حركة البعث في الجيل الجديد. وقالا في منشور انتخابي آخر إنهما يمثلان الروحية العربية ضد المادية الشيوعية، والتاريخ العربي الحي ضد الرجعية المادية. لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً[٢].

يلوذ تاريخ الحزب بالصمت ولا يجود بأي معلومات عن حجم الحزب ومدى انتشاره خلال هذه الفترة. إلا أن مؤلفي دائرة المعارف البعثية الموسومة (نضال البعث) يقدرون العدد في العام ١٩٤٥ أي بعد تأسيسه بأربع سنوات ببضع مئات.

في العام ١٩٤٤ أصدر عفلق بياناً موقعاً باسمه مذيلاً بعبارة (عن مكتب البعث العربي) وبعدها استخدمت صفة (الحزب) بدلاً من (حركة) وأسند الاثنان لنفسيهما

---

(١) الجندي: المرجع السالف، ص٤٤. وليلاحظ أن ما سنثبته في الصفحات التالية ليس تاريخاً دقيقاً للحزب، وإنما معلومات عامة مستعينين بها على تتبع خطوات مسيرته المصيرية نحو هدف التدمير الكامل للفكرة القومية.

(٢) حصل عفلق على (٢٤٥) صوتاً في حين حصل أقل المرشحين الفاشلين أصواتاً على (٢١٥٠) صوتاً.

منصب المكتب التنفيذي (لحزب البعث العربي) عندما تقدما بطلب إجازة الحزب رسمياً. وقد جاء في الطلب:

«إنّ الحزب وإنْ كانت إجازته بالنشاط في سورية إلا أنه يتسع ويهتم بكل الأجزاء التي انشطرت إليها القومية العربية سياسياً».

فرفض الطلب أيضاً.

وفي شهر نيسان ١٩٤٥ أصدر المكتب التنفيذي أول نشرة داخلية للأعضاء تبحث عن وجهة نظر البعث في الجامعة العربية المؤسسة وشيكاً واعتبرها خطوة هامة نحو الوحدة. وأعادا طلب الإجازة في العام ١٩٤٦ بعد جلاء القوات الفرنسية التام. فرفض طلبهما أيضاً.

أصدرا جريدة البعث الرسمية في الثالث من تموز موشحة بشعار [أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة] وجاء فيها أن البيطار هو صاحب امتيازها وعفلق رئيس تحريرها. ولم تكن مواعيد صدورها منتظمة بل عكست حظوظ الحزب. فكثيراً ما توقفت عن الصدور وكثيراً ما عطلت أو صدرت بين أسبوع وآخر. فمثلاً احتجبت معظم أيام عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩.

لم يكن عفلق يملك موهبة وخيالاً في التقصي العلمي بدرجة تميزه عن غيره ويُجمِع معارفه ومن رافقه أنه كان شكوكياً مغروراً متهكماً غريب الأطوار. مع ذلك فقد كانت هذه الشخصية عاملاً فعالاً في نشر عقيدة الحزب، ومركز الجذب فيها متأت من عكس ما هو متوقع ومطلوب في أي زعامة سياسية لأي مجتمع آخر غير المجتمع السوري العربي المصاب بالپارانويا الحادة[٣]. كان ضامر الجسم ضئيل القد عييّ اللسان كثيراً ما ارتج عليه، فجمجم وتمتم وتردد وتلعثم. وكثيراً ما كان يبدو عليه التعب وهو يجهد في صياغة فكرة لسامعه. لا يمتاز قلمه بوضوح ولا أسلوبه ببلاغة خاصة، ولا يتقن فن الكلام والمقدرة على الإقناع، إلا أن حماسته للمبادئ التي يؤمن بها وشدة إخلاصه لها مصحوبة بمظهره البائس[٤] كان لها تأثيرها الكبير في استرعاء انتباه أتباعه

---

(٣) Paranoia: مرض عقلي (عصابي) يشخص في صاحبه بشعور موهوم بالاضطهاد إلى جانب شعور بالعظمة والتفوق ويظهور أفكار مشوشة غير منطقية تبتعد بصاحبها عن الواقع وتشيع فيه أوهاماً وهلوسات تخلق فيه نظاماً كامناً في أعماق النفس، أعمال شاذة نماذجها شكوكية وتتخذ طابعاً متهكماً مزدرياً بشكل ما لا يوافق مزاج ذلك النظام النفسي.

(٤) الجندي: المرجع السالف. ص٣٤.

الفكريين إلى القضية التي يدعو إليها ويعتنقها. وبدا لهم «رومانتياً» له براءة الطفل المرتبك وطموح الكبير بشخصية تتألف من عناصر متضاربة من القوة والضعف[٥].

وموطن العجب هو أن كل هذا فضلاً عن أصوله المسيحية في مجتمع إسلامي وفي بلاد تمجد قوة العارضة وسحر الشخصية - أهّله مع هذا للإحتفاظ بمركزه كأمين السر العام للحزب الذي أنشأه. وكالمفكر والمعترف به صدقاً أم كذباً لواحد من شطريه على الأقل. والظاهر أن التواضع والذلّة التي كانت من سماته لم تستطيعا إخفاء نفس تائقة للزعامة والسيطرة، يعجز عن إخفائها عندما يريد بعناد وإصرار أن تسير الأمور وفق ما يرتئيه. وفي بلد كسورية، حيث تتفاوت مقدرة الناس المالية تفاوتاً كبيراً ويتمتع ذوو اليسار بمنزلة تفوق أقدارهم الحقيقية ووزنهم الشخصي، كان للعيشة البسيطة التي يحياها وبسمعته الرائجة عن عدم اهتمامه بالمال والمظهر وبخصاصة وقناعة بالخفض من العيش أثرهما العميق في هؤلاء الطلاب المتعطشين الداخلين لأول مرة ميدان الفكر السياسي. فها هو زعيم جديد من طراز يختلف تماماً عمن عرفوه من زعماء اعتمدوا على ثروات جمعوها أو ورثوها أو كانوا أعضاء في أسر عريقة مهابة ملكهم حبّ التظاهر بها والاعتماد عليها في خطب ود الأنصار وتقلد المناصب، في حين وجد

---

(٥) رويت عن عفلق في هذا الباب حكايات أشبه شيء بالأساطير تناقلها مريدوه والذين عرفوه شخصياً ليثبتوا بها مدى استغراق قائدهم فى العمل القومي وتفانيه في النشاط الحزبي، منها أنه كثيراً ما ينسى تناول طعامه (كالعباقرة الآخرين) وقد تبلغ كسوته من الرثاثة بحيث تدفع رفاقه إلى شراء كسوة جديدة له، بشعور منهم أنه ليس من اللياقة أن يبدو قائد حزب عظيم الشأن بهذه القيافة المزرية، إلا أن خصومه يقولون إنه كان يتعمد أن يبدو بهذا المظهر والسلوك ليزيد في تعلق أتباعه به ويخلق في الآخرين انطباعاً بالتمرد والتفاني. وصفه الفتى العراقي الذي عرفه شخصياً وجلس إليه وخالطه بهذه العبارات بلهجة أسف وندم، قال: "في العراق كنا منجذبين قلباً وقالباً حين نجلس أمامه نشعر وكأننا في حضرة المسيح، يأخذنا كلامه ولغته الساحرة وأسلوبه الصوفي وعدم طرحه لأية مشاكل تفصيلية من الواقع والأفكار. كنت عندما أقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذاً بلغته وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول - إذا كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمداً - تنتابني قشعريرة وتسري في أوصالي برودة وكأني أسمع الوحي من جديد. وكأن ذلك الغار الصغير غار حراء إتسع ليكون الوطن العربي من المحيط إلى الخليج. وعلى اعتقادي بالعلمانية لم أجد أي فاصل بين القومية العربية والإسلام (هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة ط. لندن). على أني أشهد لله بأن أسلوب الفكيكي اللغوي الذي يكاد يكون سليماً، هو أفضل بما لا يقاس من أسلوب كتابة (نبيّه) الذي لا ينجو من الأخطاء الصرفية والنحوية لاسيما الشائعة منها.

تلاميذ عفلق الصغار في إصراره على تقديم القهوة لهم بنفسه في بيت صغير لا تتجاوز عدد الكراسي فيه عن ثلاث مفكراً سياسياً من نوع جديد ليست المادة ولا الكبرياء من أسلحة دعوته.

ما جاء العام ١٩٤٧ حتى كان للحزب فروع في ست مدن سورية فضلاً عن أعضاء متفرقين في الأردن ١٩٤٨، ولبنان. حينذاك أدرك قادته بأن الوقت قد أزف لتصفية الحساب مع أتباع الأرسوزي والبت في شكل علاقتهم معه، فكان ثمّ اجتماع عاصف كوميدي[٦].

وفي المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب في ١٩٥٤ وضع نظامه الداخلي.

أسفرت نهاية الحرب عن وضع سياسي مواتٍ لنشاط مكشوف عام ١٩٤٥، وبطرد حكومة فيشي وتسلم فرنسا الحرة الإدارة. لكن الانتداب حتى شهر أيار ١٩٤٥ كان قائماً. وحاول الفرنسيون تأكيد سلطتهم من خلال نقاط متعددة مُختلف عليها مع الحكومة السورية وهددوا باستخدام القوة. فقامت التظاهرات وعم الاضطراب ووقعت حوادث شغب في مختلف المدن وعندها أنزلت السلطات الفرنسية قواتها العسكرية إلى الشارع.

إلا أن القوات البريطانية المتواجدة في سورية كانت متفوقة، وقد أُوعز لها بالتدخل لصالح الشارع وضد الحكومة. ووجه القائد البريطاني إنذاراً للفرنسيين بسحب قواتهم إلى معسكراتها. ولم يكن في ذلك حيلة فأصبح الانتداب أثراً من الماضي.

ما حصل بعد ذلك في سورية أن الحكم بقي بيد الكتلة الوطنية زهاء أربع سنوات وعلى رأسه شكري القوتلي. تتعاقب الحكومات خلالها واحدة بعد أخرى كيفما اتفق

---

(٦) رولو: المرجع السالف. الص ٦ و٦٤: يذكر (وهيب الغانم) وهو من أتباع الأرسوزي أن عفلقاً والبيطار رحلا إلى اللاذقية ليبحثا مع الأرسوزي موضوع الدمج، إلا أن زعيمه ظل مصراً على عدم اشتمال برنامج الحزب أهدافاً اشتراكية. فلم يوافق عفلق في بادئ الأمر إلا أنه اقتنع أخيراً بعد عدة ساعات طويلة من الجدال كما وافق البيطار أيضاً. وكانت حجة عفلق أنه يريد حزباً موحداً لا حزباً يميل إلى نظرية معينة. ولم تتم أية مقابلة بينه وبين الأرسوزي الذي أبى أن يكون له أي ضلع في تأسيس الحزب أو منهاجه وبقي محتجاً ولم يحضر المؤتمر، حتى إن كتابه: بعث الأمة العربية، ١٩٥٤، لم يكن من منشورات الحزب ولم يحمل اسمه. وفي تلك الأيام ١٩٤٧ كان الغانم يبرر إصراره على الاشتراكية بقوله: كنت في تلك الأيام أعتنق أفكاراً اشتراكية ذات صبغة ماركسية بدأت بدراستها منذ انتصار السوفيات في لينينگراد واعتبرت أن يكون الحزب الموحد ذا اتجاه يساري.

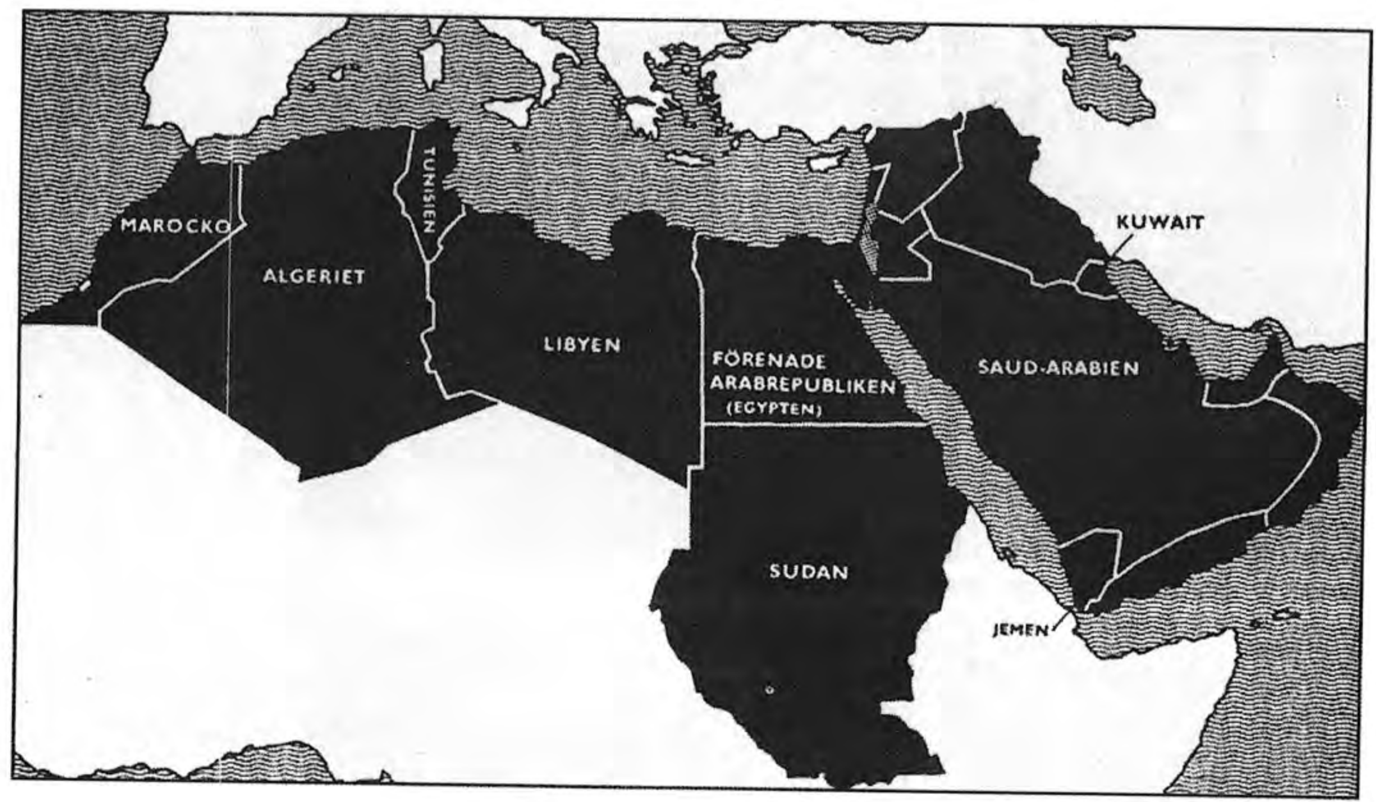
ويعامل صدفي بهوى مجموعة صغيرة جداً تخصصوا في إدارة اللعبة السياسية. و(الكتلة) التي افترض فيها أن تتكلم بلسان واحد عن السوريين جميعاً ما لبثت أن انصدعت بعامل العداء التقليدي المستحكم بين حلب ودمشق. فتألف منها في المدينة الأولى ما عرف بحزب الشعب، وفي الثانية ما سمي بالحزب الوطني، وكلاهما قومي النزعة عروبي الاتجاه. كان من الممكن أن يتمخض هذا الانشطار الحزبي بنوع من التوازن السياسي والممارسة الديمقراطية لو لم تكن السلطة التنفيذية في الدولة المركزية منيعة الجانب وقوامها موظفون نفعيون لا يتحلون بأي قدر من وازع ضمير يوقف أطماعهم عند حد، ولا يفسحون مجالاً مهما صغر للمصالح العامة بين مصالحهم الشخصية ولا شيء ينبههم إلى واجباتهم الحقيقية. كانت سلطة الدولة مطلقة شاملة تحول دون بناء أي نظام سياسي يقوم على المبادئ الديمقراطية.

ووقعت سورية في عين الوهدة التي وقع فيها عراق ١٩٤١ وانقلب النقيق على القومية زعيقاً. وشرع أولو الحلّ والعقد فيها فوراً وبعد الاستقلال يمدون أيديهم إلى العالم الناطق بالعربية ويصرفون جلّ أوقاتهم في توثيق الصلات به لجعل دمشق عاصمة العروبة التي تشع منها أفكار الوحدة العربية مثلما كانت منذ عهد الأمويين. كان التنافس في إظهار الشعور القومي والتماس العون منه في الانتخابات العامة أهم عامل في تقرير النتائج ومعظمه كاذب مزيف. يقول (حبيب كحالة) النائب في المجلس:

«المصطلحات السياسية الرصينة من أمثال نائب، معارضة، رئيس المجلس، لجنة الشؤون الخارجية، كلها تعابير فشلت في تغطية الفوضى المؤسفة التي كانت تسود مجلس النواب السوري. أتطلع فيما حولي فلا أجد غير مجموعة متناقضات، رجال لا يجمعهم جامع ولا يشتركون في مبادئ ولا تربطهم رابطة بأي حزب أو منطقة. مافازوا بالنيابة إلا بفضل محاكاة زائفة غامضة لانتخابات نيابية حرة لا يعترضها عارض، بعضهم أمي وآخرون أدباء مشهورون، بعضهم لا يتكلم بغير الكُردية أو الأرمنية وآخرون لا يعرفون غير التركية، بعضهم يعتمر بالطربوش وآخرون بالكفية والعقال، حضريوهم ومدنيوهم سواء بسواء»[(٧)].

---

(٧) مذكرات نائب: نقلاً عن: ب. سيل P. Seale: النضال من أجل سورية The Struggle for Syria لندن ١٩٦٢، ص٣٢.



بلاد أغلبيتها تنطق بالعربية

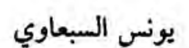


العقيد كامل شبيب



رشيد عالي الگيلاني





يونس السبعاوي



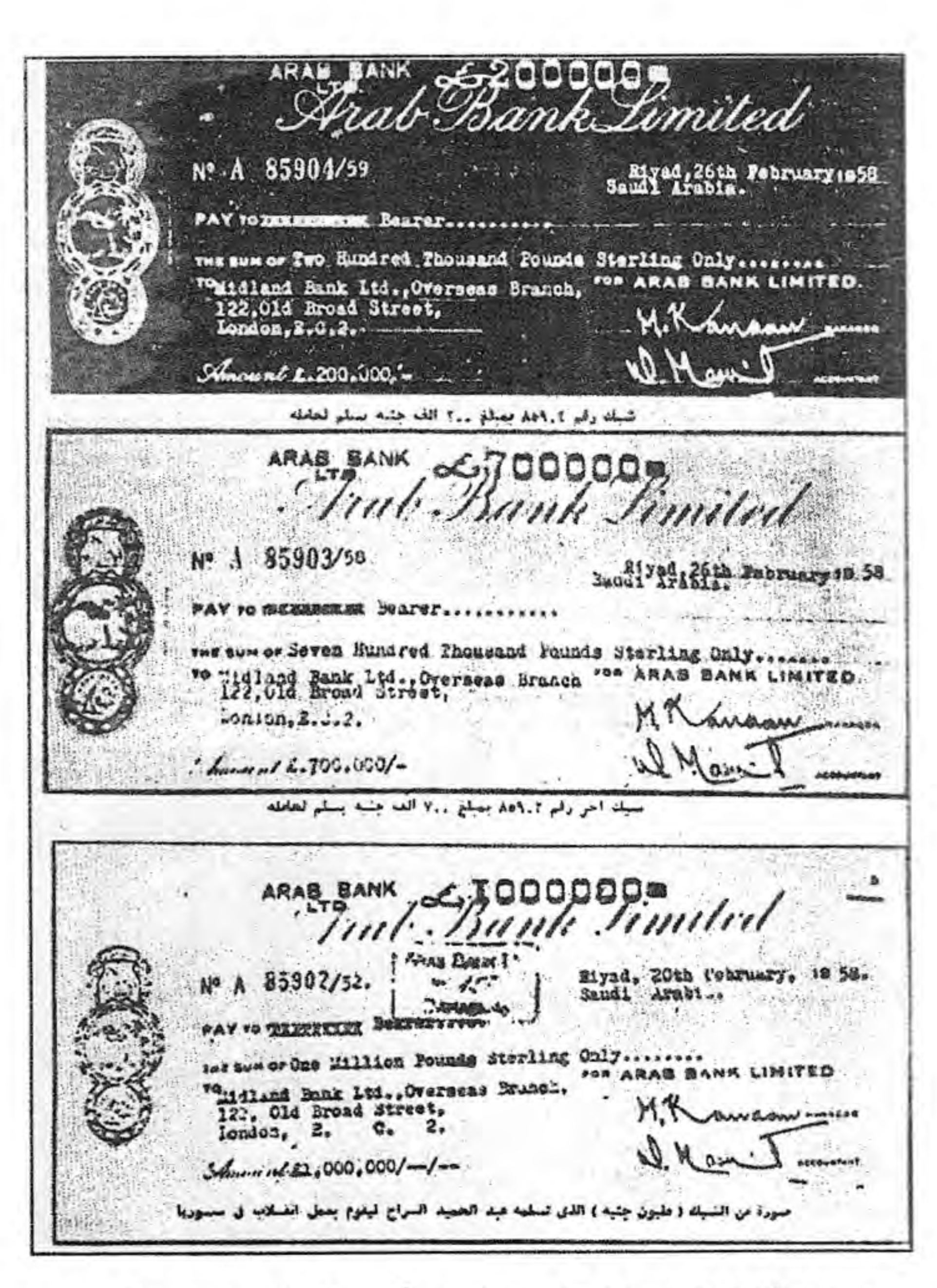
صلاح الدين الصباغ



محمود سلمان



فهمي سعيد



ARAB BANK LTD £200000

Arab Bank Limited

Nº A 85904/59 Riyad, 26th February 1958 Saudi Arabia.

PAY TO Bearer..........

THE SUM OF Two Hundred Thousand Pounds Sterling Only........

TO Midland Bank Ltd., Overseas Branch, 122, Old Broad Street, London, E.C.2.

FOR ARAB BANK LIMITED

Amount £.200.000/-

شيك رقم ٨٥٩٠٤ بمبلغ ٢٠٠ الف جنيه يسلم لحامله

ARAB BANK LTD £700000

Arab Bank Limited

Nº A 85903/58 Riyad, 26th February 1958 Saudi Arabia.

PAY TO Bearer..........

THE SUM OF Seven Hundred Thousand Pounds Sterling Only........

TO Midland Bank Ltd., Overseas Branch, 122, Old Broad Street, London, E.C.2.

FOR ARAB BANK LIMITED

Amount £.700.000/-

شيك اخر رقم ٨٥٩٠٣ بمبلغ ٧٠٠ الف جنيه يسلم لحامله

ARAB BANK LTD £1000000

Arab Bank Limited

Nº A 85902/58. Riyad, 20th February, 1958. Saudi Arabia.

PAY TO Bearer

THE SUM OF One Million Pounds Sterling Only........

TO Midland Bank Ltd., Overseas Branch, 122, Old Broad Street, London, E.C.2.

FOR ARAB BANK LIMITED

Amount £1,000,000/—/—

صورة من الشيك (مليون جنيه) الذى تسلمه عبد الحميد السراج ليقوم بعمل انقلاب في سوريا

صور الصكوك التي كتبت لعبدالحميد السراج بأمر من الملك سعود بن عبدالعزيز ثمناً لاغتيال جمال عبدالناصر



الملك عبدالعزيز آل سعود



أحمد بن بلاّ



زياد الحريري قائد انقلاب ٨ آذار
١٩٦٣ في سورية



اللواء علي أبو نوار



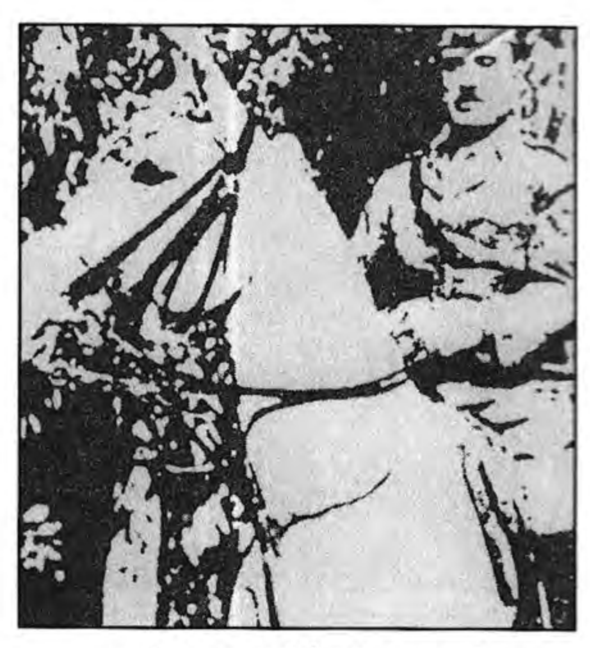
نوري السعيد



كامل قزانچي



جمال عبدالناصر وعبدالسلام
محمد عارف وأحمد بن بلاّ



بكر صدقي قائد أول انقلاب عسكري
في العراق والدول العربية



مزاحم الپاچچي



اللواء أمين الحافظ



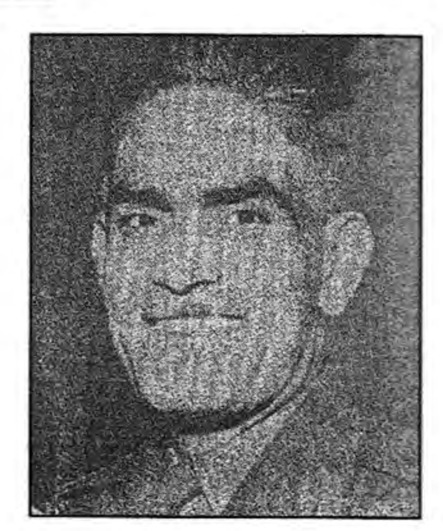
على شرفة قصر الضيافة أثناء احتفالات الوحدة
ويظهر في الصورة صبري العسلي وعبدالناصر وعفيف البزرة وعبدالحميد السراج



حسني الزعيم



أدولف إيخمان



عبدالكريم قاسم

خطة الأمم المتحدة للعام ١٩٤٧ لتقسيم فلسطين



أحمد مختار بابان



عبدالعزيز ياملكي (العقيد المتقاعد)



فيصل الثاني يتجاذب أطراف الحديث مع عدنان مندريس رئيس الحكومة التركية وبينهما نوري السعيد. ويقف خلف الملك أرشد العمري. وإلى أقصى يمين الصورة يقف عبدالإله - عقب الاتفاق التركي العراقي (١٩٥٥)



نوري السعيد وعدنان مندريس



الوفدان العراقي والتركي في حفل بالسفارة التركية في بغداد بعد التوقيع على الاتفاق الثنائي



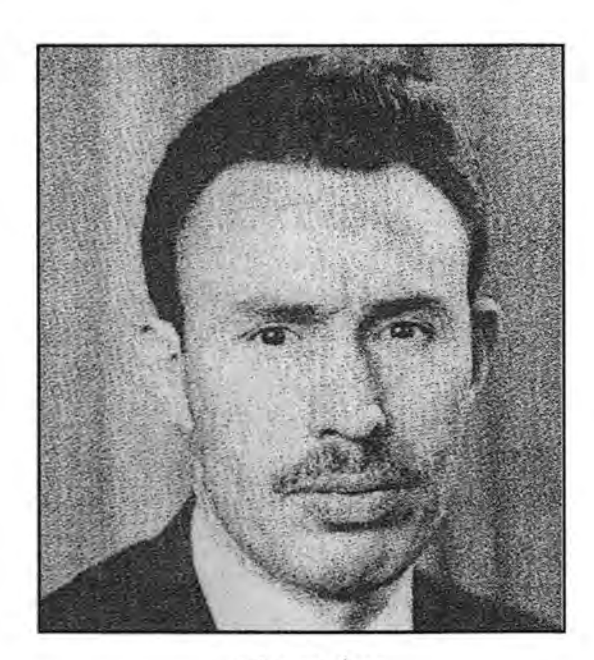
نورالدين محمود يعلن من الإذاعة في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ تكليفه من قبل الوصي بتشكيل الحكومة ويتعهد بإعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد



كامل الچادرچي



محمد حديد



هواري بومدين



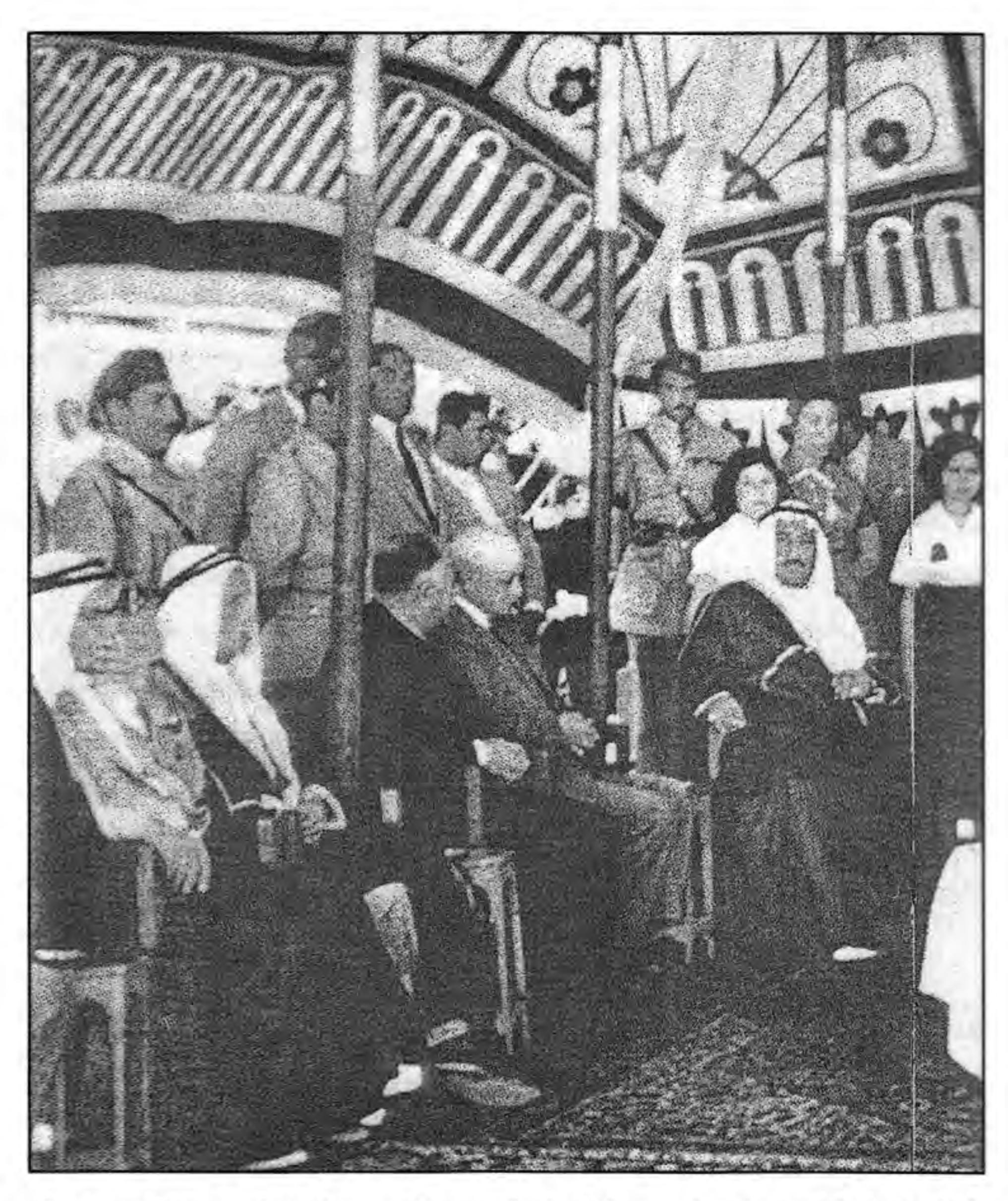
النميري



صلاح البيطار وأكرم الحوراني
على ضفاف الفرات



صورة تاريخية. ربما كانت آخر صورة تجمع بين الأربعة الكبار الذين قتلوا يوم ثورة الرابع عشر من تموز. أخذها مصور مجلة ناشنال جيوگرافيك National Geaographic Magazine السيد رويرتس في ٢٦ من نيسان ١٩٥٨ بمناسبة افتتاح أسبوع الإعمار العراقي.



الملك فيصل الثاني في الوسط - عبدالإله وليّ العهد عن اليمين - نوري السعيد الثالث من اليسار وقد أدار رأسه وإلى يمينه السيد إبراهيم هاشم الأردني نائب رئيس الاتحاد العربي الهاشمي. ويبدو في الصورة رئيس الوزراء الكويتي ومعاونوه. ويقف اللواء عبيدالله المضايفي رئيس المرافقين وراء عبدالإله مباشرة. فيما تقف مضيفات وضباط عراقيون وأردنيون ومرافقون عسكريون في الخلفية.

والآخر وهو ليس غير (خالد العظم) تراه يقوم بعملية مقارنة رائعة بين تلك اللجان الاستشارية التي كان يؤلفها الفرنسيون أيام انتدابهم ويختارون أعضاءها من مختلف الكتل والطوائف والتجمعات لتستأنس السلطة الأجنبية بنصحها في الشؤون العامة - وبين المجالس النيابية المنتخبة، فيذكر مما يذكر أن المجالس النيابية كانت تتألف من أعضاء اختارهم الحزب الحاكم والحكومة القائمة. وباستخدام مختلف «الأساليب المعروفة جيداً» لضمان انتخابهم عن طريق الشعب. ويقول إن المجالس النيابية ابتداء من العام ١٩٣٥ وفي العام ١٩٤٥ فصاعداً كانت دائماً تمنح الثقة للحكومة المشكّلة أياً كانت هويتها، وإن تلك الحكومة كانت تحافظ على هذه الثقة حتى يحصل شيء ما خارج نطاق المجلس يؤدي إلى استقالة رئيس الوزراء. وفي معظم مناسبات الاستقالة يبقى المجلس جاهلاً أسبابها، في حين أن لجنة استشارية مؤلفة من خبراء في شؤون مختلفة هي أفضل ألف مرة من مجلس نيابي يتألف من أعضاء منتمين إلى أحزاب سياسية أو تكتلات طائفية قائمة. ليس بوسعنا إطلاق تعبير الحزب على هذه التكتلات، لأن مناهجها غير واضحة ولأنها تقوم على الميول الشخصية. والمجلس يتألف من محليين تغلب عليهم الأمية. ولا يحضرون جلساته إلا لتمشية مصالحهم الخاصة أو لتعقب مشاكل تتعلق بناخبيهم. وأما عن التشريع أو شؤون الصحة والاقتصاد والوضع الحضاري للدولة فقد أثبتت التجربة كم كان اهتمام هؤلاء النواب قليلاً بمثل هذه الشؤون العامة. الانتقاد الشخصي، مهاجمة القائمين بالسلطة، سوء استخدام للخطب الجوفاء سعياً وراء الشعبية الرخيصة، كل هذه كانت حصيلة التجربة المرّة للبلاد خلال سنوات تجربة الحكم النيابي[٨].

عُدّل قانون الانتخاب في شهر تموز ١٩٤٧ فبات على درجة واحدة، إلا أن هذا التعديل لم يشر إلى تغيير ولم يدل على أن الانتخابات التي جرت بموجبه إنما عكست رغبات أصحاب حق الاقتراع بدقة أكثر، بل كانت كما يسميها (العظم) مهزلة وفضيحة. ففيها «أعطى الأموات أصواتهم قبل أن يدلي بها الأحياء» إذ حُشيت صناديق الاقتراع بأصوات مزورة بدلاً من الأصوات الحقيقية التي أعطاها المقترعون». وكانت

(٨) ب. سيل: المرجع السالف. لندن ١٩٦٥- ص٣٢ ومذكرات خالد العظم، ج٢، الص ٢١١-٢١٢ ط. بيروت ١٩٧٣ (رئيس وزارة سابق ووزير في عدة وزارات ١٩٠٣-١٩٦٥. من أسرة آل العظم الشهيرة ذات الأصل الكردي).

النتيجة فوزاً للأغلبية التي سمّيت بـ(المستقلين). وقد أشرف عن انتقائهم وضمان فوزهم الوزراء، وبالأخص رئيس الجمهورية (شكري القوتلي).

كان الدستور يمنع إعادة انتخاب رئيس الجمهورية. إلا أن (القوتلي) حمل هذا المجلس على تعديل الدستور مثلما فعل جاره (بشارة الخوري) في لبنان، ليفوز بفترة رئاسة ثانية... و

«... عمت الفرحة المنتفعين المستغلين وتكالبوا كلّ يريد حصته من الغنيمة. عاد الطاقم القديم إلى السلطة فترة أخرى وانتشرت الأقاويل حول التجارة بإجازات الاستيرادات ووكالات البضائع المستوردة. وكان القوتلي نفسه يجلس فوق قمة هرم المحسوبية وسوء الإدارة والفساد الحكومي»[٩].

* * *

كان عهد الاستقلال بحاجة إلى جيش يصونه ويرعاه فبنى السوريون جيشهم على أنقاض تلك الوحدات التي شكلتها السلطة المنتدبة في العام ١٩٣٤ وأسمتها قوات الشرق[١٠] بإمرة ضباط فرنسيين وعدد من ضباط الجيش العثماني السابقين. ومع أن طريقة تأسيسه ونمط تدريبه كانا يختلفان عن طريقة تأسيس الجيش العراقي وتدريبه، إلا أن الحمى المحرقة التي انتابت الحكام السوريين الجدد في التعجيل به كانت مساوية لحرارة الحكام العراقيين في إنشاء جيشهم، وقد بدأت في الحالتين بظاهرة الإسراع

---

(٩) ب. سيل: المرجع السالف.

(١٠) في مبدأ العام ١٩١٩ حاول الفرنسيون تشكيل قوة من الليفي الآشوري اقتداء بالبريطانيين في العراق، فبدأوا ينتقون أفراداً من اللاجئين الآشوريين الذين تم إخلاؤهم من روسيا عن طريق تفليس مروراً بالبحر الأسود وأُسكنوا في الحسكة من أعمال الجزيرة، وقد تم تشكيل كتيبة منهم أنيطت قيادتها الاسمية بزعيم قبلي آشوري يمت بصلة قربى إلى بيت البطريرك اسمه (مالك قنبر بن مالك بنيامين) وكان بإشراف ضباط فرنسيين. إلا أن المشروع عُزف عنه بعد ثلاث سنين وسُرّحت الوحدة. لكنّ الفرنسيين وبعد فشل ثورة الدروز في العام ١٩٢٦ وسعوا نظام التطوع المحلي ليشكلوا أفواجاً نظامية محلية على أساس التقسيمات الإدارية التي أحدثوها في سورية وفي لبنان. فشكلوا في دمشق مثلاً فوج مشاة عربياً سنياً، في حين شكلوا ثلاثة أفواج علوية، وأما الأفواج الباقية فقد كانت أخلاطاً من الأرمن والآشوريين والكُرد والجراكسة والدروز. ويبلغ مجموع هذه الأفواج اثني عشر من صنف المشاة، يتراوح عددها بين سبعة الآف وثمانية آلاف جنوداً وضباط صف مدربة على النظام العسكري الفرنسي وبأسلحة فرنسية. ولسبب ما أخذت سلطات الانتداب تقلص هذه القوات بعد العام ١٩٣٦ فلا تجدد عقود الذين أنهوا خدمتهم فيها، وقُدر عدد الأفواج الباقية عشية الاستقلال بما لا يزيد عن خمسة.

الجنوني في تخريج الضباط الصغار وفتح باب التطوع بإغراءات مالية جيدة.

في العقد الخامس من القرن العشرين كان معظم ضباط الجيش السوري وضباط صفه من خريجي المعاهد العسكرية التي فتحت في حمص وحلب ودمشق وحماه. وأغلبيتهم الساحقة من أولئك الذين كبا بهم الحظ عن نيل شهادة الدراسة الثانوية. ففي كلية الضباط بمصر مثلاً ما كان على هؤلاء الطلاب الفاشلين إلا أن يتقدموا بطلب الانخراط بها فيجاب طلبهم تواً ليقضوا سنتين من التدريب وتلقي طرف من العلوم العسكرية ولا يجدون أي صعوبة في النجاح على يد معلمين متساهلين غاية التساهل.

ويضع الخريج النجمة على كتافتيه اللتين تشيران إلى صيرورته (ملازماً) لتتألقا فوقهما كالجوهرة على حد وصف (خالد العظم) وليختال برتبته متبختراً ناظراً إلى المجتمع نظرة ترفع مشوبة بحسد وملقياً على المدنيين نظرة احتقار فهم في عرفه خونة وعملاء ومرتزقة وإقطاعيون. كان هؤلاء الضباط قد وقعوا فريسة سهلة لتلك الأفكار التي راحت الأحزاب القومية العروبية تنشرها مشحونة بروح الثورة على الحياة الاجتماعية ولا غرو فمعظم هؤلاء الضباط الأغرار جاء من بيئات ومجموعات بشرية محرومة تقف في آخر درجات السلم الطبقي - من أسر كادحة وفلاحية لا نصيب لها كبير من متع الحياة، شكّل الغرور والحرمان فيهم مزيجاً من لهفة وتشوق إلى العمل على تسلق آخر درجات السلم ووجدوا أقصر الطرق هو في دخول معترك السياسة واقتبال الآراء التي تبشر بها تلك الأحزاب الجديدة التي تناصب الطبقة الحاكمة العداء وتعمل لإسقاطها. ورحبوا بالدعوة التي وجهت إليهم من قبل تلك الأحزاب أيما ترحيب، لأنها كانت تتفق ومنهاجهم في الرقي والوصول إلى السلطة. فأفسدوا الجيش وابتعدوا به عن وظيفته الاصلية كما حصل في العراق. يقول اللواء فهد الشاعر عن الجيش السوري:

«إن جيشنا يشتغل في السياسة ثماني عشرة ساعة. ويأكل وينام خمس ساعات، ويتدرب ساعة واحدة. إن هذا الجيش لن يرجى منه نفع ساعة المحنة».

وكما نكب ساسة العراق جيشه، كذلك نكب ساسة سورية وقوميوهم وأحزابها الجيش السوري. استخدموه حيناً، فاستخدمهم بدوره أحياناً. ولا يمكن أن نمر بالقصة مروراً عابراً دون استعراض جهود زعيم قومي في بناء صرح طبقة الضباط السوريين هؤلاء، واقصد به (حسن أكرم الحوراني) الذي عرفه تاريخ سورية الحديث بـ(أكرم الحوراني) فقط.

إنحدر الحوراني من أسرة حلبية موسرة عضّها الدهر بنابه فافتقرت. ويدأ أول حياته السياسية الحافلة وهو في السابعة عشرة من عمره بمؤامرة لاغتيال (صبحي بك بركات) رئيس المجلس النيابي السوري بوصفه صنيعة للفرنسيين، بمشاركة زميل له يدعى (عبدالباسط عبدالنبي) وجرت قرعة بينهما على من يقوم بالعملية فوقعت على زميله، إلا أن المسدس أُصيب بعطل عند محاولة إطلاقه مما أُتيح لبركات أن يسحب مسدسه ويردي المهاجم قتيلاً. درس الحوراني القانون ونال شهادة التخرج في جامعة دمشق. وفي حماه كان ممثلاً للحزب القومي السوري الاجتماعي ونشط مع ضباطه هناك في حين كان يبشر بأفكار قومية عروبية ويدعو إلى الوحدة العربية في عين الوقت. وعلى ما بدا إنه لم يكن آنذاك يفرّق بين أيديولوجية أنطوان سعادة والأفكار العروبية، وعندما أدرك ذلك تخلى عن الحزب في العام ١٩٣٨. وأسس عمه (عثمان الحوراني) حزباً نازي النزعة والمظهر سماه (حزب الشباب) فانتسب إليه وخلع رداء القومية السورية ثم انفصل عنه بعد فترة.

في العام ١٩٤١ كان أكرم الحورني على رأس المتطوعين القوميين الذين آزروا حركة مايس في العراق. وقد قُبض عليه بعد دخول فرنسا الحرة وبريطانيا سورية وزُج في السجن أشهراً. واتخذ حماه وحمص مركزاً لنشاطه السياسي والتفت حوله مجموعات الشباب الناقم. وأحدث شبه ثورة في الأولى باستعدائه الأجراء الفلاحين على أصحاب الأراضي هناك كآل الگيلاني والبرازي والعظم، معلناً بأن الأرض لمن حرثها. وحوصرت منازل هؤلاء واضطروا إلى ترك أراضيهم ردحاً من الزمن. وانقلب إلى حمص وراح يدفع الطلاب الفاشلين في الدراسة إلى الانخراط في كلية حمص العسكرية، وكانت في حينها تخرج حوالي مائة ضابط ونائب ضابط سنوياً. وفي ١٩٤٣ فاز بمقعد نيابي عن حماة وكان فيه تألق نجمه وظهور اسمه في الأفق السياسي السوري المضطرب[١١].

---

(١١) وصفه رفيق له في النضال بهذا: «يتجلى في الحوراني ازدواج الشخصية العصابي بكل مظاهره العنيفة، لا تراه في المجلس (النيابي) يقدم اقتراحاً بنّاءً بل ينتهز كل فرصة ليشتم وليكيل الاتهامات لأعضائه يمنة ويسرة، وكثيراً ما هوجم وكيل له الضرب واللكمات داخل المجلس. إنه جنرال يرتدي ثياباً مدنية» (لايشير دفتر ملحوظاتي إلى اسم هذا الرفيق وإلى المصدر) وعرف بثلاثة ألقاب، فكان يُنادى بأبي رشيد وبأبي جهاد وهو ما يؤثره. إلا أن الحمويين أطلقوا عليه لقب (أبو جَلّوس) ولا بد أنه لقب غير محترم. =

وغرق في خضم الانقلابات العسكرية وخرج ناجياً منها نتيجة سرعته الخاطفة في تغيير ولائه السياسي. على أنه شعر في العام ١٩٥٠ وعلى إثر الانقلاب الثاني (العروبي الطابع) بأن الوقت قد أزف لتأسيس حزبه الخاص برعاية انقلابيي تلك الفترة. فأعلن عن تأسيس الحزب العربي الاشتراكي بدعوته إلى الوحدة العربية على أسس اشتراكية. وبعد ثلاث سنوات تم دمج حزبه هذا بحزب البعث واتّخذ له من ذلك الحين اسم (حزب البعث العربي الاشتراكي).

* * *

ولنعد إلى البعث:

في السابع من نيسان ١٩٤٧ عقد الحزب أول مؤتمر له. وكان ذلك في مقهى اللونابارك بدمشق. ومنحت العضوية خلاله لكل من استطاع الحضور من الأتباع. وكانت الأغلبية سورية. ومُثّل العراق والأردن بالتلاميذ الذين كانوا يدرسون في جامعة دمشق (الجامعة السورية) ولم يكن بين الحاضرين عامل واحد أو فلاح، كلهم تلاميذ وموظفون صغار أصحاب مصالح تجارية وحرفية صغيرة وأثبت عددهم بـ(٢٤٧). وفي هذا الاجتماع تم إقرار دستور الحزب الذي تضمن أهدافه وأيديولوجيته[١٢].

= في العام ١٩٤٧ تزعم جماعة من الشباب الحمويين العروبيين. وفاز في انتخابات ١٩٤٨ العامة بمقعد نيابي أيضاً بطرحه منهاجاً اشتراكياً تعرض خلاله لهجوم من الحزب الشيوعي السوري. وفي العام ١٩٤٨ خرج متطوعاً للحرب في فلسطين. وفي ١٩٤٩ كان من أنصار حسني الزعيم وهو الذي كتب له بيانه الأول. وقد عينه هذا عضواً في لجنة (التحقيق عن نقاط الضعف وسوء الإدارة خلال العهود الماضية). ثم انقلب على (الزعيم) وساند انقلاب اللواء (سامي الحناوي) الذي عينه وزيراً للزراعة. ثم انقلب عليه عندما أجرى هذا الانتخابات النيابية للإتيان بمجلس يوافق على قيام اتحاد فدرالي مع العراق. فعارض واستقال وتزعم المعارضة وساعد في تدبير انقلاب (أديب الشيشكلي) عليه (قيل إن رابطة قرابة كانت تربطه بهذا العسكري) فعينه وزيراً للدفاع في حكومته. كان طوال حياته السياسية التي أنافت على نصف قرن كالقطة تسقط دائماً على أرجلها، وانتهت حياته ضيفاً أو حبيساً لبعث العراق. فقد دُعي في العام ١٩٦٩ للمشاركة في احتفالات تموز وكان مغضوباً عليه ملاحقاً بأحكام مقيدة للحرية آنذاك في سورية مبعداً عنها. فسببت دعوته هذه مقاطعة الحكومة السورية لها، وبقي في العراق حتى أدركته الوفاة.

(١٢) انتخب جلال السيد رئيساً للمؤتمر، وألقى (عفلق) كلمة الافتتاح وأعقبه البيطار بخطاب شرح فيه سياسة الحزب. ثم قبل المجتمعون دستور الحزب بعد طرحه للمناقشة مادة فمادة (جرى على الدستور تعديلات طفيفة فيما بعد) وانتهى المؤتمر بانتخاب عفلق (عميداً) والبيطار أميناً عاماً للسر، وإلى جانبه انتخب مكتب تنفيذي مؤلف من البيطار والغانم وجلال السيد، وبقي =

في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين أصبح عدد كبير من حزبييه التلاميذ موظفين في دوائر الدولة. ودخلت طائفة منهم في الجامعات وتخرج عدد كبير في الكليات العسكرية ضباطاً. وفي أوائل العقد السادس كان بمقدور الحزب أن يدعي بعدد لا بأس به من الضباط الأعضاء والمؤازرين وعدد مماثل من المعلمين والموظفين. ولم ينجح الحزب مطلقاً في التغلغل بين صفوف الجماهير حتى بعد انتصاراته السياسية الانقلابية التي أمّنت له الحكم والسلطة. فقد ظل يفتقر إلى الجماهيرية الحقيقية حتى قضت عليه انقلابات الضباط والمغامرين المدنيين.

لكن ما هي أيديولوجية الحزب؟ ما هو الشكل القومي الذي تبناه من الوجهة النظرية؟ كم كان حريصاً على القيم التي بشر بها والمبادئ التي دعا إليها؟ ينطوي دستور حزب البعث العربي الاشتراكي على هدف صيغ كعهد مقطوع واضح بإنجاز الوحدة التامة الكاملة بين سائر البلاد الناطقة بالعربية. ويدعو العرب جميعاً إلى النضال في سبيل تحقيق دولة واحدة مستقلة تماماً تشمل ما أسماه بالوطن العربي الذي تعرفه وتحدده المادة السابعة منه بهذه المعالم:

«الوطن العربي هو هذه البقعة من الأرض التي تسكنها الأمة العربية والتي تمتد بين جبال طوروس وجبال پشتكوه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط».

وفي مادته السادسة: «إن حزب البعث هو حزب انقلابي يؤمن بأن أهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن أن تتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال، وإن الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالإصلاح الجزئي يهددان هذه الأهداف بالإخفاق والضياع ولذلك يقرر:

١- النضال ضد الاستعمار الأجنبي لتحرير الوطن العربي تحريراً مطلقاً كاملاً.

٢- النضال لجمع شمل العرب كلهم في دولة مستقلة واحدة.

٣- الانقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية».

وإليك المادة الخامسة عشرة: «إن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة

= هؤلاء على رأس الحزب حتى تم دمجه بحزب الحوراني. ومن الجدير بالذكر أن الشيشكلي أرغم الحزبين على الاندماج طمعاً في سهولة استخدامهما) معاً على ما يقال.

واحدة تكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية».

ويعهد الحزب لنفسه في مادته الحادية والأربعين مهمة استحداث ثقافة عامة للوطن العربي، قومية عربية الصبغة، خالصة، حرة، تقدمية، شاملة عميقة، إنسانية في مراميها وتعميمها في أوساط الشعب كافة. ويعلن أن سياسته التربوية إنما ترمي إلى خلق جيل عربي جديد مؤمن بمبادئ البعث، طليق من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية مشبع بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الإنسانية! وذلك عن طريق طبع كل مظاهر الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية والعمرانية والفنية بطابع قومي عربي. وأن يكون التعليم وظيفة من وظائف الدولة ووقفاً عليها وحدها، ولذلك يجب إلغاء مؤسسات التعليم الأهلية والأجنبية.

وانظر أيضاً إلى علاقة الحزب بالاشتراكية التي كان عفلق قبل سبع سنين لا يجد لها مكاناً في منهاجه فإذا به يراها الآن النظام الأمثل. ثم تأمل كيفية شرحه لها:

«إن البعث هو حزب اشتراكي يؤمن بالاشتراكية ويؤمن بأنها ضرورة تنبثق من أعماق القومية العربية. والاشتراكية في الواقع هي النظام الاجتماعي المثالي الذي سيجعل الشعب العربي يدرك إمكاناته ويساعد عبقريته على الإزدهار ويؤمن للوطن العربي التقدم المستمر في موارده الروحية والمادية الخ».

وعن السؤال الملح: من هو العربي؟ تجيبك المادتان العاشرة والحادية عشرة منه بالقول:

«العربي هو من كانت العربية لغته ويعيش في الأرض العربية، أو ذاك الذي يؤمن بانتمائية إلى (الأمة) العربية بعد تمثله في حياتها. (ويخرج من ذلك التصنيف أي من تابعيته للوطن العربي) كل من عمل ضده أو انتمى إلى جمعية أو حزب معاد للعرب وكل من دس نفسه في الوطن العربي لأغراض استعمارية».

ويظهر لنا من هذا أن الذين وضعوا صيغة هذا الدستور، وبأفضل ما نملكه من حياد وحسن نية، أخذوا بالنظرية العنصرية البسيطة: نظرية الواقع والشهادة، أعني أن العربي هو من يقول إنه عربي ولا يقوم على قوله ضد أو دليل نفي.

إلا أن قضية الحدود التي وضعها الدستور للوطن العربي هي قضية شائكة ومشكلة مربكة تثير متاعب وتعقيدات، ومنها قضية ذلك الذي يقول إنه ليس عربياً وهو ساكن

ذلك الوطن العربي سكنى قرار ووارث الأصقاع التي عاش فيها أسلافه واتخذوها وطناً قبل ان تطأها قدم عربي.

وعفلق مدرس التاريخ والمساهم الكبير بل هو الملهم لهذا الدستور البعثي لا بد يعلم أن الحدود التي وضعها للوطن العربي هي عين الحدود التي رسمها الاستعمار والإمپريالية لفتوحاته في البلاد الناطقة بالعربية في أفريقيا وآسيا واقتسمت النفوذ فيها تلك الدول الاستعمارية بموجب اتفاقات ومعاهدات ومؤتمرات دولية ومنها اتفاق سايكس بيكو سازانوف، ومؤتمر ڤرساي ومعاهدته، ومعاهدة لوزان، وكلها نتيجة مساومات وصفقات سياسية سرية وعلنية لم تراع فيها رغبات السكان بل كانت قد تمت بمعزل عنهم(١٣).

ومن قراءة الدستور قراءة تأمل وإمعان نجد أن البعث العربي قد جعل نفسه النهاية

---

(١٣) بعض الأقوام والشعوب التي سكنت في مناطق أدخلها البعث ضمن حدوده للوطن العربي خارج الجزيرة العربية لم تكن قد سمعت ناطقاً باللغة العربية في العام ٦٣٠ م بل منذ بدء الفتوح العربية - الإسلامية، بل بعد قرون عديدة من هذا التاريخ وبعضها إلى قرننا هذا. وفي هذه الحدود، وهي الدول التي تدخل في إطار الجامعة العربية، هناك أكثر من مليون بربري وأربعة ملايين كُردي وأكثر من خمسة ملايين زنجي إفريقي، فضلاً عن المجموعات العنصرية المسيحية المتمسكة بقوميتها كالمجموعة الكلدآشورية التي يزيد تعدادها عن المليون وكالصابئة في العراق وكمسيحي جبل لبنان. فضلاً عن ذلك فباستثناء سواحل المحيطات والبحار والخلجان تبدو الحدود غامضة كثيراً لأن سلاسل الجبال التي ذكرها الدستور هي ذات عروض وسيعة تمتد عشرات عديدة من الكيلومترات، وكذلك الصحارى التي تنداح مئات إثر مئات من الكيلومترات، والواقع هو(والى جانب ما ذكرناه في المتن) أن دستور البعث تبنى حدود الدول الأعضاء في الجامعة العربية بعد سنتين من تأليفها، وقد رسمت بإرادة الدول الغربية كما قلنا. وبغض النظر عن وجود أصقاع وأقاليم مسكونة منذ وقت سحيق بغير العرب، مثل كردستان وجبل لبنان وبحر الغزال والنيل الأعلى والأقاليم الاستوائية في السودان والمناطق الجنوبية من الجزائر وتونس ومراكش والساحل الأدنى من المحيط الأطلسي، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي، فإن حزب البعث - وهي شهادة لوجه الله - ظل مخلصاً في إعلانه عروبة مناطق ثلاث هي الآن تحت حكم غير عربي. وأعني بها لواء الإسكندرون (كليكيا) في تركيا والأهواز (خوزستان) في إيران، وإسرائيل. إلا أن اسم إسرائيل لم يظهر في أدبيات البعث الأولى، لأن البعثيين كغيرهم لم يفكروا في إمكان قيام دولة يهودية، إلا أن قضيتها أصبحت بعد ١٩٤٨ قضية مركزية عندهم. لم ينفرد القوميون البعثيون بهذه الحدود فهناك قوميون آخرون يؤمنون بها كالأستاذ ساطع الحصري: العروبة أولاً، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦١، ص١١.

والقمة لتاريخ القومية العربية واعتبر حركته الحركة الوحيدة التي ستبلغ بالعرب في الختام مرحلة الوحدة السياسية العلمانية.

هذا الادّعاء يضع الحزب، أبدراية من مؤسسيه أو بغفلة منهم، في الإطار التاريخي للعمل والفكر السياسيين بأضيق ما يمكن أن يهدف إليه منهاج حزب سياسي، لا بوصفه تقريراً لواقع الأمور. لذلك وكأيديولوجية بدا البعث لكثير من القوميين العروبيين ومفكريهم والمعتنقين منهم مبدأ القومية العروبية وكأنه لا ينتهي بإقامة دولة الوطن العربي الشاملة كل الأقطار التي يسكنها من اعتبرهم دستوره عرباً أو جعلهم عرباً بحكم سكناهم فيها، بل ينزع إلى صياغة جديدة للفرد العربي تتحدى كل القيم والمشاعر وحقائق التاريخ والعلم، وإن لم يكن القوميون العروبيون كافة مستعدين لمشاركة البعثيين في تحديدهم الوطن العربي أو تعريفه بمثل هذه السعة في عداد العرب عرباً. وقد رأينا أكثريتهم تثبت القومية بصيغة وطنية محلية أضيق مفهوماً ومحدودية من هذا بكثير.

وماذا عن الاشتراكية؟

تقول المادة الرابعة من الدستور إن الاشتراكية هي ضرورة تنبع من أعماق القومية العربية نفسها وإنها ستأخذ بيد العرب في طريق استعادة مجدها وعزتها، وإن ثوريته الحزبية أي انقلابيته إنما هي الأداة للبلوغ بعملية البعث العربية إلى نهايتها من أجل تحقيق الاشتراكية. وقد سبقتها المادة الثالثة في التعريف بهوية الحزب بأنه «حزب قومي» وأن القومية هي «حقيقة أزلية حية».

إذن وبغياب أي تحديد لمعنى الاشتراكية المقصودة في الدستور لا سبيل لنا إلا القول بأن ما يريده واضعو الدستور هو الاشتراكية القومية أو القومية الاشتراكية اشتراكية ماركس.

حاول عفلق مرات عديدة أن يشرح المقصود بالاشتراكية عند البعث بما يشبه الاعتذار عن ذنب أتاه أو ليثبت في أذهان أتباعه بأنه ما قبل إضفاء آراء الاشتراكية على الدستور إلا مُكرهاً، في الوقت الذي يؤكد تلامذته الأوائل، ودليلهم كتاباته الأولى في الصحف الشيوعية، بأنه لم ينفض عنه غبار الماركسية إلا من ناحيتها التي ترفض الفكرة القومية ولأن المادة الخامسة من الدستور تؤكد بأن تلك الاشتراكية لا يمكن الوصول إليها بالتطور المتدرج بل بعمل انقلابي - أي بثورة.

على أنه كان قد وقع حينذاك تحت سحر القومية الألمانية المثالية وتوتاليتارية (هيگل) بفضل بزوغ نجم قومية هتلر الاشتراكية الصاعدة وما حققته اشتراكية الفاشيست

في إيطاليا من تعبئة جماهيرية وما أنجزه البلدان مما عدّه العالم في حينه من قبيل المعجزات الاقتصادية. كل ذلك مقابل فشل الديمقراطية واليسار الفرنسي بهزيمة حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، ثم سقوط باريس في الحرب، كل هذا فضلاً عن الانتصارات الحربية المتلاحقة للنظامين لاسيما في أولى أشهر الغزو الألماني لروسيا، أثّر في أفكاره تاثيراً عميقاً. وبطول فترة الانتداب لا نجده يرفع صوتاً واحداً ضد الحكم الإمپريالي الاستعماري. ولم يهاجمه بذلك العنف الذي عثرنا عليه فيما بعد، بعد أن راح يلفظ آخر أنفاسه في الأقطار الناطقة بالعربية.

في العام ١٩٤٦ اندفع قلم عفلق في حلبة الاشتراكية يصول ويجول ليجعلها معادلة للقوميين «القوميون العرب هم الاشتراكيون» لذلك «فليس هناك من تباين ولا حرب بين القوميين والاشتراكيين[١٤]. النضال العربي في سبيل الحرية هو أيضاً نضال في سبيل الاشتراكية فالتخلص من الطبقات الحاكمة عملاء الامپريالية سيفضي مباشرة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية - أي الاشتراكية». حتى في أيامنا هذه، تحتل الاشتراكية المركز التالي للقومية، وعليه فإن القضية الاجتماعية والاقتصادية هي مسألة في منتهى الأهمية في حياتنا، لأنها متعلقة مباشرة بالموضوع الأوسع وهو القومية. إننا نريد الاشتراكية لخدمة قوميتنا[١٥].

لاتجد في دستور الحزب ما يذكّرك بالفكر الماركسي. الدستور يصف الحزب بأنه اشتراكي وأن الاشتراكية هي ضرورة تنبع من أعماق القومية العربية و الاشتراكية تمثل النظام الاجتماعي المثالي للأمة العربية. مع هذا كله فقد بقي عنوان الحزب حزب البعث العربي مدة ست سنوات إلى أن تم الدمج مع الحزب العربي الاشتراكي في ١٩٥٣ فأُضيفت كلمة (الاشتراكي) إليه.

يذكر (الغانم) أنَ زعيمه كان يجد فروقاً عظيمة بين الاشتراكية العربية وبين مختلف أنماط الاشتراكية الغربية. فقد كتب في ١٩٥٠:

«إن الاشتراكية ليست هدفاً بحد ذاته بل هي بالأحرى وسيلة ضرورية لضمان أعلى مستوى إنتاجي للمجتمع بأقصى حدود التعاون والتكاليف بين الموظفين

---

(١٤) المرجع السالف. في سبيل البعث، ص٢٠٤ (في أواسط العقد السادس من القرن العشرين تحول موقف البعث من الاشتراكية كما سنأتي إلى تفصيله).

(١٥) المرجع السالف. الص ٢٠٥ و٢٠٧.

- المجتمع العربي بحاجة إلى نظام اجتماعي ذي أسس أعمق وآفاق أوسع وإدراك أقوى من الاشتراكية البريطانية المعتدلة»[١٦].

وكتب في السنة عينها أيضاً:

«الاشتراكية عند البعث العربي مقصورة على المنظمات الاقتصادية التي تهدف إلى إعادة النظر في توزيع الثروة في الوطن العربي وبوضع أسس اقتصادية تضمن المساواة والعدالة الاقتصادية»[١٧].

وفي العام ١٩٥٥ عاد ليقول:

«إن الاشتراكية يمكن أن تعرّف بأنها مبدأ أو نظام ذو أصول ذاتية... الاشتراكية هي المشاركة في موارد البلاد من قبل المواطنين»[١٨].

وتجنب الدستور كل ما يمكن أن لا يفسر بتعبير العلمانية أو الاعتماد على العقيدة الإسلامية. إلا أن أدبيات الحزب كانت أبداً تؤكد بأن الإسلام هو أعظم تجربة للأمة العربية. وذكر عفلق في خطبة له بمناسبة المولد النبوي في دمشق: إن الإسلام بالأصل هو حركة عربية وأهميتها الكبرى تتجلى في تجديد روح العروبة وإن القيم الباطنة

---

(١٦) دراسات في الاشتراكية، ص٣٣.

(١٧) في سبيل البعث. ص٢١٠.

(١٨) المرجع نفسه: ص ٢١٥، كتب عفلق (ص٦) في العام ١٩٣٦ وعلى إثر مساندة الشيوعيين الفرنسيين وزراء الجبهة الشعبية برئاسة (ليون بلوم) التي بقيت مصرة على مواصلة انتدابها في سورية بدلاً من تنفيذ المعاهدة وهو متألم من موقف الشيوعيين: «لو سئلت عن تعريف للاشتراكية فلن أبحث عنه في آثار ماركس ولينين». وابتداءً من العام ١٩٥٠ أخذ البعثيون يستخدمون بإكثار وإصرار كلمة الشعوبيين لوصف الشيوعيين ووصفوا الحزب الشيوعي السوري بأنه قطب الشعوبية. من الناحية الأيديولوجية تبدو الاشتراكية التي يقصدها البعث في الفصل الخاص (بسياسة الحزب الاقتصادية وهي المواد ٢٦-٣٧) من الدستور، فهي مزيج توفيقي بين الرأسمالية والنظام الرأسمالي من جهة وبين الاشتراكية الفابية الليبرالية من جهة أخرى. ولا يستطيع من وقف على منهاج الحزب النازي (حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني) بمواده الخمس والعشرين أن يعزو وجه الشبه بين أهدافه الاقتصادية وبين أهداف البعث على ضوء دستوره إلى مجرد توارد خواطر، رغم أن الاثنين بذلا في اشتراكيتهما الخاصة كلاً من جانبه جهداً كبيراً في اجتناب آثاره الطبقية البرجوازية والرأسمال الكبير، بل اجتذابهما إلى خطيهما السياسي ما أمكن، وهما بطبيعة الحال فيما عدا ذلك يلتقيان صميماً بالتأكيد على الرسالة التاريخية الخالدة للأهمية الإنسانية العالمية للأمتين الألمانية عند النازيين والعربية عند البعثيين.

والظاهرة التي بشّر بها الرسول العربي والرذائل والعيوب التي رفضها هي أصلاً فضائل عربية وعيوب عربية وإن المفهوم الحقيقي للإسلام يثبت:

«بأنه الوسيلة الوحيدة التي ستمكن العرب من العودة إلى الطريق القومي بعد أن تركوا القيم المادية تطغى على القيم الروحية، تلك القوى الكامنة للقومية. . . ووقت أن كان المسلم والعربي في زمن (محمد) متساويين. فنحن الآن وفي القرن العشرين نجد عربياً جديداً متكاملاً متطوراً».

في هذا القول تأكيد لا يخطئه الذهن على فضل العروبة على الإسلام لا على فضل الإسلام على العرب - لاسيما في مكانة هذا الدين التي احتلها في قلب العالم:

«في يومنا هذا نطلق تعبير (وطني) أو (قومي) على أفراد معينين من الشعب ونقصد بهم أولئك المؤمنين بقضية بلادهم. فإذا كان المسلم هو العربي في الماضي بفضل إيمانه بالدين الجديد فلأنه يمتلك المزايا الضرورية ليفهم بواسطتها بأن هذا الدين يمثل تحركاً جزئياً للعروبة نحو الوحدة والتقدم والمنعة. إن قوة الإسلام تُبعث من مصدر جديد في أيامنا هذه. . . هذا المصدر هو القومية العربية. . . حتى المسيحيون العرب، وجب عليهم أن يعرفوا الإسلام ويخلصوا له باعتباره أهم عنصر في قوميتهم».

بهذه التعاليل والأقوال (الصوفية) فتح عفلق الباب على مصراعيه لأتباعه البعثين للاستنجاد بالإسلام كلما وجدوا في ذلك منفعة، لا لأنهم مسلمون بل لأنهم عرب. وما من شك في أن ذوي العقيدة الصحيحة من المسلمين لا يتفقون مطلقاً مع وجهة نظر عفلق هذه. إلا أنه لم يكن يخاطبهم. فالحضور والأتباع والقراء هم من جيل آخر درس في معاهد كان التأثير الأوروبي والأمريكي فيها كبيراً. شباب لا شأن لهم بالفرائض الدينية ولا يفقهون منها شيئاً ويفتقرون إلى معرفة كافية بعقيدة الإسلام.

على أن الارتباط بالإسلام أيام مجده وسؤدده وفتوحاته (أشار إليها عفلق بوصفها أداء لواجب ديني لا لتوسع إقليمي) كان له وجهه الجذاب، لاسيما بالتأكيد على آثاره الاجتماعية. فبإمكان القوميين العروبيين والحالة هذه القبول بربط عروبة اليوم بالانتصارات الإسلامية في القرن الأول الهجري متحصنين بإيمانهم بكونهم جزءاً من التيار العام للإسلام العربي، خلا أنهم متحررون من قيود الممارسات والفرائض الجامدة التي سادت القرون التالية للرسالة المحمدية.

والنتيجة المنشودة؟

القومية العروبية ستحل محل الإسلام بوصفها البؤرة العقائدية التي يستقطب حولها العرب.

إن البعث لا يحتاج إلى أدلة علمية ولا إسناد تاريخي، وانتقادنا له على هذا الأساس ووفق هذه الخطوط لتبيان مقدار خطئه أو إصابته في هذا الحكم التاريخي أو ذاك هو عبث لا طائل تحته، وإنما يحيد بنا عن النقطة الأساسية، وهي أن القومية العربية عند عفلق ورفاقه وعند عشرات الألوف من القوميين العروبيين وغيرها قُبلت من الواعظين بها والمروّجين لها من أمثاله من دون حاجة إلى دليل أو محاكمة أو وسيلة إثبات. وبكلمة أخرى فعفلق هو نبي من نوع خاص، لا باعتباره صاحب نبوءة كأنبياء التوراة مثلاً إنما نزلوا لينقذوا شعب الله من حمأة الضلالة العمياء والمعاصي ويدلوه على طريق الصلاح، بل نبي من نوع خاص جداً.

لكن ما موضع المسلم غير العربي من الصورة؟

الظاهر أنه لا يستطيع في عرف البعث أن يستفيد من الإسلام كما يستفيد العربي في نضاله القومي. ومن الطبيعي أنه لا يستفيد من دينه المسيحي لو كان مسيحياً.

والبعث هو حزب ثوري - انقلابي. إنه التغيير الفجائي للناس لا لنظام الحكم. فقد ذكر عفلق في حديث له أن الانقلاب قبل أن يكون نهجاً سياسياً أو اجتماعياً «هو تلك القوى المتصاعدة الأصيلة ذات التيار الجسدي العاتي، ذلك الكفاح المحتوم الذي لا يمكن فهم بعث الأمة بدونه. هذا ما نفهمه من الانقلاب»... ثم ما أن ينجز الناس تحرير العقل وإطلاق كوامن الإيمان بالروح، فإن تغيير النظام سيتلوه بشكل طبيعي[١٩].

فالبعث والحالة هذه هو حركة طليعة، حركة نخبة مهمتها هداية الناس وقيادتهم في سبيل ينتهي إلى بناء مجتمع جديد نابض بالحياة الثرّة المعطاء تنعم به الأمة العربية بجدارة واستحقاق بالأمجاد والسؤدد في دولة عظمى واحدة مستقلة.

إلا أن هذا التفسير لم يجد تطبيقاً واقعياً له في أي وقت من الاوقات. فمنذ أن بدأ البعث بنشاطه وجدنا زعماءه يبذلون أقصى جهودهم في التغلغل بين صفوف حزبهم مشجعين تلاميذهم على الانخراط في معاهده وكلياته العسكرية، وفي الانقلابات العسكرية سواء تلك التي يقوم بها وحده أو بالمشاركة فيها مع غيره، أو الانقلابات الأخرى التي لا نصيب له فيها المؤدية كلها إلى تغيير أنظمة الحكم. مع أن عفلق كان

---

(١٩) أحاديث في فرع الحزب بدمشق - شباط ١٩٥٠: في سبيل البعث، الص ١٧٦ و١٧٧ و١٧٨.

قد وجد من الضروري إنذار أتباعه أن انقلاب (حسني الزعيم) ليس إلا خطوة نحو ذلك الانقلاب الذي يطمح إليه البعث[٢٠]. وأمام الإغراء بعمل سريع لإحتثاث عجلة التغيير، ولجوء الحزب إلى استخدام القوة العسكرية كوسيلة شرعية مقبولة، بل الوسيلة الوحيدة لتحقيق التغيير وليصبح فيما بعد القاعدة والمبدأ، غرق مفهوم الانقلاب في مستنقع آسن من تكالب البعثيين المتفرغين على تحقيق التغيير بقوة يمثلها عسكريوه ومدنيوه.

وكل ذلك يناقض بشكل يدعو إلى العجب ما جاء في المادة الرابعة عشرة من دستوره التي تؤكد ضرورة قيام حكم دستوري برلماني تكون السلطة التنفيذية فيه مسؤولة مباشرة أمام السلطة التشريعية التي هي ثمرة انتخابات عامة. وكذلك يناقض المادة (٤٥) منه والتي تحصر التعليم بالدولة. إن الدستور «يشجع» نقابات العمال والفلاحين لكنه يبقيها بعيدة عن الحكم. فالإصرار على أن تكون السلطة العليا للدولة وإليها ينتهي القرار بكل شيء يناقض اعترافه بأنها مسؤولة أمام الشعب، الذي هو مصدر السلطات. لكن الحزب هو من الاثنين، فهو الذي يقرر ما هو جيد للأمة وما هو غير جيد، لأنه يحمل لواء الرسالة الخالدة ببعث المجتمع العربي وانتشاله من الوهدة التي وقع فيها خلال عصوره المتأخرة.

لم يخل الحزب من أثر بيّن على مفاهيمه هذه، وعلى انقلابيته المزعومة: فحول هذه المادة الرابعة عشرة كتب أحد مفكريهم في العام ١٩٥٢ يقول:

«ليس في الإمكان لمثل هذا الشكل من المجتمع (الذي يصوره البعث) أن ينجز ذلك بالكامل إلا من خلال نظام ديمقراطي شعبي. وبالديمقراطية نعني نظاماً برلمانياً منتخباً انتخاباً حراً وحكومة مسؤولة مباشرة أمام ممثلي الشعب. والشعبية نفي الحكم المبني على إرادة أغلبية الأمة حيث يتمتع كل شخص بحرية العقيدة والتفكير بأوسع مجال»[٢١].

ويستطرد قائلاً: «إن حق الانتخاب يجب أن يكون لكل المواطنين رجالاً ونساءً أغنياء وفقراء دون ضغط أو خوف، وإن النواب يجب أن يُنتخبوا لآجال

---

(٢٠) نضال البعث، ج١، ص٢٩١، المرجع السالف.

(٢١) منيف الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة، الطبعة الرابعة بيروت دار العلم للملايين، ص٦٦ (طبع لأول مرة في القاهرة العام ١٩٥٣).

محدودة والترشّح مفتوح للجميع دون اعتبار للمستوى المالي أو لدين»[٢٢].

كان الرزاز أعظم مدافع عن الديمقراطية الدستورية بين قادة البعث ومفكريهم، وقد خصص أكثر من سبع صفحات من كتابه الموسوم «آثام الدكتاتورية وشرورها» ولحقه من مؤسسي البعث (وهيب الغانم) فقد دافع في العام ١٩٥٣ عن الديمقراطية الدستورية دفاعاً مجيداً ومما قاله:

«النظام الديمقراطي البرلماني هو الشكل المثالي الذي يضمن للفرد حرية السيطرة على مصائر بلاده»[٢٣].

لم ينس الحزب أهمية إيجاد صلة له بالنضال القومي العربي الذي سبقه. فقررت المادة التاسعة من دستور الحزب:

«أن يكون علم الدولة العربية الواحدة، هو علم الثورة العربية (في الحجاز) التي بدأت في العام ١٩١٦ لتحرير وتوحيد الأمة العربية».

وهنا يظهر فقر واضعي دستور البعث في المعلومات التاريخية عن هذه الثورة لاسيما الظروف التي لابست اختراع ذلك العلم والجهة التي صممته ورفعته. وأكاد أجزم لو علم أقطاب البعثيين هؤلاء الذين صمموا الدستور أن الذي صمم (علمهم) هو السر مارك سايكس بمعاونة خبراء من دائرة الاستخبارات البريطانية في القاهرة، وأن أول إرسالية منه خيطت في معامل خياطة الجيش البريطاني في مصر، لفكروا ملياً قبل اعتباره علماً وشعاراً لدولتهم العربية الكبرى، رغم أن الفكرة التي بني التصميم عليها كانت فكرة منطقية. فالقاعدة العامة هي أن تشك في صلاح وسلامة أي شيء يصدر من المستعمر الأجنبي إن كنت قومياً حقيقياً.

* * *

للكلمة الملفوظة أو المكتوبة قيمتها الذاتية في المجتمع الناطق بالعربية سواء بالنسبة إلى المتكلم أو الكاتب أو القارئ أو السامع. فالدعوة إلى القومية والحرية هي بشكل ما خطوة عملية نحو إدراك القومية والحرية. هناك كثير من الرضا والشعور بالارتياح والنجاح في إنجاز عملي بصياغة بيان أو نشرة في موضوع معين وإذاعته. والأمر سواء

---

(٢٢) جاء ذكر الدين هنا لأن حكومات البلاد الناطقة بالعربية ذات الأنظمة الدستورية كانت تخصص عدداً محدداً من المقاعد للأقليات العنصرية أو الطائفية في برلماناتها.

(٢٣) الاشتراكية وحرية الإنسان في «دراسات في الاشتراكية» بيروت، دار الطليعة في ١٩٦٠ (يلاحظ أن ما كتبه هذان كان في عهد حكم أديب الشيشكلي زعيم الانقلاب الثالث في سورية).

أأحدث تأثيراً على شخص واحد أو مليون أو أن لا يحدث أي أثر. لذلك كانت البيانات والكتب والكنانيش التي تشيد بفضائل القومية لعربية وتهاجم المستعمرين والإقطاع والرجعية والمستغلين وترفع شعار الوحدة بين كل الأقطار الناطقة بالعربية هي مقبولة حسنة الوقع لا عند البسطاء من الناس وحدهم، بل حتى عند الذين نالوا قسطاً كبيراً من العلم. فحتى لو حاول قادة البعث ومفكروه عبر الطرق العملية التفصيل في شكل الحكومة الوحدوية والنظام الاشتراكي للدولة العربية الكبرى، فإن عضو الحزب على أغلب احتمال سيفكر بأنه في الوقت الذي يأزف لتسلم حزبه السلطة سيقوم بأداء هذه المهمة بمهارة ونجاح كأي إنسان مثقف. ولذلك كان لشعار الحزب المثلث قوة جذب كبيرة عند شرائح معينة من الجمهور. وهي لا شك لا تلقى أي استجابة عند الصناعيين والإقطاعيين ورؤساء العشائر والملوك والأمراء وأمثالهم. بل حتى عند الفلاحين والعمال الذين ينصب اهتمامهم الأول في أمور اكثر بساطة وأقل تعقيداً كأجور أفضل وطعام أوفر ومسكن أريح. فحزبٌ أيديولوجيٌ أسسه وقاده مثقفون غلب خيالهم واقعيتهم كحزب البعث وبما تنم عنه هويات قادته وكوادره الأولى كاد امتداده يكون مقصوداً على أناس أصابوا تعليماً أو كل من ادعى إصابة شيء من الثقافة. وتجنيد أعضاء الحزب على ضوء رسالته الخالدة - بالنظر إلى الخط العام الذي رسمه منهاجه ونظامه فيما بعد - لم يجر وفق ما رسمه له، بل كانوا هم ومرشحوهم وأنصارهم من بين الأقرباء والجيران أو الأصدقاء والذين هم على صلة وظيفية بهم أو بحكم الحياة اليومية التي يعيشونها كرفقة المدارس والمقاهي. وقد أدى هذا إلى سيطرة أعضاء حزبيين على القيادات من مدن أو مناطق معينة. ففي بعث العراق مثلاً كانت هناك نسبة عالية جداً من القيادة من مناطق تكريت وسامراء والحديثة. وفي سورية وجدنا عدداً من قادتهم بين العلويين والدروز الذين دخلوا الحزب عن طريق المدرسين البعثيين في المدارس الحكومية في مناطقهم.

يستأثر منا هذا الحزب باهتمام خاص لمدى التأثير المدمر الذي أحدثه في الفكرة القومية العربية أو (العروبة) التي يترجمها الغربيون بمصطلح Pan Arabism والصدع الكبير الذي شقّه في المسار السياسي والاجتماعي للأقطار التي حكمها، ولعلاقته بضباط الجيش واستخدامهم في الانقلابات العسكرية أو شبه العسكرية في محاولات الوثوب إلى الحكم، وكذلك لدوره في قيام الجمهورية العربية المتحدة، ولكونه الحزب العقائدي الوحيد الذي استأثر بالسلطة في العراق وسورية قبل تلك الوحدة وبعدها. وكل هذا معروف ولا أظنني سأضيع فيه للقارئ وقتاً. إلا أن ما يجتذب

اهتمامي بنوع خاص أساليبه التآمرية التي لا تسير وفق المبادئ الخلقية المتعارف عليها، رغم كفاءة قادته المحدودة وعجزه عن تعبئة جماهيره. لأنه بقي إلى الأخير حتى لفظ آخر أنفاسه كحزب سياسي حزب أنصار مقاتل بطرقه البالغة القسوة في فرض الطاعة لسياساته.

إن الدمار الأعظم الذي ألحقه البعث بالفكر القومي العروبي هو خلقه جيلاً نزوعاً إلى الأنانية والشر وارتكاب ما حرّمته الشرائع البشرية ورست عليه الحضارة من قيم إنسانية، بل وطئها وتجاوزها إذا اعترضت سبيل الترفيع وتسنم المناصب وعارضت مسيرة قادة الحزب. سار على هذا النهج منذ تشكيل الخلايا الأولى له في أواسط الأربعينات وأصبح بمرور الزمن خط السير الأساسي غير المدون مبتدئاً بتلقين التلاميذ وضباط الجيش على جميع المستويات روح التآمر في صفوفهم. وزرع بذور التفرقة والكره لكل ما يراه الحزب غير بعثي. وبنفوذه كان يعتمد خريجو المدارس والجامعات على الرفاقية الحزبية لتسنم المناصب العليا والمسؤوليات الخطيرة لا على أساس الكفاءات والمؤهلات والضرورات. وهناك دلائل كانت تشير من الأول إلى أن أعضاء الحزب ومشايعيه ينالون معاملة خاصة من أساتذتهم أثناء وجودهم في مقاعد الدراسة والامتحانات، وباختصاصهم دون غيرهم بالزمالات والمنح الحكومية لإكمال دراساتهم في الخارج أو انتقائهم للكليات العسكرية وخصّهم بالترقيات العسكرية الخيالية أو خصّوا هم أنفسهم بها.

ومن مظاهر بؤس هذا التنظيم القومي مساهمته الكبيرة في تشويه العقيدة القومية العروبية النابعة من عقدة (الحزب المختار) التي استمدها عفلق والبيطار والحوراني وغيرهم من مؤسسيه رأساً من العقيدة النازية. وتتأصل في أعضائه وكوادره في مفاخرتهم بقيادتهم واحتقارهم واستصغارهم للحركات العروبية الأخرى وقادتها. يقول عفلق:

«إن عهداً جديداً للبطولات قد بدأ بالبعث العربي عندما خرج حزب البعث إلى الوجود. ولهذا تمثل في حركة البعث مصير الأمة العربية في هذا العصر».

على هذا الأساس يصف أعضاء الحزب وكوادره أنفسهم بأنهم حملة راية الفكرة القومية الأصائل، وأنهم أقدر من غيرهم على النضال في سبيلها. وانطلاقاً من تلك الفكرة يبررون احتكارهم للقومية ومقدراتهم على تحقيق أمانيها. عَمِل هذا الحزب أكثر مما عمله أي تنظيم سياسي عربي آخر للحط من قَدْر أجيالٍ من الزعماء الوطنيين والقادة

والمفكرين القوميين ولتشويه التاريخ الحديث للحركة القومية عموماً.

وقد بان ذلك جلياً عندما أتيح للحزب الوثوب إلى الحكم. وسرعان ما ظهرت خلافات في عشية وضحاها بين أولئك التلاميذ الذين أصبحوا وزراء وقادة، والملازمين الذين أصبحوا جنرالات، وبين عدد من الأعضاء القدماء والمؤسسين الذين اعتبروا رجعيين ومحافظين، فأعملوا فيهم قتلاً وذبحاً ونفياً وسجناً. فضلاً عن النزاع الدموي فيما بينهم أثناء كفاحهم للوصول إلى السلطة أو بعده، تخللته سلاسل من حملات التطهير التي أشبهت في أحيان كثيرة شكل حملات هتلر التطهيرية الدموية في١٩٣٣-١٩٣٤، وأعادت إلى الذهن عهد الإرهاب الستاليني العظيم ١٩٣٥-١٩٤١. وانتهى الأمر بعفلق إلى أن وجد نفسه محكوماً بالإعدام بحكم أصدرته محكمة بعثية، ولفظ آخر أنفاسه وهو سجين في قفص قضبانه من ذهب وضعه فيه واحد من آلاف الأشرار الأفاقين خريجي مدرسته وأحكم قفله عليه. كما صرع البيطار برصاصة بعثية.

ولنمسك عن هذه التفاصيل مؤقتاً. للتعريف بحركة قومية أخرى بدأت مشاهدها في جامعة بيروت الأمريكية قبل نهاية العقد الخامس من القرن عُرفت الحركة باسم (حركة القوميين العرب) وانتشرت بين طلابها ونشرها هؤلاء في الأقطار العربية. كان مرشدها الروحي الدكتور (قسطنطين زريق) وقد مر بنا ذكره.

لم تنتظم هذه الحركة في حزب ولم تتقدم بأعضاء رسميين أو تبرز زعامة معترفاً بها. لكنها وجدت في (جورج حبش) الفلسطيني الذي كان يدرس الطب في الجامعة قائداً ميدانياً لها ومتكلماً باسمها في أوائل الخمسينات.

بدأت الحركة بمجموعة معتدلة الأهداف اقتصر نشاطها على اجتماعات خاصة تتخللها مناقشات - في مختلف النوادي الثقافية ببلاد الهلال الخصيب، وكذلك في مخيمات اللاجئين. وقبل أن تغرق نفسها في القضية الفلسطينية كانت تدعو تفصيلاً إلى وحدة عربية قاصرة على سورية والعراق والأردن ولبنان وفلسطين، وتأجيل البحث حول الاشتراكية إلى ما بعد تحقيق الوحدة. ذلك لأن الأعضاء من هذه الناحية كانوا على اختلاف حول النظام السياسي - الاجتماعي الأجدر لهذه الوحدة في الزمان المقبل.

ثم اتجهت الحركة بعد إعلان التقسيم وقيام دولة إسرائيل وعقد حلف بغداد نحو اليسار، والتقت مع عبدالناصر حيناً في الدفاع عما دُعي في حينه بالحياد الإيجابي، وفي خلال ذلك ساندت الجمهورية العربية المتحدة. ثم أعلنت القطيعة معه بعد

الانفصال. وآل بها الأمر إلى الاستقلال في تنظيم فلسطيني - قومي - يساري باسم (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) بزعامة الدكتور جورج حبش.

لم تلتق حركة القوميين العرب بحزب البعث قط. واستحكم العداء بين الاثنين وجرت معارك ومشادات كلامية في ساحات الجامعتين الأمريكية والسورية، وفي الأولى لم يجد البعث حظاً كبيراً في حين كان البعثيون سادة الميدان في الثانية. ووجد البعثيون أنفسهم في الجامعة الأمريكية موضع سخرية بسبب قصورهم في فهم دستورهم وجهلهم أسلوب الدفاع عن معتقداتهم بسبب الخيال المفرط فيه.

ظل الدكتور زريق منذ أن دخل المعترك القومي العروبي بكتيبه «معنى النكبة - ١٩٤٨» يضرب خلال نصف قرن من عمره المديد على وتر التخلف العربي جلاّب المصائب على الحركة القومية:

«إن في رأس أصول الأزمة العربية الحاضرة المتعددة الوجوه وفي غور أسبابها التخلف العربي. إن هذا التخلف هو القضية الأم التي يجب أن تظل موضع النظر وقبلة الاهتمام. لأنه مصدر العجز العربي الذي يبدو في مختلف الجبهات في مواجهة التحديات الخارجية وما جلبته من هزائم عسكرية وسياسية واقتصادية متلاحقة وفي تلبية حاجات التضامن والتلاحم بين الدول والشعوب العربية وفي النهوض بتبعات البناء والإعمار والكسب الحضاري الذي يتطلبه العيش في هذا الزمان والبقاء في الزمان المقبل... إن العيب ليس في التخلف ذاته، فقد حصل لشعوب أخرى، بل لجميع الشعوب خلال مراحل تاريخها وهو حاصلٌ اليوم لأكثر شعوب الأرض، وإنما العيب في القصور عن وعي حقيقته وتقدير خطورته وفي القصور عن مكافحته وفي اتباع المسالك التي توطده وتزيده إمعاناً وانتشاراً. ومن هنا فإن في مقدمة الهموم التي يجب أن تشغل المفكر العربي هو إعادة الثقة إلى النفوس وتحويل التراخي والارتياب واليأس إلى (قلق) حقيقي ينير الشعور والفكر ويحفز إلى الاستكشاف والمجابهة والصمود والبذل»[٢٤].

وفي الوقت الذي يرى هذا الأستاذ الجامعي العلاج في القضاء على التخلف العربي العمومي، نجد أستاذ مدرسة التجهيز الثانوية بدمشق يستفيد من وجود هذا

---

(٢٤) مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين ١٩٨٣، الص ٧-٩.

التخلف في نشر مبادئه، والفرق هو تقرير الواقع عند الأول، والإغراق في الخيال عند الثاني[٢٥]:

«إن البعث هو قدر الأمة العربية وعقيدة البعث لا يمكن الوصول إليها بالعقل لكن بالإيمان وحده. . . وإن القدر الذي حمّلنا رسالة البعث أعطانا الحق في أن نأمر بقوة ونتصرف بقسوة. إن البعث هو الطليعة وعلى الجماهير أن تمشي وراءه والانقلابيون صورة سباقة لمجموع الأمة. إننا نعرف بأن هذه الفئة القليلة من الانقلابيين الذين تضمهم حركة البعث العربي هم قلة في الظاهر قلة في البدء، لكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغرة وسباقة لمجموع الأمة. نحن نمثل مجموع الأمة الذي لا يزال غافياً منكراً لحقيقته ناسياً هويته غير مطلع على حاجاته. نحن سبقناه فنحن نمثله، فالانقلاب إذن طريق، طريق إلى الغاية المنشودة، إلى المجتمع السليم الذي ننشده، لكنه ليس طريقاً من الطرق إنما هو الطريق الوحيد. وبالانقلاب إذن يُقضى على التخلف دفعة واحدة. . . وسحقاً للتطور والعقل، لكن ما هو المقصود بالانقلاب بالضبط؟ لا أحد يعرف، لأن سؤال ما هو البعث؟ ما زال قائماً حتى الآن، ما هو البعث؟ لم تجب القيادات أبداً رغم تبدل الوجوه والزعامات ولا أظنها قادرة على أن تفعل، ولو استطاعت لدلّتنا على هويتنا ولعرفنا من نحن ولما حار فينا البشر وحرنا في أنفسنا كل هذه الحيرة»[٢٦].

هذه الحيرة لا تجدها عند منيف الرزاز[٢٧] وهو من قادتهم الكبار ومفكريهم، فقد عرف حزبه حق المعرفة. إلا أن معرفته به جاءت متأخرة:

«كان في ظن الناس في الوطن العربي وفي ظن البعثيين بشكل خاص أن حزب البعث يحكم سورية، لكن الحقيقة التي بدأت تتضح بالتدريج هي أن هناك من

---

(٢٥) ميشيل عفلق: في سبيل البعث، المرجع السالف، ص٢٢٦.

(٢٦) الجندي: المرجع السالف. ص١٦١.

(٢٧) انتخب في العام ١٩٧٧ أميناً عاماً للقيادة القومية في العراق. وفي العام ١٩٧٩ اختلف مع صدام حسين فاستقال واعتُقل وعُذب وتوفي في السجن وربما قتل. صدر كتابه (معالم الحياة العربية) في عمّان (الأردن) بعد وفاته. وكان يسرّب ما يكتبه من السجن بوساطة أولاده وأبناء عشيرته عند زيارتهم له، وهو أردني الجنسية. وهذا المقتبس من الجزء الثاني من كتابه السالف، وقد أسماه: التجربة المرّة.

بين البعثيين في هذا القطر حزب بعث عسكري. . . لذلك فمن يملك الجيش يملك القوة والسلطة. وقد قام البعث في تكوينه السياسي وتفكيره على الانقلاب ليبقى أعضاؤه ثوريين وليبقى ثورياً، لأن من مبادئه الأساسية لا إيمان بتطور إصلاحي ولا قبول بالحل الوسط. ولهذا بدأ حزب البعث يكوّن نواته في داخل الجيوش العربية، ولاسيما في سورية والعراق والأردن. . . إنهم الانقلابيون لأنهم ليسوا سياسيين وإذا عرف أشخاصهم فهو لا يعرف اتجاهاتهم، واتجاهاتهم اليوم هي ليست بالضرورة اتجاهات في الغد أو بعد الغد. فقد يبدأ الانقلاب العسكري في اليمين وإذا به ينتهي في اليسار. وقد يبدأ في اليسار وينتهي في اليمين. والغالبية العظمى من الانقلابات العسكرية في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية انقلابات يمينية والأقل الأقل منها اتخذ طريق اليسار. مع هذا فأي يسار هذا إذا انتهى الانقلاب العسكري بحكم عسكري. لقد واجه الحزب مهماته هذه بارتجال عجيب وترك للعناصر المستعجلة أن تستولي على اتجاهاته بضعة ضباط هنا وهناك باسم الحزب، وهيأ بعد ذلك لانحراف خطير ظهرت آثاره حين تولى الحزب الحكم في العراق وسورية، لقد كنا نتخبط في التناقضات بسبب الخلافات الحزبية. كل ذلك كان ينقضي في بحث النقطة الصغيرة غير المهمة ساعات وساعات في الجدل العقيم في جو من الأوهام والتهديد وإنهاك الأعصاب واليأس والرغبة في الخلاص من كل هذا. ويجب أن أعترف هنا أني كنت غريباً في مثل هذه الأجواء، فقد قضيت زهرة حياتي في الحزب ولكن لم أرَ مثل هذه الأجواء مطلقاً، كان السجن عندي أهون من النزول إلى هذا الدرك ولذا فكرت بالاستقالة»[٢٨].

والطابع الذي وجده الرزاز ويلغ به حد الاستقالة هو الطابع العسكري المتفسخ الذي ساد أوساط الجيوش العربية عموماً، أمني تجسسي، تباغض وتحاسد وكيد. وجَدَ فيه أوباشٌ غلاظٌ من القتلة السفاكين في أجهزة قمع خاصة لذة في تلوي ضحاياهم بأيديهم تحت صنوف مبتكرة من التعذيب الجسدي والنفسي. نظام يستند إلى هذا أكثر من استناده إلى ثقة الناس، أو ثقته بالناس لأنه يجد في كل معارض أو منتقد، متآمراً عليه وخصماً تجب إزالته.

---

(٢٨) المرجع السالف: ص٢٨٠.

وعليك أن تتحمل معي الرحلة الشاقة التي فرضها علينا فيلسوف بعثي آخر قالوا إنه عضو في القيادة القومية، العراقية، ليكون فيها فصل الخطاب ولتكمل صورة البعث بريشة أهله. يقول السيد (مطاع الصفدي):

«إن البعث القومي بحاجة إلى جيل من المناضلين أكثر من حاجته إلى جيل من العلماء والفنانين، وهذا الجيل هو الممهد، هو الباذر بذور الحضارة الجديدة. إن وجدان الجيل المناضل هو محل التجربة القومية، هو خالقه وبالتالي هو مؤصّلها في وجدان الأمة وهي هامة لنمو شخصية الرسالة، وفي وجدان الجماعة كما في وجدان الصاعد للارتفاع إلى مستوى إمكانية الحرية الخبيئة خلال ألسنة اللهب. فالتجربة هي عبر غابة من الإمدادات والفتوحات. من الهمّ واليأس والأمل الشيطاني، من الشك والصمود أمام الشك، من الهدم والارتفاع فوق الركام. لذلك لا بد من تطور حاسم في نمو هذا التضخم الإنساني أمامه. صراع الأبطال يكاد يتحول إلى جحيم أرضي تأكل ناره نوره. ودعوة البعث للارتفاع إلى مستوى إنساني جديد. فالبعث كأنه خلق من عدم، مقياس توجَدُ أو لا توجد. إن بروز الفرد من سديم الكتلة هو غاية الفردية وبين أن يشخص الإنسان كموجود سديمي تنضج مشكلة الثورية وهي في صراعها من أجل تثبيت سلبيتها وإيجابيتها معاً وهو أن كل شيء متداخل في كل شيء، وأنا ذاتي جزء من هذا التداخل الأعمى. إن الشباب الثوري في الوقت الذي يعتقد أنه تخلص من كابوس الناس، إنما هو يقابلهم بمنحى ذاتي آخر على أساس أنه يرفض الناس. وموقف الرفض يفترض وجود ما نفرض أن الثوري في الوقت الذي يرفض فيه وجود الناس فإنه كذلك يرفض وجوده، إنه ثائر لأنه ثائر، وفي كل لحظة يستطيع الثوري أن يضغط ميوعة هذه السديمية ويعطي لها وجهاً واضحاً، قد يُسمي هذه السديمية بأسماء شتى كالتقاليد الرجعية والتجزئة السياسية والاستعمار والإقطاع.

نحن نربي ذهناً نضالياً يستطيع أن يستلهم كل فترة شعاراتها، ونحن لا نعد لرجل حرب لكننا نعدّ للرجل المستعد لأية حرب. لا نريد بطولة وثنية (ديونيزوسية) ولكننا نبدع فكرتنا عن إلهنا الجديد الذي يدرك كرامة تمردنا. فإذا كان الإله الجديد غير موجود فكل شيء ليس بمسموح. إن اتحادنا بوجودنا الثوري هو الذي يسمح لنا أن نطلع على مولد القيمة والثورة والاتجاه

سواء، وهو يحصد الفشل والعزاء بالنجاح. إنه يتأبط الجحيم ولا يعد نفسه أو الآخرين بأي جنة»[٢٩].

وأصارحك أيها القارئ إني لم أفهم من هذا الوجد الصوفي الشبيه بهذيان المجذوب غير هاتين العبارتين: جاءت أولاهما في الفاتحة وكانت ثانيتهما الخاتمة، وهما:

«البعث لا يحتاج إلى علماء وفنانين».

«البعثي لا يعد نفسه أو الآخرين بأي جنة».

* * *

في شهر نيسان ١٩٤٨ أُعيد انتخاب (شكري القوتلي) لفترة رئاسة ثانية فطار المستغلون والنفعيون فرحاً، وتكالبوا كل يريد حصته من الغنيمة، عاد الطاقم القديم إلى السلطة مرة أخرى، وانتشرت الشائعات والأقاويل حول المتاجرة بإجازات الاستيراد والتصدير وبوكالات الاستيراد. وكان القوتلي نفسه يقف على رأس صرح المحسوبية والفساد وسوء الإدارة[٣٠].

وقد قُدر لهذا الصرح أن يتقوّض عند تعرضه لأول هزة:

في شهر أيار خرج الجيش السوري لقتال الصهاينة والمشاركة في إزالة دولتهم المعلنة مع جيوش الدول الناطقة بالعربية. فقد تأججت النار العروبية فجأة بعد فترة وجوم قصيرة إثر هذه الصدمة الكبرى، التي انقلبت إلى هياج كاسح لم تجد معه حكومات تلك البلاد من سبيل إلا أن تتحدى نفوذ الدول الكبرى التي رعت هذه

---

(٢٩) ألفاظ هذه العبارة عربية لا شائبة فيها، لكن مصدر الإشكال في فهمها هو تفسير العبارات التي نحتها المؤلف وألف منها. فعندي أن قوله «الأمل الشيطاني» وقوله «إنه ثائر» وقوله «موقف الرفض يفترض وجود ما نفرض» وقوله «نضوج مشكلة الثورية»، وغيرها وغيرها، هي ألغاز اندفعت من أفكار مشوشة عجزت أن أجد تعبيراً واضحاً لها، على أني أريد مساعدة القارئ العنيد الذي يصر على أن يخرج من هذه الأقوال بشيء يزيد عما خرجت به لأشرح له معنى السديم والسديمية الكثيرة التردد في هذه الفقرة - كما ورد في المعاجم العربية المعتبرة - فهو الضباب الرقيق أو المنتشر العمومي. وقد استخدم الفلكيون العرب الكلمة لإطلاقها على بقع في الكون السماوي ضعيفة النور، منها ما تجمع في غازات مضيئة ومنها ما ضم مجموعات من الكواكب والنجوم. وأولها يقابله لفظة Haze وثانيهما يقابله لفظ Nebulee التعبيران الفلكيان. فأي معنى من هذين قصده الأستاذ؟ (من الجدير بالذكر أن الصفدي كان واحداً من الخارجين المتأخرين عن البعث راجع كتابه: حزب البعث: مأساة المولد مأساة النهاية، بيروت ١٩٦٤).

(٣٠) باتريك سيل: The Struggle for Syrie : A Study in Post War Arab Politics ١٩٤٥-١٩٥٤ المرجع السالف، لندن، ص٣٢.

الشرذمة من المهاجرين فصادقت على قيام دولتهم، لاسيما ما كان سيترتب على قيامها من تهديد آمال (فاروق) في سيادة العالم العربي والإسلامي.

وتلا ذلك قتال عبأت له تلك الدول قواها العسكرية. وكان قتال تسوده الفوضى ويفتقر إلى التنسيق ويكتنفه الشك في نوايا زعماء عرب فلسطين المطعون في نزاهتهم وإخلاصهم. وقد شجعتهم نصرة حلفائهم هؤلاء فراحوا يطلقون الوعود جزافاً للفلسطينيين ويطمئنونهم بأن الأمر لن يقتضي منهم غير أيام معدودات ليضيع كل أثر لهؤلاء الدخلاء ويُمحقوا من الوجود محقاً وتعود الأرض إلى أصحابها الشرعيين وسكانها الأصلاء. وبنتيجة ذلك بدأ سيل عرم من الهجرة الجماعية العربية وجميعهم يتصورون بأنهم لن يبقوا بعيداً عن وطنهم إلا أياماً قلائل تنال جيوش العرب خلالها نصراً ساحقاً. هاجروا إلى الأردن وسورية ولبنان والعراق بأعداد غفيرة وبهستيريا يخالطها تفاؤل هستيري - نصف مليون إنسان! هجرة لم يرَ القرن العشرون لها مثيلاً لا بحجمها ولا بالسرعة التي تمت بها.

كان الجيش السوري الحديث التكوين جيشاً تعوزه القيادة الكفوءة والعدة والمعنويات، وبدا عجزه عن الوقوف في وجه ما أسمته صحف دمشق بـ«العصابات الصهيونية». وتصاعدت شكوى الضباط بأن القصور متأتٍ من الفساد ومن سوء الإدارة المدنية وربما تأتى هذا الاتهام كرد فعل لمحاولة القوتلي اتهام الضباط أنفسهم.

ففي زيارة قام بها لجبهة القتال في أوائل العام ١٩٤٩ اكتشف أن السمن الذي يستخدم لطبخ طعام الجنود في مطابخ الجيش ليس من السمن المصفى من الحليب المخثر بل هو من صنف رديء جداً يُستخرج من نخاع العظام وفضلاتها. فأمر بإلقاء القبض على الضابط الأقدم المكلف بالمبايعات لتجهيز أرزاق الجيش، وكان برتبة عقيد ومن المقربين جداً لقائد الجيش العام العميد (حسني الزعيم)[٣١] الذي انتقاه بنفسه

(٣١) على إثر الفضيحة وتوقيف بعض الضباط هوجم الجيش في مجلس النواب وقدمت إليه لائحة تقضي بتقليص وإنقاص علاوات ضباطه، واستغل الزعيم تشجيع بعض الساسة الناقمين كأكرم الحوراني والقوميين الشباب، الذين استقبلوا انقلابه بمثابة فاتحة لعملية إنقاذ البلاد من استغلال الكتلة الوطنية الحاكمة (القوميين المخضرمين) الذين زيّفوا الديمقراطية وعبثوا بمبادئها.

ولد حسني الزعيم لرئيس قبلي كردي في قرية من أعمال حلب في العام ١٨٩٩ وتخرج ملازماً في المدرسة الحربية باستنبول وعُين في حامية (المدينة) بالحجاز أثناء الحرب وتم أسره هناك وُنقل إلى مصر وبقي فيها معتقلاً حتى نهاية الحرب. وفي العام ١٩٢٠ انخرط في (قوات الشرق) الفرنسية وبلغ فيها رتبة مقدم. وكان عند هجوم ١٩٤١ أقدم ضابط سوري فيها وأكثرهم =

وأسند إليه هذا المنصب. وحاول الزعيم التوسط عند خالد العظم لإطلاق سراح زميله فرده بفظاظة. وسواء في الأمر أكان العميد نفسه مشاركاً في الغش وخائفاً من افتضاح أمره فيه، أم هو انتصار لصديقه أو غيرة على سمعة الجيش الذي حاول المدنيون إلصاق التهمة به، فقد قام بانقلابه في ٢٠ من آذار.

وأُلقي القبض على القوتلي ورئيس وزرائه خالد العظم والوزراء ولفيف من الوطنيين والقوميين المخضرمين التابعين لـ(عصابة الحكم كما نعتتهم الصحف السورية) وتسلم السلطة كلها. وأرغم المقبوض عليهم وهم في السجن، فقدموا استقالاتهم. وللتاريخ مفارقاته فكما كان الگيلاني رشيد عالي يعتبر بكر صدقي من أخلص المقربين بل أخلصهم، كان القوتلي يثق بحسني الزعيم ويعتبره كابن له، ويرعاه ويبسط حمايته عليه، وقد أُنذر بالانقلاب فلم يصدق كما قيل.

هتف زعيم البعث للانقلاب في مقال له بجريدة البعث:

«ليس ما حدث في سورية انقلاباً. فهو في الواقع خطوة نحو الانقلاب وإننا نستبشر بهذا الحادث ونعلق عليه الآمال. لكن علينا أن نوسع آفاقنا وننظم صفوفنا وأن ننظر دوماً إلى الأمام، إلى العلا. فالانقلاب الذي يطمح إليه

= استماتة وجرأة في القتال مدفوعاً بكره شديد للإنگليز. وأُحيل إلى محكمة عسكرية فرنسية بعد احتلال سورية وحُكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات، لكن أُطلق سراحه بعد سنتين وثلاثة أشهر ونُفي من سورية وجعلت إقامته إجبارية في لبنان. لكنه عاد بعد خروج القوات الفرنسية وإعلان الاستقلال وإنضم إلى الجيش السوري الجديد. وفي أوائل العام ١٩٤٧ عُين مفتشاً عاماً لقوات الشرطة، ثم أُسندت إليه في ١٩٤٨ رئاسة أركان الجيش. كان الزعيم شخصية جذابة عموماً وقد مال إثر انقلابه إلى المحافظة على القشرة الديمقراطية والدستورية بمحاولته تشكيل حكومة جديدة من الساسة القدماء وكلّف (فارس الخوري) رئيس مجلس النواب بتشكيلها، فأبى وقوطع. وعندها بادر إلى حل المجلس وبدأ يحكم البلاد حكماً سافراً فردياً. في الرابع من حزيران ١٩٥٠ أجرى استفتاء عاماً لانتخاب رئيس جمهورية جديد وكان المرشح الوحيد، ورفع نفسه إلى رتبة المارشال (أوصى بعمل عصا المارشالية في پاريس إلا أنها وصلت متأخرة). رغم الإصلاحات العديدة التي أحدثها في بنية المجتمع السوري (إعطاء المرأة حق الانتخاب) فقد وقع في شباك الحكم الدكتاتوري العسكري وكانت تنقصه التجربة السياسية، فكمّ أفواه الصحافة وخنق أصوات النقد وحلّ الأحزاب السياسية وأقام جهاز أمن كان يتجسس به حتى على وزرائه، واعتقل مئات من المعارضين وأصبح مادة للتندر والسخرية والنقد الجارح. وراح يعمل على التخلص من الضباط الذين ساندوه في انقلابه بنقلهم إلى مراكز بعيدة وكل هذا عجّل بسقوطه. مع هذا لم يسفك في عهد الزعيم قطرة دم واحدة.

الشعب العربي هو انقلاب شامل. الانقلاب لمحو الانقلاب الذي يحقق للشعب العربي في الأقطار الاشتراكية العربية والوحدة العربية».

إلا أن هذا الاستبشار والترحيب لم يدم طويلاً. ففي ٣٠ من أيار، أي بعد الترحيب بسبعين يوماً، أصدر الحزب بياناً شنّ فيه حملة شديدة على الدكتاتور الجديد متهماً إياه بتصرفات غير مسؤولة لا تليق بالحكم. ونسي عفلق أنه لا يتعامل مع سياسيين مدنيين، بل مع عسكري قليل الصبر على النقاش والجدال. فكانت صدمته الكبرى التي أثرت تأثيراً عميقاً على سلوكه السياسي التالي - عندما أصدر (الزعيم) أمراً باعتقاله مع لفيف من أعضاء حزبه وزُجوا في السجن العسكري بالمزّة. وفي زنزانته تلك كتب رسالته الشهيرة لسجانه مشترياً بها حريته ومعاهداً على اعتزاله العمل السياسي نهائياً[٣٢].

---

(٣٢) كتبها بخط يده وذيّلها بتوقيعه. سلّم الرسالة إلى العقيد إبراهيم الحسيني آمر سجن المزّة، فحملها هذا إلى حسني الزعيم. فأعطى بدوره الصحفيين صوراً منها فنشروها وذاع أمرها. ذكر العقيد الحسيني، وكان من أنصار الحزب، أن «عفلق» كتب في مبدأ الأمر رسالة مطولة يخطئ فيها تصرفاته وفلسفته في القومية جملة وتفصيلاً. وفيها من الذلّة والتخاذل ما ينفر منه من ملك أقلّ قدر من الكرامة. فثارت نفس (الحسيني) ونصح عفلق بإعادة النظر في محتواها لأن محتواها لا يليق بمقام رئيس حزب ففعل. واليك نص الرسالة البديلة:
دمشق: سجن المزة في ١١ حزيران ١٩٤٩
سيدي دولة الزعيم
إن هذه التجربة الأخيرة قد علمتني أشياء ونبهتني إلى أخطاء كثيرة. لقد انتهيت إلى أننا بحكم العادة بقينا نستعمل أسلوباً لم يعد يصلح في عهد الإنشاء والعمل الإيجابي. والحق أننا في قلوبنا وعقولنا أردنا هذا الانقلاب منذ الساعة الأولى ولا نزال نعتبر أن واجبنا في خدمته وتأييده، ولكن الأسلوب الذي اعتدناه طيلة سنين عديدة من المعارضة للانتداب والعهد السابق، هو الذي بقيت آثاره في كياننا وبعض تصرفاتنا وهو الذي أخفى عنكم يا دولة الزعيم حقيقتنا وأظهرنا بمظهر المعارض لعهدٍ وضعنا فيه كل آمالنا وصممنا على خدمته بتفانٍ وإخلاص.
سيدي دولة الزعيم
إني قانع كل القناعة بأن هذا العهد الذي ترعونه وتنشئونه يمثل أعظم الآمال وامكانات التقدم لبلادنا. فإذا شئتم فسنكون في عداد الجنود البنائين وإذا رغبتم في أن نلزم الحياد والصمت فنحن مستعدون لذلك.
إن هذه المجموعة من الشباب التي يضمها البعث العربي قد عملت كثيراً في الماضي لتكون قدوة في النزاهة والوطنية الصادقة، وإن ماضيها يشفع لها عندكم يا سيدي لكي تعذروا ما ظهر =

كان وقع هذه الرسالة على الأعضاء البعثيين شديداً وأصيب الجميع بذهول. ولم ينبر أحد ليجد لها نوعاً من دفاع غير (سامي الجندي)[٣٣] ولم يكن دفاعاً بالمعنى الحقيقي. فهو لم ينكر صحتها وأظهر زعيمه الحزبي بمظهر (الرجل الذي ناله من الانهيار العصبي والضعف النفسي المقدّر الذي جعله يمتثل لنصيحة (الحسيني) زاعماً أنه هو الذي زيّن لعفلق كتابة هذه الرسالة.

وجوبه عميد الحزب بثورة وبحملة شعواء تزعمها الشخصية الثانية في الحزب صلاح الدين البيطار نفسه. وكان هناك حديث حول محاكمة عفلق وإزاحته عن القيادة[٣٤].

وعلّق العميد (اللواء) مصطفى طلاس وهو بعثي على الحادث:

«إن المصيبة التى لطم الحزب وجهه عليها، لم تكن في الحبس وإنما من نتائجه. فقد انهار (ميشيل) عميد الحزب أمام حسني الزعيم. كان أحزن يوم في حياتي يوم طالعتنا الصحف بكتاب الاعتذار الذي وقعه عفلق للزعيم والذي بايعه فيه وتعهد له بعدم الاشتغال بالسياسة. حاولنا في البداية تكذيب

= منها من تسرع بريء، وإن وراء هذا النزق نفوساً صافية ومؤهلات ثمينة للخدمة العامة وما أجدر عهدكم أن يفتح لها مجال الفتح والانتاج.

أما أنا يا سيدي الزعيم، فقد اخترت أن أنسحب نهائياً من كل عمل سياسي بعد أن انتهيت بمناسبة سجني إلى أخطاء أورثتني إياها سنون طويلة من النضال القومي ضد الاستعمار والعهد السابق. وأعتقد أن مهمتي قد انتهت وأن أسلوبي لم يعد يصلح لعهد جديد، وأن بلادي لن تجد من عملي أي نفع بعد اليوم.

سيدي دولة الزعيم

أنتم اليوم بمكان الأب لأبناء البلاد ولا يمكن أن تحملوا حقداً لأبنائكم، ولقد كان لهذه التجربة تنبيه كاف ومفيد.

اتركوا لنا المجال لكي نصحح خطأنا ونقدم لكم البراهين على وفائنا وولائنا.

ميشيل عفلق

(٣٣) المرجع السالف، ص٥٤.

(٣٤) في العام ١٩٦٠ والشيء بالشيء يذكر، ألقى عبدالحميد السراج ورجال أمنه القبض على (فرج الله الحلو) رئيس الحزب الشيوعي اللبناني، وعرض عليه مقابل حريته أن يكتب رسالة اعتذار عن كتاباته ضد حكم الوحدة والانسحاب من العمل السياسي فرفض. وعُذّب تعذيباً شديداً ثم ذوب في حوض من حامض الكبريت، تمّ ذلك بمحضر من معاون رئيس المخابرات عبدالوهاب الخطيب، وهو الذي قص الواقعة فيما بعد.

النبأ. ثم جاءتنا الأخبار من اللجنة التنفيذية بدمشق أن الكتاب بخط يد الأستاذ ميشيل والإنشاء من صنعه والتوقيع توقيعه. ويا أرض انشقي وابلعينا! فبطن الأرض خير من ظهرها في مثل هذه الحالة. صارت مسألة التواري عن وجه القوم مسألة جدية. ماذا نقول للناس والأصدقاء؟ بماذا نجابه القوم؟ كيف نفسر؟ كيف نبرر؟ كيف نعتذر؟ وكيف نجادل والمسألة خرجت عن دور الأفلاطونيات وحلقات الدخان في مقهى البرازيل والهافانا ودخلت الفحص العملي؟ وبالذخيرة الحية؟ كيف ننطلق وعميد الحزب استقال من السياسة وقدمها للزعيم والناس تحب صداقة السباع لا الأرانب؟»[٣٥].

وبطبيعة الحال لم تستجب الأرض لنداء اللواء طلاس، ولم تنشق لتبلعه وإنما انشقت بعد أشهر قلائل لتبلع ذلك الذي امتهن الحزب الطليعي وأذلّ قائده. وتلاشت الضجة بالانقلاب الثاني الذي آذن بعهد الانقلابات الدموية. لأن اللواء سامي الحناوي فضّل سبيل التصفية الجسدية على الاعتقال والسجن. فقتل الزعيم ورئيس وزرائه على رصيف الشارع العام[٣٦]. ونشر الحزب بين أعضائه تعليلاً لهذا الانهيار الذي أصاب

(٣٥) مرآة حياتي، دار (طلاّس) للدراسات والترجمة، دمشق، الص ١٢٧-١٣٠. كان رئيساً لأركان الجيش في ١٩٦٨ برتبة لواء ونائب أول لوزير الدفاع، وهو من البعثيين الانقلابيين.

(٣٦) كانت بين كاتب هذه السطور وبين آل البرازي مودة وصداقة مكينة في بيروت (١٩٧٠) لاسيما بالأستاذ الطيب الذكر حسني البرازي (أحد رؤساء الوزراء في عهد الانتداب) وهو من الموالين اللاصقين بالأسرة الهاشمية. وكذلك بابن محسن البرازي (رئيس الوزراء في عهد حسني الزعيم) وبالسيد (حرشو) وهم قوميون كُرد لا ينكرون أصولهم ولم يكونوا بعيدين عن الحركات القومية الكُردية (وقد أيّد ذلك جورج حداد في كتابه: الثورات والحكم العسكري في الشرق الاوسط Revolutions and Military Rule in the Middle East ج٢، نيويورك ١٩٧١ جاء فيه ما نصه: «رئيس وزرائه البرازي هو من أصل كُردي ومن المهتمين بالحركة القومية الكردية). نقول: روى لي المرحوم حسني البرازي وقائع تلك الأيام رواية خبير مطّلع. ومما ذكره أن ابن عمه (محسناً) كان سكرتير الرئيس القوتلي، وكاتب خطبه وتصريحاته. وفي اليوم التالي من الانقلاب استدعاه حسني الزعيم. فذهب وكله يقين بأن مصيره الاعتقال لصلته بالقوتلي. إلا أن قائد الانقلاب فاجأه بتعيينه مستشاراً خاصاً، ثم أُسند إليه رئاسة الوزارة بعد توليه منصب رئاسة الجمهورية. وفي لبنان لازمني من آل البرازي (حرشو) وهو الذي أخذ بثأر ابن عمه محسن بقتله اللواء سامي الحناوي، الذي لجأ إلى بيروت بعد انقلاب الشيشكلي. قال لي: إنه ناداه وهو يسعى وراءه (لأنه أنِفَ أن يطلق الرصاص عليه مدبراً حسب قوله) فالتفت الحناوي ففاجأه حرشو برصاصتين قاتلتين وهو يقول «هذا لثأر محسن». وكان ذلك في ٣١ تشرين الأول ١٩٥٠. حُكم على حرشو بالإعدام وأُبدل بالحبس المؤبد. وبعد قضائه بضع =

زعيمهم لقي صداه الإيجابي عند الأعضاء الصغار، الذين أعمتهم الحماسة وغمّت على عقولهم مؤداه أن نبيهم وزعيمهم هذا فضّل التضحية بسمعته ومستقبله في سبيل الأعضاء الآخرين الموقوفين. لأن حسني الزعيم هدد بقتلهم جميعاً إن لم يقدم عميدهم اعتذاراً ويتعهد بالانسحاب النهائي من العمل السياسي. وقيل إن مصدر الإشاعة هو عفلق نفسه.

إن حسني الزعيم لم يكن دموياً. فكل ما أصاب خصومه من انقلابه أسابيع اعتقال قليلة، ولم يكن هناك أي سبب يدعوه إلى إراقة دم شباب أغرار لا وزن سياسي لهم. جاء حسني الزعيم كما جاء بكر صدقي قبله في العراق وكما سيجيء بعدهما من الانقلابيين العسكريين في البلاد الناطقة بالعربية، دون سمعة سياسية ومن دون خطة معينة لنظام حكم جديد.

قيل إن أحد مرؤوسيه من الضباط قال له إثر الانقلاب: «سيدي، كل سورية الآن في يديك!» فرد عليه بقوله مستغرباً: «يخرب بيتك! شو بدّي فيها؟» (ماذا أصنع بها؟)

قبل به السوريون لأنهم ماكانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، ولأنهم كغيرهم يأملون تغييراً إلى الأفضل. ولذلك كان بقاؤه مرهوناً بمساندة الضباط الذين استعان بهم على

= سنين أصدر كميل شمعون مرسوماً بإعفائه عما تبقى من محكوميته. قال لي حرشو إنه ما زال يجدّ في طلب الضابط (عصام مريود) الذي أشرف على عملية القتل. وروايته لي لا تختلف بكثير عن الرواية التي وردت في كتاب (الإعصار) الذي ألفه الملازم فضل الله أبو منصور (بيروت ١٩٥٩) واصفاً دوره. وكذلك ناصر النشاشيبي (ماذا جرى في الشرق الأوسط، بيروت ١٩٦١، الص٦١-٦٢)، قال: «إن قائد كتيبته المقدم أمين أبو عساف عصى أمر الزعيم بحركة الكتيبة المدرعة من القنيطرة إلى جبل الدروز، وزحف بها على (قطنه) جنوب دمشق حيث كان موعد انضمامها هناك بالحناوي. وفي الساعة الثالثة من صباح ١٤ آب ١٩٤٩ تحركت وحدات المدرعات وإحتل الملازم أبو منصور (الدرزي الديانة) قصر الرئاسة وألقى القبض على الزعيم، وكال له لطمة وراح يشبعه سباباً وتقريعاً لغدره بأنطون سعادة. وحمله في مدرعة إلى موضع فى ناحية المزة، حيث التحق به (المتآمرون الآخرون) الذين ألقوا القبض على محسن البرازي». قال النقيب (عصام مريود) الذي جلب البرازي للملازم أبو منصور إن قيادة الجيش قد حكمت على الإثنين بالموت وأن يجري التنفيذ بهما فوراً. فوُضعا أمام فرقة إعدام وأُرديا رمياً بالرصاص. و(بالمناسبة) كان أنطون سعادة قد هرب إلى سورية، بعد ان هوجم مقره في بيروت وعُثر على أسلحة، ومنحه حسني الزعيم حق اللجوء السياسي. إلا أنه ما لبث أن سلّمه إلى السلطات اللبنانية التي أحالته إلى محكمة عسكرية سريعة وأصدرت عليه حكماً بالموت نفذ فيه فوراً.

تحقيق انقلابه. نجح في البقاء لفترة قصيرة جداً خسر خلالها تأييدهم وكسب عداءهم بعنجهيته وغروره ومحاولته لتشتيت شملهم. في حين يتفق المؤرخون المرتزقة منهم وغير المرتزقة أن الغدر بـ(أنطون سعادة) رئيس الحزب القومي السوري وتقربه الشديد من الفرنسيين وإحباطه مشروع الاتحاد السوري - العراقي الذي كانت الطبقة الحاكمة العراقية تسعى إليه، فضلاً عن إصلاحات سريعة جداً صعب على السوريين هضمها كفصل دائرة الاوقاف عن متوليها وإلحاقها بالدولة فضلاً عن تقريبه المسيحيين والكُرد، كما أن قصة رشوة الملك فاروق بمبلغ خمسين ألف باون لقاء الاعتراف الرسمي به كانت على كل شفة ولسان.

الضباط السياسيون القوميون أمرهم في سورية كأمرهم في العراق، بزعم إصلاح الوضع والقضاء على الفساد نسفوا أسس الدولة القائمة وفق الأطر الديمقراطية بمدى أوسع وأعمق تأثيراً بكثير مما فعله الزعماء السياسيون وأحزابهم. يدخلون المرسح ويخرجون بتعاقب سريع يشبه انطلاق صواريخ الألعاب النارية يوم عطلة رسمية. يرتفع واحدهم من ظلام أسحم إلى القمة ليضيء فترة قصيرة وينشر شراراته مبدداً الظلام للحظة واحدة بألوان صارخة وأنوار متألقة عديدة وسط هتاف الجمهور المحتفل وحماسته، وتنفيساً لضيق جثم على صدره من حكام سابقين غلاظ قساة وفي أفضل الأحوال لا أباليون أنانيون، ما يلبث الصاروخ أن يتلاشى ليهوي من حالق عوداً بائساً محترقاً، فيعقبه آخر. أتوا وذهبوا بسرعة خاطفة الزعيم، الحناوي، الشيشكلي، الكزبري، السراج، النحلاوي، سلو، زهرالدين، الأتاسي، الحريري، الحافظ، جديد، أحد عشر عسكرياً من أشهر الانقلابيين العسكريين السوريين كل واحد منهم كان الرجل القوي المطاع ذات يوم في سورية قلعة القومية وحصنها الحصين.

لم يكن أحد يتوقع ما خبأه المستقبل بطياته لسورية المستقلة بعد الحرب. قذفت بها إلى جو الحرية والاستقلال وارتخت عنها قبضتا الأجنبي كما ترتخي كفا لاعب كرة السلة حين يقذف بها إلى الهدف. لم يكن أحد يستطيع التنبؤ ولو بعشر معشار ما آلت إليه مصائر أهلها ومما سيحصل. لكن لم يكن عسيراً أن تلحظ العيون النافذة أن جو الحرية والاستقلال هذا كان ملبداً بغيوم.

* * *

ليس من أغراض هذا الكتاب تناول تاريخ الجامعة العربية - أو جامعة الدول العربية كما دُعيت رسمياً - بأي تفصيل ولا فحص أعمالها وإنجازاتها أو مناهجها، بل

سيكون التصدي لها قاصراً على ما فعلته في سبيل القومية العربية وما خلّفته من آثار في النضال العروبي.

في أوائل العام ١٩٤٣ بدت كفة الحلفاء راجحة بتحقيقها انتصارات عسكرية متوالية هامة وانقلب الموقف العسكري إلى موقف هجمات كاسحة طوال ذلك العام - على جميع الجبهات ولاحت بوادر نصر نهائي لا شائبة فيه.

كان ساسة الوايت هول يدركون بأن سطوع شمس الانتصار النهائي سيرافقه أفول شمس الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عن أفقها. وبوجود الحليفين العظيمين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي معهم على طاولة مفاوضات السلم وتوزيع مناطق النفوذ، فبريطانيا ستكون شريكاً مساوياً في أفضل الأحوال وستكون معتمدة على الولايات المتحدة، التي قرر زعماؤها أن لا تكون هناك (ڤرساي) ثانية، وأن لا يتكرر سلوكهم الذي اتخذوه في ذلك المؤتمر الذي عقب الحرب العظمى الأولى، وقد تقدم ذكر ذلك بتفصيل. في الوقت عينه، لم تعد فرنسا إزاء بريطانيا ذلك الخصم القوي الذي نازعه السلطان وقتذاك وكان جلوسها على طاولة الثلاثة الكبار أشبه بجلوس عضو الأسرة الفقير على مائدة الأقرباء الأغنياء.

كان ساسة الوايت هول قد أدركوا منذ تحولت الحرب إلى صالح الحلفاء أن مكانتهم السابقة في البلاد الناطقة بالعربية ستواجه تهديداً حقيقياً من التوسع العقائدي السوڤياتي ومصالح الولايات المتحدة الاقتصادية بغياب الخصم الفرنسي، وأن عليهم أن يخترعوا نظاماً جديداً للشرق الأوسط يكفل لهم مكانتهم ومصالحهم ونفوذهم، وتفتق ذهنهم عن فكرة الجامعة العربية.

وأعدت التمثيلية في وقت سابق كثيراً لتأسيس الجامعة رسمياً، أعدها وزير الخارجية في مجلس العموم، وفي هذه القاعة كان أول مشهد للتمثيلية: إذ نهض عضو من محتلي المقاعد الخلفية back bencher وألقى سؤالاً تم تلقينه إياه قبلاً:

«أما في نية الحكومة اتخاذ خطوات لتحقيق تعاون اقتصادي وسياسي بين الدول العربية الشرق أوسطية أوسع وأكبر حجماً، كمقدمة لإنشاء اتحاد عربي في النهاية».

والجواب المعد سلفاً أيضاً كان هذا (ألقاه وزير الخارجية):

«تنظر الحكومة البريطانية بكثير من العطف إلى أي تحرك عربي يرمي إلى

تحسين أوضاعهم الاقتصادية والسياسية والثقافية، إلا أن المبادرة بأي مشروع من هذا القبيل يجب أن يصدر من العرب أنفسهم».

ونقلت وسائل الإعلام هذا التصريح مع تعليقات كثيرة[٣٧].

---

(٣٧) كتب الملك عبدالله في مذكراته ما يفيد أن الفكرة نبتت في رأس مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ورئيس الحكومة المصرية آنذاك، وأن نوري السعيد وافق عليها، فحظيت بتأييد أنطوني إيدن، ووصفها في مذكراته بـ(الجراب الذي أُدخلت فيه سبعة رؤوس) يقصد اليمن والسعودية والعراق وسورية ولبنان وشرقي الأردن ومصر، وأنها استمرار للانتداب مقنّع (أنظر النص الكامل في تاريخ الوزارات، ج٦، ص١٤٤) بعباراته الأخيرة، إلا أنه جانب الصواب في تعيين مخترع الفكرة بالأساس والأمر يحتاج منا إلى تفصيل:

في العامين (١٩٤٠-١٩٤١) وجد المحور له أنصاراً كثيرين في مصر بين أفراد الطبقة الحاكمة، وبحضور جيوش إيطالية جرارة في ليبيا مستعدة للهجوم على مصرلاحتلالها - إثر الاندفاع العظيم داخل الحدود بقيادة المارشال رومل. وبشعور البريطانيين القلقين أنهم بحاجة إلى حكومة موالية في مصر لتأمين خطوط مواصلاتهم تحول دون تعرض مؤخرتهم ومنشآتهم العسكرية إلى خطر دول المحور، وضعوا أملهم بحكومة وفدية يرأسها مصطفى النحاس، الذي كان فاروق قد طرده من الحكم. وفي الرابع من شباط ١٩٤١ قام السفير البريطاني (مايلز لامبسون) بأوامر صريحة باقتحام قصر الملك بعد إحاطته بالدبابات والجنود البريطانيين وواجه (فاروق) بإنذار: إما أن يدعو (النحاس) ويكلفه بتأليف حكومة، وإما أن يتنازل عن العرش أو يقبض عليه وينقل بالقوة خارج مصر. كان البريطانيون على سبق اتفاق مع زعماء الوفد الناقمين، كما كانوا يعتقدون أن الوفد يمثل الأغلبية الشعبية، ولم ير الملك بداً من عزل (علي ماهر) وتكليف (النحاس) بتأليف الحكومة. ثم توالت هزائم المحور وزال الخطر عن مصر تماماً ومعه تحول (فاروق) بعواطفه إلى الصف البريطاني وتحمس له إلى الحد الذي نقله إلى حالة من الوله والهياج الهستيري. فأسرع هذا الملك الفاجر الفاسق المختل، وبكل الفضائح الخلقية والعقد الجنسية وجشعه والرذائل الأخرى التي باتت حديث العالم كله، يتظاهر بالتقوى والمحافظة على شعائر الدين. وقد اتسعت آماله في السيادة لتشمل العالم الإسلامي عن طريق سيادة مصر على العالم العربي وبفضل الجامعة العربية. فأطلق لحيته، وصارت مسبحة الصلاة والذكر لا تفارق يده وحج إلى بيت الله الحرام، ولم تعد تفوته صلاة جمعة واحدة، وكان وهو الأرناؤوطي الأصل أول أولئك الحكام الذين حاولوا استحداث شجرة نسب تصلهم بالعترة النبوية، إلا أنه كان في حينه يعتمد على سلاح أمضى من هذا، هو سلاح المصاهرة.

كان أبوه الملك فؤاد يتيمن كثيراً بحرف (الفاء) وهو الحرف الأول من اسمه فسمى ابنه (فاروقاً) واختار لشقيقاته الأربع اللاتي ولدن بعده أسماء تبدأ بحرف الفاء أيضاً (فوزية، فائزة، فوقية، فائقة) وكن من الحسناوات. راح فاروق يحاول أن تكون فوزية لولي العهد الإيراني والثانية لولي عهد مراكش (الملك الراحل) والثالثة للملك حسين الأردني والرابعة للملك فيصل الثاني (بل بلغ جنونه بحرف الفاء أن أبدل اسم زوجه شهناز إلى اسم فريدة). ثم راح يستحث

كانت التطورات الإقليمية في البلاد الناطقة بالعربية تسابق بسرعتها نمو الخلافات وتضارب المصالح فيما بينها، وتأصل الشعور بالسيادة الإقليمية التامة بكل ما يحفّ بها من مظاهر الأبهة الدبلوماسية، من تبادل التمثيل الخارجي وعقد الاتفاقات الدولية والعضوية في هيئة الأمم المتحدة وسائر لجانها. ومما لا شك فيه أن استماتة القوميين العروبيين في تأكيد العروبة والدفاع عن هدف الوحدة الشاملة، لاسيما البعثيون منهم، كان واحداً من نتائج رد فعل لروح وطنية محلية واضحة في تلك الكيانات الحدودية التي خلقها الاستعمار لا لأحد من أبنائها يد في رسمها. وبدا من تحت طيات الرداء العروبي الوطن العراقي المتميز عن الوطن النجدي، وكلاهما يختلفان عن الوطن الأردني واللبناني.

وضعت مصر في مفاوضات الجامعة العربية أول حصان لها في ميدان سباق العروبة وبدت وكأنها تحتل المقام الأول فيه دون التنازل عن مصريتها. في حين أن الدولة التي كانت تضم أنقى العرب عنصراً هي الجزيرة العربية، وبقيت أقل من الأخريات في الاشتمال بعباءة القومية، وأضعف صوت في الهتاف لها، وإن قبلت مكرهة بالانضمام إلى عصبة تضم دولتين على الأقل يحكمهما عاهلان ينتميان إلى أسرة عدوة، كمظهر ولاء لبريطانيا أكثر من مظهر روح قومية أو صلات حميمة تشدها ببقية الأقطار العربية، والقول التالي هو لـ(باتريك سيل)[٣٨]:

«كانت المباراة بين العراق ومصر هي الملامح الغالبة لسياسة الشرق الأوسط بعد الحرب. كل واحد من هذين القطرين كان يريد احتواء قيادة العرب بحثاً عن أصدقاء وخلان بين الجيران. ومتوسلاً بحلفاء أقوياء خارج هذا الإطار. وقد بدا النجاح مرة تلو مرة وكأنه مرهون بالسيطرة على سورية».

= النحاس باشا على تحقيق الحلم المزدوج. لأول مرة في تاريخ مصر بدأ الحديث حول الوحدة العربية، والكل مؤمن بأن مصر ستكون زعيمتها بسبب كونها أكبر الأقطار مساحة وأكثرها سكاناً. وتمت لقاءات عديدة للنحاس باشا مع الحكام السوريين واللبنانيين والسعوديين واليمانيين والعراقيين وتبودلت المذكرات وانسحبت بريطانيا بهدوء من الميدان تاركة لمصر والعراق المهمة. أعجب ما في الأمر أن المفاوضات المصرية كانت تطلق على الجامعة المقترحة اسم (الوحدة العربية)، وهكذا كان حلم الوحدة العربية لزمن ما يتعلق تحقيقه بأربع زيجات! فشلت أولاها ولم يكتب للمشاريع الثلاثة الأخرى فرصة.

(٣٨) المرجع السالف: ص٢٨٢.

وقبل الطرفان أن تكون الجامعة وسيلة لغايته لتبدو فيما بعد مرسحاً لهذا الصراع. ولتبدو سورية مالكة مفتاح النضال في سبيل التفوق الإقليمي بين الدول الناطقة بالعربية(٣٩). كانت مشاريع الوحدة العربية الجزئية تطرح باسم القومية العروبية، وخصومها يحاربونها باسم القومية العربية! والجميع تنبع مجهوداتهم من مصالح شخصية صغيرة لا تعرف الأمة العربية وشعوبها عنها شيئاً وليس بين تلك الدعوات وبين الرأي العام في البلاد أية صلة، وكلها تبدأ باجتماعات سرية على الحدود... أو بسفرات خاصة، وقليلاً منها استخدمت الرسائل لأنها دليل يصعب دحضه بعض الشيء.

في الوقت الذي عارض عفلق وحزبه أي وحدة مع العراق باعتبارها تزيد فحسب من سيطرة الهاشميين وبريطانيا، وهي بالتالي تتناقض مع الاستقلال العربي التام الذي سُطر في منهاجه، نجده يرحب ترحيباً حاراً بالجامعة العربية ويعقد عليها الآمال الجسام ويعتبرها خطوة عملية نحو الوحدة المنشودة.

ليس هناك ما يثبت بأن البعث وغيره من القوميين ك(حزب الاستقلال في العراق) كانوا على علم بأن الجامعة العربية هي لعبة بريطانية. وكلهم ابتلع هذا الطعم بغباء السمكة وتفكير السلحفاة وبتسرع الأرنب لا مثيل له. لم يكن أحد من هؤلاء العروبيين المتحمسين للجامعة يراها على حقيقتها وأنها ما وجدت إلا لتفكيك بقية من الرابطة القومية ولتشجيع الانعزالية في الدول الناطقة بالعربية، ولتكون عاملاً لاشتداد حرصها على الحدود التي رسمها لها النفوذ الأجنبي «الاستعماري الإمپريالي»، بل لاستغلال عوامل خوف الأنظمة الديمقراطية ذات الحكم الفردي، بعضها اقتصادية وأعمال التجسس التي يقوم بها الأعضاء بعضهم على بعض. فضلاً عن الاعتداءات الحدودية والاشتباكات والتآمر المتبادل، فهي تستغرق مناقشات الأعضاء وتستدعي اجتماعات

---

(٣٩) عندما قام الحزب القومي السوري بإدخال الجزء الشمالي الغربي من العراق فضلاً عن قبرص ضمن مشروع سورية الكبرى كان هناك مشروع آخر لسورية الكبرى تبناه (عبدالله) بعد ان اتخذ له لقب ملك الأردن، وقد أعاد طرحه في ١٩٤٦ عندما وافق البريطانيون على منحه ذلك اللقب. لكن منافسيه العراقيين قابلوه بترويج مفهوم مشروع الهلال الخصيب (سورية والعراق) بطريقة عملية، أي بإتصالهم وشرائهم عدداً كبيراً من الساسة السوريين بالمال الوفير والهبات. وقدم الحناوي باسم (حزب الشعب الجديد) مشروعاً آخر كان السبب في سقوطه كما يقولون. وكل هذا أدى إلى اشتداد العداء والسخط داخل الجامعة وخارجها بين الدول الناطقة بالعربية العضوة فيها.

طارئة، كثيراً ما سميت اجتماعات قمة، أو اجتماعات تعقد عادة من أجل خلاف نشب بين زعماء وحكام أقطار الوطن العربي، أو تهديد أحدهم الآخر بحرب أو عدوان. ونادراً ما كان السبب خارجياً. وإذا كان كذلك بدت تلك الدول منقسمة على نفسها تعجز عن رؤية نقطة لقاء مجمع عليها، أو أن تتخذ موقفاً موحداً وإن حصل واضطر أحدها إلى مجاراة الأكثرية، فهي تفعل ذلك بنية مبيتة في عدم احترام توقيعها.

إن سجل الجامعة سجل شائن لا يشرّف العرب.

نصت المادة الثانية من ميثاقها على:

« التأكيد بأن الغرض منها هو صيانة استقلال الدولة المشتركة وسيادتها».

وحرّمت المادة الخامسة:

«الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة، إن نشب بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة وسيادتها أو سلامة أراضيها».

وتنص المادة الثامنة على:

«أن تحترم كل دولة من الدول المشتركة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام».

من هذه النصوص يتضح للقارئ كيف قتلت الجامعة العربية فكرة الوحدة. ومع ذلك بقيت الوحدة العربية عندها وعند أعضائها ذلك العجل المقدس الذهبي المعبود لا يُعطى علفاً، ولا يجرؤ أحد على قتله.

* * *

الإغفاءة الطويلة للحركة القومية في العراق انقطعت بقيام الأحزاب السياسية وإجازة خمسة منها بينها «الاستقلال العربي» الوحيد، وكان تأسيسها أشبه بمنحة لا نتيجة ضرورة وحصيلة ضغط شعبي.

كانت تجربة ممارسة الحريات السياسية عن طريق إباحة العمل السياسي والنشاط الحزبي جزءاً من السياسة الجديدة التي جاءت بالجامعة العربية، لا نتيجة ضرورة مرحلة أو ضغط شعبي. بل بدا الأمر من أوله إلى آخره فهو لا أكثر من هبة نزلت عنها الطبقة الحاكمة. هبة مشروطة بحسن السلوك أمسكت الجهة الواهبة بخيوطها كلها بجملة من المراسيم والقوانين الاستثنائية بجهاز أمني محكم عركته التجارب التي ضمنت لها استعادة تلك الهبة في حالة إساءة استخدامها أو الخروج عن الخطوط المرسومة لها.

إني لأزدري بكل ما عرضه الكتاب والمؤرخون والمتأخرون من أسباب لإطلاق حرية العمل السياسي الجماهيري، تظهر فيها الطبقة الحاكمة العراقية وكأنها أُرغمت إرغاماً على ذلك، لاسيما أولئك الذين عزوها إجمالاً إلى ضرورات ودواع تتعلق بالجو السياسي في الشرق الأوسط عموماً وفي البلاد الناطقة بالعربية على وجه الخصوص. ومن السهولة بمكان أن تخترع علل وأسباب يبدو بعضها منطقياً ومعقولاً لعمل سياسي، ثم بقدر ما يكون صعباً عليك استقصاء العلل والأسباب التي كانت تستدعيه قبل أن يتحقق.

بعد زوال شبح الفاشية والنازية كان على العالم الديمقراطي أن يحسّن صورته ليجني ثمرات نصره. إزاء هجمة العقيدة الماركسية التي كانت تنشرها دعاية سوفياتية بلغت أعظم حد من الإتقان بتقديمها الحياة السوفياتية للعالم جنة أرضية. وهذا هو الذي أخفى اليد البريطانية في قيام النشاط الحزبي العلني في العام ١٩٤٦، وهو الذي جعل إنجازه يتم على يد سياسي تقليدي مثقف جداً يؤمن إلى حد كبير بالدستورية ولم يؤثر عنه في رئاسة الحكومة سابقة خرق فاضح للدستور هو توفيق السويدي.

مثل حزب الاستقلال الاتجاه القومي العروبي بين بقية الأحزاب المجازة[٤٠]

---

(٤٠) كان كاتب هذه السطور واحداً من مؤسسي أحد تلك الأحزاب وقد عُرف بحكم موقعه هذا من رئيسيْ حزبين مدى الجهود البريطانية في دفع الطبقة الحاكمة إلى هذا التنازل، الذي بدا وكأنه يرمي إلى تكليف رئيس حكومة تكون أولى واجباته إنهاء الأوضاع الاستثنائية (كما نُعتت في حينه) وكيف أبى كل من كُلّف بذلك غير (السويدي). أُجيزت الأحزاب الخمسة في يوم واحد هو الثامن من شهر نيسان، وأولها (حزب الأحرار) الذي نمّ منهاجه على أنه حزب ليبرالي دستوري محافظ برئاسة سعد صالح وضم عبدالعزيز السنوي ونوري الأورفلي وعبدالقادر باش أعيان ومحمد فخري الجميل وحسين النقيب وكامل الخضيري والمحامي عباس السيد سلمان، وكلهم من ذوي الأسر العريقة الغنية. وثانيها (الحزب الوطني الديمقراطي وهو جماعة الأهالي السابقين تقريباً) وأبرز مؤسسيه (كامل الجادرجي وحسين جميل ومحمد حديد وعبدالكريم الأزري ويوسف الحاج الياس المحامي، وعبدالوهاب مرجان وعبود الشالچي وصادق كمونة). وثالثها (حزب الشعب) وهو حزب اشتراكي ديمقراطي ينزع إلى الماركسية، ومن أبرز مؤسسيه المحامون (عزيز شريف ويضم نعيم شهرباني (يهودي) وتوفيق منير، وعبدالأمير أبو تراب، وجرجيس فتح الله (مسيحي) وإبراهيم درگزلي ووديع طليا (مسيحي ونقابي بارز) [هكذا شاء الحسني أن يعرف أعضاء الحزب بالطوائف التي ينتمون إليها في طبعته الأخيرة ولم تكن دناءته قد بلغت هذا المستوى في طبعاته السابقة]. كان من المقرر أن يؤلف من هاتين المجموعتين حزب واحد، لكن المنافسة على الزعامة وعلى صيغ معينة في المنهاج أدت إلى تقديمهما طلبين =

واسمه يشير إلى أن مؤسسيه يرفضون الإقرار بأن العراق مستقل ويصرّون أنه ما زال تحت انتداب بريطاني مقنّع، أو أنهم في أفضل الأحوال يرفضون الأخرى. على أنه تقدم إلى الجمهور بمنهج إصلاحي معرباً فيه عن أهدافه القومية بتواضع يقلّ كثيراً عن الدعوة إلى الوحدة الكبرى. فقد وجدت المادة الثالثة فيه أن تقوية الجامعة العربية «سيكون عاملاً في تكوين نظام اتحادي بين البلاد العربية فحسب»، لكنه لا ينسى قط تراث نادي المثنى ومؤسسيه الفكريين الذين كانوا وراء حركة مايس. فتراه يصرّ على أن (يكون التعليم مرتكزاً على دعامة التقاليد العربية الثقافية أولاً، وعلى الحاجات العملية التي يتطلبها (البعث الجديد).

وباستخدامه كلمة البعث هنا نستنتج أن أفق حزب الاستقلال يمتد خارج الحدود العراقية، رغم أنه يتحدث عن (الأمة العراقية) متجنباً صيغة (الأمة العربية). ولا عجب فقد حرص واضعا المنهاج على اجتناب أمثال هذه الصيغ القومية ذات اللون الصارخ التي تزعج حكام العراق وتذكرهم بحركة مايس وربما أرادوا تبديد كل شك، فأوردوا نصاً لا موجب له في منهاج إصلاحي - أدبياً كان أم سياسياً. إلا إذا كان القصد من وضعه دفع شبهة، أو تبديداً لشكوك مستريب، تجده في الفقرة الثانية من المادة الرابعة:

= منفصلين. وتبين من المنهجين رغم ذلك وبما اشتهر عن بعض المؤسسين أنهما لا يؤمنان بالكفاح الطبقي، بل كانا أقرب إلى الاشتراكية الفابية بلون ماركسي صارخ - مما جعلهما هدفاً لهجوم الشيوعيين العنيف فيما بعد. من أبرز مؤسسيه عبدالفتاح إبراهيم ومحمد مهدي الجواهري. وخامس الأحزاب المجازة وهو حزب قومي عروبي صرف بما يُستفاد من منهاجه وشخصيات مؤسسيه ومن أبرزهم (محمد مهدي كبة، والمحامون داود السعدي وخليل كنة، وإسماعيل الغانم وفاضل المعلّة وعبدالرزاق الظاهر) (لسبب معروف لم ينضم إلى الهيئة المؤسسة المحاميان فائق السامرائي وصديق شنشل إلا أنهما كانا واضعي منهاجه) ومعظم هؤلاء كان من الناشطين في نادي المثنى المنحلّ وأنصار حركة مايس المعتقلين بعدها.

ورفضت السلطة إجازة (حزب التحرير) بوصفه واجهة للحزب الشيوعي، كما رفضت طلباً سابقاً بتأسيس ما دُعي بـ(حزب البعث العربي) تقدم به الدكتور سامي شوكت (زعيم الفتوة سابقاً) بحجة أن أكثرية مؤسسيه هم من الإقطاعيين ورؤساء العشائر. لكنه فاز مع ذلك بإصدار صحيفة بعنوان (البعث القومي) تحولت بعد زمن إلى اسم (البعث). ومن العسير علينا أن نقطع برأي حول ما إذا كان اختيار هذا الأسم مجرد توارد خواطر، أو هو محاولة تصور لوجود منافسة، إذ كان على حزب عفلق أن ينتظر سنتين على الأقل ليجد له موطن قدم في العراق، وبقي حزبان ينشطان سراً هما الحزب الشيوعي العراقي وحزب التحرير الكُردي (رزگاري كورد).

«وكما يقدس الحزب قوميته ويعتز بها فإنه كذلك يحترم القوميات الأخرى ويستنكر كل استغلال عنصري».

وعن قضية الوحدة التي تجنب المنهاج التطرق إليها، فإن رئيس الحزب يؤكد في مذكراته:

«ان الحزب يسعى إلى تحقيق أمنية العرب الكبرى وأملهم المنشود في توحيد البلاد العربية التي جرها الاستعمار وشتت شملها»[٤١].

ومن ماضي مؤسسيه وأقطابه وتصرفاتهم السابقة وضلوعهم في حركة رشيد عالي وفق مجمل نشاطه خلال السنوات الثماني التي تمتع خلالها بإجازة العمل العلني، بدا طابع الشوفينية القومية فيه واضحاً. ووصفه (الچادرچي) بأنه حزب دكتاتوري يؤمن بالاشتراكية الوطنية بالمفهوم الفاشي، متطرف في قوميته[٤٢].

وورث حزب الاستقلال مفهوم نادي المثنى في ربط القومية العربية بالدين الإسلامي. وقد عبر أحد أقطابه (صديق شنشل) عن هذا في أثناء حديث له مع أحد المؤلفين قال له[٤٣]:

«إن الفصل بين المجتمع العربي وبين الإسلام عملية مستحيلة بحكم التكوين التاريخي للعرب والمواطنين من غير العرب في الوطن العربي، ولذلك أصبح من مهمة الحركة القومية الإنطلاق نحو تكوين حركة لا تدعو إلى الانفصال عن الإسلام ولا تتخذ منه وسيلة للتعصب الديني والطائفي أو الإقليمي».

وانتهى الحزب بعد سنتين فقط من إجازته إلى أن يصير ورقة مساومة بيد السلطة متى ما أرادت كسبه إلى جانبها دعته إلى وزارة، أو دفعت إليه بمقاعد محدودة جداً في المجالس النيابية، وأعطته الحكومات صك غفران كامل لما تقدم من ذنوب أعضائه وتأخر، عندما أبقته وحده يعمل علناً ولم تسحب إجازته، مثلما فعلت بحزبي الشعب والاتحاد الوطني. وأرغمت حزبي الأحرار والوطني الديمقراطي على تجميد نفسيهما في العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨ على التوالي.

---

(٤١) محمد مهدي كبة: المرجع السالف، ص١١٢.

(٤٢) مذكرات كامل الچادرچي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، بيروت ١٩٧٠، دار الطليعة، ص٢٠٥.

(٤٣) عادل غفوري خليل: أحزاب المعارضة العلنية في العراق، المكتبة العالمية، بغداد ١٩٨٤، الص ١١٧-١١٨. كان المؤلف قد أجرى المقابلة في العام ١٩٧٧.

جاء ذكر الحزب في مذكرات الشاعر محمد مهدي الجواهري بهذا الشكل:

«إنصافاً للتاريخ مقروناً بالأسف. كان حزب الاستقلال ستاراً كثيفاً على من اندس فيه باسم القومية والقوميين من المشبوهين ومن أجهزة الأمن ومن المرتزقة ممن جعلوا منه طرفاً في انتكاسة وثبة كانون ضد معاهدة پورتسموث البغيضة»[٤٤].

---

(٤٤) ذكرياتي، دار الرافدين، دمشق، ج١، ص٣٩٤. على أن الجواهري لا يجد غير الكلمة الطيبة بحق رئيسه (محمد مهدي كبه). فيقول عنه بالحرف الواحد: «إنه من قلة من رجال السياسة في العراق تُستلّ في أمانتها ونزاهتها من كثرة هي عبء ثقيل على التاريخ وعلى المجتمع». وإذا كان حقاً ما وصفه به الجواهري الشبهات الخلقية، إلا أن النزاهة والأمانة والعفة لا تعوضان لرجل السياسة عن الحصافة وبعد النظر. فمع أننا لا نتفق مع الصديق الشاعر المرحوم بوصفه معاهدة پورتسموث والوثبة الشهيرة، التي فقد فيها شقيقه جعفراً، إلا اننا نعجب لسذاجة سياسية في رئيس حزب الاستقلال هذا فاقت كل سذاجة عندما قبل بمنصب وزاري في حكومة الصدر التي جاءت بعد استقالة (صالح جبر) التي جاءت للتهدئة. وأصدر حزبه بياناً يدعو فيه إلى إيقاف المظاهرات بعد إلغاء المعاهدة وانتفاء الغرض من الاجتماع الجماهيري؟

لكن ماذا عن معاهدة ١٩٣١ الباقية؟ وهي أثقل شروطاً بما لا يقاس عن معاهدة پورتسموث - وكيف استطاع حزب الاستقلال العيش في ظلها شريكاً؟

كان حزب الاستقلال، وهو الحزب المجاز الوحيد ساعتئذ، قد نحا هو وصحيفته إلى التنديد بها. إلا أنه ما لبث أن شارك في محاولة إلغائها بعلّة أن الغرض انتفى منها، مع أن منهاجه ينص على ما يمنعه من القبول أو الرضا بأي معاهدة تنتقص من استقلال البلاد.

وأما عن رأيي في وثبة كانون وفي المعاهدة التي أحبطتها فقد سبق لي وأجملته في كتابي: (آراء محظورة في شؤون عراقية معاصرة، ستوكهولم ١٩٩٥) ودونك خلاصة له في الص ٤٢-٤٦:

«في العام ١٩٤٨ كان ضباب الحرب الباردة قد غطّى أو كاد أفق السياسة العالمية، وشعرت حكومات عديدة بضرورة تعيين مواقفها من المعسكرين المصطرعين: الدول الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفياتي والدول السائرة في ركاب الغرب أو تحت نفوذه بزعامة الولايات المتحدة. وقد حاول بعض دهاقنة السياسة تلك المحاولة الفاشلة لتغطية انتماءاتهم إلى هذا المعسكر أو ذاك باختراع تكتل وهمي سموه بكتلة - دول عدم الانحياز - في تلك الفترة. وبسبب من هذه الحرب الباردة أو لأن المادة (١٠٣) من ميثاق الأمم المتحدة أوجبت إعادة النظر في جميع المعاهدات غير المتكافئة المعقودة سابقاً بين الدول الاعضاء. بدأت المفاوضات بين العراق وبريطانيا حول إلغاء معاهدة ١٩٣٠ وإحلال معاهدة جديدة (متكافئة) محلها. وقد رأينا كيف بنى كثير من الساسة العراقيين رصيدهم الوطني والقومي وارتفعوا إلى مراكزهم الرفيعة على أساس معارضتها أو تعديلها أو العمل على إلغائها. وورث الجيل الواعي الجديد (الإنتلجنسيا) ذلك السخط عليها وعلى واضعيها ووصمهم دوماً بالخيانة والتفريط بمصالح البلاد. أدرك هؤلاء الساسة أن مشروع أية معاهدة جديدة ومهما كان شكلها ستستغله المعارضة ضدهم. =

ساهمت الأحزاب المعطلة والسرية في هذه الحركة التي سُميت بالوثبة. ووقفت موقف استنكار وسخط من سلوك حزب الاستقلال، لاسيما عندما أصدرت حكومة الصدر مرسوم الأحكام العرفية لقمع التظاهر.

لم يكن حزب الاستقلال يتمتع بجماهيرية واضحة وبقيت فروعه القليلة في المدن العراقية الكبيرة (مراكز المتصرفيات) كالموصل وكركوك والبصرة والرمادي فروعاً رمزية قاصرة على أعداد قليلة من قوميي حركة مايس والمعتقلين، وهم خليط من أبناء الطبقة

= فبريطانيا ماتزال في نظرهم تلك الدولة الإمپريالية وأي معاهدة معها هي معاهدة مشبوهة، وبمنطق بسيط قوي وهو أن أي معاهدة بين دولة عظمى ودولة صغيرة لا يمكن قط أن تكون معاهدة متكافئة.

ذكر بعض المؤرخين من أسباب الثورة على المعاهدة (وهي ما سمي بوثبة كانون) أن حكومة صالح جبر لم تنشر بنود المعاهدة الجديدة على الرأي العام. أما أنا فلا أرى في هذا تعليلاً مجدياً. فسواء في الأمر أنشرت أم لم تُنشر، كان الرأي العام العراقي قد هُيّئ لمقاومة أية معاهدة جديدة مع البريطانيين. فللقوميين العروبيين بزعامة حزب الاستقلال والشيوعيين والتقدميين الذين يقفون في صف المعسكر الإشتراكي تعنّ تلك الفرصة النادرة، أولهما لإظهار مدى وطنيته وحرصه على العداء التقليدي للاستعمار. وثانيهما لأن الاتحاد السوڤياتي كان يرى في أي معاهدة مشابهة مجرد محاولة لتطويقه والإخلال بميزان الحرب الباردة (كانت الأحزاب الشيوعية في معظم الدول النامية والحديثة الاستقلال تتأثر بخطى سياسة الاتحاد السوڤياتي والحزب الأم). واتفق الطرفان في العراق على أن إعلان الثورة على المعاهدة الجديدة يعني كسباً جماهيرياً لهما أيضاً ولحقت بهما الأحزاب الأخرى تأكيداً لوطنيتها. إن الذي يقرأ مسودة المعاهدة اليوم لا يجد فيها غير معاهدة حلف أقلّ التزامات بكثير من تلك المعاهدات والروابط السياسية التي بقيت حتى العام ١٩٨٩ تربط أكثر من عشر دول أوروبية وغير أوروبية كاملة السيادة بعجلة الاتحاد السوڤياتي، وكلها دول أعضاء في الأمم المتحدة. هذه المعاهدة التي فجّرت الدماء في شوارع بغداد وشيعنا خلالها أرواحاً طاهرة بريئة بكيناها ووضعناها وما زلنا في قائمة أشرف الشهداء، إنما كانت في الواقع ضحايا الحرب الباردة والنزاع السياسي المرير بين الشرق والغرب، ونتيجة التقاء التوجه القومي العروبي بالفكر الماركسي المشايع للاتحاد السوڤياتي في وقت من الأوقات باتحادهما في وجهة النظر إلى النفوذ الغربي. كان اعتبار الاتحاد السوڤياتي دولة إمپريالية على نمط خاص من قبيل الكفر والإلحاد السياسي، إذ لا أحد يدري بأن ما كانت تعانيه شعوب هذه الإمبراطورية يفوق بكثير معاناة الشعوب الأخرى الواقعة ضمن نفوذ الامپرياليتين البريطانية والفرنسية. ومن الجدير بالذكر هنا أن العراق أدخل في حلف المعاهدة المركزية قبل أشهر من نهاية أمد معاهدة ١٩٣٠ بدون ضجة ولا وثبة، وهو الحلف الذي فرض على العراق قيوداً والتزامات تفوق بكثير معاهدة پورتسموث التي ألغاها دم (٢٥) قتيلاً و٧٧ جريحاً في العام ١٩٤٨.

المتوسطة والعليا أو الملاك وعدد من المحامين ليس فيهم تمثيل واضح للعمال والفلاحين والكسبة وصغار الموظفين، إلا أنه كان يمتلك رصيداً جيداً في أوساط الطلاب حتى كاد نشاطه الملحوظ يكون قاصراً على العاصمة.

وحاول أقطاب الحزب وموجهو سياسته بكل قواهم أن ينفوا عنه وصمة النازية والفاشية التي كانت الفئات السياسية الأخرى تستطيب إلصاقها به كلما خطر ببالها أن تغمز من قناته. وبدت تلك المحاولة بعدد من الافتتاحيات في جرائدهم الثلاث (لواء الاستقلال واليقظة والفجر الجديد) لكنه لم يحاول قط التشبث بالعلمانية وحدها وتقليل اعتماده على ربط القضية القومية بالإسلام[٤٥]. وقد قاطعته الأقليات العنصرية والدينية ولم يحظ بشعبية كبيرة عند الشيعة، رغم أن رئيسه كان شيعياً.

الى جانب التهمة الشوفينية التي خرجت من مصانع الأحزاب اليسارية. إتُهم حزب الاستقلال بالرجعية، وتلك تهمة مهيأة حاضرة لا يتطلب منك إثباتها ويكفي لإقناعك بها جولة قصيرة في ماضي وسيرة كل عضو بارز فيه. فالمناهج لا تعطي صورة حقيقية لنوايا الحزب وأهدافه المضمرة، وهذا ما تعوده العراقيون منذ إنشاء الأحزاب ومنذ أن اعتادت الحكومات غبّ تشكيلها نشرَ مناهجها. وفي باب الدفاع عن قومية «الاستقلال» ضد من وصفها بالرجعية يقول السيد كبه:

> «إن حركتنا القومية هي حركة بعث وتجديد، ترمي إلى خلق الأمة العربية خلقاً جديداً بإفراغها في مصهر العروبة المخصبة، وتنقيتها مما علق بها من أوضار وأدران لتتجلى مواهبها وخصائصها الخلقية الكامنة ولتساهم في استكمال بناء المدنية والحضارة كما يتطلبه العصر الحاضر، فتؤدي رسالتها القومية في القرن العشرين كما أدتها في القرون الماضية»[٤٦].

تلك مهمة ضخمة جداً، لاسيما أنها أخذت على عاتقها عمليةَ «خَلقٍ» وأناطت بها حزباً صغيراً محدوداً قد يتم القضاء عليه بتوقيع على ورقة لا تستغرق كتابته غير ثوان وطبقاً لما جرى مع حزبين آخرين اقوى منه وأكثر جماهيرية. ثم بمن كانت عملية «خلق الأمة العربية خلقاً جديداً ستتم؟» أبمثل أولئك الحزبيين الذين انطلقوا في العام

---

(٤٥) استقال العضو المؤسس المسيحي الوحيد من حزب الاستقلال ولم يؤثر عن هذا الحزب تسجيل عضو واحد كُردي أو مسيحي.

(٤٦) كبة: الحركة القومية وأهدافها، دار دجلة، بغداد ١٩٤٧، ص٣٤.

١٩٤٧ بهجوم كاسح على كلية من كليات بغداد وسببوا إلغاءها؟[٤٧] أم أولئك الذين أُطلِقوا من مقر ذلك الحزب وبمعونة رجال الأمن لاقتناص «المحرضين والمشبوهين» على إثر مظاهرات ١٩٤٨؟

* * *

أقبل عام إباحة النشاط الحزبي وقد نالت الأقلية الكُردية العظمى والأقلية اليهودية والآشورية كلٌ حصتها من التعصب القومي العربي.

ومر زمن بدا طويلاً رغم قصره على ضياع الشكوى الآشورية الصغيرة في أروقة عصبة الأمم ولجانها العديدة وانطوت معها إلى الأبد محاولاتها الزائغة المفتعلة في إنقاذ الآشوريين بإخلائهم من العراق وإسكانهم في مواضع قصية عن وطنهم. تارة في البرازيل، وأخرى في غيانا البريطانية المجاورة. وثالثة في أفريقيا. وانتهى الأمر في غضون العامين ١٩٣٤-١٩٣٥ بنزوح قسم قليل إلى سورية تم قبولهم بموافقة سلطة الانتداب الفرنسي[٤٨].

---

(٤٧) أُسست كلية الملك فيصل في ١٩٤٥ لإكمال الدراسة الثانوية باختيار الطلاب المبرزين من أبناء الطبقة العليا أو العريقة وسُميت بالكلية تجاوزاً ولإعطائها أهمية خاصة، لكن أساتذتها ومربيها كان معظمهم من ذوي الأفكار التقدمية واليسار الناشطين سياسياً. ولطالما انطلقت منها تظاهرات عنيفة في مناسبات عامة، كالتظاهر لقضية فلسطين والوثبة وما إلى ذلك. في العام ١٩٤٨ نظم القوميون الاستقلاليون بالتعاون مع أجهزة الأمن والإخوان المسلمين هجوماً على الكلية. واقتحموا القسم الداخلي حيث يعيش الطلاب وهم مسلحون بالعصي والهراوات فأهووا على الحاضرين منهم بها وحطموا المقاعد والخزانات والأسرّة وكل ما هو قابل للإتلاف وهم يهتفون (الله غايتنا). وعلى إثر ذلك صدر قرار من وزارة المعارف بإلغاء الكلية وتوزيع طلابها على المدارس الثانوية. أكد لي أحد أساتذة الكلية وهو صديق حميم أن السلطة التي ضاقت ذرعاً بالكلية هي التي سمحت بالهجوم ولم تحرك قوى أمنها لوقف التدمير والاعتداء، إذ إنها كانت بحاجة إلى مبرر لإلغائها. لمعرفة درجة الوعي التي كانت تسود تظاهرات ١٩٤٨ سأستعين بالمجموعة الإحصائية السنوية العامة التي تنشرها وزارة الاقتصاد للعام ١٩٤٧ وفيها بلغ مجموع سكان العراق بحسب الإحصاء العام الذي جرى تلك السنة (٤٧٩٩٥٠٠- ربما زاد في العام ١٩٥١ على خمسة ملايين بقليل) إلا أن مجموع طلاب المعاهد العالية المركزية في بغداد لم يكن يزيد في العام ١٩٤٦ عن ٤٠٠٠ طالب وطالبة.

(٤٨) في تموز ١٩٣٤ أبلغ الوزير المفوض الفرنسي ببغداد الحكومة العراقية موافقة حكومته على استقبال (١٨٠٠) لاجئ آشوري راغب في ترك العراق، وبدئ بعمليات التسفير في الشهر التالي حتى منتصفه، وتم إسكانهم في (٣٢) قرية تم إعدادها لهم بالتعاون مع الذين لم يعبروا الخابور في آب ١٩٣٣ على ضفة الخابور الشرقية، إلا أن القسم الأعظم بقي في العراق رغم ذلك. =

وبدت مذبحة اليهود في بغداد إثر حركة مايس كذلك أثراً من الماضي البعيد - ذكرى سيئة في أفضل الأحوال تشيع الرهبة والقرف في نفوس هذه الأقلية كلما قامت مظاهرة تأييد لفلسطين وتنديد بالصهيونية. إلا أن المسألة الكردية كانت مسألة المرحلة الراهنة. واحدة من القضايا القومية المركزية على الصعيدين الحكومي والسياسي المحلي، إذ لم يمض على قمع ثورتهم السابقة الأخيرة غير عام واحد، ونزوح ألف من محاربيها وأهاليهم إلى إيران ومساهمتهم الفعالة في إقامة الجمهورية الكردية ذات الحكم الذاتي في مهاباد[٤٩]. وإبقاؤهم هناك عنصر تهديد أمني خطير كما وصف في حينه أدى إلى إحياء العمل بميثاق سعد آباد، ومرابطة قوات كبيرة من الجيش العراقي على الحدود الشمالية الشرقية.

وساهمت الأقليتان المسيحية واليهودية بدرجة محدودة في الأحزاب الديمقراطية الثلاثة ونأتا عن حزب الاستقلال والأحرار، إلا أن نسبة الانخراط في صفوف الحزب الشيوعي السري كانت اكبر بكثير من النسبة بين عددها وبين مجموع السكان العام. والأمر يصدق على الأقلية الكُردية أيضاً وقد وجدنا بينهم من بلغ مراكز القيادة في هذا الحزب.

لكن كان للكُرد تنظيماتهم السياسية القومية الخاصة بمناهج ومفاهيم تشيع فيها الروح الديمقراطية وقد اتجه بعضها نحو اليسار. وتلوّن بعضها بألوان ماركسية صارخة. وتلك ردود فعل طبيعية ازاء الدعوة القومية العروبية المتجاهلة الواقع الكردي وروح العصر والوجود القومي الكردي. بعد انهيار المقاومة المسلحة في ١٩٤٥، بفضل التدخل البريطاني، دبّ الانحلال في حزب (هيوا : الأمل) الذي ساند الثورة ودعمها وانشعب هذا الحزب السري إلى مجموعات صغيرة لا هدف لها ولا نهج، وانضم إلى بعضها عناصر يسارية لتؤلف حزباً شيوعياً كُردياً باسم (شورش: الثورة) الكردي. عندها هرع إليه القوميون الكُرد والآخرون فأُخلي الميدان لحزب (التحرر الكردي = رزگاري

= وصُفّي مخيم اللاجئين في الموصل وأُعيد شاغلوه إلى قراهم. واستمر الآشوريون يوردون للبريطانيين حاجتهم من قوات الليفي المستخدمة لحراسة المطارات والقواعد الجوية إلى ما بعد نهاية الحرب العظمى.

(٤٩) عين ملا مصطفى البارزاني قائد ثورة ١٩٤٥ قائداً عاماً لجيش الجمهورية الكردية، كما أنيط بالضباط العراقيين الذين التحقوا بها قيادات هامة (للاستزادة راجع ترجمتنا وتعليقاتنا على كتاب ويليام إيگلتن: جمهورية مهاباد، بيروت ١٩٧٢، دار الطليعة).

كورد)[٥٠]، الذي قام على أنقاضه الحزب الديمقراطي الكردستاني في ١٦ من آب ١٩٤٦ متزامناً تقريباً مع إجازة الأحزاب العلنية. وقف القوميون العرب أبداً موقفاً مؤسفاً يصعب على الفهم من مطالب القوميات الأخرى التى لا تدعي العروبة، ضمن ما أطلقوا عليه عبارة (الوطن العربي الكبير) وعلى وجه التخصيص موقفهم من كُرد العراق والكُرد عموماً. فقد أنكروا عليهم ما أرادوه لأنفسهم ونسوا وهم يشنون حربهم على التسلط السياسي - الاقتصادي الأجنبي أنهم يمارسون ضمن النطاق المسموح لهم عين التسلط على الكُرد والأقليات الأخرى. يسمون أولهما استعماراً، ولا يرون في الثاني استعماراً وتسلطاً. ولا يقفون على حجة فيزعمون الأصل العربي للقبائل الكردية كافة[٥١] تارةً ويدفعون مطالب الكُرد القومية برابطة الأخوة في الدين والتاريخ تارة أخرى. وينسون ولاسيما مثقفوهم ومفكروهم أن إلصاق كُردستان العراقية وربطها بسرج دولة العراق كان

(٥٠) في أوائل العام ١٩٤٤ نشر حزب رزگاري كُرد منهاجه ببيان هذا نصه:
أولاً: إن أسمى غايات الحزب هي توحيد كردستان الكبرى وتحريرها، ولما كان الحزب قد تأسس في كردستان العراقية فنحن نناضل من أجل صيانة العراق من النفوذ الإمپريالي وحمايته من الحكومات الرجعية، التي ما زالت واحدة من العقبات القائمة في سبيل حق تقرير المصير.
ثانياً: العمل من أجل تحقيق الإدارة الذاتية لكُردستان العراقية، باعتبارها خطوة هامة نحو حق تقرير المصير القومي الكردي.
ثالثاً: النضال لوضع حد نهائي لكل أنواع الاضطهاد والتمييز العنصري التي يعانيها الكُرد والأقليات الأخرى.
رابعاً: العمل على إقامة وتقوية العلاقات مع الأحزاب والمنظمات الكُردية الأخرى خارج العراق بهدف التنسيق وتوحيد الجهود لتحقيق الغاية الأسمى في حق تقرير المصير القومي والتحرر النهائي.
خامساً: العمل من أجل إحداث إصلاح جذري للمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بتأمين ممارسة الحقوق الديمقراطية وعن طريق رفع المستوى الزراعي والصناعي ونشر التعليم وإحياء التاريخ والأدب الكُرديين.
سادساً: تعميم استخدام اللغة الكُردية في المدارس والدوائر الحكومية في سائر إقليم كُردستان.
سابعاً: بذل الجهود من أجل إقامة علاقات مع الأحزاب والمنظمات الديمقراطية والتعاون معها.
تاسعاً: العمل على إنشاء علاقات مع الدول الديمقراطية (المقصود دول الكتلة الشرقية) لمحاربة الإمپريالية والرجعية وعملائها الذين يعملون على إحياء ميثاق سعد آباد.

(٥١) يذكر هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة، لندن ١٩٩٣، ص٧٩، وهو أحد قياديي البعث في العراق: «كان بعضنا يبحث عن مراجع وكتب تؤكد الأصل العربي البعيد للكُرد».

بمشيئة واحدة لا غير، وضمن مشروع استعماري من أي وجه نُظر، وأنها ذات حدود جغرافية وإثنية واضحة لا جدال فيها يسهل رسمها[٥٢]. وفي ذلك الحين وضع الوطنيون والقوميون مطالب متواضعة، تجعل من حق تقرير المصير مثلاً هدفاً نهائياً بعيداً، وتحصرها في تحقيق التوصيات التي تضمنها تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الأمم بخصوص البتّ في عائدية ولاية الموصل (١٩٢٥)، وبالضمانات والتعهدات التي قدمتها الدولة العراقية بخصوص حقوق الأقليات وحمايتها قبيل دخولها عصبة الأمم عضواً وإعلان استقلالها (١٩٣٢). لكن القوميين العروبيين ظلوا يعتبرون ثورات الكُرد تمرداً وعصياناً وينأون عن التعاون مع الأحزاب الكُردية وتنظيمات الكُرد السياسية المختلفة بوصفها معامل تفريخ لحركات انفصالية عن الوطن العراقي. وبقيت صحفهم في الفترة التي نشبت خلالها ثورة ١٩٤٥ وذيولها تنعى على الحكومات العراقية بين آن وآخر وحيثما اقتضى الأمر تقصيرها في أخذ الأمور بحزم إزاء القلق الكُردي.

إن النشاط الكُردي الحزبي السياسي الذي لم ينقطع مطلقاً منذ تأسيس الدولة العراقية يتخذ الآن طابعاً جديداً، ويتبلور بشكل منهاج واضح وأهداف محددة، أدقّ وأكثر تواضعاً من المناهج القومية العروبية. وقد لاحظنا منذ البدء تجاهل الأحزاب العلنية الثلاثة للقضية القومية في مناهجها، ولم نجد ذكراً للكرد غير فقرة عابرة في منهاج الحزب الوطني الديمقراطي:

«إن الوطن العراقي ميدان للتعاون الحر على أساس المصلحة المشتركة بين العرب والأكراد وغيرهم من العناصر يتكون منها العراقيون، يحترم كل منها الآخر في جو تسوده الحرية والمساواة والعدالة».

وبقيت الأحزاب العلنية الديمقراطية المنحى غافلة تماماً عن سبب الإحجام والتطيّر من مشاركة الأقليات في نشاطها وكثيراً ما ترجمته بضعف إحساس الكُرد واليهود

---

(٥٢) في أوائل الخمسينات على ما أذكر جرى حديث في مجلس الأستاذ الجادرجي حول كردستان العراقية والحدود التي ستمتد إليها منطقة تشملها إدارة ذاتية، وكان بين الحاضرين صديقنا الطيب الذكر المهندس رشيد عارف، رجل الأعمال وواحد من الوطنيين الكُرد المعروفين اشتهر بالدعابة والصراحة وخفة الروح وله منزلة خاصة عند الجادرجي. قال رشيد وقد كثر الجدال حول هذه النقطة: لا بد من خبير يفصل في الأمر وأرى أن يكون هذا الخبير عربياً. ونظر إليه الجادرجي متوقعاً أن يسميه، ويقول باسماً: من ترى أن يكون هذا الخبير؟ أجاب رشيد: الجمل العربي! نطلقه على رسله في الشمال وحيثما توقف فتلك هي حدود كردستان!

والآشوريين والمسيحيين الآخرين بالمواطنة العراقية، وتركت المهمة برمتها إلى الحزب الشيوعي العراقي السري.

لم يمض على حزب (رزگاري) زمن طويل لظهوره قوة سياسية ذات خطر وانتشار بصورة خاصة بين الشباب وإنتجلنسيا الكُرد ولقي معارضة من جميع الجهات. وذكروا أن الحكومتين البريطانية والعراقية كانتا في قلق وتوجس حقيقيين إلى الحد الذي جرت محاولة إغراء بعض رجال الدين لإصدار فتوى بتحريم الانخراط فيه.

عندما تركت الكتلة الشيوعية الحزب واتخذت البقية اسم الپارتي(پارتي ديموكراتي كورد = الحزب الديمقراطي الكُردي) الذي استمر يعمل تحت عنوان الجبهة الوطنية. لأول مرة في تاريخ التنظيمات السياسية القومية العراقية، يواجه النضال القومي العروبي حزباً قومياً ضمن الحدود المرسومة للوطن العربي. إلا أنه لم يكن يسير على عين الخطوط العقائدية والمبدئية، بل اختار طريقاً آخر، طريق القومية الليبرالية بطابعها الديمقراطي المائل نحو اليسار[٥٣].

ماذا عن البعث العربي؟

---

(٥٣) بقيت الكتلة المنشقة الشيوعية تتعاون مع رزگاري ثم الحزب الديمقراطي الكُردي والغالب على الظن أن الحزب الشيوعي العراقي كان له يد في ذلك. إلا أن هناك رأياً للكاتب الأمريكي والتر ز. لاكيور Walter Z. Laquar ورد في الص ٢٢٧ و٣٤٢ من كتابه (الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط Communsim and Nationalism in the Middle East الطبعة الثانية. نيويورك ١٩٥٧) خلاصته أن الكُرد الشيوعيين لم يتركوا رزگاري وخَلَّفَه نتيجة لضغوط شيوعي بغداد، بل من أجل أن يجعلوه أداة أكثر فعالية في توجيه المجموعات غير الشيوعية من بعيد، وفي عين الوقت ليكون ذا مظهر أقل اجتذاباً لشكوك السلطات وتعرضاً لملاحقاتها. وأشار إلى أن الحزب الديمقراطي الكُردستاني لم ينله من الاضطهاد والملاحقة الحكومية للحزب الشيوعي في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ شيء يذكر.

الفصل الثاني والعشرون

كرّاس لعفلق وآخر للبيطار يوزعان في جامعة بغداد حول الوحدة العربية. نواة بعثية صغيرة في أبهاء الجامعة. حزب سري. حزب الاستقلال يقضي على جانب من قوته بالمشاركة في حكومة الصدر. بعد (الوثبة) استمد البعثيون كوادرهم من العناصر الاستقلالية التي عارضت المشاركة في الوزارة، ورحبوا بدخول الشقاوات واصحاب السوابق إلى جانب تلاميذ كليات رفيعي المستوى. الكم قبل الكيف رغم العقبات التي وضعها الحزب أمام العضوية الكاملة والمراتب التي يجب أن يجتازها ليظفر بهذه الرتبة. وزارة مزاحم الپاچچي واستمرار الأحكام العرفية الشاملة كل العراق. الملاحقة امتدت إلى اليهود فقدم عدد منهم إلى المحاكم العرفية. الحكم على شفيق عدس وإعدامه الحياة، إلى جانب عدة من اليهود، وامتلاء السجون بالمثقفين والمعارضين وأعضاء أحزاب اليسار.

لم يصدر قرار من مجلس عرفي واحد يمس بشكل مباشر أو غير مباشر سلامة الجيش. القضية الفلسطينية قميص عثمان بيد الجميع وأداة لإسقاط الحكومات بتهم التقصير فيها. حماقة توفيق السويدي. إسقاط الجنسية عن مئة وخمسين الف يهودي عراقي. خطبة (عزرا مناحيم دانيال) في مجلس الشيوخ (الاعيان). اعتراف مصر بحكومة الانقلاب السوري. بيان ثانٍ بإسقاط حكم حسني الزعيم وبقيام حكم عسكري ثان بزعامة اللواء سامي الحناوي، بعد ١٨٥ يوماً من حكم الثاني يجري انقلاب ثالث. بيان ثالث من قائده العقيد أديب الشيشكلي. إعلان نفسه رئيس جمهورية. رعايته لتنظيم سياسي باسم (حركة التحرر العربي). قضاؤه على الأحزاب وإهداره الحياة الحزبية. اليد العراقية في إنجاح انقلابه. انقلاب فيصل الأتاسي وبيان رابع. محاولة الكزبري الانقلابية

في أواخر عام الوثبة وُزّع على طلاب بغداد نسخ محدودة للغاية من كتيّبين أو كرّاسين بالأحرى عنوان أولهما (أحاديث البعث العربي) لمؤلفه (ميشال عفلق) وثانيهما بعنوان (السياسة العربية) من تأليف (صلاح البيطار). وتداول هذين الكرسين بعض

الطلاب وانتبهوا إلى وجود حزب جديد في دمشق يدعو إلى الوحدة العربية والحرية والاشتراكية. والذين وزعوا نسخهما طلاب قدموا من الجامعة السورية وقد فشلوا في نيل شهادتها وعادوا لإكمال دراساتهم في كليات بغداد، إما لقصور فيهم أو بدافع مالي غالب. طلاب متحمّسون لأفكار البعث قضوا جل أوقات فراغهم في ارتياد تلك المقاهي الدمشقية حيث تعقد الحلقات البعثية، انطلقوا يبشرون بها بشكل مضطرب غامض. وقد نجح هؤلاء في تكوين نواة صغيرة بعثية ضمن جدران الجامعة بين العامين ١٩٤٩ و١٩٥١ راحت تتسع وتنشر جذورها في الكليات الأخرى. وفي العام ١٩٥٢ بمجيء حكومة الفريق (نورالدين محمود العسكري) كان لحزب البعث على ما يؤكده المحايدون زهاء ثلاثمائة عضو كلهم من طلاب الجامعات والصفوف المنتهية الثانوية، وليس بينهم عامل أو حرفي أو كاسب أو فلاح ويكاد معظمهم لا يتعدى العشرين من العمر. وقد ابتلي بسبب سرية الحزب الشيوعي والحزب الديمقراطي الكردستاني وغيرهما من الأحزاب غير المجازة علناً - بداء التخفي والتكتم القتال الذي كان ينزل بالعقائد - سَمَت أو انحَطَّت - إلى درك التحكم الفردي الدكتاتوري في ميدان التفسير والتطبيق مما يؤدي في أكثر الأحيان إلى تسلل الأوشاب والحثالات والطبقات الدنيا من أعضاء الحزب إلى مراكز عالية في التنظيم وأحياناً إلى القيادة والتوجه السياسي الخاطئ أو التسرع في اتخاذ الموقف.

لم يكن غريباً أن يبدو تأثير الفكر الشيوعي على أولى تنظيمات هذا الحزب وقد يرد ذلك إلى وضوح الطروح الشيوعية، مقابل غموض فكر البعث وفقره البادي نظرياً وسياسياً في التصدي لمشاكل المجتمع العراقي، بل تركيزه بدل ذلك على مصير الأمة العربية والنضال ضد الاستعمار والوحدة. وكما فشل حتى الأخير في استحداث قاعدة طوعية له بين العمال والفلاحين فقد نجح في جعل حزب الاستقلال مصدر توريد للأعضاء.

بدا حزب الاستقلال إثر الإجازة - وهو القطب الذي يدور حوله القوميون باختلاف وجهة نظرهم، بل كان سيد الميدان قبل الصولة البعثية - وقد استهوى الإسلاميين بربطه بين العروبة والإسلام واعتبار الإسلام مصدراً من مصادر التشريع والتقى بهذا إلى حد ما بالنظرة البعثية. إلا أن مصدر قوته تأتت من صيرورته طليعة المتحمسين للقضية الفلسطينية بعد قرار التقسيم ونكبة الهجرة وكذلك من هجومه العنيف على الحكام العرب بسبب سياستهم المائعة إزاءها. لكن الحزب بدأ يفقد

مصداقيته في الوسط الطلابي بصورة خاصة عندما شارك في الحكم وقد تقدم ذكر ذلك.

ذكر أحد أقطاب البعث العراقي الأوائل، وليس لدينا ما يدحض قوله، أن حزبه:

«ورث حزب الاستقلال، وراح ينمو في المناطق التي شهدت نموه قاضماً مواقعه الواحد بعد الأخر ومالئاً الفراغ المستشري بين الشباب القوميين المتحمسين. وهكذا وجد القومي التقليدي والعروبي ذو التلاوين الاشتراكية أو الماركسية، والعروبي الإسلامي والإسلامي العروبي، مكاناً لهم في البعث وتبعاً لذلك بدأت تتشكل السيماء السياسية والاجتماعية للحزب»[1].

إلى هؤلاء الموصوفين أرى أن أضم صنفين آخرين أولهما ضباط الجيش الطموحون المغامرون. هؤلاء الذين كان لهم الفضل الكبير في وصول البعث إلى السلطة والدور العظيم في سقوطه وهلاكه. كان إقبالهم على الحزب يتردد بتعاقب الانقلابات العسكرية المتناجحة في سورية. وأثبت ثقتهم بأنفسهم نجاح عملية حشد عسكرية محددة أقدم عليها ضباط في مصر يساوونهم في الرتبة يوم ٢٣ من تموز ١٩٥٢[2]. إن عدداً كبيراً من هؤلاء كانوا ضباطاً أيضاً في أثناء حركة مايس، وليس بينها وبين الانقلابات العسكرية السورية فترة طويلة.

ويلحق بهؤلاء صنف آخر وهو مجموعة الشباب الفاشلين في الحياة المتسكعين الذين عرفوا بالشراسة في الأحياء الشعبية ببغداد خصوصاً، نتاج سوء التربية والإهمال في العوائل المنقسمة على نفسها وبينهم غير قليل من ذوي السوابق والمشبوهين كانت مؤهلاتهم التي ضمنت لهم موقعاً في الحزب بروزهم في الاشتباكات مع رجال الأمن والشرطة أثناء المظاهرات أو مع الخصوم العقائديين عند اللزوم[3]. من هؤلاء كوّن البعث فيما بعد أجهزته القمعية المفزعة. وهم نواة فصائل القتل والتعذيب التي اعتمدها

---

(١) الفكيكي، المرجع السالف، ص٦٠ وما بعدها.

(٢) وهي ثورة (أو انقلاب) الثالث والعشرين من يوليو بزعامة المقدم جمال عبدالناصر ورفاقه الضباط.

(٣) كان يفرج عنهم بعد سويعت من تحقيق سطحي مصحوبين بنصائح أبوية. لا أذكر من قضى من هؤلاء المتشاجرين في المقاهي والشوارع شهراً واحداً بجريمة اعتداء خطيرة، أو بسبب تظاهرة ضد السلطة أو بسبب معركة حزبية علنية في المقهى أو الشارع. وكان ثقل السلطة عادة ينسحب على خصوم البعث وهم الشيوعيون، فهؤلاء كانوا يصورون بالمعتدين.

الحزب للقضاء على خصومه السياسيين فيما بعد.

وإلى كل هذه نضيف العواقب الخطيرة التي تنجم عن العمل الحزبي السري. بقي بعثيو العراق تحت النظارة الأمنية دوماً بخلاف ما تمتع به الحزبيون في سورية من حرية حقيقية في نشر مفاهيمهم وأدبياتهم وبحريتهم المعترف بها رسمياً، بل وبمشاركة عميدهم في الوزارة الانقلابية، وتمتُّع أعضائهم بالرعاية الأبوية من وزرائهم للإغضاء المتعمد من جانب قائد الانقلاب الثاني. وتعرّض بعثيو العراق إلى الملاحقة القانونية. فتخفوا ولاذوا بالتقية في أحيان كثيرة عند وقوعهم في قبضة السلطة فأمنوا العقاب الهائل الذي كان ينزل بنظرائهم الشيوعيين.

والواقع أنه إلى حين من الزمن كانت السلطة في العراق تحار كيف تتعامل مع هؤلاء وكثيراً ما يختلط الأمر على المحققين وسلطات القضاء إذ لم يكن ذيل قانون العقوبات الذي شرع للشيوعيين ينطبق عليهم. فكلمات قومي وقومية عربية وعروبة أو وحدة ومظاهر العداء للشيوعيين كانت دائماً تفعل فعل السحر في نجاتهم من العقاب بل اتخذت السلطة موقفاً فيه من الليونة قدر ما فيه من عطف وإغضاء. أليست الحكومة قومية عربية؟ (من يجرؤ من أفراد الطبقة الحاكمة على الادعاء بغير ذلك) أليسوا هم أعداء الكفر والإلحاد والماركسية والشيوعية مثلهم، فبأي حق يجازونهم؟ إنهم قوميون ولا شائبة في ذلك، والخطأ فيهم أنهم يريدون تحقيق أهدافهم بانقلاب قد يهدد السلطة القائمة بالزوال. شباب أغرار فحسب ضلوا السبيل القويمة فوجبت معاملتهم باللطف والإرشاد لا بإيقاع القصاص. ولا شك أن السلطة ستبدو موضع سخرية للعاملين لو أنها اشترعت قانوناً خاصاً لعقابهم، أو أجرت تعديلاً على ذيل قانون العقوبات تضيف بموجبه اسم البعث إلى قائمة المنظمات والعقائد الممنوعة. إن عواقب داء السرية الوبيل ونتائجه الوخيمة صورها واحد من قادتهم بهذه الفقرة البليغة:

«نجح حزب البعث الموصوف بالطبيعية في أن يختزل مصلحة الأمة أو الطبقة بتنظيمه، وأن يختزل تنظيمه بقيادته، وأن يختزل قيادته بشخص أمينه العام. وفي وقت متأخر لمست الآثار المدمرة لسرية العمل الحزبي على الكثير من المناضلين المحترفين. ففي الأحزاب السرية تذوى شخصية الفرد وتختنق الحرية ويتضخم الخوف من العدو والمؤامرة كما تتضاعف القدرة على خلق أعداء موهومين. التنظيم السري تسوده قيم استبدادية بذريعة أمن الحزب ووحدته. فنادراً ما تظهر آراء متباينة وكثيراً ما يفضي الخلاف إلى تكتل،

والتكتل إلى انشقاق، والانشقاق إلى مؤامرة. والقادة الحزبيون المحترفون لا يتداولون السلطة إلا في حالة الوفاة، اللهم ما خلا الطرد والعزل أو الاتهام بالخيانة. وبسبب الإرهاب وحياة الأوكار السرية والسجون والحرمان الجنسي والإحباط النفسي تزداد علامات التوتر والشك بالآخر والميل إلى العنف والعدوانية، ومع الزمن يتحول الحزب هدفاً بذاته فهو الملجأ الأمين ومصدر العيش والرزق والسلاح الايديولوجي ضد الآخرين»[٤].

لكن هناك الأعراض الأخرى: المناقضات الفكرية التي يتعذر التوفيق فيما بينها:

- المزج بين التعصب القومي والتطرف الاشتراكي.
- التنبؤات وقراءات الغيب التي تطرح بشكل مصطلحات علمية.
- معاداة الماركسية، ومحاربة الاستغلال الرأسمالي.
- معارضة حق العمال في تشكيل الأحزاب وحريتهم. والتأكيد على المحتوى الإنساني للقومية العربية.
- إجازة النضال ضد التسلط العنصري والاستعمار. وقمع حركة التحرر الكردية، وإنكار الهوية القومية للآشوريين والتركمان والقبط.
- إنكار الولاية الدينية والتعصب الطائفي مع التأكيد الشديد على الرابطة التاريخية والاجتماعية والفكرية غير المنفصمة بين العروبة والإسلام.
- التأكيد على المبادئ الديمقراطية لنظام الحكم والإصرار على استخدام الوسائل الانقلابية للوصول إليه.
- ولد حزب البعث وجرثومة الداء الذي قتله معه. وبدت أعراضه فيه بالعنف والإرهاب الذي نشره في العراق وسورية خلال وثوبه إلى السلطة وفي أثناء تآمره على الفوز بها. وبقي في ساعات احتضاره الأخيرة أسيراً ذليلاً في يد الضباط وطبقة الحكام الانقلابيين التي خلقها.

في متنصّف شهر أيار من العام ١٩٤٨ أعلنت الأحكام العرفية في جميع أنحاء العراق وقد جاء في بيان إعلانها:

«بسبب تطور الحالة في فلسطين ولوجود أسباب تدعو إلى اتخاذ التدابير

---

(٤) المرجع السالف.

الضرورية لاستباب الطمأنينة التامة والاستقرار الشامل في البلاد حسبما تتطلبه المصلحة»[٥].

لم يكن تفسير الغموض في هذا البيان صعباً. فقد عجزت حكومة الصدر عجزاً تاماً عن احتواء الاضطرابات العنيفة ومعارك الشوارع الدموية والقتول بين أنصار المرشحين للنيابة، وكذلك للسيطرة على نتائجها، واتفق ذلك مع سوق قطعات الجيش العراقي إلى فلسطين للمشاركة في القضاء على العصابات الصهيونية. وروجت الحكومة أن الأحكام العرفية أعلنت بالأساس لحماية مؤخرة الجيش وصيانة الأعمال الحربية من أن يمسها ضرر أو إفشاء أسرارها.

وضحكنا في حينه لهذا التعليل الذي قدمه الپاچچي للناس بعد أن تولى مسؤولية الحكم عن الصدر. وقد وجدنا أن أعمال المجالس العرفية كادت تكون قاصرة على مطاردة وتعقيب أنصار مرشحي المعارضة وإشاعة الإرهاب في نفوس المنتخبين الثانويين المؤيدين لهم. وإعطاء الفرصة لكنس الآثار التي تخلفت عن النشاط الحزبي السابق.

كانت حكومة الصدر أضعف من أن تقوم بهذه المهمة، أو ربما لأن ضمير هذا الرجل ما كان يتسع لاحتمال آثار معارك الشوارع الدموية بين أنصار المرشحين بل ربما

---

(٥) الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، المرجع السالف، ص٣٠٩ [نقول: في تلك الحقبة السوداء زجّ آلاف من المثقفين والطلاب والمهنيين والموظفين والمرشحين ومنتخبيهم الثانويين في جميع أنحاء العراق تمهيداً لإنجاح مرشحي الحكومة وبتهمة حماية الجيش من المخربين. جو مرعب لا عهد للعراق بمثله كثيراً في أوقات السلم وانشغلت دوائر الشرطة بالقبض على كل من ورد اسمه في مشبوهيها ثم العثور له على تهمة. كان كاتب هذه السطور من جملة المشبوهين الموقوفين (يظهر أن ضابطاً أقدم صديقاً لكاتب هذه السطور لم يقتنع بأني بعيد عن الحياة العامة منذ زمن) وقدموا كدليل في المحاكمة جملة رسائل شخصية من القصصي (ذو النون أيوب) تتعلق بأمور أدبية خالصة (كان ذو النون أيوب أحد المرشحين وقد أوقف أيضاً) إلى جانب قصة مخطوطة ترجمتها للكاتب الروسي أنطون جيكوف الذي توفي قبل ثورة أكتوبر كما هو معلوم. المهازل التي كانت تقدم للمجالس العرفية ماعاد يصلح لها إلا الضحك والاشمئزاز. فممن قدم للمحاكمة السيدان صالح اليوسفي كاتب المحكمة الشرعية وفريق عقراوي المحامي في الموصل وكانا من أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني المعروفين، والتهمة التي حوكما من أجلها هي قيامهما بتزعم حركة تهريب البنزين إلى العصابات اليهودية في فلسطين. بطبيعة الحال انكشف زيف هذه التهم أمام هيئة منصفة عادلة للمجلس العرفي الثاني الذي لم يكن له شبه قط بالمجلس العرفي العسكري البصري.

كانت حكومته ضحية واحدة من تلك المؤمرات الصغيرة الداخلية الهادفة إلى قلب حكومة والإتيان بأخرى من دون سبب ظاهر ولا علة مفهومة. ومحصل القول أن (الصدر) ترك الوزارة في منتصف حزيران بيد حكم عسكري صرف يقوم على رأسه ويوجهه رجل الساعة الدموي المختار في الظرف المناسب وللمهمة المناسبة.

لم يقابل تكليف مزاحم الأمين الپاچچي بتأليف الوزارة بدهشة كبيرة فقد عُلم أن كل من فوتح بها من الساسة رفض واعتذر خشية فقدان بقية سمعة، وأن الپاچچي لبى الطلب بلهفة ومن دون تردد فهي الفرصة النادرة لإعادة اعتبار سمعة مشوهة فقدها وأبعدته شبه مطرود عن ميدان السياسة المحلية خمس عشرة سنة فقد اقترن اسمه بفضيحة خلقية جرمية ساقته متهماً إلى المحاكم(٦).

---

(٦) تسلم مزاحم الپاچچي الحكم بعد إعلان الأحكام العرفية بعشرين يوماً ولم يلغها ولم يحدد مجال عملها وأبقى قوامها مثلما كان يوم أعلنت في ٦ من حزيران ١٩٤٨. كان معظم الجرائم القضائية التي ارتكبتها هذه المجالس في عهد الپاچچي الذي لم يقم بدور جدي في وقفها. جاء الپاچچي المطعون في سيرته في ظروف أبى كل الساسة القدماء أن يتقدمو لها، وقصته كما رواها الأستاذ المرحوم أحمد مختار بابان لخليل كنه ووردت في مذكراته (العراق أمسه وغده، ص٨٦) نقلاً عن الحسني. قال بابان وكان رئيساً للديوان الملكي وقتئذ: لما عاد مزاحم الپاچچي إلى العراق على عهد وزارة حمدي الپاچچي جاءني إلى البلاط الملكي وسلمني رسالة مفتوحة مؤكداً على ضرورة الاطلاع عليها ومن ثم تقديمها إلى الأمير عبدالإله فطلبت إليه الدخول على الأمير فوراً فقال إنه يكتفي بروح هذه الرسالة، فلما قرأتها وجدت أن الرجل يطلب رفع الحيف الذي ألحقه به رشيد عالي بفصله من الخدمة في السلك الخارجي ويرجو إعادته وزيراً مفوضاً في إحدى العواصم الأوروبية. ثم صار الرجل يتردد إلى البلاط بمناسبة وبدون مناسبة حتى إذا استقال (الصدر) من الوزارة كلفه الأمير بتأليف وزارة جديدة فأجاب الپاچچي أنه يقبل بسرور وابتهاج على أن يشرك معه علي جودت الأيوبي وعمر نظمي فلم يمانع الوصي فأبرق إلى عمر نظمي وكان في الاستانه فرفض. أما علي جودت فقال إنه سيبت في العرض عند عودته (رفض بالأخير) ثم كلف جلال بابان وعلي ممتاز وصادق البصام ومحمد مهدي كبه فرفضوا جميعاً. أما الأخير فقد اشترط تمثيلاً حزبياً من الاستقلال والوطني الديمقراطي، فوافق مزاحم على أن يكونوا وزراء بدون وزارة. إلا أن المشكل لم يحل إلا بعد تدخل عبدالإله وإقناع الرافضين بدخول الوزارة. [الحسني، ج٣، بيروت ١٩٧٨] [قابل مزاحم الپاچچي خدمة أحمد مختار بابان بالشهادة عليه وعلى كل أعدائه من رجال الحكم عند تطوعه بالشهادة أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة المعروفة بمحكمة المهداوي أيام حكم عبدالكريم قاسم. لم يسلم الپاچچي من إدانة ابنه (عدنان) له في الكتاب الذي كتبه عن والده (المقدمة) (مزاحم الپاچچي، سيرة سياسية، لندن ١٩٨٩)].

كشف الپاچچي خلال فترة حكمه القصيرة عن شخصية سايكوباتية نموذجية. كان مزيجاً من شخصيات شكسبير الثلاثة المخلدة في تمثيليات تاجر البندقية وعطيل ويوليوس قيصر (كاسكا وإياكو وشايلوك) مضافاً إليها شخصية (مفستوفوليس) في رواية غوتيه (فاوست). شخصية عجيبة حفلت حياتها بمتناقضات سايكولوجية لو أتيح لها في الحكم ربع الفترة التي أتيحت لرشيد عالي الگيلاني لأوقع بالبلاد من الكوارث ضعف ما أوقعه ذلك. لكن العصر الذي جاء فيه كان مختلفاً جداً. ومع هذا شهد عهده ما أعاد إلى الذهن الإرهاب والبطش الذي فرضه الگيلاني في العامين ١٩٣٣ و١٩٣٥، ففي عهده القصير سيق إلى المحاكم العرفية أكبر عدد من المدنيين والمثقفين سكان المدن أبناء الطبقة المتوسطة وغصت بهم المواقف والسجون وألصقت بكثير منهم تهم سريعة التلفيق عجيبة الوصف. كما سيق إليها عدد كبير من أنصار المرشحين المعارضين فضلاً عن المنتخبين الثانويين وبعض المرشحين الذين كانت حكومته تخشى فوزهم.

كان من الضروري أيضاً البحث عن متهمين يقدمون إلى المجالس العرفية بين اليهود. لا شك في أن يكون بين هذه الطائفة الكبيرة أشرار يهددون سلامة الجيش العراقي ويعرقلون المجهود الحربي. وإن لم يكن فالواجب الوطني يقضي بإيجادهم مهما كلف الأمر. أوليس قيام الإدارة العرفية كان أساساً بسبب تطور الحالة في فلسطين؟ وإذا كانت الأحكام العرفية قد وجدت لضرورة اقتضتها حماية مؤخرة الجيش العراقي في الوطن من الجواسيس والمخربين والمتعاونين مع العدو، وتأمين سلامة مواصلاته أثناء تأديته الواجب المقدس، فمن الخسارة أن تبقى مجالسها العرفية عاطلة ولا بد والحالة هذه أن يبحث لها عن زبائن. ليس من المعقول أن لا يوجد أمثال هؤلاء المجرمين مندسين في صفوف الشعب. والمنطق يقضي أن ينتقوا من الوسط الأدعى إلى الشك والأكثر قبولاً. وهو آنذاك المجتمع اليهودي. وكان من الضروري أيضاً أن تختار الضحايا اختياراً مناسباً للظرف وأن يبحث عن المجرمين المرشحين بين علية القوم وسراتهم وذوي اليسار فيهم ليحدث العقاب الصدى والأثر المنشودين، أي البرهان على يقظة الحكومة وحرصها على الأمن القومي. وإلا ما قيمة عشرين مواطناً يهودياً من سوق الخضار أو بقالين صغار من سوق حنون في بغداد مثلاً؟ وأي صدى شعبي أو أثر يحدثه عقاب ينزل بهؤلاء؟

ورسا البحث على (شفيق عدس) وأفراد قلة من التجار وحملة الشهادات العالية.

ومثلما حصل في العام ١٩٣٥ عندما اقتضى الأمر تلقين درس في حسن السلوك على الطائفة الكلدآشورية، التف حبل المشنقة في سنجار على عنق كبيريْ هذه الأقلية (عبدالله فائق المحامي) و(عبدالكريم قره كله) المزارع والملاك الكبير. التف هذه المرة على عنق رجل خطير الشأن في حفلة شنق علنية بالبصرة بعد محاكمة هزلية مفجعة مصحوبة بتغطية صحفية وتهريج إعلامي مماثل للعام ١٩٣٥ وكانت لحكومة الپاچچي اليد الأولى فيها، توجيهاً وإسهاماً فعلياً.

وأثقل عدد من اليهود بأحكام قاسية بتهمة معاونتهم على تهريب اليهود العراقيين وإرسالهم إلى فلسطين. إلا أن المجالس العرفية أولت جل اهتمامها بتنظيف المدن وبعض مناطق الريف وشوارع بغداد بنوع خاص من الشيوعيين وأصحاب الآراء الهدامة، وأنصار الأحزاب المحلية وكل من شارك في أعمال الشغب والتظاهرات أثناء المعارك الانتخابية، وبإرسالهم إلى السجون مثقلين بأحكام طويلة الأمد، وكذلك كل من وجدت الأجهزة البوليسية ضرورة إيداعهم الحبس أو ربطهم بكفالات أو نفيهم أو إبعادهم صيانة للأمن والنظام. فضلاً عن بضعة عشر يهودياً اتهموا بأعمال التخريب ومساعدة اليهود إخوانهم على مغادرة العراق كما ذكرنا.

ولم تفصل المجالس العرفية طوال وجودها بحسب معلوماتي في أية قضية تتعلق بصورة مباشرة بسلامة الجيش ومنشآته أو الاعتداء على مؤخرته. وبعد إلغاء المجالس العرفية والاقتصار على مجلس واحد مركزه بغداد، أصدرت الحكومة بياناً يقتصر فيه عمله على القضايا الداخلية حصراً ضمن مجال قانون ذيل العقوبات رقم (٥١) للعام ١٩٣٨ أعني مكافحة الآراء الهدامة. ونقل (العقيد النعساني) إلى بغداد ليرأس هذا المجلس بعد أن برهن في البصرة على جدارته وحذقه في إرسال الأبرياء إلى المشانق.

* * *

باتت قضية فلسطين والفلسطينيين شغل القوميين العروبيين الشاغل والشراع الرئيس الذي تنشره سفنهم وهي تشق عباب القومية. ولم يكن هناك من سبيل للحكومات القائمة في البلاد العربية من تبني القضية روحياً بعد أن أخفقت عمليا في إصلاح الغلطة العظمى بله الجريمة الحمقاء التى ارتكبتها بتشجيع الفلسطينيين على النزوح من ديارهم. دخلت سياسة البلاد الناطقة بالعربية رغم أنفهم في حلبة المسابقة القومية خشية رميهم بالجبن والتقاعس أو باللاقومية التي تعادل في أحيان كثيرة تهمة الخيانة والتآمر مع الأجنبي لتصفية قضية الفلسطينيين. وبدا التبني الروحي هذا جهاداً كلامياً.

كما وصفه صديقي الطيب الذكر أكرم فاضل في قصيدة عنوانها (جهاد فلسطين الدامي وجهادنا الكلامي) أذكر بيتاً من أبياتها:

ولدينا من اليراع أساطـ ـيل تشق بحر المداد

وباتت بيدهم وبيد فصائل القوميين العروبيين مثلما بدا قميص (عثمان) بيد (معاوية) ينشره أحدهم كلما صعد المنبر ليرشق أحدهم في بلاده أو البلاد الشقيقة الاخرى بالتهمة المخيفة التى أدت في مبدأ الأمر إلى إسقاط حكومات وقيام انقلابات عسكرية واغتيال ملك ورئيس حكومة[٧].

بالأخير وبطول التكرار والترديد واتساع رقعة الاتهام عادت فلا يعبأ بها أحد بل غدت لا أكثر من فكاهة يتندر بها المتندرون.

وعند طائفة كبيرة باتت القضية مهنة ارتزاق. بكتابة الأدبيات المملة والكنانيش

---

(٧) المقصود: الملك عبدالله ابن الحسين. كان يحب صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ووجد المتآمرين في ذلك أفضل فرصة. وقبلها بيوم واحد، (١٩) تموز، قام السفير الأميريكي بإبلاغ الملك أنباء عن احتمال اغتياله يوم الجمعة ونصحه بعدم الذهاب لكنه لم يصغ إليه وأجابه «لا أموت إلا عندما يحين اجلي» وقال لرئيس وزرائه سمير الرفاعي عين الشيء «إني أومن بالله ونفسي بيده». مع هذا لاحظ أن بعض الذين دعوا لاصطحابه بالمناسبة اعتذر أو قدم تعاليل واهية وفي صباح ٢٠ تموز الجمعة ١٩٥١ قام بزيارة أصدقاء له في نابلس وعاد إلى القدس للصلاة وكان في ركابه (موسى عبدالله الحسيني) وهو أحد المتآمرين عليه الذي ذكر أنه انحنى أمامه ودعا له بطول العمر. كان معه قائد الحرس العقيد حابس المجالي وحفيدهُ الحسين ابن طلال الصغير يمشي وراءه. ما دخل الباب الرئيس حتى تقدم منه رجل كان مستتراً بالباب عن اليمين وقبل أن يستطيع أي شخص إيقافه أطلق مسدسه من مسافة قريبة جداً فاستقرت الرصاصة في رأس الملك وسقط على الأرض وأنفلتت عمامته ثم ابتعد القاتل وهو يطلق عيارات عشوائية في الهواء لتسهيل هروبه. واعتقد أن الرأس المدبر للعملية هم الحسينيون أقرباء المفتي بالتعاون مع وصفي التل الذي كان موجوداً حينذاك في مصر. وقدم عشرة للمحاكمة بينهم اثنان غيابياً. وكان بين المتهمين ثلاثة من أقرباء مفتي فلسطين. وحكم على ستة منهم بالاعدام بينهم الغائبان ونفذ الحكم في أربعةٍ بعد أربعة أيام من النطق بالحكم.

المقصود برئيس الحكومة هنا هو رياض الصلح الذي اغتيل قبيل عودته إلى لبنان في زيارة لعمان في ١٦تموز ١٩٥١ وهو في طريقه إلى المطار. والشائع هو أن قتله كان ثأراً لدم أنطون سعادة رئيس الحزب القومي السوري. حاذت سيارة المغتال سيارة الصلح وهي منطلقة به إلى مطار عمان فأطلق ركابها النار عليه. إلا أن شائعة قوية كانت تدور في لبنان بأن حاشية حول رئيس الجمهورية بشارة الخوري هي التي دبرت أمر قتله [حداد المرجع السالف ج٢ ص٤٠٠، والأردن بين عهدين: للرئيس الأول موسى عادل بكمرزا شردان (زمان ومكان طبعه غير مذكور) الص ٦٧-٦٩.

الفقيرة المادة، وتأسيس مكاتب لجمع الإعانات والمساعدات المالية. بل وفرضها بالقوة والتهديد على الناس. فضلاً عن صيرورتها سلماً لطلاب الشهرة السياسية والمناصب الخطيرة ووسيلة لحبك المؤامرات الهادفة إلى قلب الحكومات وتعلة للانقلابات العسكرية.

هناك أمور كثيرة لا نفهمها. ولذلك نرفض الاعتقاد بها. ولا خوف من الحكم عليها بما يخالف حقيقتها يدفعنا في أحيان كثيرة إلى محاولة إسقاطها مما يشغل الضمير. أي تناسيها. وهناك سياسة ورجال حكم عرفوا عادة بالتعقل والحذر تجدهم بدافع من دوافع الخوف العديدة والهواجس الغامضة إلى الاتيان بعمل أحمق فيه كثير من الجسارة والاندفاع الأهوج لا يحسبون أي حساب لنتائجه وعواقبه.

وفي عملية إجلاء اليهود العراقيين عن وطنهم، أو بالاحرى إرغامهم على ترك البلاد، تلك العملية التي أقدم عليها السيد توفيق السويدي ووزارته، بقيت تطمس لفاعلها أوهى العذر وأقله شاناً.

وظلت أسئلة تمور في مخيلتي عن الحكمة فيها وعن الضرورة الملجئة إليها. كلما عرضت قضية فلسطين على بساط البحث، أو خرج من رمادها شواظ نار.

وقد اتفق كل من عرف توفيق السويدي وكتب عنه على وصفه بالدبلوماسي الحاذق والسياسي الألمعي البصير الباقعة بالسياسة العالمية، والوطني القومي. رئيس المؤتمر العربي في دمشق الذي ينتهز في مذكراته كل فرصة تعن للفخر بقوميته العربية وأصالة نسبه. وفوق ذلك كله أعظم الساسة العراقيين ثقافة وأغزرهم علماً. لكنه اتصف بالتسرع وعدم الأمانة.

مائة وخمسون ألفاً من المواطنين العراقيين تأصلت جذورهم في بلاد الرافدين قبل أن تتأصل جذور كثير من القوميات التي تسكنه انسالها اليوم بقرون عديدة. فبعبارات مقتضبة ظاهرة البراءة تكاد لا تملأ نصف صحيفة مذيلة بثمانية تواقيع أو تسعة أُعلن هؤلاء المائة والخمسون ألفاً بأنهم أشخاص غير مرغوب فيهم (persona non grata) بالتعبير القانوني الذي سمي قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين[٨] تم خروج

(٨) شرع قانون إسقاط الجنسية في ٤ آذار ١٩٥٠. وطبق حالاً وكان المظنون كما يقول الحسني (تاريخ الوزارات ج٨ ص١٦١) أن عدد اليهود الذين يستفيدون من حكم القانون فيغادرون العراق سوف لا يتجاوز ٨٠٠٠ يهودي بصورة من الصور لكن دعايات غلاة الصهاينة وحركات =

أحفاد كل أولئك الذين أبوا قبل اكثر من الفي عام ان يعودوا إلى وطن ابائهم واجدادهم وفضلوا البقاء في وطنهم الجديد ورفضوا ان يستفيدوا من مرسوم كورش الثاني الشهير (٥٣٦ ق.م)[٩] واعجب ما في هذا القانون مقدمته التي اتت إلى ذكر الأسباب التى دعت إلى اصداره وهذه هي:

«لوحظ أن بعض اليهود اخذوا يتذرعون بكل الوسائل غير المشروعة لترك العراق نهائيا. وان البعض سبق ان غادر العراق بصورة غير مشروعة ومن حيث ان وجود رعايا من هذا القبيل مرغمين على البقاء ومكرهين على الاحتفاظ بالجنسية العراقية مما يؤدي حتماً إلى نتائج لها تأثيرها على الأمن العام وإلى خلق مشكلة اجتماعية واقتصادية فقد وجد ان لا مندوحة من عدم الحيلولة دون رغبة هؤلاء في مغادرة العراق نهائياً وإسقاط الجنسية عنهم».

بهذا ولأول وهلة بدا قانون اسقاط الجنسية عن المواطنين العراقيين اليهود لا غبار عليه من الناحية المبدئية ولا يخالف نصاً وروحاً وثيقة حقوق الانسان التي أقرتها

= الاستفزاز التي قاموا بها في كل ناحية وقرية وكذا الضغط الأميريكي المتزايد حملت مئة وخمسة وعشرين ألفاً منهم على التخلي عن جنسيتهم العراقية والالتحاق بدولة إسرائيل الأمر الذي أثبت عدم وفائهم للبلاد التي آوتهم وأحسنت إليهم أكثر من ٣٠٠٠ سنة.» ونحن نقول إن الملاحقات والمطاردة والتهديدات التي عاناها يهود العراق منذ قيام دولة إسرائيل تحتاج إلى مجلد كامل. وتشبه من أحد أبوابها المأساة التي حلت إثر مذابح آب ١٩٣٣ بالمسيحيين. ورغم أن القانون كان قد أعطى الحرية للذي يريد إسقاط جنسيته إلا أن عنصر الإرهاب كان جلياً. ولم يكن هناك أي إجراء فعلي يطمئن اليهود على سلامتهم بالبقاء فقد كانت أكثريتهم تكره مغادرة البلاد. وصدرت أحكام إعدام بتهمة إلقاء قنابل وتخزين أسلحة في بعض المنازل لغرض الدفاع عن النفس، وكثر هروب اليهود بعد تلك الإجراءات الصارمة ممن آثر البقاء وهم الأغلبية بعد تهريب فما استطاعوا تهريبه من أموالهم الخاصة. وعندها لجأت حكومة نوري السعيد إلى سنّ القانون المرقم ٥ لسنة ١٩٥١ الذي قضى بتجميد أموال اليهود المسقطة عنهم الجنسية وتضمن عقوبات على المخالفين.

(٩) المقصود به ملك الأخمينين كورش الثاني الذي ملك الإمبراطورية الفارسية من ٥٥٩ إلى ٥٣٠ ق.م وهي سنة وفاته، زحف على بابل وقوض حكم البابليين ودخل العاصمة دون قتال. ومسلّته التي تشيد بأعماله هي قطعة دعاية فريدة في بابها. عرف باحترامه الأديان كافة وفك إسار آلهة آشور وأعادها إلى أهلها كذلك فعل بآلهة سوسة. ثم أصدر في ٥٣٨ أو بعدها أمراً أطلق فيه الحرية لليهود للعودة إلى ديارهم وبناء هيكلهم وكان من مسببي نبوخذنصر واتخذ إجراءات لتجديد بناء هيكلهم في أورشليم. ينوه بذلك كل من سفري عزرا وأشعيا في التوراة.

الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بتاريخ ١٠ من كانون الأول ١٩٤٨ كما لا يتعارض مع مواد القانون الأساسي العراقي. خلافاً لمرسوم إسقاط الجنسية الذي أصدرته حكومة رشيد عالي بحق الآشوريين في العام ١٩٣٣، فهؤلاء نزعت عنهم الجنسية وأبعدوا مكرهين. إلا أن هذا الاختيار الظاهري للتنازل عن الجنسية آل عملاً كما سنرى إلى إرغام حقيقي وأدى إلى هجرة جماعية لم تعرف هذه البلاد لها مثيلاً قديماً وحديثاً فهو في الجوهر لم يكن يختلف عنه عند التطبيق.

أسهم اليهود في أرض الرافدين بقدر كبير في بناء تقدمها الحضاري والثقافي. والحركة الاقتصادية تدين لهم بالكثير. وتفوقت الطبقة المتعلمة فنياً وتكنياً بفضل احتكاكها بالغرب وقت أن وجدت من سائر الحكومات المتعاقبة صدوداً عن استخدامهم في المؤسسات ذات الطابع العسكري بخلاف الأقلية المسيحية (في وقت متأخر) والكرد الذين كان المسلك العسكري قبلتهم خلال الحضور الإسلامي والعربي وتخصصوا في أمور التجارة والمال والاقتصاد. ووجدت بينهم طبقة موسرة في معظم المدن العراقية كما تألفت من متعلميهم طبقة أخرى من صغار الموظفين المختصين والمهنيين. إلا أن الغالبية العظمى منهم كانت إما جزءاً من الطبقة دون المتوسطة العراقية أو من الكادحين الذين يحصلون على قوت يومهم وكفافهم فحسب وهم صغار الكسبة والحرفيين والبقالون والعمال.

تمسك اليهود العراقيون بعراقيتهم وتشبثوا بها رغم حوادث العنف والعزل الاجتماعي اللذين كانوا يتعرضون لهما في مناسبات مماثلة لتلك التي كانت تتعرض لها الأقلية (الكلدوآشورية) غير الواعية قومياً. إلا أن مظاهر العداء والعزل الاجتماعي كانت تتصاعد بتطور القضية الفلسطينية. وقد بدت هجرة الفلسطينيين الجماعية الهائلة التي شجعها القوميون العرب والدول الناطقة بالعربية وكأنها من عمل الصهاينة الإسرائيليين أو هكذا أراد القوميون والحكومات تقديمها لجماهيرهم. فاشتدت النقمة وصار المواطن اليهودي يتعرض في المدن والقصبات للإهانات والاعتداء بالضرب فلا تسمع شكواه ومع هذا بقي اليهود متمسكين بعراقيتهم ولم تنجح محاولات ترويع منظمة قام بها أفراد متحمسون للصهيونية بينهم. كانت ترمي بجوهرها إلى ترغيبهم في ترك العراق جماعات لا أفراداً لأن إسرائيل كانت إذ ذاك بحاجة إلى قوة بشرية.

قام فريق من هؤلاء بأعمال إرهابية ضد أبناء جلدتهم في بغداد ترمي إلى إيهامهم

بأن الحكومة والقوميين العروبيين وراءها فلم تكن بذات جدوى[١٠].

وبقي المجتمع اليهودي في العراق صامداً مقيماً على ولائه لوطن لا يعرفون وطناً آخر غيره يتذكرون فحسب ما نعموا به من حرية ورعاية لاسيما ما حباهم الفتح العربي وأيام الخلافة. ولم تظهر قط في العراق حركة هجرة طوعية كبيرة أو صغيرة منظمة إلى فلسطين بعد انطلاق حركة هجرة اليهود في العالم إثر نهاية الحرب العالمية. وبعكس ذلك فقد كانت هناك حركة يقودها تنظيم يهودي معاد للصهيونية باسم (عصبة مكافحة الصهيونية) مؤلف من شباب يهود مثقفين ذوي ميول ديمقراطية وتقدمية[١١].

وجد يهود العراق أنفسهم عراقيين أولاً ويهود ثانياً. مثلما وجدت غالبية اليهود الألمان الساحقة أثناء فترة الحكم النازي: ألمان أولاً ويهود ثانياً. ولهذا انصب عليهم الاضطهاد هناك كما شرحنا وخص الصهاينة منهم بالرعاية لاستعدادهم للتخلي عن الأولى في سبيل الثانية.

لم يكن اليهود بالأغبياء ليدركوا بأن الانتصار لقضية فلسطين - والسباق المحموم بين القوميين العروبيين وبين حكام الدول العربية على إحراز جائزة السباق الأولى في الجهاد القومي جعل منهم أقلية عدوة يجب التخلص منها لئلا يثير هروب أفرادها مشاكل. و(السويدي) ووزراؤه التسعة وخلفهم النواب والأعيان الذين صادقوا على هذا القانون يعرفون حق المعرفة أن الأفراد القلائل الذين كانوا يتركون وطنهم في تلك الآونة لم يتوجهوا إلى إسرائيل وإنما سكنوا بلاداً أخرى خوفاً مما يلحق بهم من مهانة وخشية أن يلاقوا عين المصير الذي لقيه الشقيقان (عدس) وتلك المئات التي راحت ضحية غضبة الجيش العراقي المندحر في حزيران ١٩٤١.

وكل ما عمله هذا القانون الأبله أنه دفع بمائة ألف ونيف من المعدمين وشبه

---

(١٠) أورد (الحسني ج٨ ص٢٠٩-٢١١) الطبقة الخامس ١٩٧٨ من تاريخ الوزارات البيان المفصل عن حوادث العنف التي افتعلها غلاة اليهود الصهاينة في العراق لحمل أبناء جلدتهم على إسقاط جنسياتهم وترك البلاد فلتراجع [اكتشفت الحكومة مخابئ عديدة للأسلحة وقبض على عدد من الضالعين في هذه الأعمال ونفذ حكم الموت في اثنين وحكم على آخرين بمدد مختلفة].

(١١) كانت حركة يسارية مدعمة بنفوذ الحزب الشيوعي وتعمل بإرشاده ويغلب على ظني أن العنصر الرئيس الذي وقع الطلب هو يوسف زلخة العضو في الحزب الشيوعية. أحيل أعضاء العصبة إلى المحاكمة بتهمة الترويج للصهيونية تحت غطاء مكافحتها! وحكم عليهم بمدد سجن مختلفة وكان تعليل المحكمة التي كان يرأسها خليل أمين المفتي من أعجب التفاسير القانونية أو اللاقانونية بالأحرى.

المعدمين والكسبة والموظفين الصغار والمهنيين والفلاحين والمزارعين إلى أحضان دولة إسرائيل تخلصاً من الإهانة والمضايقة الاقتصادية والاضطهاد الحكومي والعزل الاجتماعي، كتلة بشرية يؤكد لك الستراتيجيون العسكريون أن بينهما من القادرين على حمل السلاح ما يعادل فرقة تشغل تلك الأراضي التي باعها أصحابها الفلسطينيون من الوكالات اليهودية، والأخرى التي تركوها وراءهم حين نزحوا.

في مقدمة هذا القانون العجيب صراحةٌ حمقاء لا يسعني المرور بها. إذا كان عدد من المواطنين يغادر البلاد بصورة غير مشروعة (لأن الدولة تأبى منحه جواز سفر يخرج به بصورة مشروعة) فبأي وجه من العقل والمنطق تفسر قيام تلك الدولة باشتراع قانون خاص لغرض مشروعية تركهم البلاد وتسهيل مبادرتهم هذه شريطة أن يدفعوا الثمن الباهظ، مواطنتهم والتنازل عن جنسيتهم.

إنك لتحتاج إلى أقل من هذا بكثير لتشعر فرداً من أقربائك بأنه شخص غير مرغوب فيه. كم كانت حكومة السويدي تحتاج إلى سمعة قومية لتتويج رأسها بالعمل القومي الرائع وهي عملية لم تجارها فيه أية دولة عربية أخرى وفي كل منها أقلية يهودية؟

في الماضي السحيق كانت الأغلبية المسلمة قد تركت عالم المال والتجارة والاقتصاد لغيرها أنفة من مزاولة هذه المهن الوضيعة في عرفها لأنها لا تليق بمقام السيد الماجد لكنها وجدت في القرن العشرين أن التجارة والمضاربة بالمال والسوق تأتي بالغنى. إن الثروة النقدية لا تقلّ أثراً في حيازة النفوذ والسلطة من حيازة الأراضي والضياع. كان من الضروري أن يزاح التجار اليهود ورجال الأعمال فيهم من ساحة الحرب الاقتصادية. وقد آن الأوان لحسم هذا الصراع الذي لا يتحرج فيه عادة عن استخدام أي سلاح لاأخلاقي بما في ذلك الاستعانة بالدين والقومية والتضحية بمكارم الأخلاق.

وقد تم حسم المعركة بقانون إسقاط الجنسية، وقانون تجميد أموال المسقطة عنهم الجنسية الذي صدر بعد سنة واحدة.

في العام ١٩٣٨ صدر قانون مكافحة الآراء الهدامة رقم (٥١) الذي جعل الصهيونية إلى جانب الشيوعية وما شاكلها جريمة تبلغ عقوبتها الإعدام.

وفي العام ١٩٤٢ ولم يمر على صدور القانون أكثر من أربع سنوات ولم يحكم بموجبه صهيوني واحد، تقدمت هيئات الطائفة اليهودية للحكومة باحتجاج رسمي على

وجود المؤسسات الصهيونية في العراق وطلبت من السلطة غلقها وإلغاءها فوراً؟

بعد أسبوع واحد من مصادقة مجلس الأعيان على القانون رقم (٥١) هذا ألقى (عزرا مناحيم دانيال) الخطبة التالية في المجلس بهذه المناسبة إليك نصها:

«أرجو أن يسمح لي المجلس العالي بالقاء كلمة حول الصهيونية في العراق فقد وافقنا جميعاً قبل بضعة أيام على إقرار لائحة ذيل قانون العقوبات البغدادي رقم (٥١) للسنة ١٩٣٨ المتضمن اعتبار التحبيذ والترويج للصهيونية جريمة يعاقب عليها كالشيوعية والفوضوية والإباحية وافقنا عليه دون مناقشة.

إلا أني أرى من واجبي الآن أن استعرض تاريخ غرس الصهيونية في العراق والعوامل التي غذتها لغاية تنوير المجلس العالي وليتخذ منها عبرة في المستقبل عند توجيه سياستنا الداخلية.

في أواسط سنة ١٩٢٢ أي بعد تشكيل الحكومة العراقية بقليل، حضر إلى العراق مندوب مرسل من الجمعية الصهيونية في فلسطين لغاية تأسيس وكالة صهيونية وناد ومدرسة في البلد لترويج وتجنيد مبادئ الصهيونية لدى الجيل الناشئ وبث الدعاية للهجرة إلى فلسطين.

هال هذا الأمر الطائفة الإسرائيلية. فاجتمع وجوهها وبحثوا فيما يؤول إليه انتشار هذه الفكرة من نتائج وخيمة. فقرروا إيفاد من اعتمدوا عليهم لمواجهة المراجع ذات الشأن لأجل منع هذه التشكيلات، فراجع الوفد دائرة المندوب السامي البريطاني بالنظر لما كان معروفاً أن إشارة خفيفة من هذا الجانب كانت كافية لمنع هذه التشكيلات، وبالنظر لما كان ينتظر من هذا الجانب من العطف على هذه الدولة الفتية التي لم تلبث أن شكلتها، وعلى سكانها من العرب واليهود الذين عاشوا متحابين ومطمئنين الواحد من الثاني عصوراً مديدة تتجاوز ألفي سنة. ولكن فضلاً عن أن الحكومة العراقية ذاتها تثبت هذا المشروع، مشروع غرس نواة الصهيونية في العراق بإجازتها تأسيس وكالة صهيونية وناد ومدرسة بإجازة من (وزارة) الدعاية لترويج وتحبيذ الصهيونية في العراق، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين تحت رعاية الحكومة وحمايتها. إن المعتمد الذي عينته الوكالة الصهيونية في فلسطين للعراق كان معترفاً به رسمياً وكانت دائرة السفر والجنسية لا تعطي جواز السفر إلى فلسطين إلا بعد أن يصادق المعتمد المذكور على هذا الجواز، في الوقت ذاته اتخذت الحكومة

تدابير معاكسة. وهي نشر الدعاية ضد الصهيونية في المدارس الرسمية وفي وحدات الجيش وفي المطبوعات. وحينما نظمت دوائر المعارف المظاهرات ضد (السر ألفريد موند) عند قدومه إلى العراق سنة ١٩٢٨ باعتباره أحد أقطاب الصهيونية لم تفكر بإلغاء إجازة مدرسة الصهيونية الممنوحة من قبلها بل استمرت هذه المدرسة والمؤسسات الأخرى في أعمالها. ولم تقدم الحكومة على إلغائها إلا بعد أن قامت الطائفة الإسرائيلية باحتجاج شديد لدى أولياء الأمور على هذه الأعمال ذات الوجهين وكان ذلك سنة ١٩٣٤ أي بعد ١٢ سنة من تأسيس هذه التشكيلات ويشهد على ذلك من كان في مسؤولية الحكم في ذلك التاريخ. إن هذه التصرفات من قبل الحكومة اولدت الكره من العرب لليهود مما سبب اغتيالات علنية وإرهابية مختلفة لليهود من سنة ١٩٣٤ إلى ١٩٤٦ وهذه جميعها بقيت بدون تعقيب أو بدون نتيجة.

إن من آثار التصرفات أيضاً الكارثة الكبرى التي وقعت سنة ١٩٤١ فذهب ضحيتها مئات من اليهود بالقتل والنهب والسجن مما اضطر الحكومة إلى استعمال القوة المسلحة لأجل إعادة النظام المختل ولكن لم يتم ذلك إلا بعد التضحية بعدد لا يستهان به من العرب. إن هذه المآسي المتوالية وآخرها الكارثة المنوه عنها سبّبت عدم اطمئنان يهود العراق على مصيرهم وعززت الرغبة في الهجرة من العراق. فالفقير من اليهود توجه بنظره إلى فلسطين حيث وجه نظره إلى البلاد الأجنبية الأخرى التي يشعر بالاطمئنان فيها على حياته وماله أكثر مما يشعر في العراق. وددت مضطراً أن استعرض هذه الحقائق لدى المجلس العالي ليكون على علم بها وليكون ذلك عبرة لنا لنستفيد بها مستقبلاً عند توجيه سياستنا الداخلية لا على الذي ترك بلاد وأقرباه متألماً فحسب، بل على العوامل التي الجأته إلى الهجرة».

وبدا من السخف بمكان لجوء بعض القوميين العروبيين إلى الحجة القديمة في إلقاء كل تصرف سياسي أخرق أو سيّئ العاقبة على عتبة دار المندوب السامي البريطاني أو النفوذ البريطاني الذي يمارس على الحكومات العراقية، كتحميلهم في تلك الأيام مسؤولية تشجيع الحركة الصهيونية في العراق. فقد رأينا الساسة القوميين بعد الاستقلال كياسين الهاشمي والگيلاني وحكمت سليمان وغيرهم يوجهون سياسة البلاد ويعبثون بمصائرها بتحد صريح للبريطانيين وخلافاً لرغبات الوايت هول في العراق رغم التشجيع

الحكومي؟ وجدنا عامة الجمهور اليهودي ضعيف الاستجابة إلى دعوات الصهيونية لاسيما خلال الأعوام ١٩٣٢-١٩٣٥ فطول الفترة التي سمح فيها بالنشاط الصهيوني وحتى صدور قانون إسقاط الجنسية لم تنجح مجهودات وكلائه في إغناء (أرض الميعاد) بالقوة البشرية قدر ما أغنتها الاعتداءات والإهانات والاضطهاد القضائي والمقاطعة الاجتماعية التي تعرضوا لها. بل رغم كل هذه المضايقات العنصرية الدينية ما وجدنا من أولئك الذين وصفناهم مَن يندفع بعاطفة قومية أو دينية لاتخاذ إسرائيل وطناً ثانياً. ومن وصفناهم بالتجار ورجال الأعمال وكبار المثقفين والتكنيين انتشر في مشارق الأرض ومغاربها دون إسرائيل وبقي منهم آلاف يحنون إلى وطنهم الأمّ أمناء على عراقيتهم رغم تجريدهم منها بحكم ذلك القانون. هؤلاء فقدهم الوطن مجاناً وبدون عوض.

وصديقنا الشاعر العربي الكبير - العراقي الأصل والمحتد يصف العمل بمؤامرة كبرى مدبرة بليل قال:

«قدّم لإسرائيل أكثر من مائة وخمسين ألف يهودي عراقي أصيل ومثقف وذوي اختصاص في شتى مجالات الحياة بأسهل مما يقدّم قطيع غنم. أما لماذا تصنف الوزارة السويدية وعموداها الفقريان (توفيق السويدي وصالح جبر) التغافل عن تجميد أموال وأملاك المهجرين إلى إسرائيل هدية على أطباق من ذهب في حين أن هذا التجميد وكما يقال وضع اليد على كل ما يمتلكه اليهود العراقيون... لماذا يؤجل كل ذلك إلى أكثر من سبعة شهور ريثما تجيء الوزارة السعيدية وفي هذه المرة بعمودها الفقري الأوحد نوري السعيد... ليتكفل بذلك كله، فهنا يكمن السر الرهيب وما عسى أن يكون هذا السر سوى أن تسمح الفرصة خلال هذه الفترة القصيرة لتخليص هؤلاء اليهود وبخاصة كبار تجارهم وصيارفتهم وإقطاعييهم كل ما يملكون من ثروات وكنوز... ومن سخرية القدر أن يكون حزب الاستقلال الذي هو الغطاء الأول على من يسمون القوميين العرب أي من يفترض فيهم أن يكونوا هم في المقدمة ومن الثائرين، بكل ما يستطيعون وبكل ما يدخرون من قواهم الحزبية لا لشجب المؤامرة حسب، بل لإثارة الجماهير لغرض إسقاطها أن يكون منه فيمن يمثله في مجلس النواب».

في هذه المناسبة أرى أن أذكّر الصديق الجواهري وقراءه وقرائي بأن أولئك الحكام

الذين أصدروا قبل ٢٤٨٨ سنة بالضبط ذلك المرسوم الذي أباح لأسلاف هؤلاء اليهود المفضلين العودة لا بأخذ كل مقتناهم وأموالهم وحسب بل كل ما نهب من نفائس وذهب وجواهر كانت تزدان بها هياكلهم وإعادتها إليهم، انهم كسبوا ما كسبوا كأجدادهم بجدهم وعرق جبينهم وهو حلالهم. كان من رأي القوميين العروبيين الذين يمثلهم حزب الاستقلال في العراق أن تهتم الحكومة قبل كل شيء بتجريد اليهود من مقتناهم وما ملكت أياديهم بدل الاهتمام بإبقائهم في العراق. أما أن تزود دولة إسرائيل بقوة ضاربة تعادل فرقة عسكرية من هؤلاء النازحين فضلاً عن أكثر من ضعف هذا العدد من الأيدي العاملة التي كانت هذه الدولة في حاجة ماسة إليها وهي تخوض معركة موت أو حياة، فهذا أمر ثانوي عند القوميين العروبيين وهذا هو البلاء الأكبر.

خلال فترة النزوح الجماعي هذا - وخلافاً لبعض التحرشات والإهانات والبرود العام الذي كان يقابل به حوالي خمسة عشر ألفاً من يهود مدينتي الموصل ومثلها أو قريب منها في أرجاء كردستان العراقية - راح هؤلاء بصمت وبأكثر ما يكون من السرية يبيعون أثاث بيوتهم ولم يكن بينهم غير أفراد يعدون على الأصابع ممن عرف بسعة الرزق والثروة يعيشون كافة في حي خاص بهم منذ مئات إثر مئات من السنين ولا يجرؤ أحد منهم على تركه إلى منزل جديد في أحياء أخرى. وليس بين منازل ذلك الحي ما ينم عن ترف وخفض عيش فكلهم كسبة وبقالون وحرفيون وقليل منهم موظفون صغار. راحوا يبيعون مقتناهم بأبخس الأثمان وعجلة الخائف من مصير أسوأ ومجملها يكاد لا يسد نفقات سفرهم. وفي اليمن كان من اليهود عدد يقارب عددهم في العراق أو يكاد، مائة ألف هم عرب أصائل ينتمون إلى قبائل عربية تمسكت بيهوديتها التي انتشرت هناك قبل الإسلام بقرون وليسوا نسل عمليات سبي أو تهجير، أبرمت صفقة افتدائهم بين المنظمات العالمية الصهيونية وبين إمام اليمن الذي أصر على دفع الثمن بالذهب. وقد حمل إليه بصناديق خلال عملية الترحيل الهادئة التي بدأت في أواسط العام ١٩٤٩ وعرفت بعملية البساط السحري (Magic Carpet). بدأت بجسر جوي بعد جمع المرحلين في مرفأ عدن وأنجزت في آذار ١٩٥٠ خلال الأسبوع الذي بدئ بتطبيق قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق.

أكان ذلك محض مصادفة؟

كم كانت الحكومة العراقية تعرف عن هذه الصفقة؟

هؤلاء اليهود اليمانيون كانوا مواطنين من الدرجة الثانية في بلدهم الأم جعلتهم

أجيال إثر أجيال من سوء المعاملة والاحتقار والعزل الاجتماعي في آخر سلم المدنية مثل منبوذي الهند. ولم تكن حالتهم تشبه بأي وجه حالة اليهود العراقيين بصورة عامة فهؤلاء الأخيرون غادروا بلادهم رغم أنفهم. غادروها والدمع يجول في محاجر أعينهم.

* * *

يرى المؤرخ اليوناني الشهير ثوكوديدس (٤٦٠-٤٠٠ ق.م) «أن التسرع والغضب هما أعظم عقبتين تعترضان الرأي السديد، وتحولان دون الوصول إلى حل منطقي سليم. والكره الأعمى يساير الحماقات عادة. والغضب هو أظهر طابع في العقول البدائية أو الضيقة الأفق. وإن كل من لا يجعل المناقشة والمحاجة هادياً ومرشداً للإقدام على عمل ما، ما هو في الحقيقة إلا أحمق أو ذو غرض شخصي. فهو أحمق عندما يتصور بأن في سعة معالجة أي مشكلة مستقبلية محتملة بأية وسيلة أخرى غير المناقشة والمحاجة الجلية. وهو ذو غرض شخصي إذا كان هدفه إقناع الآخرين للقيام بعمل يدعو إلى الفخر أو المشاركة فيه». كذا كانت الحال عندما استقبلت البلاد الناطقة بالعربية النصف الثاني من القرن العشرين فقد بلغت الأمور خوف الإدلاء برأي جيد فيه معاكساً للتيار العام الجارف، إلا إذا كان متأهباً لعواقبه الخطيرة. فكل اقتراح جيد باعثه الإخلاص كان يبدو موضع شك وريبة قدر ما يبدو أي اقتراح مغرض أو سيّئ أو غير سديد. ولذلك وجدنا الفئات التى ندبت نفسها للدفاع عن عمل طائش أخرق بنية الحصول على التأييد الشعبي تقف عين موقف الفئة الصادقة النصح في محاولتها إحباط ذلك العمل. وكلا الفئتين يعمد في مثل هذا الظرف إلى المبالغة أو الكذب أحياناً مؤملاً أن يحظى بمؤازرة الناس، وبالمصداقية. إنها مظهر من مظاهر الذكاء البشري، صراع عقلي تجد السلطة الحاكمة نفسها فيه من غير وقوعها ضحية خداع. إلا أن الأمر لا يكون كذلك وقت الأزمات العامة عندما تدعو الضرورة إلى اتخاذ موقف معين حيث تطغى حالات الشك. ويتعاظم التذبذب بين الرأي السديد والرأي الآمن ليبدو كل من أنجز عملاً وطنياً مفيداً أو أسدى خدمة صحيحة أو أدلى برأي سديد جريء فكأنه ما فعل ذلك إلا لفائدة جانبية ويوضع موضع اتهام، تلك هي المكافاة التى ينالها عادة أولئك الذين يجدون في انفسهم الجرأة لقول ما هو ضد إجماع مزيف. ولهذا سكتت جهات سياسية مخلصة وشخصيات وطنية عاقلة، عندما بدأ القوميون العروبيون يحرضون الدولة على اتخاذ إجراءات أكثر حزماً في معالجة قضية طرد اليهود. بل راح

بعض من كان ينتظر منهم الرأي السديد والجراءة على إعلانه ينجرون مع التيار العام ويؤيدون خطوات الدولة.

بدا التحريض ضد اليهود في العام ١٩٤٨ أشبه بتحريض العام ١٩٣٣ ضد المسيحيين بشخص الآشوريين. والفرق هنا هو أن اليهود كان لهم دولة متلهفة لاستقبالهم ومنحهم كامل حقوق المواطنة في حين لم يكن للآخرين خيار مماثل.

قلت يوماً لصديق ولم يمض غير بضعة أشهر على خروجي من أمام المجلس العرفي العسكري في كركوك سليماً معافى: «سألتك بالله، كم خدم القضية الفلسطينية وقضية العروبة استغناؤها عن مائة وعشرين ألف يهودي من المواطنين العراقيين وتشييعهم حتى ولوجهم باب إسرائيل؟» فأسرع الصديق يرد متلفتاً يمنة ويسرة: «اسكت! أو لعلك ترغب في مواجهة ثانية للمجلس العرفي».

لم أحترم قط مذكرات الساسة العراقيين وكان يركبني هم كلما اضطررت إلى مراجعتها يدفعني إلى ذلك فضول غالب على الصدور في أغلب الأحيان. فهؤلاء بصورة عامة لم يدونوا ما دونوه لفائدة الناس. وإنما لخدمة أنفسهم ودفاعاً عن سمعتهم. لذلك لا تجد فيهم من يقر بخطأ ارتكبه في معالجة هذا الأمر أو ذاك. وإذا اضطر إلى إعلان فشل تراه يسرع ليلقي الذنب فيه على الآخرين. إلا أن سياسياً مثقفاً كتوفيق السويدي سجلت له مواقف جريئة، وبقي محافظاً على ذاكرة عجيبة لم تخنه في تسجيل أصغر الأمور شأناً في مذكراته. لا بد سيعرض تبريراً ما لإصدار حكومته قانون إسقاط الجنسية عن اليهود. إلا أني لم أجد كلمة واحدة فيها.

تجاهل السويدي الموضوع برمته تجاهلاً تاماً، ودفن رأسه في الرمال كما تفعل النعامة حتى بدا وكأن القانون لم يصدر في عهده، وأن خيوط الجريمة وفصول المأساة تعاقبت في بلد آخر غير العراق. ولعل هذا السياسي الباقعة أدرك في سنواته الأخيرة ثقل الذنب وكره أن يفتح باعترافه به باباً مغلقاً على جيفة قد تنشر على إثر فتحه روائح كريهة، تضر بسمعته وتشوه الصورة القومية التى رسمها لنفسه في مذكراته تلك.

في حالة السباق على المركز الأول في ميدان الدفاع عن فلسطين والفلسطينيين سادت غيوم قاتمة من التسرع والغضب عقول الساسة. صوّر اليهود العراقيون من خلال شقوقها بوصفهم أقلية مشبوهة، مشكوك في ولائها تحسن التخلص منها صفقة واحدة وان كان ذلك في نفع العدو. ولست أريد التطرق إلى مساهمة طبقة التجار ورجال الأعمال غير اليهودية في حملة التأليب هذه ولا كيف انقلب هؤلاء فجاة إلى قوميين

عروبيين، ليدفعوا من خلف ستار شفاف هم والقوميون المحترفون بالغضب الشعبي إلى الحاقه مثلما دفعوا بالتسرع الحكومي الأهوج إلى أحضان الجريمة، طمعاً في الحلول محل اليهود في عالم المال والاقتصاد والتجارة، فلهذا بحث يطول. وقصدي هنا أن ألقي ضوءاً على المواقف المرتجلة التي وقفها القوميون العرب في معالجة المشكلة الفلسطينية. كان الجميع على ثقة تامة بأن الجيوش العربية ستقوم بنزهة عسكرية في فلسطين فحسب والأمر لا يحتاج إلى أكثر من استعراض للقوة ليتم النصر وليعود الفلسطينيون إلى ديارهم إثرها. إلا أن المواقف الحماسية المتسرعة المحفوفة بالغضب الجماهيري تحولت بمرور الزمن إلى نوع من الهم الدفين والندم الذي زاد عمقاً وتعقيداً بتناجح الهزائم السياسية والإخفاق العسكري أضاعت الدول الناطقة بالعربية والقوميون العروبيون خلالها فرصاً لا تعوض على الفلسطينيين وعلى الأهداف القومية بصورة عامة. وبدأت اللائمة تنحسر بالتدريج عن وعد بلفور ومصادقة زعماء العرب في حينه على إنشاء وطن قومي لليهود وعن مساندة الدول العظمى لدولة إسرائيل، لتلقى على الحكام العرب إلى حد تحميلهم تبعة نكبة الفلسطينيين والتسبب في تشريدهم بسبب تخبطهم السياسي وانتهازيتهم ومحاولة المتاجرة والمساومة في قضيتهم ودخولهم مباريات دعائية جماعية وفردية لا تلبث أن تنقلب إلى حرب كلامية تتبادل فيها التهم بعبارات تبلغ حد البذاءة والابتذال.

في بعض هذه المواقف ترتكب حماقات لا تخلو من عنصر فكاهة. ويحضرني منها حكاية الجامعة العربية والمنحة المالية التي قررتها حكومة ألمانيا الاتحادية لإسرائيل تعويضاً لليهود الألمان الذين صادرت ألمانيا الهتلرية ممتلكاتهم وذوي الآخرين الذين قضوا نحبهم في معكسرات الاعتقال أو خرجوا منها أحياء.

ففي شهر آب ١٩٥٢ قررت حكومة (كونراد أديناور) دفع مبلغ ٧٥٠ مليون مارك لإسرائيل فثارت ضجة إعلامية كبيرة في عواصم البلاد الناطقة بالعربية وبالأخص في بغداد والقاهرة ودمشق، قرر مجلس وزراء الجامعة بإثرها إرسال وفد رسمي إلى (بون) لإقناع الحكومة الألمانية بالعدول عن صرف المنحة. وتألف الوفد من ثلاثة أعضاء سوري وعراقي ومصري شد الرحال إلى العاصمة الألمانية مشيعاً بتهديدات الحكومات العربية بمقاطعة البضائع الألمانية في سائر البلاد الناطقة بالعربية في حالة إصرار الألمان وقابل الوفدَ موظفٌ ألماني صغير في وزارة الخارجية، برد وجيز:

«إن بون حرة في التصرف بأموالها العامة ورسم سياستها الخارجية مع الدول

الأخرى. وإن خطر في أي وقت ببال الحكومات العربية مقاطعة ألمانيا تجارياً فإن ألمانيا لن تحتج مطلقاً. ثم ألا يرى الوفد من الأولى أن تقاطع حكوماته تلك الدول التي خلقت إسرائيل وأن تعيد النظر مثلاً في علاقاتها مع الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي؟».

وإلى جانب هذا العنصر الفكه هناك الجانب المأساوي في حروب خائبة ونكبات مريعة وصدامات دموية بين اللاجئين الفلسطينيين والحكومات العربية. أعمال إرهابية هلك فيها عشرات الألوف من الأنفس، وأهدرت آلاف الملايين من أموال تلك الشعوب الفقيرة، وجدت سبيلها إلى خزائن الدول وجيوب تجار السلاح المصدرة للأعتدة والمعدات الحربية، بهدف تحرير فلسطين، وإبقاء البلاد الناطقة بالعربية في حالة حرب دائمة بكل اجوائها القاتمة غير الطبيعية، وإعاقة التقدم الذهني والتطور الاجتماعي والاقتصادي، ووضع العصا في عوارض عجلة النهج الديمقراطي والفكر الديمقراطي. وقمع روح التسامح الديني والقومي، وتأجيج روح التعصب للاثنين بل وأكثر من ذلك.

وضعت قضية تحرير فلسطين العربية البلاد الناطقة بالعربية على خط الانقلابات العسكرية التي تخللت بعضها حروب أهلية ومذابح داخلية بنيت خلالها سجون ومعتقلات بدلاً من مدارس ومستشفيات.

والحروب والانقلابات العنيفة (كثيراً ما سماها أصحابها بالثورات الشعبية أو القومية أو الوطنية) كانت أيضاً من نتائج مضاعفاتها أو واحدة من أسبابها كما صار يحلو هذا لبعض الانقلابيين زيادة في إظهار الطابع القومي لانقلاباتهم. وقد عاصرناها جميعها وذقنا من مرارتها أكثر من الكفاية. ووجدنا بين الانقلابيين من يفخر بأنه حقق انقلابه من دون إراقة قطرة دم واحدة لينعت في وسائل الإعلام عادة بالانقلاب الأبيض كأنه الاستثناء من القاعدة العامة القاضية بأن يكون الانقلاب أحمر. إلا أن الدماء ما تلبث أن تسيل ويطغى اللون القاني على الأبيض فلا يعود يبين له أثر.

لم يفرض حكم الأجنبي على البلاد الناطقة بالعربية النظام الديمقراطي البرلماني فرضاً قسرياً وإنما اختاره لفائدة تلك الشعوب. ومن الممكن القول إن حكام هذه الشعوب ارتضوه وراحوا يطبقونه بعد أن ارتفعت يد الأجنبي ولو بقليل من النجاح وبالأقل من حالات السلم والطمأنينة التي يحتاج إليها هذا النظام لغرس مفاهيمه في النفوس. ففي حالة السلم والطمأنينة ينزع الأفراد والدول إلى البحث عن قيم رفيعة

للتعامل إذ ليس هناك ما يرغم أفراد الجهتين على اتخاذ وضع يعملون فيه ما يكرهون وغير ما يريدون. إلا أن الانقلاب والحرب هما معلمان قاسيان شديدا الوطأة لأنهما يرغمان الجماهير على النزول بعقولهم إلى مستوى الظرف الاستثنائي الراهن، من ذلك تجريدها من القدرة على التفكير في المستقبل ومسألة حفظ النفس وتحقيق مطالب العيش اليومية بالشكل الذي اعتاده الفرد منها.

نجاح الانقلاب في بلاد توفرت لديها أسباب للانقلاب يبعث في مبدأ الأمر نشاطاً ويشيع روحاً متوثبة وآمالاً عراضاً في توقع حال أفضل، والتشكيك فيه وفي جدواه كالتشكيك في عدالة الحرب وجدواها (كالابتعاد عنهما والتنصل منهما حين تصفع ريحهما الوجوه) يعتبر عاراً وخيانة، لا يجرؤ أحد على الوقوف في وجههما أو التصريح برأيه فيهما. وتفتقد الشجاعة الادبية عادة فلا تسمع عادة تنديداً أو دعوة ضدهما والمسألة ليست مسألة عقاب.

ويرافق جو الانقلاب وحالة الحرب انقلاب خلقي ظاهر فيحل الانتقام محل التسامح والإغضاء مثلاً ويبعث الخوف من المجهول الشلل الفكري إلى غير ذلك من الحالات التي تقتضيها مجاراة عملية الانتقال الاجتماعي الفجائي. حتى الكلمات فإنها تفقد معانيها المألوفة ويعتري مدلولاتها تغير مخيف. فما كان يوصف بالاعتداء صار يعتبر شجاعة عندما يصدر من العسكري أو الانقلابي أو الحزبي المقاتل أو العقائدي المجاهد.

ويمقابل ذلك ينعت التروي والتأمل الجدي في المستقبل بالجبن والانهزام. وتعتبر الدعوة إلى الاعتدال محاولة من صاحبها لتغطية حالة فقدان الرجولة وروح الإقدام وخور النفس. والدعوة إلى فحص وتدقيق لمشكلة حيوية ودراستها من شتى جوانبها تبدو إذ ذاك تخاذلاً وينعت صاحبها بالفاقد كل مقدرة على العمل، أو أنه غير صالح لمباشرة عمل مطلقاً. فهو غير صالح للعهد الجديد، وبخلافه يبدو التعصب الحماسي سمة الرجل القادر على الإتيان بخير العمل. والتآمر ضد الخصم بغية الإيقاع به هو عمل شرعي لأنه وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس. ومن ينزع إلى العنف يكون أهلاً للثقة ومن يعارضه يكون موضع شبهة. ويعتبر نجاح الانقلابيين دليلاً على مؤهلات وذكاء خارقين، ونصراً صغيراً يحققه قائد عسكري يغرقه في ألقاب البطولة والتمجيد، وينسى به هزائم سابقة مني بها وقد ينقل الانقلاب أو النصر واحدهم من زوايا الخمول إن لم يسبق أن خاض معركة واحدة. وتغلب الحزب الانقلابي يعتبر دليلاً على أفضلية

مبادئه وصلاحها للتطبيق دون مبادئ الأحزاب الأخرى التي ثبت عدم جدواها لأنها لم تحاول فرضها بالقوة أو لم تنجز عملية انقلاب مثله.

في الوضع الانقلابي تحل مقاييس جديدة للحكم على المواقف والأعمال محل المقاييس المعتادة. فالرباط العائلي مثلاً يبدو أضعف من رباط الانتماء السياسي، كالعضوية في الحزب الانقلابي المنصور، وتلحق بها رابطة الصداقة وكذلك رابطة رفاقية المهنة لاسيما رفقة السلاح ورابطة الصداقة والألفة.

الانقلابي مستعد لتنفيذ أي واجب يكلف به ولأي غرض وإن كان على حساب أقربائه أو رفاقه أو صداقته. الأحزاب المتآمرة ورجال الحرب الانقلابيون لا يجتمعون في حلقة تآمرهم بسبب مشاركة عقائدية صميمية أو أخوة أو بأواصر مبدأ متينة العرى كما يدعون، بل لأنهم شركاء في عملية ضد الشرعية والنظام السائد. ليس لديهم خلافاً لثقة غير محدودة بأنفسهم ومقدراتهم غير ثقة وقتية يتبادلونها فيما بينهم حيناً من الزمن سرعان ما تنحل وتبدأ بالزوال عندما يبدو عجزهم وقصورهم أمام المشاكل والمعضلات المختلفة عن العهد السابق وهي عينها تلك المشاكل والمعضلات التي تعهدوا بحلها. ويضاف إلى هذا الركام من المشاكل مشاكل ومتاعب استحدثت بانقلابهم، تراهم يغرقون فيها حيناً ليخرجوا رؤوسهم من لجّتها بعد حين وواحدهم ممسك بخناق الآخر يسفّه رأيه في هذه المسألة ويعيب عليه أسلوب معالجته تلك، لا لأنه يملك رأياً أصوب أو حلاً أجدى بل ليتخذ من زعمه ذريعة للسبق في ميدان الصراع المحموم على حيازة المقام الأول أو السلطة العليا في الانقلاب وتبعد الشقة، وتنحل رابطة التآمر التي جمعتهم، ويحل محل التكاتف والتعاضد الشك والحقد المتبادل المتنامي. والانتقام هنا يبدو وكأنه أكثر أهمية من حفظ المهجة. فعصبة الانقلاب لم تلتئم إلا بنوع من التعاقد على مواجهة عقبة، أو تحقيق نهاية ولكل منهم تصور جانبي خاص وشخصي لها. وهذا التعاقد يبقى نافذاً عندما لا توجد وسيلة أخرى تحكم أطرافه. فإذا تم بلوغ النهاية بإزالة العقبة وهي النظام القائم، يبدأ المضمر من التصور الخاص لكل عضو متآمر بالبحث عن وسيلة أو سلاح لإنجاز ذلك المضمر وهو بالأكثر غرض شخصي. فإذا عنّت لأحدهم فرصة على تحطيم رفيق الأمس وعضيده أمسك بها واستخدمها بكل الاستمتاع واللذة المتبادلة وبكل ما يتيسر من وسائل.

والخدعة هنا تنعت بالذكاء الخارق. والنذالة توصف بسعة الحيلة. والقتل والتصفية الجسدية إخلاص للمثل والمبادئ.

والهيام بالسلطة الذي يدفعه الطموح الذاتي هو علة الشر، سيما إذا كان يمازجه تعصب ذو طابع عنيف. وكلاهما يختفي في كثير من الأحيان تحت قناع من المناهج السياسية المثيرة للإعجاب والمدونة بعناية وبأسلوب جاذب أخاذ: الحريات السياسية، الحقوق العامة مشاريع البناء والإعمار رفع المستوى المعاشي، الإنعاش الاقتصادي، القضاء على البطالة، إزالة الفروق الطبقية، المساواة بين الطوائف القومية والدينية، إقامة حكومة صالحة، وضع نهاية للفساد والاستغلال وغيرها وغيرها.

من خلال تلك الوعود اللامعة يستشف ذلك السابق الحاقد المشبع بروح الانتقام لنيل الجائزة الأولى ولا شيء يقف أمام المتصارعين على السلطة العليا، وما يرتكب خلال تلك الفترة قد يبلغ من الفظاعة ما لا تجد الأقلام له وصفاً لائقاً.

المصطرعون على السلطة لا يتطلعون إلى الوراء. لأن النظرة الخاطفة قد تعيقهم في السباق وربما ضيعت عليهم فرصتهم. ولا يردعهم رادع من العدالة والرحمة، والمقاييس الوحيدة في الصراع هي رضى الحزب الذي ينتمون إليه ويعملون له إن كان الحزب طرفاً، أو رضى الطموح في النفس للفرد إن عملوا فرادى واشتغلوا لحسابهم كما يقال. وفي خلال ذلك تنثر التهم الخطيرة نثراً على المنافسين والأعداء معاً. فتقام المحاكم اللاقانونية وتنصب المشانق ويوضع الأعداء والمنافسون أمام فرق الإعدام وتوارى جثث الضحايا تحت جنح الظلام وتغطى السجون على رحبها. في ميدان الصراع هذا لا يجد أي فريق متسعاً من الوقت لتحكيم الوجدان والضمير، وينصبّ أعظم الويل ويوجه أكثر الاهتمام إلى القادرين على تعرية الزيف وكشف الحقيقة بحجج قوية وأساليب مقنعة وكذلك إلى أولئك الذين يتمسكون بالقيم الخلقية وينصحون بالاعتدال ولا يخشون من إعلان آرائهم، بعين القدر من الاهتمام الذي يوجه إلى القادرين على عرض تعاليل وحجج جذابة تبريراً لعمل سيّئ لا أخلاقي، فيسحق الأولون سحقاً تحت أقدام التطرف الناقم في حين يرفع الأخيرون إلى مراتب القيادة والإرشاد.

ولحالة الحرب وما تفرضه من تدابير وقائية وقيود استثنائية فضل كبير في إشاعة التفسخ الخلقي وتفشي الفوضى الفكرية في طول البلاد وعرضها وفي ظل حكم لا يستند إلى رغبة عامة أو خيار شعبي، فها هنا لا تجد النظرة المجردة الطاهرة إلى الأمور موضعاً حيث ينشق المجتمع إلى ولاءات عمياء شخصية أو معسكرات مبادئ يعادي أحدها الآخر ولا ضامن لوضع حد لحالة كهذه. فباستمرار الأوضاع غير الطبيعية الاستثنائية يتعذر الركون إلى حلف، أو إقامة جبهة، أو عقد صفقة تتم لقيام وحدة

يخفرها حسن النية المتبادل وإن وثق الحلف بأغلظ الأيمان إذ ليس هناك طرف من الأطراف يخشى عواقب الخروج على حلف أو ميثاق أو يتعفف من نقضه.

وبتمادي الزمن وبتتابع مشاهد الانقلابات وتوالي عرض صور الانقلابيين العسكريين كما تعرض الرقوق السينمائية على المشاهدين لتخرج عليهم شخصياتها وأبطالها من الظلام فجأة ومن غير توقع، تغشى عامة الناس حالة يأس واستسلام وخيبة أمل من حياة هادئة وادعة. وتستولي عليهم مشاعر اللامبالاة وفي هذا الوضع تجدهم يتصرفون كما تتصرف الأرانب في الأقفاص، تجدهم بدل الثقة بالغير ينفرون حتى ممن يقدم لهم الغذاء أو يفتح لهم باب القفص وإذا هم يبذلون جل مجهودهم وأوقاتهم في توقي شر الآخرين.

وكقاعدة عامة قلّت شواذها تجد أولئك الذين لا يملكون من الذكاء والمواهب العقلية إلا أدناها يملكون أكبر حظ من المقدرة على البقاء. وهؤلاء هم الذين أخرجتهم الانقلابات والحروب من زوايا الخمول ومن الظلام ودفعت بهم إلى سطح الماء- وتراهم لا يجهلون عيوبهم ولا قصورهم ويسلمون سراً بتفوق الآخرين عليهم عقلياً. فيكون سبيلهم إلى سحقهم محاولةَ إزالة الثقة بهم وبتحويل الميل عنهم بكل الوسائل. ويبقى الخوف يساورهم مهما طال بهم الزمن من تغلب الحكمة والعقل في المعتدلين الكفوئين على الشهوة إلى السلطة والتحكم. إن المصلحة العامة المتجردة من الأنانية وطلاب الشهرة الفردية ستزيح الرغبة في اطّلاب الشهرة والسلطة لنفسيهما.

الانقلابات العسكرية الأربعة الأولى التي وقعت في سورية بين آذار ١٩٤٩ وانتهت بهروب الشيشكلي آخر انقلابييها في شباط ١٩٥٤ باتت نموذجاً لما كان سيغدو الأسلوب المتبع في البلاد الناطقة بالعربية.

زعيم الانقلاب الأول - هو كردي الأصل خريج المدرسة الفرنسية - لم يؤثر عنه موقف عروبي، ولم يعرف أنه أقام وزناً للقوميين العرب في بلاده أو في غيرها. كما أنه حقق انقلابه ذاك ضد قوميين عروبيين أو مدعين بها على الأقل. ومع هذا وجدناه يتمسك بأذيالها ويضع على وجهه قناعها في محاولة منه لخداع مدع عريق بالعمل للقومية والعروبة.

لم تفتر مساعي حكام العراق قط في تحقيق نوع من الوحدة مع سورية وقد كان لها أبداً حماتها ودعاتها في البلدين. واعتاد ساسة سورية القوميون العاملون لها أن يتلقوا معونات مالية بين آن وآخر ثمناً لمجهوداتهم في سورية. ولهذا وجدنا نوري

السعيد رئيس الحكومة العراقية الذي بدأ عهده باتمام ما بدأه الپاچچي - بإصعاد خمسة من زعماء الحزب الشيوعي إلى المشنقة - يقع على وجهه في مصيدة الزعيم السوري الطارئ في عالم السياسة، رفيق السلاح في الجيش العثماني. عندما لوح له برغبة في التقارب الوثيق مع العراق، تفوح منه رائحة وحدة ثنائية، تراه يسرع إلى دمشق محمولاً على بساط زعيم الانقلاب ليعود وفي يده اتفاق عسكري، يضمن له ولجيشه حرية العمل في سورية عند وقوع هجوم إسرائيلي عليها. وكانت الخدعة بسيطة. أراد حسني الزعيم إثارة اهتمام البلاد الأخرى الناطقة بالعربية وإدخالها حلبة التنافس على يد سورية. وقد تحقق سعيه. ما كان عليه بعد هذا إلا أن يوفي ليسرع إليه (عبدالرحمن عزام) أمين الجامعة العربية موفداً من السلطة المصرية إثر وفد مماثل للوفد العراقي بعث به الزعيم الجديد إلى القاهرة ووفد ثالث أوفده إلى الرياض. وأصيب (السعيد) بذهول. وأخذت الصحف العراقية تنشر - صدقاً أم كذباً - أنباء عن قيام (عبدالرحمن عزام) بتوزيع الأموال من صندوق الجامعة على ضباط من الجيش السوري وزعماء سياسيين عرفوا بمواقفهم الحدية المعادية للوحدة مع العراق.

بعد هذا بأسبوعين تم اجتماع في القاهرة بين الزعيم السوري وبين الملك فاروق تم على إثره الاعتراف المصري رسمياً بحكومة الانقلاب.

عندها أدرك السعيد (وجماعة الوحدة من العراقيين) أنهم ضحية خدعة ساذجة لا تمتاز بمهارة أو إحكام فكل ما في الأمر أن الرجل القوي في دمشق استغل لهفة حكام العراق إلى اتحادٍ ما واستغل في عين الوقت منازعة العراق إياها مركزها القوي في الشرق الأوسط والجامعة. وضحك الزعيم كثيراً وهو جالس في مكتبه يقرأ الشتائم والتهم التي طفقت الصحافتان المصرية والعراقية تتبادلانها. كما تابع بعين الرضا والاعتداد بالنفس الهجمات الكلامية والطعون التى صار نواب المجلسين في العاصمتين العربيتين يترامون بها وفيها من الشتائم السوقية المحلية ما قد لا تجد له تفسيراً في معاجم اللغة.

وعصف غضب جامح بنوري السعيد ولم يعد يهمه من سورية شيء غير إزاحة هذا الرجل الذي مكر به وجعله هزأة بين ساسة العرب. وأراد هذا الرجل القوي أن يبرهن لهؤلاء بأنه قادر على أن يأتي بما لا يجرؤ أي منهم على الإتيان به. فاقترح على رئيس الحكومة الإسرائيلية (موشي شاريت) أن يحتمع به في (القنيطرة) للمفاوضة في صلح أو هدنة دائمة، طبعاً لخير أمته العربية الخالدة وخدمة مصالحها ورفع شأنها وإنقاذ شرفها.

وتحقق الانقلاب عليه بالصورة التي أثبتناها في الفصل السابق. وكان للمؤتمرين العراقيين وزعماء حزب الشعب في سورية ضلع في ذلك الانقلاب.

لعن البيان الأول الذي أصدره قائدُ الانقلاب الثاني زعيمَ الانقلاب الأول وعزا إليه كل نقيصة، واتهمه بخيانة المبادئ التي قامت عليها (الثورة) وقال إن هدف هذا الانقلاب الأخير هو العودة بالثورة إلى أهدافها الأولى ووضعها في مسارها الصحيح.

ما إن استتب له السلطان حتى أخذ هو وحاشيته يبذرون أموال الأمة ويسيؤون إلى كرامة البلاد فيدوسونها ويعبثون بقوانين الأمة وبحريات الأفراد بحيث أخذ الناس يسخرون من الجيش ورجالاته.

ووعد الحناوي، كما وعد سلفه وخلفه، بتسليم الحكم إلى أياد أمينة وبإعادة الجيش إلى ثكناته بأقرب فترة ممكنة. وهو وعد رغم كذبه الواضح فإنه يعكس شعوراً بقصورٍ ذاتي وضعف المستوى العقلي وقلة إيمان الانقلابيين بمقدرتهم وأن الناس يدركون ذلك فيهم.

وكان زعيم الانقلاب الثاني أميناً على الوعد الذي قطعه للعراقيين ولزعماء حزب الشعب فبسط يده للعراقيين (كان قد زار العراق سراً لتهيئة انقلابه) إلا أن (نوري السعيد) كان إذ ذاك قد فقد كل اهتمامه بمسألة الوحدة فبادر الوصي عبدالاله الطامع بعرش سورية إلى اهتبال الفرصة واجتمع بقائد الانقلاب الثاني، لكن ما إن استقر به المقام في بغداد حتى سمع بأنباء انقلاب جديد أعلن قائده ببيان أول آخر بأنه سيترك الحكم ويعيد الجيش إلى ثكناته بعد تسليمه إلى أياد أمينة. وقبر البيان بصراحة ما بعدها صراحة كل أمل في تحقيق اتحاد حتى كأنه ما جاء إلا لهذا.

ثلاثة انقلابات في مدة لا تزيد عن ١٨٥ يوماً.

وأصدرت الحكومة العراقية بعد ساعات من إعلان البيان أمرها بسحب آخر وحدة عسكرية عراقية مرابطة في الأردن بالقرب من الحدود السورية كانت مهيأة لمساندة الانقلاب الثاني عند الحاجة.

في هذه المرة تغلبت أموال السعودية على الأموال العراقية.

انقلاب الشيشكلي وضع الأسس والأسلوب الذي كانت ستسير عليه الانقلابات التالية في سورية أو في البلاد الناطقة بالعربية دون كثير تغيير أو ما يدعى في علم الجريمة بـ(Modus Operandy) ويتم عادة باحتلال الجيش نقاطاً ستراتيجية، وإلقاء القبض على من يعتبرهم الانقلابيون مناوئين ومعارضين، وإصدار بيان يُدمغ فيه

المزاحون عن السلطة بكل ما يخطر بالبال من التهم وعلى رأسها الخيانة والتآمر على مصلحة الشعب.

وأديب الشيشكلي الزعيم الانقلابي الجديد هو من أهالي (حماه) عرف الحناوي منذ مطالع الشباب. وقد حاربا الفرنسيين معاً وكلاهما كان ضالعاً في انقلاب حسني الزعيم. وهو كسلفيه لم يكن لديه فكرة واضحة لمستقبل سورية ولا منهاجاً يوضع موضع تطبيق لأنه كان مثلهما يعرف حق المعرفة بأنه طارئ على العمل السياسي بنظر ساسة دمشق، لأنه حموي. وسيكون عليه أن يشق طريقه إلى السلطة المطلقة خطوة خطوة. وكل ما في جعبته هو أخطاء سابقيه يبرر بها انقلابه. محاولة تتسم بالغباء قدر ما تتسم بالجسارة والاستهتار إذ ليس هناك بين العسكريين الانقلابيين من اهتم بشرح ماهية تلك المبادئ ومن هم أولئك الذين اتفقوا عليها في المبدأ وكيف جرى الانحراف عنها؟ ما هو شكل هذا الانحراف؟ وبأي صيغة سيتم تقويمها.

والسبب هو كما ذكرنا أنه لم يكن يوجد مبادئ معينة، وأن الضباط الانقلابيين لم يصبحوا شيئاً.

باستعراض الانقلابات العسكرية الثلاثة يبدو بوضوح أن الدافع إليها هو حب الذات عند العسكريين فضلاً عن مصالح شخصية بحتة منها الحرص على المكانة والسمعة والاستقلالية وضمان البقاء وتحسين وضعهم المالي والاجتماعي. وهناك عامل آخر لا يمكن إغفاله: هو الشقاق بين مجموعات الضباط العسكرية وبين السلطات المدنية، بخصوص طبيعة العلاقات والمواقف إزاء الجيران. وقد تتداخل العلاقات أحياناً فضباط الجيش السوري الحديث التكوين كانوا بصورة عامة يتطيرون من وحدة مع العراق ويربأون بأنفسهم عن حالة تبعية وخضوع إذ لا بد سيؤدي قيام تلك الوحدة إلى قيادة عسكرية أقوى منهم وفي دولة أكبر من سورية. وهكذا نجد كيف تم اللقاء بين المصلحة الذاتية وبين العمل للعروبة والإصلاح الشعبي.

في أوائل تشرين الأول ١٩٤٩ بدأت مفاوضات بين العراقيين والسوريين لإقامة علاقات تمهيدية من أجل الوحدة وتوقف الوصي عبدالاله في دمشق لهذا الغرض وتقدمت مجموعات سياسية قوية فضلاً عن حزب الشعب باقتراحات لإقامة وحدة، ومثل فيها (أسعد طلس) عديل الحناوي دور الوسيط أو اللولب الدائر بين تلك الفصائل وبين العراقيين وبين العسكريين ثم حصل ما ليس في الحسبان.

انطلقت الشرارة الأولى في المجلس النيابي، ولم يكن قادحها غير (أكرم

الحوراني) وهو من أشد المعارضين للوحدة مع العراق، عرف عنه زملاؤه وعالم السياسة المحلي بأنه الناطق غير الرسمي بلسان مجموعة قوية من ضباط الجيش. ففي جلسة كانون الأول وقف يعارض صيغة القسم الذي سيحلفه رئيس الدولة والنواب لأنه لا يتضمن التنويه بالنظام الجمهوري واقترح صيغة جديدة، لكن اقتراحه رفض وأبقي على الصيغة كما هي.

ومسألة الوحدة بحدّ ذاتها لم يكن لها أي حظ من النجاح. ولم تؤخذ مأخذاً جدياً بصورة عامة. فبريطانيا لم تشجع المنحى. والأموال التي صبتها السعودية في أفواه الساسة ورجال الصحافة للحيلولة دون ذلك لم تكن قليلة ونوري السعيد وحكام العراق خريجو مدرسته ما عادوا متحمسين للمشروع أصلاً، بعد خدعة الزعيم.

كان أديب الشيشكلي قد نسب لقيادة اللواء الأول بعد نجاح انقلاب (الحناوي) وفي معسكر (قطنة) القريب من دمشق التقى بالملازم (أبي منصور) الناطق بلسان المؤتمرين من الضباط الدروز. وتم الاتفاق على الخطة: ألقي القبض على آمر كتيبة الدروع المعيّن لها مؤخراً حال وصوله. وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين فجراً انطلقت المدرعات نحو دمشق. وما هي إلا ساعة حتى تم اعتقال الحناوي وآمر الانضباط العسكري ورئيس الاستخبارات وغيرهما من أنصار الحناوي. جرى ذلك بسرعة ودون اشتباك دموي جدي ثم احتلت الإذاعة ووزارة الدفاع وأعلن العقيد (أنور بنود) آمر حامية حلب تضامنه مع الشيشكلي.

ترك قائد الانقلاب الحكومة والمجلس دون أن يعمد إلى حلهما، وفي أيلول ١٩٥٠ أطلق سراح (الحناوي) فاختار العيش في لبنان وقتل هناك في ٣١ تشرين الأول كما مر بيانه.

اكتفى الشيشكلي بتقلد وظيفة نائب رئيس الأركان العامة، ورفع (أنور بنود) إلى رتبة عميد وأسند إليه القيادة العامة للجيش. إلا أنه ألف ما دعي بالمجلس الحربي الأعلى ليكون رقيباً على الحكومة القائمة. فوجئ الساسة بموقف الشيشكلي المهادن. ولم تفارقهم الحيرة حتى بعد تخلصه منهم في استكناه الأسباب التي حملته على إبقائهم في مراكز السلطة. وقد عزا المتتبعون السوريون ذلك إلى طبيعة الحذر المأثور عنه، وعدم الرغبة في كشف ذاته بسرعة للتقويم الشعبي، ولمعرفته أيضاً بأن الساسة المخضرمين لن يحيدوا عن طرقهم وأساليبهم القديمة الكريهة وأنهم لا يلبثون حتى يقدموا له مبرراً للتخلص منهم، وكان يدري ربما أكثر من الانقلابيين السالفين بأنهم

يرفضون الإقرار بعد كل ما حصل بأن القوة الحقيقية هي بيد الضباط. وفضلاً عن هذا فإن الخصام الحاد بين حزب الشعب صاحب الحكومة آنذاك وبين الحزب الوطني قد أضعفهما كثيراً بوجه القوى السياسية العروبية الجديدة المتمثلة في حزب أكرم الحوراني وحزب عفلق وقد بدا كلا هذين الآن قانعاً بالجلوس على التل ومراقبة القوميين القدماء ينهش بعضهم بعضاً في بحران الانقلابات العسكرية ليدمروا أنفسهم.

الفوضى الفكرية والنزاع الداخلي والحرب بين أنصار الوحدة مع العراق ومعارضيها لم تترك للمؤسسة العسكرية أو المدنية (حيثما سمح لها بالعمل) وقتاً للتصدي إلى مشاكل سورية الداخلية. أما بصدد الشؤون الخارجية، فباستثناء مسألة الوحدة كانت هناك جبهة فلسطين ومحاولات الغرب اجتذاب سورية في حلقة دفاعية بوجه الاتحاد السوفياتي. وفي هذه المحاولة وجد العروبيون وحزب البعث والحزب العربي الاشتراكي فرصتهم للخروج إلى السطح فقاموا وقعدوا وأثاروا ضجة عظيمة أولدت سخطاً شعبياً لا مراء فيه، فقد صورت المحاولة وكأنها عملية تآمرية ترمي إلى إيقاع البلاد في شبكة الإمپريالية، بتجنيدها ضد عدو خيالي، فقليل من السوريين كان يرحب بعودة الحماية الغربية، ولم يمض إلا القليل عن تخلص البلاد من الانتداب الفرنسي.

وفي سورية - أجل في سورية وليس مصر - نبع تيار (الحياد) وجرى دفّاقاً ليطلق عليه فيما بعد تعبير «عدم الانحياز» ومن أهدافه إقامة علاقات طيبة مع الاتحاد السوفياتي، واستيراد السلاح من بلدان الكتلة الشرقية، وقبول العون الاقتصادي والتكنولوجي منها. بدا هذا الميل المفاجئ بنظر الولايات المتحدة وحلفائها في أثناء الحرب الباردة وكأنه خطوة معادية لها، وتحرك جدي نحو الشيوعية.

وراقب حزب (أكرم) وحزب (عفلق) صراع الموت والحياة على السلطة المتواصل بفرح عظيم ومما عقبه من اضمحلال شوكة خصومهم القوميين الكلاسيين نتيجة هذا الصراع لكنهما لم يرحّبا كثيراً بيد الجيش الثقيلة وسلطته العليا. كانا يريدان استخدام الجيش، وكرها أن يستخدمهما الجيش، وإن كان لا سبيل إلى ذلك فليعملا إذن على خلق نواة عسكرية لهما فيه. وصحبت تفشي العروبية البعثية الاشتراكية ظاهرتان: الضباط الصغار الذين تخرجوا في فترة الانقلابات تعودوا رؤية الجيش مساهماً أصيلاً في الحياة السياسية فما عادوا يقنعون بحصر اهتمامهم في مجال احترافهم وضاقوا ذرعاً بحياة الثكنات.

النتيجة الثانية: أن قوة الجيش السياسية ونكساته في الجبهة أدت إلى أن يستحوذ الطموح إلى تدمير إسرائيل واستعادة فلسطين على عقولهم ويستأثر باهتمامهم ووجدوا فيه نهاية لكل تطوير عسكري للجيش.

والنظم العسكرية تقوم على المبادئ الثلاثة: الانضباط والطاعة والثقة. والجنود لا يفترض فيهم الشك في الأوامر الملقاة عليهم، ولا في حكمة قادتهم خلافاً للديمقراطية البرلمانية فالأساس في التعامل السياسي هو الشك في نوايا القياديين وحكمتهم وإخضاعهم للمساءلة والاستجواب. وبحضور الجيش وإشرافه على عمل الساسة السوريين بدا النظام العسكري الغالب وصاحب الكلمة الأخيرة. ولم يكن هناك شك في أن الجيش هو صاحب السلطة الحقيقية خلال السنوات الأربع التالية التي بدا الحكم فيها مدنياً.

نتبين في عهد أديب الشيشكلي مرحلتين. المرحلة الأولى شبيهة إلى حد غريب بفترة دكتاتورية (بكر صدقي) في العراق. حكم عسكري متخف خلف واجهة برلمانية بحكومة مؤلفة وفق الدستور. ففي ٥ أيلول التأم مجلس تأسيسي لإقرار دستور جديد ما عتم أن انقلب إلى مجلس نواب روعيت فيه الشكليات الديمقراطية بدقة. وقد انفرد هذا الدستور عن سائر دساتير البلاد الناطقة بالعربية بمواد تتعلق بالعدالة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي ودور الدولة في تحقيقهما.

وكما ذكرنا لم يشأ الشيشكلي في مبدأ الأمر أن يقع في عين الخطأ الذي وقع فيه الانقلابي السوري الأول بالارتفاع الفجائي إلى رتبة أعلى من رتبته بل انتظر حتى استحقت ترقيته وفق الأصول في نيسان ١٩٥٠ فارتفع إلى رتبة عميد (زعيم في ذلك الوقت) وتولى رئاسة الأركان العامة، بل لم يسند لنفسه منصب وزير الدفاع. ومر زمن بعد انقلابه وهو الرابع ليخلع على نفسه منصب نائب رئيس الوزراء في آب ١٩٥٢ لكن كلمته كانت الفاصلة خلال الفترة الأولى بخصوص انتقاء أعضاء الوزارات المتعاقبة، وكذلك في السياسة الخارجية. فمثلاً رفض في ٢٤ من كانون الأول ١٩٥٠ تشكيلة وزارية ألفها ناظم القدسي لأنه لم يسند إلى أكرم الحوراني منصب وزير الدفاع فيها فقدم القدسي استقالته وكلف خالد العظم المستقل بتأليف الوزارة التي ضمت الحوراني وزيراً للدفاع كما أراد. واستغل هذا السياسي المغامر منصبه الجديد أفضل استغلال لنشر مفاهيمه العروبية الاشتراكية بين الضباط وتشجيعهم على الانتساب إلى حزبه وحزب البعث ولترويج شعاراتهما المعادية للغرب في الجيش.

لم يكن منجى من أن يستسلم الساسة القدماء لحكم الجيش من دون مقاومة، ففي مجلس النواب:

«تصاعدت أصوات الاحتجاج ضد تدخل الجيش. وقاد الحملة (رشدي الكخيا، وحسني البرازي) وهو زعيم سياسي صلب العود من مدينة حماه ومن أقرباء الشيشكلي. في ٨ من آب ١٩٥١ انثنى حسني البرازي إلى زملائه النواب يقرعهم تقريعاً عنيفاً لضعفهم مشيراً إلى استبعاد الوزراء الوطنيين الكفوئين المخلصين من الوزارة التي تم تأليفها وشيكاً، بجرة من قلم ابن العم الأحمر»[١٢].

بدت تلك الحكومات المدنيّة في ظل الحكم العسكري ضعيفة واهنة مشلولة لا تستطيع اتخاذ قرار ما. والانتخابات العامة جاءت بنواب معظمهم ممن يرتضيهم الحكم العسكري، كنواب عهد (بكر صدقي) في ١٩٣٧. وبدا الجيش قولاً وعملاً مالك زمام النشاط والعمل السياسيين.

كانت أياماً طيبة لحزب البعث وقوميي الحوراني الاشتراكيين وهم في مقاعد النظارة يمتعون أنفسهم بالصراع غير المتكافئ بين الأحزاب القومية والوطنية القديمة وبين ضباط الجيش.

راحت وزارة تعقب إثر وزارة.

في تموز ١٩٥١ اضطر خالد العظم للاستقالة. وفي ٧ من تشرين الأول استقالت وزارة حسن الحكيم خلفه. وبات الناس في الشوارع يتساءلون بقلة اهتمام وعدم مبالاة: «متى سيصدر البيان الأول؟» (بمعنى متى سيقع انقلاب جديد).

وأوعز الشيشكلي في ٢٨ من تشرين الأول (لمعروف الدواليبي) وهو أيضاً من حزب الشعب بتأليف حكومة، لكن لم يمض على تشكيلها أكثر من اثنتي عشرة ساعة حتى قام الشيشكلي بانقلابه الثاني. وهو الرابع في تاريخ الانقلابات.

في تلك الليلة أنجز (الدواليبي) انتقاء أعضاء وزارته ويظهر أن المجموعة لم تعجب الدكتاتور لاسيما عندما وجد الدواليبي قد احتفظ لنفسه بوزارة الدفاع مما كان له عنده دلالة سيئة بأن هذا السياسي يضمر لسلطانه شراً.

---

(١٢) الثورات والحكم العسكري في الشرق الأدنى Revolutions and Millitary Rule in The Middle East تأليف جورج حداد، ج٢، نيويورك ١٩٧١، ص٢١٠.

وبدأ انقلابه بإلقاء القبض على الدواليبي وأعضاء حكومته وجلهم أعضاء بارزون في حزب الشعب وعلى عدد من الساسة بينهم ناظم القدسي رئيس الجمهورية، أمين سر الحزب العام ورئيس وزراء سابق، وأصدر المجلس العسكري الأعلى بياناً بتوقيعه يقضي بإسناد المنصب الثلاثي الأعلى إلى رفيقه العميد فوزي سلو الكردي (رئاسة الدولة، رئاسة الوزارة، وزارة الدفاع) مع ترقيته إلى رتبة لواء.

جرى كل ذلك بسلسلة من المراسيم والبيانات متلاحقة: في الأول من كانون الأول أسندت رئاسة الدولة للواء فوزي سلو بالأمر رقم واحد وعينه بالبيان رقم (٢) رئيساً لحكومة أعضاؤها مديرون عامون بدلاً من وزراء، وبالبيان رقم (٣) نصب أيضاً قائماً بشؤون وزارة الدفاع (بقي الأمر كذلك حتى حزيران ١٩٥٢ حين أوعز (لسلو) بتأليف وزارة. لم يطلق سراح (الدواليبي) من السجن حتى بعث إليه بكتاب استقالته. وكان سبب اعتقال (الأتاسي) أنه رفض إصدار قرار بحل المجلس النيابي. وبالأمر العسكري المرقم (٤) قام الشيشكلي بحله، لعجزه عن القيام بمسؤولياته في توجيه شؤون الدولة.

وانطلقت الصحافة السورية تهاجم حزب الشعب وأعماله التخريبية في شؤون الدولة، واتهمته بمحاولة إضعاف الجيش والقضاء على استقلال البلاد بمحاولة ضمها في اتحاد يؤدي إلى عودة الملكية والقضاء على النظام الجمهوري. وتلاحقت الأوامر والبيانات العسكرية، منها: بيان أوجب على موظفي الدولة كافة أداء قسم أمام قاض بعدم المشاركة في أي نشاط سياسي - بيان يمنع الطلاب من القيام بمظاهرات أو اللجوء إلى إضراب - بيان في ١٢ من آب بإلغاء امتيازات عدد كبير من الصحف والاقتصار على عدد محدود وموال وإخضاع الصحافة للرقابة العسكرية.

وفي السادس من نيسان ١٩٥٢صدر بيان بحل جميع الأحزاب وتحريم ممارستها نشاطها وكان فيها بدء القطيعة مع أكرم الحوراني ورهطه.

وفي ٢٥ من آب ١٩٥٢ وبعد مرور أكثر من شهر على نجاح انقلاب ٢٣ يوليو في مصر قام الشيشكلي بتأسيس تنظيم دعاه (حركة التحرر العربي) ليكون التنظيم الوحيد المسموح له بنشاط في سورية. وقد وصفها منشئها في حديث ادلى به لإحدى الصحف: بأنها حركة تضم إليها كل العناصر الخيرة من جميع الأحزاب وجميع الطبقات.

واتُّخِذ لهذه الحركة نظام خاص للانتماء والعمل. ورُفِعتْ بها شعارات قومية عروبية صارخة منها شعار: الاتحاد العربي الشامل والتضامن العروبي، استعادة

الأراضي المقدسة، الإصلاح الاجتماعي، الانعاش الاقتصادي. ونشرت برنامجاً فخماً بما تنوي أن تحققه في هذه المجالات.

وانضم إلى الحركة بصورة رئيسة الموظفون الحكوميون طمعاً بالحصانة والامتياز وضمان الترقية أو تسهيلاً أو سعياً وراء المكانة السياسية، إلا أنها بدل أن تلقى إقبالاً من الناس تعرضت والمنتسبون لها إلى النكات والتعليقات الساخرة وإلى هجوم الأحزاب المنحلة لاسيما حزب البعث العربي الاشتراكي حتى بات المنتسبون إليها يخجلون من التصريح بعضويتهم فيها.

وفي أواخر كانون الأول ١٩٥٢ كشف الشيشكلي عن مؤامرة ضده ساهم فيها حزب البعث وأكرم الحوراني مع ضباط كبار الرتبة وصغارها وسياسيين عروبيين، ووفق إلى إحباطها قبل التنفيذ وألقي القبض على ضباط ضالعين فيها كالرئيس (النقيب) عدنان المالكي البعثي والعقيد (محمد صفا) أحد صنائع العراقيين[١٣].

وأصدر الشيشكلي في كانون الثاني ١٩٥٣ أمراً بالقبض على كل من أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. إلا أن هؤلاء كانوا قد هربوا إلى لبنان، ومنها انتقلوا إلى روما.

وألقى الشيشكلي بالمناسبة خطاباً من الإذاعة قال فيه إن الجيش هو الأداة المثلى لبناء الديمقراطية الاشتراكية، وأورد من كمال أتاتورك مثلاً لهذا كما أورده سامي شوكت وصلاح الدين صباغ وبكر صدقي في العراق. ثم إنه وعد بإعادة الحياة الدستورية.

وبعد ستة أشهر نشرت على السوريين مسودة دستور جديد وضعته لجنة من الموظفين الصغار وفقاً للنظام الرئاسي وطرحه للاستفتاء العام مع طرحه نفسه بالمناسبة مرشحاً لرئاسة الجمهورية في العاشر من تموز. ولأنه كان الحصان الوحيد في السباق فقد تم إقراره رئيساً للجمهورية من قبل الشعب السوري العربي المناضل على حد وصف صحيفة سورية لتلك المهزلة.

ولم يشارك في الاستفتاء أكثر من ثلث عدد الناخبين.

وبمناسبة انتخابه أطلق سراح جميع السجناء والموقوفين السياسيين وأحيل اللواء

---

(١٣) ارتحل العقيد محمد صفا إلى العراق فيما بعد ليعيش في بغداد وليؤلف «حكومة سورية حرة» في المنفى.

(فوزي سلو) إلى التقاعد ليحل محله جندي محترف لا لون سياسي له بشخص العميد شوكت شقير رئيساً للأركان العامة وهو درزي من أصل لبناني.

* * *

سنة واحدة وبضعة أشهر سبقت انتخاب الدكتاتور رئيساً للجمهورية أكدت للقوميين الملكيين العراقيين إفلاس قضيتهم في الجمع بين سورية والعراق تحت عرش واحد أو باتحاد بعرشين هاشميين. وزاد اقتراب الانقلابي السوري الأوحد من الانقلابيين المصريين وبدأت صحف سورية ومصر تضرب على نغمات الصلات التاريخية التي تربط البلدين. وشعر رجل دمشق القوي بكيفية ما أن نظامه الجديد يقف على أرض صلبة وأن لا خوف عليه من شغب الأحزاب ولا من الجيش بعد تطهيره من العناصر القومية المعادية ولذلك لم يحفل كثيراً باستئناف تلك الفئات نشاطها خارج (حركة التحرر العربي) ولم يجد الثلاثي القومي الذي لجأ إلى روما حرجاً من العودة.

بلغ إرخاء الشيشكلي القبضة على الحريات السياسية أنه لم يفعل شيئاً ولم يتخذ إجراء قمعياً عندما رفع إليه فريق من السياسيين والحزبيين مذكرة في ٢٥ حزيران قبيل الاستفتاء يشجبون فيها حكمه الدكتاتوري ويحتجون على مسودة الدستور الجديد.

كانت الإصلاحات التي رأتها سورية في عهده تشبه إصلاحات النظم الدكتاتورية التي تهتم بالمظاهر والقشرة ولا تنفذ إلى العمق الاجتماعي. فقد ساعد الرخاء والمواسم الزراعية الجيدة التي جادت بها الطبيعة خلال السنوات العشر المنصرمة على نجاحه في عمليات تجميل اقتصادية وعمرانية لمحاولة إيجاد مشاريع لتوطين البدو الرحل وإصدار المراسيم القاضية بتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين، واستقدام خبراء أجانب لدرس الوضع المالي والاقتصادي وتقديم توصيات، وإطلاق سراح النقد السوري من إسار النظام النقدي الفرنسي بتعديل النظام المصرفي.

عملية تجميل في وجه دكتاتورية عسكرية سافرة لم تكن تصلح بأية حال بديلاً عن الحرية السليبة، ولا وسيلة لتبديد الخوف الجاثم على الصدور ولا رادعاً للتآمر والتهيئة لانقلاب عسكري. ولم يحاول الشيشكلي تدمير المتآمرين عليه اجتماعياً واقتصادياً في حين كان قادراً.

وبدأ العمل الجدي على إنهاء حكمه باجتماع عام في أواخر تشرين الثاني بمدينة (حمص) تمثل فيه كل أجنحة المعارضة واستخدم فيه حزب البعث العربي الاشتراكي قوته الطلابية بإحداث إضراب عام في المدارس وتوزيعه خلالها نشرات ضد النظام عقبه

تظاهرات طلابية عامة في دمشق وحلب وسائر المدن الرئيسة الأخرى.

وأدخل أكرم الحوراني تاكتيكاً جديداً ذا طابع إرهابي باستحداث نمط جديد للانقلابات العسكرية التي كانت ستتوالى في سورية والعراق ومصر إلى حد ما بالمشاركة المدنية (الحزبية) الفعالة في الانقلاب والتوطئة والتبرير لتدخل الجيش. ففي عنفوان المظاهرات الطلابية التي ملأت شوارع دمشق في العاشر من كانون الأول ١٩٥٣ سمع دوي انفلاق قنابل في أماكن عدة من دمشق وكان الغرض إحداث اضطراب وبلبلة في عين الوقت. وبتوقيت زمني شاعت الاضطرابات في جبل الدروز منذرة بعصيان مسلح.

في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩٥٤ أعلن الشيشكلي حالة الطوارئ وأغلقت الجامعة السورية وزحف اللواء السادس في اليوم عينه إلى جبل الدروز.

اتهم الشيشكلي الدروز بمحاولة انفصالية في منطقة الجبل بمعاونة إسرائيل. وقبل قيام الجبل بزعامة سلطان باشا الأطرش وإرسال الجيش بعشرة أيام، بعث مكتب دمشق لحزب البعث العربي الاشتراكي إلى الجبل بمناشير مذيلة بتوقيع (العمال الأحرار) لقب فيها جبل الدروز بـ(جبل العرب الأشم) ووصف فيها الشيشكلي (بالطاغية). كان (منصور) ابن سلطان باشا عضواً بارزاً في حزب البعث وهو الذي نقلها وقام بتوزيعها.

أجرت القوة اعتقالات واسعة وهرب سلطان باشا إلى الأردن، ونشبت في أنحاء متعددة من المنطقة معارك وحشية خلال ثلاثة أيام متوالية قصفت خلالها (السويدا) عاصمة الجبل من الجوّ وسقط أكثر من مائة قتيل ومئات عدة من الجرحى.

وفي دمشق أُلقي القبض على زعماء الحزب الوطني وحزب الشعب وحزب البعث العربي الاشتراكي. ووضع (الأتاسي) رئيس الجمهورية السابق رهن الاعتقال المنزلي.

واستغلت حكومة نوري السعيد الفوضى - وقد زاد الحنق على الشيشكلي لرفضه الدخول في حلف المعاهدة المركزية - فتدفقت الأموال العراقية مجدداً على الساسة الموالين وبعض زعماء المعارضة. ويؤكد الكثيرون بالمناسبة أن حكومة السعيد كان لها ضلع كبير في تأجيج ثورة الانقلاب على الشيشكلي وأن جزءاً كبيراً من الأموال المرصدة للعملية دخل جيب أكرم الحوراني وحزب البعث عدو الوحدة مع العراق قبل ذلك فقد لوحظ أن زعماءه في تلك الفترة كانوا ينفقون بسخاء يفوق طاقة الحزب المالية بكثير وأكد كثيرون بأن العراقيين كانوا على علم تام بتوقيت الانقلاب.

فى نهاية الشهر تم إخضاع جبل الدروز وقضي على كل مقاومة وخيل لصحافة

الأجنبية أن «حركة التحرر العربي» بزعامة الشيشكلي قد ملكت زمام الموقف لكن الضباط السياسيين كانوا يرون خلاف ذلك. وقد قام مقدم ونقيب وملازم بتدبير الانقلاب الخامس.

المقدم هو (فيصل الأتاسي). في ٢٥ شباط قام باعتقال آمره (العقيد عمرخان تمر الكردي) بمدينة حلب واعتقل معه موظفي الحكومة الكبار ثم احتل دار الإذاعة وغيرها من البنايات الحكومية. وأذاع البيان الأول المؤذن بالانقلاب في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين زميله النقيب (مصطفى حمدون) وهو أحد مريدي أكرم الحوراني وتلاميذه. كان بياناً طويلاً عريضاً ناشد فيه المجرم الطاغية بالنزول عن الحكم ومغادرة البلاد حقناً للدماء ونوه باجتماع الأحزاب في حمص وطلب من الشعب العمل على إقامة حكم جمهوري شعبي ومساعدة الجيش في العودة إلى تأدية واجبه الأمثل وهو حماية الوطن.

بعدها بساعتين أعلن القائد (أمين أبو عساف) آمر حامية دير الزور وهو درزي من رفاق الشيشكلي القدماء تضامنه مع الحركة. وفي جبل الدروز كان هناك الملازم (غسان جديد) وهو علوي، يقود حركة تمرد المقدم (فيصل الأتاسي) ويمثل حزب الشعب في حلب والأتاسيين في حمص والنقيب مصطفى حمدون يمثل حزب البعث العربي الاشتراكي والعقيد أبو عساف يمثل الدروز وغسان جديد يمثل العلويين!

فما أبدع هذا!

للانتماء المذهبي والعنصري أهميته في جيل الانقلاب وكذلك للغطاء السياسي الذي يتخذه في ذلك الظرف المعين، فله دوره الكبير أيضاً، والمرء لا يبحث في مثل هذه الحالة عن المواهب والذكاء وغير ذلك من المكونات للشخصية، ليس هناك وقت أو محل لتطبيق مبدأ الرجل المناسب في المحل المناسب.

في أيام التمييز العنصري الأمريكي استخدم صاحب أحد المطاعم زنجياً وزوده بالكسوة الخاصة التي يتعين عليه ارتداءها أثناء العمل. وكان الزنجي فارع الطول والسروال الذي زود به قصير جداً بمقدار شبر. فسأل مخدومه إبداله بآخر يناسب طوله. تأمله الأمريكي ملياً ثم أجاب: «يا هذا، إنه لأسهل عليّ بكثير أن أجد لعملي زنجياً قصيراً من أن أبحث لك عن سروال طويل».

كان على السوريين أن يقنعوا برجل الانقلاب أسوة بالزنجي وسرواله. ما إن تنصف النهار حتى كانت قيادات المحافظات قد أعلنت تأييدها وانضمامها. إلا أن

الشيشكلي كان يملك اللواء السادس الذي ظل موالياً إلى جانب مدفعية ثقيلة وآليات قوة قوامها عشرة آلاف جندي في دمشق وجبل الدروز. إلا أن طيارين كثيرين آثروا الانسحاب من المواجهة بطائراتهم بحجة التصدي للانقلاب. ووجد الشيشكلي نفسه أمام خيارين إمّا المخاطرة بخوض معركة دموية لا يعلم نتائجها، أو الانسحاب من الحكم. فاختار الثانية وهرب إلى لبنان فبلغ بيروت في العاشر من الشهر ولجأ إلى سفارة العربية السعودية.

لكن الانقلاب لم يتم بهروبه. ففي اليوم التالي هَمّ (مأمون الكزبري) رئيس مجلس النواب بقراءة استقالة الشيشكلي، عندما اقتحم المجلس النقيبان (عبدالحق شهاده) آمر الانضباط العسكري و(حسين هده) آمر كتيبة المدرعات المرابطة في موقع (قطنه) فانضم إليهما عدد من نواب المجلس وتقدم هؤلاء بالطلب من الكزبري بأن يتولى منصب وصلاحيات رئيس الجمهورية طبقاً لأحكام الدستور. على أن القضية حسمت بالأخير عندما وجه الانقلابيون إنذاراً للكزبري بالتنحي والاستقالة وحل المجلس أو سيزحفون على العاصمة؟

في عين الوقت حشدت الأحزاب قواها وأخرجت مظاهرات صاخبة تنادي بسقوط النظام فلم يجد الكزبري وأعضاء المجلس بداً من الإذعان بعد أن اقتحم المتظاهرون قاعة المجلس وأوسعوا أعضاءه ضرباً وشتماً. فأعلن الكزبري التنحي ونفض أعضاء المجلس أيديهم من النيابة.

واستسلم النقيبان (شهاده وهدّه) فأرسلا بالطائرة ليلتها بوظيفة ملحقين عسكريين في سفارتي لندن وباريس.

كان بيان الشيشكلي الأخير هو الاستقالة:

«رغبة مني تجنب سفك دماء الشعب الذي أحب والجيش الذي ضحيت بكل غال لأجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها بإخلاص صادق، أتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري المحبوب الذي انتخبني والذي أولاني ثقته آملاً أن تخدم مبادرتي هذه قضيته وابتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء وأن يوحده ويزيده منعة وأن يسير به إلى قمة المجد».

وكل ما في هذه الرسالة العاطفية مفهوم خلا عبارة «الإخلاص الصادق» فالله يشهد أني ما عرفت إخلاصاً ينعت بالكذب.

ما حصل بعده كان محاولة لمسح تاريخ حكمه من الحوليات السورية وعدّ

الدستور الذي استنه باطلاً وكذلك المجلس الذي انتخب في عهده وأعيد المجلس الذي حله في كانون الأول ١٩٥١ بكامل أعضائه خلا ثلاثة عشر عضواً كانوا قد قبلوا بأن ينتخبوا نواباً في مجلس الشيشكلي فقد ألغيت نيابتهم عقاباً. والتأم المجلس القديم وقرر إعادة العمل بدستور ١٩٥٠ بموافقة الحزب الوطني الذي كان قد رفضه في حينه وأبى الاعتراف به. واستأنف (هاشم الأتاسي) عمله رئيساً للجمهورية بطرح مدة إقالته لأن استقالته التي أرغم عليها لم تقدم إلى مجلس النواب لتحظى بالموافقة فهي والحالة هذه باطلة. واعتبرت حكومة الدواليبي قائمة بضع ساعات ليصدر الأتاسي بعدها مرسوماً بقبول استقالتها.

بهذا الشكل العجيب في تاريخ الممارسات الديمقراطية أعيد الوضع في سورية إلى ما كان عليه قبل ١٩٥١ كأن شيئاً ما لم يحصل بل وكأن فترة دكتاتورية الشيشكلي التي دامت أكثر من ثلاثة أعوام ليست جزءاً من تاريخ تلك البلاد. مسحت ببساطة كما تمسح عبارة مكتوبة بالطباشير على سبورة!

أعيد عدد كبير من الضباط المطرودين لانتماءاتهم السياسية إلى الخدمة وكانت اللجنة المعينة لتدقيق طلباتهم بالعودة برئاسة اسمية للعميد (شوكت شقير) إلا أن الشخصية المسيطرة عليها لم تكن غير العقيد (عدنان المالكي) وهو بعثي صميم لذلك كان معظم الضباط المعادين من حزب البعث العربي الاشتراكي أو المؤازرين له.

وألف (صبري العسلي) رئيس الحزب الوطني الحكومة الجديدة إلا أن حزب الشعب كان يسيطر عليها.

لم يشارك حزب البعث العربي الاشتراكي في الحكم لسبب بسيط وهو أنه لم يدع إليه، وواصل معارضته السلبية. إلا أنه صار يدرك بدءاً بأعلى عضو فيه وانتهاء بأصغرهم أن حظه في الوصول إلى الحكم بوسائل ديمقراطية يكاد يكون معدوماً وأن مطمح زعمائه الأخير هذا لن يتحقق بغير ضباط الجيش وبانقلاب كالانقلابات السابقة.

على أنهم وقفوا إلى جانب الديمقراطية ودافعوا عن مبادئها لأنها كانت كما يبدو الوسيلة المعقولة لمعارضة حكم الشيشكلي الدكتاتوري. وكتب عفلق مرة وقتذاك:

«النظام الديمقراطي البرلماني هو الشكل المثالي الذي يضمن للفرد حرية السيطرة على مصائر بلاده».

وأراد الحزب أن يجرب حظه فيها، مستعيناً بنفوذ ضباط الجيش البعثيين وبحلف مع الشيوعيين السوريين، ومستغلاً مقام نبي القومية الجديد الذي سطع نجمه في مصر

عند القوميين السوريين، فنال مرشحوه ١٦ مقعداً من أصل ١٤٢ وكانت انتخابات حرة نسبياً كما قيل.

فشل البعث في الحصول على ما كان يتوقعه من فوز لكنه نجح في إثبات نفسه قوة سياسية بين القوى التقليدية القومية والوطنية التي ظلت تحتكر ميدانها منذ إلغاء الانتداب، وانثنى زعماؤه يعدون أنفسهم للجولة القادمة بشعارات مثقلة بالاشتراكية العربية، واختفت كلمة الديمقراطية من أدبياتهم.

ملحق

اليهود العراقيون

تدعم الأبحاث الأركيولوجية المتأخرة بوسائل التحقيق والفحص العملي التي وفرها القرن العشرون كثيراً من روايات العهد القديم (التوراة) ومنها قصة (إبراهيم) أبي الأنبياء، حول رحلته الطويلة الشاقة مع آل بيته وأفراد قبيلته من جنوب العراق إلى سورية حتى فلسطين معقباً مجرى الفرات. ففي حدود العام ٢٥٠٠ ق.م كانت جماعات من العموريين (الآموريين Amurru) قد نزحت من جزيرة العرب واستقرت جنوب غرب الفرات بين ظهراني السومريين أيام حكم (نارام سين) ملك (لارسا) فامتزجت بهم في أور الكلدانيين. ومن بين القبائل التي نزحت أنحاء (أور) كانت قبيلة إبراهيم (أبرام في التوارة) وهي في المدونات (هبيرو أو هبرو أو عبرا) ومنها جاء اسم العبرانيين. لسبب من الأسباب (قد يكون اقتصادياً) آثر ابراهيم النزوح شمالاً واستقر أولاً في جهات(حران) في أعالي الفرات ثم طعن جنوباً وانتهت به رحلته إلى أرض الكنعانيين وهم أيضاً عموريون بالأصل يسكنون شرق نهر الأردن وأنحاء أورشليم وهؤلاء هم أسلاف الشعب اليهودي الذين عرفوا باسم العبرانيين. ما من شك في أن حضارة مابين النهرين السومرية والأكدية كان لها أعمق التأثير على عادات وطقوس هذه القبيلة، لاسيما في ما نجده من أسفار التوارة الأولى كسفر التكوين حول الخليقة والطوفان وبابل، كما نجد في كتابهم الثاني (التلمود) آثاراً من شريعة حموراني والشرائع السومرية التي سبقتها.

بعد أكثر من ١٧ قرناً من الوقائع والأحداث استحدث هؤلاء الدين الروحي الأول بوحدة الخالق وأقاموا مملكة هامة في فلسطين تبوأت رغم صغرها مكانة بارزة في التاريخ بفضل ملكها داود (١٠١٠ -٩٥٥ ق.م) وابنه سليمان ما لبث أن انشعبت إلى مملكتين صغيرتين: إسرائيل في الشمال ويهودا في الجنوب وكثيراً ما نشب بينهما نزاع دموي وحشي وزاد من حظهما سوءاً أنهما عاصرتا ثلاث إمبراطوريات متطاحنة غازية في مصر وفي الهلال الخصيب ودولة الحثيين، كان موقع الدولتين الجغرافي في طريق الجيوش المتصارعة يضعها دوماً في موقف دفاع مصيري أو يرغمها على تحالف سيّئ العقبى أحياناً ضد جيوش تلك الإمبراطوريات ندر أن نجح في تجنيب مواطنيهما

ويلات الحروب وعقابيلها. وأعظم شراً سياسة الأسر الجماعي (السبي) والتهجير السكاني الاستبدالي. وأول من طبق سياسة النقل الجماعي الاستبدالي للشعوب المقهورة الملك الآشوري (تكلتي بيلصر الثالث ٧٤٥-٧٢٧ ق.م) وهو (بل) في التوارة فقد نقل جماعات من يهود دولة إسرائيل إلى آشور وأسكنهم شرق الفرات ونقل في عين الوقت عدداً مساوياً من آرامي تلك المنطقة وأسكنهم مواضع اليهود المنقولين[1].

ولجأ ابنه شلمناصر الخامس إلى السياسة عينها فنقل ألوفاً من يهود السبي إلى آشور وجرى ابنه (سركون الثاني الفاتح ٧٢١-٧٠٥ ق.م) على منواله ومدوناته تتحدث عن سوقه ٢٧٢٩٠ سبياً من دولة إسرائيل وإسكانهم أعالي الفرات ودجلة ومدينة بابل. وكذلك فعل ابنه سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م).

كذلك تتحدث مدونات خلفه وابنه أسرحدون (٦٨١-٦٦٩ق.م) عن أسره ملك يهودا (منسى) مع عدد كبير من نبلاء القوم وإسكانهم مدينة بابل التي في يد الآشوريين وقتذاك.

يثبت سفر (عزرا وهو العزير) في التوارة صحة المدونات الآشورية. وعزرا هو من أبناء السبي ومنه يبدو بأن عملية التهجير القسري من إسرائيل ويهودا إلى بلاد ما بين النهرين كانت متواصلة. وأسرحدون الذي كان قد أعاد بناء مدينة بابل عمد إلى إسكان سبي اليهود فيها بجماعات كثيرة فشهد هؤلاء كل الأحداث التي مرت على الإمبراطورية التي حكمت أرض الرافدين (الآشورية والبابلية والميدية) ودونوها في كتبهم.

وعندما نهضت بابل على قدميها ثانية وخلعت النير الآشوري، توجه ملكها نبوخذنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) وحاصر أورشليم وفتحها وأثبت (صدقيا) ملكاً على يهودا بدل (يواقيم) الذي أخذه أسيراً مع ثلاثة آلاف من اليهود كما تثبت مدوناته وأسكنهم مدينة بابل عاصمته. كان ثم آلاف أخرى منهم تكاثر عددهم طوال قرن من الزمن وانتشروا في حواضر بابل وبلدانها والظاهر أنهم تمتعوا عامة بحرية ورعاية وأمن لم يتمتع به أبناء جلدتهم في موطنهم الأصلي، وقد أنيط بكثير منهم مناصب عالية وكانت طائفة منهم مقربة من البلاط البابلي وتسمى كثير منهم باسماء بابلية.

في الخامس من تشرين الأول للعام ٥٣٧ ق.م (بالتقويم الغريغوري) أصدر الملك

---

(١) تذكر مدونات هذا الملك أن العملية طالت ١٥٤٠٠٠ نفساً في سائر شعوب الشرق الأوسط وبضمنهم اليهود. وفي هذا مبالغة طالما عمد إليها ملوك ذلك الزمن لإشاعة المزيد من الرهبة. رقم كبير إذا ما علمنا أن سكان العالم بحسب تقدير العلماء لم يكن إذذاك يتجاوز عشرة ملايين.

البارثي كورش الثاني الكبير إثر فتحه مدينة بابل وقضائه على إمبراطوريتها مرسومه الشهير الذي قضى بالسماح لمن يريد من اليهود المسبيين بالعودة إلى بلادهم فعاد منهم حسب الإحصاء الدقيق الذي عمله عزرا (سفر عزرا ٤٢ : ٣٦٠) بأسماء قبائلهم وبيوتهم فضلاً عن عبيدهم وإمائهم وهؤلاء كانوا ٧٣٣٧ ولهم من المغنين والمغنيات مئات وخيلهم ٧٣٦ وبغالهم ٢٤٥ وجمالهم ١٣٥ وحميرهم ٦٧٢٠.

وبقي منهم الكثير وقد توالدوا وتأقلموا واستوطنوا ولا شك ففضلوا الحياة المطمئنة على مستقبل مجهول. ولم يصغوا لتشويق المتحمسين منهم للوطن الأم أرض إله إسرائيل. وما نقل اليهود العائدون من متاع وأملاك ومقتنى إنما يقوم بالأحرى على الحرية التي كانوا ينعمون بها تلك التي سمحت لهم باقتناء العبيد والإماء كالسادة وجهاء بابل ونبلائها. والمعاملة الإنسانية التي عوملوا بها من قبل الفاتح الجديد لا شك أنها كانت امتداداً لمعاملة آشور وبابل طوال أيام السبي. والأمر يثبت دون جدال وحاجة إلى دليل بأن عملية التهجير التي فصلنا في أمرها إنما كانت عملية وقائية صرفة، عسكرية وسياسية لا ترمي إلى استئصال أو تصفية عنصرية. كل الدلائل والبينات التاريخية تؤكد بان الصلة بين العائدين إلى فلسطين وبين الذين اتخذوا بلاد الرافدين وطناً دائماً لم تنقطع. ومع أن أبناء السبي اليهودي بقوا دينياً مجتمعاً منفصلاً قائماً بذاته بعيداً عن ممارسات الفاتح الدينية إلا أنه تخلّق بمرور الزمن بأخلاقهم واكتسب كل عادات أهل البلاد وتقاليدهم. ولم يكن ذلك صعباً بسبب استخدام لغة واحدة دارجة غالبة هي اللغة الآرامية.

على أن العبرية بقيت لغة الكتب الدينية والصلوات والمراسيم الدينية اختص بتعلمها كهنتهم وأحبارهم وهم طبقة خاصة.

وما من شك في أن تزاوجاً قد حصل بين الشعبين. وكل الدلائل التاريخية تشير مع ذلك إلى مجتمع يهودي عنصري قائم بذاته، يختلف اختلافاً بيناً عن حياة المجتمع اليهودي في الجزيرة العربية. فهنا كان اليهود القبليون عرباً ينتمون إلى قبائل عربية خالصة إذ بدت الديانة اليهودية هناك ديانة تبشير نجحت في شق طريقها إلى المجتمع العربي.

ونعم اليهود المستقرون في ميسوبوتاميا بأمن ورخاء لم يتيسر لأبناء جلدتهم في فلسطين ولا في مصر حيث اضطرهم الاضطهاد المنصب عليهم إلى رحلتهم الشاقة الطويلة في العام (١٥٣٠ق.م) فقد ظلوا مستهدفين لغزوات الفاتحين اليونان والرومان والبطالسة المصريين قروناً عديدة. وفي العام ٧٠م احتل الإمبراطور الروماني تيتوس

عاصمتهم وهدم الهيكل وشتت شمل الكهنة، فما لبث أن انتقل المركز الديني اليهودي إلى بابل بالتدريج حتى بدت بابل حتى آخر أيامها عاصمة اليهودية الحقيقية في المنفى وتمتعوا أيام حكم الفرس بحرية واسعة وتكاثروا فبات عددهم يزيد عمن أبقتهم الغزوات في فلسطين. وفي بابل تم تدوين (التلمود) في القرن الخامس الميلادي. ويعرف الآن بالتلمود البابلي وهو ثمانية أضعاف التلمود الأورشليمي وعليه الاعتماد. إن هذا الكتاب يتحدث عن مستوطنات يهودية كبيرة في بابل وآشور وكردستان. وفي بابل وخليفتها بغداد بعد ظفر الإسلام تم تأسيس المجمع اليهودي الأكبر في بلاد السورا (السبي) وفيها استقر رئيسه (گاوون). وقد بقي هذا المجمع ينظم أحوال اليهود ويشرف على حياتهم الدينية وأحوالهم الشخصية سبعة عشر قرناً من مركزه بغداد حتى الفتح المغولي. والمصادر التارخية تذكر أنه تعاقب على(سورائيم) العراق ٣٨ گاوونا، وأبرزهم الكاون رابي (سعدية بن يوسف الفيومي ٨٩٢ - ٩٤٢م) الذي قدم بغداد من مدينة الفيوم المصرية لتناط به رئاسة الجمع بفضل علمه وشهرته في عالم الفكر وترأس المجمع في ٩٢٨ م، وإليه تعزى ترجمة التوراة إلى العربية.

في ذلك الحين تبنى اليهود اللغة العربية والفوا فيها ونبغ منهم كتّاب وأدباء وأطباء. ويدت في الأجيال المتعاقبة منهم وكأنها لغة الأم وفقدت غالبيتهم الساحقة معرفتهم بالعبرية. ولم تقتصر الأمور على يهود العراق فهكذا كانت الحال في سائر البلاد الناطقة بالعربية التي يتواجد فيها اليهود. وهي عند أحبارهم ومفكريهم لغة العلم والثقافة كما كانت اللاتينية للأوربيين[٢].

ويعزى قيام طائفة القريائيم[٣] إلى العراق. فهؤلاء انفصلوا عن التيار الرباني

---

(٢) معظم تآليف سعدية الكاون كان باللغة العربية وقد طرقت مؤلفاته مختلف المواضيع ومن أشهر كتبه: الامانات والعقائد الذي نقله إلى العربية يهودا ابن طبون المتوفى في ١١٩٠م. وقام الاستاذ فارمر وهو حجة في الموسيقى العربية بتأليف كتاب عنه في ١٩٤٣ بعنوان سعدية الكاون في التأثير الموسيقي.

(٣) الربانيم هم أولئك الذين استمدوا ممارساتهم العقائدية كما فسرها التلمود أما القريائيم فهم الذين يهدفون إلى العودة إلى اليهودية البدائية غير منتقدين في التلمود والتقليد المتناقل فيرفضون الادعاء بحق تفسير رجال الدين (الرابي) للأسفار التوراتية، خلافاً للربانيم. وليعلم هنا أن اليهود لا ينقسمون إلى شيع أو طوائف أو مذاهب كالشيعة وأهل السنة مثلاً أو المذاهب الأربعة الإسلامية أو الكاثوليك والبروتستانت مثلاً. وإنما كان هناك خلاف في الممارسة والتقليد بينهم وبين يهود أوروبا (الأشكنازي) الذين هاجروا إلى فلسطين في القرون المتأخرة و(السفارديم) =

(ربانيم) في القرن السابع الميلادي. ومن يهود العراق انتشرت مفاهيمه إلى يهود مصر وسورية ولبنان واليمن وشبه جزيرة القرم وتركيا وإيران.

وفي كردستان الجنوبية (الجزء العراقي) تكلموا الكردية وتخلقوا بعادات وتقاليد المجتمع الكردي. سكنوا القصبات والمدن مثل زاخو ودهوك وعقره والعماديه وعدد من القرى.

لم يتحول اليهود إلى الإسلام تحولاً جماعياً كما آل بقسم كبير من المجتمع المسيحي وكلاهما من أهل الكتاب الذين وجبت حمايتهم وعدم التعرض لمعتقداتهم أو ارغامهم بالقوة على اعتناق الإسلام وإذا كان المقيمون منهم على دينهم قد عانوا ضيقاً واضطهاداً في فترات معينة من قبل حكام طغاة. فان التضييق والاضطهاد لم يبلغ في أي وقت حد التفكير في تصفية جماعية أو التخلص منهم جملة وتفصيلاً بشكل ما. وفي عهد العباسيين وما بعده اطلقت الحرية كاملة لمجمعهم الديني الأكبر (السورا) ولمجمع مدني آخر عرف بمجلس رؤساء السبي الذي كان يدير شؤون اليهود الحياتية ويقوم بدور الوسيط بين المجتمع اليهودي وبين الدولة والخلفاء[٤].

ولم تتغير الحال في عهد الفتح المغولي ثم العثماني. وكان اليهود خلال هذه القرون قد نزعوا بالتدريج إلى احتراف المهن التي يجد المسلمون في مزاولتها انتقاصاً لقدرهم أو مخالفة لتعاليم الإسلام كالصرافة والتجارة والغناء وبيع الخمور والحياكة والبناء وما إليها.

= وهم أنسال اليهود الذين طردهم الإسبان مع المغاربة المسلمين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وسكنوا شمال أفريقيا.

في العامين ١٩٤٩ و١٩٥٠ أذكر أن قروياً يهودياً من قرية (صندور) شمال مدينة دهوك - وهي قرية يهودية خالصة - قال لي إن كل يهود كردستان هم من أنسال السبي الذي جاء به سنحاريب الملك الآشوري وأسكنهم هناك وأنه نقل عدداً من الكفار بالمقابل وأسكنهم أورشليم القدس وأنه سمع ذلك من أبيه الذي تلقاه بدوره عن أسلافه كابراً عن كابر (رحل كل سكان هذه القرية مع سائر يهود كردستان بعد صدور قانون إسقاط الجنسية). ولم أدهش حين رأيت هذا القول مثبتاً من خلال استجواب في كتاب للأستاذ هنري فيلد Henry Field أنثروبولوجية العراق: كردستان The Anthropology of Iraq (Kurdistan) ج٢، ص٧١، كمبرج ماساشوتس ١٩٥٢ مضافاً إليها زعمه أن يهود بغداد هم من سبي نبوخذنصر البابلي.

(٤) منشورات قيادة الجيش الرابع: Le Commandenant de la Ivane Armee. La Verite sur la question ص٣٥، استنبول ١٩١٦ مطبعة تنين.

ووجد في القرن الثامن عشر الذي تلاه (النسي) وهو أمير اليهود الدنيوي ببغداد، خول سلطة واسعة ومارس نفوذاً عظيماً بفضل مقدرته المالية ومكانته الاجتماعية. وغالباً ما كان يعهد إليه الوالي العثماني بوزارة المالية وبخاصة الولاة المماليك شبه المستقلين ويدعى (صرف باشي)، وكثيراً ما كان (النسي) يمنح سلطة فرض الغرامات والعقوبات البدنية على من يخرق قوانين الطائفة.

بعد صدور (التنظيمات الخيرية = خط گلخانة) تحولت السلطة الروحية إلى الحاخامين، الذي كان أسوة بغيره من رؤساء الطوائف (الملل) المسيحية يعين بفرمان سلطاني ويخلع عليه ويقلد وساماً. وإلى جانبه يعين ثلاثة من المعلمين (رابي) يطلق عليهم اسم (ديانيم = من ديان أي قاضٍ) منحوا سلطة القضاء في الأحوال الشخصية (الطلاق، الزواج، الحضانة، النفقة، الوصية وما إلى ذلك) وتمتع قارئو التوراة (المعلمون) ورجال الدين وكل من يمت إلى المؤسسات الدينية بالإعفاء من الضرائب لكن عندما استن نظام القرعة العسكرية فرض على كل ذكر يهودي بلغ الثانية عشرة ضريبة سميت (عكسريت) يدفعها سنوياً مقابل إعفائه من الخدمة.

في إبان اليقظة القومية العربية أيام العثمانيين، ورغم وقوع القوميين العروبيين تحت تأثير وردود فعل عنصريي (الجون ترك) ولغرض محاربتها بمثلها، كان هناك انفتاح قومي على اليهود القاطنين في البلاد الناطقة بالعربية. ففي كتاب (حقائق عن القضية السورية) الذي أصدره أحمد جمال باشا (السفاح) قبل إعلان وعد بلفور بستتين مدافعاً فيه عن صواب أحكام الموت التي صدرت على القوميين العرب في سورية ولبنان نجده يستشهد بواحد من بياناتهم التي كانت تعتبر اليهود في البلاد الناطقة بالعربية جزءاً لا يتجزّأ من الشعب العربي:

«أيها العرب تبعة الديانتين المسيحية واليهودية ضموا صفوفكم إلى صف إخوانكم المسلمين، ولا تصغوا لأولئك الذين يقولون إنهم يفضلون أتراكاً بلا دين على عرب ذوي أديان مختلفة فهؤلاء أناس جهلة لا يدركون مصالح الشعب العربي الحيوية».

يستبعد أن يكون هذا البيان دعوة زائفة فقد سبق للشريف حسين بن علي وابنه فيصل التنويه بالهوية اليهودية القومية في الوطن العربي كما فصلنا في أماكن أخرى من هذا الكتاب.

ألفت في أوقات متأخرة عدة كتب حول تاريخ الوجود اليهودي في العراق، يتضح

منها أهميتهم في عالم المال والاقتصاد الدولي، ومن ذلك في العراق التعاون التجاري الواسع النطاق بينهم وبين البيوت التجارية والمصارف والشركات البريطانية، في الهند وبريطانيا ومستعمراتها الأخرى في آسيا وأفريقيا منذ مطلع القرن التاسع عشر. ونخص بالذكر هنا أسرة ساسون (Sasson) الشهيرة البريطانية التي تضارع أسرة روتشيلد جاهاً ومالاً، فمؤسس الأسرة وعميدها هو يهودي بغدادي يدعى (داود ساسون صالح) تقلد وزارة المالية لآخر وال عثماني من المماليك شبه المستقلين في بغداد. اضطر إلى الهروب في العام ١٨٢٩ بعد خلاف مع داود باشا (١٨١٩-١٨٣١) آخر المماليك واستقر في بومباي تاركاً ابنه عبدالله ساسون في بغداد.

وعند قيام الحكم الوطني في ١٩٢٠ أثبت لليهود العراقيين كل الحقوق التي تمتعوا بها في العهود السابقة. ونص قانون الأحوال الشخصية الخاص بالطائفة رقم ٧٧ للسنة ١٩٣١ على أن يكون ثم مجلسان أولهما مدني (جسماني) ومجلس ديني (روحاني) قوام أولهما ستون عضواً من وجهاء الطائفة بينهم سبعة من الروحانيين ويترأس المجلس الروحاني رئيس الحاخامين في البلاد. لهم محاكمهم الخاصة بالأحوال الشخصية أسوة بالطوائف المسيحية الأخرى. كان لليهود مركزهم المرموق في عالم المال لاسيما في بغداد والبصرة وباتت المنافسة والصراع شديدين بين طبقتهم المتمولة وبين طبقة التجار المسلمين ورجال الأعمال التي راحت تنمو بعد تكوين الدولة العراقية. ولا يخالجني أي شك في أن ليد هؤلاء أثر في استصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين إن لم يكن السبب الخفي الأصلي له.

والواقع هو أن حالة سواد اليهود لم تكن تفترق عن حالة عموم العراقيين المعاشية والاقتصادية والاجتماعية. كان أثرياؤهم كغيرهم من نظائرهم ينعمون بكل ما يؤمنه المال من رفاه ونفوذ ومنزلة، في بلد طبقي غلبت عليه الأنانية والجشع والفساد والفوضى السياسية وحكم على أغلبيته الساحقة أن تعيش في بؤس وفاقة، وبأفضل الأحوال عيش كفاف.

ومع هذا فقد شعر اليهود الذين أُرغموا على الرحيل بوحشة عظيمة وبأنهم يقذفون كما تقذف القمامة، حيث المستقبل المجهول، ولم يحاول أحد من مثقفيهم وعلمائهم الكبار ورجال المال منهم أن يتخذ إسرائيل وطناً ثانياً.

الفصل الثالث والعشرون

مصر في عهد الملكية. الفشل العسكري في فلسطين بعد التقسيم. الملك فاروق أمام دستور العام ١٩٢٣. تحديد الوجود البريطاني في مصر بعد معاهدة ١٩٣٦. الوفد والأحزاب المصرية. الجيش المصري: قوامه، تشكيلاته القتالية، ضباطه. عود إلى عزيز علي المصري. حزب مصر الفتاة. أحمد حسين وفتحي رضوان. اتجاه القصر نحو دول المحور وصراع الوفد مع الأحزاب الممالئة للقصر. حركة الإخوان المسلمين، تحولها إلى حركة سياسية. حسن البنا ثم الهضيبي مرشداها. يوم ٤ فبراير وإرغام فاروق على تكليف النحاس بالوزارة. تقسيم فلسطين واعتراف الدول الكبرى. بداية التدخل المصري في الشؤون العربية. قيام جامعة الدول العربية. حزب الوفد والأحزاب الأخرى، موقفها من ثورة يوليو. تنظيم الضباط السري. نجاح الثورة. محمد نجيب. موقف الفكر المصري من الثورة. الأدباء والعلماء والصحافة. أهداف الثورة ومقاصدها. المتغيرات. محمد نجيب. الصراع على السلطة مع الإخوان المسلمين والشيوعيين. الصراع الداخلي بين الضباط الانقلابيين. محكمة الثورة. كفر الدوار. محاكمة رجال العهد المباد. تسخير القوانين لتثبيت شرعية النظام الجديد. عبدالناصر يحكم قبضته على الحكم. استقالة محمد نجيب واعتقاله. المظاهرات تنفجر مطالبة بعودته. عودته ثم استقالته. تحول الشارع إلى صف عبدالناصر

فشلُ العام ١٩٤٨ في فلسطين كان عسكرياً بالدرجة الأولى، وفيه لبس الجيش المصري أكبر العار لأنه كان أكبر الجيوش المشاركة الأخرى عدداً وأفضلها عدة ولأن المواقع التي حارب فيها كانت مواقع صالحة جداً لكسب نصر سهل. لكن وجه الغرابة هنا، وبخلاف ما هو منطقي ومتوقع، بدا هذا الفشل عاملاً في زيادة ثقة الضباط بأنفسهم، ولم ينقص من مكانة الجيوش وأهميتها في حياة العرب، عندما انبرى الضباط ووراءهم الكتاب لتفسير الهزيمة بأنها نتيجة محتومة ماكان يمكن اجتنابها بسبب نظم

الحكم الفاسدة والعلل الاجتماعية، وهي والحالة هذه أثر من الآثار، لا سبب أو علة بحد ذاتها. وعاد الضباط بجنودهم رافعي الرؤوس لا كمخطئين في واجب أنيط بهم ولم يحسنوه بل كضحايا للبؤس القومي.

وساعدت الثقة بالنفس التي درب عليها الضباط في نقل الذنب واستخلاص أنفسهم من تبعات الفشل. وساهم في تعزيز مكانتهم ونيل احترام فقده الساسة الحاكمون جمهرة من الكتاب القوميين وأحزاب وفئات المعارضة التي كانت تتسقط هفوات الحكام وتسند إليهم كل ما يبدو قابلاً للتصديق راحت تروج لهذه النظرية لتغدو في زمن قليل حقيقة ثابتة من حقائق التاريخ.

من جهة أخرى هذه الحرب نفخت روحاً جديدة في عملية بعث سياسي جديد للقومية العربية المتطرفة. فالإنتلجنسيا الليبرالية العربية بدت استجابتهم لنداء فلسطين فاترة جداً وقليل منهم نشط في المجهود النضالي ولم يلاحظ وجود مثلاً لمحاربين متطوعين من تنظيم أو حزب سياسي ليبرالي. والشيوعيون في البلاد الناطقة بالعربية كانوا ضد الحرب ومع قرار التقسيم وقد أعلنوا رأيهم هذا في مناشير سرية في أواخر العام ١٩٤٩ وزعت في العراق كما وزعت في سورية والأردن ومصر مطالبة بوقف الأعمال الحربية ومبدين تضامنهم مع رفاقهم الشيوعيين الإسرائيليين وهو الموقف الذي اتخذته الأحزاب الشيوعية العالمية انسجاماً مع موقف موسكو.

وبدت الحماسة والضجة الكبرى في أوساط اليمين العربي، في أنصار النازية البائدة، في مفتي فلسطين وفوزي القاوقجي، في القوميين العراقيين الذين حاربوا بريطانيا في مايس ١٩٤١، في الضباط السوريين والعراقيين عامة، في الإخوان المسلمين، في حزب مصر الفتاة النازي الاتجاه، والمصريين الملكيين بصورة عامة، يقف على رأسهم جميعاً شخص قد يكون أبعد الناس عن القومية العربية وأقلهم احتفالاً بهمومها ومشاكلها وأبلدهم شعوراً بمصيرها هو الملك فاروق الأول.

كان هذا الملك الشره الفاسق كما صورته أدبيات ثورة يوليو بحق يرمي إلى تأكيد السيادة المصرية على سائر البلاد الناطقة بالعربية بإمساكه رمانتي القومية والإسلام في يد واحدة وتشجيع عملي ظاهر من البريطانيين بعد الحرب العظمى. وهو عمل قلده فيه جمال عبدالناصر لكن بطريقة عنيفة.

في مصر كان ثم دستور ديمقراطي المحتوى والشكل. أساء الملك الأب ثم الابن استخدام سلطتهما فيه. وكثيراً ما تدخل البريطانيون لوقفه والحد منه لمصلحة الشعب

والديمقراطية[1] وكذلك لمصلحة الطبقة العليا وأصحاب الأطيان - وهو النعت الذي يطلقه المصريون على الملاكين الكبار - وكذلك عندما تتعرض مصالحهم للخطر المباشر وبالشكل الذي تدار به أمور الدولة. لم يكن بإمكانهم الامتناع عن التدخل في السياسة المصرية لكن وجب عليهم أن يقوموا بذلك بشكل خفي ومن الخلفية. على أن هذا التدخل أكان من مصلحة المصريين أو من مصلحتهم بات هدفاً تهاجمه الأحزاب السياسية كافة.

وفي مصر عشية الثورة وقبلها لم يكن هناك ضباط عثمانيون يتناحرون ويتنازعون السلطة كما كان الأمر في العراق. لم تكن هناك أسر عريقة مارست الحكم أو ساهمت في الحكم مع الحكام الأجانب كما هو الأمر في سورية، بل كانت هناك أسر بنت نفوذها وسلطانها على الغنى المتأتي من امتلاك الأراضي الزراعية. أسرٌ معظمها لا يمتّ إلى أصول مصرية أو عربية بل هي من بقايا المماليك الجركس والصقالبة والأتراك والكرد. ومثلهم يوجد في سورية والعراق أيضاً. هؤلاء أخرجوا ساسة ورجال دولة تميزوا بالثقافة العالية، ومنهم كان الملك يختار رؤساء الحكومات والوزراء والموظفين الكبار.

وتجربة المصريين مع الأحزاب السياسية هي أطول بكثير من تجارب البلاد الناطقة بالعربية الأخرى، وكان هناك ديمقراطية أيضاً بكل عيوبها ومساوئ تطبيقها.

ويهيمن حزب الوفد على الساحة وهو يختلف عن سائر الأحزاب بادعائه بأنه صوت الشعب المصري والمنظمة السياسية الوحيدة التي تنطق بلسانه ولا يتضمن هذا الادعاء كثيراً من الواقع. أما الفضل في إنزاله منزلة خاصة فيعود إلى تاكتيك مؤسسه (سعد زغلول) البارع الذي استخدمه منذ العام ١٩١٩، وكان خطيباً مفوّهاً يستطيع

---

(١) المقصود هنا دستور العام ١٩٢٣. الذي امتهنه الملك فؤاد وسار ابنه فاروق على فهمه. ولم يكن البريطانيون بحسب تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ يملكون حق التدخل المباشر. كما ملكوه في العام ١٨٨٢ - في انتفاضة عرابي المسلحة. لكن وجب عليهم ان يتدخلوا لمصالح جوهرية لا يمكن الإغضاء عنها عندما أرغموا فاروقاً أثناء الحرب في ١٤ شباط ١٩٤٢ على إسناد الوزارة للوفد أو باعتقاله أو خلعه. ومما يذكر في هذا الصدد أنه وفي العام ١٩٢٧ أدّى شبيه بهذا الموقف باللورد لويد المندوب السامي الذي خلف الجنرال أللنبي إلى قولته المشهورة: «لدينا مكانة دون مركز، وثورة بدون سلطة، ومسؤولية دون إشراف: We have magnitude without position, power without authority, responsibility without control.

اللعب بعواطف الجمهور ويثير حماسته إلى حد الجنون.

إلا أن التمثيل السياسي الحقيقي هو شيء يختلف عن هذا. إنه ذلك الحوار المستمر بين المواطنين وبين زعمائهم السياسيين، حوار يستمد مادته ومؤثراته من آراء ومصالح مختلفة تترجمها وتنتظمها حكومة دستورية مسؤولة ولم يكن في أي من هذه الأحزاب ما ينطبق على هذا الواقع المصري. والوفد لم يكن غير فريق من طبقة الموظفين والمثقفين لا يتصف بصفة التمثيل الشعبي، إلا أن مقدرة زعمائه في تعبئة الجماهير التي عانت في سنوات الحرب شظف العيش والضيق الاقتصادي مكنته من الظهور بمظهر المعبر عن المطالب الشعبية، تماماً مثل ما تمكّن جمال عبدالناصر من الحلول محله وبعين الوسيلة كما سنرى(٢).

---

(٢) إلى جانب الوفد كان «الأحرار الدستوريون» بزعامة محمد محمود باشا «عرف بالأناقة وبثقافة عالية أمّنها له تخرجه من كلية باليول الشهيرة. واسع الغنى والنفوذ وحزبه وهو مجرد اسم يستقطب حوله نفر من الباشوات والأغنياء. حزب انتهازي صرف يجرى قادته وراء الثروة والمنصب ولا يهم الجهة التي يتعامل معها: الملك، البريطانيون، الوفد؟

كان هناك أيضاً حزب الشعب الذي ألفه إسماعيل صدقي عند توليه الوزارة ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٣ ومات وهو فيها. وهناك «الاتحاديون» وقوامه رجال هم صنيعة الملك تألف بعد سقوط زغلول في ١٩٢٤. وكان هناك «السعديون» الذين انشقوا عن الوفد في نهاية العام ١٩٣٧ وألفوا حزباً مستقلاً. وأخيراً كان ثم الحزب الذي أطلق على نفسه «الكتلة الوفدية المستقلة» بزعامة وليم مكرم عبيد باشا في العام ١٩٤٦ بعد اختلافه مع النحاس رئيس الوفد. [كان سكرتير الوفد أي الشخصية الثانية فيه. وهو إلى جانب ويصا واصف بك القائدان البارزان القبطيان. وقد نفيا معه إلى سيشل في العشرينات وبقي كلاهما من أقطاب الوفد الكبار وأولهما مكرم عبيد كان سكرتيراً عاماً للوفد لا ينازعه في مركزه منازع. وتاريخ مصر لا يعرفه بغير اسم «مكرم عبيد»، ولا يعلم لماذا أسقط اسمه الأول من التداول. في حين كان ساسة مصر قاطبة يذكرون ويخاطبون بأسمائهم الأولى. أفلأنّ الاسم أجنبي قد ينشر ذكره ظلاً من الشك حول وطنيّة صاحبه وسلامة الأسرة من صلة خارجية؟ إنه في الواقع واحدٌ من الدلائل الكثيرة على عشق البلاد الناطقة بالعربية للمظاهر والاهتمام بها. وقد لاحظت مؤخراً في العراق أن الأقلية المسيحية هناك عزفت تماماً عن تسمية أبنائها بالأسماء الشائعة بينهم (بطرس، حَنّا، عبدالمسيح، عبدالأحد الخ) وراحت تتخذ لأبنائها أسماء منتزعة من قاموس المصطلحات القومية العروبية والبعثية. عجبتُ عندما اختار أحد أقربائي اسم «صمود» لابن له، وزاد الأمر تعقيداً عندما قدم لي صمود هذا زوجته باسم «نضال» وهي آشورية. إنها غريزة حب البقاء بالسير مع التيار السياسي، من جهة، وتأكيد ولاء للمفاهيم العقائدية الجديدة التي تفرضها السلطة على الجمهور من جهة أخرى. حرص الأقلية المسيحية على أن تبقى جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع ومن الغالبية.

كانت مصر في الحرب العالمية الأخيرة أهم وأخطر قاعدة بريطانية في الشرق الأوسط مثلما كانت في العام ١٩١٤. زادت أهميتها وخطورتها بسبب الهزائم التي عانتها جيوشها الإمبراطورية في كل مكان وبوجود الحشود الألمانية الإيطالية في ليبيا.

شرحت فيما سبق بإفاضةٍ طبيعةَ الكره المتأصل للاحتلال البريطاني وكيف كان ذلك سبباً في زيادة العطف على المحور، ولم يكتم فاروق إعجابه بما يحققه من انتصارات. وشاركه إعجابه وتعاطفه عموم ضباط الجيش المصري. وكان له أشياعه والمتحمسون له في المؤسسات العسكرية كافة، أمر طبيعي عندما كان للمحور موالون وأشياع داخل الطبقة الحاكمة نفسها. وهنا أرى أن أزود القارئ بفكرة عن نشأة الجيش المصري الحديث وعن ضباطه الذين خرجت منهم عصبة الضباط الأحرار.

ترجع أصول هذا الجيش والفضل في تكوينه إلى محمد علي الكبير الألباني مؤسس الأسرة المالكة المصرية. كان هذا العاهل القدير عند بناء قواته التي خلفت قوات المماليك (وبها قضى عليهم) قد استخدم ضباطاً أجانب لتدريب جيشه الناشئ على الفنون العسكرية. وقوامه الجنود الفلاحون المصريون الذين هدد بهم الإمبراطورية العثمانية كما تقدم. وبسبب من ذلك عمد إلى إنشاء مصانع حربية ومدارس عسكرية لتخريج الضباط.

كان يجند الفلاحين المصريين المسالمين الوادعين بالقوة الغاشمة. وقد عرف الفلاح المصري بكرهه التاريخي للخدمة العسكرية منذ عهد الفراعنة. وحفلت الكتب التي ألفت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بقصص وحكايات عن قيام هؤلاء القرويين بإحداث جراح بالغة وعاهات مستديمة في أجسامهم بغية التخلص من الجندية هذا الكره كان سبباً في قلة إقبال المصريين على المعاهد والكليات العسكرية ويفسر ظاهرة الأكثرية الغالبة من الألبان والترك والجركس في منظومة الضباط[٣].

في العام ١٨٤٠ قلص هذا الجيش على إثر التدخل الأوروبي وهزيمة محمد علي وارغامه على الرضا بحكم مصر فقط. وحددت المعاهدة عدد الجيش بـ(١٨٠٠٠) واغلقت معظم المصانع والمعاهد العسكرية وثكنات التدريب. إلا أن خلفه الخديوي محمد سعيد راح يشجع دخول أبناء الفلاحين والقرويين المدرسة العسكرية الوحيدة

---

(٣) أف. يو. تيرنو F. U. Ternaw: الكمالية الحديثة في جمعية الاتحاد الوطني - Le No Kamalism De Comité National العدد ١٦ ص١٥. السنة ١٩٦١.

الباقية لتخريج الضباط وسار الخديوي إسماعيل على السياسة عينها واستدعى الجنرال (جارلس ستون) الأمريكي وهو من قادة الحرب الأهلية الأمريكية وعينه رئيساً للأركان العامة وأبقاه في منصبه هذا طوال ثلاثة عشر عاماً ١٨٧٠-١٨٨٣ وكل هدفه تحديث الجيش ورفعه إلى مصاف وكفاءة الدول الغربية. فأعاد الجنرال ستون (Charles P. Stone) فتح المعاهد العسكرية ورفع من مستوى الدراسة فيها، وفتحها بوجه التلاميذ المصريين لكنه لم يقو على كسر الاحتكار الجركسي - التركي - الألباني في القيادات وبقي الجيش صغير العدد كما فرضته المعاهدة. وكان (أحمد عرابي) أول من وصل من المصريين أبناء الفلاحين إلى رتبة أميرالاي (عميد) وكان كما ذكره الكتاب المصريون وأفاضوا فيه يتحمّل اضطهادات وسخرية الضباط الأجانب الآخرين.

ويؤكد المؤرخ المصري (عبدالرحمن الرافعي) في كتابه عن «الثورة العرابية» بأن الضباط المصريين الذين قاموا بحركتهم في ١٨٨٢ لم يكونوا ضد التواجد البريطاني الفرنسي بخبراء المال الذين جاؤوا بعد تراكم الديون المصرية فقد كانوا بحصافة وتفهم يدركون أن عمل هؤلاء مفيد للبلاد وأنهم حماة للفلاحين من ظلم الخديوي واعتساف الطبقة العليا صاحبة النفوذ التي لا تمتّ للتراب المصري بصلة. ويستخلص الرافعي أن ثورة عرابي ما كانت لتحصل لو أن الخديوي إسماعيل اتبع سياسة سلفه في تشجيع انخراط المصريين في صفوف ضباط الجيش وترقياتهم(٤).

بعد فشل ثورة عرابي(٥) ودخول الجيش البريطاني مصر، قام اللورد كرومر المندوب السامي بحل الجيش المصري وإعادة تشكيله بقيادات تخرج ضباطاً لجيوش العصر ظلوا يتبعون الأساليب القديمة ولم يعنوا بالثقافة والتتبع العسكري لكن حظيت قلة منهم بالدراسة في المعاهد العسكرية التركية التي وضعت تحت إشراف البعثات

---

(٤) في تلك الفترة كان مجموع سكان مصر لا يتجاوز خمسة ملايين.

(٥) كان التمييز في الجيش حتى بين أصحاب الرتب المتساوية. فعرابي بوصفه مصري (فلاح) الأصل كان قد حرم منحه المائة والخمسين فداناً وهي مساحة الأرض الزراعية التي تمنح عادة لكل من رقي إلى رتبة أمير آلاي (آمر لواء) وكتسليمه قيادات مسلكية هامة. إن المطالب التي تقدم بها هذا الضابط وزميلاه كانت تكشف عن غيظهم وقنوطهم. عزا أحمد عرابي فشل الحملة الأثيوبية في ١٨٧٥ إلى جهل وحماقة هؤلاء الضباط الأجانب (غير المصريين) إذ أدى استخدامهم إلى الاستغناء عن عدد كبير من الضباط وضباط الصف المصريين وإنقاص ملاك الجيش إلى ٩٠٠٠ جندي وضابط في حين طلب أحمد عرابي إبلاغه إلى العدد المقرر وهو ١٨٠٠٠.

العسكرية الألمانية منذ العقد الأول للقرن العشرين. وبعكس الجهود البريطانية في بعث الجيش المصري وتجديده فقد امتازت تلك البعثات بالجدية وأحدثت ثورة في الأساليب العسكرية التركية. وتخرج بفضلها ضباط كفؤون إلى حد ما، حظي كثير منهم بدورات تدريب ودراسة في معاهد برلين العسكرية والخدمة في القوات الألمانية.

من بين هؤلاء المصريين الذين أكملوا دراستهم العسكرية وخدموا في الجيش التركي شخصية (عزيز علي المصري) التي مر بنا ذكرها بوصفها واحدة من مؤسسي جمعية (القحطانية) السرية التي كان معظم أعضائها من العراقيين إلى جانب قلة من السوريين واللبنانيين وقدر لها دور بارز في التوجيه (الثوري) للضباط المصريين، ومثل مرحلة وأرضية لقيام الكتلة التي عرفت باسم (الضباط الأحرار) مهندسي ثورة يوليو.

بعد أن أنقذته الوساطة من حكم الإعدام الذي أصدره أنور باشا بحقه قبيل نشوب الحرب العظمى، عاد إلى بلاده واتخذه «مكتب القاهرة» البريطاني مستشاراً، ثم أرسله لمعونة الشريف حسين فاختلف معه وطرد وعاد وهو ناقم على البريطانيين والعرب وبقي حتى العام ١٩٣٣ خامل الذكر منبوذاً إلى أن نُوّه به في صحف القاهرة أثناء وصف مظاهرة عنيفة ضد الاحتلال البريطاني في العام ١٩٣٥ - تشرين الثاني - أصيب فيها ضابط بريطاني بجرح سطحي ناجم عن إطلاقة مسدس[(٦)].

---

(٦) أصله عراقي نزح والد جدّه من البصرة إلى القفقاس وتزوج بقفقاسية رفيعة المنبت، ونقل بعدها إلى إستنبول وفي ١٨٨٣ استقر في القاهرة. وفي هذه المدينة ولد «عزيز» في ١٨٨٩. وأرسل إلى إستنبول وهو في العاشرة وتخرج في ١٩٠١ ملازماً. وتخرج بعدها بثلاث سنوات في مدرسة الأركان بامتياز وكان «أنور» زميله فيها. في ١٩٠٧ خدم في جبهة البلقان وتميز بشجاعته. وكان له دور الكبير في استخلاص إستنبول من يد خصوم الجون ترك في ١٩٠٩. ولفترة وضع أمله في هؤلاء ظانّا أنهم سيمنحون العرب نوعاً من الاستقلال. في ذلك الحين نضجت لديه فكرة إقامة اتحاد كونفدرالي عربي - تركي على غرار نظام الحكم في إمبراطورية النمسا والمجر. لكنه خاب في مسعاه عندما وجد هؤلاء أحرص على السيادة التركية من السلطان عبدالحميد الذي خلعوه فانقلب ضدّهم وأسس جمعية «القحطانية» السرّية. وصفه أقرانه بالصلابة والعناد وبطبع ناري لا حّد له. لم يتحمل جو إستنبول السياسي فطلب أن ينقل إلى اليمن فأجيب طلبه وفي ١٩١٠ ساهم في قمع ثورة الإمام يحيى حميدالدين. وبعد سنتين تطوّع لحرب الطليان في ليبيا. ويذكره أحمد جمال باشا (السفاح) في مذكراته بقوله إنه أدى من الشجاعة والاستبسال في الدفاع عن بنغازي ما قلّ نظيرهما». وخدم في اليونان مع مصطفى كمال وأنور وعاد إلى إستنبول في ١٩١٣، وكان أحد مؤسسي حزب «العهد». عندما أمر أنور (وزير الحربية) بالقبض عليه وإحالته إلى مجلس عسكري ثارت الخواطر في مصر وسورية =

في العام ١٩٤١ نشرت لعزيز علي بعض الصحف القاهرية برنامجاً سياسياً لقي هوى في نفوس الشباب الوطني المتحمس وأهم ما جاء فيه: إن مصر فوق كل شيء (كذا) وهي إمبراطورية مستقلة، قوية تامة السيادة تتألف من مصر والسودان. وإقامة تحالف مع الدول الناطقة بالعربية والاستهداء بالإسلام وتعاليمه. وألحق بأهدافه السياسية هذه نظاماً عرف في حينه (بالوصايا العشر) ومنها: لا يشترى شيء إلا من نتاج مصري، لا يلبس إلا مما يصنع في مصر، لا يؤكل غير الطعام المصري، اجتناب كل ما هو أجنبي، قطع كل صلة بالمستعمر، التحمس للوطنية إلى حد الجنون (كذا).

ذكر خالد محي الدين عنه في مذكراته: إنه كان نقطة ارتكاز هامة في حركة

= وراحت الصحف هناك تطالب بإطلاق سراحه. وعندما صدر عليه حكم الإعدام إثر محاكمة سرية دون تهمة واضحة أو دليل كتبت جريدة التايمس اللندنية أربع مقالات مطالبة الأتراك العدول عما وصفته «بجريمة قتل قضائية لا أكثر ولا أقل قد يكون لها أسوأ أثر في العلاقات مع مصر». ويظهر أن الضجة الإعلامية أحدثت أثرها فقد ألغي الحكم بعد ستة أيام وأطلق سراحه وحددت إقامته في مصر، واستقبل في القاهرة استقبال الأبطال.

عرض عليه اللورد كتشنر الحاكم العسكري في مصر أن ينضم لقتال الأتراك فأبى إذ كان ضدّ الوجود البريطاني في مصر أساساً. وبقي دوماً شديد الإعجاب بالألمان وكان في بعض الأحيان يداعب فكرة استخدام الألمان نفوذهم على تركيا لقبولها باتحاد كونفدرالي مع العرب. أصبح لفترة قصيرة رئيس أركان الجيش العربي في الحجاز، لكنه اختلف مع الشريف حين بسبب معارضة الهجوم على الجيش التركي المرابط في المدينة. وكره العيش في مصر بعد عودته، ورحل إلى إسبانيا وبقي هناك حتى نهاية الحرب ثم قفل إلى ألمانيا وعاش فيها أربع سنين ثم عاد إلى مصر في ١٩٢٢ وقدم طلباً للخدمة في الجيش المصري. وفي العام ١٩٢٨ تزوج من مدرسة أمريكية مستخدمة من مدرسة الأمريكان بالقاهرة ولم يعمر زواجهما فطلقها. وفي أوائل الثلاثينات زج نفسه في خضم النشاط السياسي السري وقويت صلته بحزب «مصر الفتاة» النازي الصبغة، وبجماعات سرية أخرى عسكرية معادية لبريطانيا نازية الاتجاه تعد العدة لاغتيالات رجال الحكم، فضلاً عن جماعة الإخوان المسلمين. وقد أوفده الإخوان والمنظمة الإرهابية المنبثقة عنهم وحزب مصر الفتاة إلى الرايخ الثالث في مهمة شراء اسلحة.

في العام ١٩٣٥ أصدر «فؤاد» مرسوماً بتعيينه مرافقاً عسكرياً لولي عهد فاروق برتبة قائمقام (عقيد) أيام دراسة فاروق في بريطانيا. إلا أنه لم يبق طويلاً واستقال.

وفي أواخر ١٩٣٩ كان الملك فاروق مفتوناً بما حققه الألمان من انتصارات مستيقناً بأن المستقبل لهم. وقد بدا ذلك جلياً عندما استدعى «علي ماهر باشا» من الاتحاديين الدستوريين المعروف بميله الشديد للمحور لتأليف الوزارة. وكدليل وإشارة لا تخطئ على ميولهما صدر مرسوم بتعيين «عزيز علي المصري» رئيساً لأركان الجيش المصري برتبة فريق. إلاّ أنه لم يعمر كثيراً في هذا المنصب فقد أحيل إلى التقاعد إثر سقوط وزارة علي ماهر في ١ من آب ١٩٤٠.

الضباط إلا أنه كان يحبذ عمليات الاغتيالات الفردية، وحجته في ذلك أننا لا نستطيع مواجهة الإنكليز لأنهم أقوى منا، لكننا نستطيع قتل الخونة واحداً إثر الآخر، وهو يستشهد بالبلغار بالمناسبة، كيف أن الاغتيلات هي التي حققت لهم استقلالهم[٧].

كان عزيز علي قد وثق صلته خلال الفترتين القصيرتين اللتين خدم خلالهما في الجيش المصري بمؤسسة الضباط المصريين الوطنيين. ولاسيما عندما كان رئيساً لأركان الجيش. اتجهت إليه أنظارهم لماضيه اللامع، ولأنه كان يتفق معهم في بغضه الإنكليز وعدائه لبريطانيا. ولم يضيع دقيقة واحدة من فترة وجوده على رأس الجيش المصري من محاولات البحث عمن يرى رأيه في الانحياز إلى دول المحور من بين مجموعات صغار الضباط ووقع على أنور السادات فقد بدا له أجرأهم وأكثرهم صلات بالأحزاب والمنظمات السياسية وبسبيله تحققت صلته بأحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة الذي كان يعرف بذوي القمصان الخضر، ذلك الحزب الذي كان يدعو إلى شوفينية مصرية متعصبة على الخط الفاشي - النازي قلدتها في كل ظواهرها وتجلياتها الجماهيرية بإقامتها مسيرات واستعراضات شبه عسكرية لشبابها بزيهم المستنسخ من أزياء فرق الصاعقة والشبيبة الهتلرية.

في خضم بدء الاغتيالات السياسية[٨] التي هزت مصر طوال أحد عشر عاماً وتصاعد النشاط النازي ترامت أنباء قيام رشيد عالي على البريطانيين بحركته الموالية للمحور في العراق وتلقفت الصحف أنباءها في القاهرة بعناوين مثيرة استفزازية. على أننا لا نعلم هل أُتيح للحركات المصرية السرية الصغيرة فرصة تحقيق صلة معها إلا أن (السادات)[٩] يذكر بأنه كان هو والرائد المتقاعد محمود لبيب على صلة بالألمان في ليبيا:

---

(٧) خالد محي الدين: المرجع السالف ص٨٨.

(٨) بلغت الاغتيالات أوجها باغتيال أمين عثمان باشا ومحمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء بعد اغتيال رئيس وزراء آخر هو أحمد ماهر باشا. فرد رجال الأمن المصريون على اغتيال أولهم باغتيال حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين (انظر ما سيتلو) لغرض إلقاء القبض عليهم. إن اعتقال اثنين من الجواسيس أدى إلى انكشاف الحركة السرية وألقي القبض على السادات وزميل آخر هو الضابط حسن عزت. وينوه السادات بضابط آخر في تلك الحركة كان ناشطاً مع عبدالناصر في موقع العلمين في العام ١٩٤١ يدعى محمد وجيه خليل وكان يزوره في المعتقل في ١٩٤٢ ليؤكد له أن رفاقه يتولون رعاية أسرته.

(٩) السادات: ثورة في النيل. القاهرة ١٩٥٧. ص٢٧ «كان محمود لبيب الذي قضى سنوات عديدة في ألمانيا قبل الحرب واحداً من قادة المنظمة السرية الإرهابية ذراع الإخوان المسلمين الضارب =

«صرنا نعمل معهم بانسجام تام بخصوص جمع معلومات حول توزيع القوات البريطانية وانتشارها في مصر - لفائدة الاستخبارات العسكرية الالمانية».

وقرر عزيز علي المتقاعد والسادات بعد وصول أنباء قيام الجيش العراقي بتطويق قاعدة الحبانية القيام بعمل ما في مصر وفاتحا الألمان وبموافقتهم تقرر أن يغادر عزيز علي مصر سراً إلى ألمانيا لغرض دعائي صرف وتطوع لنقله بطائرة حربية مصرية الرائد الطيار (حسين ذو الفقار صبري) والملازم (عبدالمنعم عبدالرؤوف) وأقلعت الطائرة في ٦ من أيار ١٩٤١ إلا أن المحاولة لم تنجح إذ تحطمت الطائرة وألقي القبض على هذين الضابطين.

بقي عزيز علي معتقلاً بعد حادث تحطم الطائرة بضعة أشهر، ثم أطلق سراحه بعد أن أعطى كلمة شرف بألا يقوم بمحاولة مماثلة أخرى. إلا أن عزيمته على الهروب إلى ألمانيا لن تفتر وتقرر أن يتم تهريبه عن طريق غواصة ألمانية تتسلل إلى الساحل في منطقة معينة. وأوكل تنفيذ العملية إلى عضو في منظومة الضباط السرية هو الملازم الثاني (أحمد مظهر)[١٠].

وبقي السادات معتقلاً في سجن (المنيا) حتى وفق إلى الهروب في تشرين الثاني.

من كل هذا يتبين مدى التغلغل الألماني وتأثيره في الحركات المعادية لبريطانيا أثناء الحرب، والليونة إلى حد الإغضاء التي تسبغها السلطة على الضباط والحركات السرية عند افتضاح أمرهم وهو ما يؤكده قول السادات بجراءة وثقة:

«ما زلت أعتقد أنه لولا سوء الحظ الذي أحبط مشروعنا، فربما كان في مقدورنا توجيه ضربة سريعة للقوات البريطانية والانضمام إلى قوات المحور ولتغيّر مجرى الأحداث»[١١].

= وكان كذلك على صلة بعدد من ضباط طيارين صغار منهم (عبداللطيف بغدادي). وقد تحدث البغدادي بنفسه عن محاولتين مماثلتين في تموز ١٩٤١ قام بأولاهما (حسن إبراهيم) (من قادة حركة ٢٣ يوليو هو الآخر) وبثانيتهما في أوائل العام ١٩٤٢ الملازم محمد وجيه أباظة» ويتحدث السادات كذلك (الص٤٨-٤٩) عن جاسوسين من الإستخبارات الألمانية وجدهما ثملين يكادان يفقدان الوعي صحبة فتاتين من بنات الهوى (تبين في ما بعد أن إحداهما كانت عضوة في جهاز استخبارات يهودي يقوم بتعقيب النازيين.

(١٠) عرفه عالم السينما العربية نجماً لامعاً. وقد توفي في أواخر ٢٠٠٢.

(١١) المرجع السالف ٣٨ - خالد محي الدين.

قول فيه كثير من السذاجة والادعاء الأجوف. من السهل عليك أن تدعي بقدرتك على توجيه ضربة حاسمة لبريطانيا بعد مرور اثنتي عشرة سنة على سقوط هتلر ونظامه وهو أقل ما يمكن التعليق عليه. في مجرى تاريخ الحروب العظيمة ولا أقصد أعظمها طراً تبدو أمثال هذه المغامرات الفردية لا أكثر من أحداث هامشية. لكنها في تاريخ مصر جمال عبدالناصر وثورته تبدو كبيرة وأجزاء متممة، مقدمات وتمهيدات تزيد من رصيد القائمين بانقلاب ٢٣ يوليو.

* * *

قامت حركة الإخوان المسلمين في أواخر العام ١٩٢٦ بمصر بزعامة الشيخ حسن البنا (١٩٠٩ - ١٩٤٩) المعلم في إحدى مدارس الإسماعيلية. وهو خطيب مفوه ومنظم قدير قام بمشاركة إخوان له بعدة أنشطة إسلامية تحت عناوين شتى، ثم تقدم رسمياً بطلب تأسيس جميعة إسلامية بعنوان (الإخوان المسلمون) فرفض طلبه بادئ الأمر ثم أجيز بعد فترة قصيرة. ولم تمر على الحركة سنوات معدودات حتى اتسعت وشملت القطر المصري وكان لها أعضاء متحمسون في كل مدينة وقرية، وانتقل بها مرشدها إلى القاهرة وما لبثت أن خرقت نطاق مصر وانتشرت في سورية والعراق والأردن والسودان.

زعم مرشدها العام في مبدأ أمرها أن الهدف من تأسيسها هو بذل المساعدة وبسط الرعاية على الجموع الغفيرة من أسر الفلاحين المصريين المعدمين الذين ضاقت بهم سبل العيش في الريف فهاجروا إلى المدن بأعداد هائلة بحثاً عن عمل فزادهم ذلك بؤساً. ومهمة حركته هي إرشادهم دينياً والأخذ بيدهم أثناء بحثهم عن مورد رزق.

ونفى حسن البنا صفة الحزبية عن حركته مؤكداً أنها تختلف عن سائر الأحزاب السياسية بكونها لا تتبنى انقلاباً عسكرياً ولا تدعم أي حكم عسكري أو انقلابي وأنها تعارض الحكم الاستبدادي، وتقاوم الاتجاه الغربي الذي يعزو إليه اضمحلال القيم الإسلامية. وأن نضال الإخوان السياسي سيكون قاصراً على انتقاد وإدانة الحكومات الفاسدة بغية بناء مجتمع إسلامي تسوده العدالة وينعم بالرخاء، وهم لذلك يحاربون الاستعمار بكل أشكاله وينادون بالإصلاح الاجتماعي. وبكلمة أخرى حركة إسلامية خالصة تعمل لإقامة دولة تحكمها أصول الشريعة الإسلامية لذلك فهي تجد في ديمقراطية الغرب ونظمه ومبادئه في العدالة والمساواة ما يقل كثيراً عما يؤمنه الإسلام منها. والدولة التي ستقام على مبادئ الإسلام سيكون من مهمتها الإشراف التام على

التعليم والمحافظة على الآداب الاجتماعية والاخلاق العامة طبقاً لمبادئ الشريعة وتأمين الرفاه الاقتصادي وفقاً لأحكام القرآن والسنة.

بعض أنصار هذه الحركة يدافعون عن الاشتراكية ويقولون بأن أصولها إسلامية مبتناة على أحكام القرآن لأنها تدعو إلى العدالة الاجتماعية وإن دعوة الاشتراكيين والشيوعيين إلى هدم النظم الاجتماعية هو تشويه لاشتراكية الإسلام يجب محاربته بأشد ما يمكن من العنف وبكل الوسائل.

ويوجز حسن البنا أهداف حركته بخطبه التعليمية وهذه واحدة:

«لستم جمعية خيرية. ولا حزباً سياسياً ولا منظومة إقليمية ذات أغراض محددة، بل أنتم روح جديدة في قلب هذه الأمة تمنح الحياة بهداية القرآن العظيم. إذا سئلتم لماذا لبيتم الدعوة؟ فليكن جوابكم هذا: إنها دعوة الإسلام ورسالة الدين الذي كانت مهمته إقامة حكومة من أولى واجباتها توفير الحرية، إذا قيل لكم بل أنتم والحالة هذه سياسيون فليكن جوابكم إن الإسلام لا يقر هذه الأوصاف والفروق، إن اتهمتم بأنكم ثوريون فليكن جوابكم نحن صوت الحق والسلام، وإننا نؤمن بهما إيماناً ثابتاً صميماً وإننا بهما لفخورون، إن حاربتمونا واعترضتم سبيل رسالتنا فنحن باذن الله مستعدون للدفاع عن انفسنا بوجه الظلم».

لم تلبث حركة الإخوان أن أشعرت الرأي العام العربي والإسلامي بوجودها بفضل النجاح المذهل الذي حققته خلال فترة قصيرة فقد انضم إليها الجم الغفير وانتبهت الطبقة الحاكمة إلى خطرها فراحت تغازلها وتخطب ودها وتستخدم ذراعها الصِّدامية في التظاهرات والمسيرات وأعمال العنف. وتقرب منها فاروق بالعطايا والمنح والامتيازات السياسية واستخدمها ضد الساسة. وبدأت الأحزاب السياسية الأخرى تخطب ودّهم لكن (البنا) لم يشارك في اللعبة السياسية التي تعودها الساسة المصريون خلال الفترة بين الحربين، وكانت سبيله وأساليبه تشابه إلى حد جالب للنظر أساليب سعد زغلول التي قادته إلى النجاح. فمن ناحية دعا الإخوان إلى ممارسة الضغوط على الحكومات وجندت الجماهير لهذا ومن ناحية أخرى نظموا جهازاً سرياً مسلحاً ودربوه على القيام بعمليات إرهابية. وبكل ذلك كان مصداقاً لادعاء (البنا) بأن حركته ليست حزباً سياسياً بل حركة سياسية.

وحزب مصر الفتاة المؤسس في ١٩٣٣ وهو عام وصول النازيين إلى السلطة كان

يطمح الوصول إلى السلطة عن طريق عصبة القمصان الخضر المجندة للقيام بمختلف الأعمال اللادستورية وخطط الساسة والمعارضين بأعمال عنف في الشوارع والمحلات العامة، أرغم الوفد على تأليف منظومة صِدامية عرفت بذوي القمصان الزرقاء. وكثيراً ما كان «القميصان» يشتبكان في شجارات (خناقات: بالتعبير المصري) في الطرق والحارات والمقاهي والملاعب، فيقع جرحى ويتدخل البوليس. كان من الطبيعي أن تجتذب تلك المنظمات اهتمامهم أو يشغلهم بهوايات مفيدة أو يطمئن رغباتهم ويستجيب لطموحاتهم.

بعد اغتيال حسن البنا في ١٩٤٩ نشب خلاف داخلي حول من يستخلفه من أقطاب ثلاثة كاد يؤدي إلى انشقاق خطير: حسن الهضيبي وسيد قطب والشيخ حسن الباقوري، ومع أن القيادة رست على أولهم إلا أن الانقسامات بدأت فيها. فانشق عنها صالح عشماوي مستقلاً بالجناح العسكري (الجهاز الخاص كما يسمى) وراح يقذف الهضيبي بأبشع النعوت ويسند إليه أرذل التهم. وانشق أيضاً يوسف طلعت الذي كان يقود أحد أجهزة الجناح العسكري وسيطر على الحركة حتى إعدامه الحياة في العام ١٩٥٤[١٢].

* * *

من الضباط الذين وردت أسماؤهم في مذكرات أنور السادات[١٣]، لم يسمع شيء عن الملازم حسن عزت بعد نهاية الحرب في حين أدركت الوفاة ثلاثة منهم قبل العام ١٩٥٢[١٤] في حين أصبح أربعة من الثمانية الباقين أعضاء مؤسسين للجنة العشرة التي

---

(١٢) ر. ميشيل. جماعة الإخوان المسلمين. لندن ١٩٦٩ [ص٣٦ وما بعدها] R. Mitchell: The Society of Muslim.

(١٣) سعدي وخليل ولبيب.

(١٤) ٢٣ نيسان ١٩٦٤ أكدّ عبدالناصر واقع هذه الصلة في أثناء مقابلة صحافية له مع جريدة [القومية الألمانية والجندي Deutch National und Soldatin] لسان الحزب النازي الجديد، المهدور حالياً (كان التصريح قبيل زيارة (نيكيتا خروشجوف) مصر بمناسبة افتتاح سدّ أسوان بشهر واحد) بقوله: كانت عواطفنا مع ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية إن رئيس مجلسنا (ويقصد السادات الذي كان رئيساً لمجلس الشعب وقتها) سجن بسبب ميوله السياسية تلك. وللجريدة نفسها صرح في ١٤ مايس (أيار) من العام نفسه بقوله «من المؤكد أن لا أحد يقبل بكذبة هلاك ستة ملايين في البشر على يد هتلر. حتى رجل الشارع البسيط لا يمكن أن يصدق هذا» كان عبدالناصر في ذلك الحين يعمل لخطب ودّ فريق من الألمان واجتذابهم لاستخدامهم خبراء =

أطلقت على نفسها اسم (الضباط الأحرار) في ١٩٤٩ وهم عبداللطيف بغدادي وأنور السادات وعبدالمنعم عبد الرؤوف وحسن إبراهيم أما الاربعة الباقون فقد رفعتهم حكومة يوليو إلى مناصب قيادية عالية ووظائف مدنية كبيرة، وعلى هذا يمكننا القول بوجود استمرارية فكرية غير منقطعة في تلك الزعامة التي أطاحت بالحكم الملكي.

نوع من حلف أو رباط بين الأفكار النازية وبين خلفية هؤلاء الضباط سهلت عليهم الانتماء إلى القومية العروبية وتبني الاشتراكية القومية التي اخترعها عبدالناصر في أول الستينات.

كان عبدالكريم قاسم وزميله عبدالسلام محمد عارف وكثير من زملائهم الذين هندسوا حركة القضاء على الملكية في ١٩٥٨ لا يدعون مناسبة تمر الا ليؤكدوا بأن حركتهم إنما هي امتداد لحركة مايس القومية ونهاية انتصارها. بعكس ضباط ٢٣ يوليو في مصر فقد وجدناهم يحاولون في كل مناسبة تعن لهم تغطية وطمس نشاط الأربعينات وفي محاولة لإزالة واقع صلاتهم وصلات غيرهم من ضباط الجيش المصري بالألمان. وأرى أن السبب يعود خلافاً لما أورده السادات وغيره إلى ضعفها وإلى مصيرها الخائب من جهة، وكذلك لأن عبدالناصر لم يكن له فيها دور. وليس في إمكاننا القول إن عبدالناصر كان يتبنى حينذاك رأياً يختلف عن رأي السادات والآخرين أعني أنه لم يكن يحبذ مبدأ الاتصال بدول المحور أو أنه كان يتمنى فشله وانتصار الحلفاء. ولذلك لم يسمح الحكم الناصري لتاريخ الأربعينات المصري بحيز بارز أو كبير لوقائع قيام حركة ضباط سرية بزعامة عزيز علي والسادات وبدعم من حركتي مصر الفتاة والإخوان المسلمين موالية للمحور وبقيام علاقة مع النظام النازي، لاسيما وأن عدداً من الذين نشطوا في هذا المجال تسنموا فيما بعد مناصب خطيرة وكانوا قادة وزعماء في النظام الجديد. إلا أن السادات لم يخف اعتزازه باتجاهه هذا ولم يتحرج من الإعلان عن كونه عميلاً نازياً وهذا ما أكده عبدالناصر في مناسبة واحدة على الأقل[(١٥)].

= عسكريين وعلى اقتناص رجال الصناعة والتكنولوجيا لمصانع الجيش المصري الحربية وقد فتح باب اللجوء لهؤلاء العلماء الذين لم يجدوا ما يعملون بعد نهاية الحرب وبعضهم مجرمو حرب مطلوبون في عدة دول أخرى.

(١٥) المرجع السالف ص٣٥.

يقول السادات عن حركة مايس: «إن الثورة العراقية في ١٩٤١ كانت في مصر أولى إشارة تحرير في العالم العربي[١٦]».

قبل أن يشتط بي القلم بعيداً ليستبق الأحداث سأعود بالقارئ إلى ما حصل في اليوم المشهود الذي عرف في تاريخ مصر الحديث بـ(الرابع من فبراير ١٩٤٢).

لم يخف فاروق فرحه الشديد بالتقدم الذي كانت تحققه قوات المحور في الصحراء وقيل إن حالة من الطرب الغامر استولت عليه عندما أبلغ بأن أرتال المارشال رومل اخترقت الحدود المصرية في (بردية) وبلغت آخر نقطة للسكة الحديد المصرية في (السلوم) وأن الجيش البريطاني يقوم بإنشاء خطوط دفاعية لا تبعد عن مدينة الإسكندرية بأكثر من مائة ميل. لم يكن البريطانيون غافلين قط عن العطف الذي يكنه ساسة ورجال حكم مصريين كثيرين للمحور ولا كانوا يجهلون اتجاه الرأي العام الذي صنعه الاحتلال البريطاني، كما كانوا يخشون تهديداً داخلياً لمؤخرة قوات الحلفاء.

كان رجال (الوفد) أبعد نظراً وأوفر حكمة من هؤلاء الضباط والأحزاب، والوفد على أية حال هو الذي عقد معاهدة الجلاء في العام ١٩٣٦[١٧] وقد عدت في حينه كسباً سياسياً كبيراً. في تلك الفترة كان النحاس باشا ووفده من المغضوب عليهم وقد أقصي عن الحكم طوال سبع سنين بسبب من ذلك.

---

(١٦) في شهر آب. وقد حازت رضا الوفد وبقية الأحزاب. إذ اعترف بمصر دولة مستقلة تامة السيادة. وباستمرار الحكم الثنائي في السودان واحتفاظ الملك بلقب ملك مصر والسودان، وإلغاء منصب المندوب السامي واستبداله بسفارة، مع إبقاء القوات البريطانية في منطقة القنال فحسب. وجعل أمد المعاهدة عشرين عاماً بعدها يتم الجلاء التام (كانت تقريباً شبيهة بمعاهدة ١٩٣١ العراقية - البريطانية). ومما يستحسن ذكره هناك أن الملك فاروق بدأ عند توليه العرش في ١٩٣٧ السير على نهج دكتاتورية والده. وفكر مصطفى النحاس (والوفد إذ ذاك كان تملك الأكثرية) في خلعه واتخذت خطوات في هذا الباب إلا أن السفير البريطاني الباقعة سر مايلز لامپسن نصح مصطفى النحاس بالتريث وضاعت فرصة الخلاص من دكتاتور أحمق فاسقٍ زاهد في الاحتفاظ بسمعة أخلاقية.

(١٧) وكما تبين فيما بعد كان رئيس الديوان (حسنين) يملك سلطة كبيرة على فاروق. يذكر مايكل شتيرن Michael Stern في (فاروق Farouk) أن رئيس الديوان هذا تزوج بنادلي أم فاروق زواجاً عرفياً سرياً وهذه الزيجة التي تعرف باسمها الدارج يتم بين الطرفين دون شهود بل بالتوقيع على وثيقة يحتفظ فيها كل من الزوجين بنسخة. ويذكر المؤلف أن الملك وشقيقاته كانوا على علم بهذا. إلى أن انكشف الأمر وأعلن للملأ بعد زوال النظام الملكي.

في الثاني من شباط جرت مقابلة بين مصطفى النحاس والسفير البريطاني (سر مايلز لابسن) خرج منها أولهما مبتسماً مستبشراً.

وفي صباح يوم ٤ فبراير تابع المارة سرفات الدبابات البريطانية وعجلات الشاحنات التى تحمل جنوداً بريطانيين وهي تتجه لتطوق قصر الملك (سراي عابدين) ومن إحداها ترجل السفير البريطاني مع اللواء(ستون) رئيس البعثة العسكرية البريطانية إلى الجيش المصري وحاول ضابط الحرس اعتراض سبيلهما فدفعه (لامبسن) بكوعه مقتحماً مكتب (فاروق) ليضع أمامه إنذاراً. إما أن يتنحى عن الحكم أو أن يقبل بالنحاس رئيساً للحكومة. ولم يطل تردد فاروق أمام إلحاح زوج أمه (أحمد حسنين باشا) رئيس ديوانه[١٨] ورضي باستخدام النحاس. ووقع أمر إقالة حسين سري والمسدس مصوب إلى رأسه.

كان الموقف كله جملة من المفارقات العجيبة التي يحتكر تاريخ البلاد الناطقة بالعربية النسبة الكبرى منها. فالوفد منذ أيام مديدة يدّعي بأنه طليعة النضال ضد النفوذ والاحتلال البريطانيين نجده يأتي الآن إلى الحكم بانقلاب عسكري بريطاني!

والبريطانيون اعتقدوا في هذا اليوم بالذات وبعد إنكار طويل بأن الوفد يمثل فعلاً الأغلبية من الشعب المصري وأن أي اتفاق معه سيجعلهم قادرين على تأمين مصالحهم دون تدخل أو عرقلة من مصنع السياسة المصرية، وجدناهم يضطرون إلى استعمال القوة لوضع ممثلي الأغلبية هؤلاء في دست الحكم!

سراب! ومهزلة. السفير البريطاني ووراءه وزير خارجيته الذي وافق على عملية الانقلاب ونفذها أولهما بشخصه كانا باللحم والعظم ممن فاوض على المعاهدة بنجاح وهنآ نفسيهما على إنجازهما قبل ست سنوات.

ورغم كل ما عرف به هذا الملك من عبث صبياني بالدستور، ومن تحلل خلقي لم يسبقه فيه أحد من ملوك البلاد الناطقة بالعربية، ومن عدم اكتراث تام بمصائر شعبه، كان وجه العجب الأكبر أن يطبق كتاب تلك الفترة والعهد الذي تلاه على الثورة النفسية العامة التي تفشت في ضباط الجيش المصري ولاسيما الضباط الأحرار الذين دأبوا على اعتبار يوم ٤ فبراير اليوم الذي وجهت للإمبريالية بشخص البريطانيين أعظم إهانة يلحقها

---

(١٨) راجع ما أصدره «محمد حسنين هيكل» من كتب بوجه خاص ومذكرات الضباط الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

مستعمر بشعب مغلوب على أمره. وإن هذا الحدث زاد في عزم الضباط الأحرار على انقلاب من أهدافه الإطاحة بالنظام الملكي والتخلص من الملك الفاسد الذي وجهت الإهانة إليه.

وحجتهم هي أن الملك رغم كل شيء كان يمثل الشعب المصري. لم يفكر هؤلاء المهانون بأن ما عدوه (إهانة) كان هدفها الحيلولة دون وقوع مصر والمصريين بين فكي إمپريالية لم يعرف التاريخ لمثلها نظيراً في بشاعتها وهولها. وعجزت أعينهم عن رؤية ما حل بدول وشعوب تفوقهم مدنية وحضارة أضعافاً عندما وقعت تحت أقدام الغزاة النازيين فريسة. أو كان ذلك يقتضي تفكيراً شاقاً عجز الضباط المصريون عنه؟

رأوا في الرابع من فبراير وصمة عار في جبين الوفد.

وبقيت الحماسة لقضية الحلفاء ضعيفة، وقلما بدا شيء من المساندة الأدبية للمجهود الحربي البريطاني في الصحراء من خلال الصحف والكتب مثلما كانت الحال في العراق خلال حركة مايس، ونظروا إلى المعتقلات التي أقامتها الوزارة الجديدة نظرتهم إلى رموز لاضطهاد حرية الفكر، وإلى الذين زجوا فيها من مشايعي المحور نظرتهم إلى شهداء العقيدة وأبطال مدافعين عن حرية الفكر.

في تشرين الأول ١٩٤٤ بعد أن بات النصر النهائي مجرد وقت لم يعد البريطانيون يصرون على بقاء الوفد في الحكم. وذاب العطف على دول المحور بهزيمتها ولم يعد هناك فائدة في الحنين إلى الألمان والإعجاب بهم، فكان التقارب الملكي من العدو الإمپريالي أمراً طبيعياً.

وكما حصل في معاهدة ١٩٣٦ التي هيأت لمصر العضوية في عصبة الأمم فإن إعلانها الحرب رسمياً على دول المحور واليابان في شباط ١٩٤٥ هيأ لها العضوية في هيئة الأمم المتحدة.

في ذلك الوقت تقدم البريطانيون لفاروق بلعبة جديدة من نوع أخاذ ما لبث أن ملك عليه مذاهبه: لعبة الجامعة لدول عربية يكون مركزها القاهرة. ويكون لمصر فيها المركز الأول بين الأقران (Premus Inter Pares) ربما شعر البريطانيون بأنهم وراء سراب خادعساير سياستهم العامة مع الوفد وإزاء مصر؟ ها هم الآن يتركون فاروق لموبقاته وتحكمه في تأليف الحكومات وخفضها حين وجدوا أن طموحه وشهوته لقيادة العالمين العربي والإسلامي يعادلان شهوته إلى الجنس والمال، حتى أنهم لم يستعجلوا

الحكومات المتعاقبة خلال الحرب على إعلان الحرب رسمياً على المحور، بل لم يروا ضرورة لذلك[١٩].

لم يبد حتى نهاية الحرب من كتاب مصر ومثقفيها وساستها ومن المصريين عموماً أي اهتمام لا بالعروبة ولا بالشؤون العربية، كانت هناك القومية المصرية، والأمة المصرية، والمستقبل المصري. وفي ١٩٤٨ كان التدخل العسكري المصري في قضية فلسطين بدافع ديني محض وتأكيداً لدور مصر القائد في جامعة الدول العربية.

على أن الصحافة المصرية بتشجيع من الملك ومن الحكومات الموالية له راحت تبدي اهتماماً بتحركات الدول الناطقة بالعربية، وزاد التقارب بحكم عضويتها في الجامعة.

وكثيراً ما وجدنا الحكومات المصرية تتبادل صيغاً وتعابير غامضة عن العروبة والعرب ومستقبل البلاد العربية في الرسائل الرسمية المتبادلة، لا يخرج معظمه عن مبادلة عواطف ومجاملة.

لم تتقدم جامعة الدول العربية خطوة واحدة نحو إقامة علاقة قومية أو نوع من وحدة. سئل سعد زغلول يوماً عن وحدة العرب فأجاب: «لو أنك أضفت صفراً إلى صفر فماذا سيكون المجموع؟»[٢٠].

انك لا تجد في كتاب الدكتور طه حسين (مستقبل الثقافة في مصر)[٢١] ذكراً واضحاً للعروبة أو تنويهاً بالعرب. وفي ميدان الرقي الحضاري والثقافي لم يتردد هذا المفكر في وضع مصر بمرتبة إيطاليا وفرنسا. أعني أنه نسبها إلى العالم الأوروبي وحوض البحر المتوسط، مؤكداً أنها تمت إلى التراث الهيليني (اليوناني القديم) أكثر من ارتباطها بالعالم الشرقي ومركز حضارته الهند والصين.

وفي الأربعينات كان واضحاً أن العروبيين ودعاة الوحدة العربية الشاملة لا يدخلون

---

(١٩) شاعت غرائب الاتفاق أن يكون إعلان الحرب في عين اليوم الذي خرّ رئيس الوزارة الدكتور أحمد ماهر باشا صريعاً برصاصة مجهول يعتقد أنه من جماعة المسلمين. كان وفدياً ثم انشق عن الوفد ليؤلف مع النقراشي - وتشجيع من صفية (أم المصريين) زوج سعد زغلول التي كانت تكره النحاس - ما عرف بالكتلة السعدية.

(٢٠) ساطع الحصري: «العروبة اولا» ط. بيروت ١٩٥٥ ص٨٩.

(٢١) القاهرة ١٩٣٨ ج١: ص١٨٠ وما بعدها.

مصر والسودان ولا شمال أفريقيا في حسابهم ولا يعتبرون تلك الأقطار مشمولة بالوحدة(٢٢).

ويتفق وهذه النظرة المؤرخون الإسلاميون العظام الاوائل. وفي مقدمتهم ابن خلدون وهو أبرزهم.

في تشرين الثاني ١٩٤٧ وضعت مصر أول قدم لها على سرج العروبة، ففي هذا الشهر صوتت هيئة الأمم المتحدة لصالح تقسيم ارض فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية وأسرع الجزء اليهودي المحدد باعلان دولة إسرائيل وأسرعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمنح صك الشرعية لدولة اليهود هذه بالاعتراف بها.

في العام ١٩٤٣، عندما كان البريطانيون يروجون لإقامة الجامعة العربية، وفي خلال مشاوراتهم مع رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس، كانوا يلوحون بالزعامة المصرية وارتفاع مصر ورغبة الملك في قيام مصر على رأس هذه الجامعة المقترحة والملك المصري من جهته كان يطمح في ان يغدو الزعيم الذي لا منافس له على العالم الناطق بالعربية كافة الأمر الذي سيمهد السبيل إلى الخلافة الإسلامية. وقد لوحظ بعد إبرام ميثاق الجامعة انه اطال لحيته وحرص على أن لا يخرج للناس إلا ومسبحة الصلاة في يده، وان يشارك في صلاة الجماعة أيام الجمع. فيما كانت حكايات عهره وجشعه حديث قصور وابهاء ساسة الدول العربية ورؤسائها(٢٣) من وقائع لا تحصى وتتجرأ

(٢٢) مجيد خدوري العراق المستقل The Independent Iraq ص١٨٤. يورد طرفاً من المحادثات التي تمت بين الجانب الألماني والجانب العربي قبل حركة مايس (جرت في برلين في آب ١٩٤٠). وعلى أثر المحادثات التي تمت بين كمال عثمان حداد مبعوث المفتي الحسيني وبين الدكتور فريتز گروبه كتب هذا الأخير مذكرة حول المقترحات العربية تحدثت بوضوح تام عن البلاد المعترف بعروبتها. وعن مصر والسودان خارج إطارها. انظر كذلك الصباغ: «فرسان العروبة». إنه يؤكد ما كان مسلماً به عالمياً حين يقوم بتقويم المواقف السياسية. فهو يفرد مصر عن سائر البلاد الناطقة بالعربية ويميزها عرقياً.

(٢٣) واقعة ذاع أمرها وشاع كرهتُ أن أضن بها على القارئ: ذات مساء عاد فاروق إلى قصر عابدين متأخراً. وهو يغلي حنقاً فقد خسر على مائدة القمار أكثر من خمسة آلاف جنيه. راح يذرع غرفته ذاهباً آيباً حيناً. ثم استدعى مستشاره الصحفي والوزير فيما بعد كريم ثابت. أمر مستشاره الذاهل بالجلوس وأملى عليه هذه الرسالة «الأخ العزيز صاحب الجلالة عبدالعزيز آل سعود: إن أخاك بحاجة ماسّة آنية إلى عشرة آلاف ليرة ذهبية. وسأردها لك في أقرب فرصة ممكنة». ووقع الرسالة ثم اتصل بالمطار العسكري وأمر بتجهيز طائرة تقلع إلى السعودية في الصباح الباكر. فوصل رئيس مرافقيه مع عدة ضباط إلى الرياض يحمل رسالة الملك. وتناقلت وكالات =

صحف للتحدث عنها لكن بالرمز والكناية والتلميح دون التصريح.

بدأت فصول تكوين الجامعة العربية في مشهد جلسة مجلس العموم البريطاني المؤرخة في ٢٥ من شباط ١٩٤٣ كما قلنا سابقاً فقد رتب أن يقوم أحد أصحاب المقاعد الخلفية Back Benchers من حزب المحافظين بطرح سؤال لوزير الخارجية معد سلفاً: «هل توجد للحكومة نية في تحقيق تعاون سياسي اقتصادي وثيق بين الدول العربية قد يفضي بالنتيجة إلى قيام نوع من اتحاد عربي؟»

فرد (إيدن) بجواب معد سلفاً أيضاً: «إن حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) تنظر بعطف إلى أية مبادرة من العرب تسعى إلى قيام وحدة اقتصادية وثقافية وسياسية بين دولهم. ومن نافلة القول إن المبادرة إلى مشروع كهذا يجب أن يباشره العرب أنفسهم وبحسب علمي لم يصدر منهم حتى الآن شيء يدل على هذا».

كانت بريطانيا تفكر في سياسة طويلة الأمد لما بعد الحرب ترمي إلى تنظيم علاقاتها بالدول الناطقة بالعربية وعلى ضوء حتمية ظهور الاتحاد السوفياتي منافساً لها هناك فضلاً عن الولايات المتحدة. لم يكن من المعقول أبداً أن تستمر بريطانيا في اتباع سياسة ما بعد العام ١٩١٨، وبدا العام ١٩٤٣ مناسباً للتفكير في خطوط سير جديدة بعد أن تحول مجرى الحرب بشكل واضح إلى صالح الحلفاء[٢٤].

= الأنباء والصحف العالمية النبأ بدهشة وراحت التكهنات تشير إلى قرب إبرام حلف عسكري مصري - سعودي إلاّ أن الوفد لم يمكث كثيراً فقد لبث بضع ساعات تمّ خلالها نقل صناديق ثقيلة إلى الطائرة. ويذكرالمستشار كريم بك ثابت أنه دخل مكتب فاروق فوجده منشغلاً ببسط القطع الذهبية على طاولته الكبيرة، يقلبها ويصنفها ويتفحصها واحدة واحدةً بمكبرة وعليه سيماء الطفل الذي حظي بهدية. هذه جنيهات من ضرب الملكة فكتوريا وأخرى عليها صورة جورج الثالث. وتلك دوبلونات إسپانية، إلى جانب دوقيات إيطاليا من ضرب البندقية. وليرات رشادية وأخرى حميدية، يقوم بعزلها وتصنيفها وهو يتمتم حيناً بعد حين كلما عثر على قطعة ناقصة الوزن: انظر كيف خدعني هذا اللصّ؟ (يقصد الملك السعودي. قال كريم ثابت انتهزت فرصتي فسألت «لكن كيف ستسددها يا صاحب الجلالة؟» فنظر إليّ نظرة استخفاف وأجاب: ومن قال إني سافعل ذلك؟ أنسيت ما كتبته له؟ الله وحده يعلم متى ستأتي هذه الفرصة الممكنة!» [عن كتاب «فاروق» لمايكل شتيرن].

(٢٤) فيها حقق الهجوم البريطاني في العلمين نصراً ساحقاً على قوات المحور وأنهى التهديد الألماني لمصر. وفيها تمّ إنزال الجيوش الأميركية - البريطانية في شمال أفريقيا. وفي كانون الثاني من السنة نفسها بدأت أولى انكسارات الجيوش الألمانية بمعركة ستالينغراد الفاصلة التي حولت مجرى الحرب هناك. كما لاحق أولى الانتصارات على اليابان في الپاسفيك وآسيا.

ولم يفت على الملك عبدالله حقيقة الجامعة والهدف الذي تسعى إليه بريطانيا منها فكتب وهو العاهل النابه المجرّب عنها هازلاً:

«الجامعة العربية صوت فاه به نوري باشا السعيد، وتلقفه مصطفى النحاس باشا وأيده المستر أنطوني إيدن فهو جراب أدخلت فيه سبعة رؤوس: اليمن، ونجد[٢٥] والعراق والشام ولبنان ومصر وشرق الأردن بسرعة عجيبة في وقت كانت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني والعراق ومصر تحت المعاهدتين الساريتين الآن. فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وعهدية، ما عدا اليمن ونجد، فإنهما كانتا حرتين، وفي هذا يتحلى للأمة العربية التسابق العجيب بين دولها السبع. سباق مقيد ومطلق: إما قيد الاحتلال وإما قيد عهد وإما قيد جهالة. وفي نظر الدول نفسها نعم الحجاب الساتر لما يريدون كتمه. ونعم التمدح غير المجدي بما يريدون إذاعته. وظن الغرب الراضي عن هذه الجامعة أنها ستكون خير أداة لدوام الانتداب ودوام الأحكام العهدية وأن يترك لغيري تغيير هذه الظنون»[٢٦].

لم يطل الأمر بهذه الجامعة التي خرجت إلى الوجود في ٢٢ من آذار ١٩٤٥ لتلقى امتحانها الأكبر بقرار التقسيم وبه بدأت سلسلة إخفاقها في تقديم أي شيء مفيد للأمة التي كانت أولى أهدافها توحيدها ولمّ شملها والأخذ بيدها لتتوقل سلم الرقي والنهضة الاجتماعية. كانت بالأحرى جامعة رؤساء الدول العربية وميدان سباقهم في صياغة

---

(٢٥) أغفل ذكر «العربية السعودية» بعنوانها الرسمي عمداً لأن فيه اعترافاً ضمنياً بمشروعية سيطرتها على الحجاز. لكنه كان مرغماً على ذلك عند توقيعه الميثاق بإنشائها!

(٢٦) ليس هناك ما يؤيد زعم الملك عبدالله بأن أصل فكرة الجامعة العربية كان لنوري السعيد. وما لدينا في هذا الصدد إنما يشير إلى اهتمام هذا السياسي بمشروع الهلال الخصيب. وهو لم يتكتم به عندما دعاه النحاس في الثالث من تموز ١٩٤٣ لإقناعه بجدوى قيام الجامعة. فقد ظل السعيد متمسكاً بفكرة الهلال الخصيب وحاول بيعها لزميله المصري. أي بأسبقية مشروع وحدة سورية والعراق قبل قيام الجامعة العربية. وحاول أيضاً إقناع البريطانيين هناك أيضاً أثناء مقابلته نائب وزير الدولة البريطاني والمستشار الشرقي للسفارة. إلا أن مساعيه لم تثمر. واضطر أخيراً إلى النزول عند رغبة البريطانيين والاستجابة لعواطف المصريين. [للاستزادة راجع كتاب اللورد بيردوود: نوري السعيد دراسة في الزعامة العربية. لندن ١٩٥٩ الص١٩٨-٢٠٨ Lord Bird wood: Nuri As-said: A Study in Arab Leadership.

القرارات البليغة الفاشلة وساحة نزال لهم يتبادلون فيها الشتائم والتهديدات حيناً والعناق والقبلات حيناً.

وإذن كانت فلسطين المشكلة المركزية للجامعة حينذاك.

أعلنت مقاومتها قرار التقسيم، إلا أن قرارها لم يوضح كيفية المقاومة. وبقي الأمر غامضاً حتى نهاية الانتداب في مايس (أيار) ١٩٤٨ ثم أرسلت جيوشها في آخر لحظة.

كانت الحكومة المصرية برئاسة محمود النقراشي (الصديق) مترددة كثيراً في زج الجيش المصري، ولم تفعل ذلك إلا في نيسان وبعد إلحاح فاروق وأصدر الأمر للجيش بوصفه القائد الأعلى له.

لم يكن هذا الجيش مستعداً لقتال خارج حدود بلاده. وبتوالي الهزائم زاد التذمر بين ضباط الجيش. واتسعت عصبة السادات - عبدالناصر البارعة وزادت تنظيماً.

كانت بريطانيا تشجع من طرف خفي دخول الجيش المصري أراضي فلسطين أي إشراك مصر في الحرب. وهناك أسباب عدة منطقية يقف في رأس قائمتها زيادة اعتماد مصر على بريطانيا في تجهيزها بالمواد الحربية وارتكانها إلى قواتها في عالم الدبلوماسية. ومنها أيضاً امتصاص النقمة الخالدة على المعاهدة والتواجد العسكري البريطاني في القناة والقواعد الأخرى وما يتخللها من انفجارات شعبية وحوادث عنف[٢٧].

في ليالي أيار ١٩٤٨ لاحظ المقدم (البكباشي) جمال عبدالناصر ضابط ركن لواء المشاة السادس، كغيره من الضباط الآخرين، باستغراب ودهشة انتقال كميات ضخمة من المعدات الحربية البريطانية في القناة وتسليمها للجيش المصري وهو طريقه إلى فلسطين فكتب:

«كان غريباً أن يكون الإنكليز في قناة السويس، وهم الذين يفتحون لنا الطريق

---

(٢٧) كانت وسيلة كل حكومة مصرية للبقاء الوعد بالتفاوض لإلغاء المعاهدة ١٩٣٦. أو تعديلها على الأقل. وفي ٩ شباط ١٩٤٦ إثر إعلان حكومة العمال البريطانية عن رغبتها في التفاوض قدحت شرارة مظاهرات عنيفة جداً وخرج طلاب المدارس يطالبون بالجلاء الفوري الناجز واصطدمت الشرطة بالمتظاهرين ووقع عدد من القتلى والجرحى. استقال النقراشي على أثرها وخلفه (إسماعيل صدقي) من الاحرار الدستوريين. ولم تسفر مفاوضاته عن شيء وواجه تظاهرات عنيفة مماثلة وحوادث شغب واستقال في كانون الأول وعاد النقراشي بحكومة ائتلاف من السعديين والأحرار بوعدٍ لاستئناف المفاوضات.

على قناة السويس، وكانت قاعدتهم الكبيرة هناك وراءها ونحن نتقدم عبر سيناء إلى فلسطين. وقد أثار دهشتي أنا كنا نتقدم لنحتل مواقع الفرقة الثانية البريطانية حول غزة في نفس الوقت الذي كانت فيه هذه الفرقة تخلي مواقعها عائدة إلى مصر».

كانت الأحكام العرفية قد أعلنت إثر سوق الجيش إلى فلسطين على غرار ما تم في العراق وأصدرت حكومة إبراهيم عبدالهادي (السعدي) قراراً بغلق مكاتب الإخوان المسلمين وتحريم نشاطهم لكنها بقيت ناشطة فعالة بالغطاء الذي أسبغه عليها الوفد والعناصر السياسية المعارضة الأخرى.

في أواخر العام ١٩٥٠ فاز الوفد بأغلبية مقاعد البرلمان وعاد النحاس إلى الحكم وبعودته عادت المعاهدة القضية المركزية لحكومته ولمصر وتبددت أحلام السيادة الفاروقية على العالمين العربي والإسلامي بطريق القضاء على إسرائيل ومعها اختفت الأصوات العروبية القليلة التي حاولت أن تجد لها سامعين خلال السنتين المنصرمتين وتركز أمل فاروق وحكومته في المحافظة على لقب (ملك مصر والسودان) عن طريق تعديل المعاهدة.

لا أدري كم تصدق قولة كارل ماركس عن حرب ١٨٥٥ على البلاد الناطقة بالعربية بنتيجة حرب فلسطين وكم قامت بالمهمة التي عزاها للحروب بصورة عامة:

«مظهر الحرب مظهر منعش فهي تعجم عود الشعب ومثلما تتحلل المومياءات وتتفكك فور تعرضها للجو، كذلك كان عمل الحرب فهي تلفظ حكم الموت على كل الأجهزة والهيئات والمؤسسات التي لم تعد تملك حيوية وقوة دافعة».

إلا أن ما حصل في مصر بعد الحرب مثلما حصل في البلاد المشاركة الأخرى كان بعكس ذلك تماماً. فالأحداث العنيفة التي هزت كيانات تلك البلاد السياسية لم يكن لها أي مظهر منعش ماركسي ولم تتفكك المومياءات ولم تصب الأجهزة والهيئات والمؤسسات بضرر. والمعروف عن ماركس وإن قرأ آثاره قراءة تمحيص وحياد أنه يقفز في أحيان كثيرة إلى التعميم بناء على حدث معين واحد. على أني أراه قد أصاب كبد الحقيقة في رأي كل من وجد في الانقلابات العسكرية والهزات الدموية التي شملت معظم البلاد الناطقة بالعربية خلال الأعوام الثلاثين والخمسة التي تلت هذه الحرب

مظهراً منعشاً، حكم على الأنظمة التي قضت على كل آثار الديمقراطية الليبرالية ووضعت قيم العبودية للحكم الدكتاتوري والتوتاليتارية في معاجم أبناء الأمة العربية، تلمع وتبرق عند تعرضها للجو.

واستغرقت المفاوضات في تعديل المعاهدة أربعة عشر شهراً دون نتيجة[٢٨] وعندها قررت الحكومة المصرية إلغاء المعاهدة من جانب واحد فضلاً عن إلغائها اتفاقية الحكم الثنائي على السودان في ١٩٥١. ولم يكن لهذا أثر في إخراج القوات البريطانية من قواعدها في القناة وترك أمره لما دعي في حينه (بحرب الأنصار) وهي غارات تقوم بها عصابات مسلحة غير حكومية على منشآت الجيش البريطاني. وعنصر الغرابة هنا هو تبني هذا الاسم من قبل الدوائر الرسمية ووسائل الإعلام عندما أعلن بأن تواجد هذه القوات الأجنبية غير قانوني من وجهة نظر الدولة، فهو جيش محتل ومن المقتضى أن تستخدم الدولة قواتها العسكرية لإخراجه، على نحو ما فعل رشيد عالي والضباط الأربعة في مايس.

والأدعى إلى الاستغراب هو أن عناصر المقاومة هذه كانت تتألف من تلك العناصر التي دأبت على التظاهر وإثارة الشغب والقلاقل ضد الحكومات المتعاقبة بغية إزاحتها وعرقلة أعمالها فها هي ذي الآن تعتبر تلك العمليات واجباً وطنياً وكفاحاً مشروعاً، ولسبب من هذا صعب عليها السيطرة أو وضع حدود وأصول لها. وكان عليها أن تشجعها لتلقي العون من رجال الإدارة وضباط الجيش والصحافة. على أن هذه الغارات لم تترك دون عقاب فكان ثم اشتباكات دموية وحملات تأديب بريطانية ألقت بتلك العناصر إلى الشارع لتقتل وتدمر وتحرق وتنهب في ٢٥ من كانون الثاني ١٩٥١ وكان بها نهاية الوفد ثم نهاية الملكية بعدها بأشهر قلائل[٢٩].

---

(٢٨) من شهر آذار ١٩٥٠ إلى شهر تشرين الأول ١٩٥١.

(٢٩) على أثر قرار القيادة البريطانية طرد البوليس ورجال الدرك من مدينة الإسماعيلية، بغية وقف مساعدات هؤلاء للعناصر التي كانت تهاجم الجنود وثكناتهم، رفض قائدها الانصياع لأمر القيادة البريطانية بناء على أمرٍ صريح من وزارة الداخلية فشنت القوات البريطانية حملة على ثكنات البوليس ودمرتها وقتلت زهاء ٥٠ شرطياً وجرحت أضعاف ذلك. وفي اليوم التالي قامت عناصر التخريب باستباحة القاهرة ودمر خلال حوادث العنف والشغب مئات المنازل وفقد عدد كبير من الأجانب والمصريين أرواحهم. وأعلنت الأحكام العرفية ثم أنزل الجيش إلى الشارع وفي اليوم التالي أقال فاروق مصطفى النحاس.

وغاب الوفد عن الساحة وذهبت ريحه. وإنْ ظل يدّعي بأنه يمثل الأمة المصرية واعتبرته بريطانيا كذلك.

لم تؤمن الأحزاب السياسية ورجال الطبقة الحاكمة في مصر بالدستورية ولا بالمبادئ الديمقراطية إيماناً حقيقياً، ومثلما كانت الحال في سورية والعراق لم يكن حرصها القولي على مظاهر لها معينة الا بقدر ما يمكن ذلك الحرص من البقاء في دست الحكم أو الوصول إليه، أو بقدر ما يمكن استخدامه سلاحاً في لعبة الصراع على الحكم. لم يكن عند أي فريق منهم رغبة في أن يجعل من الديمقراطية هدفاً، ولا من الدستورية كائناً حياً فاعلاً.

ولا يصدق الجيل الذي نشأ في تلك العهود الانقلابية العروبية والاشتراكية القومية، والدكتاتورية العسكرية وتوتاليتاريات الحزب العقائدي الواحد، ما يتحدث به أولئك المسنون الذين أدركوا العهدين عندما تفرض المقارنة نفسها. فقد أهال الكتاب الثوريون الجدد ومؤرخو هذه النظم الحديثة أطناناً من التراب والنفايات والقاذورات فوق العهود السابقة - بكل عبقرياتهم ومواهبهم التي وفرتها الثورة. وأسوأ ما فعلوا طراً هو محاولة إلقاء الذنب بعثراتها وقصورها على كل شيء يخطر بالبال ما عداها وقد بدأوا بعملية التزييف منذ هزيمة العام ١٩٤٨ ووصلوا في تحليلهم إلى أن الخذلان كان نتيجة مؤامرة إمبريالية واسعة النطاق شاركت فيها الحكومات الغبية.

فايسلاف سيزويت شخص عادي من أهالي موسكو، علق قائلاً على ظاهرة الدفء التي شملت روسيا خلال الشتاء الماضي (١٩٩٦) (لم يُرَ له مثيل خلال مائة عام): «ليست روسيا إن لم يسقط الثلج ففي الأيام الأولى (يقصد عهد الاشتراكية) كنا سنظن أن ذلك من عمل وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA»(٣٠).

وقد رأينا من الكتب التي ألفها مشاهير أدباء النصف الأول من القرن العشرين المصريين ومن عدد آخر خنقت أصواتهم أيام الحكم الناصري كم كان حنين المصريين إلى العهد الذي سبقه. ويتجلى الأسف والحنين في محاولة النظام الحالي طمس معالم ثورة ٢٣ يوليو وطي صفحة آثارها السياسية المهلكة. ولا أدري من قال هذا:

---

(٣٠) مجلة نيوزويك «Perspection» رقم ٢٣ كانون الأول ١٩٩٦.

«إنْ كان فاروق بكل عهره وطمعه وفؤاد وزغلول والنحاس قد عاقبوا المصريين بالسوط والمقرعة فإن ضباط الجيش الذين خلفوهم قد عاقبوهم بالعقارب».

قصة ثورة يوليو وكيفية الإعداد لها كتبت فيها عشرات الكتب فضلاً عن مذكرات دوّنها بعض صانعيها ومهندسيها والمشاركين فيها. ولا يسعنا أن نمر بمرحلة التحضير والاستعداد لها أو أن نطويها طياً لئلا يغمض على الفهم الكثير من إرهاصاتها التالية. لا يناقض السادات أحد مناقضة جوهرية في زعمه على ما يبدو بأن جمعيتهم جمعية الضباط السرية اتخذت في العام ١٩٤٩ خطوة هامة بتأسيسها لجنة تنفيذية مؤلفة من أعضاء خمسة أضيف إليهم مثلهم فيما بعد[٣١] وتألف بناء الجمعية من خلايا وكانت قليلة العدد. والمعول عليه وهو ما أثبتته دائرة المعارف البريطانية أن مجموع الأعضاء لم يتجاوز (٨٩) ضابطاً ذا رتبة[٣٢].

---

(٣١) الخمسة الأوائل هم: جمال عبدالناصر، وكمال الدين حسين، وخالد محي الدين وحسين إبراهيم وعبدالمنعم رؤوف. والخمسة الملتحقون هم: جمال سالم وأنور السادات وصلاح سالم وعبدالحكيم عامر وعبداللطيف بغدادي [ومن الضباط الأوائل البارزين الذين لم يضموا إلى اللجنة التنفيذية [ثروت عكاشة، وعلي صبري ويوسف منصور صديق) كان اثنان من العشرة الأوائل برتبة مقدم وستة برتبة رائد واثنان برتبة نقيب وأعمارهم تتراوح بين ٢٨ و٣٢ سنة. وذكر السادات وجود تنظيم سري آخر سابق رئسه الرائد مصطفى كمال صدقي (أشار إليه لأجل التعريف بأنه الزواج الرابع للممثلة السينمائية والراقصة (تحية كاريوكا) وقال إن التنظيم هو مجموعة إرهابية تتألف من ٢٣ ضابطاً ونائب ضابط. ثم انضم التشكيل في ١٩٤٨ إلى الإخوان المسلمين في حرب فلسطين وكان مشاركاً في الاغتيالات السياسية المنسوبة إلى الإخوان خلال ١٩٤٨-١٩٤٩. قبض على رئيسهم وهو نائب ضابط وحكمته محكمة عسكرية بالسجن سبع سنوات وطرده من الجيش بتهمة حيازته أسلحة ومتفجرات. إلاّ أن الملك فاروق سارع إلى إصدار عفو عنه وأعاده إلى الجيش ثم ضمه إلى «الحرس الحديدي» الذي كان قد شكله لمواجهة عنف الإخوان المسلمين. في ١٩٥٤ حكم عليه بالسجن خمس سنين بتهمة انتمائه للحزب الشيوعي المصري.

(٣٢) في (الرئيس The Boss) لروبرت سان جون Robert st John ص١١٥. نيويورك ١٩٦٠. يقدر عدد ضباط تلك الخلايا بثلاثمائة. وفي مذكرات محمد نجيب«مصير مصر» نيويورك ١٩٥٥. ص١٠١ N. Nagib: Egypt's Destiny يقدرون ببضع مئات ويقدرهم آندرو توللّيّ Andrew Tully في كتابه دائرة الاستخبارات المركزية القصة الدفنية CIA: The Inside Story: نيويورك ١٩٦٢. ص٢٠٤ بحوالي سبعمائة ضابط.

في تشرين الأول ١٩٥٠ وزع أول بيان للجمعية التي أطلقت على نفسها اسم الضباط الأحرار وقد ظهر التوقيع في ذيله[٣٣]. في هذا البيان وفي البيانات اللاحقة لم يكن ثم ما يشير إلى نية القيام بانقلاب أو تغيير حكومي بل عكست فحسب تضايق الضباط من الوضع وسوء حال الجيش وتردي أوضاعه والعار الذي ركبه في فلسطين وافتقاد البلاد النزاهة والعدالة في رجال الحكم وبذخ الارستقراطية على حساب فقر الغالبية المريع. ولم يكن فيها مطالب واضحة بصدد الوضع الداخلي والعلاقات الخارجية. بيان خطابي يضرب على وتر العاطفة حفل بالعبارات الحماسية المنمقة ولم تحد البيانات التالية عن هذا الخط[٣٤] حتى قيام حرب الأنصار حين تبدلت اللهجة.

---

(٣٣) الصدفة وحدها هي التي كسبت لهم هذه الصفة ولسائر الضباط الآخرين في انقلابات عراقية وسورية ويمنية وغيرها نسجاً على المنوال المصري. يتحدث خالد محي الدين وكان اليساري الوحيد بين كتلة الخمسة الأوائل، عن هذه الصدفه الغريبة، فيقول إنهم احتاجوا إلى شراء آلة (رونيو) لطبع مناشيرهم فقامت بشرائها «الحركة الديمقراطية للتحرير الوطني» وهو الاسم الذي كان الحزب الشيوعي المصري يتستر به وكان للحركة دورها البارز في التنظيم وصياغة البيانات وطبعها بعد أن تُعرَض على عبدالناصر وقلما كان يعدل فيها. ثم إن «الحركة» أنابت الملازم الأول جمال منصور لكتابة البيانات. يقول محي الدين: عندما انجز (منصور) كتابة البيان الأول أدركته الحيرة في اختيار الاسم الذي يذيله به. ثم تفتق ذهنه عن مصطلح «الضباط الأحرار» فضربه على الآلة الكاتبة وأسرع عبدالناصر يعلن استحسانه وموافقته الحماسية على هذا الاختيار. يقول (محي الدين): إن منظمة الحزب الشيوعي تطوعت لتوزيع البيانات وكتابة عناوين المظاريف التي طبعت على الآلة الكاتبة. وكان الضباط يخشون افتضاح أمرهم لو كتبوها بخط اليد. ومما يذكره خالد بالمناسبة أنه رتب موعد لقاء لعبدالناصر مع سكرتير عام الحزب الشيوعي الذي عرف اسمه السري (الرفيق بدر) وقد خرج عبدالناصر من اللقاء منبهراً ومعجباً بشخصيته وحديثه وسألني: «مين الرفيق بدر ده» قلت هو أمين السرّ العام لـ(حدتو) فسأل بيتشغل ايه؟ فكررت الجواب وكرر الجواب: قلت ببساطة إنه ميكانيكي فهتف عبدالناصر: «ميكانيكي؟ يعني أنك ممكن تبقى عضو في الحزب ده وتتلقي الأوامر من ميكانيكي؟ أجبت إن المسألة ليست مسألة أوامر وإنما هي مسألة الاقتناع بفكرة».

وبقيت مسألة «الميكانيكي» عالقة في ذهن عبدالناصر وظلّ يرددها دوماً أحياناً باستنكار. وحتى بعد الثورة وفي اجتماعات مجلس قيادة الثورة. ومرة قال مشير إليّ «ده زعيمه ميكانيكي!» [كان الاسم الحقيقي لسكرتير الحزب سلمان الرفاعي وهو فعلاً ميكانيكي في القوة الجوية المصرية].

(٣٤) دونك نموذجاً من البيانات:

«أيها الضباط، كنا نعتقد أن المحنة التي أصابت البلاد في حرب فلسطين أعطت درساً قاسياً للمسؤولين لينهضوا بالجيش ويعملوا على تدريبه وتسليمه ويبعدونه (كذا) عن تلك المظاهر =

ويتفق كل من كتب على أن السفارة الأمريكية كانت تتابع صفحات الانقلاب وهي باتصال دائم و(علي صبري) وهو ضابط الاتصال كان يطلعها على كل ما يستجد من أنبائها وبعزم الضباط الأحرار على احداث الانقلاب والاطاحة بالملك مؤكداً صيانة حياته وصيانة أملاك الأجانب ومصالحهم. بل قام السفير الأمريكي نفسه بالقضاء على

= الخادعة كالاشتراك في الحفلات وإقامة الزينات والعالم اليوم تمرّ به المحن والخطوب فتهز أركانه. وتستعد الامم لكل طارئ وتفوق الشعوب والحكومات إلى كل نافع، إلا نحن في مصر حيث يصرّ ساستها وأولو الأمر فيها أن يعيشوا عيش الدعة والبهجة فيقيموا الاحتفالات والمباهج بمناسبة وغير مناسبة عليها تنسي الشعب ما هو عليه من جوع وعري وحرمان. هل يليق ببلد يعاني أبناؤه سكرات الموت من المرض والانحلال انتقام فيها (كذا) الأفراح والزينات وتنفق الأموال بغير حساب بمناسبة سعيدة؟ أليس من الأسعد أن تنفق هذه الأموال لإحياء هؤلاء الموتى من العدم؟ لقد أجبروكم على دفع اموال طائلة لهذه المناسبة من مرتباتكم التي أنتم في أشدّ الحاجة إليها في هذه الظروف العصيبة تزلفاً من كبار الضباط للحصول على الرتب والنياشين (الأوسمة) ولولا تذمركم ومعارضتكم لهذه الفكرة الفاسدة لما رد إليكم ما جمعوه من أموال وتصدمت الهدايا النفسية ولا أقيمت المآدب الفاخرة والحفلات الصاخبة قرباناً للمناسبة السعيدة...».

وجاء في المنشور المؤرخ في شباط ١٩٥٢ وهو من أواخر ما وزّع.

[لاحظ الأسلوب الواضح الذي كانت تكتب به بيانات الأحزاب الشيوعية في البلاد الناطقة بالعربية إبان قيام الحرب الباردة]:

«... توالت مؤامرات الاستعمار الانكلو أميريكي في الفترة الأخيرة في مصر بغية القضاء على الحركة الوطنية وصرف الأنظار عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القنال إلى المشاكل الداخلية في القاهرة. فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات وإلغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعي الاستعماري وتكوين الكتائب الوطنية وبعد أن اتقدت جذوة الوطنية في البلاد حتى كادت مصر أن تصل إلى حقوقها كاملةً دبرّ الاستعمار وأذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضي (يقصد حريق القاهرة الذي نوهنا به) وجاءت حكومة علي ماهر وكان الاستعمار والخونة المصريون يأملون الكثير في علي ماهر بتسليمه تسليماً كاملاً بمطالبهم بقبول الحلف الرباعي وحَلّ البرلمان واعتقال آلاف الوطنين واستخدام الأحكام العرفية لكن رجاءهم خاب فيه وكان لا بد إذن من انقلاب جديد لتحقيق النوايا الاستعمارية بالقيام بحركة تطهير واسعة بحجة رص الصفوف قبل مواجهة قوى الاستعمار. ووصل الهلالي (نجيب) إلى الحكم وأعلن بصراحة أن مهمة وزارته الرئيسية هي التطهير والقضاء على الفساد متناسياً أن مصدر الفساد الأكبر هو الاستعمار وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي إلا إذا قضي على أسبابه ومصدره... إن أهداف الضباط الأحرار هو محاربة الفساد بكل مظاهره وهو ضد الرشوة وضد المحسوبية وضد الاستغلال النفوذ لكن يجب أن لا نعمل لهذا إلا بعد القضاء على الاستعمار وأي اتجاه آخر هو خيانة وطنية».

تردد فاروق والرضا بتنازله عن العرش لابنه الطفل كما قام بالدور المزدوج في إقناع البريطانيين بعدم التدخل لمصلحة الملك وعدم التحرك للقضاء على الانقلاب. كل ذلك كان معلوماً ولم ير الانقلابيون حرجاً في الإعلان عنه. ولم يكن بالغريب والحالة هذه أن يرتاب السوفيات في الثورة فعرفوها بأنها انقلاب قام به جماعة من الضباط الرجعيين المرتبطين بالولايات الأمريكية[٣٥]. كانوا يدركون حاجتهم إلى ضابط كبير يؤمّرونه عليهم ويصدرون باسمه بياناتهم واوامرهم بعد الاستيلاء على السلطة قدر ما يدركون بأن انقلابهم سيمنى بالفشل لو أعلنوا عن أنفسهم برتبهم الصغيرة في جيش يتألف من ست فرق ويعج بالجنرالية والقادة ذوي الرتب العالية فوجدوا بغيتهم في اللواء (أركان حرب) محمد نجيب[٣٦] الذي أمروه عليهم ليكون واجهة لهم، وليخلق لهم بعد سنتين مشكلة التخلص منه.

---

(٣٥) كان السوفيات مصيبين في نقطة واحدة على الأقل: [الانسكلوپيديا الروسية طبقة ١٩٦٢ ج١٥] «من كان يدري بما سيؤول إليه الانقلاب في يوليو لولا الدعم الاميركي والجهود التي بذلتها الدبلوماسية الأميركية مع بريطانيا للحيلولة دون محاولة لإحباط الانقلاب (كما فعلت في ١٨٨٢) وبعد أن أكدّ الانقلابيون للسفارة البريطانية بأنهم سيحافظون على بنود المعاهدة ويطبقونه نصاً وروحاً وأن انقلابهم هو داخلي محدود الاهداف. من مظاهر السلطة التي كانت السفارة الاميركية تمارسها على الانقلابيين إصرارها على توديعهم الملك المتنازل بكل المراسم الخاصة ومظاهر التكريم ولهذا أرسلوا رأس الانقلاب محمد نجيب إلى الاسكندرية فأنطلق يسابق الريح ليؤدي التحية الأخيرة للملك وهو يستقل يخته الخاص حاملاً معه ٤٥٠ صندوقاً مملوءاً بالنفائس والأموال العامة دون عائق ودون تفتيش.

(٣٦) في هذا العسكري توفرت كل الخصائص التي كان ينشدها الانقلابيون من رئيس يطلعون به على الشعب. ولد محمد نجيب في ١٨٩٩ أو ١٩٠١ في الخرطوم من أم سودانية ونقيب مصري قتل أثناء هجوم المهدي قبل ساعتين من مقتل الجنرال غوردون حاكم سودان. وفي العام ١٩٤٨ كان برتبة عميد أثناء حرب فلسطين وبرز فيها وفي ١٩٥٠ رقي إلى رتبه آمر لواء. وعرف بشجاعةٍ وصدقٍ وتواضع تزينها ضحكة «صادرة من القلب» مع أربعة جراح نالها أثناء المعارك. عرفه الانقلابيون من مقالات كان يكتبها في مجلة (روز اليوسف) بالاسم المستعار [الجندي المجهول] حول سوء الإدارة في الجيش وسوء التخطيط الذي رافق حرب فلسطين. في العام ١٩٤٩ فضل عليه الملك (حسين سري عامر) في قيادة سلاح الحدود. فثارت كرامته وهمّ بالاستقالة إلاّ أن عبدالناصر (كما شاع) الحّ عليه بالبقاء ورتب امر ترشيحه فلم يعبأ. وادعى فيما بعد أنه كان رئيساً حقيقياً لكتلة الضباط الانقلابيين منذ ١٩٤٩ لكن ليس هناك دليل يؤيد ادعاءه وأدعى أيضاً أن اجتماعاً للضباط «الأحرار» جرى في منزله يوم ١٩ يوليو الذي تقرر فيه تعيين يوم الانقلاب (لم يؤيده أحد في هذا).

وكما ظلوا ردحاً من الزمن يخشون الإعلان عن أنفسهم ويتسترون تحت رتبة هذا القائد، ظلوا طوال سنتين يتحاشون إطلاق كلمة (ثورة) على انقلابهم. كان بيان الانقلاب يتحدث عن نهضة وعن حركة الجيش المباركة ضد الفساد وإخلال النظام والأمن وعن تصحيح الأوضاع[٣٧].

وكالعادة أخرج من الجيش كل من يفوق محمد نجيب رتبة وقدماً. وفي أوائل آب أحدثوا وساماً سمي نوط التحرير يمنح لكل ضابط ونائب ضابط كان في الخدمة الفعلية عند حصول الانقلاب بهدف إشراك الجيش كله في عملية الانقلاب. إن لم يكن فعلياً فأدبياً.

وتكررت صفة حركة الجيش في كل البيانات التالية كالأمر الإنذاري الصادر في ١٣ تشرين الثاني: «من القائد العام للقوات المسلحة بوصفه قائداً لحركة الجيش» كما تكرر الاصطلاح في ١٨ كانون الأول في الأمر القاضي بحل كل الأحزاب السياسية. كما ظهر أيضاً في الدستور المؤقت الصادر في شباط ١٩٥٣ عند تعداد السلطات الممنوحة لـ(قائد الثورة) وفي الشهر عينه ظهر مصطلح مجلس قيادة الثورة.

* * *

حقق أدباء ومفكرو وشعراء مصر خلال العقود الأربعة التي سبقت انقلاب يوليو سيادة ذهنية على جميع البلاد الناطقة بالعربية. وانتشر منتوج قرائحهم فيها وكانت سيدة الميدان وصاحبة الفضل الكبير في إيصال ثمار الثقافة والفكر الغربيين بكل ما أخرجته المطابع المصرية من الترجمات في شتى الفنون والعلوم[٣٨].

كانت مصر قد حفظت اللغة العربية من الاندثار بشهادة المؤرخ العظيم ابن خلدون نفسه:

«لما تملك العجم في الدليم، والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناته والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد اللسان العربي وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة

---

(٣٧) كتبه عبدالناصر والسادات وأذاعه عبدالحكيم عامر. وللاستزادة راجع (قصة الثورة كاملة) القاهرة ١٩٥٦.

(٣٨) وأشهرها دار الهلال، دار المقتطف. المطبعة العصرية دار الكتب المصرية وعدد آخر لا يحصى من دور النشر القاهرية.

اللذين حفظ بهما الدين وسار على ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المصرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار، فلما ملك التتر والمغول بالشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام، إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والأندلس بالمغرب لبقاء الدين طلباً لها فانخفضت بعض الشيء وأما في ممالك العراق ووراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى أن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذلك تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب»[٣٩].

إلاّ أن هذه الغزوة الثقافية الفكرية أعاقت الحركات الثقافية الفكرية في البلاد الناطقة بالعربية وقتلت القوى الخلاقة فيها. وبدا أدباء ومفكرو وشعراء تلك البلاد في الدرجة الثانية من التصنيف أدنى من صحف القاهرة. كان المثقفون هنا يتابعون بلهفة تلك المناقشات والمناظرات السياسية التي تملأ صحف الأحزاب والجرائد المصرية والمجلات واسعة الانتشار. إن شئنا وإن لم نشأ فقد أضحى هؤلاء المعلمون والمفكرون المصريون في الواقع معلمي الجيل الجديد الناطق بالعربية والقبلة التي يتجه إليها المثقفون ورجال السياسة والاجتماع الأمر الذي حال دون بروز معالم ثقافية وفكرية محلية يعتد بها أو قد تكون موضع مضاهاة حتى لبنان نفسه، فإنه ما كان ليقوى بمطابعه ونشراته الدورية وصفحه على نزول حلبة المباراة.

كاد كل هؤلاء الأدباء والمفكرين والكتاب يمتهن الكتابة في الصحف والمجلات الدورية إلى جانب التأليف. وكاد كلهم يدينون لها بشهرتهم وإلى ولوج باب الاحتراف والتفرغ. والصحافة هي السياسة وكلهم كانوا ذوي انتماءات سياسية وعقائدية يعملون في صحف ومجلات سياسية مستقلة أو تابعة لحزب من الأحزاب. أسماء لمعت في

---

(٣٩) يعتبر ابن خلدون [١٣٣٢-١٤٠٦] من أفذاذ المؤرخين المفكرين لم يقم له نظير في جراءته على قول ما يراه صحيحاً. وهذه الفقرة هي جزء من الفصل الثاني والعشرين من مقدمته الشهيرة لتاريخه العام الذي كتبه في القاهرة. واللغة المصرية التي يقصدها هي لغة القرآن.

تاريخ الفكر ووضعت بصمات لا تمحى في عقول واتجاهات جيل الثلاثينات والأربعينات والخمسينات. ومعظم هؤلاء حصل على تعليمه العالي في بلاد الغرب أو في مصر فتزودوا بالثقافة الغربية فضلاً عن الثقافة المحلية وكتبوا بعربية سليمة وبأساليب قوية محكمة رشيقة صارت مثلاً يحتذى لأدباء العربية. كلهم نشأوا في أحضان سياسة البلاد وخاضوا عبابها وعالجوا الشؤون العامة وتصدوا للمشاكل الاجتماعية بجرأة ودون خوف. ورغم أن قلة منهم لوحقت وضويقت(٤٠) في أرزاقها إلا أنه لم يوضع قيد يذكر على أقلامهم. فالطبقة الحاكمة رغم عدم اختلافها في الجوهر عن الطبقات الحاكمة في لبنان وسورية والعراق، أعني في جشعها واستغلالها النفوذ وتهافتها على الحكم، إلا أنها كانت من غير الطينة التي جبل بها أولئك فهم لم يكونوا عسكريين سابقين من ضباط الجيش المصري أو العثماني ولم تفرضهم سلطة أجنبية ومعظمهم انحدر من أسر معروفة أو موسرة ورثت العمل السياسي كابراً عن كابر، أو من حملة الشهادات العالية في القانون والهندسة والطب وعلوم الاقتصاد والاجتماع. ظلت بلادهم تحت الحماية الأجنبية وكادت صلتها تكون مقطوعة بالحكم العثماني قبل أن يرى معظمهم نور الحياة. لذلك لم تكن تضيق صدورهم بالنقد الموجه إليهم حتى كادت الصحف اليومية الكبرى والمجلات الشهيرة ذات التاريخ الطويل تكون محصنة من قرارات التعطيل أو الإلغاء - قرارات كانت تصدر بسهولة وكثرة تفوق الحصر في العراق وسورية من قبل الحكومات المتعاقبة.

ليس في الإمكان قط أن ننكر هذه الحقيقة: كانت صدور حكام مصر المدنيين واسعة لاقتبال النقد الشديد الموجه إليهم. كان ثم مفاهيم ديمقراطية واضحة لحرية القول والتعبير لا يجرؤ الحكام على تخطيها.

توجه قادة الفكر السياسيون والأغلبية من الأدباء للكتابة في الفكر والأدب باوسع رحابه وتحدثوا عن الحريات السليبة وصنوف البؤس الذي يعانيه سواد المصريين

---

(٤٠) لا أذكر من تعرض للملاحقة القانونية والمحاكمة والسجن غير الكاتب الكبير عباس محمود العقاد. الذي أصدرت محكمة جزائية حكماً بأسابيع سجن لتجاوزه حَدّ النقد إلى ما اعتبر قذفاً صريحاً وكان ثمرة سجنه كتاب عنوانه «في عالم السدود والعثور» وصف فيه تجربته السجينه. وأذكر مما أذكر الاعتداء المدبر الذي وقع على عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين من قبل بعض المتشددين المتعصبين المسلمين إثر صدور كتابه «في الأدب الجاهلي» الذي شكك فيه في صحة ما عزي من شعر إلى شعراء جاهليين.

وشقاء فلاح الأرض الأجير والاعتداءات على الدستور والمبادئ الديمقراطية، وعن استقلال مصر وتاريخها المجيد. ولم يؤثر عنهم أي اتجاه قومي عروبي، بل تحدثوا عن المصرية والمصريين والوطنية والوطنيين. وناضل كثير منهم بأقلامهم ضد المعاهدة وبثوا روحاً متوثبة في الأحزاب الحاكمة، زادتها قوة وصلابة في المطالبة بالحرية وجلاء الأجنبي. كان هناك إجماع فكري على هذا، لم يجرؤ حزب واحد وكتلة على خرقه بعقد صفقة ذليلة مع البريطانيين. وكان تأثير حملة القلم ورجال الفكر ورسل الثقافة المصريين عظيماً جداً بدا في احجام الطبقة الحاكمة عن الرضا بأقل من الجلاء التام وإلغاء المعاهدة. لكن لم يحلم أي فريق منهم بقيام حركة في الجيش لتطيح بالملك الكريه ثم بالمملكة ثم بالطبقة الحاكمة وبدت لهم لأول وهلة حركة شبيهة بتلك التي حصلت قبل سبعين عاماً وبمطاليب شبيهة بتلك. وهكذا أراد هؤلاء الضباط الصغار النكرات أن تبدو لطبقة الانتجنلسيا المذكورة فاخفوا أنفسهم وتركوا الناس في بلبلة وحيرة يجسم الغموض لهم الأمور على غير حقيقتها ليصل بهم الخيال إلى أن الجيش كله يقف وراء الانقلاب. إنها مناورة متآمر باقعة بلغ بها عبدالناصر الغاية من الاتقان والتعمية بتلك السلطة الروحية شبه الأبوية التي حازها بجدارة على زملائه الضباط الانقلابيين.

عملية التخفي كانت ضرورية قدر ما كانت حاسمة لضمان النجاح التام. لم يكن بوسع عشرة من الضباط الصغار الرتبة بـ(٨٩) آخرين من الملازمين والنقباء وبألف أو نحوها من الجنود مواجهة الأحزاب وتاكتيكها بل مواجهة هذا الجيش اللجب من حملة القلم ورجال الفكر.

كان عليهم أن يدجنوا بعضاً من هؤلاء ويجتذبوهم إلى صفوفهم. فالعنصر المدني كان مفقوداً بينهم وهم لا يريدون أن يدخل محرابهم العسكري واحد منهم بل يكتفون بمساندتهم الهامشية، وقد فعلوا ذلك بإتقان لا مزيد عليه.

حافظوا على الدستور ولم يلغوا النظام الملكي وإنما نادوا بالطفل أحمد فؤاد الثاني ملكاً وعينوا له أوصياء ثم جاؤوا بحكومة مدنية على رأسها رئيس وزراء سابق سعديّ، هو علي ماهر الذي تعرفنا إليه في أثناء الحرب وعلى ميوله إلى المحور. وكان قد اعتقل مع بضع مئات بعد الرابع من فبراير.

أعلنوها بالأول حركة عسكرية إصلاحية مثلما أعلنها بكر صدقي العسكري في

العراق قبل ستة عشر عاماً. وعندما ذهبت ريح النظام الملكي وأعلنت الجمهورية مع تشكيل ما دعوه بمجلس القيادة العسكري، أعلنوا بأن حركتهم هي ثورة وظهروا للملأ بعد سلسلة من الأوامر والبيانات المقيدة للحريات، منها وضع الرقابة على الصحف[٤١] واعلان حالة الطوارئ، وفرض رؤساء تحرير جدد على الصحف والمجلات وموظفين للإذاعة يأتمرون بأمر السيد الجديد ويسبحون بحمده ويشيدون بالانقلاب ويرفعونه إلى مرتبة الثورة.

المفكرون المصريون الذين لجمت الرقابة العسكرية أفواههم ودفعت بهم إلى زاوية الخمول ما لبثوا أن صحوا من نومتهم. كانوا يدركون جيداً الفرق بين الثورة وبين ما

---

(٤١) صدر بعد يومين من الانقلاب عن «مجلس القيادة العسكري» - وهو مصدر سري لا يعرف مسؤولوه أو صلاحياته - بفرض الرقابة العسكرية على الصحف والمجلات وسائر المطبوعات وتولى مراجعة المقالات رقباء يرتدون البزات العسكرية. وفي ١٥ من كانون الثاني ١٩٥٣ بلغ عدد الصحف المغلقة سبعاً وأعتقل ١٥ صحافياً من كتابها ومحرريها وقبل نهاية هذا العام لقيت الصحف الديمقراطية واليسارية التي أبت السير في خطّ الانقلاب عين مصير الصحف الأخرى التي لم تكن لهجتها تعجب الانقلابيين. وبحركة غير معهودة في مصر اقتحم الجنود مكاتبها ووضع النظام الجديد يده عليها وعلى مكائن طباعتها. وعيّن أنور السادات رقيباً عاماً لغرض تصفية أملاكها ومصادرتها. وفي شهر أيار ١٩٥٤ أصدر مجلس الوزراء برئاسة جمال عبدالناصر قراراً بتعطيل ٤٢ صحيفة ومجلة حزبية. وأعقبه بقرار ثانٍ يقضي بحل مجلس نقابة الصحافيين وعلى أثر اتهام الصاغ (الرائد) صلاح سالم خمس عشرة جريدة و مجلة وأربعة وثلاثين صحافياً بتلقي إعانات مالية سرية من «جهات مشبوهة» أعتقل عدد كبير من الصحافيين وأودعوا معسكرات الاعتقال التي انشئت لهذا الغرض في مجاهل الصحراء الشرقية بعد ثلاثة أشهر من قيام الانقلاب. وأقرب الأمثلة إلى الأصناف التي كانت تختار لهذا الاعتقال واحد من مشاهير الادباء والكتاب السياسيين في العالم الناطق بالعربية هو القصصي (إحسان عبدالقدوس) صديق قادة الثورة وأول من أعلن تضامنه معهم وفتح صدر مجلته لهم (آخر ساعة). فقد جرى تدجينه بأحقر طريقه «ساديّة» مما تعوده الحكام المستبدون وبعد إصراره على متابعة خطه الليبرالي في انتقاد أوضاع ما قبل الانقلاب أودع السجن الحربي وأبقي في سجن انفرادي ثلاثين يوماً وبعد أن أمضى ثلاثة أشهر وخمسة أيام أطلق سراحه. ودعاه جمال عبدالناصر صباح يوم الإفراج عنه لتناول الطعام معه ومما قال له: «إن سجنه كان جزءاً من برنامج تربيته» وبقي شهراً كاملاً يدعوه لمشاركته الطعام. بطبيعة الحال أحدثت هذه التربية» أثرها في عبدالقدوس. إلاّ أنها كما يبدو لم تفلح مع صحافي آخر متحمس للانقلاب هو الصحافي المعروف جداً رئيس تحرير أخبار اليوم الذي اتهم بالتجسس للأمريكان! وأثقل بالحبس المؤبد، خلال سنة واحدة. وتمت إزاحة كل رؤساء التحرير ومحرري الأقسام الرئيسة من الصحف الباقية التي كسبت شهرة عالمية كالأهرام وأودع أمرها إلى ضباط يشرفون على نهجها الجديد.

حصل في ٢٣ يوليو وسلموا مبدئياً بأن القاسم المشترك بين الاثنين هو إسقاط النظام القائم بالعنف أو بالتهديد باستخدام العنف؟ إلا أنهم كانوا يدركون تماماً بأن الفرق بين الاثنين هو أن الانقلاب عمل منفرد واحد في حين أن الثورة هي سلسلة متواصلة من الأعمال. فالانقلاب هو مجرد مرحلة واحدة، أو وجه من الوجوه، أو مهمة من المهمات وليس هو الأول والأخير، فهو حدث أو حدث أو حدث. في حين أن الثورة هي عهد مقطوع. والانقلاب فضلاً عن هذا يحدث تغييراً في الأشخاص أما الثورة فهي تحدث تغييرات جدية في بنية المجتمع، في شكل الحكم في العلاقات بين طبقات الشعب. والعامل الحاسم هو دور الشعب.

في الانقلاب يبدو الشعب وكأنه خارج الساحة، بليداً غير فعال، مثل النظارة الذين يتابعون تمثيلية أو فلماً سينمائياً ذا مشاهد متغيرة. قد ينسجم الشعب مع وقائع التمثيلية ويصفق لهذا الممثل أو ذاك معبراً عن استحسانه لأدائه دوره إلا أنه لا يساهم في التمثيل. أما في الثورة فإن فصائل كثيرة من الشعب تشارك مشاركة رئيسة في التمثيل والتحريك الثوري. القيادة الثورية السياسية التي تقف على رأس الحركة وتحدد لها أهدافها ونظامها تكون في عين الوقت قريبة من جماهير الشعب ومعتمدة عليها ومحرضة لفاعلياتها.

إن اغتصاب ميناء بوسطن وإلقاء صناديق الشاي في البحر جرى قبل إعلان الاستقلال الأمريكي وحمل السلاح ضد بريطانيا. كذلك كان الحال في الثورة الفرنسية فاحتلال الباستيل والتظاهرات الشعبية سبقت تغيير الدستور الفرنسي، وتشكيل السوفيات واستيلاء الفلاحين على الأراضي جرى قبل تنازل القيصر في ثورة شباط الليبرالية الروسية للعام ١٩١٧.

في مصر كان غليان ثوري لا شك فيه. الانفجار العفوي الجماهيري يوم السبت الأسود (كانون الثاني ١٩٥٠)، قتال المتطوعين العنيف بين قوات الانصار في الاسماعيلية والقوات البريطانية، الأزمات الوزارية العديدة، كلها بوادر تشير إلى مقدمات النزاع الطبقي بين المدينة والقرية، وقد تصاعدت جدية الهجرة المخيفة من الريف إلى المدن.

ماذا كان موقف الضباط الأحرار من هذا بعد نجاح الانقلاب؟ أي قرار اتخذ بحق العمال والفلاحين يرمي إلى إنعاشهم وانتشالهم من أوضاعهم البائسة؟ والبدء بصياغة مصر جديدة.

إلا أن ما بدا من الانقلابيين في الأسابيع القليلة بعد ٢٣ يوليو كان برمته مؤشرات ومظاهر خوف من الشعب. أمن لهم الأمريكان عدم التدخل البريطاني وقاموا قبل الانقلاب باستحداث روابط تنسيق مع مختلف الأحزاب والمنظمات ابتداء بالحزب الشيوعي وانتهاء بالإخوان المسلمين إلا أنهم لم يتعاونوا معها بعد أن استتب الأمر لهم، بل راحوا يتعقبونها ويتسقطون هفواتها ليوقعوا بها. وحولوا أنظار الشعب واهتمامه إلى الماضي. وبدأوا بالنظام الديمقراطي المريض الذي جاء به دستور ١٩٢٣، وقع بيدهم كما يقع الجمل الشرير الذي سلمه صاحب له إلى أيدي الجياع فتكاثرت عليه سكاكينهم طعناً وجزراً وراجت الصحف غير المدجنة تتبارى مع الصحف المدجنة في نشر فضائح فاروق وحاشيته وفساد رجال الحكم، وأوعز للأجهزة الحكومية باستخدام ما يمكن استخراجه من الملفات ضدهم[٤٢] وبدا التغيير بطيئاً دعائياً صرفاً بغية صرف أنظار الجمهور[٤٣].

* * *

برز عبدالناصر بين زمرته الانقلابية بروزاً واضحاً. وسلّم الجميع تقريباً بتفوقه الفكري، وبراعته في التاكتيك السياسي اللذين أمنا له القيادة المطلقة دون منافس حتى آخر دقيقة من حياته. ولم يتفق لأي زعيم من زعماء الشرق الأوسط ما اتفق له من دهاء وحنكة في مقارعة الخصوم، وتحطيمهم وفي قلب الهزيمة إلى نصر والفشل إلى نجاح ولا في كسبه تلك السمعة الدولية التي بلغت به القمة. رغم كل ما سببت خططه ومشاريعه وسياساته من إحباط، وما اجترحته من آلام بشرية. وما زهق من أرواح بريئة جرّاها في كل الأقطار الناطقة بالعربية التي وجد اسمه ومبادئه فيها مقبلاً وقد اضطره اطّلابه الزعامة والمحافظة عليها أن يلغ في الدم وهو كاره في الظاهر أو هكذا يدعي[٤٤].

---

(٤٢) من التوافه التي خطيت بعناوين رئيسة حول تلك الفضائح أن وزارة المالية اكتشفت فجأة بأن الملك لا يدفع ضريبة دخل عن رواتبه ومخصصاته، وأن مصطفى النحاس يحصل على حوالي ١٥٠ كيلو من السكر الذي كان يوزع بالبطائق خلافاً للتعليمات.

(٤٣) على مستوى الشارع رفعت العناوين الأجنبية التي كانت تتخذها محلات تجارية مخصوصة واستبدلت بعناوين «ثورية» صميمة. وشجعوا رفع لافتات تشيد بالانقلاب؛ وبقادة الانقلاب.

(٤٤) تحدث في كتابه «فلسفة الثورة» عن محاولته اغتيال (حسين سري عامر) المرشح الرسمي الملكي لرئاسة نادي الضباط منافس محمد نجيب. قال بالحرف «وقررنا أن يزال شخص معين =

بودي أن اعترض السياق هنا لأعرج إلى الجانب الإيجابي من حركة الضباط يوصفه بأنه أعظم تغيير اجتماعي حصل في مصر بمبادرة وتصميم عبدالناصر وأقصد به الإصلاح الزراعي الذي بدأ بتنفيذه في ٩ من ايلول ١٩٥٣.

ظل هذا العمل موضع أخذ ورد في جدواه وآثاره حتى يومنا هذا، قانون في غاية من الاعتدال لا يرقى قط إلى مستوى ثورية قانون الإصلاح الزراعي الياباني الذي أصدرته حكومة ديمقراطية وطبقته بعد الحرب العالمية الثانية وكان له أثره الباقي في التطور التكنولوجي الهائل الذي حققته تلك البلاد، وقد استوحي من قوانين الأراضي التي أصدرتها حكومات الدول الاشتراكية في أوروبا عقب الحرب، محدوداً معتدلاً ومع هذا فإن عبدالناصر نجح به في تحطيم أسس التسلط الاجتماعي لطبقة اجتماعية كانت حتى ساعة صدور القانون تحكم البلاد حكماً عائلياً أكثر منه طبقياً. أجل بقي أصحاب الأطيان أغنياء إلا أن وضعهم الاجتماعي تغير تماماً فقبل ذلك كانوا يملكون الأراضي أيضاً مع المال، فيخضعون عمالهم الزراعيين مثلما خضع الأقنان في روسيا قبل تحريرهم في ١٨٦٣، ويستغلون مثل زنوج أمريكا قبل العام ١٨٦٤. يسيطرون على آرائهم في الانتخابات وفق مزاجهم ويعيشون عيشة بذخ وترف في المدن من مداخيل الغلة وعرق جبين الفلاح. كان منهم وزراء ونواب وقادة عسكريون ومدراء كبار. إلا أن الإصلاح الزراعي الذي قضى عليهم كطبقة أحل محلهم طبقة جديدة

= من الوجود والموعد هو في السابع من كانون الثاني في العاشرة ليلاً. كان حسين سري في سيارته عائداً إلى داره فصوبتُ إليه من مسدس أتوماتي سبع إطلاقات من مسافة قريبة» (من يد عبدالناصر نفسه) الذي يأتي إلى وصف ما اختلج في نفسه من ندم وتأنيب ضمير قال إنه لم ينم تلك الليلة التي تقرر أن تؤخذ فيها روح هذا الضابط. وشرح كيف أن شعوراً غامراً بالراحة شاع في نفسه عندما علم أن الضحية المقصودة لم يقض عليها. وأنا بطبيعة الحال ملزم بالأخذ بقول عبدالناصر وصدق شعوره في تلك المناسبة. إلا أن كثيراً من ضحايا أعمال هذا القائد قد يتساءل أكان عبدالناصر سيكتب هذا لو نجحت عملية الاغتيال وقضي على حسين سري عامر. وماذا كان سيكتب بدل ذلك. اكان سيقع أسيراً لوخز الضمير بواقع أنه طوى في روايته هذه جزءاً هاماً وهو انّ اطلاقتين من السبع التي أطلقها أحدثت إصابة بليغة بسائق الجنرال (نائب العريف أحمد موسى) في حينه وكما أوضح هو أن الضباط الأحرار لم يكونوا يعارضون في الاغتيالات من حيث المبدأ. بل في الواقع قرروا اتباع سياسة الاغتيالات لرؤوس النظام ردحاً من الزمن. وقد مارسوا مبدأ الإرهاب الفردي هذا بعد وصولهم إلى الحكم ليس في مصر وحدها بل في الدول الناطقة بالعربية الأخرى.

مماثلة لا فرق بينها وبين الأولى إلا بأن نفوذها لا يعتمد على ما تملك من مساحات أراض بل من حجوم الأبنية ووشائج القربى برجال الثورة وهي تلك «الطبقة الجديدة» التي تحدث عنها (ميلوڤان جيلاس) في كتابه الذي اختار له هذا الاسم، حلت محل طبقة النبلاء والاقطاعيين في العالم الشيوعي(٤٥).

ثم ماذا عن موقف ثوار يوليو من العمال.

للحركة العمالية في مصر تاريخ مجيد قدر ما هو عريق وقد أتينا إلى طرف منه. لقي النظام الجديد قبل ظهوره للملأ وفي أثناء تخفيه حركة عمالية منظمة تقودها نقابات بفضل النهضة الصناعية والاقتصادية التي أطلقها (طلعت حرب) وبلغت ما أمكن مقارنته بالثورة الصناعية في إنكلترا في مفتتح القرن العشرين، وقد بلغت الحركة شأواً بفضل النشاط الاقتصادي الصناعي الذي باشرته طبقة جديدة من رجال الأعمال المصريين من أمثال أحمد عبود باشا.

إن مأساة (كفر الدوار) التي دمغت بالعار الحكم الجديد تقوم دليلاً على الخوف الذي كان يملك هؤلاء النفر من مضاعفات قد تطيح بانقلابهم قدر ما كانت تدل على أنهم بعين العقلية التي سادت تعامل الحكام القدماء مع الحركات العمالية «نحن نعرف ما هو مصلحتكم ونحن نقررها لا أنتم».

بعد ثلاثة أسابيع من نجاح الانقلاب أعلن عمال شركة مصر للنسيج في معاملها بالقرب من الاسكندرية اضراباً شاملاً. وهو معمل يضم ١٠٠٠ عامل مسؤول عن إعالة ثمانين ألف إنسان، وبمطالب متواضعة تتعلق بزيادة طفيفة في أجورهم اليومية (كانت تتراوح في حينه بين ١٢ و١٥ قرشا)(٤٦) وزيادة في أيام العطل بأجور (كانت أربعة أيام فقط في السنة الواحدة) وكذلك الاعتراف بنقابتهم. ومعظم هذه المطالب كانت قد

---

(٤٥) لا يخفى خالد محي الدين (مذكراته) دهشته من موقف الدكتور السنهوري المعارض لسن هذا القانون. ويقول إنه اتخذ من القانون ذريعة لضرب الاتجاه نحو الديمقراطية فقد قال: «إذا كنتم تريدون كسب الشعب من خلال قانون الإصلاح الزراعي فان آثار هذا القانون لن تظهر قبل خمس سنوات أو ست. فكيف تريدون المسارعة بالانتخابات في فبراير ١٩٥٣؟ وبدأ يستحثنا على ضرورة تأجيل الانتخابات لفترة تكفي لضمان اكتساب جماهيرية حقيقة. كما أن (علي ماهر) الذي كان رئيساً للوزارة أصدر بياناً هاجم فيه الحكومة فاستقال ثم استرضي فرجع عن استقالته (ولم يطل به الأمر واستقال نهائياً بعد أن وجد أن لا هو ولا وزراته تملك سلطة).

(٤٦) يعادل ١٢٠-١٥٠ فلساً بالعملة العراقية حينذاك ويعين القوة الشرائية.

قدمت قبل إزالة العهد الملكي بستة أشهر، فيجري التفاوض بشأنها ويماطل في أمرها بعلل. هؤلاء العمال الذين خدعوا بشعارات العهد الجديد فاستبشروا به كانوا يعتقدون أن الحكام الشبان الذين تعهدوا بالقضاء على مظاهر ظلم الحكم الماضي والاستغلال لن يسمحوا بتأجيل أو مماطلة لاسيما أن مصنعاً ممثلاً برأسمال بريطاني مصري كان قد سلّم قبل أيام قلائل لعماله بعين مطالبهم.

لم تستجب الإدارة واستنجدت بالشرطة التي راحت تستخدم القوة لتشتيت شمل المجتمعين وكسر الإضراب. فدافع المضربون عن أنفسهم بقذف المهاجمين بالحجارة ففتح رجال الأمن النار عليهم. وبادر المضربون عند ذلك باشعال النار في بنايتين من بنايات المصنع وأعلنوا إضراب قعود واستحكام.

في اليوم التالي أرسل الحكم الجديد وحدات من الجيش وأُنذِر المعتصمون بإخلاء المصنع وعند رفضهم شرع الجيش في اقتحام البناية وجرى اشتباك عنيف بين مسلحين وعزّل وقتل ثلاثة جنود وستة من العمال وجرح أكثر من عشرين، وتم إلقاء القبض على أكثر من مائتين حين أهوى الجنود والشرطة على آلاف منهم بالعصي والهراوات دون رحمة.

واسرع الضباط الأحرار فشكلوا مجلساً عسكرياً صحراوياً برئاسة زميلهم (عبدالمنعم عبدالرؤوف) حكم على اثنين منهم بالموت شنقاً وأثقل ٣١ منهم بأحكام سجن مختلفة نفذت جميعها بعد إقرارها من مجلس القيادة[٤٧].

وكما ألمعت إليه في صدد هذا الحادث إنه ليكشف عن موقف الضباط الذين قبلوا على أنفسهم تسميتهم بالأحرار إزاء حركة شعبية مستقلة عنهم فلاحية أكانت أم عمالية هدفها إعادة حقوق سليبة أو ضمان حريات معينة، أو أي نوع من النضال من أجل رفع المستوى المعاشي والاقتصادي وظل هذا ديدن الحكم الثوري إلى الأخير. قد نظلمهم لو أنكرنا عليهم حسن النية، أو عبناهم لقلة تفكير في بؤس العمال، أو عدم اهتمام

---

(٤٧) اختار الضباط الأحرار العلنية الغوغائية لتنفيذ أحكام الموت. ويصف مراسل صحيفة التايمس الذي شهد التنفيذ «الذي قصد به الانقلابيون استعراض قوتهم ومدى سيطرتهم للرأي العام» فأحضروا مئات عديدة من الجنود واقتيد حوالي ألف عامل من المصنع وغيره ودفعوا كالأنعام وأوقفوا في صفوف على ثلاثة جوانب من ساحة كرة القدم التابعة للمصنع بمواجهة الجنود وجيء بالمحكومين إلى وسط الساحة وقام ضابط بقراءة قرار الحكم بمكبر الصوت، ثم تلا ضابط آخر أمر اللواء محمد نجيب.

بصلاح حالهم، فهناك دلائل عديدة تشير إلى أن الطبقة الحاكمة الجديدة بذلت جهوداً للتخفيف عن متاعب العمال والفلاحين وتحسين أوضاعهم. إلا أن كل ما فعلوه في هذا الصدد كان «منهم» لا «معهم».

قد يعيب قارئي عليّ شدة اهتمامي بحادث (كفر الدوار) إلا أنه مثل لا يسعني إغفاله للاتجاه البعيد عن المبادئ الديمقراطية الذي سلكه النظام الناصري منذ البدء وأصر عليه إلى النهاية.

يعرّف أبراهام لنكولن الحكم الصالح بأنه: «من الشعب وللشعب وبالشعب». وبأكثر ما يمكن التسامح فيه: إذا سلمنا للضباط الأحرار بأنهم من الشعب وللشعب فمن المتعذر علينا أن نسلم بالثالثة لهم أي بالشعب.

في ١٨ من كانون الأول ١٩٥٣ أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل جميع الأحزاب السياسية معلناً بدل ذلك قيام تنظيم شعبي بديل أطلق عليه اسم هيئة التحرير.

كان الضباط الأحرار أو ما دعوه بمجلس القيادة قد نضا عنه ثوب التخفي وخرج إلى الملأ وراحت الصحف تلتقط الصور لأعضائه ببزاتهم العسكرية يتوسطهم محمد نجيب وإلى يمينه عبدالناصر. انتهى فصل الخوف أو أيام العدّة كما أطلق عليه مصري فَكِه وبدأ فصل التحكيم وترصين المكاسب. والتنظيم الذي حكموا بإنشائه كان بمثابة ملء فراغ بينهم وبين الشعب المصري كما عللته طائفة الكتاب والصحافيين الذين ربطوا حظوظهم بالعهد الجديد.

كانوا بعد التصفية العظيمة في الجيش وإحالة جنرالية ورجال حكم سابقين إلى محاكم الثورة وإثقالهم بأحكام سجن طويلة، وبعد إبعادهم العناصر التي يخشى منها وبعد تأمينهم السيطرة التامة على وحدات الجيش وأصنافه عن طريق ضباط ثوريين أحرار من الدرجة الثالثة، كانوا يشعرون بأنهم بعيدو الصلة بالشعب المصري، يستمدون قوتهم من تخفيهم وعدم الإعلان عن أسمائهم، وتسترهم بجبة اللواء محمد نجيب وسمعته في الجيش وشعبيته الكاسحة التي كسبها وعملوا هم على تضخيمها.

بالأخير ولمحدوديتهم السياسية والقانونية كان لا بد لهم من الاستعانة برجال السياسة والقانون فضلاً عن الوزارة التي اتخذوها غطاء لقراراتهم ردحاً من الزمن ثم أقالوها. وفضلوا بعد ظهورهم إلى العلن الاستعانة بمستشارين وخبراء فضلاً عن قوى سياسية معينة متلهفة للتعاون معهم. ووجه الغرابة هنا هو أن المستشارين الذين

اختاروهم وكان معظمهم قد اتصف بالميول الديمقراطية ودافع عن النهج الديمقراطي طوال حياتهم العملية والفكرية بدوا وكأنهم يحبذون استمرار العسكريين في الحكم، ويعادون السير في النهج الديمقراطي والحياة البرلمانية.

من أساطين القانون والدستوريين الذين استعانوا بهم أذكر الدكتور عبدالرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة السابق. استطارت شهرته بتآليفه القانونية الرائعة التي حظيت باحترام عميق في أرجاء العالم الناطق بالعربية(٤٨) ونائبه في ذلك المجلس القانوني الضليع سليمان حافظ. وفتحي رضوان المحامي الشهير بمواقفه في الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الفرد في الدولة. والأستاذ سيد صبري أستاذ القانون الدستوري بكلية الحقوق في جامعة القاهرة. والدكتور راشد البراوي وهو واحد من المؤلفين والكتاب التقدميين الاشتراكيين المعروفين. هؤلاء كلهم كانوا يشجعون كتلة الضباط على تجاوز المثل الديمقراطية تقرباً منهم. مؤكدين لهم بأن ما فعلوه هو ثورة، وللثورة دستورها، وليس عليها أن تتمسك بالنصوص، وإنما هي بحاجة إلى خطوات ثورية وإلى فقه ثوري. راح هؤلاء مدفوعين باشمئزاز وتقزز من حياة الأحزاب ومناوراتها الرخيصة يبتدعون لتلك الثورة حججاً لتبرير ملاحقة الحياة الحزبية ويرسمون لضباطها خططاً ترمي إلى إرباكها لتزيد من ضعفها ومن عجزها عن الاحتجاج والمقاومة تمهيداً لحلها دون ضجة. ويطرب الضباط لهذا ويتقبلون النصح برضا وإعجاب فهو من مصلحتهم وتكبر أقدارهم في عين أنفسهم، ويزداد ابتعادهم عن فكرتهم القديمة التي أعلنوها وهي تسليم الحكم للمدنيين بالأخير.

في البداية أفتوا بوجوب قيام الأحزاب بتطهير نفسها. من هو المطهِّر ومن هو المطهَّر؟

---

(٤٨) انتدب الدكتور السنهوري في أواسط الثلاثينات لعمادة كلية الحقوق العراقية وتخرج على يده قضاة ومحامون وموظفون كبار. أذكر في مقدمتهم الزميل والصديق ضياء شيت خطاب أحد تلاميذته المعجبين الذي بلغ أعلى مركز قضائي في البلاد أي رئاسة محكمة تمييز العراق (محكمة النقض والإبرام بالمصطلح المصري). وقد بقي الصديق ضياء على صعيد المراسلة معه حتى آخر عمره. كان للسنهوري الدور الأكبر في وضع مسودة القانون المدني العراقي الذي سن في ١٩٥١. وكان أيام الانقلاب يوليو رئيساً لمجلس الدولة، وهو المجلس القضائي الأعلى الذي يفصل في نزاعات الأشخاص مع الدولة. أمّا الدكتور البراوي فهو أحد المفكرين اليساريين الكبار في مصر ومترجم كتاب «راس المال» لكارل ماركس.

تنصاع الأحزاب للأمر خوفاً وتأخذ بالمبدأ الغريب بتشجيع الشقاق الداخلي بين زعمائها وقادتها. من يجب أن يخرج ومن يجب أن يبقى؟ من يملك سلطة الإخراج والإبقاء؟

وحصل أمر عجيب لا تجد له مثيلاً إلا في الروايات الخيالية الفكاهية: راح بعض يطرد بعضاً وأمل الفوز بالنتائج التطهيرية وهي التأسيس الجديد بأمر حكومي لأحزاب نشأت تلقائياً وبدون ترخيص أو إجازة. ولا يلقى اللوم كله على كتلة الضباط الحاكمين هنا فقد شارك في موتها الموقف المتخاذل الذي وقفه زعماء تلك الأحزاب إذ لم يخطر ببالها قط أن تتجاهل هذا الأمر لتحقق نصراً وتحدياً قد يكفل وقفة في عَجَلة الاندفاع الثوري ويتيح للحكام الجدد صحوة للتفكير فيما يفعلون. بعد عملية التطهير يكتشف الضباط الأحرار أن التطهير لم يتم كما يجب وأنه لا يستوفي النتائج المعلقة عليه. وبمعونة الخبراء والمستشارين أولئك يسن قانون تحكمي ملتو لإصدار إجازة النشاط الحزبي يمنح فيه وزير الداخلية حق الاعتراض على أي واحد من المؤسسين[٤٩].

راحت الأحزاب تدور في حلقة مفرغة بين اعتراض ورفض وتجديد طلب واستبعاد شخص وإبداله بمؤسس آخر حتى قررت جماعة الضباط أن لا حاجة للبلاد إلى هذه المؤسسات وقررت تصفيتها كما أسلفنا وأصدرت أوامر بإلقاء القبض على ٣٠ من قادتها و٦٠ من الشخصيات البارزة فيها ووجهت إليهم تهم الاتصال بالدول الأجنبية والجاسوسية. كما ألقي القبض على ٧٠ عضواً بارزاً من أعضاء الحزب الشيوعي المصري (حدتو) ومن بينهم السكرتير العام (الميكانيكي) الذي أعجب به عبدالناصر، وصديقه الخاص القاضي المثقف أحمد فؤاد وكان عبدالناصر قد كلفه مع الدكتور راشد البراوي بوضع مسودة قانون الإصلاح الزراعي. وأثار قانون الإصلاح أزمة سياسية

---

(٤٩) من المفارقات المضحكة في هذا الباب أن وزير الداخلية اعترض على اسم مصطفى النحاس الذي كان رئيساً للوفد بعد سعد زغلول! [نقول شهد على شعبيته ومكانته في قلوب بسطاء المصريين ووجهائهم ذلك التشييع الشعبي التلقائي الهائل لجنازته في القاهرة في ١٩٦٥ بتحدٍ صريح للسلطة الناصرية وهي في أوج سلطانها]. وقد أدى هذا الاعتراض على اسمه إلى احداث خلل في صفوف الوفديين فتارة كان مقدمو الطلب يرفضون اعتراض الوزير ويسحب اسم النحاس. ما مرّت برهة على هذا الانقسام حتى القي القبض على معظمهم وبينهم (النحاس) نفسه. ومنهم الدكتور صلاح الدين (وزير خارجية سابق) وإبراهيم فرج وفؤاد سراج الدين (وزيران سابقان) وأحيلوا إلى محكمة الثورة بتهمة الفساد.

خطيرة اتخذها الضباط الأحرار ذريعة ليتنصلوا من الوعد الذي قطعوه بإجراء انتخابات عامة وأعلنوا عن فترة انتقالية بدل ذلك أمدها ثلاث سنين.

كل ذلك كان يكمن وراءه رغبة عبدالناصر الخفية وقراره النهائي بالاستغناء عن الأحزاب السياسية كافة وقد اتضح ذلك بالشكل التالي: بعد شهرين من ٢٣ يوليو أصدر مجلس القيادة عفواً عاماً عن السجناء السياسيين وأفرج عن المعتقلين الذين اعتقلوا في العهد الملكي وكان معظمهم من جماعة الإخوان المسلمين ومن المحكومين بجرائم الاغتيالات والتظاهرات وحريق القاهرة والمصادمات المسلحة في حوادث الشغب. واستثني من العفو الشيوعيون واليسار والاشتراكيون القوميون. يقول خالد محي الدين:

«أذكر أننا كنا مجتمعين في مجلس القيادة عندما دخل علينا سليمان حافظ ومعه مشروع القانون الخاص بالإفراج عن المسجونين السياسيين وسألته ببساطة: هل يطبق القانون على الشيوعيين؟ فأجاب بزهو: لا فقد وجدت لهذا الأمر مخرجاً قلت: وكيف؟ فقال: إن الشيوعية ليست جريمة سياسية وإنما هي جريمة اجتماعية اقتصادية قلت: لكنها جريمة سياسية وإن قلتم كده ولم تفرجوا عن الشيوعيين تبقى بايخة قوي خصوصاً وأن التهمة الموجهة إليهم هي قلب نظام الحكم وتغيير النظام الاجتماعي وهم بذلك يحاكمون كمتهمين في جريمة رأي فالأفضل عندي هو الإعلان بأنه لن يفرج عنهم لأسباب سياسية بدلاً من استخدام تفسيرات غير قانونية وغير منطقية. فرد عليّ مندهشاً: حيرتوني قلتم بلاش (بدون) شيوعيين فلقينا الحل وبعد رافضين وتقولون بايخة قوي؟ فضحك الزملاء في المجلس وقالوا له: معلش أصله خالد مختلف في هذا الموضوع»[٥٠].

والموضوع في الواقع أن عبدالناصر اعتزم القضاء على الأحزاب السياسية سرياً وعلنياً وأراد كسب الإخوان المسلمين إلى صفة بمبادرة العفو هذه.

وتزامنت فترة الانتقال المعلنة مع صدور الدستور المؤقت الذي ألغى النظام الملكي وأحل محله النظام الجمهوري وأثبت لمجلس قيادة الثورة السلطة العليا والسيادة على

---

(٥٠) أغفل أنور السادات وعبداللطيف بغدادي في مذكراتهما أيّ تنويه بمحكمة الثورة هذه ولم يتطرقا إلى وقائعها ربما خجلاً أو استكباراً إلا خالد محي الدين فصل في أمرها. (راجع المذكرات).

الدولة مع رئيس مجلس القيادة في مجلسه. والمعنى المقصود هو أن رئيس المجلس (اللواء محمد نجيب) لا يملك السلطة بمفرده وأن المجلس لا يملك السلطة بمفرده فكان من الطبيعي بعد هذا أن ينشأ الخلاف بين محمد نجيب وعبدالناصر الذي يسيطر على مجلس القيادة في الواقع. ومحمد نجيب الذي وصلت شعبيته القمة بدا حريصاً على أن يتقاضى ثمن منح اسمه ومكانته لحفنة من الضباط المغامرين الصغار الذين تمكنوا بهما من إنجاح حركتهم الجريئة وعندما أبى عليهم قادة آخرون ذلك. وهؤلاء الضباط الذين ذاقوا طعم السلطة والحكم، والمخولون من الجمهور وجدوا في محمد نجيب رجلاً طارئاً على حركتهم لا يقنع بمشاطرتهم السلطة، بل يريدها كلها لنفسه.

والضباط من جهتهم - بحسب ما جاء في تصريحاتهم ومذكراتهم - وبالشكل الذي بدأوا فيه يمارسون السلطة ظلوا خلال الأشهر الخمسة الأولى يعلنون بإصرار متواصل تمسكهم بالمبادئ الديمقراطية وتقديم الحياة النيابية باعتبارهما أساساً يُرسى عليه نظام الحكم المقبل. لكن ما إن تمكنوا من السلطة ومارسوها حتى نسوا عهدهم وبات شغلهم الشاغل التمسك بها والذب عن حياضها.

في الأسبوع الأول من شهر آذار ١٩٥٤ بلغ الصراع على السلطة بين محمد نجيب ومجلس القيادة منتهاه. أولهما بمساندة القوى اليسارية وثانيهما بدعم الإخوان المسلمين. رأى عبدالناصر أن الوقت قد حان للإمساك بالأعنة وانتزاعها من يد محمد نجيب وكان إلى جانبه كل أعضاء مجلس القيادة باستثناء شاب متحمس يساري متسرع طائش هو الرائد خالد محي الدين.

آثر عبدالناصر طوال هذه المدة أن يحكم قبضته فحسب على مجلس القيادة وأن يبقى القوة المهيمنة فيه تاركاً الأضواء تسلط على محمد نجيب. وكان قد درس نفسية هذا الرجل وتأكد بأن وصوله إلى السلطة بهذه السهولة وتمتعه بالشعبية الكاسحة سيدير رأسه ويدفعه إلى تحدي صغار الضباط هؤلاء بإصرار على استخدام كل ما يعنيه منصبه بوصفه رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة.

وأنه لا يلبث أن يرتكب بعض الحماقات التي ستؤدي به إلى السقوط.

وقد تم ذلك كما قدره عبدالناصر بمعاونة من ذكاء خارق وحذق تآمري فيه.

في شباط ١٩٥٤ وجد الضباط الأحرار أن محمد نجيب ينوي احتواء مجلس قيادتهم أي أن ينفرد بالسلطة. وكان هناك اليساريون والشيوعيون الذين بدأ اضطهادهم وملاحقتهم المبطنة تخرج إلى العلن باعتقالات السلطة لأعضائهم وملاحقتهم،

واستعداء العناصر الدينية عليهم بشخص علماء الأزهر والإخوان المسلمين. ولم يكن لديهم من يمثلهم في السلطة غير ضابط واحد من أصل ١١ عضواً إلا أنهم كانوا يعتمدون على غالبية ضباط تقدميين في صنف المدرعات (سلاح الفرسان) الذي كان له الدور الحاسم في نجاح انقلاب ٢٣ يوليو.

لم يتحدث محمد نجيب عن الديمقراطية ولم يخطر بباله الحكم النيابي إلا بعد أن بدأ عبدالناصر بعملية إزاحته عن مركز السلطة فقد كان من أنصار إطالة فترة الانتقال وإبعادها عنه مسافة تزيد كثيراً عن السنوات الثلاث المقررة. أعدّ نفسه ليكون الحاكم المطلق المؤبد، بديل فاروق مثلما أعد عبدالناصر نفسه ليكون كذلك. إلا أن الأخير كان أكثر ذكاء وألمعية وأطول باعاً في فن التآمر.

واستخدم كل واحد أسلحته، لجأ محمد نجيب إلى الجمهور وإلى الخطب وإلى الاحتكاك الشخصي برجل الشارع، ونال ما أراد فأراد أن يستخدم تلك الخطوة للهيمنة على مجلس القيادة. فبدأ هذا المجلس بتقليم أظافره عن طريق قطع علاقته بالجيش. وبمرسوم صغير لم يثر انتباه أحد قفز الصاغ (الرائد) عبدالحكيم عامر موضع ثقة عبدالناصر اللامحدودة إلى رتبة لواء وبمرسوم تال رفع إلى رتبة مشير (فيلدمارشال) ليغدو قائداً عاماً للجيش[٥١]. في حين كان عبدالناصر وزيراً للداخلية، وعبداللطيف بغدادي وزيراً للحربية، وصلاح سالم وزيراً للإرشاد.

لفترة قصيرة بدا كأن زمام الأمور يكاد يفلت من يد عبدالناصر.

كان محمد نجيب أثناء جولاته الشعبية الصاخبة وصداقاته الشخصية ولقاءاته مع زعماء الأحزاب السياسية المنحلة قد نجح في كسب فلولها إلى جانبه بعد وعده بالديمقراطية والحياة الديمقراطية فعقدوا عليه الأمل في العودة إلى الشرعية، وكان لا بد من عمل مضاد. ابتدرها صلاح سالم الغبي عن طريق كذبة كانت نتيجتها أن كسب محمد نجيب بعد افتضاحها مزيداً من الشعبية عززت فيه وَهْمَ مقدرته على السيطرة الكاملة. فكر صلاح سالم في إحداث رجة سياسية تمكن مجلس القيادة من ضرب

(٥١) لم يمرّ الترفيع الثاني بهدوء وسهولة كالأول فشاع في الجيش سخطٌ عظيم وأحدث نفرة وحالة من القلق في مؤسسة الضباط وحصلت استقالات عدة بين أمراء الألوية وفي مقدمتهم آمر القوة الجوية حسن محمود إلا أن عبدالناصر والبغدادي أسرعا بملء الفراغات بقادة يركن إليهم ويوافق عليهم عبدالحكيم عامر.

خصومها دفعة واحدة فأعلن أنه يمتلك وثيقة خطيرة تكفي لإدانة كثير من الزعماء السياسيين السابقين المتظاهرين بالانتصار لمحمد نجيب. وخيل لناصر مبدئياً أن إطلاق إشاعة بوجود مؤامرة ضد الثورة قد يفيد كثيراً في إلهاء الجمهور وتحويل انتباهه إلى وجود خطر محدق تصرفه عن الاهتمام بالصراع الخفي المحتدم الدائر فأعلن موافقته على تشكيل ما دعي بـ(محكمة الثورة) (لمحاكمة المتهمين المقبوض عليهم بتهمة الجاسوسية والاتصال بدولة أجنبية) وهي بالضبط الولايات المتحدة!

مهد لتشكيلها بضجة إعلامية في الإذاعة والصحف وبخطب نارية لناصر ضد الإمبريالية ومخططات الاستعمار لإعادة مراكزه التي فقدها بالثورة، عن طريق خدمه وعملائه القدماء.

إلا أن العصا المعقوفة ارتدت إلى مطلقها فقد بات واضحاً في أول جلسة من المحاكمات الورطة الكبيرة التي اوقعها صلاح سالم بزملائه الحكام. لم تكن هناك أية مؤامرة والوثيقة الخطيرة الدليل الدامغ على المؤامرة هي مجرد تقرير رجل أمن حول قيام موظف في السفارة الأمريكية بزيارة لإبراهيم عبدالهادي باشا في منزله. وعن اجتماعات حفلية واتصالات تلفونية جرت فيها أحاديث عادية. ومع هذا وتبريراً لتشكيلها واثباتاً لأصالة الخطب التي ألقيت بالمناسبة كان لا بد من صدور أحكام توازي خطورة التهمة. ونال إبراهيم عبدالهادي حكماً بالموت وأثقل الآخرون بأحكام سجن طويلة. وكما نوهت خفض حكم الموت إلى الحبس المؤبد، ثم أطلق سراحه وسراح المحكومين الآخرين بهدوء ودون ضجة بعد فترة قصيرة.

* * *

في ١١ من شباط أعلن عبدالناصر لزملائه بأن الانسجام والتعاون مع محمد نجيب بات محالاً ووافق الآخرون على قوله. كان محمد نجيب يهدد بالاستقالة ظاهراً وهو على ثقة بأن مجموع الضباط الأحرار لا يقوى على الصمود في وجه الهياج الجماهيري الذي يطالبه بسحب استقالته. وامتطى اليسار الموجة وراح يطالب بعودة الحياة الديمقرطية وإجراء انتخابات برلمانية حرة.

وفي عين الوقت، اعترض جمال سالم وخالد محي الدين على قبول الاستقالة إلا أنهما أثبتا مع الآخرين عبدالناصر رئيساً للوزارة ورئيساً لمجلس قيادة الثورة. وأرجأوا البت في استقالة رئيس الجمهورية.

وفي ٢٣ من شباط قدم محمد نجيب استقالته، وبعث بها مع مرافقه الرائد إسماعيل فريد وكان عبدالناصر قد وضعه عيناً على خصمه. فثار الغضب بعبدالناصر وصرخ بالرسول: «روح بلغ نجيب يبقى في بيته ولا يغادره. وأنت لا تغادر هذا المكان. قل لنجيب المسألة مش لعبة!» وبين الأمر بعدم مغادرة المكان وإبلاغه برسالة يقولها لنجيب وقف هذا الضابط حائراً أي الأمرين يطيع(٥٢).

بعد يومين أعلن صلاح سالم قبول استقالة رئيس الجمهورية وراح يفسر التغييرات بشكل سقيم سخيف بدا به عبدالناصر للمواطن المصري فيها ذلك الشاب الغر الغاضب المتخذ صورة المستبد المطلق العنان لطموحه الجامح، مقابل محمد نجيب المفتر الثغر، اللطيف الشمائل والوقور الكَيّس، ومما قاله عن نجيب أنه:

«كان شديد الالحاح على نشر صوره في الصحف وتلاوة خطبه في الاذاعة حتى ضقت ذرعاً بالحاحه إلى الحد الذي اضطررت معه إلى الذهاب إلى السجن الحربي ووضع نفسي فيه!».

وبطبيعة الحال لم يكن هناك من يصدق أن بإمكان عسكري أن يعتقل نفسه بأمر منه ثم كيف يمكن ان يحرم رئيس جمهورية من اذاعة خطبه ونشر صوره؟ ان فرض الانسان السجن على نفسه هو أكثر من ان تحتمله العقلية المصرية المرهفة الحس التي اشتهرت في البلاد الناطقة بالعربية بمنطقية واصالة التعبير فلا غرو ان وجدت في القول مادة للسخرية وانداحت دائرة النكتة لتشمل مجلس القيادة نفسه.

وسرى نبأ اعتقال محمد نجيب في الشارع سريان النار الآكلة.

بدأ طلبة جامعة القاهرة بتنظيم مظاهرات مؤيدة لنجيب، تهتف بسقوط حكم الجيش وتطالب بالديمقراطية وإجراء انتخابات(٥٣).

---

(٥٢) قام كمال رفعت من الضباط الأحرار (الطبقة الأولى) وحسن التهامي من طبقة الضباط الأحرار الثانية باقتحام منزل محمد نجيب وأخذه معتقلاً إلى ثكنات صنف (سلاح) المدفعية.

(٥٣) خرج صلاح سالم من دار الإذاعة بعد إلقائه الحديث ليحدد وقعه ورد فعله في الشوارع التي غصت بالمتظاهرين الهائجين وهم يتجهون بجموعهم الغفيرة نحو ميدان عابدين يهتفون بشعار موحد «لا رئيس إلا نجيب» «لا بديل عن الديمقراطية». سيول دفاقة وأمواج هادرة أتقن الحزب الشيوعي والطلبة تنظيمها وحشدها، أمواج لا أول ولا آخر. خارت عزائم صلاح سالم وفقد كل ثقة بما قاله في الراديو. وانقلبت آراؤه ومشاعره وهو يسمع بأذنه الشتائم تنصب عليه من المتظاهرين وأقلها «ابن الكلب». ويذكر خالد محي الدين (المرجع السالف ص٢٥٤ وما بعدها) =

في السودان كان حزب الاتحاد الوطني مالك الأغلبية. وهو مدين بشعبيته لإصراره على موقفه المؤيد لمصر المبتنى على ثقته واحترامه لشخص محمد نجيب نصف السوداني فكان يجد في إزاحة هذا العسكري خطراً يهدد ما يتمتع به من الهيمنة السياسية في السودان. فعجّل بإرسال وفد إلى القاهرة ليعرب عن قلقه من التغيير وما يترتب عليه من فقدان رصيد الحزب في السودان. وتجمع خارج منزل محمد نجيب عدد من الضباط الساخطين كما تجمع في مجلس القيادة عدد من المؤيدين وأعلن ضباط سلاح الفرسان (المدرعات) تضامنهم مع نجيب واعتصبوا وهددوا بالزحف على مجلس القيادة.

كان سلاح الفرسان أهم وأخطر صنف في الجيش المصري يسيطر عليه خالد محي الدين ورفاقه الضباط الديمقراطيون واليساريون.

في الخامس من آذار بلغت التظاهرات أوجها وبدا لناصر وكأنه خسر الجولة وعاد من الاجتماع الصاخب بضباط سلاح الفرسان لينبئ رفاقه بفشله وليعزو الاعتصاب إلى خالد محي الدين. عندها قدم هذا الضباط الذي لم يكد يبلغ الحادية والثلاثين من عمره اقتراحاً حول إعلان المجلس بياناً بإجراء انتخابات عامة وإقامة حكم برلماني وحل المجلس وعودة الجيش إلى ثكناته فرد عليه عبدالناصر بحزم أنه لا يعتبر الوقت ملائماً للخطوة وإذا ارتأى رفاقه فإنه يتنازل عن رئاسة الوزراء. يقول محي الدين: «فُوّضتُ بابلاغ الأمر لنجيب».

خلال ذلك وضعت الشروط للعودة إلى الحكم المدني وتطبيق المبادئ الدستورية. وتقرر أن يكون يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤ موعداً لانتخابات عامة لمجلس تأسيسي والعودة إلى النظام الدستوري، إلا أن هذا القرار لم يعمر أكثر من عشرين

= أن «صلاحاً» أسرع بدخول صيدلية (مظلوم) بالقرب من ميدان عابدين وتحدث مع عبدالناصر قائلاً «يا جمال لازم تأخذ قراراً بسرعة بعودة نجيب فالناس تهتف بحياته فردّ عليه «تعال فوراً» وعند عودته إلى مكتب عبدالحكيم عامر والمجلس مجتمع فيه كرر قوله بضرورة اتخاذ قرار بعودة نجيب وبقي عبدالناصر صامتاً. قال صلاح: يا جمال موعد نشرة الأخبار قرب ولا بد أن أبلغهم فوراً بخبر عودة نجيب لإذاعته وإلاّ فالبلد سيثور ضدنا. ولم يردّ جمال وعاد صلاح يلحّ. وأصرّ جمال على الصمت فأمسك صلاح بالتلفون وطلب الإذاعة وهو يقول يا جمال إني سأبلغ الخبر بالإذاعة ولم يرد جمال فكررها أكثر من مرة فلما واصل جمال الصمت، قالها صلاح بصوت مرتفع ليسمعها كلّ من كان في الغرفة» وعاد نجيب.

ساعة، ولم يتح لرئيس الوزراء الجديد وقت لانتقاء أعضاء وزارته، فقد حدث تغيير مثير سريع خلال تلك الساعات. كان عبدالناصر يعمل بسرعة فائقة.

أعلنت صحيفة الأخبار في مقال رئيس أن عبدالناصر كان الزعيم الحقيقي للثورة وسيظل كذلك. وفي عين الوقت تمكن بمساعدة الضباط المتعاطفين مع المجلس من تحويل سلاح المشاة والمدفعية والطيران ضد سلاح المدرعات تحت شعار رفض العودة إلى النظام الديمقراطي لأن ذلك سيؤدي إلى القضاء على الثورة. ووجد سلاح الفرسان نفسه محاصراً من الأرض والجو. من جهة أخرى استغل ما بين الشيوعيين والإخوان المسلمين من عداء(٥٤) فأطلقهم على التظاهرات الطلابية والديمقراطية بتظاهرات معاكسة بشعارات (تسقط الديمقرطية) (تسقط الأحزاب) (تحيا الثورة) (عاش مجلس القيادة). في عين الوقت أعلن عمال النقل إضراباً عاماً قصد به شل حركة التنقل في القاهرة(٥٥). وبتحريض من عبدالناصر وتوقيت دقيق منه دعت نقابات العمال إلى إضراب عام وظهر أولئك الذين استأجرهم وعرفوا بصبية القروش العشرة بمظاهرات ضخمة يساندها الإخوان تدعو إلى الاستمرار في حظر نشاط الأحزاب السياسية القديمة وتوسيع نطاق عمليات التطهير على نطاق الجيش والجهاز الحكومي. وهاجمت عصابات من الغوغاء مبنى مجلس الدولة معلنة استنكارها لعودة الرجعية ونشرت جريدة (أخبار اليوم) لصاحبها (علي أمين) وشقيقه التوأم (مصطفى) المشايعين لعبدالناصر تسجيلات صوتية زودهم هو بها لمحادثات تلفونية بين محمد نجيب ومصطفى النحاس توحي بأن أولهما يعمل بجد لعودة الوفد إلى السلطة وسارت

---

(٥٤) كما سبق بيانه كان عبدالناصر قد كسب الإخوان المسلمين بإطلاق سراح سجنائهم وفي مقدمتهم الهضيبي مرشدهم العام الذي زاره بعد إطلاق سراحه ليشكره في حينه. وكان جمال قد أنهى أيضاً خلافه مع سلاح المدفعته بإطلاق سراح ضباطه الذين كانوا قد اعتقلوا في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ بتهمة التهيئة لانقلاب.

(٥٥) تحدث كتاب المذكرات من الضباط الأحرار مثل عبداللطيف بغدادي وثروت عكاشة وخالد محي الدين حول الإضراب. ويذكر خالد محي الدين أن جمال قال لهم بكل صراحة إنه هو الذي دبر حركة إضراب عمّال النقل. وشرح ببساطة أنه فعلها رداً على اجتماعات ضباط سلاح المدرعات معه وهي الاجتماعات التي عرفت «باجتماعات القاعة الخضراء» وقال أيضاً بأنه وراء تفجيرات القاهرة. قال لخالد محي الدين إن إخراج الإضراب لم يكلفه أكثر من ٤٠٠٠ جنيه «أنتم (مخاطباً محي الدين) تحركتم في الفرسان (المدرعات) وأنا رديت عليكم، واحدة بواحدة! نبقى خالصين (المرجع السالف ص٣٠٥).

الصحف الأخرى على منوالها. ودبر تلك الانفجارات التي عرفت بانفجارات القاهرة[٥٦].

خلال فترة وجيزة لا تتجاوز تسعة أيام تمكن عبدالناصر بدهائه واستخدامه أرخص تاكتيك سياسي مقصود لتحويل عواطف الغوغاء والدهماء إلى صفه، وبمعونة ومساندة أعضاء مجلس القيادة، ولم يكن أي واحد منهم يكن ذرة عطف على الشيوعيين أو إيمان بالديمقراطية، وبالضباط الجدد الذين وضعهم في مراكز قيادية، من اعتلاء محاولة الانقلاب وتوجيهها لصالحه. تخلص من ضباط المدرعات باعتقالهم وفصل زعيمهم خالد محي الدين من مجلس القيادة وأبعده إلى الخارج. وأتم تفريق مشايعي محمد نجيب والشيوعيين بسهولة. وبات في موقع قوة ليعلن «استجابة مجلس قيادة الثورة لرغبة الجماهير وتراجعه عن قرار إجراء انتخابات للمجلس التأسيسي والاستمرار في الفترة الانتقالية».

لكنه كان مضطراً إلى التسليم ببقاء محمد نجيب رئيساً للجمهورية إذ إن حامية الإسكندرية أعلنت تضامنها معه وخشي عبدالناصر حصول انشقاق في صفوف الجيش قد يؤدي إلى حرب أهلية. وفي ١٧ نيسان أرغم محمد نجيب على التخلي عن منصب رئيس الوزراء لعبدالناصر الذي ألف الحكومة من كل أعضاء مجلس القيادة تاركاً وزارتي الخارجية والمالية لمدنيين. وواصل محمد نجيب رئاسة دون سلطة ونفوذ أو صلة خارجية. كان شبه حبيس يحيط به جواسيس عبدالناصر، يعد أيامه المتبقية. وصفه نتنگ:

«كان عسكرياً بسيطاً يفوق غرورُه حصافتَه. فقد سمح لنفسه أن يبدو فعلاً أداة بيد الساسة القدماء وأن يبدو في الوقت عينه أداة بيد المتطرفين من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. هكذا بدت الأمور على الأقل لعبدالناصر ولمن هم مثله أولئك الذين يرفضون أي حل وسط بخصوص مبادئ ثورتهم. . . إلا أنه لم يكن رجعياً ولا مخادعاً كما زعم خصومه، ولم يكن نداً لعبدالناصر في حلبة التآمر كما برهنت الأحداث. ولما خدعته شعبيته المؤكدة وحملته على

---

(٥٦) انفجار واحد في حي القاهرة. واثنان في الجامعة وواحد في حي (كروبي) وآخر في مخازن الصحافة بالسكك الحديد. روعي في تفجيرها وبناء على تعليمات مشددة من عبدالناصر بأن لا تؤدي إلى خسائر في الأرواح ولا تخلف أضراراً.

الإيمان بأن الشعب لن يفضل حكم عبدالناصر على حكمه المعتدل، أساء تقدير سعة حيلة منافسه في التآمر ولم يدخل في اعتباره طبيعة الشعب المصري في الانحناء أمام القوة الباطشة كتلك التي استطاع مجلس قيادة الثورة تعبئتها. ولم يكن نجيب بطبيعة الحال الضحية الكبرى الوحيدة في القراع على السلطة، فخالد محي الدين بدوره أساء التقدير، ونبذه رفاقه أعضاء المجلس، غير أن عبدالناصر أظهر في موقفه منه جانباً عاطفياً من شخصيته. كان خالد وهو في الحادية والثلاثين أصغر أتباعه سناً وكان يكن لهذا الضابط الموهوب الذي شاركه النضال الطويل الصعب حباً جماً. هذا فضلاً عن أنه كان يأبى قطيعة سافرة مع رفاق ما قبل الثورة وقد برهن على ذلك طوال المراحل الأولى من حكمه. بل كان يميل في أغلب الأحيان إلى التجاوز عن عثراتهم وحماقاتهم. وفي الوقت عينه لم يكن خالد يعارضه فحسب في صراعه مع محمد نجيب ويحرض سلاح المدرعات على الثورة ضد مجلس القيادة بل كان فوق هذا كله شيوعياً مؤمناً وداعية للاشتراكية المادية التي حرمها عبدالناصر بوصفها أيديولوجية غريبة وافدة لا تخدم مصالح الشعب المصري وهي ضد تعاليم الإسلام»[٥٧].

يذكر خالد محي الدين بصريح العبارة أن عبدالناصر دعاه وأفهمه بأنه إذا بقي في مصر فسوف يلقى القبض عليه وأشار عليه أن ينفي نفسه بقبوله وظيفة اسمية في الخارج. أكان خالد وزملاؤه يؤمنون حقاً بالديمقراطية الليبرالية بوصفها أصلح نظام للحكم كما يدّعي؟ كلاّ، انظره يقول:

«كان الضباط (الأحرار) يعلنون تمسكهم بالديمقراطية كحل صحيح لنظام الحكم إلا أنهم ما قفزوا إلى السلطة حتى نسوا أن من مبادئ الديمقراطية تداول السلطة، والفصل بين السلطات، والإرادة الشعبية وتمسكوا بالسلطة وقد لقي ذلك قبولاً من الجميع لاسيما محمد نجيب وجمال عبدالناصر وكلاهما كان يطمح إلى السلطة بالقدر الذي خصصه دستور ١٩٢٣ للملك بل وبأكثر، لذلك بدأ النزاع بينهما في الداخل».

إن كان خالد في ١٩٥٢ وما قبلها يؤمن حقاً بهذا النوع من الديمقراطية فبالتأكيد أن

---

(٥٧) أنتوني نتنگ: ناصر [المدن ١٩٧١ ص٦٨] Antony Nathing: Nasser.

جماعة اليسار التي يعمل معها لم تكن في نيتهم إقامة هذا الشكل الديمقراطي من نظام الحكم في مصر. لو استظهر سلاح المدرعات في ذلك اليوم المشهود وأودع عبدالناصر السجن أو استقرت رصاصة في مخه كما يقول (نتنگ) كذلك سيكون مصير رفاقه الآخرين.

من المشكوك فيه كثيراً أن أولئك الذين قادوا مظاهرات ١٩٥٤ أو دفعوها وكانوا وراءها يؤمنون حقاً بالديمقراطية الليبرالية أو يحلفون بجعلها أساساً لنظام الحكم لو كتب لهم النجاح. اليسار الاشتراكي ولاسيما الشيوعيون لم يؤمنوا بالديمقراطية الغربية في أي وقت. إلاّ أنهم كانوا يتخفون تحتها ويلبسون رداءها وينادون بها أثناء كفاحهم من أجل السلطة منذ أن بدأت عمليات القضاء على النظم الديمقراطية الليبرالية في أواسط أوروبا إثر نهاية الحرب في ١٩٤٥. وما من شك في أن ديمقراطية مظاهرات ١٩٥٤ واعتصاب سلاح المدرعات في حالة النجاح ستكون نسخة من تلك الديمقراطية الشعبية. إن إيمان هؤلاء بها ما كان ليزيد عن إيمان أولئك الذين يعارضونهم فيها وشعار (تحيا الديمقراطية) الذي انطلق من حناجر المتظاهرين في ميدان عابدين ومن ثكنة سلاح المدرعات لم تكن قيمته الحقيقة تزيد عن قيمة شعار (تسقط الديمقراطية) الذي أطلقته حناجر أنصار عبدالناصر والإخوان.

وبدأ حكم عسكري سافر في مصر. ربح عبدالناصر المعركة وكان نصره فيها كاملاً ولم يعد أحد يملك القوة للوقوف في وجهه بعد تصفية الإخوان المسلمين وحانت فرصته المنتظرة فيهم.

ففي فجر يوم ٢٧ من تشرين الأول وبعد عشر ساعات تقريباً من فشل محاولة اغتياله وجد عدد كبير من زعماء الإخوان أنفسهم في زنزانات السجون وعلى رأسهم مرشدهم العام الهضيبي الذي كان قد أطلق سراحه قبل بضعة أشهر كما سبق بيانه. وبلغ عدد المعتقلين خلال الأسابيع الثلاثة التالية أكثر من ألف. حكمت محكمة الثورة على الهضيبي وعلى عبداللطيف محمد مطلق الرصاص واثنين آخرين بالإعدام. ونفذ الحكم بالثلاثة وخفض الحكم على الهضيبي إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. واهتبلت الفرصة لزجّ اسم محمد نجيب أثناء المحاكمة ليبدو وكأنه أداة طيعة بيد المتآمرين فتم في ١٤ من تشرين الثاني إعفاؤه من منصب رئاسة الجمهورية وتولى عبدالحكيم عامر تحديد محل إقامته الجبرية.

وعرضت رئاسة الجمهورية على أحمد لطفي السيد[٥٨] فاعتذر وعندها تولى عبدالناصر مهام رئاسة الجمهورية إلى حين ارتفاعه إلى هذا المنصب.

---

(٥٨) من مشاهير علماء مصر وأدبائها وكبار الساسة. وزير خارجية سابق ورئيس المجمع المصري مترجم كتب أرسطو الثلاثة: (في السياسة والطبيعة والكون والفساد). كان في الثانية والثمانيين عندما عرض عليه المنصب. فبادر إلى نشر اعتذاره في الصحف مبيناً فيه بصراحة ان المنصب المعروض عليه لا ينطوي على أي سلطة تنفيذية وإنما مجرد واجهة وحتى لو تضمن سلطة ما فإنه عازف عنه بسبب كبر سنه.

تنبيه:

يؤسفني للغاية أن يأتي هذا الفصل للقارئ خلواً من هوامشه وتعليقاته الخاصة به وقد أشرت إليها بالأرقام في متنه. وكنت قد شرحت في (المدخل) المتاعب التي واجهتني في الكتاب، وكانت نتيجة وفاة صاحب دار النشر الأولى المفاجئة وعدم احتفاظي بنسخة ثانية من مسوّدات الكتاب، ورفض ذلك الشخص الذي ذكرته في المدخل أي تعاون على ردّ ما يعتبر أمانة من تركة متوفى. وأخيراً أنا أرحب بأي لوم يوجّهه إليّ القارئ لفرط الثقة التي أوليها أناساً لا يستحقونها إن يصح اللوم.

لم يكن بوسعي تذكّر هامش واحد أو مرجع معيّن واحد، فهناك (٥٩) هامشاً وتعليقاً روجع في أمرها أكثر من أربعين مرجعاً. ولم يكن هناك من سبيل للاستغناء عن هذا الفصل وحذفه من الكتاب فهو حلقة وصل لا محيص عنها، وأنا على كل حال طامع بغفران القارئ الذي عوّدته الصدق في إيراد المراجع الصحيحة لا اختراعها أو ابتداعها من وحي الخيال.

المؤلف

الفصل الرابع والعشرون

عبدالناصر. القومية العربية لا الوطنية المصرية. شعار «العزة والكرامة» ولا منهاج واضح للعمل القومي. رابطة اللغة والدين. ساطع الحصري وعبدالناصر. الحصري عدو البعث الأول. هجوم متقابل. (فلسفة الثورة) مقتطفات منه. جمال عبدالناصر ونوري السعيد. الجامعة العربية. خيبة عبدالناصر بها. هجومه إعلامياً على ساسة العرب «الرجعيين». موقفه من حلف «بغداد». إجراءات القمع وسلطات أجهزة الاستخبارات في مصر. إقامة المعتقلات الصحراوية. التطويق المرعب لحريات الفرد المصري. القبط: موقفهم من دعوى العروبة والوحدة، احوالهم في عهد الحكام المستبدين وفترة المماليك، دفاعهم عن الهوية المصرية. النزوح القبطي الجماعي إثر تطبيق القوانين الاشتراكية. إسقاط «القبطية» من التاريخ المصري. الدكتور لويس عوض سجين القومية. التضامن العربي لا الوحدة أو الاندماج. دعوى فاروق في رئاسة العالم الإسلامي. عودة الجيش السوري إلى حلبة السياسة. وزارة صبري العسلي. عدنان المالكي معاون رئيس للأركان، اغتياله. فارس الخوري، إرغامه على الاستقالة وعودة العسلي. اختيار شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. توحيد الجيشين السوري والمصري. بروز عبدالحميد السرّاج. تشديد قبضة الأمن على الجو السياسي. محاكمات السرّاج الثلاثة. البطش بالحزب القومي السوري (المحاكمة الأولى). محاكمة الرجعيين والمحافظين من النواب والساسة المعتدلين. محاكمة كبار ضباط الجيش بتهمة محاولة قلب نظام الحكم والعمل على اتحاد سورية بالعراق. مقارنة بين قومية البعث وقومية عبدالناصر على الصعيد النظري

كانت «مصرية» عبدالناصر حجر الزاوية في انقلاب ٢٣ يوليو، وبقيت كذلك حتى استتب له الأمر وتخلص من مزاحميه وأعلن حكماً عسكرياً بكل مظاهره وجوهره.

في كتابه (فلسفة الثورة) الذي أصدره في ١٩٥٤ عام نصره المبين تحدث عن الأدوار المجيدة التي لا تجد أبطالاً ينهضون بأعبائها وحدد طموحاته في أن يكون زعيماً لمائة مليون عربي ومئتين وأربعة وعشرين مليون أفريقي وأربعمائة مليون مسلم.

وعبدالناصر يدرس خطواته ويهيّئ لها. ففي أوائل هذا العام أنشأ في القاهرة إذاعة خاصة سماها (إذاعة صوت العرب من القاهرة) وانتقى لها طاقم تهريج إذاعي، وكتّاباً ماهرين ووضع لها برنامجاً واضحاً تذاع من خلاله خطبه إلى جانب أقوال حماسية تدعو إلى وحدة الصف العربي والانتقاض على الحكومات والدول التي تمشي في ركاب الإمبريالية والاستعمار وتنفذ خططها، وراحت تلك الإذاعة من المبدأ توزع اتهاماتها وهجماتها منسقة مع مواقف عبدالناصر الآنية وعلاقاته بها كلاً على حدة.

في ٢٣ تموز ١٩٥٤ لاح في جو المنطلقات الأيديولوجية المصرية الجديدة أول تَبَنٍّ رسمي لقضية العروبة. في هذا اليوم فاجأ سمعي خطبة بمناسبة الذكرى الثانية للثورة معلنة عن قيام عهد جديد من العلاقات مع العرب يقوم على الأخوة الصادقة والصراحة وأن هدف «مصر الثورة» هو أن يكون العرب امة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها بمواجهة الامپريالية والاستعمار ورفض الخضوع للأجنبي.

كانت هناك مقدمات حرب فلسطين حيث تم احتكاك الضباط بالمقاومة العربية الفلسطينية وبزعمائها ولم تكن لفظة العروبة والانتماء العروبي بالأمر الذي يحتاج إلى تمهيد كبير لتستسيغه الأذن المصرية، كانت هناك هجرات عربية عديدة عبر التاريخ وهناك قبائل مصرية تعتز بأصلها العروبي وتتمسك بتقاليدها العربية[1].

في (فلسفة الثورة) تحدث عبدالناصر عن الفتوح الإسلامية التي جاءت في أعقابها موجات من الهجرات العربية إلى مصر في القرون الوسطى، مثلما تحدث عن الغزوات اليونانية والرومانية لها مؤكداً في عين الوقت أن مصر لا يمكنها إغفال تاريخ الفراعنة مطلقاً.

وفي الخطب التي كان يلقيها في العام ١٩٥٤ دأب على التنويه بسعد زغلول وأحمد عرابي ومصطفى كامل وعمر مكرم ومحمد فريد ووصفهم بالآباء الروحيين لحركة الضباط الأحرار، وهؤلاء الخمسة لم يهتم أحد منهم بالقومية العربية.

وهو بمقارنته بالقومي العروبي صلاح الدين الصباغ أدق وأكثر تركيزاً منه على

أولئك الذين عدهم الضابط العراقي قادة ومرشدين روحيين له وهم عبدالكريم الريفي (المراكشي) وعبدالقادر الجزائري وأحمد عرابي وسعد زغلول وأبو درة (الفلسطيني) ويوسف العظمة والشريف الحسين بن علي والحاج أمين الحسيني.

لم يبق عبدالناصر وقتاً طويلاً حائراً بين اطّلاب الزعامات العربية والإسلامية والأفريقية فقد اهتدى بذكائه الوقاد وحسه التآمري المرهف - اللذين أمّنا له مركزاً لم ينازعه فيه أحد طوال ستة عشر عاماً - إلى حل واقعي، قضى على الإخوان المسلمين كحزب ينازعه السلطة إلا أنه ارتفع بالإسلامية وبمظاهر التقى وتحبيذ رجال الدين إلى حد التعصب الذي لم تر له مصر مثيلاً قط في أي عهد، ولا نستثني عصر الفاطميين. وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى ذلك التضييق والاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي للقبط المصريين وتفشت فيهم هجرات كادت تكون جماعية إلى أوروبا وأمريكا وهذا ما سيكون موضع بحث تال.

والانتمائية الأفريقية كانت عنده انتمائية إثنوغرافية لا شائبة فيها ولا انفكاك عنها فالعنصر العربي المتسرب إلى الدماء المصرية مهما بلغ حجمه والمبالغة فيه كان يذوب ويتمثل في العنصر «الحامي» المصري كلما صُبّ في قدره مقدار. إلا أنه توسل بالإسلامية لتوقل السلم العروبي قدر ما توسل بالتراث الحضاري للغة العرب، وكان يتفق في هذا التقرب الإسلامي مع كل من سبقه من زعماء القومية العربية ومفكريها.

ومن كليهما ممتزجين اتخذ نضاله ضد الوجود العسكري الاجنبي أي الاحتلال كما سماه عين الشكل الذي اتخذته دعوة صلاح الدين الصباغ مترابطين بالكره الشوفيني الأعمى لكل ما هو أجنبي، بالتعصب الديني الذي لا يقره الإسلام النقي.

ذلكم هو الرداء التقليدي الذي لبسه عبدالناصر عندما اهتدى إلى القومية العربية في وقت متأخر ولم يكن بالشيء الجديد.

يذكر هيكل مؤرخ الزعيم المصري ما نصه:

«لم يكن لعبدالناصر وزملائه أي مشروع سياسي عندما قاموا بثورتهم. ومن واجب الإنصاف للحقيقة والتاريخ يقتضي التسليم بأن جمال عبدالناصر لم يكن لديه حين قامت الثورة غير مضمون الشعار الذي لم يكن يردد غيره في تلك الأيام وهو شعار «العزة والكرامة». ومن التجني على الحقيقة والتاريخ أن يزعم أحد أن جمال عبدالناصر كان لديه في هذه الظروف منهاج كامل أو شبه كامل للعمل الوطني يشتمل على تغييرات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية محدودة، على أن نفس الواجب يفرض التسليم بأن

مضمون شعار «العزة والكرامة» ينطوي على إيماءات واضحة (كذا!) أولها إعادة السلطة إلى الشعب والثاني تخليص الوطن من سيطرة واستغلال الملك فاروق والإقطاع والاحتلال البريطاني».

ومما ظهر فيما بعد من زعيمه، صَعُبَ علينا قبول التفسير الذي أعطاه هيكل لشعار «العزة والكرامة» هذا، بل وجدنا فيه ايماءات واضحة على تأكيد فضل عبدالناصر وصحبه في القيام بالثورة ليس إلا لا يستبطن أي شيء مما عزاه هيكل إليه. كان صاحبه يستخدم العبارة في مناسبات بعيدة كثيراً عن تقدير هيكل للتدليل على فضله على المصريين ليس إلا[٢].

هكذا يصف (هيكل) اهتداء سيده إلى القومية العربية، ويعيّن ذلك بعد فترة من وصوله إلى السلطة المطلقة واعتباره رجل مصر الأول. في الواقع إن (هيكل) فشل في التحديد الزمني، وكان عبدالناصر أكثر ذكاءً وأبعد نظراً من مؤرخه هذا. ففي الوقت الذي يقرر مؤرخه ذلك بشكل عرضي نراه لا يجد ضرورة للبحث عن سر اهتمامه بالقضية العروبية أو الأرجح أنه كان كشأنه يفتقر إلى العمق والمقدرة على تحليل دوافع زعيمه ومحاولة الكشف عن سر اهتمامه، إلا أنه يعطينا مفتاحاً لذلك بقوله:

«انقلاب رابع في سورية قادته مجموعة من الضباط المتعاطفين مع حزب البعث. ولم يكن جمال عبدالناصر قد التقى بأحد من قادة حزب البعث بعد لكنه قرأ بعض مؤلفات زعيمه الأستاذ ميشيل عفلق واهتم بها، كما لفت نظره أن حزب البعث استطاع أن يجند بين صفوفه مجموعة ممتازة من الشباب العربي ظهر إسهامها الفكري والتنظيمي في العمل السياسي في كثير من البلدان العربية. . .».

إن سطحية هيكل وتبرمه من عملية الغوص في الأغوار وحرصه على الاستفادة المادية المتأتية من الحديث عن مآثر الرجل الذي «ملأ الدنيا وأشغل الناس» يوماً، لم يفلح في هتك الستر عن تعلق مثله الأعلى هذا بأهداب القومية العربية فجأة ومن دون سابق إنذار.

أدرك عبدالناصر القوة الكامنة الهائلة في تعبئةٍ قوميةٍ عروبية قد تكون أسهل منالاً لتحقيق طموحه السياسي اللامحدود من اطلاب الزعامة الأفريقية. وعرف أن رابطة اللغة والدين اللتين تشدان مصر إلى البلاد الناطقة بالعربية هما أقوى من رابطة العنصرية التي تشد مصر إلى أفريقيا، وأن زعامة العالم العربي باسم القومية العربية أضمن بكثير

من محاولة تزعّمه على أساس الدين واللغة والتاريخ، وأنه لأسهل على المصريين أن ينقلبوا إلى عرب من أن يتمسكوا بأهداف الحامية - الفرعونية - الأفريقية.

وفي سبيله هذا إمّا أنه وجد في النمط القومي لحزب البعث منافساً قوياً وإما أن قوميته لم تعجبه ككل رغم مشاركته في كثير من مفاهيمها، أو لعله ذلك الاعتزاز بالنفس: العزة والكرامة؟ والثقة بالقدرة على اختراع نمط جديد من القومية يتغلب فيه على النمط البعثي، وهو واحد من الأسباب الرئيسة التي كَرّهته من المبدأ في سلوك السبيل البعثي، بزعيمه وملهمه الروحي ومؤسسه عفلق الذي أبى بإصرار أن يتنازل عن الرئاسة فيه لأحد. ويضطرنا السياق إلى العودة إلى هيكل ثانية:

«وفي هذه الفترة (ربما يقصد السنة التي تولى عبدالناصر الحكم المطلق مباشرة) اطلع جمال عبدالناصر على كتابات المفكر القومي الكبير ساطع الحصري وانكب على قراءتها بشغف ثم طلب مجموعة مؤلفاته كاملة. وكان ساطع الحصري وقتها يتردد على القاهرة ما بين فترة وأخرى وكان في زيارته للقاهرة ينزل في فندق صغير هو فندق (لاجينه ڤور) في شارع (الانتكخانة) وفوجئ الأستاذ ساطع الحصري ذات صباح بدعوة للقاء جمال عبدالناصر وكانت الدعوة مفاجأة سعيدة فقد كان ساطع الحصري يؤمن بالدور المركزي للقاهرة في أي عمل قومي وفي نفس الوقت فإن اليأس كان يعتريه بعض الوقت في امكانية تنبه مصر إلى هويتها العربية وإلى دورها الكبير المنتظر في العمل القومي، وكان ساطع الحصري قد علق الكثير على ما ذكره جمال عبدالناصر في (فلسفة الثورة) عن الدائرة العربية واعتقد أنها بداية تنبه وكان رأيه أن العالم العربي بالنسبة إلى مصر هو أكثر من دائرة ضمن ثلاث دوائر العربية والإسلامية والأفريقية. وذهب ساطع الحصري إلى موعده مع جمال عبدالناصر وهو يحمل له مجموعة من مؤلفاته، وأدهشه أن يعرف أنّ جمال عبدالناصر قرأها جميعها. مع ذلك فهو سعيد بالحصول عليها بتوقيع كاتبها الكبير، وكانت المناقشات بين المفكر القومي العجوز وبين الثائر العربي المصري طويلة وممتعة»[٣].

ذكرنا أن قومية ساطع الحصري كانت على طرفي نقيض من القومية البعثية، وقد هاجمها بعنف وشدة، وهاجم فيلسوفها بنوع خاص ورأى في أفكاره منافساً خطيراً ينبغي القضاء عليه كيفما كان. لذلك حاول باستماتة أن يبيع من عبدالناصر آراءه في

العروبية، تارة بالكره الذي تحسسه فيه للبعث وتارة بعامل الاعتزاز الفردي (كما شرحنا) ملوحاً له ومشدداً بأن الزعامة العربية هي للقاهرة فحسب وليست لدمشق ولا لبغداد أعني أنها له شخصياً.

ساطع يهاجم البعث، والبعث يهاجمه إلى الحد الذي كان يحث على مقاطعة ما يكتبه علناً، وهو مطرود من العراق بسبب دوره في الحركة القومية وفي حركة رشيد عالي في ١٩٤١.

وهذه الحلقات الثلاث التي أشار إليها الحصري في حديثه هي في الواقع الصدى المحبب الحسن الوقع في آذان عبدالناصر فهي تكرار لما كتبه في (فلسفة الثورة):

«المصريون تحيط بهم ثلاث حلقات، يتوجب عليهم وهم ضمنها أن يركزوا نشاطهم ويوجهوه وهي بالترتيب الحلقات العربية والأفريقية والإسلامية».

ثم يتساءل: أيكون في وسعهم تجاهل الحلقة الأولى وهي جزء منهم وهم جزء منها وتاريخها هو تاريخ المصريين؟ ثم أيمكنهم في عين الوقت تجاهل القارة الأفريقية «وقد حكم القدر أن تكون مصر جزءاً منها، كما حكم القدر عليها أن تخوض نضالاً مريراً من أجل استقلالها. نضال ستكون نتيجته لنا أو علينا شئنا ذلك أو أبينا» أو بإمكانهم أيضاً أنْ يتجاهلوا وجود العالم الإسلامي الذي اتحدنا معه لا بالرابطة التي أحكمتها وحدة العقيدة بل بالرابطة القوية التي استحدثتها وقائع التاريخ.

أيديولوجية الحلقات الثلاث - والتحيز للاتجاه العروبي في القسم الأخير من (فلسفة الثورة) بالانتقال من الوطنية المصرية إلى القومية العروبية، ينبط بحسب تخريجه من مصادر عدة، ننوه باثنين منها: هما الإرادة لخلق قوة عظمى في المنطقة والكره العظيم لإسرائيل والصهيونية.

هذان المصدران وحدهما كانا كافيين للجمع بين الحصري وعبدالناصر أعني بين عبدالناصر وبين القومية العربية.

عبارة أخرى خرجت من فمه عفو الخاطر بعد أن طاشت الإطلاقات الست التي خرجت من مسدس الإخوانچي محمود عبداللطيف في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين من عصر يوم ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤ خرجت من دون تفكير مسبق كتلك التي أوردناها قبلاً:

«أيها الإخوة... إن الخلفاء الراشدين، الخلفاء الأوائل ماتوا كلهم شهداء في سبيل الله، وأنا أيضاً مستعد لتقبل الشهادة ألف مرة في سبيل الله ولمصر...

لو أني مت فكلكم جمال عبدالناصر».

في عين تلك الليلة ألقى هو وبعض زملائه من أعضاء مجلس القيادة على الجماهير خطباً تشير إلى أنّ نجاته إنما هي دليل على التقدم والنجاح الذي اختارته العناية الإلهية لمصر، تلك هي حلقة الدين للإسلام وللوطن المصري فحسب.

لم يكن الانتقال العملي إلى الأيديولوجية العربية انقلاباً، وقد اقتضت له مراحل رسمية: بدأت ديباجة الدستور المصري الصادر في حزيران ١٩٥٦ بعبارة «نحن الشعب المصري»، وأكدت مادته الأولى أن «مصر جمهورية ديمقراطية عربية مستقلة ذات سيادة، وأن الشعب المصري جزء من الأمة العربية». وجاء بعدها النص الذي لا بد منه: «الإسلام هو دين الدولة الرسمي».

استحدث عبدالناصر عضويته في العروبية لكن الأساس بقي «مصر». ويلاحظ أن المواد الباقية من الدستور لم تأت إلى ذكر عبارات لقومية عربية، ولا تنويه بوحدة أو تضامن عربيين.

في ذلك الزمن كان قد مر أكثر من خمس سنين على اختراق البعث الحدود السورية. وبرنامجه حول القومية فيه من الوضوح الكفاية، وهدفه في إنجاز الوحدة العربية لا مواربة فيه ولا مماراة، وكان على عبدالناصر فى المباراة أن يسبق البعث وأن لا يكتفي باللحاق به.

وهكذا كان، فبعد سنة واحدة، وعندما وجد عبدالناصر نفسه في العام ١٩٥٧ رئيساً للجمهورية وحاكماً مطلقاً لا حدود لسلطانه بدأ العمل جدياً للوحدة العربية لكنه كان أكثر واقعية فيها وأقل طموحاً من البعث. لسبب واحد: لأنها كانت عنده بمثابة مرقاة أو سلّم لسياسي ذي وزن عالمي، ففي رحلته السياسية العظمى التي تخللها فشل متلاحق وانتهت بوفاته محطماً كسير القلب، كان واقعياً ذا تجربة تزيد كثيراً على تجربة قادة البعث المستجدين الأغرار، فآفاقه العربية كانت في الحقيقة متواضعة سياسية صرفاً، أساء فهمها أنصاره في سورية والعراق وغيرها من البلدان الناطقة بالعربية، وعجزوا عن فهم حدودها ولجأوا في سبيلها إلى العنف وخوض بحار من الدماء تماماً كما فعل خصومهم البعثيون واضطر عبدالناصر إلى إسنادهم ومشايعتهم مرغماً وهذا واحد من أخطائه الجسام.

لم تكن نظرات عبدالناصر إلى القومية العروبية كنظرات ميشيل عفلق ولا كصديقه الحصري: نظام أيديولوجي خالص تبنى نظرياته من خلال مناقشات فكرية لمجموعة

من المتفلسفين والعلماء والمفكرين وتجرى في أروقة المعاهد أو قاعات الدراسة أو فوق المنصّات، بل كانت مجرد علامات طريق تم تثبيت ألواحها على طول طريق العمل السياسي الناصري ليس إلا. وهذا ما عرف فيما بعد بالناصرية واتباعه «بالناصريين» أو «بالقوميين الناصريين».

كان هناك علاقة طريق أرشدته وهدته إلى العروبية والوحدة العربية أكثر واقعية من النهج البعثي إليها وفي الفضاء الواسع لدائرة رابعة أكبر بكثير من الحلقات أو الدوائر الثلاث التي نوه هو بها.

ففي مفتتح النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت إلى الوجود فكرة «العالم الثالث» أعني إنشاء جبهة تشارك فيها تلك البلاد السائرة في سبيل التطوير، ومعظمها من البلاد التي كانت في يد الاستعمار أو مرتبطة بنفوذ أجنبي فنزعته وتخلصت منه، وبدت حريصة على استقلالها وسيادتها برغبة في تحاشي أي رباط يخل به سواء مع «الشرق» أو مع «الغرب».

جبهة ذات حَوْل وطَوْل جماعي دولي، وخصوصاً بإحرازها الأغلبية في الهيئة العامة للأمم المتحدة مما يمكنها من القيام بعمل دولي موحد، وقد أدرك عبدالناصر أنه سيكون فيها وعن طريقها قوة دولية يعتد بها لو تمكن من استخدام فكرة القومية العروبية تأكيداً لسلطانه وأداة لتوجيه سياسات الدول الناطقة بالعربية في مسرى سياسته لاسيما من أجل دعم مركز مصر الدولي.

* * *

في نظر القوميين العروبيين كانت الوحدة التي قامت بين سورية ومصر أعظم نصر حازته النسخة الناصرية من القومية، وتفوقت به على النسخ الأخرى منها في حين أنها كانت عملياً أعظم فشل للأيديولوجية العروبية البعثية، إلا أنها في عين الوقت لم تكن نصراً للناصرية في الواقع فقد برهنت بشكل لا مردّ له أن تلك القومية التي بنيت على فكرة الوحدة الشاملة لما سموه بالأمة العربية هي لا أكثر من حلم أفلاطوني لمجتمع عربي مثالي لم يسعده الحظ طول اكتنافه العقلية القومية تلك بزعيم أو قائد خلصت نياته وعمل لهذا وبإنكار ذات خالص، ليضمن على الأقل بقاء هذا الحلم عالقاً في الأذهان أو لينظر إليه بشيء من الجدية، لا يثير سخرية بقائله أو ازدراء بالمدافع عنه، سيما بعد أن قضى نحبه آخر الأنبياء وأقواهم وأبعدهم صيتاً فطواه الثرى مع حلمه ودعوته.

* * *

بعد إعلانه عن تبنّي قضية العروبة، وهدف مصر الثورة في أن تكون العرب أمة واحدة قادرة على الدفاع بوجه الإمبريالية والاستعمار تناولت إذاعة صوت العرب رأس الخيط وإذا بها تغدو بإدارة مذيعها الأول (أحمد سعيد) مدرسة قائمة بذاتها، يصول فيها هذا ويجول مثلما كان يفعل يونس بحري من إذاعة (حي العرب) من برلين أيام الحرب العظمى الأخيرة[٤]. وفي عين الوقت لجأ عبدالناصر تطبيقاً للسياسية التي فصلنا فيها إلى الضغوط السياسية على حكام الدول الناطقة بالعربية وقد خلفت والحق يقال تأثيرها على سياساتهم. بعض صمد لها وبعضهم استنام وقد ملكه الرعب. واستخدمت ساعات صوت العرب الأربع والعشرين استخداماً حاذقاً لممارسة تلك الضغوط فكانت تبتز وتهدد وتتوعد وتنذر الحكام بنشر فضائحهم صدقاً أو كذباً، وجاء عيدها الأكبر عند توقيع المعاهدة البريطانية - المصرية التي وضعت أمداً محدداً للجلاء التام عن القناة. راح صوت أحمد سعيد يلعلع في سماء البلاد الناطقة بالعربية، موجهاً إلى العراق بنوع خاص إذ كان حكامه قد انتظموا في سلك الناتو عند عقد حلف المعاهدة المركزية:

«أخي العربي في كل مكان في هذا اليوم كسرت مصر العربية آخر قيد من قيود الاستعمار والتبعية. مصر العربية حققت هذا الهدف خلال عامين فقط، استمع إليها وهي تقول لك، إنه ليس ممكناً الدخول في أحلاف إلا مع العرب... أخي المطأطئ الرأس في العراق... أخي العربي على حدود فلسطين، وفي الأردن وشمال أفريقيا، تذكر جيداً ما حصل في العامين الماضيين وعندئذ سترفع رأسك في عزة وكرامة... العراق يتحرر بتحرر مصر، والإمبرياليون سيرغمون على خطب ودك والسعي إلى صداقتك... ارفع رأسك عالياً... أخي لقد حقق إخوانك المصريون العرب نصراً عظيماً لك...»[٥].

في العام ١٩٥٥ بدا نوري السعيد العقبة الكبرى في وجه مشاريع عبدالناصر فانداح سخطه عليه لينصب على كل الحكام الذين أطلق عليهم صفة الرجعيين ووسمهم بميسم العمالة للأجنبي، وهم كل من يرى رأي نوري السعيد وينهج نهجه ومنهم كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية.

وعلينا ألاّ نغفل العامل الشخصي، عامل حفظ النفس والاحتفاظ بالسلطة فقد كان لهما دخلهما أيضاً، ولعاطفة الحب والبغض الشخصي دخلها أيضاً - كما يعلمنا التاريخ وتجاربه في رسم السياسات وصياغة أحداثها الكبرى: عبدالناصر المزهو بنفسه الحديث النعمة، ونوري السعيد السياسي الخرف ذو عقدة النقص البريطانية الذليلة!

هذا ما رآه أحدهما في الآخر. عند أول لقاءٍ أدرك السعيد لأول وهلة بأن هذا المصري بكل ما أبداه من كياسة وأدب وتواضع يريد ان يعلو ظهره للوصول إلى زعامة الأمة العربية فقرر من المبدأ أن لا يكون درجة من درجات السلم الذي سيرتقي به إلى هذا المقام.

لم يغضب عبدالناصر على صلاح سالم وعلى سذاجته بقدر غيظه لخسارة جولة سياسية أمام سياسي كان قد وضعه في أفضل الأحوال في مرتبة تلك الطائفة من الپاشوات المصريين الذين خضعوا للاحتلال الأجنبي، فقضى عليهم في يوليو بضربة واحدة كما تسحق قُشاشةٌ مجموعةً من الذباب.

وللحقيقة والتاريخ ورغم المعركة الإعلامية التي شنها عبدالناصر فيما بعد على نوري والطبقة الحاكمة العراقية التي يمثلها، لم يحاول في مبدأ الأمر الإطاحة بنوري بل حاول احتضانه ولف جناحيه عليه فكان أقصر وأضعف كثيراً من احتوائه.

بدأ عبدالناصر في اظهار عروبته بالادعاء بأن ارتباط أي دولة عربية بالغرب عن طريق حلف دفاعي قد يعرض حياد الجامعة العربية للخطر، فمن الواجب القومي عدم التورط في التزامات أجنبية، لتعطى الجامعة الفرصة من أجل توحيد صفوفها وتقوية مكانتها، وليحال بين الغرب وبين التدخل في شؤون الدول الناطقة بالعربية وليضربوها بعضها ببعض.

كان للسعيد كغيره من حكام العرب رأيه الخاص في الجامعة وفي جدواها منذ تأسيسها. كانت كما أشرنا فكرة بريطانية بحتة قصدت بريطانيا بها المحافظة على نفوذها القديم في البلاد الناطقة بالعربية، واتخذها فاروق فيما بعد مطية، وبدت للعالم العربي كله وبشكل واضح خلال الأعوام العشرة التالية من عمرها، وهي ممسحة للحذاء المصري، بوجودها في مصر وبأمينها العام المصري الذي يوكل إليه اختيار موظفيها وتوجيه سياستها وصياغة قراراتها لا نجد لها وصفاً أبرع من وصف الكاتب اللبناني الباقعة (منح الصلح) بعد مرور خمسين عاماً على قيامها:

«ذهبت أدراج الرياح، لا وحدة الأمة (العربية) فقط، بل جميع التنظيرات المعدلة التي كانت تطرح. ألا يسلم العربي بأي شكل من الأشكال بالفرقة، فحين يعجزون عن تكوين إدارة سياسية واحدة، يقيمون بدلاً منها جامعة دول عربية هي في الحقيقة مؤتمر دائم للحكومات العربية ليس إلا، وحين يعوزهم الهدف الواحد الجامع يكتفون (بوحدة الصف) وحين تعوزهم وحدة الصف

هذه يكتفون بالتخفيف عن الخصومات فيما بينهم تحت شعار التضامن (العربي) وقد جربوا خلال مسيرة الجامعة العربية وخصوصاً في الوقت الذي لم يكن يقودها رأي واحد سياسة سيروا سير أضعفكم وهي (السياسة) المنبثقة من آداب القوافل في الصحراء التي تقول إنه إذا كان ثمة شيخ عجوز أو طفل صغير أو جمل أعرج فإن القافلة كلها ينبغي أن تسير وفقاً لظروف الواحد منهم، ومع ذلك لم تستطع الجامعة العربية أن تحافظ على دور معقول من وجودها وفعاليتها، فهاجرت من مصر إلى تونس، ثم عادت منها إلى مصر وما تغير منها وفيها الشكل والروح»[٦].

لكن عبدالناصر أراد أن يجعل من الجامعة العربية سلاحاً ضد ما أسماه بالأحلاف الأجنبية بالأحرى، وأن يبعد التأثير البريطاني عنها بأي ثمن كان لئلا تستخدم وسيلة للبقاء العسكري في القناة[٧]، وتبعاً لذلك رفض سياسة نوري السعيد جملة وتفصيلاً في حالة صوابها وخطئها، في حالة نفعها أو ضررها، واعتبرها خطراً على الخط السياسي العام الذي انتهجه وضربة معول عنيفة موجهة إلى الدعاية التي يقوم عليها شعاره الجديد «تحقيق الوحدة العربية والاستقلال». وخبا نجم صلاح سالم ولفه ظلام الخمول حتى اخترمه الموت إثر نوبة قلبية ولحق به شقيقه جمال سالم فكان الثالث بين ضباط ٢٣ يوليو ممن استغنى عنهم عبدالناصر.

وبقي عراق نوري السعيد وصحبه العروبيون المخضرمون ضباط الثورة الحجازية شوكة في خاصرة عبدالناصر طوال سنتين أخريين حتى هبطت عليه أزمة السويس والعدوان الثلاثي هبة من السماء فخلالها أحدثت سياسة نوري خللاً عظيماً في خطط الزعيم المصري، وجاء العام ١٩٥٦ تمحو آثاره الخيبة العظمى التي مني بها في مؤتمر القاهرة المنعقد في ٢٢ من كانون الثاني ١٩٥٥ بهدف إقامة جبهة عربية ضد العراق إثر دخوله عضواً في حلف المعاهدة المركزية. مؤتمر الجامعة هذا عزز موقف العراق بصورة لم يتوقعها لا الذي دعا إليه ولا الذي خاف عقباه[٨].

ليس من أغراض هذا الكتاب شرح العلل والأسباب التي استند إليها عبدالناصر ولا وصف الجهود اليائسة التي بذلها. دفع بصبر وإصرار المزاعم والعلل التي عرضها خصومه دون جدوى، وخسر لأنه لم يكن لديه في ذلك الحين سياسة بديلة بناءة يستطيع تقويمها. وكل ما عرضه من حجج ودفاع لم ينجح إلا في كسب السعوديين واليمنيين، ولم يحظ أي مقترح من مقترحاته بإجماع. بالأخير صرّح وقد تملّكه قنوط:

«إني اقترح إلغاء ميثاق التضامن الأمني الخاص بالجامعة العربية ولتكن الجامعة مجرد منظمة للتعاون الثقافي فحسب».

ويعلق أنتوني نتنگ على هذا بقوله: «كانت هذه مجرد حركة مرسح أكثر منها اقتراحاً جدياً»[٩].

كانت التجربة الأولى لهذا السياسي المستجد صدمة أليمة غير متوقعة لزورقه الذي يخوض عباب تيارات البلاد الناطقة بالعربية. وهي تيارات عاصفة سريعة التحول بأسوأ الفروض ورغم معرفته بالخيوط التي تشد حكامها بالغرب. كان هذا الزعيم الشاب يتوقع على الأقل أن يبدي المجتمعون استعداداً للقيام بتجربة إرغام الغرب على التعامل معهم جميعاً، وكقوة متحدة متراصة بكل ما يملكون من ثروات طبيعية ومواقع ستراتيجية وزاد من حنقه وخيبته أنه لم يجد بينهم من يشاركه الرؤية في أهمية بناء صرح للجامعة العربية يصلح ليكون أداة سياسية فعالة قادرة على التفاوض وفرض الشروط نيابة عن الجميع من موقع قوة، كما استاء كثيراً وهو يراهم يكثرون من الثرثرة حول العروبة والوحدة العربية مثلما يهرف النائم وهو في حلم لذيذ.

لا ندري كم كانت سيطرة مصر السابقة على هذه الهيئة ومسؤوليتها عن وضع الجامعة البائس مثلما نجهل كم كان عبدالناصر يدرك بأن دول الجامعة تعي بدرجة كافية بأنه ينوي فوق كل شيء أن يمتطيها ويستخدمها ويستخدم الدول العضوة معها لمنفعته.

ومهما يكن من أمر فهذه التجربة الكبرى كانت ذات آثار مهلكة وخطيرة، فقد أدرك عبدالناصر منها أنه لا يمكن أن يفرض رأيه على حكام البلاد الناطقة بالعربية، وأن عليه أن يلجأ إلى خططه التآمرية، تلك التي ضمنت له النجاح وأمنت له السلطة المطلقة، ومكنته من القضاء على خصومه في مصر.

الخطة الجديدة: استعداء الشعوب على حكامها واستغلال المعارضة في الداخل، بشعارات القومية العروبية والخطر الإمپريالي على الوحدة.

راح يناشد تلك الشعوب للعمل على التخلص من حكامها الفاسدين صنائع الغرب، وأطلق إذاعة صوت العرب لتهاجم السعيد وشمعون ونظام الحكم السوري بعنف لم يسبق له نظير في تاريخ العلاقات العربية ومشاحناتها؛ دعت العراقيين والسوريين واللبنانيين إلى الثورة على حكامهم الخونة الذين يريدون تسليم مقدراتهم ومستقبلهم للإمپريالية والمستعمرين الذين يدأبون على السير في عين الخطوط الرهيبة الرامية إلى العودة بالعرب المسلمين إلى عصور الجاهلية عن طريق السيطرة السياسية

والعسكرية وتكبيلهم بقيود «التبعية» وباستخدام إسرائيل رأس جسر بالتعاون مع «العملاء» المحليين أمثال السعيد وكميل شمعون والخوري وخالد العظم. ونال الملك حسين وقائده كلوب على الأخص هجوماً مقذعاً صاخباً بوصفهما عميلين أصيلين للامپريالية يستغل ثانيهما منصبه كقائد للجيش الأردني لخدمة المصالح البريطانية لا غير، وقد أثرت هذه على الملك الشاب وهزت أعصاباً فيه تعوزها التجارب فلم يصمد لها وبادر فجأة بعزل (كلوب) وأمره بمغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة.

ووقعت حادثة زادت في الحملة الإعلامية سعاراً واستخدمها عبدالناصر إلى أبعد حد. في ٢٤ شباط ١٩٥٥ تم التوقيع على حلف المعاهدة المركزية ولم يدخل في حساب نوري السعيد أن إسرائيل ستقوم بعد أربعة أيام فقط من هذا التاريخ بهجوم محدود النطاق على الجيش المصري في قطاع غزة مخترقة خطوط الهدنة بهدف تدمير مقر الجيش. ونحن لا ندري أكان عبدالناصر يعتقد فعلاً بأن تزامن التوقيع على حلف بغداد والهجوم في قطاع غزة إنما هو جزء من مخطط غربي مدبر للقضاء عليه وعلى ثورته واعادة الإمپريالية إلى البلاد العربية؟ أم أنه استغل الحادث في مطابخه الإعلامية ليبدو كذلك للرأي العام العروبي؟

في ذلك الحين كانت المصادفة لقية ثمينة وصدقها القوميون العرب ونزلت عندهم منزلة المسلمات[١٠] في ذلك الحين وبالوصف الذي نالته هذه الوقعة الصغيرة من إذاعة صوت العرب والصحف المصرية وتلك الموالية في الأقطار الأخرى، لو حَلَفْتَ له بالثَّقَلين ولو جاءت ملائكة السماء بقيادة جبريل ليقول لهم إن الإسرائيليين مثلهم ومثل غيرهم من الناس يقعون أحياناً ضحايا خطأ وتهور وسوء تقدير ويقدمون على تصرفات هوجاء خالية من الحكمة، فيفرغ صبرهم أحياناً ويبدو نفاد الصبر بشكل اعتداءات وانفجارات حمقاء، وهذه واحدة منها ليس إلا لما صدّقوا. إن حماسة عبدالناصر لضم الرأي العام العروبي إلى صفه وجعله تحت رعايته ورهن إشارته، وحرصه على أن يبدو أشد المدافعين عن الحق العربي في فلسطين أنساه بأن الغارات المتتالية التي كان يشنها الفلسطينيون من قطاع غزة على المستوطنات الإسرائيلية بأسلحة الجيش المصري المرابط وأحياناً بمشاركة وحدات من الجيش المصري وكذلك سياسة التطويق الظاهرية التي اتبعها بطرحه شعار «وحدة الصف العربي» ترجمت خطأ من قبل دعاة الحرب الإسرائيليين الذين حملوا خلال السنوات العشر المنصرمة شعار «وراء كل صخرة عربي مسلح يتربص بهم».

يعاني البشر تجارب معينة وانقلابات فكرية دورية متطرفة، وهم في حالة استغراق وتأمل وجدانية في غرف مغلقة الأبواب لا يستطيع أحد اقتحامها عليهم وقصارى ما يمكن عمله في هذه الحالة أن نقف لنحدس ونعلل ونستنتج عندما تفتح الأبواب - وكثيراً ما نخطئ وكثيراً ما نصيب.

في كانون الأول من العام ١٩٥٥ كتب عبدالناصر لمجلة الشؤون الخارجية الأمريكية Foreign Affairs:

«لا مكان للحرب في السياسة البناءة التي وضعناها لتحسين أحوال شعبنا الحرب تجعلنا نخسر ولا تناسب الكثير مما نسعى إلى تحقيقه».

ويؤيد (نتنگك) هذا بشكل أوضح:

«كان عبدالناصر على استعداد لترك إسرائيل تتمتع بكل مزايا التعايش السلمي دون الاعتراف بها رسمياً، بالإضافة إلى استعداده لوضع القضية العربية ضد إسرائيل في ثلاجة بحسب تعبيره هو»[١١].

كان طبيعياً أن يعطف على الفلسطينيين بوصفه الحالي الداعية الأكبر للوحدة العربية الشاملة، وأن يخرج لكل المهتمين بها مرتدياً كفن الشهادة، ناذراً نفسه للجهاد في سبيل رد حقوقهم المشروعة، إلا أن الدافع الكامن وراء كل هذا المظهر كان المرارة والغيظ اللذين لازماه منذ الهزيمة المهينة التي حلت بالجيوش العربية في ١٩٤٩ ضد أولئك الذين أرسلوا جنودهم إلى المعركة ليموتوا فحسب[١٢] بدون تخطيط وتنسيق مسبق.

لو صح الحكم على ما يستجد من الأفعال على ضوء النوايا قديمها أو حديثها لما كان بوسعنا قط أن نحيل أحداً إلى محكمة التاريخ فيدان ويعاقب، أو يبرأ فيطلق بإحسان واعتذار.

بدأ عبدالناصر حياته السياسية بالتآمر وصنع ما يعده المؤرخون ثورة تقدمها انقلاب عسكري في سبيل مصر والمصريين. ثم مالبث أن حمل لواء العروبة ونهض بأعباء الوحدة التي تدعو إليها، وتسبب من أجل ذلك في سفك دماء عربية وغير عربية كثيرة والقضاء على منافسيه وخصومه فيها طوال حياته، فكم كنت تراه مستعداً لتنازل مصري وطني في سبيل المذهب العروبي الذي اعتنقه؟ كم كان مستعداً لوضع مصلحة القومية العربية الخالصة ومستعداً لقبول زعامة قومية أخرى والعمل معها جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة للوصول إلى هذا الهدف.

وهناك بالأخير تساؤل أصغر وأقل شأناً بكثير من هذه التساؤلات. كم كانت

عسكرية عبدالناصر مستعدة للخضوع والاستسلام للثياب المدنية التي ارتداها بعد انتخابه رئيساً للجمهورية؟

لم يفطن أحد من الكتاب والمؤرخين إلى أن السياسة البريطانية ازاء مصر ٢٣ يوليو كانت من جملة الأسباب التي دعت إلى تبني عبدالناصر القومية العربية وأن البريطانيين هم الذين اجتذبوه إلى الفضاء الأوسع من مصر أي العالم الناطق بالعربية. يذكر سر همفري تريڤيليان:

«في هذا الوقت (آب ١٩٥٥) كانت مسألة مصر واحدة من أعقد المشاكل في السياسة البريطانية، وكان من الصعوبة بمكان على أي وزير خارجية التعامل مع العلاقات المصرية بموضوعية وإيجابية عندما يعرّضه كل قرار بخصوصها إلى هجوم من هذه الجهة أو تلك، فعند أي إجراء قد يبدو فيه المُقْدِم عليه صديقاً لمصر أو مستجيباً لمطالبها يسبب صورة كاريكاتورية تمثل عبدالناصر الظافر وهو يعلو بجزمته ذات المسامير الضخمة جسم وزير الخارجية البريطاني المرتعب والمنكمش، ولو اتخذ موقفاً صلباً من تلك المطالب فإنه سيجد من الصعب أن يترجمه إلى الواقع ذي التأثير، بكل القطيع الدولي ضده. وللفرد الإنكليزي العادي بدت مصر رمزاً لانحلال الإمبراطورية البريطانية وإن لم تكن في أي وقت من الأوقات جزءاً منها والشعور بالعقم والخيبة - وهو شعور طبيعي تلقائي في فترة التحول هذا - وجد منطلقه في الهجوم العنيف على أي وزير بريطاني يمكن أن يصور للعامة بأنه ضعيف أمام عبدالناصر. كانت أشباح العام ١٩٣٨ تخيم تماماً على الحكومة وتهمة تهدئة الدكتاتور والتنازلات له تنطوي على أعظم الخطورة للسمعة والمستقبل السياسي»[١٤].

صورت (صوت العرب) للعرب حلف بغداد بمثابة محاولة تسلل بريطاني ثانية إلى البلاد الناطقة بالعربية بعد إرغامها على الجلاء عن مصر بموجب اتفاقية الجلاء التي عقدت في تشرين الأول ١٩٥٤[١٥] ولم يفكر أحد في حينه أن من الشروط التي تضمنتها الاتفاقية ما يجعلها في مستوى شروط حلف بغداد، فقد جاء فيها ذلك الشرط «المخيف» الذي يخول بريطانيا الحق في العودة إلى احتلال القناة في حالة قيام قوى خارجية بهجوم على أية دولة عربية أخرى أو على تركيا.

إذن فضمان التسلل البريطاني كان واقعاً مصرياً قبل أن يؤكده حلف بغداد بسنة

واحدة على الأقل، ولم يفطن أحد بل لم يجرؤ قلم حر شجاع على التصدي للحقيقة، سكت العارفون القوميون لأن سكوتهم خدمة قومية وسكت اللاقوميون خشية وصمهم بالعمالة والدفاع عن مصالح الأجنبي، بل خوفاً من الاعتقال.

اللهم غفرانك فأنا لا أدافع عن حلف المعاهدة المركزية ولا عن سمعة نوري السعيد إلا أن عبدالناصر وحكومته وصفا اتفاق الجلاء بأنه:

«أعظم إنجاز حققته مصر لأمانيها الوطنية. نحن نريد أن نتخلص من الحقد في قلوبنا ونبدأ في بناء علاقاتنا مع بريطانيا على أسس ثابتة من الثقة والإخلاص التي امتدت خلال السبعين عاماً المنصرمة».

ذلك ما علق عليه عبدالناصر بالمناسبة من خلال إحدى خطبه.

من فترة عقد الاتفاقات الدولية ضد الاتحاد السوفياتي، حاولت بريطانيا عبثاً جر مصر إلى حلف الأطلنطي وحلف المعاهدة المركزية، وربما كان عبدالناصر في رفضه يشعر بالندم وثقل جريمة اتفاقية الجلاء وهي صفقة مساومة مجردة قد كان سينبو عنها ذوق (الوفد) لو عرضتها عليه بريطانيا بالتأكيد، فقد كانت هناك جبهة معارضة في حين قضى عبدالناصر على المعارضة.

ولذلك كان في رد فعله فظاً عنيفاً عندما تخطاه نوري السعيد فعقد صفقة الحلف وارتبط بالناتو تبعاً، شعر بالتأكيد أن الغرب نبذه بنقل بؤرة القوة من القاهرة إلى بغداد، بجعل العراق دريئة محتقراً مصر بشخصه، مرتفعاً بالعراق بشخص نوري السعيد الذي بدا وهو يدور بالحلف على الدول الناطقة بالعربية بائعاً فكأنه هو المتحكم بمصائرها[١٦].

وفي الوقت الذي كان الغرب لا ينظر إلى الحلف أكثر من كونه اتفاقاً دفاعياً ضد الاتحاد السوفياتي، رآه عبدالناصر بمنظار المصير العربي. أي دولة عربية ستضم إليه؟ وأي دولة ستحذو حذو مصر؟ وانساق ولم يشعر إلا وشبكة العروبة الكثيرة العقد تكتنفه، دخلها من بابها السياسي البحت لا من بابها المبدئي أو العقائدي كقسطنطين زريق وساطع الحصري وعفلق والأرسوزي فبقدر ما كانت القومية تكفل له زعامة الدول الناطقة بالعربية التي قال: قد وعدت ببطل يبحث له عن دور في مرسح خال. فإن نجاحه في هذا المعترك كان يرمي بالدرجة الأولى إلى لعب الورقة الدولية في مجال العلاقات الدولية لتعزيز مكانة مصر بوصفها قوة يحسب لها الحساب في متغيرات الشرق الأوسط السياسي.

«إن سجلات التاريخ تحفل بأسماء أبطال، حازوا لأنفسهم أدواراً بطولية عظيمة لعبوها في مناسبات خطيرة على خشبة المسرح، لست أدري لماذا أتصور دائماً وفي المنطقة التي نعيش فيها وجود دور يتجول هنا وهناك باحثاً عن بطل يقوم بتمثيل ذلك الدور. لماذا وجب أن يستقر هذا الدور بالأخير على حدودنا متعباً منهك القوى ليطالبنا بالحركة، يطالبنا بأن نتقمصه، أن نقوم بتمثيله عندما لا يوجد هناك من قادر عليه»[١٧].

يحفل كتاب (كفاحي) بأمثال هذه الأفكار والعبارات، فهتلر فيه هو رجل القدر الذي يصر على الإحساس العميق برسالته لقومه وللعالم:

«من ملايين الرجال رجل واحد يبرز إلى الامام ليبني بالعزم والقوة مبادئ من مثل العالم المتخاذلة لأوسع الجماهير. من الضروري وجود مؤثر ما يدفع هذا البطل العبقري إلى خشبة المسرح، ان شرارة العبقرية هي دفاع البطل الخلاق، ظلت كامنة فيه منذ ساعة ميلاده. والبطل العبقري الأصيل هو عبقري بالفطرة ولا تأتيه العبقرية بالعلم والتثقيف. الرجل العظيم صانع التاريخ هو مزيج من السياسي الواقعي ومن المفكر ويتفق في فترة من فترات التاريخ أن يقوم بدور تندمج فيه شخصية السياسي بشخصية المفكر، وكلما ازداد اندماجهما عمقاً كثرت العقبات»[١٨].

قد يمكن اعتبار هاتين الانطلاقتين الفكريتين لرجل الأقدار الغربي والشرقي من قبيل توارد الخواطر لولا مسيرة عبدالناصر القومية (المصرية بالأول والعربية بالتالي) واحتقاره للديمقراطية وتفضيل حكم الحزب الواحد والزعامة الفردية عليها، إلى جانب الأساليب العنيفة التي اتبعت في القضاء على الخصوم واضطهاد الأقليات الدينية حتى بأخذ عاملي الزمان والمكان وروح العصر.

كان العالم عند وصول عبدالناصر إلى الحكم قد اطلع بأكثر من الكفاية على جرائم النازية والفاشية وأطل إطلالة واضحة على فظائع الستالينية المريعة، كان من الجنون أو الخوف أن يخص سياسي واحد بكلمة إعجاب أو ثناء «للوغدين» الكبيرين اللذين أنجبتهما البشرية في ليلة ظلماء.

لأول مرة في تاريخ البلاد الناطقة بالعربية تبنى نظام من نظمها أساليب وإجراءات قمع مستمرة ثابتة بأجهزة خاصة مدربة لتطبيقها. وفي العام ١٩٥٦ بدت مصر دولة بوليسية بكل ما يدل عليه هذا الوصف. الصحف الكبرى تؤمم وتوضع تحت أشراف

الدولة مباشرة. إخضاع الصحف غير المؤممة للرقابة العسكرية، الإنصات على أجهزة التلفون والمكالمات والبرقيات، وضع أجهزة استراق السمع في المحلات العامة والخاصة[١٩] تفتيش غرف الضيوف، زج الخصوم السياسيين في المعتقلات الصحراوية البعيدة عن العمران، القبض والتفتيش الاعتباطي غير القانوني والسجن دون محاكمة، التعذيب المنظم كوسيلة قانونية لانتزاع الاعترافات، المحاكم الاستثنائية والعسكرية باسم محكمة الشعب أو محكمة الثورة، إخضاع الجمعيات المهنية والنقابات للدولة، إخضاع الكِتاب قبل الطبع للرقابة، رقابة المطبوعات الخارجية[٢٠] الشديدة، الحجر على حرية السفر والتنقل، اختفاء الناس من منازلهم، مصادرة الأموال واحتجازها. وقد بات ذلك سُنّة اتبعها القوميون أثناء ممارستهم السلطة في سورية والعراق. ذلكم هو البديل الذي اختاره القوميون للديمقراطية في مصر ثم في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية.

* * *

هذا الرجل اعتلى المرسح القومي العربي رسمياً رغم ملامحه المصرية الصميمة[٢١] وتأكيده طوال السنوات الأربع الماضية على تلك المصرية بإعلانه في دستور العام ١٩٥٦ بأن مصر دولة عربية إسلامية تتبع نظام حكم الحزب الواحد.

ومن دلائل سبقت خلال هذه الفترة وانتهت بهذا الإعلان أدرك القبط المصريون أنهم مقبلون على فترة غامضة من تاريخ مصر الديني، فقد نظروا دوماً إلى أنفسهم بأنهم المصريون الحقيقيون الأصلاء المنحدرون رأساً من العنصر الفرعوني، عصمهم تمسكهم بديانتهم من التزاوج والاختلاط بالأقوام الوافدة والمهاجرة وفي مقدمتهم العرب والبربر واليونان والسوريون.

نبذت مصر الوثنية تماماً وتحولت إلى المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٢٤-٣٣٧) وبدأ تحولها إلى الإسلام منذ أيام بني أمية. إلا أن هذا التحول كان بطيئاً، واقتضى له ستة قرون تقريباً ليستظهر الإسلام وليكون صاحب الأغلبية الساحقة، ولم يكن حجم الهجرات كبيراً وقد انصهر القادمون هؤلاء في البوتقة المصرية العامة، ولذلك وجد مجتمع مصري خالص لا يمكن التفريق من خلاله وخلال الممارسات والتقاليد المشتركة بين من هو المسيحي ومن هو المسلم فيه.

ويقر أبو سيف يوسف بهذا الواقع (وهو من الكتاب المحدثين):

«إن الإسلام انتشر في مصر في بيئة طبيعية وجغرافية لم يطرأ عليها تغيير أيضاً بعد مجيء العرب إلى مصر، كما تعاملت الهجرات العربية مع تركيبة اقتصادية

- اجتماعية، تميز عدد من عناصرها المادية والأيديولوجية بقدر من الثبات الملحوظ، في الوقت نفسه فإن الإثنية العربية الوافدة إلى مصر كان أبرز قسماتها ثقافياً في المحل الأول وفي مقدمتها اللغة العربية والدين الإسلامي، لكننا نعلم أن هذه القسمات لم تستقر نهائياً وتغلب وفقاً لتخطيط مسبق أو بوتائر متساوية. . . وفي المجتمع المصري الذي احتفظ بقدر كبير من المدونات الثقافية الدينية السابقة على الإسلام كان (للدين الشعبي) سيطرة واضحة. وفي إطار مكونات هذا الدين وعلى امتداد قرون عديدة كان يتشابه ويتقارب إلى حد كبير، بل ويتطابق العديد من الممارسات اليومية للمسلمين والقبط»[٢٢].

وللقبط لغتهم الخاصة، وهي لغة الفراعنة المصريين المتطورة بدخول كثير من المفردات اليونانية عليها ونبذها الكتابة الهيروغليفية إلى الأبجدية اليونانية في عهد البطالمة، راحت تخلي السبيل للغة العرب تدريجاً، طبقاً لنظرية تنازع البقاء وبقاء الأصلح. لم يكن بإمكانها أمام سهولة اللغة الجديدة بمقابل تعقيدها أن تصمد طويلاً، كما أنها كانت لغة الحكام والبورقراطية، ظل القبط الريفيون يتكلمون بها بلهجاتها المحلية في تعاملهم البيتي، حتى انقرضت وبطل استعمالها في أواسط القرن التاسع عشر وانزوت في الكنائس والأديرة بوصفها لغة طقوس الكنيسة القبطية[٢٣].

القبط هم مجموعة مسيحية في البلاد الناطقة بالعربية، وقد يبلغ عددهم اليوم ستة ملايين، بواقع نسبتهم الثابتة في كل تعداد أو تخمين سكاني للشعب المصري وهي ١٠٪ وهم ينتشرون على طول وادي النيل وينقسمون قسمة تكاد تكون متساوية بين الريف والحضر وأعظم تركز لهم في القاهرة ومصر العليا (الجنوب) في المنيا، وهم يفخرون ولا أحد ينازعهم في هذا بكونهم المصريين الأصلاء الحقيقيين لأن دينهم حال دون الاختلاط العنصري.

* * *

خلافاً للمغول والتتر حافظ مماليك مصر على التراث العربي بشكل ما وبسبب لجوء أفواج من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والفنانين والحرفيين المهرة إلى مصر هرباً من اضطهاد الحكام الأجانب في وادي الرافدين وفي جزء من سورية، حيث وجدوا الحماية والرعاية من دولة الفاطميين أولاً ثم المماليك بعدهم، وازدهرت اللغة العربية التي كانت لغة الدواوين ولغة البورقراطية عموماً[٢٤] وباستثناء حوادث قليلة

رويت عن اضطهادات ومضايقات تعرض القبط لها مع الأقلية اليهودية الصغيرة فقلما كان حكام هذين العهدين يتدخلون في حياتهم ماداموا يدفعون ضرائبهم ويقومون بأعمال السخرة في الأوقات التي تطلب منهم أسوة بغيرهم من المصريين حتى أن الحروب الصليبية التي غزت مصر في عقر دارها[٢٥] لم تنجح في إثارة روح عداء أو كراهية أو إذكاء نار خصومة. إلا أن الوضع طرأ عليه تغيير متدرج ليحل التضييق محل الإغضاء والسماحة، والشك محل الثقة، سيما حين كانت الأنباء ترد من الشرق عما كان يتعرض له المسلمون من أذى على يد الوحدات العسكرية التي ألّفها التتر والمغول من المسيحيين الجيورجيين والأرمن قد يبلغ أحياناً حد القتل والنهب. وبسبب ما عرف عن المغول والتتر (قبل دخولهم الإسلام وبأول غزواتهم لبلاد الرافدين) من محاباة للمسيحيين واستخلاصهم من المذابح التي كانوا يوقعونها بالمسلمين[٢٦].

وبمرور الزمن بدأت تظهر آثار ذلك في بعض المؤلفات الدينية والفقهية[٢٧] التي كانت تتقصد إثارة عامة المسلمين عليهم وعلى ممارساتهم. وتأجيج غضبهم واتهامهم بالكثير وباختراع أساليب محقرة للشخصية للتضييق. ففي فترات كثيرة كان يؤمر القبط بوضع شارة خاصة على ثيابهم لتميزهم عن المسلمين أو أن يرتدوا زياً خاصاً أو أن يمنعوا من حمل سلاح أو ركوب خيل، وكثيراً ما صدرت أوامر تقضي بعدم بناء أماكن عبادة أو إصلاح المتهدم منها إلا بإجازة وأن لا تعلو بنايتها حال السماح على المساجد والجوامع.

مع ذلك كله فقد أمنت المجتمعات القبطية ولقيت الحماية الكافية. وفي زمن الأسرة الحاكمة المتأخرة كان الأنبا (البطريرك) يحتل مركزاً له نفوذ ويحظى باحترام كبير مثلما تمتع أمثاله من رؤساء المذاهب المسيحية في ديار الإسلام سيما في حرية وسلطة تطبيق شرائعهم الخاصة على معاهدهم الدينية وعلى محاكمهم الشخصية لفض النزاعات المتعلقة بقوانينهم.

كثيراً ما سلطت أسباب النقمة على المركز الذي تحتله المرأة في المجتمع القبطي. والحرية التي اعتادها لها القبط والمسيحيون عامة، عندما أخذ الميزان الديني في القرون التالية لحكم الأمويين يتغير لصالح الإسلام وفقدت الأغلبية المسيحية موقعها في الهلال الخصيب فنشأ التنطع الديني بظهور المذاهب الإسلامية وفقهها. وانصب الهجوم في مصر بصورة خاصة على الحرية التي تتمتع بها المرأة وهي حرية تقليدية ورثها القبط عن أجدادهم الفراعنة.

ويظهر أيضاً أن النقمة على القبط كان مبعثها الحقد والحسد وكثيراً ما يتخذ أبعاداً عامة تؤدي إلى مشاحنات واضطرابات. ويسجل تاريخ القبط في مناسبات كهذه أن إشعال النار في أماكن العبادة كان متبادلاً. والقبط كالمسلمين يلجأون إلى هذا أيضاً ويؤجج علماء الدين هذه النار بكتاباتهم واستعداءاتهم بكل أساليب التحريض، فيضطر الحكام المماليك إلى طرد القبط من الوظائف العامة وسحب امتيازاتهم والتضييق على حرياتهم. ويسجل لنا تاريخ المماليك تسع مناسبات على الأقل متماثلة بين الأعوام ١٢٧٩ و١٤٤٧، من ذلك أنه صدر في العام ١٣٠١ أمر باغلاق جميع كنائس النصارى. في تلك المناسبات يعتقد المؤرخون بأن عدداً كبيراً من القبط نبذوا ديانتهم واعتنقوا الإسلام ومما لا يشك هؤلاء فيه هو أن النسبة العددية الإسلامية في مصر ما رجحت لتصل إلى ما بلغته الآن الا في أواخر عهد المماليك أي في نهاية القرن الخامس عشر(٢٨).

ولا يقرّ المرجع الذي نوهنا به ولا القبط عامة بهذا الإحصاء فهو عندهم شبيه بغيره من الإحصاءات الدعائية المكذوبة التي كانت حكومة عبدالناصر تضطلع بها في نواح عديدة اقتصادية ومالية وصناعية لتبرهن على التقدم الذي حققته ثورة يوليو. بعضهم يعزو الرقم الرسمي هذا إلى الرغبة الرسمية في المحافظة على صورة مصر العربية زعيمة العرب والمسلمين والميل تبعاً لذلك إلى تقليل عدد الأقلية المسيحية فيها قدر الإمكان. وليوضع في الحسبان أيضاً تردد كثير من قبط مصر العليا والريف في تسجيل أنفسهم أقباطاً وإحجام عدد آخر يسكنون مناطق إسلامية بحتة حيث يكونون موضع شك ومقاطعة حكومية وشعبية فتراهم يؤثرون (التقية) أي عدم التصريح بمسيحيتهم عندما يسألهم موظف الإحصاء عن دينهم ويذكر (برتن) هذا:

«من يقرأ صحيفة الأهرام المصرية الرئيسة خلال فترة متتابعة من الأيام لا بد سيلاحظ العدد الكبير من القبط المتوفين الذين كانت الجريدة تنشر خبر وفاتهم في حقل الوفيات. وكثيراً ما تعلن أغلبية منها عن هذه الوفيات. وفي الوقت الذي يتوقع من مجمتع مسيحي متقدم ثقافياً وواعٍ اجتماعياً أن يكون ميالاً للقيام بمجهود إعلان الوفيات من أفراده علينا أن نلاحظ بأن كل المتوفين القبط الذين نشر خبر نعيهم بالأسماء ينحدرون من أسر غنية معروفة أو ذات مكانة في المجتمع وهناك عدد قليل منها نشرت صورة المتوفى وهو بالجلابية (اللباس الريفي المصري الشائع) لأفقر الفلاحين وكما ذكر لي مؤلف قبطي

بارز هو الآن مواطن أمريكي منذ أواخر العام ١٩٦٦ : «عندما لا يخشى القبطي تهديداً بالتمييز الديني لا تتردد أسرته في الإعلان عن مسيحيته»[٢٩].

وليس بعد الموت ما يخشى طبعاً. في عهد محمد علي وخلفائه ساهم القبط في الحياة السياسية العامة لاسيما خلال العهود الملكية الثلاثة الأخيرة. وناضلوا قبل الاستقلال مع سائر المصريين من أجل إنهاء الحماية الأجنبية. وقد كتب في ذلك أكثر من الكثير. واعترف لهم الكتاب المصريون المسلمون بهذا وسلموا لهم بالأصالة المصرية :

«يوضح تدقيق النظر في دور الأقباط في التاريخ السياسي لمصر الحديثة أنهم لعبوا دوراً محسوباً في المجتمع واهتموا بالتجانس السياسي والانصهار الكامل في الحياة السياسية ولم تختلف أفكارهم وآمالهم عن أفكار وآمال بقية المصريين، كما كانت ظروفهم الاجتماعية تتحدد وفقاً لنزعة الحاكم وميوله. فعندما كان الحكام يحسنون معاملتهم ويتميزون بالسماحة تجاه معتقداتهم كان الأقباط يقومون بدور فعال اجتماعياً وسياسياً ولكن حين كان الحكام خلاف ذلك في بعض مراحل تاريخ مصر الإسلامية كان الأقباط ينسحبون من الحياة العامة ويتحولون إلى طائفة منكمشة ويصبحون سلبيين على الصعيدين الاجتماعي والسياسي»[٣٠].

عرف تاريخ مصر الحديث مواقف مصرية وطنية للقبط لا شائبة فيها فالجنرال بلنت قائد القوات البريطانية صاحب كتاب (التاريخ السري لاحتلال مصر) يذكر أنهم على العموم كانوا إلى جانب وزارة ثورة العام ١٨٨٢ وأن الأنبا كيرلس الخامس (١٨٧٤-١٩٢٧) أيد أحمد عرابي ووضع توقيعه على القرار الشهير الذي صدر إثر الاجتماع الوطني بحضور عرابي ومحمود سامي البارودي وبدعوة منهما، ذلك القرار الذي نص على مقاومة الغزو البريطاني[٣١].

ليس هناك شك، وبسبب واقع مصر الإثنوغرافي وانتماءاتها العرقية[٣٢] وتاريخها، كان حظ أقباط مصر من التسامح الديني منذ الفتح العربي واستظهار الإسلام يفوق كثيراً حظ إخوانهم الشرقيين حيث أصبح المسيحيون فيها أقلية أيضاً، ولا يصعب على القارئ استنتاج أسباب ذلك من بعض ما ذكرنا قبل هذا، إلا أن هذه الحقيقة لا يمكن أن تجعلنا نغفل عامل التسلط والامتياز للأغلبية حيث يحتل الدين المركز الأول في الحياة اليومية وكغيرهم من الأقليات المسيحية الأخرى استقر في الأقباط شعور متوارث بأنهم

مواطنون من الدرجة الثانية، وهو شعور مرهف دقيق كثيراً ما يدفع فيهم رغبة شديدة للمنافسة في المشاعر الوطنية ومباراة الأغلبية في الحقل السياسي والاجتماعي يتجلى أحياناً في أعمال فردية بطولية وفي الصدق والأمانة في مجال الوظائف العامة القليلة التي تناط بهم[٣٣].

لم يكن للأقباط في سلك القضاء تمثيل يذكر، وفي السلك العسكري رغم الإقبال والرغبة فقد كان قبولهم لا يتناسب والمجموع النسبي لهم ويقدر الدكتور مايثاردس[٣٤] نسبة المقبولين في الكليات العسكرية وبالتالي نسبة ضباطهم في الجيش المصري بواحد من ثلاثين وهي لا تتفق ونسبة العشرة بالمائة القبطية إلى مجموع السكان العام. ومع ذلك فبخلاف الجيش العراقي والسوري وجدنا عدداً ملحوظاً منهم بلغ مرتبة القيادة والدرجة الرفيعة في المسلك. وفي الانتخابات النيابية للعام ١٩٦٤ لم يوجد في المجلس المنتخب غير قبطي واحد عن أسيوط من أصل (٣٦٠) عضواً. وفي خلال السنوات الثماني عشرة من حكم عبدالناصر كان هناك وزيران قبطيان أنيطت بهما وزارتان ثانويتان حفظاً للمظاهر كما يبدو وكلاهما من أكفاء الإداريين لكنهما لا يتمتعان بنفوذ سياسي[٣٥].

وبدافع من هذه الرغبة وجدنا أعداداً كبيرة منهم تنتسب إلى حزب الوفد وإلى الحزب الشيوعي، مثلما كان يقبل المسيحيون والكرد العراقيون على الانتساب للأحزاب الديمقراطية (الحزب الوطني الديمقراطي، حزب الشعب والأحزاب الشيوعية واليسارية، ويجافون الأحزاب القومية)، بوصفها أحزاباً تقدمية تطرح أفكاراً ديمقراطية علمانية ويتسع رحاب قاعدتها الشعبية العريضة لاحتضان أبناء المواطنين كافة بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي وعقيدتهم الدينية. كانت نسبة القبط في هاتين المنظومتين أكثر بكثير من نسبهم إلى مجموع سكنة مصر.

ولم يحاول الضباط الأحرار فيما يبدو أن يفاتحوا ضابطاً قبطياً واحداً أو يعملوا على ضم أي واحد لا في دائرة التسعة ثم الثلاثة عشر الضيقة، ولا في خلاياهم ولم يعرف فيما بعد عن وجود شخصية عسكرية قبطية ذات وزن في كل حركة الجيش. وقد شاءت الحركة من الأول أن تظهر بطابع إسلامي صارخ في الاتجاه والممارسة العملية، وربما كان سلوكها هذا السبيل يهدف إلى انتزاع المبادأة من الإخوان المسلمين الذين اعتمدوا عليهم وخصوهم بعطف وسمحوا لهم بالتعاون معهم لتعديل ميزان القوى الشعبية إزاء الأحزاب السياسية الأخرى وفي مقدمتها الوفد.

لذلك وكما أشرنا إليه قبل قليل، لم تكن فترة الحكم الناصري تمثل أي تواجد للقبط على الساحة السياسية في المستوى القيادي، «واكتُفي بالبحث عن قبطي من التكنوقراط الفنيين لكي يقوم بتمثيلهم في الوزارة وكان الاختيار لهذا الوزير أو ذاك مبنياً على حسن سمعته وعلى تخصصه الدقيق في مادته الشخصية»[٣٦].

في مبدأ الأمر لم يجد القبط خطراً في حركة الإخوان المسلمين بشعارهم: «الله إلهنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا»، وعدوها واحدة من تلك الانفجارات العقائدية العديدة في الإسلام المصري عبر تاريخه الطويل، تفتعلها الطبقة الحاكمة أحياناً، وتغض الطرف عنها إن وجدت في الإغضاء فائدة، وقد تستخدمها سلاحاً عند الحاجة كما حصل للإخوان أنفسهم لفترة قصيرة أيام العهد الملكي على أنها لا تتردد في توجيه ضربة ماحقة إليها ما إن تشعر بخطورة في امتداد تلك الدعوة إلى حد تهديد سلطتهم.

واتفق أن الإخوان حين ذلك كانوا في شغل شاغل عن القبط، تحتكر جهودهم وأوقاتهم مقارعة السلطة وتنظيم الخطط لزعزعة أسس الحكم باللجوء إلى حوادث الشغب وتدبير الاغتيالات السياسية للوزراء وكبار الساسة، وكذلك بالتعبئة الإسلامية العامة لاستنقاذ فلسطين الإسلامية. وما من شك في أن بعض قلق كان قد انتاب القبط عندما وجدوا الحكام الجدد يخطبون ودّ الإخوان ويتعاونون معهم تعاوناً بلغ وقت أزمة «نجيب - ناصر» حد استخدامهم في التظاهرات الموالية لناصر، ومكافأتهم بإطلاق سراح سجنائهم ومعتقليهم الآلاف دون غيرهم من المعتقلين والسجناء السياسيين الآخرين. وظل القبط مع هذا في حالة قلق وترقب غير مريح منذ ١٩٥٢ حتى تنفسوا الصعداء في أواخر العام ١٩٥٤ عندما أوقع عبدالناصر بالإخوان فشعروا بنوع من الأمان إلا أنهم استمروا في سلبيتهم في عالم السياسة.

وأدركت الإنتلجنسيا القبطية والأقباط عموماً بعد صدور دستور ١٩٥٥ ما تعنيه عبارة: كون الشعب المصري جزءاً من الأمة العربية وما تلاها من الدعوة إلى الوحدة العربية في ظل حكم مطلق شبه عسكري يملي إرادته بالقوة وبأساليب القمع والبطش. وينزل بمن لا ينزل عن رأيه أشد العقاب[٣٧].

لم يبد القبط ما يدل على تبرمهم بالانقلاب. كان بالنسبة إليهم حدثاً سياسياً واحداً من أحداث سياسية عدة سالفة تمخضت بقيام حكم جديد وزوال حكم آخر وحاولوا التقرُّب منه بمختلف الأساليب ومظاهر الولاء[٣٨]، في حين عملت الدعوة إلى القومية

العربية والتحول الاشتراكي على إبعادهم. إذ كان مقتضى اعتبار مصر جزءاً من البلاد العربية والانتماء إلى العروبة يتضمن سلبهم مصريتهم - في حين أوقعت القوانين الاشتراكية بالطبقة المتوسطة في الحواضر والمدن ضربةً لا قيام بعدها بتجميد نشاطها التجاري - الاقتصادي - الصناعي عن طريق حصر التجارة بالمؤسسات العامة، والمصادرات التي أُلبست رداء التأميم.

وإذذاك بدأت الهجرة الجماعية إلى أوروبا وأمريكا.

وهو ما لم يحاوله القبط في أي عهد من العهود الإسلامية منذ الفتوح الأولى، رغم كل ما تعرضوا له من مضايقات ومتاعب، لاسيما في العهود العثمانية. لم تعمل السلطة الجديدة شيئاً لتبديد مخاوفهم. فبرغم شطب قوانين عديدة قديمة عفا عليها الدهر واستحداث قوانين تقدمية أخرى لم يتعرض الحكام إلى تلك القوانين التي قيدت حرية القبط في مزاولة عقائدهم وربطها بمشيئة الدول[٣٩].

ولكل كاتب قبطي، وهم غير قليلين، أسلوبه الخاص في التعبير عن مشاعره الجريحة بسبب الطريقة القاسية التي اتبعها الاتجاه العروبي نحو الاشتراكية في مصر بهدف سلب القبط أهم ما يعتزون به وهو مصريتهم وبتحديد مجال نشاطهم الفكري والتجاري والاقتصادي مدار حياتهم ومورد رزقهم، خذ مثلاً من هذا الكاتب الذي لم يستطع أن يصحو تماماً من تأثير الجو الذي ساد مصر أيام الفترة الناصرية (١٩٥٦-١٩٦٧) العروبية إلا أنه لم يجرؤ مع ذلك على قول ما كان يعتبر قوله في تلك الفترة جريمة مخلة بأمن الدولة تبلغ منزلة الخيانة وتستوجب بأقل تقدير الاعتقال في واحد من المعتقلات الصحراوية المرعبة. يقول في مقدمته لكتاب له:

«لكن لهذا الكتاب هدفاً مضمراً هو الدفاع عن الهوية الوطنية للشعب المصري في إطار القومية العربية والانتماء العضوي والمصيري إلى الحضارة العربية الإسلامية - لكن هذا الهدف ليس مقصوداً لذاته وإنما هو نتائج رؤية الخطر الذي يتهدد هذه الهوية سواء من الذين مجدوا زيفاً حضارة السبعة آلاف سنة وكأنهم ينزلون هويتنا في ماضٍ منفصل عن التاريخ العربي أو الذين ينتسبون زوراً إلى شعارات دينية وكأنهم يختزلون هويتنا في الدين ومن ثم يتعدون من هوية أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد لأنهم أتباع دين آخر.

المثل الآخر الذي أضربه على الفجوات المظلمة في العقل الجمعي أو تمزقات الذاكرة الشعبية هو غياب العنصر القبطي من تاريخ مصر، ومن ثم غياب

المعنى من وجود الأقباط إلى يومنا. أي أن جزءاً من إشكالية الحاضر يعود إلى غيبة المنظور التاريخي. ومن المفارقات أن أقسام الفلسفة والتاريخ في جامعاتنا تهتم بتاريخ المسيحية وتاريخ الكنيسة في أوروبا. أما مصر القبطية فإنها تسقط من الوعي التاريخي سقوطاً تاماً. إلا في المتحف القبطي والمعاهد الدينية القبطية. هكذا تنشأ الازدواجية والرؤية بعين واحدة. تقول مدراسنا الوطنية إن هناك مصر الفرعونية ومصر اليونانية والرومانية ومصر الإسلامية ومن الغريب حقاً أن نعترف إذا كنا متدينين بعصر الوثنية. وإذا كنا وطنيين بمصر المغزوة من اليونان والرومان لا نعترف بمصر الفرعونية هو الآثار العظيمة، والباقي من اليونان والرومان هو آثارهم، بينما الباقي من مصر القبطية إلى جانب آثارهم هم البشر الذين يعيشون بيننا خيطاً أصيلاً في نسيج الشعب المصري. وهكذا فالأقباط ليسوا عصراً تاريخياً فقط وليست مصر القبطية تراثاً دينياً فقط وإنما الأقباط هم جذور وفروع مستمرة في البنية التاريخية للشعب المصري ووحدة نسيجه الوطني فالعصر القبطي مرحلة زمنية هو أحد جذور الشعب كله، وليس مرحلة منفصلة أو منغلقة على ذاتها تضم الأقباط وحدهم وهو جذر أشمل من أن نحاصره في العقيدة الدينية لأنه جذر ثقافي وحضاري فالمقاومة البطولية ضد روما وبيزنطة هي مقاومة الشعب المصري وأحد شرايين الوعي الوطني الممتدة إلى عصرنا ومصرنا جميعاً. والأقباط عاشوا في العصور الإسلامية المختلفة حتى الوقت الراهن مما يبرهن على أن الإسلام بالرغم من فترات الاضطهاد التي لم ينج منها المسلمون أنفسهم قد حافظ في النهاية على الوجود القبطي ضمن النسيج المصري العام وهو أمر كان من شأنه إغناء مكونات الوطنية المصرية»[٤٠].

كم كان يدري هذا الكاتب وأضرابه بأن عملية مماثلة تفوقها قسوة جرت على أرض الرافدين خلال التيار العروبي الكاسح؟ بعد قيام دولة العراق مباشرة حيث طمست أو كادت معالم الحضارة المسيحية والفكر المسيحي الذي كان سيداً من غير منازع على هذه الأرض خلال خمسة قرون أو نحوها، قلما نجد لها تنويهاً أو ذكراً خاصاً في كتب التاريخ الحديثة. كان حوض دجلة والفرات بشعبه طوال هذه القرون مركزاً يشع منه تراث متمايز للفكر المسيحي والآداب السريانية إلى الشرق بكنيسة مستقلة فكرياً وفلسفياً عن الكنيسة الرومانية - البيزنطية في روما والقسطنطينية مستقلة

عن كنيسة أنطاكية في سورية وعن كنيسة القبط في الاسكندرية - انفردت كنيسة قطيسفون بابل عن هذه الكنائس قاطبة بنشاط وحمية وانتقلت إلى إيران وتركستان شرقاً وشمالاً وإلى أفغانستان والهند والسند حتى بلغت الصين آمنة بمعلميها الأفذاذ في حماية سلطة أكبر إمبراطوريتين حينذاك. كل هذا غاب في كتب التاريخ العراقي مثلما غاب تراث القبط عن تاريخ مصر. ومثله أيضاً تجد ذاك التاريخ يتحدث بإسهابٍ وفخر عن حضارات وادي الرافدين العتيقة سوميريتها وبابليتها وكلدانيتها وآشوريتها ولكنه يسقط عن عمد وتقصد هذه الحلقة التي تجمع الماضي إلى الحاضر لئلا يرغم القوميون العرب المسلمون على البحث عن أصول ومكونات الشعب الذي يسكن عراق اليوم[٤١].

في مجال العودة - وفترة الصحوة بعد السكرة - يقوّم الكاتب (المعداوي) نظرة القبط إلى القومية العربية وهو تقويم كان سيكلفه أيضاً حريته لو فاه به في العهد الناصري:

«إن نظرة الأقباط للقومية العربية والتيار الوحدوي لا يمكن فهمها وتفسيرها في فراغ فحيثما يعظم دور الأقباط اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً في الحياة المصرية فإنهم كغيرهم من فئات المجتمع المصري يحسون بقوة الانتماء وبالحرص على خدمة الكيان المصري فلو رأوا أن خدمة هذا الكيان تتم على أحسن صورها من خلال الوحدة، فإنهم سيصبحون من أول الداعين إليها والسائرين في ركابها لكن حين يتقلص دورهم في لحظة تاريخية معينة في مجتمعهم الأم وهو مصر، فإن أي كلام عن ذوبان أو تلاحم هذا المجتمع في كيان أكبر يكون مدعاة للخوف من زيادة في تدهور دورهم السياسي بوجه خاص.

الموضوع إذن بالنسبة إلى الأقباط المصريين كما هو لأيّ فئة اجتماعية أخرى ليس مع وحدة القومية العربية أو ضدها بالمعنى المطلق لهذين المفهومين وإنما السؤال بالنسبة لهم هو: أي نوع من الوحدة وأي نوع من الكيان يمكن أن ينبثق عنها وأي دور يمكن أن يمارسه؟ وإلى أي مدى سيسمح لهم هذا الكيان بالمحافظة على تراثهم وحرياتهم الدينية والمدنية؟»[٤٢].

إلا أن الدكتور (لويس عوض) يحمل المصير المحزن الذي آلت إليه دعوى القومية ولا يترك أملاً لعشاق الوحدة في قيام دعوة قومية ليبرالية على أنقاض القومية الناصرية أو البعثية أو الحُصَريّة (نسبة إلى الحصري) أو ما شئت وهي التي كلفته سنتين من حياته

سجيناً كما كلفت ألوفاً مؤلفة حياتهم:

«الوحدة العربية المبتناة على أن الشعوب والقوميات من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي كما يزعمون يمثلون أمة واحدة، هي حديث خرافة ليس أمة واحدة فحسب من وجهة النظر الثقافية والحضارية، بل وأيضاً من ناحية الدم والعنصر. هذه الخرافة الأسطورية ترتكز على فرضية كاذبة عن الرسالة العربية والمجد التليد للعصر العربي العظيم أيام الفتوحات العربية. إن أسطورة وجود عنصر عربي خارج الجزيرة العربية لا يقل خطراً عن أسطورة وجود العنصر الآري التي جاء بها النازيون، والأساطير المشابهة عن تفوق المصريين، والفينقيين، والإسرائيليين. إن كل دعوة قومية شوفينية إنما تعتمد على مقولة التفوق العنصري والسيادة العنصرية لشعب من الشعوب على الشعوب الأخرى وعلى بناء مجد الأمة عن طريق السيطرة والتحكم في أقوام أخرى وعلى التمايز المتوارث عن الاجناس الأخرى، وهذا هو الذي يبرر الاستعمار والاستعباد والتفرقة العنصرية. هذه هي النظرية التي تدعو إلى حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية لبعض الشعوب على حساب الشعوب والأمم الأخرى.

نحن نشعر بضرورة التضامن العربي في سبيل الأمن العربي الشامل منه والخاص لكل دولة عربية على حدة. على أن المشكلة هي ضرورة إنقاذ العالم العربي من خرافات الوحدة والاندماج، والمهمة الراهنة هي بناء نوع من التعاون العربي ضماناً للأمن العربي، يشاد على الواقع السياسي بدلاً من قيامه على الخيال الرومانسي الذي يفترض وجود ضرورة لوحدة كاملة، أو لانعزال في أبراج عاجية. والمشكلة تتعلق أيضاً بأن العرب لا يدركون مصالحهم الحقيقية، ولا يعرفون الطرق التي تؤدي إلى تحقيقها»[٤٣].

* * *

كان المفهوم القومي المصري السياسي العام كما وجده عبدالناصر في ٢٣ يوليو وعرفه قبلها أن الأقلية في مصر هما فئتان منفصلتان متمايزتان تماماً إحداهما القبط الذين يلتفون حول كنيستهم القومية المستظهرة، ولا يمكن إنكار المصرية على أتباعها. وفئة أخرى تستقطب الأقليات الدينية الآشورية والأرمنية واليهودية وغيرها وهم يعتبرون أجانب عموماً رغم حملهم الجنسية المصرية. وبصورة عامة كان كل شرائح الرأي العام

القومي ضد هذه الفئة الأخيرة. وللسمعة التي كسبوها جراء تعاونهم ومساندتهم سلطات الاحتلال البريطاني وبعدها، وكذلك لأنهم كانوا يؤلفون جزءاً من نشاط طبقة صناعية وتجارية أجنبية ظلت تسيطر على الحياة الاقتصادية المصرية أجيالاً ثلاثة متعاقبة.

وبالنسبة إلى القبط فقد انقسم رأي الأغلبية المسلمة إلى نزعتين رئيستين واحدة مثلها حزب الوفد، الذي حاول إبعاد القومية المصرية عن الدين وعمل على تثبيت وضع ثابت يقر لكل المصريين حقوقاً وواجبات واحدة. ونظر الوفد إلى الكنيسة القبطية نظرته إلى كنيسة مصرية وإلى القبط مواطنين كاملي المواطنة، وربما كان هذا نتيجة المساندة الفعالة القبطية للوفد منذ تأسيسه، وكذلك بسبب تأثير المفهوم الفرنسي للمساواة القومية المدنية لدى الطبقة المتعلمة. لكن كان يوجد مفهوم آخر للقومية غير مفهوم الوفد لا يستمد وحيه من الغرب، بل من الإسلام كما يفهمه الأزهر. أعني الجامعة الإسلامية قبل الجامعة المصرية، وهذا المفهوم لا يعترف بالعضوية الكاملة في المجتمع المصري لمن كان غير مسلم فهو يعتبر مصر جزءاً من الجامعة الإسلامية العالمية فقط. هذا المفهوم لا يعادي القبط بطبيعة الحال إلا أنه لا يعتبرهم جزءاً من المجتمع السياسي.

ويظهر أن هذا الميزان الذي كان يرجح إلى جانب الوفد قد انقلب في أواخر العهد الملكي لصالح الفئة الثانية، وأسبابه متعددة، وأظهرها هو الخلاف الشديد بين زعيمي الوفد الكبيرين، رئيسه المسلم وسكرتيره القبطي الذي انشق عن الوفد وأخذ منه الأغلبية القبطية فيه، الأمر الذي أضعف الحزب كثيراً، وجعله أقل سماحة في مسائل الدين، أضف إلى هذا ظهور الإخوان المسلمين واحتلالهم الساحة السياسية في الوسط المتعلم وطبقة الموظفين وطلاب الجامعات والريف[٤٤] فضلاً عن دعوى الملك في زعامة العالم الإسلامي بالتقرب من الأزهر، والنشاط الفجائي الذي دب في حركة إقامة روابط مذهبية ودينية بين مصر والبلاد الإسلامية.

هكذا كان الوضع عندما استتب الأمر للضباط الأحرار. كان قلق القبط واضحاً خلال السنتين التاليتين عندما بدا التعاون بين الحكام الجدد والاخوان المسلمين واضحاً(٤٥) ولم يتبدد هذا القلق عندما انقلبوا على الإخوان المسلمين بالإسلام ومزقوهم شر ممزق. لأنهم كانوا مضطرين إلى مقابلة إسلام الإخوان المسلمين بالإسلام أيضاً على أن يكون الاتجاه الإسلامي مترابطاً مع التحول إلى القومية العربية عن القومية المصرية.

لا يعلم بالضبط أو حتى بالتقدير القريب من الواقع عدد القبط الذين نزحوا عن مصر خلال العهد الناصري وبسببه.

ومما لا شك فيه أن العامل الاقتصادي كان السبب الرئيس لمعظم الحالات فقد حاولت شريحة هامة من المجتمع القبطي السير مع التيار العروبي والتعاطف مع الوحدة لاسيما ذوو الاتجاهات اليسارية منهم اعتقاداً منهم أن العروبة والوحدة تخدم مصر وتصمد بمواجهة الأخطار التي تهددها وبتأمين قيام مصر على رأس هذه الوحدة. إلى جانب تيار آخر متحفظ من قضية العروبة والوحدة لا يعاديها ولكن ينظر إليها بريبة لأسباب أهمها امتزاج المفهوم القومي العروبي بالإسلام تاريخياً وعملياً، إلى جانب الخوف من انصهار الهوية الذاتية: المسيحية منها أو المصرية.

أجل، لا يعلم قط عدد القبط الذين ألجأهم التضييق الاقتصادي وقطع الأرزاق بالقوانين الاشتراكية وإجراءات التأميم على ترك وطنهم نهائياً وقد وجدنا من يقدره بمائة ألف، ووجدنا من يخفضه إلى خمسين ألفاً. وجلها تقديرات لا تستند إلى معلومات إحصائية كما لم يصدر من المقامات الدينية أو مجالسها المدنية ما يهدي السبيل إلى تقدير قريب من الواقع. ولكن الثابت أن الهجرة فشت بين أوساط الطبقة الوسطى فى الحواضر والمدن، وشملت القادرين مالياً وذوي المؤهلات والكفاءات القادرين على شق طريق لهم إلى حياة جديدة وبقي الفلاح القبطي فى أرضه قانعاً بحاله وبوضعه. إذ لم يكن له خيار ومهما بولغ فى عدد النازحين فسيبقى نسبة ضئيلة جداً إلى مجموع المواطنين القبط العام في مصر.

والخطوة تكمن في أنها ظاهرة اجتماعية سيئة جداً لشعارات القومية العروبية لم يكن يتصور أنها ستشمل مصر بعد تجاربها المرة في العراق القومي في العام ١٩٣٣ وما بعده، وفي سورية عند بدء الانقلابات العسكرية. وقد بدا أثرها المدمر عندما أخلت القومية الناصرية المرسح للتشدد الأصولي الإسلامي وإرهابه. وما جر من صدامات مسلحة في الريف القبطي واعتصابات واشتباكات في الحواضر أيام رئاسة أنور السادات.

عملية النزوح هذه لم يمارسها القبط حتى في أحلك ليالي اضطهادهم خلال العصور السالفة.

في آذار ١٩٥٥ حشدت تركيا قواتٍ على الحدود السورية، واحدة من تحشدات كثيرة سابقة مماثلة، وكمظهر من مظاهر التوتر العصبي التركي المزمن. فسارع راديو

صوت العرب يحذر الأتراك من مغبة أي تهديد موجه إلى الاشقاء العرب، معلناً استعداد مصر للوقوف عسكرياً إلى جانب سورية ضد أي اعتداء؟

ما الذي دفع عبدالناصر إلى هذا؟ خصوصاً بعد عودة الطاقم المخضرم القديم إلى الحكم إثر سقوط دولة الشيشكلي وحين لم تكن القومية العربية في سورية مطلب الساعة؟

يقتضي الجواب بعض تفصيل:

أرادت الحكومة الجديدة التي ألفها (صبري العسلي) رئيس حزب الشعب أن تكسب الجيش بعملية ظاهرها الحصافة وبعد النظر لكنها ارتدت عليه بأسوأ ما تصوره لها إذ سرعان ما أدت إلى عودة الجيش إلى السلطة الفعلية بضباط ينتمون إلى البعث، والعربي الاشتراكي. فقد عينت الحكومة لجنة عسكرية برئاسة العميد (شوكت شقير) لدراسة ملفات الضباط الذين فصلوا أو طردوا أو أحيلوا إلى التقاعد في عهد الشيشكلي إلا أن شخصية العقيد عدنان المالكي العضو فيها، والعضو المتقدم في حزب البعث كانت تهيمن على اللجنة، والنتيجة أن الضباط المعادين إلى الخدمة كانوا إمّا بعثيين أو قوميين اشتراكيين. ودعا صبري العسلي حزب البعث العربي الاشتراكي (بعد الاندماج) للمشاركة في وزارته، إلا أن زعيميه رفضا وآثرا انتهاج سياسة سلبية تهدف إلى عرقلة أعمال الحكومة.

لم يطل عهد استبشار المحافل السياسية بنهاية عهد السيطرة العسكرية على مقدرات الحكم وقالوا: ما من شك في أن دروس السنوات الخمس الماضية القاسية كانت كافية للسوريين. إلا أن العسكريين لم يكونوا يرون هذا الرأي فقد اعتقدوا أن مراقبة الحكومة المدنية التي ساعدوا في عودتها هي من واجبهم وكانوا على الدوام يجدون لفكرتهم هذه مناصرين ومتعاونين من المدنيين، ودفع الثمن هؤلاء المدنيون الذين كانوا مستعدين منذ العام ١٩٤٩ للاستنجاد بالعسكريين ضد منافسيهم[٤٦].

بدأت مشاهد روائية جديدة بعد تمام الانتخابات. فقد تعذر اتفاق الأحزاب والكتل السياسية على تأليف وزارة وأسقط في يد الرئيس الأتاسي. أخيراً لم ير بدأً من تكليف شخصية وطنية حيادية هو (فارس الخوري) البالغ واحداً وثمانين عاماً فنهض بالمهمة ولم يكن عضواً في المجلس.

لم يشارك فيها البعث ولا كتلة خالد العظم فسارع البعثيون بحشد طلابهم في مظاهرات عنيفة أحاطت بالبرلمان أثناء ما كان (الخوري) يتلو بيان وزارته.

كان موضوع الساعة الرئيس هو الحياد السوري، وتفسيره: عدم دخول سورية في حلف غربي موجه ضد الاتحاد السوفياتي وهو خط عبدالناصر بمواجهة حلف المعاهدة المركزية الذي تهيأ العراق للمشاركة فيه. وقد تحقق الفوز لفكرة الحياد في تلك الانتخابات بالفشل الذي أصاب حزب الشعب الموالي للعراق في الانتخابات.

فازت وزارة الخوري بالثقة. وقد تعهدت بعدم الدخول في أي حلف غربي، إلا أن العرب الاشتراكيين والبعثيين كانوا قد عقدوا الخناصر على تشويه سمعة أي سياسي لا ترضى عنه سياستهم القومية المتطرفة وأصبح فارس الخوري هدفهم. كانت الشتائم البذيئة تنصب عليه من المتظاهرين في الخارج وفي حين يهاجمه نواب البعث داخل البناية ويتهمونه بالخيانة الوطنية والعمالة - امتداداً للعملية الإعلامية المصرية القبيحة في كانون الثاني وقت أن رفض إدانة العراق.

وتبيّن في حينه أن العقيد (عدنان المالكي) قد تهيأ ليقوم بانقلاب لو لم يسارع الخوري بالاستقالة[٤٧] وكلف العسلي ثانية فأسرع يختار خالد العظم وزيراً للخارجية فكان دليلاً على دخول سورية الفلك المصري، والوقوف موقف المعارض الفعال لحلف المعاهدة المركزية[٤٨].

وكان للجيش دوره البارز في توجيه السياسة السورية إلى هذا الاتجاه وزجها في الحرب الباردة بارتفاع الآمال السوفياتية وتعاظم المخاوف الغربية[٤٩].

وتواصلت المشاهد الروائية السريعة:

استقال العسلي في أيلول ١٩٥٥ فدعي (سعيد الغزي) لتأليف الوزارة، وأسندت إلى حزب الشعب المخذول أربع وزارات لم يجد مندوحة معها من القبول بسياسة الحياد إزاء الصراع الذي نشب بين المحور السعودي - المصري والمحور الأردني - العراقي. والقبول في ٢٠ من تشرين الأول بتوقيع ميثاق توحيد الجيشين المصري والسوري. وهو بالأصل اتفاق لا تحتاجه سورية عملاً وكانت به الخطوة التمهيدية الأولى للوحدة.

في حزيران ١٩٥٦ عاد العسلي ليؤلف وزارته الثالثة. وضم إليها وزيرين بعثيين للخارجية (البيطار) والاقتصاد الوطني (عفلق) وعند إعادة تشكيل الوزارة في نهاية ١٩٥٦ تم التخلص نهائياً من حزب الشعب باستبعاد ممثليه فيها.

في العام ١٩٥٥ فاز شكري القوتلي في انتخابات رئاسة الجمهورية[٥٠].

* * *

تعاون حزب الشعب مع الكتلة الوطنية لترجيح كفة القوتلي ضد منافسه خالد العظم مرشح البعثيين. وحفظ شكري القوتلي درسه أيما حفظ مدركاً أن احتفاظه بكرسي الرئاسة سيبقى أبداً مرهوناً برضا العسكريين، تماماً كرئيس وزرائه العسلي الذي لم يكن خلال الأشهر التسعة عشر غير واجهة لحقبة شهدت استظهار البعث ونفوذ الجيش. وسهل على القوتلي أن يبيع أولئك الذين ثبتوه على كرسي الرئاسة وفي مقدمتهم حزب الشعب ليغدو مجرد صنيعة وخادم ذليل للضباط المتنفذين والبعث، ومروجاً لسياسة عبدالناصر لا حول له ولا طول.

مشاكل السياسة الخارجية السورية وفي مقدمتها مشكلة تنظيم العلاقات مع البلاد الناطقة بالعربية والحرب الباردة، وطروحات القومية العربية في الوحدة، ساعدت الضباط السوريين بدرجات أساسية على زج أنفسهم في خضم الحياة السورية السياسية المتلاطم، وبدا كل ضابط صغير الرتبة أو متوسطها يعد نفسه لذلك اليوم الذي سيرفعه للتحكم في مصائر الآخرين ورسم الخط السياسي لمستقبل بلاده. الروح التي كانت تسود هؤلاء الضباط غصت إلى حد الاختناق بأحلام اليقظة ورؤى اليوم الموعود، وتركزت حياتهم بمتابعة الفرص التي تتيح لهم ذلك التدخل الضامن تحقيق تلك الأحلام. ويأتي العون من حيث لا يتوقعون.

فالأحزاب السياسية المحلية والدول الأجنبية والدول الشقيقة كانت أبداً تبحث لها عن أصدقاء وأحلاف داخل الجيش السوري. والمال يحل كل العقد وهو أضمن الوسائل للوصول إلى الضباط السوريين ذوي الرواتب الصغيرة التي لا تتفق مطلقاً والمكانة التي يحتلونها، ولا تفي بجزء من مطالب المظهر. من اندفاعاتٍ وتآمر للضباط الذين عادوا لينتظموا في مجموعات وكتل متحولة الولاءات، في حين وقع أعظمهم نفوذاً تحت تأثير التيار البعثي - الناصري وغرق في دوامة الحياد الإيجابي والوحدة العربية ومناهضة العراق والغرب وموالاة عبدالناصر والتقرب من الاتحاد السوفياتي.

في العام ١٩٥٦ كانت البلاد الناطقة بالعربية أشبه بغابة كثيفة ملأى بالموانع والفخاخ عندما وضع عبدالناصر رجليه في ركاب حصان العروبة الجامح ونادى بالوحدة الشاملة. مراكش بملكها (محمد الخامس) لم يمر عليها وقت طويل منذ استقلت عن فرنسا. وفي السنة عينها بلغ (بورقيبة) بتونس إلى الاستقلال. وليبيا دولة فقيرة تعتمد اعتماداً كلياً على المنح الغربية ويحكمها الملك إدريس السنوسي حكماً دينياً. السودان طلعت عليها شمس الاستقلال في أول يوم من العام ١٩٥٦ وحققت انفصالها التام عن

مصر وتبنت نظاماً ديمقراطياً برلمانياً. ولبنان الفريد في ديمقراطيته الليبرالية وموازنته الطائفية والدينية بلد صغير مرفه اقتصادياً قانع بحاله مهتم بمشاكله الداخلية فحسب. والاردن بدأ ينفض عن نفسه غبار الوصاية البريطانية معززاً مركزه بإلحاق البقية الباقية من فلسطين التي تركها له التقسيم. وفي العراق حكومة مستقلة على رأسها ملك دستوري تسيطر على مقدراتها طبقة حاكمة غليظة غشوم وتسوسها يد نوري السعيد الباطشة القوية. وفي السعودية حكم ديني منغلق شديد الوطأة تربطه مع الغرب وشائج وأواصر محكمة. وكالعراق تدفقت عليه فجأة أموال طائلة من عائدات النفط. وفي اليمن حاكم ديني آخر هو الإمام (أحمد حميدالدين) مستبد ببلاد لم ينقل أهلها قدماً واحدة للخروج من ظلام القرون الوسيطة إلى نور القرن العشرين. واليمن الجنوبية ما زالت بيد البريطانيين كالكويت وأميرها. وعمان دولة قلقة شبه مستقلة تشيع الحرب الأهلية في جنباتها. ودول (إمارات) الخليج وإن كانت مستقلة اسمياً تحت حكم شيوخها المطلق، إلا أنها مرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا تحد من استقلالها. والجزائر لم تكد بعد تضع قدمها فوق لهب الثورة المحرق.

فسورية الحالية هذه هي المرشح الوحيد للتجربة القومية العظيمة وقد بدت قطوفها دانية. بدت السفارة المصرية للدمشقيين وكأنها مقر رئاسة الجمهورية ثانٍ. والسفير المصري الجديد الذي وصل دمشق في آخر أيام العام ١٩٥٥ كان ضابطاً سابقاً في الجيش المصري برتبة عميد (أمير آلاي) هو على صلة وثيقة وصداقة مع الضباط البعثيين البارزين فاز بتعاونهم ضد حلف بغداد كما فاز بعقد ميثاق الدفاع المشترك مع بلاده في٢٠ من تشرين الأول ١٩٥٥ قبل تعيينه سفيراً. وبتشجيع منه ووساطة حذت سورية حذو مصر بعقد صفقة سلاح مع السوفيات ورفعت به من مكانة العسكريين وحلفائهم المدنيين ورفعت في الوقت عينه من منزلة السوفيات في نظر السوريين، وأدت إلى تقوية مركز الشيوعيين. وارتمى أقطاب البعث المدنيين في أحضان السفير وصاروا من مرتادي السفارة الدائمين كما ارتمى قادة الجيش في أحضان العقيد (جمال حماد) الملحق العسكري.

وبلغ الأمر بالوزراء البعثيين أنهم تقمصوا دور الساعي والخادم للسفير ينقلون إليه كل ما يدور في مجلس الوزراء ويلتزمون بالرأي الذي يمليه عليهم. وكثيراً ما كانوا يهددون بالانسحاب من الوزارة وانفراط عقد حكومة التجمع الوطني، إن لم يقبل مجلس الوزراء بهذا الرأي أو ذاك[٥١].

كانت أنباء الانقلابات العسكرية المتسارعة في وسائل الإعلام الخارجية توحي بفكرة مضخمة عن بلد لم يتجاوز عدد سكانه آنذاك أربعة ملايين إلا قليلاً. وقد روت الصحف السورية حديثاً جرى بين (القوتلي) وبين جواهر لال نهرو الذي زار دمشق ذلك العام بدعوة رسمية. سأل نهرو الرئيس السوري عن عدد سكان سورية فقال القوتلي: «ما هو تقديرك؟»، قال نهرو ببعض تردد: «أربعون مليوناً؟». «هذا تقدير كبير جداً يمثل عشرة أضعاف المجموع الحقيقي».

فبهت نهرو وقال معقباً: «هذا العدد المتواضع من سكان سورية قد خلد اسم البلد. إن اسم سورية يتردد في كل مدينة في العالم»[٥٢].

كم كان هذا الصدى العالمي الكبير مدعاة للفخر والاعتزاز؟

الكتلة المعارضة في المجلس كانت قوية إلى الحد الذي يمكنها من تحدي سياسات البعث وصخبهم، كما كان يمكنها اظهار استيائها بعمل جذري من تدخل الضباط إذ كان يدعهما في الخارج عناصر معتدلة ومحافظة عانت كثيراً من آثار الحكم العسكري وتطرف الثلاثي القومي (الحوراني- عفلق - البيطار). وفي الجيش كان الضباط المحترفون المعادون للناصرية والبعث والشيوعية يفوقون الآخرين عدداً. إلا أن المعارضة لم تكن متحدة. وعلى عاتق (السراج) أُلقي عبء تدمير العناصر المعادية للبعث مدنيين وعسكريين، وشن حملة إرهاب عامة منظمة ظهرت بشكل ثلاث محاكمات سياسية أخضعت مبادئ القانون والعدالة لشرّ طموح - طموحه وطموح حلفائه. وجرت تقريباً بعين أسلوب محاكم مصر الثورية وامتازت عنها بقسوة امتهان صريح لمبادئ القانون أكثر من تلك بكثير. الحلقة الأولى من هذه سلسلة «المحاكمات الكبرى» أو «محاكمات التطهير السياسي» هذه استهدفت الحزب القومي السوري الاجتماعي ونجحت في تصفيته واستئصال قيادته وكانت الذريعة اغتيال العقيد عدنان المالكي رئيس المكتب الثالث في وزارة الدفاع ومعاون رئيس هيئة الأركان العامة[٥٣].

كان المالكي بعثياً - اشتراكياً، وقد عمد إلى طرد عدد من الضباط القوميين السوريين وبينهم المقدم (غسان جديد العلوي). وما لبث بعدما أردته رصاصة القاتل أن أصبح شهيداً من شهداء العروبة وبطلاً قومياً. جعل الحزب القومي السوري مسؤولاً عن الجريمة فدوهم مقره وألقي القبض على زعمائه وقدموا للمحكمة العسكرية الخاصة التي شكلت لهذا الغرض. وتم طرد جميع الضباط القوميين السوريين من الجيش.

وشملت لائحة الاتهام ما يزيد عن ٣٥ من أعضاء الحزب البارزين بضمنهم قيادته

كلها وحوكم غياباً بعض من كان يعيش في الولايات المتحدة وفي بيروت. تعرض المتهمون إلى فصول تعذيب طويلة بكل صنوفه في سراديب المكتب الثاني وبإشراف السراج، وفي ١٣ من تشرين الأول ١٩٥٥ أحيلوا إلى المحكمة، وفي ١٣ من كانون الأول أصدرت المحكمة قرارها بإعدام ثمانية. منهم خمسة غياباً. وحكمت على ثلاثة بالأشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً بضمنهم أرملة (أنطون سعادة) مؤسس الحزب[٥٤] ولم يثبت طوال المحاكمة بدليل واضح وجود أي مؤامرة حزبية.

وراح البعث بموافقة تامة من الجيش ومساندة حارة من الحزب الشيوعي السوري في سبيل خلق أسطورة عدنان المالكي الذي قتلته الرجعية. وقدم حياته ثمناً لإنقاذ القومية العربية من أخطار الأحلاف الغربية، وأقيم له ضريح باذخ مهيب تسير إليه المواكب وينثر فوقه الزهر وتتلى الخطب والقصائد أمامه، كما كانت تقام لذكرى يوم اغتياله مهرجانات حكومية كل سنة يدعى إليها الأدباء والخطباء والشعراء للمشاركة في رثاء الضحية القومية منتهزين فرصتهم للثناء والتملق تقرباً من زعماء العروبة الجدد، وصبّ سخريتهم على الحكام العرب الموالين للغرب.

المحاكمات الثانية كان هدفها القضاء على معارضة المعتدلين والجناح المحافظ في مجلس النواب والحط من سمعتهم وهي أشهر الثلاث وأهمهن وأدعاهن إلى الاهتمام بسبب منزلة المتهمين ومكانتهم في المجتمع، وكذلك بسبب الأساليب الهمجية التي استخدمت بحقهم أثناء التحقيق وخلال المحاكمة وبسبب قسوة الأحكام وفداحتها.

في تشرين الثاني ١٩٥٦ اتهم العقيد السراج (٤٧) سياسياً وعسكرياً بجرم التآمر لقلب الحكومة بالتعاون مع السلطات العراقية وبدأت المحاكمة في ٢٢ من كانون الأول وختمت في ٢٦ من شباط وصحبت المحاكمة أعظم ضجة إعلامية شهدتها سورية في أي مناسبة أخرى وتم عقد المحكمة والمرافعة في القاعة الكبرى للجامعة السورية (كان الأساتذة يواصلون إلقاء الدروس بعد انتهاء الجلسات مباشرة) وأنيطت رئاسة المحكمة بالعقيد (عفيف البزري).

كان بين المتهمين وزراء سابقون ورجال دولة وأعضاء في مجلس النواب.

عرضت في المحكمة مجموعة من البندقيات (كأداة جرمية) ووجهت الدعوة العامة لمن يرغب في مشاهدة المحاكمة العلنية وسمح عفيف البزري لنفسه بكل ما يؤهله منصبه له من حرية في توجيه أقبح الشتائم وصنوف التحقير والإذلال إلى المتهمين والطعن في كراماتهم وادخر لذوي المقام الأعلى منهم أكثرها سوقية، وكل ما يرقى إليه

التصور من تهكم وتعليقات زقاقية، مصحوبة بزجر وتعنيف المعلم الطاغية غير المؤدب لتلاميذه الصغار[٥٥].

في ٢٦ من شباط ١٩٥٧ أصدرت المحكمة قرارها بحق المتهمين وجاهاً وغياباً فقضت على اثني عشر منهم بالإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص وعلى أغلبهم بالسجن آماداً طويلة بلغ مجموعها ٣٥٧ سنة بحسب تقديرات الصحف وقتذاك[٥٦].

كان هناك بين المتهمين من يعمل لمشروع الهلال الخصيب مثلما كان هناك من يعمل للوحدة السورية المصرية. وكان بينهم من يتسلم مساعدات مالية من الحكومة العراقية سعياً وراء أهدافهم الخاصة. والمسألة هي بكل بساطة من كان بين الفئتين يملك اليد العليا ليدفع الأخرى بالخيانة والعمالة في الوقت المناسب والظرف المناسب والمكان المناسب.

كان نتيجة القضاء على مروجي مشروع الوحدة العراقية - السورية تقوية التطرف العروبي ونفوذ الحليف المصري. كما كانت نتيجته منح السراج مزيداً من السلطة والمكانة فقد استطاع بسعة حيلة ودهاء مثيرين للإعجاب إزاحة أشد الناقدين للنظام إخلاصاً وحسن نية بدمغهم بميسم الخيانة.

واتخذت الحلقة الأخيرة من سلسلة المحاكمات ذريعة للتخلص من مجموعة كبيرة من الضباط المحترفين غير السياسيين (اليمينيين: كما أطلق عليهم) وعدد من الموظفين الكبار ومع أنها لم تكن بعين مستوى الاولبين إلا أن آثارها كانت بعيدة في الجيش.

المتهمون كانوا عشرة فقط. والتهمة هي الإعداد لمؤامرة ترمي إلى قلب نظام الحكم أعلن عن اكتشافها راديو دمشق في ١٢ من آب ١٩٥٧ كان من آثارها طرد ثلاثة من الدبلوماسيين الأمريكان[٥٧] وكان محور التهمة اتصالات جرت بين المتهمين وبين أديب الشيشكلي والملحق العسكري السوري في روما العقيد إبراهيم الحسيني[٥٨] وهي محاولة لم تمتد إلى أكثر من أحاديث ومحاولات تجميع قوى.

من آثار المحاكمة التي قضت بالسجن على المتهمين القيام بتطهير جذري في الجيش فأحيل العميد (توفيق نظام الدين) رئيس الأركان إلى التقاعد (وكان قد جيء به بعد تخلص الضباط العقائديين من سلطة شوكت شقير) لأنه رفض التوقيع على أوامر التطهير. وعين عفيف البرزي في محله بعد ترفيعه إلى رتبة عميد. في حين أصبح (امين النفوري) نائباً له. وتولى كل من العقداء (أحمد عبدالكريم) و(مصطفى حمدون)

مناصب مهمة في وزارة الدفاع والجيش وأجريت تنقلات واسعة في القيادات، وترقيات غير قانونية.

* * *

بدا وكأن البعث العربي الاشتراكي سيد الميدان. لكنه لم يكن في الواقع كذلك. إذ خلت الساحة السياسية المحلية من خصم يعتد به. وشكراً للسراج خادم عبدالناصر(٥٩) وان كانوا يعتمدون على كتلتهم القومية في الجيش فهناك خصم قوي خارجي يصاولهم بعين سلاحهم له كتلته بين ضباط الجيش أيضاً قد تفوق كتلتهم قوة. والضباط أنفسهم الذين كانوا أطوع وأكثر استجابة لطموحهم الشخصي من تمسكهم بعقيدتهم البعثية أو القومية وعلى صعيد الكتل السياسية فيهم كان هناك الشك المتبادل والخوف الدائم من تآمر بعضهم على بعض.

ورأى البعث السدود بين مصر وسورية تنهار واحداً بعد الآخر وبعامل الشك في النوايا المتبادل وبالسمعة الداوية التي كسبها عبدالناصر قُبيل العدوان الثلاثي وبُعيده أدركوا أنهم مقبلون على حرب نظرية مع النسخة الجديدة من القومية التي نبعت من تربة وادي النيل فجأة وبصورة غير متوقعة فوجبت محاربتها والتصدي لها، نظرياً على الأقل. فالرأي القومي الوافد يقدم الاشتراكية على الحرية (وتعني بعد التعيين التحرر من النفوذ الأجنبي) وتراها الناصرية مسايرة للوحدة. وفي حمى المعركة النظرية التي سبقت الوحدة اعترت عفلق حالة من حالات التشوش الذهني التي كثيراً ما تصيبه في الأوقات العصيبة، يصحبها خوف عظيم، وخير مثال يمكن تقديمه في هذا الصدد هو الاستشهاد بفقرات من خطاب له في حفل استقبال اقامته القيادة القطرية السورية لنقابات العمال العربية في آذار ١٩٥٦. قال:

«يوم أمس تحدثت لجماعة من التلاميذ في جامعة بيروت فسألني عدد منهم لماذا أهتم الآن أو فيما بعد بالاشتراكية قبل تحقيق الوحدة العربية؟ ألا يجعل نضالُنا في سبيل الاشتراكية وحدةَ بلادنا صعبة ويبدد طاقاتنا؟ أليست الوحدة عند تحقيقها هي الضمانة لبلوغ ما تنشده الأمة العربية من حرية وعدالة ورفاه؟ يجب عليّ أن أشير إلى أن هذا السؤال نفسه قد طرح عليّ قبل عشر سنوات بشكل آخر من قبل الحكام وأحزابهم ومناصريهم عندما شككوا في أن العمل من أجل الاشتراكية ووحدة العرب يمكن إنجازه قبل التحرر من النفوذ الأجنبي.

أجبت التلاميذ القادمين من بيروت إن الوحدة العربية ليست مسألة عمل سياسي، مفاوضات أو اتفاقات تعقد بين الحكومات لكنه عمل ثوري، ونضال يخوضه الشعب الذي وحده صاحب الحاجة لها والذي يكرس جهوده للوصول إليها. ولهذا فإن النضال من أجل الوحدة العربية لن يكون متصوراً ولا واقعياً إلا إذا اقترن بالنضال الجماهيري للشعب العربي من أجل حقوقه الأساسية، ومن أجل رفع مستواه الاقتصادي. وعلينا أن نعلم بأن أعداء الوحدة هم الإمبريالية وإسرائيل التي ما وجدت إلا لغاية واحدة هي تعويق الوحدة وإحباطها وكذلك إلى مصالح الرجعية المحلية وكل ما يسود مجتمعنا من أمراض وتعصب وجهل وتأخر. ومن المستحيل التغلب على هذه المجموعة المخيفة من الأعداء بعمل حكومي لا غير لاسيما عندما نعلم بأن الحكومات ما زالت على الأغلب تمثل تلك المصالح التي تتعارض مع الوحدة. لذلك كان من اللازم أن يتحمل الشعب كله أعباء الوحدة. أن يجد فيها خبزه اليومي وتحرير أرضه من الأجنبي وأن يخاطر بحياته في سبيلها لأنها هي الطريق إلى الحرية وكرامة الانسان. عندما نربط الوحدة بالاشتراكية فنحن لا نقدم على هذا متسرعين ومن دون سبق تفكير فنحن نراها الطريق الوحيد لتغدو الوحدة ديناميكية وحقيقة حية في حياتنا. يجب ان تكون مطلب كل عامل كادح من أجل خبزه اليومي ورفع أجوره والعناية الصحية لأولاده، مطلب كل فقير وفلاح مستقل بإصراره على استعادة حقوقه فيما أوجده ورفع الظلم والعبودية عن كاهله. ذلكم هو السبيل لجعل الوحدة أمراً واقعاً في ظروف الحياة اليومية وقوام حياتهم وهي حاجاتهم المادية».

ما هي الرسالة التي أراد نبي البعث توجيهها للزعيم القومي الجديد في هذا الخطاب؟ بإمكاننا الاستشهاد بكثير من أمثال هذا في كراريسه وخطبه وموقفه من الاشتراكية الذي يكاد يكون استخفافاً بها بعكس الناصرية التي كانت فيها الاشتراكية حجر زاوية. وهي أيضاً تعكس كما كانت أقواله تعكس دائماً روغاناً من موقف صريح واضح بخصوص المطالب السياسية والاقتصادية - اليومية للعامل والفلاح. وهو - وعلينا أن نقرّ له - موقف يشاركه فيه عبدالناصر وكل المفكرين والزعماء الروحيين للقومية العربية.

فلا نجد في هذا المجال أي فرق بين عفلق وأعدائه ومعارضيه خارج الحزب أو

داخله فكلما زاد نزول النظرية البعثية العروبية من أجواء الفضاء والسماء العليا الملتفة بالسجايا العربية والمحفوفة بالأمجاد المؤثلة ودنت من أرضنا هذه «وادي الدموع» الحافل بالمشاكل الطبقية الملحة وصراع الرأسمال الصناعي، كلما زادت غموضاً وشقت على الفهم.

سرعان ما ضاق الضباط البعثيون ذرعاً بهذه المتناقضات. كانوا طلاباً وتلاميذ فآمنوا بها عاطفياً وها هم اليوم يمارسون السلطة التي كفلها لهم مسلكهم والسلطة التي توصلوا إليها بطموحهم التآمري السياسي والانقلابات التي تتم من فوق ظهر الدبابات وتحت مظلة الطائرات الحربية، إنهم يريدون الاحتفاظ بسلطاتهم تلك لا بالنظريات بل بمنطق القوة.

بمناسبة انتخاب عبدالناصر رئيساً للجمهورية في حزيران ١٩٥٦ وصل القاهرة من سورية وفد رسمي لتهنئته برئاسة (صبري العسلي). وقدم الوفد له نص قرار اتخذه مجلس النواب بالإجماع يطالب فيه الحكومة ببدء مفاوضات فوراً لتحقيق اتحاد فدرالي بين القطرين فأعلن عبدالناصر موافقته فوراً. إذن فليقنع نوري السعيد بعراقه. لا أحد يجسر من بين الدول الناطقة بالعربية على شراء بضاعته من متجر حلف المعاهدة المركزية بوجود عبدالناصر. في عين الوقت كان بطل ثورة يوليو يستقبل رسلاً من ضباط عراقيين يستشيرونه ويسألونه النصح في انقلاب مماثل، مؤكدين بذلك صحة التقارير والمعلومات التي كان السراج يزوده بها حول وجود حركة سرية لضباط من الجيش العراقي ترمي إلى الإطاحة بالملكية وبنوري السعيد والطبقة الحاكمة صفقة واحدة.

الفصل الخامس والعشرون

الائتمار بنظام عبدالناصر. حرب القنال. العدوان الثلاثي. محاولة إسقاط النظام الثوري. الإخوان المسلمون يؤيدون القوى المؤتمرة بعبدالناصر. مناشير تنادي بإسقاطه. الحرب الباردة تنقذ عبدالناصر - الدور الأمريكي - السوفياتي في صد العدوان. حسم المعركة بالنصر وقيام أسطورة عبدالناصر في البلاد الناطقة بالعربية. تدمير سمعة نوري السعيد خصمه الألد. سورية أقرب أهدافه القومية العروبية. برقيته الجوابية الوقحة لتهنئة العراق بنصره. حزب البعث في سورية، انقسامات سياسية بين ضباط الجيش ويد البعث فيها. حملة للحصري على البعث. مجلس القيادة العسكري أعلى سلطة في الدولة. طلب المجلس من مصر إقامة وحدة شاملة للقطرين. دور السفير المصري محمود رياض. انقلاب عسكري ضد الحكومة الدستورية ودور البعث - البيطار ووفد إلى القاهرة. قبول عبدالناصر بعد إجراء استفتاء. بيان الوحدة المشترك. الهجوم الإعلامي على كميل شمعون. تهديد النظام الديمقراطي اللبناني. المعارضة والجبهة الوطنية المتحدة. شعارات العروبة والقومية العربية. صائب سلام يتزعم الحركة الموالية للقاهرة. تدخل مصري سافر في أحداث لبنان. التدخل العسكري الأمريكي. خاتمة الحرب الأهلية. انتخاب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. حكاية البغل اللبناني. موقف الرئيس الجديد من اللاجئين الفلسطينيين. فتح باب الهجرة من الأردن. تسهيله نقل تشكيلاتهم العسكرية. التزام الطائفة الشيعية اللبنانية بالحياد. الفلسطينيون يقيمون في لبنان «دولة داخل دولة». اليقظة الشيعية وحركة «أمل»

لا أذكر حرباً كتب فيها النصر للمغلوب على الغالب إلا ويتبادر إلى ذهني حرب القناة في ١٩٥٦، تلك الحرب التي نزلت في سجلات التاريخ الحديث باسم «العدوان الثلاثي». وفيها تجلّت حماقة ساسة دوليين عرفوا بالثقافة العالية والتجربة الطويلة. كيف يهبط بهم طمعهم وحرصهم «الأشعبي» إلى درك تأباه الأخلاق الدولية. وفيها

وهو بيت القصيد- حققت ثورة يوليو نصراً سياسياً وعسكرياً لم يكن في حساب بطلها مطلقاً، وبها صعد نجمه في سماء البلاد الناطقة بالعربية، واحتل واسطة عِقْد القومية العربية: مركز لا ينازعه فيه منازع. وبات صورة تشخص إليها الأبصار في سمائها. وبنوع خاص أبصار أولئك الضباط المؤتمرين على أنظمة حكمهم باسم القومية والإصلاح والقضاء على الفساد والإستغلال. والكل يحلم بأن يكون نسخة من عبدالناصر.

وحول هذا العدوان كتب الكثير ورويت الحكايات الطوال والقصار والمراجع فيها تفوق الحصر. يسهل الرجوع إليها لمن شاء تقصّي تفاصيلها الروائية الطريفة. وما يهمنا منها هنا آثارها في الدعوة القومية للوحدة تحت الزعامة الناصرية وما أحدثته من ردود فعل وأيقظته من أحلام عند الضباط الانقلابيين في البلاد الناطقة بالعربية. ثم ما جرت الدعوة وما آلت إليه من إخفاق وفشل واحتراب ووقائع دامية. على أني لا أرى مندوحة من استعراض يسير لخلفياتها:

كان تأميم القناة نقطة البداية.

فبالإضافة إلى العملية السياسية البارعة التي وضع تفاصيلها ضابط ركن كفء يتقن فن التعمية وأهمية الكتمان وعامل المفاجأة. فقد كان فيها للجلاء المعنى المنشود[1] وهكذا بدت.

---

(١) عهد عبدالناصر بعملية الاستيلاء الفعلي لمهندس توسم فيه القدرة والكفاءة اسمه (محمود يونس) واختار المناسبة بعين الدقة وكانت يوم ٢٦ من تموز وهو الذكرى الرابعة لتنازل فاروق. ألقى خطاباً في ميدان محمد علي بالمنشية في اجتماع قدّرته إذاعة صوت العرب بمائتي ألف. وبدأ خطابه في السابعة والدقيقة الأربعين مساءً مبتدئاً بالعربية الفصحى لينقلب بعد بضع دقائق إلى العامية المصرية تخلصاً من صعوبة الأداء في الظاهر، متعمداً في الباطن خطة عشوائية غير منسقة، مثلاً قوله:

«اللورد كيلرن، كلنا يعرف اللورد كيلرن. وقف في مجلس اللوردات وبدأ يشتم مصر. في آذار التقيت بالسفير البريطاني في منزلي وقلت له إننا لا نقبل الإهانة التي يوجهها إلينا النواب واللوردات لاسيما اللورد كيلرن» وغيرها.

أراد بها أن يستدرج نفسه ليلفظ كلمة السر التي اتفق عليها مع محمود يونس، ليبدأ هذا في وضع اليد على مقرات شركة القناة. وكانت كلمة السر (فرديناند دلسبس) وهو المهندس الفرنسي الذي شق القناة. قال:

«نظرت إلى مستر بلاك الذي كان يجلس على كرسي، رأيته في خيالي وكأنه فرديناند دلسبس» توقف قليلاً ثم استطرد: =

كانت هناك أربع دول تهتم بمصير القناة بنوع خاص هي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل. في مبدأ الأمر بدا قلق الولايات المتحدة من التأميم مساوياً لقلق بريطانيا رغم أن أهميتها وأثرها عندها يقلان عن الأهمية والأثر الأوروبيين. لكن وجه الغرابة هو أن جون فوستر دالاس وزير الخارجية كان يساند في الأيام الأولى من التأميم بحرارة وبقوة اتخاذ إجراءات صارمة ضده، لينتهي بالأخير إلى إدانة التدخل العسكري وللخطة الانكلو فرنسية[٢] التي كانت ترمي بجوهرها إلى إسقاط عبدالناصر.

= «تجيء السنة الخامسة من الثورة، وبعين الوسيلة وكما ترك فاروق في ٢٦ يوليو، فإن شركة قناة السويس تترك في نفس اليوم»، [الواقع وكما كان الكثيرون يدرون بأن العملية رغم إتقانها كانت عملية شكلية بحتة. قصد منها استدرار المزيد من الإعجاب بالزعيم. وشجع عبدالناصر فيما بعد على القول الذي لقي انتشاراً واسعاً بأن القناة أخذت عنوة وبحد السيف وليس في هذا ذرة من الصحة. فقد كانت القناة دائماً تحت السيطرة المصرية وشركتها خاضعة للقوانين المصرية، وتتولى حراستها والمحافظة عليها قوات وسلطات أمن مصرية بحتة. ولم يكن هناك احتمال حصول أي ممانعة أو اصطدام. إذ طلب يونس من المدراء تسليم البيانات والسجلات بأدب وتم ذلك بهدوء تام.]

(٢) لا أرى من الصحيح إغفال تأثير العوامل الشخصية والعواطف الخاصة على الأحداث التاريخية الكبيرة منها والصغيرة: فمثلاً كان بين أنطوني إيدن وجون فوستر دالاس جفوة وكره شخصي لا يستطيعان كتمانه تحت ستار الدبلوماسية. ولهذا بقي يشكو في فترة حماسة الولايات المتحدة ضد التأميم بأنه لا يحصل على التأييد الذي يستحقه منها. وكانوا يعانون فترة كآبة وغضب من مبادرة عبدالناصر إلى الاعتراف بالصين الشعبية. وأنطوني إيدن بدا من دلائل عديدة وكأنه يخوض معركة شخصية مع عبدالناصر زادت ونمت بما اعتبره السياسي البريطاني استخفافاً به من ضابط صغير برتبة مقدم. إيدن هذا الذي كان يقف بصلابة وشجاعة ضد عدوان الهتلرية وهو وزير خارجية في مطلع حياته السياسية ولم يبلغ الثانية والثلاثين - وجد عبدالناصر دكتاتوراً مستبداً آخر له عين الصفات التي تميّز بها هتلر فكتب عنه في مذكراته «تأثر عبدالناصر خطى هتلر، حتى بفتحه معسكرات الاعتقال ونشره كتاب (كفاحي) بين ضباطه (في هذا غلو، فقد نصح بمطالعته فقط). وتفهّم وطبّق وسائل گوبلز الدعائية بكل ما تتضمنه من قسوة وغلاظة» ووجده حاكماً مطلقاً على إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج. كانت هذه آراء سخيفة مبعثها الخوف على مستقبل هذا السياسي البريطاني أكثر من كونها واقعية.

وفرنسا كانت تخوض معركتها الخاصة. منذ مدة طويلة - إثر انتصار القوميين والوطنيين في سورية ولبنان - وهي تتطيّر من الموجة القومية الجديدة. أرغمت على التخلي عن انتدابها في هذين القطرين، وبعد أن قضى القوميون والضباط على فرصة التقارب التي باشرها حسني الزعيم ضاقت ذرعاً بمساعدة عبدالناصر الحركة الوطنية في الجزائر.

راحت الحكومات الفرنسية تتعاون مع إسرائيل بشكل مكّن «الهاغاناه» وهو الجيش الإسرائيلي =

في العام ١٩٥٦ بات تأميم المصالح الأجنبية من الإجراءات المألوفة التي تلجأ إليها الدول كمحاولة لإنهاء الاستغلال الاقتصادي والنفوذ الخارجي. ومصلحة القناة هي شركة دولية مقرها باريس.

فشل كل الوساطات الدولية، واللقاءات السياسية. وتواصلت اجتماعات ثنائية بين فرنسا وبريطانيا تقرر فيها بالأخير استخدام القوة.

وفي البلاد الناطقة بالعربية لقي عمل عبدالناصر استحساناً عظيماً وقوبل بحماسة جنونية. ليغدو صاحبه فجأة رمزاً للنضال ضد الهيمنة الغربية. وعملية التأميم مأثرة رائعة من مآثر استعادة التراث العربي ونزعه من يد الغاصب ووجدنا في مقدمة المتحمسين شكري القوتلي والملك سعود ورئيس حكومة السودان. وفي ٣ من آب أعلنت الجامعة العربية بالإجماع أنها تساند مصر وأن أي اعتداء على «أية دولة عربية سيعد اعتداءً على الدول العربية كافة».

كلمات جريئة حقاً. لكنها كسابقاتها ولاحقاتها ما كانت تعني شيئاً في الواقع العملي وبقيت مصر وحدها في الميدان عند نشوب الحرب.

في ٩ من آب، وفور إعلان اتحاد النقابات العربية مناشدتها عمال النفط بالتوقف عن الإنتاج محرضاً إياهم على تدمير منشآته إذا تعرضت مصر للهجوم، بادر عبدالناصر

= السري من تلقي تدريبه في ثكنات الجيش الفرنسي سراً. وظلّت تزود الإسرائيليين بالسلاح. وبضمنها طائرات نفاثة ودبابات (لموازنة صفقة السلاح المصرية من الاتحاد السوفياتي) عندما رفض آيزنهاور طلب بن غوريون تزويده بها. كانت فرنسا قبل فترة قد فقدت الهند الصينية وأرغمت على منح تونس والمغرب استقلالهما. وأدرك (گي موليه) ووزير خارجيته أن بقاء وزارته يتوقف على الحيلولة دون مزيد من الهزائم أمام الدعوة القومية المتنامية في الجزائر. كانت الأسلحة المصرية تتدفق إلى الثوار الجزائريين، وزعيمهم أحمد بن بللا وهو نائب عريف في الجيش الفرنسي خاض غمار الحرب العالمية الثانية ببطولة وقُلد فيها أرفع الأوسمة، كان صديقاً شخصياً لعبدالناصر. واعتقد البريطانيون أن كلاً من (بن غوريون) و(إيدن) و(گي موليه) يتفقون بخصوص فكرتهم حول عبدالناصر. وسمع مرات عدة يؤكد أن أعظم خطر تواجهه إسرائيل هو من الدكتاتور المصري. كان كذلك يخشى أن تقفل القناة بوجه السفن الإسرائيلية أو السفن القادمة إلى إسرائيل. كما كان يريد إذلال الجيش المصري والحط من مكانة عبدالناصر، وإشاعة الخوف في سورية والأردن.

وفي ١٥ من تشرين الأول على إثر مقابلة تمت بينه وبين الجانبين الفرنسي والبريطاني صرّح بن غوريون يقول إن هناك تطوراً مواتياً سيحصل وشيكاً. قاصداً تمام وضع الخطة النهائية للتدخل العسكري.

إلى إصدار مرسوم يقضي بتشكيل «جيش التحرير الوطني» من خمسين ألف مقاتل، إلى جانب الجيش النظامي وعدته عشر فرق (أكثر من مائة ألف ضابط وجندي). كما أمر بزيادة إنتاج الأسلحة الخفيفة في معامل مصر. ووضع البلاد في حالة إنذار قصوى، وخطب عبدالناصر منذراً:

«الحرب معنا ليست نزهة كما يعتقد أولئك الذين يحلمون بذلك».

وفي أوائل أيلول وبعد التأكد من التحشد العسكري الانكلو فرنسي[٣] قال إنه سيطلب العون من الاتحاد السوڤياتي إذا دعت الحاجة.

في الوقت نفسه شق أجواء مصر صوت مذيع من إذاعة سرية جديدة للإخوان المسلمين ينذر المصريين من عواقب سياسة عبدالناصر الخطيرة:

«أيها المصريون التزموا جانب الحذر الشديد. إن العمل الجنوني الذي أقدم عليه الطاغية، سيجره إلى الهاوية، وسيؤدي إلى احتلال جديد تريدون الخلاص من هذا الطاغية الذي استغل مصر واستعبدها. ألا صبراً قليلاً، لأن أبناء مصر البررة سيحررون مصر».

وما إلى ذلك.

وبقيت حكومة المحافظين والحزب نفسه هدفاً للطعون والتجريح من الصحافة البريطانية وغيرها لاتهامها باستخدام إسرائيل غطاءً وذريعة للهجوم على مصر. وقد واجها أعظم الحراجة وركبهما الخجل وهما ينكران رسمياً هذا التواطؤ[٤].

---

(٣) هيكل: سنوات الغليان ص ٤٦٣- الحاشية: «استطاع المكتب الثاني في الجيش السوري (المخابرات العسكرية) بقيادة عبدالحميد السرّاج أن يحصل على كمية لا بأس بها من المعلومات عن القوات البريطانية في قبرص وبعث بها في الوقت المناسب إلى القاهرة».

(٤) لجأت الحكومة البريطانية إلى التزوير والتزييف لإخفاء الحقائق (سببت فيما بعد سقوط حكومة ايدن ووزير خارجيته سلوين لويد وغيابهما تماماً عن الميدان السياسي). وقد تناولت كتب كثيرة الأمر بإسهاب وتفصيل لا نجد حاجة إلى تعدادها ويكفي التخليص: ظهر فيما بعد أن ايدن وسلوين لويد أخفيا نواياهما عن زملائهما في الوزارة وكذلك عن دبلوماسييهما وعن الولايات المتحدة. ويسجل اللورد مونتباتن الذي كان وقتها أمير البحر الأول أن تقريراً نظمه قائد القوة البحرية التي هاجمت القناة دس فيه بعض الوقائع المثبتة للتواطؤ مع إسرائيل. قال (من المذكرات): «فأمرت بإعادة كتابته لإخفاء الواقع وبأن يتم إحراق الأصل فتم ذلك». وموشي ديان (المذكرات) الذي كان رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي وقتئذ رأى سلوين لويد «وكأن التجربة كلها بدت له شيئاً قذراً لا يريد أن يلمسه». =

في ٢٨ من تشرين الأول اخترقت القوات الإسرائيلية الحدود في سيناء معلنة أن الهدف هو تدمير قواعد الكوماندو (المجاهدين)، وفي اليوم الثلاثين توسع الهجوم ولم تمر أربع وعشرون ساعة حتى غدت المقاومة المصرية أثراً بعد عين، ولم يعد يفصل بين القوات الإسرائيلية والقناة غير ثلاثين كيلومتراً وعندها استدعي السفيران المصريان والإسرائيليان في كل من لندن وپاريس وسُلّما إنذاراً بوجوب انسحاب قوات الفريقين من منطقة القناة بمسافة ستة عشر كيلومتراً ورفض عبدالناصر الإنذار. إلا أن الإسرائيليين قبلوا به طبعاً، وانسحبوا من الشاطئ في ٣١ منه. وعندها بدأ الغزو الأصلي بإبحار القطعات المشتركة من قبرص ومالطة(٥).

= في ١٤ تشرين الأول اجتمع (ايدن) بوزير الحرب الفرنسي (ألبرت گازيه) وبالجنرال (موريس شال) في مقر القوة الجوية الفرنسية، وبسط (شال) لهما الخطة التي تضمن لبريطانيا وفرنسا السيطرة العسكرية على القناة: أن تقوم إسرائيل بهجومها وعندما تبلغ قواتها القناة تصدر إنگلترا وفرنسا إنذاراً للمصريين والإسرائيليين بالانسحاب من ضفتي القناة وبعدها تقوم قواتهما باحتلال المنطقة بزعم الحيلولة دون استمرار القتال ومن أجل ضمان الملاحة فيها. لكن بن غوريون اشترط لموافقته على الخطة أن يتم تدمير الطيران المصري قبل الهجوم. ومن وراء ظهر بن غوريون أجرى الجانبان مباحثات إضافية بخصوص غزو مصر. وأبلغ الأمريكان عبدالناصر وقد بدوا غاضبين جداً من بريطانيا وفرنسا أن الجنرال كاتيلي Gen. Keightly عيّن قائداً للغزو. هناك إشارات عديدة في أكثر من مرجع على أن نوري السعيد كان يدري بلا شك بالهجوم المرتقب. وبقي عبدالناصر إلى حين يرفض تصديق ذلك. متعللاً كما يقول مؤرخه (هيكل) بفكرة، وهي أن الحكومة البريطانية لا يمكن أن تطوّح بمنزلة بريطانيا في البلاد العربية بشن حرب على مصر بالتعاون مع إسرائيل.

(٥) بدأت الطائرات البريطانية تقصف الأهداف العسكرية في القاهرة وغيرها. وراح راديو الشرق الأوسط من قبرص يحث المصريين على التخلص من عبدالناصر. ودمرت القوة الجوية المصرية تدميراً تاماً قبل أن يتاح لطائرة واحدة منها التحليق. وفي ٥ من تشرين الثاني أنزلت قوات مظلية مشتركة في ميناءي (بورفؤاد وبورسعيد) وفي عين الوقت أتم الجيش الإسرائيلي احتلال شبه جزيرة سيناء برمتها حتى شرم الشيخ. وفي اليوم التالي قام البريطانيون بإنزال بحري في بورسعيد واحتلوها شارعاً إثر شارع. وفي عصر ذلك اليوم تلاشت المقاومة وتمت السيطرة على المدينة. وقدرت الخسائر المصرية بـ(٢٧٠٠) بين قتيل وجريح وبلغت إصابات الانگلو فرنسيين ١٤٠ بين قتيل وجريح. إلا أن «نتنگ» - المرجع السالف ص ٢١٠ - ذكر أن عدد القتلى من الجنود المصريين بلغ ألفاً فضلاً عن مئات المدنيين الذين فقدوا أرواحهم أثناء القتال في بورسعيد، ووقع ٦٠٠٠ فلسطيني ومصري أسيراً في أيدي الإسرائيليين. وخسر الإسرائيليون (١٧١) قتيلاً من الجنود. ولم يتعد قتلى الحملة الانگلو فرنسية الـ(٢٦). وتم تدمير عدد هائل من مباني بورسعيد وسد مدخل القناة، واغتنم الإسرائيليون معظم السلاح الذي تلقاه الجيش =

للتاريخ مفارقات ومفاجآت لا تدخل قط في حساب البشر ولا تعتمد على ذكاء فريد، ولا على نهاية من الدقة في التخطيط.

في الوقت الذي راح نظام عبدالناصر يتداعى، وراديو الإخوان المسلمين يطلب منه التنحي عن الحكم «تجنيباً للمزيد من الآلام للشعب المصري». وتحفز الساسة القدماء لتسلّم الحكم بتشكيل وفد لعبدالناصر يناشدونه التخلي عن السلطة. وصعق العالم الناطق بالعربية. ولم تبدِ دولة حراكاً وأخذت الضجة تتهافت في الشارع. في هذا الوقت بالذات خرج المغلوب منتصراً، لا بنظامه المتداعي، ولا بجيشه، ولا بالتعبئة المصرية خلفه ولا بالتأييد الكلامي والضجة الإعلامية في البلاد الناطقة بالعربية. بل بفضل الحرب الباردة.

غزت مصر دولتان عظميان ودولة صغيرة ذات جيش حسن التدريب والتجهيز مهيأ سايكولوجياً للحرب. ومصر إذ ذاك بلد لا يملك قوة عسكرية مهيئة معنوياً وعدة لخوض غمار أي حرب، بجيش لا يتوقع له قط الصمود أمام مهاجم كهذا.

فبفضل أقوى دولتين في العالم، قطبي الحرب الباردة الطاحنة، تم إنقاذ عبدالناصر، بل تحقق نصره.

كلا هاتين القوتين لم تكونا تعيران أقل اهتمام ببقائه أو سقوطه بعد أن أعلن في مؤتمر باندونغ ابتعاده عنهما ورفضه الدوران في فلك أي منهما، بتبنيه سياسة عدم الانحياز[٦].

فكلا هذين القطبين كان يخشى أن يجر هذا الغزو الكريه إلى أن تنقلب الحرب الباردة إلى حرب حارة يستخدم فيها سلاح الذرة. مارسا نفوذهما في مجلس الأمن وهددا بتدخل الأمم المتحدة ثم هددا بريطانيا بانهيار النقد البريطاني (قاعدة السترلنگ).

الاتحاد السوڤياتي الذي كان منشغلاً بإخماد الثورة الديمقراطية الهنغارية، أسرع ليهدد الانكلو فرنسيين بهجوم صاروخي إن لم ينسحبوا فوراً من مصر. وأخذت

= المصري من السوڤيات.

[كان البريطانيون قد أعلنوا مسبقاً أن الأهداف التي توخوها من الحملة محددة، وليس في النية احتلال مصر كما حصل في العام ١٨٨٢. على أن النتيجة النهائية التي كان الغزاة يعقدون الأمل عليها وهي سقوط عبدالناصر، لم تتحقق].

(٦) هم الپانديت نهرو، وأحمد سوكارنو، وشوان لاي أصدقاء عبدالناصر الشخصيين.

الولايات المتحدة التهديد السوفياتي مأخذاً جدياً فرفضت رفضاً قاطعاً أي تنسيق سياسي وبأي وجه قبل تمام الانسحاب الثلاثي[(٧)].

أعضاء حلف بغداد طالبوا بالانسحاب الفوري. ودول عدم الانحياز أدانت الغزو بمنتهى الشدة.

كان هناك إجماع لا نظير له ولا سابقة في تاريخ التعامل الدولي على إدانة الغزو.

في منتصف ليلة ٦ من تشرين الثاني وافق الغزاة على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وفي ٢١ منه نزلت قوات الطوارئ الدولية. وفي ٢٢ من كانون الأول سحب الانگلو- فرنسيون آخر جنودهم من أرض مصر[(٨)].

كان عدواناً صريحاً غاشماً من أي وجه نظرت إليه وبأي تقويم قومته. واستغل دعائياً في رفع مكانة عبدالناصر ونظامه بقوة الخذلان الذي مني به في الأخير وبشكل ما، إن شئت أم لم تشأ، أصبح دور القوتين ثانوياً بالمقارنة مع عبقرية عبدالناصر

---

(٧) مقتبس من نص الإنذار الموجه للدول الثلاث: «ترى حكومة الاتحاد السوفياتي لفت نظركم إلى الحرب العدوانية التي تشنها فرنسا وبريطانيا على مصر، هذه الحرب ستمخض بأخطر النتائج على السلم العالمي ماذا كان يحدث لو وجدت بريطانيا نفسها معرضة لهجوم دولة تفوقها قوة؟ دول تملك جميع أنواع أسلحة الدمار الشامل الحديثة؟ هناك دول ليست الآن بحاجة إلى إرسال أساطيل بحرية أو قوات جوية إلى السواحل البريطانية لكن بمقدورها استخدام وسائل أخرى كالصواريخ. إننا عقدنا العزم الأكيد على سحق المعتدين وإعادة السلام إلى الشرق الأوسط عن طريق استخدام القوة. وفي هذه اللحظة العصيبة لنا الأمل الوطيد في أن تظهروا الحكمة وتستخلصوا النتائج المناسبة» [أنظر: پول جونسون «حرب السويس» لندن ١٩٥٧ ص ١٤٥ Paul Johnson: The Suez War. يعلق تريفيليان: المرجع السالف ص١٢٩ على التهديد السوفياتي بقوله: «لم يأخذ البريطانيون الإنذار السوفياتي مأخذاً جدياً. إذ كان الروس يريدون صرف الاهتمام عما يفعلونه في هنغاريا وأن يسببوا لنا أعظم ما يمكن من المتاعب. وقد فعلوها ليزيدوا من نفوذهم في مصر وسائر البلاد العربية بتقديمهم كل مساندة ممكنة لمصر. لكن لم يكن محتملاً أن يورطوا أنفسهم توريطاً عميقاً ولا أن يخاطروا بإعطاء سبب للأمريكان للتحول إلى الجانب الآخر. لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من التظاهر بأن إنذارهم كان العامل الحاسم لانسحابنا حين وقفت أمريكا وكل بلد عضو في الأمم المتحدة ضدنا». كما يذكر في ص ١٢٨ قوله: «كان ونستن تشرشل على حق عند انتقاده العملية بقوله (ما كنت لأفعلها بدون الأمريكان)».

(٨) في ٧ من تشرين الثاني أمرت الأمم المتحدة إسرائيل بالانسحاب الفوري من سيناء فلم يسع بن غوريون غير الموافقة. إلا أن الجيش الإسرائيلي اتبع سياسة الأرض المحروقة عند انسحابه فدمر كل ما وجده قائماً وهو في سبيله، من طرق معبدة إلى سكك حديد إلى منشآت وأبنية.

وصموده وقوة الإرادة المصرية على مقاومة العدوان. وهذان هما اللذان حققا النصر.

يقول تريفيليان معلقاً، وهو يصف مخاطر ذلك العدوان:

«هنالك العامل السياسي. البريطانيون والفرنسيون لا يمكن أن يبقوا يحتلون البلاد إلى ما لا نهاية وسيترتب عليهم الانسحاب ثانية، وعندئذ سيخلق المصريون أسطورة مؤداها أنهم هم الذين طردوا القوات الأجنبية وحرروا أنفسهم. وسيبدو البريطانيون في كتب الدراسة المصرية ليس فقط معتدين هذه المرة، بل المعتدون الذين تم طردهم بسواعد المصريين الأبطال.

بعد مرور زمن طويل قال لي عبدالناصر: إن المصريين يقضون أوقاتهم بلوم الحكومة ونسج الحكايات المضحكة والفكاهات عليها. لكن عندما تغدو البلاد مهددة تراهم متحدين في الدفاع عنها»[٩].

وبادر عبدالناصر إلى تسليم السفيرين البريطاني والفرنسي أوراق اعتمادهما وأمر البعثتين الدبلوماسيتين بمغادرة أرض مصر خلال أربع وعشرين ساعة. كان خبيراً في استثمار نصر لم يكن له فيه فضل. فلأول مرة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية تقوم دولة ناطقة بالعربية بقطع علاقاتها مع هاتين الدولتين المهابتي الجانب. ولأول مرة بدأ العروبيون يشعرون بأهمية شعار «العزة والكرامة» الذي رفعه هذا الثائر المغوار[١٠].

وتم طرد عدد كبير من الفرنسيين والبريطانيين المقيمين في مصر، وحجزت أموالهم، وطرد أحد عشر ألف يهودي مصري من البلاد أو أرغموا على تركها وصودرت ممتلكاتهم كما حصل في العراق. وتركت موجة الغضب الشعبي المنطلقة تتصاعد، ونارها تؤجج بالإعلام الحكومي المدروس والمخطط.

---

(٩) سر همفري تريفيليان: المرجع السالف ص ١٠٦: لا أرى شعباً يفوق المصريين في «التنكيت» واختراع الفكاهة. وعبدالناصر هنا لا يتعدى الواقع في قوله. وقد بقي أبداً يخشاها ويرتقب منها ويحسب لها ألف حساب كما سنعرض فيما بعد.

(١٠) يعرض هيكل في «سنوات الغليان» صورة لعبدالناصر من عواطف متضاربة من حيرة امتلكته أول الأمر، وعدم تصديقه بأنباء الغزو وشلل فكري مؤقت. ثم تبخر ذلك كله وحل محله استعداد تام للمقاومة بإصداره الأمر بمقاومة الغزو. وبهذه المناسبة يذكر تريفيليان الذي كان وقتذاك سفيراً لبلاده الطريقة المهينة التي اتبعت في قطع العلاقات، قال استدعيت من قبل نائب وزير الخارجية ورئيس البروتوكول وأبلغت بقطع العلاقات وبقيت حبيساً مع رجال سفارتي وحوالي مائة من الرعايا البريطانيين حتى تم نقلنا تحت الحراسة.

للتاريخ منطلقات عجيبة، ومفارقات تتحدى المنطق. ومع هذا يقبلها العقل البشري لينزلها منزلة المسلمات. والفرضيات المعكوسة لا تجدي هنا مطلقاً. كما كان من السخف التساؤل عما كان سيحدث لو لم تتدخل الدولتان العظميان والأمم المتحدة للقضاء على العدوان؟ لو لم تكن هناك حرب باردة مستعرة؟ أو ماذا لو سارت الحملة الثلاثية في مجراها وانتهت بسقوط عبدالناصر؟

في سنة كتابة هذه السطور يكون قد مر مائة وعشرون عاماً على هزيمة الجنرال «جورج أرمسترونگ كستر» وإبادة كتيبته معه إلى آخر جندي إثر كمين نصبه له شيخ قبيلة من الهنود الحمر. وبسبب هزيمته في تلك المعركة كتب لهذا القائد الصغير الخلود والشهرة اللتين ما كان ليحظى بهما لو انتصر في تلك المعركة. ولبدا نصره هذا واحداً من عشرات الوقائع الصغيرة التي دارت طوال قرن من الزمن بين الجيش الأمريكي والهنود الحمر فلم تحظَ بأكثر من هامش صغير في تاريخ أمريكا. إلا أن هزيمته تلك كانت سبباً في خلوده وشهرته؛ ذلك البطل الذي صُرع والسيف في يده يقاوم مهاجميه وهو مثخن ولا سبيل له إلى النجاة. ولتحظى سيرته بعشرات الكتب وبأكثر من ثلاثين فلماً سينمائياً عالمياً، ولتكتب عنه البحوث الطوال حتى الساعة.

وقعة [لِتل بگ هورن] بقيت مصدر خيال. وموضع إكبار. مثلما نسجت حول العدوان الثلاثي ووقعة بورسعيد[11] روايات البطولات وآيات الفداء، والقياس مع الفارق طبعاً. فماذا لو تحقق النصر للمعتدي وأدى إلى سقوط عبدالناصر؟ بأقرب احتمال وفي أفضل الأحوال ربما عومل هو وعومل انقلابه في ٢٣ يوليو بمثل ما تعامل التاريخ مع واحدة من انقلابات الضباط السوريين والعراقيين. ولما حظيت سيرته وفترة حكمه القصيرة بأكثر من هامش في تاريخ الشرق الأوسط وتاريخ مصر، وليس بعشرات الكتب وآلاف البحوث. والفضل كل الفضل يعود لأولئك الكتاب بناة الأساطير حول أبطالهم الذين يفرضون أنفسهم على التاريخ وعلى أصحاب الأدوار فيه مثل ما يفرض الفاتحون أنفسهم عليه. و«المنتصرون في الجولة الأخيرة يبنون أساطير مريحة حول ضحايا المؤامرات التي أتوها، والضحايا الذين سببتها مغامراتهم ليخففوا من وقع

(١١) جرت محاولات عدة لتخليد وقعة بورسعيد، منها قيام معامل السلاح في مصر باختراع رشاشة يد أطلق عليها اسم المدينة لكن سرعان ما تبيّن أن هذا السلاح أكثر خطراً على حامله من الهدف الذي يصوّب إليه. فبطل استخدامه بوقت قصير جداً وضاعت من المدينة الفرصة.

إجراءاتهم وتصرفاتهم» على حد قول برتراند رسل[١٢].

* * *

أخطأ ايدن كثيراً عندما قوّم حملته فوصفها «بالنجاح القصير العمر». وغفل مما غفل عن اعتبارها واحدة من الأسباب الرئيسة التي زودت خصمه بالطموح والقوة والعزم على امتطاء حصان القومية العروبية الجموح وخوض عباب الوحدة المتلاطم.

وكان يختلف عن غيره من دعاة العروبة السابقين. لم يكن طائشاً غبياً مثل صلاح الدين الصباغ، ولا نظرياً خيالياً صوفياً كعفلق والأرسوزي، ولا مدرسياً تربوياً كسامي شوكت حامي الفتوة، ولا متفلسفاً حائراً كقسطنطين رزيق وساطع الحصري، وغيرهم وغيرهم من دعاة القومية الصغار. كان عبدالناصر تاكتيكياً وعملياً وواقعياً.

أدرك أولاً قيمة المفاجآت وأثرها في أعصاب الجمهور، لاسيما في الشرق العروبي الذي تستهويه البطولات الفردية وتفعل فيه سحر ما تفعله قصيدة جديدة تغنيها أم كلثوم.

وبواقع أصول شعب مصر العرقية كان يدري أن البحث عن العنصر العربي الخالص لجعله أساساً للادّعاء، كتلك النظرية التي بحثت عن العنصر الجرماني الخالص فكبت بصاحبها، هو عبث وعمل صبياني. وقد وضع مفكرو القومية العربية مقاييس واسعة جداً للتعريف بمن هو العربي وكلها يؤدي إلى صهر الأقليات وإذابتها في البلاد الناطقة بالعربية. وتلك النظريات والتعاريف لا تحل له مشكلة صغيرة. بل ستخلق له مشاكل كبيرة هو في غنى عنها لاسيما هناك في أقصى الشرق من الوطن العربي وفي أقصى الغرب منه.

لكنه كان يعرف قيمة الإعلام وكيفية استثمار النصر وعواطف الجمهور والتآمر وإحداث الانقلابات واقتناص ولاء الأنصار والمتشيعين في الوقت المناسب قدر ما كان يدرك قيمة العنف واستخدام القوة في الوقت المناسب.

هبت جماهير البلاد الناطقة بالعربية وقامت قومة رجل واحد مشيدة بصلابة مصر

---

(١٢) Lord Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) من مشاهير فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين، وحائز جائزة نوبل ١٩٥٠ في الأدب. من دعاة اللاعنف سجن بسببها مرتين (في ١٩١٨ و١٩٦١)، أسس في ١٩٦٣ مؤسسة برتراند رسل للسلام. تحظى تآليفه العديدة باحترام كبير، وأخصها بالذكر سيرته التي كتبها وتقع في ثلاثة مجلدات.

وصمودها قيادة وشعباً. وراحت التهاني تتدفق إثر فشل العدوان من كل جهة. في حين كان راديو صوت العرب يشير بكل تواضع إلى أن هذا النصر هو في الواقع نصر للعروبة وللأمة العربية قبل أن يكون نصراً مصرياً. ولم ينسَ خلال ذلك أن يشير إلى أولئك العملاء والخونة من حكام الدول العربية الذين ساندوا العدوان وعاونوه وسهّلوا له حملته بتزويده بالوقود الضروري نتيجة الارتباط غير المشرّف بأحلاف استعمارية. وكانت الإشارة صريحة والمقصود بها معلوماً(١٣).

---

(١٣) من البداية وضع الإعلام المصري موقف الحكومة العراقية موضع شبهة كبيرة. والواقع هو أن موقف حكومة نوري السعيد لم يكن يفترق عن الموقف السوري الذي كان يربطه بمصر اتفاق عسكري يتضمن وحدة الجيشين، ولا عن الموقف السعودي وغيرهما من البلاد الناطقة بالعربية. فقد كان عند الجميع موقفاً قولياً. بفرق واحد وهو أن الإعلام السوري نحا منحى الإعلام المصري في التهويل وبث الإشاعات والاتهامات بالموقف العراقي. بلغت هذه الشائعات الحد الذي انطلت على أكثر الساسة الوطنيين حذراً وأشدهم تمسكاً بالمبادئ الديمقراطية دعك من الملايين من البسطاء، وهو السيد كامل الجادرجي فأوقعته في ورطة كلفته الكثير. كان آنذاك في دمشق مدعواً لحضور المؤتمر الشعبي العربي، وصدّق ما انتشر ونزل منزلة الحقائق بأن الحكومة العراقية واصلت ضخ النفط عبر سورية إلى الغزاة البريطانيين الأمر الذي ألجأ السلطات السورية إلى نسف أنابيب شركة النفط العراقية!
أسرع الجادرجي دون تبصّر بإرسال برقيته الشهيرة إلى رئاسة مجلس الأعيان ببغداد في ١٤ من تشرين الثاني، أي بعد تطبيق قرار وقف إطلاق النار، وهذه هي: «إن لجنة الاتصال للمؤتمر الشعبي العربي تستنهض ضمائركم لتبادروا بإنزال العقوبة بحق المتآمرين الذين ارتكبوا الخيانة العظمى بالسماح للبترول العربي في العراق أن يتدفق إلى حيفا لتستخدمه إسرائيل والإنكليز والفرنسيون للقضاء على الأمة العربية. إن التاريخ يسجل موقفكم، وإن الأمة العربية بأجمعها تنتظر ما سوف تتخذونه على هذه المؤامرة الاستعمارية المنكرة، على المتآمرين من أعوان الاستعمار. وفقكم الله سبحانه وتعالى إلى ما فيه رضاه ومصلحة الأمة العربية.»
هذه البرقية تدل على مبلغ التأثير الدعائي والإعصار القومي الذي عصف بالجو العربي في تلك الفترة ليدفع سياسياً ديمقراطي النزعة ذكياً نزيهاً سديد الرأي إلى كتابة برقية اتهام صريحة بحق حكومة ينتمي إليها ويخضع لقوانينها دون التحقق من صحة ما نسب. كانت خدعة سورية ضُحّي فيها بهذا الرجل. فالأنابيب التي نسفت كانت معطلة ميتة منذ ثمانية أعوام لم تجرِ فيها نقطة نفط واحدة منذ حرب العام ١٩٤٨. ما لبثت الشائعة أن افتضح مصدرها كما بيّنّا - أعني أجهزة عبدالناصر. وعصف الغضب الشديد بنوري السعيد وحكومته إذ لم يكن للتهمة أساس قط. [أقرّ الجادرجي فيما بعد بأنه خُدع. وقد كتب برقيته بضغط عظيم من أعضاء المؤتمر السوريين والمصريين.]
وأحيل الجادرجي إلى المجلس العرفي العسكري وأقر بأنه صاحب البرقية ولم يتنصل من =

ويصح أن يتخذ العراق نموذجاً لأثر التحريض الإعلامي بالهياج الهستيري الشعبي الذي عم معظم المدن والقصبات بشكل مظاهرات بالغة العنف ضد الموقف الحكومي. شاركت في تأديتها المنظمات والأحزاب كافة(١٤).

= توقيعه، فحكم عليه بالحبس ثلاث سنين [قضى منها سنة واحدة وبعض سنة سجيناً سياسياً يتمتع بحرية تامة من زيارات دائمة إلى مجلس خاص وصلة متواصلة بالخارج]. انتهز عبدالناصر فرصة العدوان للقضاء على سمعة خصمه (نوري) وتدمير سمعته، فمن بين التهم التي قرأناها وسمعناها من الإعلام المصري: أن الطائرات البريطانية التي أغارت على مطارات القاهرة ودمرت القوة الجوية المصرية وقتلت آلاف المواطنين المصريين الأبرياء، إنما كانت تتزود بالوقود من القواعد البريطانية في العراق. وأن المستشفيات العراقية كانت تستقبل الجرحى والمصابين المنقولين جواً من ساحات القتال في بور سعيد وبورفؤاد لعلاجهم. وأن نوري السعيد في أثناء الإنزال الانكلو فرنسي لم يُخفِ استبشاره بين أصحابه عن قرب الإطاحة بعبدالناصر. ركب الحزب الوطني الديمقراطي موجة القومية العربية مع الآخرين مثلما ركبها في العام ١٩٣٣ حين ساند إجراءات حكومة الگيلاني الدموية ضد الآشوريين، وهو دليل آخر على ضعف المفاهيم الديمقراطية عند التنظيم الديمقراطي الوحيد في العراق.

(١٤) في بغداد جرت مظاهرتان عنيفتان يومي ٢ و٣ من تشرين أخرجهما الطلبة وقتل فيها تلميذان. وفي مظاهرة ٢١ تشرين نقل أكثر من أربعين جريحاً إلى المستشفيات. وفي النجف استمرت المظاهرات العنيفة المسلحة وقتل فيها طالبان وفرضت المدينة على نفسها إضراباً عاماً امتد إلى رجال الدين الذين امتنعوا عن أداء صلاة الجمعة ودامت حملة الإضراب أسبوعاً كاملاً. وساندت بغداد إضراب النجف ودخلت مقاومة الشرطة دور تنظيم دقيق تولاه القوميون والبعثيون والشيوعيون، وفي ٢٧ من تشرين الثاني بدت بغداد مدينة ميتة بإضراب عام أبقيت فيه الحوانيت مقفلة وأغلقت المطاعم والصيدليات وانتشر رجال الأمن والجيش يعتقلون مئات من المتظاهرين والساسة وقيادات الطلبة ورجال الأحزاب. [يذكر الحسني ج ٩ ص ١٠٧ من المعتقلين القوميين البارزين أعضاء حزب الاستقلال كلاً من فائق السامرائي ومحمد صديق شنشل وعبدالرحمن البزاز وجابر عمر. ويقول أيضاً إن الوزارة ركنت إلى الهيئات التدريسية لإعداد قوائم بالناشطين في المظاهرات كما استخدمت دائرة التحقيقات الجنائية عدداً من الطلاب كجواسيس على زملائهم وراح ضحية هذا العمل حوالي ١٠٠٠٠ طالب عوقبوا بالفصل أو الحبس أو الإبعاد] (في الرقم مبالغة كبيرة طبعاً).
وفي الموصل كانت مظاهرات عديدة بلغ أحدها من الشدة أن طوقت مديرية الشرطة والأمن المركزية. واقتضى الأمر الاستنجاد بالجيش لفك الحصار عنها والحيلولة دون اقتحامها. وسيق مئات من المتظاهرين والحزبيين إلى المجلس العرفي العسكري في كركوك. واجتاحت المظاهرات البصرة وتدخل الجيش للحيلولة دون انتشار المظاهرات إلى عمال الميناء. وجرت حملات تفتيش واعتقالات في سائر المدن العراقية الأخرى، وشاركت المدن الكردية في أربيل وسليمانية وكركوك في مظاهرات تضامنية مع نضال الشعب العربي. في الواقع تألّبت كل القوى =

ليس هناك وصف للشكل الذي أريد أن يصوره النظام المصري للنصر المزعوم أدق من برقية التهنئة الجوابية التي أرسلها عبدالناصر لملك العراق بمناسبة انسحاب قوات الغزو من منطقة القناة، بكل ما فيها من صلافة وتبجح وتعريض خفيّ. وإليك فقرات منها:

«إن كفاح مصر المجيد في معركة الحرية والكرامة قد أنقذ الأمة العربية من المستعمرين ومآربهم. وإن انسحاب قوى الشر والعدوان عن أرض بورسعيد المدينة الخالدة رمز البطولة والفداء قد أعز جانب العروبة وصان للشعوب العربية كيانها. وإنه لمن أحب أمانيّ أن تتوحد كلمة العرب وتتساند قواهم لعلاء مكانة القومية العربية وتدعيم سيادتها...

والله أسأل أن يلهمنا سبيل الرشاد ويتم علينا نعمة الوئام والتضامن ويأخذ بيدنا جميعاً لما فيه خير الأمة العربية ووحدتها».

هذا النجاح الذي شعر به رائد القومية الجديد كان في طياته يتوارى خطر عظيم. الآن يدق هذا الرجل باب القومية العربية بقوة يد بطل العالم العربي، فبدا لمؤرخه هيكل «ذلك الأسد الذي شد بالسلاسل» مقيداً لا بانتحاله الزعامة المصرية وحدها بل بانتحال الفضاء الأرحب فضاء العالم العربي بدخوله عاملاً فاصلاً حلبة المشاريع العربية ومشاكلها التي لا نهاية لها. فبعد ١٩٥٦ لم يعد حراً في التفرغ لشؤون مصر وحدها وقد انداحت أهدافه إثر العدوان للتأثير على مجرى الأحداث هناك: من دعم للزعماء الحاكمين الذين يعترفون له بحق التقدم عليهم أو يدينون له بالولاء أو الذين يؤيدون سياساته، إلى التربص بغيرهم ونسج المؤامرات لإسقاط من يخالفه منهم ولا يعترف بتقدمه عليهم، تحت زعم تصفية كل آثار الكولونيالية والاستعمار والعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية واستكمال العدة لسحق إسرائيل وإزالتها من الوجود. وكل واحدة من هذه الغايات تقتضيه مجهودات متواصلة وتصدياً لمشاكلها المتفاقمة، يقيم أحلافاً واتحادات تارة ثم ينقضها أو تنتفض عليه تارة. يتدخل عسكرياً بشكل مباشر ويقحم

= السياسية في العراق بمناسبة العدوان على حكومة نوري السعيد وكانت لناصر فرصة نادرة للغمز في قناة هذا السياسي العجوز. وفقد معظم الساسة «الرجعيين في البلاد الناطقة بالعربية مصداقيتهم أمام مواطنيهم». [الرجعيون هنا هم الذين لا يقرون سياسات عبدالناصر ولا يخضعون لمشيئته].

نفسه عسكرياً بشكل غير مباشر. ويزج الإعلام الدعائي في معاركه المتواصلة بشكل لم يشهد له الشرق الأدنى مثيلاً، يغازل أعظم دولة اشتراكية لضمان مساعدتها العسكرية ويتودد إلى أعظم دولة رأسمالية ناشداً الصدقات والعون الاقتصاديين، دون أن يرى في ذلك حراجة و«تلك هي الشروط التاريخية التي حددت مصيره وحمّلته عبئاً أكبر من أن يتحمله أي من البشر. اتخذته العروبة بطلاً لها وحملته خارج مصر إلى دور دولي - عروبي»[١٥].

في مجموعة من البلاد تتفاوت في التطور السياسي، بأنظمة متباينة متصارعة، وعقائد متنابذة، وبالنفوذ الأجنبي كانت الوحدة العربية التي «يؤمن» بها ويعلنها الجميع مستحيلة عملاً. وهو يراها أيضاً متعذرة بوجود حكامها الرجعيين المحافظين الميالين إلى الغرب أكثر من اللزوم. وهذا هو «العبء الذي كان أكبر من أن يتحمله أي بشر». تطويعهم أو إسقاطهم.

وفي هذه السنة، وبعد مرور خمسة عشر عاماً على آخر انقلاب عسكري عراقي، بوسعنا القول وبناءً على مختلف الشهادات والمصادر أن الضباط الانقلابيين العراقيين تمكنوا خلال أربع سنوات من تكتل وتفرق، وانقسام والتئام، وفرقة ولقاء من تشكيل هيئة عليا استعارت لها اسم ضباط ٢٣ يوليو، وتعيين أهدافها وهي القضاء على نظام الدولة وإزاحة الطبقة الحاكمة وإعلان الجمهورية.

* * *

كانت سورية أقرب الأهداف القومية لعبدالناصر.

أطلقت الدوائر السياسية والمجالس الخاصة على السفير المصري في سورية لقب المندوب السامي وبدت السفارة المصرية في العام ١٩٥٦ وأوائل ١٩٥٧ أشبه بخلية نحل، كانت الأرجل التي تدخلها وتخرج منها أكثر من تلك التي تختلف إلى ديوان رئاسة الوزراء ومقر رئيس الجمهورية. وبتحريض وتجنيد من هذا «المندوب السامي» المصري أقدمت حكومة العسلي على خطوات سياسية تنسجم مع الخطى السياسية المصرية في المجالين الداخلي والخارجي[١٦]، ببركات حزب البعث الذي ضاعف

---

(١٥) هيكل (المرجع السالف) ص ٣٦٣

(١٦) اعترفت سورية في ١ تموز بالصين الشعبية، وفي ٢٠ آب عقدت اتفاقاً ثقافياً مع الاتحاد السوفياتي أعقبها تبادل وفود ثقافية وإرسال مئات من الطلاب للدراسة فيه وفي توابعه من دول =

نشاطه أتباعه من الطلاب وواصل النضال «حتى آخر طالب[١٧]»

وفي دنيا العسكر بدا الانقسام والاضطراب بين مختلف المجموعات وظاهرة التحول المستمر في ولاءات الضباط فاشية ومستمرة. وحاول القوتلي إبعاد «السرّاج» بتعيينه ملحقاً عسكرياً لسفارته في مصر، فأخفق بسبب معارضة الحوراني وخالد العظم والكتلة العسكرية الموالية لمصر والبعث.

بعد إخفاق (القوتلي) في تحقيق نوع من التوازن بين اليسار والفئات المعارضة من فلول الأحزاب القديمة، رأى أن يشخص إلى القاهرة ليحل المشكلة مع عبدالناصر فانتشرت إشاعات حول اعتزامه الاستقالة.

في أثناء ذلك بدا وكأنّ البعثيين صاروا يدركون الخطر الذي يتعرضون له جراء تعاظم النفوذ السوفياتي ومحاولات الشيوعيين الفوز بمواقع سياسية وامتيازات. وفي أثناء بحثهم عن مخرج ماوجدوا أنفسهم إلا وهم يشخصون بأنظارهم إلى المنقذ القومي

= الكتلة الشرقية، وقام وفد پرلماني سوڤياتي بزيارة لدمشق في ٤ حتى ١١ من أيلول، وفي تشرين الأول حل القوتلي ضيفاً رسمياً على الحكومة السوڤياتية، فكان أول رئيس من الدول العربية يفعل هذا. وظهرت الأفلام السوڤياتية في صالات العرض السورية إلى جانب أفلام مصر الإخبارية للنظام المصري في الشؤون الدولية لتحل محل أفلام الغرب. وخير مثال يمكن عرضه للنفوذ المصري هو الضغط الذي مارسه الناصريون بتشجيع البعث والحزب والشيوعي وضباط الجيش طوال أربعة أشهر (كانون الأول ١٩٥٦- آذار ١٩٥٧) لتفضيل العرض الچيكي في صفقة السلاح على العرض الغربي في حين كان الأخير أفضل من الأول بكثير. [قام نزار أرسلان وكيل شركة بركون Procon وهي الشركة التي قدمت العرض الأفضل بنشر التفاصيل في ٢٤ نيسان ١٩٥٧، بشكل إعلان صحفي دفع ثمنه].

كان موظفو وزارة الخارجية السورية يعلقون ساخرين على الاجتماعات التي يعقدها وزيرهم (البيطار) ووكيل الوزارة (صلاح طرزي) وعبدالله الريماوي (وهو القائد البعثي الأردني وزير الخارجية الذي طرده الملك الأردني) وينعتونه «بالمجلس السوڤياتي الأعلى».

(١٧) في ٣١ من آب ١٩٥٦، هاجم جلال السيد (أحد مؤسسي حزب البعث) بعد استقالته من الحزب، في خطبة له بمجلس النواب «أولئك السياسيين الذين يتسترون وراء الطلاب ويقولون سنحارب إلى آخر طالب» قاصداً عفلق والبيطار وقادة البعث الآخرين. لم يسكت حزب الشعب لا في المجلس ولا في الشارع. واتسم بعض الصحفيين بالجرأة الكافية لانتقاد الحكم المستبد بالحريات، وبالانعطاف نحو اليسار ومهاجمة البعث، والإشارة إلى مخاطر وضع الاقتصاد تحت رحمة السياسة والمصالح الحزبية، الأمر الذي أدى إلى خسارة سورية أسواق الدول الجارة. وتعالت الضجة «بربكم أبعدوا الاقتصاد عن السياسة».

الجديد في أرض الكنانة، ليفقدوا أملهم في الاستمرارية بإلقاء سورية في أحضانه[١٨].

كانت سورية في أواخر العام ١٩٥٧ مهددة مبلبلة ضائعة الرشد. أشبه بكرة تتقاذفها أقدام لاعبين كثار وبأكثر من هدفين في الملعب: أطماع حزبية، شهوة إلى السلطة، ثارات سياسية، إرهاصات خارجية، مخاوف من انقلاب عسكري دموي وما إلى ذلك[١٩].

---

(١٨) رانت على الجو أزمة سياسية دولية جراء هذا التحول فأرسلت الولايات المتحدة نائب وزير خارجيتها (لوي هندرسن) في ٢٤ آب إلى الشرق الأوسط ليصغي إلى مخاوف تركيا من خطر قيام نظام شيوعي على حدودها الجنوبية، وكانت قد صدرت الأوامر للجيش التركي بالاحتشاد على الحدود السورية بحجة القيام بمناورات، وبحث مجلس الأمن في الشكوى التي رفعتها سورية ضد الضغوط التركية - الأمريكية.

(١٩) ليس من الإنصاف هنا أن ننسى اللاعب السعودي الذي يمثله الوسط الحريص على الاستقلال الوطني بعيداً عن العراق ومصر والاتحاد السوڤياتي. كان نجم عبدالناصر الصاعد قد دق جرس إنذار خطير في أذن السعوديين الذين كانوا يدعون إلى الوحدة الإسلامية بدلاً من الوحدة العربية. كان الأمراء الحاكمون الذين أصبحوا أغنى من في الدول العربية كافة يتطيرون من دعوة القومية العربية والعروبيين والوحدة. فلا يفرقون بين من يدعو إليها ويدعو إلى الشيوعية فكلاهما في نظرهم حركة هدامة تخفي نية القضاء على الإسلام (أي القضاء عليهم) والدعوة إلى الوحدة إنما هي دعوة لاقتسام ثرواتهم أي لانتهابها. بقيت السعودية صديقة لمصر عبدالناصر عندما كان هذا يتحرك في حدود مصر ويعمل لمصر فقط مستبشرة بقوته لتحييد العرشين الهاشميين اللذين ما زالا يعتبران الحجاز ملكاً لهما بالوراثة وتراث أسرتهما الثوري الذي أمن للجزيرة العربية خلاصاً من الهيمنة العثمانية. لكن ما أن أعلن الزعيم المصري بأنه قائد الأمة العربية يحمل رسالة إنقاذ العالم العربي من الإمپريالية والاستعمار وقيادته إلى الوحدة الشاملة حتى انقطعت حبال الود وانتهت زيارات الصداقة وعفى على ميثاق التضامن الثلاثي (راجع ما سبق) وراحت السعودية تسعى بكل ما أوتيت من عزم ومقدرة مالية على إجهاض صفقة الزواج. ففي العام ١٩٥٧ قام مستشار الملك السعودي الشيخ يوسف الياسين بزيارة سرية للقوتلي ليضعا معاً برنامجاً يؤدي إلى جعل سورية عضواً في اتحاد إسلامي أو وحدة، وأن يحاول إقناع الضباط به أو يتخلص منهم ويفك ارتباط بلاده بالاتحاد السوڤياتي. والمرء لا يسعه بالمناسبة المقارنة بين سذاجة القوتلي القريبة من البله وبين دهاء السرّاج المتناهي. كيف استطاع إحراز ثقة القوتلي بهذه السرعة ليأتمنه على سر خطير ومفاوضات مع دولة سبق للسرّاج أن قدم متآمريها في محاكمة صاخبة، وهو الذي سعى إلى التخلص منه قبل أشهر بتعيينه ملحقاً عسكرياً فأخفق. ما من شك في أن هذه الثقة هي التي حفزت السعودية على اختياره (من بين الناس جميعاً) لتنفيذ خطة تصفية عبدالناصر جسدياً. حماقة كلفت الملك سعود عرشه فضلاً عن مبلغ يقارب مليوني پاون سترليني وفضيحة كبرى دوّت في أرجاء العالم. بطبيعة الحال جرى التنسيق للإيقاع بالسعودية. أسرع السرّاج ليزف نبأ اختياره بالذات لتنفيذ عملية الاغتيال التي اتفق على =

أفعى أوديسيوس المتعددة الرؤوس هي الشهوة إلى الحكم التي ملكت على تجار السياسة السوريين مذاهبهم، مدنيين كانوا أم عسكريين. كلما زاد واحد من الرؤوس نمواً زادت شهوته وشراسته. وفي سورية كان كل رأس، أأعوزه الطعام أم لم يعوزه، ينثني إلى الرأس الآخر ليحاول ابتلاعه.

عندما أنهكت المحاولات تلك الرؤوس وقصرت عن أكل بعضها بعضاً، وعندما وجدت صولاتها لا تؤدي إلى نتيجة، ضمت الرؤوس نفسها يائسة وشدت أعناقها في باقة تقدم إلى المنقذ. ذلك المرتقب المتوقع المحتوم الذي أحكم تدبيره، المتربص بسيفه البتار عبر القناة ليقطع به تلك الرؤوس صفقة واحدة.

لم يكن هناك حزب أو تجمع سياسي في سورية قادر على تأمين غالبية مطلقة تشد أزره. وكان بين الرؤوس المتصارعة - خلاف مؤيدي الوحدة - من لا يجد أي حكمة فيها. وأن إنجازها قد يفضي إلى انشطار في المعسكر المناوئ للاستعمار والإمبريالية، وأن من شأنه إبعاد السعوديين وهم العرب الأقحاح الذين كانوا يخشون قيام وحدة بين سورية ومصر قدر مايخشون من قيامها بين سورية والعراق. وكان لهم أشياعهم الكثيرون، وهم ليسوا عملاء لهم قط كما تبين عند وقوع الانفصال. فالأولى كانت ستفضي حتماً إلى تسلط القومية العربية ذات المنحى الاشتراكي مما يهدد نظامهم الإسلامي، مثلما يهددهم العرش الهاشمي المزدوج وهو العدو اللدود المقيم. وعن موقف البعث، فقد كان يعيش أزمة داخلية، إليك هذا القول للفريق مصطفى طلاس:

«. . . لكن والحق يقال، إذا كان الأساتذة الثلاثة (يقصد الحوراني والبيطار وعفلق) رأوا بتحقيق الوحدة مكاسب شخصية لكل منهم وخلاصاً وحلاً لمشاكلهم وخلافاتهم التي ما كانت تنتهي، إلا أن الأهم من كل هذا أو ذاك أن الوحدة جاءت لتخلصهم من تناقضاتهم مع قواعدهم الشعبية. فقد أصبحت الشِّلل (جمع شلة) والتكتلات والمحسوبية تفعل فعلها الساحر، ولم

= أن تتم بوضع قنبلة موقوتة في طائرة عبدالناصر التي ستقله من دمشق إلى القاهرة. ودفع للسرّاج مبلغ ١,٩٠٠,٠٠٠ باون بموجب ثلاثة صكوك لحامله مسحوبة على فرع البنك العربي في لندن، أولها بمبلغ مليون باون مؤرخ في ١٩ من شباط ١٩٥٨، وثانيها بمبلغ مائتي ألف وثالثها بمبلغ سبعمائة ألف مؤرخين في ٢٦ منه. بعد قبض المبالغ خرجت الصحف القاهرية والدمشقية بالتفاصيل مدعمة بصور للصكوك التي تم سحبها، وبدت السعودية وملكها أضحوكة عالمية، واستبدل ملكها بأخيه فيصل فوراً. لم يكن هناك مجال للإنكار أو وجه للتبرير والدفاع.

يعد للموضوعية والنضال الحزبي أي دور في تقييم الرفاق الحزبيين. ولذلك بدأت الهوة تكبر أكثر فأكثر مابين قيادة الحزب وقواعده، ولذلك فقد رأت القيادة العليا للحزب أن الوحدة هي خشبة الخلاص[٢٠] من كل المشكلات التي ستنفجر في وجهها مستقبلاً وهي غير قادرة على مجاراتها أو كبتها أو اللحاق بها وتجاوزها لأن عقلية التنظيم والعمل الحزبي الصحيح والروح الديمقراطية كانت بعيدة عن قادتنا بعد الأرض عن السماء»[٢١].

هنالك أيضاً أولئك القوميون العروبيون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «الناصريين» وإليهم تعزى عقيدة القومية العربية الناصرية. نجدهم يحملون بلسان عميدهم ومفكرهم «ساطع الحصري» الذي فتن بشخصية عبدالناصر كما فتن قبل عشرين سنة بشخصية

---

(٢٠) مصطلح مسيحي النجار واسع الانتشار بين الكتاب السوريين واللبنانيين، فالخشبة في هذه الاستعارة يقصد بها الصليب الذي سمّر عليه المسيح مقدماً نفسه فداءً من أجل خلاص البشرية بحسب عقيدة المسيحيين.

(٢١) الأقليمية جذورها وبذورها: الص ٧١٧-٧١٨ المرجع المتقدم. نقول: في النصف الثاني من ١٩٥٧ بدت فكرة الوحدة عند البعث «عملية» أكثر من كونها مجرد شعار. وتناولت فجأة مسألة قيام اتحاد فدرالي مع مصر بأسلوب مندفع وبوصفه ضرورة قصوى. ظاهرياً خشي البعثيون انقلاباً عسكرياً لأرجحية المناصب العسكرية الكبرى في يد شيوعيين، تظاهروا بخوف لا مبرر له لأنهم كانوا مهددين بانشقاق كفيل بالقضاء على الحزب. إذ كان حزبهم يجتاز أزمة داخلية تنذر بأسوأ العواقب أثارها تقرير خاص وضعته لجنة حزبية (فوق العادة) في شهر تموز جاء فيه أن أعضاء الحزب قد انقسموا إلى تيارين متناقضين، تيار يأخذ بالتفاسير الماركسية وتيار يتجه إلى النازية-الفاشية، أو الاشتراكية الغربية الليبرالية، أو يتمسك بمبادئ النظام المصري. وأشار التقرير أيضاً إلى خطورة الاتجاه الخاطئ في تفسير معنى «الرسالة العربية الخالدة» التي أصبحت في الواقع رسالة الإسلام. وعدد التقرير أيضاً جملة أخرى من أسباب الشكوى كانعزال القيادة عن الجماهير الحزبية بقوله نصاً: «أصبح الحزب لا أكثر من منتدى اجتماعي، من مظاهره تباين آراء القياديين لتبدو القيادة من خلاله وكأنها منشقة على نفسها، وقد غلبت عليه روح الانهزامية». ويبدو أن السرّاج حصل على هذا التقرير «السري للغاية» وبعثه إلى عبدالناصر، بدليل أنه ذكّر قادة الحزب الذين جاؤوه للشروع في محادثات تجربة ثانية للوحدة في العام ١٩٦٣ إذ قال لهم «إن معلوماتي حول الحزب أيام محادثات الوحدة في شهر كانون الثاني ١٩٥٧ أنه كان يعاني من مشاكل كادت تستعصي على الحل وكدنا نتصور جميعاً بأنكم مقدمون على حل الحزب». ومهما يكن قد جال في أذهان قادته بخصوص مصيرهم إذ ذاك فقد كان الأمر واضحاً تماماً: تعلقوا بقلق الغريق المشرف على الهلاك بفكرة إيجاد رابطة دستورية مع مصر كعلاج وحيد باق لضمان حياة الحزب. لذلك لم يلاقوا صعوبة في إثارة حماسة جماهيرية وعدلوا فجأة عن شعار الاتحاد الفدرالي إلى الدعوة للوحدة الشاملة الكاملة.

«بكر صدقي» فوقع أسير حفاوته به وقت ذله ليعتبره «المنقذ الأكبر للأمة العربية ومحقق وحدتها بعد الرسول»[٢٢] تراه يحمل حملة شعواء فيها من الصراحة والصدق ما فيها على البعث وعلى عفلق فيلسوفه متهماً إياه بسرقة فلسفته في القومية وتشويهها، رافضاً باستنكار وشدة أن يكون البعث من أقدم المنادين بالوحدة العربية، عائباً في الوقت ذاته ضحالة تفكير عفلق لاسيما في اعتقاده بأن الإيمان بالعروبة الوحدوية وحده يكفي:

«إن هذه الكلمة غامضة لا تقنع الآخرين الذين يرغبون في أن تكون أسس كل الأشياء المعرفة القائمة على الاستقلال، وإن الادعاء بأن البعث كان له الدور الأول في قيام الوحدة هو ادعاء كاذب بعيد عن الصحة، والصحيح هو أن الجيش السوري هو الذي وضع حزب البعث وأقطابه أمام الأمر الواقع»[٢٣].

وفي الفقرة الأخيرة من هذا القول لا نستطيع مجادلة الحصري فتلك الوحدة لم تقم على أسس شعبية أو إرادة حرة جماهيرية، وإنما كانت وسيلة للحيلولة دون التقام الرؤوس للرؤوس والوثوب بعضها على بعض.

وكان للحزب الشيوعي السوري طائفة من كبار الضباط: العميد أمين النفوري نائب رئيس الأركان كان صديقاً للحزب وإن تظاهر بالحياد، والمقدم أحمد عبدالكريم رئيس المكتب الثالث (الحركات) شيوعي يحمل بطاقة الحزب، وفوق كل ذلك كان رئيس الأركان نفسه اللواء عفيف البزرة (البزري) من أنصاره والمتعاطف بشدة مع الحزب. وإلى جانب هؤلاء الثلاثة كان هناك حشد كبير من القادة الصغار وصغار الضباط. إلا أن قيادة الحزب الشديدة الحساسية واليقظة - بعد طلاقها البائن من البعثيين - كانت قد

---

(٢٢) في نظر الحصري «كل من ينتمي للأقطار العربية ويتحدث بالعربية فهو عربي بصرف النظر عن إسم الدولة التي يعد مواطنها رسمياً وبصرف النظر عن أصله أو نسبه أو حسبه». وهاجم المصريين غير العروبيين بقوله «ليس من حق المصريين أن يولوا ظهورهم للعروبة استناداً لارتباطهم بالحضارة الفرعونية». العروبة أولاً، بيروت ١٩٦٠، ص ١٩١. وشأنه في هذا شأن كل مفكري القومية العربية فقد وضعوا مقاييس واسعة جداً للتعريف بمن هو العربي، وكلها كما شرحنا يؤدي إلى التهام وصهر الأقليات القومية الأخرى في البوتقة العربية، والنهاية واحدة: الكل ينكر حقوق الأقليات القومية والعنصرية للآخرين.

(٢٣) من مقال نشرته جريدة (الأنوار) جريدة الحزب للدكتور بدرالدين السباعي عضو اللجنة المحلية في حمص جاء فيه «إن كل الطرح حول قيام اتحاد فدرالي مع مصر ما هو إلا ستار يغطي سعي البعث إلى احتكار السلطة. إن أعين الشيوعيين السوريين مفتوحة ولن يتركوا البعثيين يخدعونهم ويعملون من وراء ظهورهم».

استوعبت لب القضية وأدركت الباعث الحقيقي للانقلاب الفكري البعثي والانتقال الفجائي من شعار الاتحاد الفدرالي إلى الوحدة الناجزة الكاملة، ففيها تهديد عظيم لكيان الحزب إذ لم يكن أسهل على البعثيين عند تمام الوحدة اللجوء إلى القوانين المصرية الصارمة التي اشترعها عبدالناصر للقضاء على الشيوعيين واستئصال الشيوعية. وقد رأوا بأم أعينهم كيف نثر أشلاء الحزب الشيوعي المصري نثراً. سيفعلون ذلك دون أن يمكن توجيه اللوم إليهم أو أن يتحملوا مسؤوليته الأدبية والسياسية إزاء الشيوعية العالمية والبلدان الاشتراكية والأحزاب التقدمية في الخارج. إذن كان على الحزب أن يتحرك في مجال إصلاح جسوره مع البعث بعد المعارك الصحفية العنيفة التي نشبت بينهما إثر دعوة حزب البعث إلى الاتحاد الفدرالي. ففي ٣١ كانون الأول ١٩٥٧ كتب خالد بكداش أمين سر الحزب العام مقالاً ضافياً حذّر فيه من محاولات الإمپريالية الأمريكية خلق خلافات بين الحزب الشيوعي السوري وحزب البعث.

لكن الموجة العارمة المتجهة نحو شاطئ الاتحاد الفدرالي كانت كاسحة لم يكن بمقدور الحزب الشيوعي الصمود لها. وبدت حاجته إلى الانطلاق في تاكتيك أكثر حصافة وذكاء.

في ١١ كانون الثاني ١٩٥٨ فوجئ البعثيون مفاجأة لم تكن في حسابهم مطلقاً وكان عليهم أن يعملوا بسرعة لئلا يدفعوا إلى الخلفية، ويفقدوا الدور «الطليعي» الذي ادعوه دائماً.

إن القصة تستحق التسجيل فعلاً، وهي ليست من نسج الخيال وإن بدت خيالية روائية شبيهة بروايات «رفائيل ساباتيني وألكساندر دوما».

في ذلك اليوم قام عفيف البزري بمعرفة الحزب الشيوعي واطلاعه وبمساندة من العميد أمين النفوري وأحمد عبدالكريم والسرّاج، وبتشجيع من خالد العظم رئيس الوزراء(٢٤) بإقناع مجلس القيادة العسكري (وهو أعلى سلطة في الدولة) بالطلب من

---

(٢٤) يحاول خالد العظم أن يتنصل من كل دور له رئيس وأن يجعل نفسه «عامداً» أسير إرادة الضباط فهي أسهل تبعة من إلقاء مسؤولية الوحدة على عتبة منزله، يقول: لست أدري إذا كانت خلافات العسكريين هي التي جمعتهم لقيام الوحدة مع مصر، أم أن مؤامرات أجنبية توصلت إلى إقناعهم ولو عن طريق مباشر بأن البلاد سائرة نحو الانهيار إن لم يتدارك الأمر عبدالناصر بنفسه [المرجع السالف: المذكرات ج٣ ص١١٩]. (يكتنف الغموض سبب تحمس البزري لفكرة الحزب الشيوعي وانضمامه إلى كتلة الوحدة، فقد تمت تنحيته بعد إتمامها (هذا الضابط =

مصر إقامة وحدة شاملة كاملة بين القطرين وكتبت مذكرة لعبدالناصر على شكل نداء، وهذا أهم ما جاء فيها:

«نظراً للظروف الراهنة التي نجمت عن الانتصارات التي حققتها الأمة العربية في كل من مصر وسورية، وكان من نتائجها ارتباط قضيتنا العربية بالسلام العالمي إلى حد كبير، الأمر الذي أتاح الفرصة لاتخاذ خطوات عملية سريعة من جانبنا تتفق وأهمية انتصاراتنا. ونظراً لاحتمال حصول تغيير في هذه الظروف سيما وأن الإمپرياليين استطاعوا أن يبلغوا باستعداداتهم الحد الذي قد يمكنهم من المغامرة بحروب محلية أو عالمية (كذا!) بسبب تهديد مصالحهم الحيوية في الوطن العربي. فقد دعا هذا إلى ضرورة اتخاذ قرار فوري بإقامة كيان سياسي لوحدة شاملة مع مصر ووضعه موضع التنفيذ حالاً...».

وأسرع خالد العظم إلى طرح هذه «الضرورة» في الشارع شعاراً مدعماً بوسائل الإعلام الرسمية مدافعاً عن فكرة الاندماج الكامل بوصفه عملاً طبيعياً أكثر من الاتحاد الفدرالي. بان عجز حزب البعث في وجه التيار الجارف وقضي على أملهم في أي نجاح تحرزه أطروحاتهم في الاتحاد الفدرالي وطُوّق الضباط البعثيون وحُصروا في زاوية لا مخرج منها إلا بالانحياز إلى جانب القيادة. صفق «الحوراني» جذلاً لهذا الطرح. ذلك المغامر السياسي الذي لا يدين بمبادئ أو ولاءات خلا إصراره على أن يكون الفائز في كل لعبة سياسية، وكان له دوره الرئيس في تحويل بقية زعماء البعث عن طروحهم في الاتحاد الفدرالي بمعونة قريبة من السرّاج، الذي طرب كثيراً للتحول الشيوعي المفاجئ واهتمامه باستباق الآخرين إلى طلب الوحدة والإمساك بزمام المبادرة التي تتيح له أفضل المقاعد.

إلا أن مركز الثقل الحقيقي في اللعبة، والمرجع الأخير، لم يكن غير المندوب السامي، السفير محمود رياض، وهو الآن يتحرك بإرشاد رئيسه في القاهرة بدقة وتاكتيك بارع.

= رفّع مرتين خلال سنة واحدة). يذكر أنطوني نتنگ أن العالمين بخفايا الأمور أمثال خالد العظم وغيره بددوا هذا الغموض بقولهم إن رئيس الأركان هذا لم يكن يؤيد فكرة الوحدة إلا بتوقعه أن عبدالناصر سيرفض العرض مرة أخرى كما فعل إثر اتصالات سرية سابقة تمت بينه وبين الضباط الآخرين.

هناك عامل الخوف الأعظم الذي يهيمن على الساسة والأحزاب وكتلات الضباط في أثناء صراعها على حيازة السلطة، وعبدالناصر سيستغل هذا الخوف إلى أبعد حد: فـ«تحت ظل الخوف يأتي تكرار الرفض ويتبعه الإلحاف».

في الوقت الذي دفعت فكرة الوحدة إلى أذهان الجمهور هرع السرّاج[٢٥] بتدبير سابق - إثر مقابلتيه الأخيرة للملحق العسكري الأمريكي - إلى البيطار واتفق الاثنان على الحل الأوحد: عرض الوحدة الاندماجية على عبدالناصر رسمياً، وحثه على مواجهة «المندوب السامي» ففعل.

كرر محمود رياض اعتذار مصر عن القبول بالوحدة، فسأله البيطار: «ما الذي يخشى من قيامها؟». قال محمود رياض: «الواقع هو أن مصر وسورية لا تتحدثان بلغة واحدة». [كان يتعمد جواباً غامضاً لا معنى له]. فأعاد البيطار عرضه بإلحاح: «إلا أنك توافق من حيث المبدأ على الوحدة. أليس كذلك؟». أجاب رياض: «الأمر سواء، أوافقت مصر على الوحدة أم لم توافق. فسورية في الواقع غير مستقرة حالياً إلى الدرجة التي يمكن معها الموافقة على الوحدة». قال البيطار: «ما الذي تقصده من عدم الاستقرار؟».

- إن الجيش يتدخل في السياسة أكثر مما ينبغي. وقد عانت سورية انقلابات عسكرية كثيرة، ولو بقيت الحالة على هذه الشاكلة لوجد احتمال في وقوع المزيد منها. الجيش هو الذي يقبض على ناصية الحال.

أجاب البيطار: «ما قولك لو أن الجيش نفسه يطلب تحقيق الوحدة؟».

ولم يجب محمود رياض بشيء. لكن البيطار أدرك بأن عبدالناصر لا يرى جدوى في أن يقدم خاتم الخطوبة للساسة قدمائهم ومحدثيهم. وأن الجيش هو المطلوب.

---

(٢٥) يصفه نثنگ (المرجع السالف- الفصل ١١) «شاباً شاحب البشرة صموتاً نزر الكلام ذا عينين حادتي النظر، جهم عبوس جدي لا يبتسم ولا يعرف للفكاهة معنى. ملك عليه مذاهبه إعجاب شديد بالزعيم المصري عند أول لقاء لهما، كان يجعله يحمرّ خجلاً كلما توجه إليه عبدالناصر بالحديث. وقد عمقت حرب السويس هذا الإعجاب وبدا طوال سنوات ١٩٥٦-١٩٥٨ وكأنه ضابط استخبارات لا للجيش السوري بل للزعيم المصري. وقد سجلت له زيارات سرية للقاهرة طوال العام ١٩٥٧ كانت لغرض اللقاء به وإطلاعه على المواقف السياسية هناك وتلقي الإرشاد منه». ونقلت جريدة نيويورك تايمس (عدد ٢٩ أيلول ١٩٦١) عن مسؤول مصري كبير تحدث حول السراج فوصفه «بكلب الرئيس الأمين». ووصفه هيكل مرتين (المرجع السالف) و«ما الذي جرى في سورية» بهذه العبارة: «كان بوسع السرّاج أن يسمع دبيب نملة في سورية».

حتى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان أعلى الأصوات وأشدها ارتفاعاً في تأييده عند الغزو، بل حتى أقرب المناصرين له، فقد كان يدرك من تقارير السرّاج ومندوبه السامي أن لا سيطرة شعبية هناك للبعثيين أو للقوميين. وهما كالحزب الشيوعي وفلول حزب الشعب والكتلة الوطنية أسرى بيد ضباط الجيش. انثنى البيطار إلى السرّاج ليعلمه بالحقيقة التي كان السرّاج يعلم بها: «عبدالناصر غير واثق منك ومن زملائك في الجيش وعليكم أن تدبروا شأنكم معه».

لم يجد البعث صعوبة تذكر في تخريج فلسفي جديد لشعاره يتفق والمأزق الذي وقع فيه: أول خطوة في تحقيق الشق الأول من الشعار هو الوحدة. ثم إن عبدالناصر برهن عملياً على جديته في تحقيق الشق الثالث وهو الاشتراكية بتأميم القناة والإصلاح الزراعي ومصادرة أموال الأسرة المالكة وتأميم المصالح والصناعات الكبرى وإصدار قوانين أخرى تنخرط في مجال المنحى الاشتراكي.

ماذا عن الشعار الثاني؟ هذا يمكن تأجيله.

كان عبدالناصر يعلم بأن الضباط الأربعة عشر الذين جاؤوا بسورية إليه ليسوا غير مجموعة من العسكريين الطموحين الأغرار المتآمرين المغرمين بتدبير الانقلابات، وأن ما يصنعونه الآن لا يخرج بجوهره عن دائرة انقلاب عسكري قامت به مجموعة من الضباط المتآمرين المدربين على الانقلابات، انقلاب عسكري آخر بكل معنى الكلمة ضد حكومة مدنية دستورية في دولة تامة السيادة.

انقلاب عسكري ساهمت فيه وأحدثته بالتآمر والدسّ والوقيعة دولة خارجية هي مصر.

وهذا فعلاً ما تبادر إلى ذهن رئيس الجمهورية القوتلي عندما اتصل بمحمود رياض السفير عشية سفر الضباط إلى القاهرة ليقول له ما جاش بنفسه في تلك الساعة:

إن ما حصل هو انقلاب عسكري وإن الحكومة الشرعية لا تدري به[٢٦].

---

(٢٦) قالوا إنهم عندما رحلوا إلى القاهرة (على متن طائرة عسكرية) كانوا يحملون عرضاً موقعاً من القوتلي يناشد فيه عبدالناصر بقبول الوحدة. وقرروا أنه في حالة رفضه البقاء ورفض العودة حتى يجاب إلى مطلبهم ولو أدى ذلك إلى اعتقالهم! كانوا في عجلة من أمرهم حتى أنهم لم يأخذوا بجاماتهم معهم حين بقي السرّاج وأمين النفوري وثلاثة آخرون من المؤتمرين في دمشق للسيطرة على الوضع. ولم يعرف القوتلي بسفرهم إلا في اليوم التالي. وقال له الضباط الباقون إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً وإن مستقبل سورية هو الآن بيد عبدالناصر، وكل ما كان في إمكانه =

بدا عبدالناصر مستعداً للقاء ومتوقعاً: اشترط عليهم أن لا يتدخل الجيش في السياسة وأن تحل جميع الأحزاب السياسية نفسها. فوافقوا وهذا موطن عجب: إن كان يسهل على الضباط التفريط بالحياة الحزبية والنظام البرلماني، فكيف فرطوا باللعبة الأثيرة على قلوبهم ليتنازلوا عن دورهم السياسي بمثل هذه السهولة؟[٢٧] بعد الإيجاب والقبول وبإضافة شرط ثالث (صوري) وهو إجراء استفتاء عام.

أعلمت دمشق بالصفقة. وفي اجتماع وزاري اقترح البيطار إرسال وفد حكومي إلى القاهرة لبسط وجهة نظر الحكومة. فخوّل بالذهاب ومعه مسودة مشروع اتحاد فدرالي، رفضه عبدالناصر جملة وتفصيلاً بالطبع، وتمسك باتفاقه مع الضباط. قال وكان مصيباً تماماً:

«إن السوريين هم الذين جاؤوا إليه وتوسلوا به، مذكراً البيطار بأن الزعيم الآخر

= أن يفعل هو أن يلوذ بالصمت ويعقب الأحداث ويحاول مسايرتها عند وقوعها.
أما الوفد فقد كان في استقباله المشير عبدالحكيم عامر الذي صحبهم إلى منزل عبدالناصر. وبعد نقاش استمر أربع ساعات أعلن عبدالناصر قبوله. وفي دمشق ذهب السرّاج إلى القوتلي وأطلعه على بيان الضباط. [بالاختصار عن نتنگ: المرجع السالف]

(٢٧) ذكروا (وكان هذا بعد الانفصال) أن الضباط الأربعة عشر فوجئوا بشروط عبدالناصر، إذ لم يكونوا في الواقع قد حملوا معهم مشروعاً أو مخططاً للوحدة التي يتصورونها وقد جاؤوا دون أن يصحبهم مستشارون أو خبراء. ولم يقدم أي واحد منهم على شرح منظوره للوحدة التي يبتغونها، لأنهم لا يعرفون. وقد قالوا فيما بعد معتذرين أنهم كانوا يتصورون نوعاً من رباط كونفدرالي أو فدرالي فيه تحافظ الدولتان على مؤسساتهما ونظامهما السياسي ودستوره. [في الكتاب الذي ألفه هيكل «ما الذي جرى في سورية»- القاهرة ١٩٦١ الص ٢٩-٤١ أوضح أن الجيش السوري كان المبادر (ويعني طائفة قليلة العدد من الضباط) معللاً ذلك نصاً «لأنه لم يكن هناك أي أمل في حل لمشاكل سورية إلا من خلال الوحدة مع مصر». وقص بإسهاب ومبالغة كيف أن ٢٢ ضابطاً، يمثلون ٢٢ كتلة في الجيش السوري ركبوا الطائرة في ١٤ من كانون الثاني، ليقابلوا عبدالناصر في منزله وليشرحوا له لماذا يجب أن تتم الوحدة. فسألهم أيدري القوتلي بمجيئهم وبمهمتهم في القاهرة فأجابوا "لايستطيع أن يعترض على أي شيء. لأننا سنرسل له العميد أمين النفوري ليعرض عليه رغبة الجيش فلا يسعه غير القبول. وعندما أعرب عبدالناصر عن أسفه لذلك لأنه لا يستطيع القبول بالوحدة بمثل هذه الأحوال، عندها قرر الضباط إرسال وفد إلى دمشق ليتبيّن رد فعل الحكومة. وفي صباح ١٦ من كانون الثاني غادرت القاهرة طائرة لتعود بعد الظهر بصلاح البيطار وزير الخارجية، ليعلن في اجتماع ذلك اليوم موافقة الحكومة. [يجب أن تؤخذ أقوال هيكل بكل تحفظ فقد تعوّد أن يكتب من منطلق عبدالناصر فقط].

في حزبه (يقصد عفلق) تحمس للوحدة التامة وعارض الاتحاد الفدرالي في حينه»، فأسقط في يده.

وكل ما استطاع انتزاعه منه هو أن يسمح عبدالناصر للأحزاب السورية في المستقبل بالانضمام إلى الاتحاد القومي، المؤسس حديثاً في مصر، بشكل منظمات سياسية. بالأخير سأل البيطار: «أتوافقون على أن يجري ترشيحكم لرئاسة الجمهورية المتحدة من قبل القوتلي؟» فلم يمانع.

جرت هذه الصفقة «الصغيرة جداً» في منزل صغير جداً، ليس فيه غير دورة مياه واحدة.

وارتاح عاقدو الصفقة للنتيجة كما يرتاح اللصوص عندما يقبض عليهم جميعاً من دون أن يفلت منهم واحد.

وقبل عفلق ومنح تمنياته للبيطار قبيل سفره. ولا مشاحة، فعفلق مثل غيره من زعماء الأحزاب القومية العروبية بكل أنانيتهم وعدم اكتراثهم بالإرادة العامة، وتبلد شعورهم بالسمو الخلقي العقائدي، يؤثر التضحية بالحزب كله على أن يكون مهدداً بالانقسام بين زعامتين وأيديولوجيتين[٢٨]، فهو كما اتضح الآن يفضل أن يباد حزبه ويقتلع من جذوره على أن يرى زعامة ثانية له أو أن يحرز درجة ثانية فيه، كان أول الموافقين على حل حزبه العقائدي المبتنى على أهداف عربية بعيدة، ولا تقبل بأجنبي عنه زعيماً ومرشداً.

كذلك كان الحزب الشيوعي بزعيمه بكداش سعيداً بالنتيجة. رغم أن البعث سرق منه الفصل الختامي في رواية كان له فيها المبادرة. فهذا حزب صغير يحاصره كره كل الأحزاب، لا يسنده أحد حتى الاتحاد السوفياتي الذي كان رمى بكل ثقله السياسي إلى البعث صاحب الكلمة النافذة في الحكومة. والحزب على كل حال هو حزب سري بالأصل وأعضاؤه، رغم حرية نشاط نسبية، ما زالوا سريين. فهو والحالة هذه سيكسب كثيراً جراء الإلغاء الرسمي للأحزاب السياسية.

واستسلم خالد العظم وحكومته للأمر الواقع وبرروا استقالتها بأن الوحدة العربية هي الأهم. وقال الحوراني الذي كان يحلو له أن يظهر أبداً بمظهر الظافر «إن سورية أُنقذت بأعجوبة». وكان عفيف البزري في منتهى السعادة، كان أسرعهم بقبول شروط

(٢٨) راجع ما سبق في أول الفصل.

عبدالناصر لأن الوحدة مهّدت له سبيل الخروج بشرف قبل أن يزيحه انقلاب آخر من منصبه، ويركله كما تركل الحجرة، أو ربما يفقد فيه حياته.

وأعظمهم سروراً كان «السرّاج» فقد حان وقت المكافأة، وقبض ثمن الأتعاب مع الفائدة، فقد أمن له مركزه الأول في القطر الشمالي السلطة المطلقة التي كان يحلم بها. في اليوم الأول من شباط ١٩٥٨ وصل القوتلي وحكومته القاهرة، فقد قام اللواء عفيف البزري بشحنهم وحشرهم معاً في طائرة، وانتشرت الإشاعة في سورية أن البزري خيّرهم بين الطائرة وبين سجن المزّة[٢٩].

وختمت الرواية كما تختم التمثيلية أو الأوپرا، بظهور الممثلين والمخرجين المجيدين لتلقي هتاف النظارة وتصفيقهم، وقد تم ذلك بأبدع ما يمكن من شرفة سراي عابدين، وحظي القوتلي بلقب المواطن الأول في الجمهورية الجديدة كما تحظى زوج رئيس الجمهورية الأمريكية بلقب السيدة الأولى[٣٠].

* * *

مع أن كل ما جرى بين عبدالناصر والضباط السوريين من إعداد لدمج القطرين كان وراء أبواب مقفلة، وبمنتهى السرية، فقد بدت العملية في حينه طبيعية جداً باعثها شعور قومي وصلة تاريخية ربطتنا أبناء العروبة برباط خالد لا تقف أمامه حدود أو سدود أو قيود [من تعابير إذاعة صوت العرب]. وبرهن عليه الاستفتاء، الذي اشترطه الزعيم المصري، فقد وافق على الوحدة ٩٩،٩٩٩٩٪ من المصوتين في القطر المصري و٩٩،٩٩٨١٪ من إخوانهم في القطر السوري[٣١].

أريد أن ألفت نظر القارئ إلى هذه العبارة التي جاءت في بيان الوحدة المشترك:

«وبإعلاننا هذه المقررات يشعر المشاركون بفخر عظيم وفرح طاغٍ في مد يد العون لاتخاذ مثل هذه الخطوة الإيجابية على طريق الوحدة والتضامن العربيين».

وخطب عبدالناصر من الشرفة، ومما قاله:

---

(٢٩) اللواء عبدالكريم زهر الدين: مذكراتي عن فترة الانفصال. بيروت ١٩٦٨ ص ١٨.

(٣٠) هيكل الدولة المؤقت اتخذ النظام الرئاسي أي الجمع بين رئاسة الدولة ورئاسة الحكومة. ومجلس تنفيذي لكل قطر (يمارس سلطة مجلس وزراء). ومجلس تشريعي واحد يختار أعضاؤه بالمناصفة من المجلسين المنحلين.

(٣١) جرى الاستفتاء العام في يوم واحد لكلا القطرين هو ٢١ شباط ١٩٥٨.

«في هذا اليوم لم تعد القومية العربية مسألة شعارات وهتافات، أصبحت حقيقة واقعة، في هذا اليوم الشعب العربي في سورية اتحد مع الشعب العربي في مصر».

وأجاب القوتلي رداً على هذا، وبكل حماسة يقتضيها الموقف (وكان قبل أيام معدودات يتآمر على المؤامرة، ويعمل جاهداً لإحباطها):

«هذا اليوم هو من أعظم أيام التاريخ وأجدرها بالخلود. إنه جزاء كفاحنا المجيد الماضي. إنه الأمل لمستقبل الأمة العربية... في إعلاننا اتحاد هذين البلدين العربيين العزيزين، هذين الشعبين المكافحين ذلك الكفاح الطويل الأمد من أجل الوطن الواحد... إننا لم نقم بعمل ارتجالي، بالعكس فقد أعدنا الأمور إلى وضعها الصحيح»(٣٢).

ومثلما خفيت هذه الحقائق عنا في العام ١٩٥٨ وبقيت مستورة طوال أربعة أعوام، كذلك بدأ الشك كثيراً في كل ما حملنا كتاب مصر وصحافيوها الثوريون على تصديق

---

(٣٢) ليس هذا استباقاً للأحداث. فالمقابلة هنا تفرض نفسها فرضاً، قال عبدالناصر قبيل الانفصال رسمياً: «تعلمون إن رأيي أن الوحدة عملية شاقة، كان من رأيي أن الاستعداد لها يجب أن يكون بصورة تدريجية على مدى عدد من السنين لكن كان عليّ الخضوع للإرادة السورية الشعبية (!) في هذه اللحظة أشعر ليس من الحتمي أن تبقى سورية جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة لكن من الواجب أن سورية تبقى سورية. الوحدة الوطنية السورية هي تثبيت للوحدة العربية والاستعداد الحقيقي لبلوغها». [ليلاحظ أنه قال هذا بعد فشل تآمره في لبنان والأردن والعراق بغية ضمها إلى الوحدة].
في حين قال القوتلي تعقيباً على الانفصال «كنت أؤمل أن أشارك في المسؤولية في الدولة الجديدة والمساهمة في اجتذاب شعوب عربية أخرى إلى الاتحاد. إلا أني أصبت بخيبة أمل كبيرة. النظام الناصري أنزل غالبية الشعب منزلة الخونة. يحكم بالإرهاب ويطأ على شرف المواطنين وكراماتهم. أعطى الناس جمعية وطنية عملها الوحيد هو المصادقة على القرارات الآتية من فوق. لم يفهموا قط أن ما يمكن تطبيقه في مصر لا يمكن تطبيقه في سورية».
يذكر «نتنگ: المرجع السالف- الفصل ١٢» أن شكري القوتلي دعا كميل شمعون علناً إلى الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة، ووجه الغرابة هو تذبذب القوتلي الغريب غير اللائق، فكل المصادر كادت تجمع بأنه كان ضد الوحدة وأنه أرغم عليها. ويؤكد ذلك نتنگ في موضع آخر من الفصل فيعزو للقوتلي قوله لعبدالناصر عند أول زيارة رسمية لسورية بعد الوحدة «إنك وضعت نفسك في ورطة بتسلمك المسؤولية في بلد يعتبر كل شخص فيه نفسه إلهاً» [لم يشر الكاتب إلى مصدره هنا. إلا أنه عزا في عين الفصل قولاً آخر للقوتلي نقله له السفير الأمريكي رايموند هير في سورية: «هذه الوحدة ستسبب لك صداعاً شديداً»].

موقف عبدالناصر منها. فكل ما كشفوا بله فضحوا من أسرار كان بعد الانفصال لا هدف له إلا لإظهار الزعيم المصري زاهداً في الوحدة، بل واحداً من أشد المعارضين لها وأنها فرضت عليه فرضاً.

لم تطأ قدما عبدالناصر الأراضي السورية. ربما حانت منه التفاتة إليها من الجو أثناء واحدة من رحلاته إلى الاتحاد السوفياتي. ومن كل ما تحدث به وتسرب من أقواله يبدو أنه لم يكن مطلعاً على التكوين العنصري والاجتماعي لهذا القطر، كان يدري فحسب أن تلك الأرض بقيت ردحاً من الزمن تحت حكم المصريين وأنها كانت منذ فجر التاريخ ميدان حروب لا تحصى بين حكام مصر وغزاة سورية. وليس ثمة شك كبير في أن قبوله، أو لنقل لهفته - أو عمله أو قل ما شئت - لتلك الوحدة كان يمليه إيمان بشيئين: رسالته، ودوره كبطل العرب أو رجل القدر الذي ادخره لتحقيق الوحدة الشاملة «ذلك الدور الذي يتجول على غير هدى باحثاً عن البطل» كما ذكر في كتابه «فلسفة الثورة».

ها قد وجد البطل دوره وأنجز الكثير من رسالته: حقق الجلاء وتخلص من النفوذ الإمپريالي وطرد شركة قناة السويس وأمم القناة. عقد صفقات سلاح مع الاتحاد السوفياتي. لأول مرة في تاريخ البلاد الناطقة بالعربية يكسر حاكمٌ في الدول الناطقة بالعربية احتكار الغرب هذه البضاعة الكريمة. ضمن تمويل بناء السد العالي فخر مصر وأمنيتها العزيزة. حقق النصر الساحق على غزاة القناة. ماذا يريد العرب أكثر من هذا من أي بطل؟ كيف يسعه رفض رجاء الضباط السوريين القادمين من دمشق يحملون له رأس سورية في طبق؟ أليست الوحدة جزءاً من الرسالة وواجباً على البطولة؟ إن رفض الوحدة معناه رفض الرسالة، وهي الوحدة العربية الشاملة.

ورد الفعل التلقائي لا بد أن يكون تلك الوحدة كما يريدها هو، لا كما تريدها الشعوب الناطقة بالعربية. لأن ما يريده هو بالفعل ما تريده تلك الشعوب أو تلك الأمة والدليل: إشارة منه تكفي لتلهب مشاعر الجماهير وتثيرها ضد حكامها فتنتقض عليهم في حالة وقوف هؤلاء ضد مسيرته العروبية.

لكنه كان على ضلال مبين في تقدير اندفاع الجماهير إليه. وكانت تقتضيه حرب مدمرة أخرى ليدرك ذلك، حرب سبقتها سلسلة من الانخذال السياسي المريع والتآمر الدموي الفاشل، لم يتعظ البطل القومي بأي واحدة منها.

وعندما أراد تجربة حظ الوحدة في لبنان كان جهله بتركيب لبنان القومي - الديني

-الاجتماعي - الثقافي- الاقتصادي يفوق جهله بالذي في سورية أضعافاً. كان يقرأ فحسب تقارير السرّاج المفصلة وجهاز مخابراته الخاص، ويتابع ما يكتبه الصحفيون العروبيون في لبنان وعن لبنان[٣٣].

وفي لبنان كان الرئيس كميل شمعون ورجال الكتلة الوطنية خلفه حريصين تمام الحرص على استقلال بلادهم بعد طول معاناة في انتزاعه. كما كانوا واعين تماماً بأن الغرب والأمريكان هما ضمانة هذا الاستقلال الكبرى. لذلك لم يعترض لبنان على قيام حلف بغداد قط ولم يحاول أن يثني الآخرين عنه. واستاء (شمعون) كثيراً من موقف عبدالناصر منه كما اشتد القلق به من محاولات توجيه السياسة العربية الخارجية والسيطرة على مسيرتها. ولم يخفِ شمعون في مذكراته قناعته التامة بأن هدف الزعيم المصري في لبنان هو القضاء على الموازنة الراجحة للمسيحيين، وهي الموازنة التي عقد كل لبناني مسيحي العزم على إبقائها بأي ثمن. وكان كميل والمسيحيون اللبنانيون قاطبة يراقبون حركة الهجرة القبطية من مصر بأسى وتخوّف عظيم، ونظراً لشمعون[٣٤] بدا خطر عبدالناصر على لبنان أعظم بكثير من خطر اليسار الشيوعي وهو عنده خطر بعيد خلافاً لما اعتقده نوري السعيد، والأقرب منه خطر الدعوة إلى الوحدة العربية الشاملة التي تصدر من مصنع القاهرة.

كان شمعون أكثر الحكام العرب ثقافة واطلاعاً، يتقن إلى جانب العربية السليمة ثلاث لغات أخرى عالمية، ذا ماضٍ سياسي لا تشوبه شائبة. لم يستطع أشد خصومه عناداً وشراً أن يلصق به تهمة استغلال المركز للكسب المالي، وكان مناضلاً وطنياً عريقاً ضد الانتداب الفرنسي مثلما كان أبوه مناضلاً عروبياً ضد العثمانيين، وهو رجل قوي الإرادة، عميق الإيمان راسخه بالحريات العامة والديمقراطية، ذو شعور بمسؤولية

---

(٣٣) يتفق خصوم عبدالناصر مع عدد من معاونيه ومقربيه على أن معلوماته كان يستمدها من الصحف بالدرجة الأولى. وأنه كان فقير القراءة لاسيما في التاريخ العربي. وإذا نبه إلى أهمية كتاب أوعز بتلخيصه له. وكان قد استحدث مكتباً يقوم بتلخيص أهم ما تكتبه الصحف الأجنبية.

(٣٤) أشرت فيما سبق إلى العلاقة التي نشأت بين الرئيس اللبناني وبين كاتب هذه السطور عن طريق الصديق المرحوم عبدالرحمن عذرة السفير، وقد تطورت العلاقة إلى زيارات. أهداني مذكراته التي كتبها بالفرنسية وسمعت منه الكثير، وجله تفصيل أو ملء بعض فراغات من مذكراته، وبعضه أمور أؤتمنت عليها فلا مجال لسردها. عرفته وقد تجاوز السبعين سياسياً مجرباً ، التواضع طبع فيه فلا يتعمّده. ويجيد الإصغاء ويسأل أسئلة تنم عن فطنة غير عادية، ولا يخجل قط من الاعتراف بجهله في هذه القضية أو تلك.

في الدفاع عنها كجزء من سلامة أرض لبنان بوجه التوتاليتارية ومشاريع الحزب القومي السوري وهي مسؤولية صعبة إلى حد ما- بسبب موقف معين يقفه بعض الزعماء المسلمين الباحثين لهم عن شعبية لدى الناخبين القوميين المعجبين بعبدالناصر ضماناً للفوز بمقعد نيابي.

وقد بات هذا خط عمل كلاسيّ لكل خصم من خصوم شمعون مهما كانت أسباب خصامه[٣٥].

في العام ١٩٥٦ استنجد عبدالناصر بشمعون في أزمة القنال، وأرسل إليه مبعوثه الخاص مصطفى أمين للتوسط مع الدولتين الفرنسية والبريطانية.

وفي العام ١٩٥٧ بدت محاولات الناصريين الجدد هؤلاء للارتفاع بأنفسهم إلى مرتبة قيادة لبنانية للقومية العربية، ومن تلك المحاولات قيامهم بأداء فريضة «الحج القومي» إلى كعبتي القومية تلك: القاهرة ودمشق. استقبلوا بصخب إعلامي وضجيج

---

(٣٥) كان شمعون قد دعا إلى اجتماع قمة للجامعة العربية في ٣٠ من تشرين الأول لبحث أزمة السويس بعد فشل وساطته التي أشرنا اليها، فانتهز الوزيران والزعيمان السنيان صائب سلام وعبدالله اليافي مناسبة اجتماع للوزارة في ١٣ من تشرين الثاني ليقدما استقالتهما احتجاجاً على رفض لبنان قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا بسبب العدوان وإحراجاً لشمعون، وتقرباً من عبدالناصر، ولنيل الشعبية. [فسّر شمعون إصراره على عدم قطع العلاقات بعلة إمكانه التوسط لمصلحة مصر، وقد فعل ذلك. أنظر مذكراته، المرجع السالف ص ١٢٦؛ وكذلك ليلي ميو «لبنان: بلاد غير محتملة» Liela Meo: Lebanon, Improbable Nation ط إنديانا في الولايات المتحدة ١٩٦٥ الص ٩٩-١٠٠]. وبخصوص وساطة شمعون، كتب الصحافي (مصطفى أمين) في (أخبار اليوم) أنه وصل بيروت قبل صدور قرار وقف إطلاق النار بثلاثة أيام يحمل رسالة من عبدالناصر إلى الرئيس اللبناني يناشده فيها القيام بمهمة الوساطة لوقف إطلاق النار. ويصف شمعون (المصدر السالف ص ٣٠٠) عروبة المستقيلين بأنها وسيلة من وسائل جمع المال ومصدر من مصادر الدخل ونقطة انطلاق رخيصة للحصول على الشعبية، بل هي تمثيلية على مرسح للأقزام والمشعوذين والدجالين. وقد نميل إلى تصديق ما كتبه شمعون عن استقالتيهما بأنهما كانتا مجرد لعبة لكسب تلك الشعبية، ففي عين يوم تقديم الاستقالة وبعد نشر نبأها في الصحف قصداه طالبين منه أن يرفضها. ويؤيد [سامي الصلح] في مذكراته [بيروت ١٩٦٠ ج٣ الص ٣٧٧-٣٧٨] أنهما أرسلا (العويني) إلى الملك سعود ليتوسط عند شمعون كي لا يقبل الاستقالة، كذلك توسط صائب سلام فضلاً عن الملك السعودي بإسماعيل الأزهري رئيس حكومة السودان فأعيد إلى منصبه دون (اليافي) لكنه ما لبث أن استقال مرة أخرى بعد اجتماعه بالسفير المصري. بعدها غادرا بيروت إلى القاهرة فاستقبلا استقبال الأبطال.

ويحفاوة وتكريم غير عاديين، ولتظفر تصريحاتهم ضد الرئيس اللبناني في صدور صحافتهما ولتقدم كل الأنباء في إذاعة «صوت العرب» مصحوبة بعناوين وتعليقات استفزازية منفرة حول «سياسة لبنان الذيلية العميلة»، وتنقل صحف بيروت المشتراة من السفارة المصرية والسائرة في الركاب تلك التعليقات بكل الحرية التي يتيحها جو لبنان الديمقراطي(٣٦).

على أثر إعطاء الضوء الأخضر بدأت حملة راديو القاهرة وصحافتها هجومَها الكاسح، وحذت الصحافة والراديو السوريان حذوهما. وفي بيروت صارت القنابل تنفلق بالقرب من المباني العامة والدوائر الحكومية. لم يكن الملحق العسكري المصري يهتم بالتزام جانب الحذر في إمداد مفجريها بالصواعق والديناميت في حين باتت السفارة المصرية ملتقى الصحفيين والساسة ومشيعي الإرهاب من المعارضين، فحصل السفير المصري من الصحف الموالية على عين ما حصل نظيره في دمشق من لقب المندوب السامي في لبنان. وتسلل رجال المخابرات العسكرية لخطف واغتيال اللاجئين السياسيين الذين احتموا بلبنان.

وقف رئيس الوزراء الجديد سامي الصلح إلى جانب شمعون بشجاعة وببصيرة رغم كل ما وجه إليه من شتائم وتشنيع وتهديد وإلى جانبه شارل مالك وزير الخارجية، وهو واحد من المدافعين القليلين عن الحريات الديمقراطية وعن الحق العربي وتطلعاته وحريته. وقد وقف وهو مندوب لبنان لدى الأمم المتحدة يشجب بشدة وعنف العدوان الثلاثي ويدافع عن حق مصر في تأميم القناة - عن عقيدة وإيمان شخصيين(٣٧).

كان النظام الديمقراطي اللبناني في العام ١٩٥٧ مهدداً. وقد شعر شمعون بخطورة المواجهة الدموية، وعمد بناءً على ذلك بموافقة الحكومة وأغلبية برلمانية كبيرة على

---

(٣٦) نقلت الصحف البيروتية عن عبدالناصر قوله في شباط ١٩٥٨: «إن اللبنانيين بوسعهم صيانة استقلالهم بأفضل صورة لو ارتبطوا بالوحدة الجديدة». إلا أن شمعون لم يكن يأبه بمثل هذه الاقتراحات، فلا يرد عليها اطمئناناً إلى قاعدته الشعبية. [نتنگ: المرجع السالف، الفصل ١٢]

(٣٧) في أثناء إقامتي في بيروت نشأت علاقة بيني وبين هذا المثقف الكبير، زاد في قوتها اكتشافه أن واحداً من أقربائي كان زميلاً له وصديقاً حميماً أثناء دراستهما معاً في جامعة هارفرد، وأنهما نادراً ما افترقا، وقد أيّد لي ذلك المأسوف عليه قريبي جميل توما. وجدت الدكتور مالك في العام ١٩٧٠ يعيش ببساطة زاهداً بكل ما يسبغه عليه ماضيه السياسي ويذكر أنه كان رئيساً لدورة من دورات هيئة الأمم المتحدة في الستينات.

القبول بمبدأ آيزنهاور في ١٦ من آذار ١٩٥٧ بدافع حماية استقلال البلاد من عدوان خارجي[٣٨].

وبدا الاتفاق بيد الناصريين والقوميين والبعثيين والشيوعيين أداة ثمينة للغمز في قناة الرئيس اللبناني ومادة للهجوم الإعلامي السوري- المصري على شخصه بإتهامه بالعمالة للأجنبي والسير في ركاب الإمپريالية.

بمعنى آخر أن لقومية عبدالناصر العربية وحدها الحق في توثيق علاقاتها بأمريكا، وقبول منحها المالية والغذائية وعقد صداقات وتعاون أمني مع دائرة المخابرات الأمريكية CIA[٣٩] وأنه ليس عيباً ولا هي عمالة ولا سيراً في ركاب الإمپريالية عندما يستنجد زعيم القومية هذا بالبيت الأبيض لينقذ شرفه وشرف مصر من عار الهزيمة في السويس.

كذا كان شأن هذا الرجل، يأبى على غيره من زعماء العرب ما يرضاه هو لنفسه باعتباره البطل القومي وليس لغيره هذا الامتياز وهو يحتكره كقومي مخلص وهم عندما ينازعونه فيه خونة للقومية العربية وخونة لبلادهم.

---

(٣٨) كان ذلك قبل نهاية فترة رئاسة (شمعون) بشهرين. ويعرف هذا المبدأ رسمياً بهذا العنوان: The Congressional Joint Resolution to Promote Peace and Stability in The Middle East ويترجم تقريباً الى: «قرار الكونگرس المشترك في السعي لإحلال السلام والاستقرار في الشرق الأوسط». ومن مقتضى هذا المبدأ الذي أطلق عليه عموماً اسم مقترحه، أي الرئيس الأمريكي، إبقاء الشرق الأوسط مفتوحاً للغرب عن طريق تقديم المساعدات لشعوبها الحرة سعياً وراء البقاء والصمود في وجه المؤامرات الشيوعية ودرءاً للخطر الشيوعي. والاتفاق الذي أبرم مع لبنان بموجبه تضمن التعهد الأمريكي بمساعدات اقتصادية وعسكرية والوقوف بجانبه ضد أي تدخل أو خطر تدخل أو تهديد بالتدخل ولا يفرض إلتزاماً ما على لبنان.

(٣٩) في «سنوات الغليان ص ٢٣٨» ذكر هيكل ما نصه «كلّف عبدالناصر علي صبري مدير مكتبه بإجراء إتصالات مع الولايات المتحدة عن طريق «كرميت روزفلت» وكان تصوره أنه من خلال (كرميت) يتعامل مع البيت الأبيض مباشرة. ووافق عبدالناصر على إيفاد عدد ممن يثق بهم هو إلى الولايات المتحدة لكي يحصلوا على تدريب مخابرات خاص بحيث يسهل عليهم التعامل مع أساليب الاتصال الجديدة (التجسس والتآمر) وكان أن رشح عبدالناصر لهذه المهمة أربعة من الضباط الشبان هم «كمال رفعت» و«لطفي واكد» و«حسن التهامي» و«صلاح دسوقي» ومن الغريب أن معظم هؤلاء بعد تجربتهم المباشرة مع النشاط الأمريكي في مصر تحولوا إلى أقصى اليسار، بل أصبح من بينهم أبرز أقطاب اليسار في مرحلة لاحقة. أراح جمال نفسه في النهاية بأنه إذا كانت هذه هي الطريقة الأمريكية في السياسة فلا بأس من تجربتها».

روى لي الدكتور عبدالله الدملوجي[٤٠] في حينه أن نوري السعيد كان يمازح كميل شمعون وقتذاك حين يلتقيان، بقوله: «الحمد لله صار لي صاحب ولم أبقَ وحدي».

لم يكن من العسير على الرئيس اللبناني اعتبار استمراره في تولي منصب رئاسة الجمهورية خلال هذه الفترة أمراً جوهرياً إلا أن الدستور اللبناني لا يسمح بتجديد الرئاسة. فإلى جانب تكتل العناصر التي ذكرناها في جبهة واحدة موالية لعبدالناصر، كان يخشى أن يفضي مثل هذا التآمر المكشوف إلى انقسام المسيحيين أنفسهم وتردد شمعون كثيراً - وهو المعروف باحترامه للدستور - في اتخاذ هذه الخطوة[٤١] وراجت الشائعات حول نيته في تعديل الدستور توصلاً إلى إعادة انتخابه ثانية.

في الواقع لم تكن المعارضة متجانسة موحدة الهدف. إلا أن الطابع الإسلامي كان غالباً عليها، فهناك فريق من أهل السنة والشيعة انضوى تحت قيادة (صائب سلام) و(رشيد كرامي) وثمة مجموعة درزية يتزعمها (كمال جنبلاط). وهناك قيادة القطر اللبناني البعثية تتلقى أوامرها من قيادة دمشق «القومية» ومن السرّاج. والقوميون الناصريون والفلسطينيون (الحركة القومية في الجامعة الأمريكية) يخضعون لتعليمات القاهرة عبر سفارة مصر في بيروت. والشيوعيون الذين يتحركون في إطار الحرب الباردة وسياسة موسكو، وجدوا في الاتفاق الأمريكي اللبناني نصراً حققه حلف بغداد. أخيراً هناك مجموعة من المسيحيين يقودها البطريرك الماروني المعوشي، وآل فرنجية (حميد وشقيقه سليمان) وهم مجرد خصوم شخصيين لشمعون.

ولم يتردد صائب في قبول اقتراح السرّاج بالتهيئة لانتفاضة مسلحة ضد ما سماه «بالتدخل الأمريكي» فبدأت الأسلحة تتدفق إلى لبنان عبر الحدود السورية.

وبمناسبة الشروع في الانتخابات البرلمانية العامة انتظمت أجنحة المعارضة في نيسان ١٩٥٧ بما أسمته «الجبهة الوطنية المتحدة». وعلى ضوء قانون الانتخابات الجديد وبمحاولة الفوز بأغلبية المقاعد راحت الجبهة تعقد اجتماعات عامة وتدفع

---

(٤٠) واحد من الضباط (الأطباء) العثمانيين. شارك في الجمعيات السرية. وأصبح مستشاراً خاصاً للملك عبدالعزيز آل سعود. عاد إلى العراق في الثلاثينات وتولى عدة وزارات في حكومات مختلفة. كان واحداً من أصدقاء نوري السعيد المعتمدين.

(٤١) كان اقتراح الدكتور شارل مالك تعديل الدستور بمد فترة الرئاسة عامين فقط بموافقة البرلمان، فراح زعماء المعارضة يضربون على النغمة الوطنية قائلين إن الرئيس خرق ميثاق ١٩٤٣ الوطني باتفاقه مع دولة أجنبية وتشجيعها.

بالمظاهرات والمسيرات إلى الشارع. وانطلقت إذاعتا القاهرة ودمشق تحرض الطوائف الإسلامية على الثورة جهاراً. وتعاقب الخطباء في المساجد على المنابر يهتفون لأول مرة بحياة العروبة والوحدة العربية الشاملة من المحيط إلى الخليج. وعلى إثر ذلك رفع شارل مالك شكوى لبنان إلى مجلس الأمن متهماً عبدالناصر والسرّاج صراحة بالتحريض على العصيان والثورة ضد النظام القائم عن طريق تزويد المعارضة وتزويد الإرهابيين(٤٢) بالسلاح.

وإنقلبت الحرب الكلامية إلى مناوشات مسلحة بين أنصار الحكومة ووراءها غالبية ساحقة مسيحية تساندها فصائل إسلامية شيعية وسنية، وبين مجموعات المسلمين والدروز بمؤازرة أقلية مسيحية رفعت شعار الوحدة العربية الشاملة.

كانت نموذجاً لحرب أهلية صغيرة، فيه من الغرابة ما فيه وأظهر وجه لغرابته بقاء الجيش بعيداً عن الخصومة إذ لم يشأ شمعون استخدام سلطته بوصفه القائد الأعلى، متحدياً موقف القيادة، ربما لأن الاشتباكات كانت موضعية ذات حجم صغير في بادئ الأمر ولم تكن تتصف بالتواصل والاستمرارية(٤٣).

---

(٤٢) بنتيجة الشكوى أرسلت الأمم المتحدة مراقبين على الحدود. إلا أنهم لم يفلحوا في اكتشاف عملية واحدة من عمليات نقل السلاح (طبعاً) لأنها كانت تجري ليلاً وعلى طول حدود معظمها موهوم يزيد طولها على مائتي كيلومتر. وعندها أعلن شمعون أنه حر في طلب العون من أية دولة إذا إمتنعت الأمم المتحدة عن تقديمه بموجب المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة، وهذا منطوقها: «ليس في الميثاق ما يعارض أو ينتقض الحق الطبيعي للدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن أنفسها إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء هذه الهيئة، إلى أن يتخذ مجلس الأمن الدولي الإجراءات الكفيلة بحفظ الأمن والسلم الدوليين. ويبلغ المجلس فوراً بالتدابير التي اتخذها الأعضاء لمباشرة حق الدفاع عن النفس. ولا تؤثر تلك الإجراءات بأي حال على سلطة المجلس ومسؤولياته».

(٤٣) تألف قوام الجيش اللبناني من ٤٠٪ من المسيحيين ومثله من المسلمين و٢٠٪ من الدروز بأغلبية ضباط مسيحيين، وقائده وهو العماد فؤاد شهاب الذي تقلد منصبه في كانون الأول ١٩٤٥ ينتمي إلى الأسرة الشهابية المشهورة، وهو ماروني. كان في الوقت نفسه قائداً لقوات الأمن الداخلي (الدرك). إعتذر فيما بعد لموقفه بقوله إنه كان يخشى على وحدة الجيش بإقحامه لئلا تمزقه الخلافات الطائفية. وكثرت الأقاويل حول موقفه هذا. كان شمعون قد وضع الجيش في حالة استنفار منذ اليوم التالي لانفجار العنف في ٩ آيار. وقد اعتقدت جهات عديدة أنه لو تحرك الجيش في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه لانتهى كل شيء. كان يعتبر جيشاً حسن الانضباط والتدريب ولديه من المعدات ما يكفي للقضاء على الفوضى. لكن (شهاب) رفض اتخاذ موقف حاسم وترك الموقف يتدهور بسرعة. ولشمعون في مذكراته تفسير لرفضه سجله =

وزادت إذاعتا دمشق والقاهرة في حملة التأليب والتشهير والتحريض بأسلوب يعافه الذوق وسارت صحافتهما في ركابهما وارتكبت جرائم وحشية وسفكت دماء(٤٤) غزيرة.

= من دون أن يداخله شك في كفاءته كعسكري، قال «كان مبتلياً بالتردد وموصوفاً بالكسل العقلي وهاتان الخصلتان جعلتاه عاجزاً عن بذل مجهود أو تحمل عواقب أمر قد يقتضي منه جهداً» المذكرات ص ٤٠٩. من التفسيرات الأخرى التي قدمت في هذا الباب ما جاء في كتاب ج. كيرك: مختصر تاريخ الشرق الأوسط ط نيويورك ١٩٦٢ ص ٢٢٤ G. Kirk: Short History of The Middle East وكذلك (قبعين) المرجع السالف ص ٨١- طبعة خامسة. قال: «كان شهاب يريد المحافظة على بكارته كمرشح محايد لرئاسة الجمهورية». وفسر آخرون موقفه على ضوء نظرته بأن النزاع ما هو إلا مجرد خلاف بين الساسة سببته شائعة نية الحكومة في تعديل الدستور. ولاعتقاده بأن الخلاف يجب أن يسوى من غير زج الجيش فيه. ولعله كان قد وقع منذ بدء الاضطراب تحت تأثير الانطباع بأن شمعون كان سيبادر إلى تقديم استقالته مثلما فعل بشارة الخوري مثله في ١٩٥٢، ومن دون أن يدري الفرق العظيم بين الرجلين وبين الموقفين. إن توقعاته هذه أدت به إلى اعتبار كل عمل حاسم من قبل الجيش أمراً ثانوياً يؤدي فحسب إلى عزله عن المعارضة التي كانت تستعديه على شمعون وتناشده علناً- صدقاً أو كذباً- بالاستيلاء على السلطة. يذكر سامي الصلح رئيس الوزراء (المرجع السالف ص ٧٤٢) أنه ذهب بنفسه في أول الإضراب إلى وزارة الدفاع، وبحضور كل من رئيس الأركان توفيق سالم ونائب القائد العام عبدالقادر شهاب، ليطلب ٢٥ عسكرياً ودبابتين فقط لكسر الإضراب فكان جواب الثلاثة أن تسوية وشيكة ستتم. مشيرين بأن الرئيس سيستقيل. ويعتبر (الصلح) فؤاد شهاب مسؤولاً عن خطئه في تقدير الموقف والقوى التي تدفع الثورة، وهو كذلك «مسؤول بصورة خاصة عن وضعه نفسه والجيش فوق الحكومة». وهذا الذي أرغم شمعون على طلب المعونة العسكرية من الولايات المتحدة بعد انقلاب ١٤ تموز في العراق ذلك الذي قوى في معنويات المعارضة في لبنان وآذنت بوقوع المذبحة.

(٤٤) في أثناء الانتخابات العامة، عمدت القاهرة إلى حيلة رخيصة لتشويه سمعة (الدكتور شارل مالك) وزير الخارجية ووصمه بالخيانة. فقد نشرت صحف دمشق والقاهرة في وقت واحد صوراً بالفوتوستات لوثائق مزورة زعمت أنها رسائل متبادلة بين الوزير اللبناني.ونظيره الإسرائيلي (أبا إيبان). أسرعت الحكومة بتكذيب واحتجاج شديد مظهرة بالدليل التزوير.
ومما وقع من مآس، المذبحة الفظيعة في كنيسة قرية (مزيارة) حين اقتحمها على المصلين في ١٦ من حزيران جماعة من آل فرنجية بقيادة سليمان فرنجية (أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية) وفتحوا نار رشاشاتهم على آل الدويهي أنصار شمعون، فقتلوا ٢٣ وجرحوا أضعافهم. وفي ٣٠ أيار أخرج المعارضون في بيروت مظاهرة مسلحة عنيفة اشتبكت مع الشمعونيين فأدت إلى مقتل ٧ أشخاص وإصابة ٦٠. وأصيب صائب سلام الذي كان على رأس المظاهرة برأسه نتيجة ضربة بأخمص بندقية بعد أن سدد لكمة لقائد البوليس فأوقف ساعات ثم أطلق سراحه. وهوجم =

مع هذا كله ضمنت الأغلبية لمناصري شمعون في الانتخابات رغم التدخل السوري - المصري السافر وشراء الأصوات بالثمن الباهظ(٤٥). وهزمت كتلة صائب سلام وعبدالله اليافي في بيروت، وكتلة كمال جنبلاط وأحمد الأسعد في جنوب لبنان. فشلوا في الفوز بمقاعد فبادروا إلى اتهام الحكومة بالتلاعب، إذ لم يكن يتصور فشلهم في الأحوال الاعتيادية والحق يقال. إلا أن زعماء آخرين كرشيد كرامي وصبري حمادة وحميد فرنجية نجحوا. وعلى أية حال كانت الجهات المتنافسة تتبع الأسلوب المألوف بشراء الأصوات. لكن لم يقم هناك أي شك في أن نجاح مؤيدي الحكومة يعود سببه أساساً إلى إدراك الناخبين بأن المعركة التي يخوضونها هي معركة استقلال لبنان، وأن التصويت إلى جانب المعارضة معناه الاستسلام لمصر، ولم تفلح مجهودات السفارة المصرية ولا المخابرات السورية في إقناع رجل الشارع. وكانت حصيلة تلك المعركة الديمقراطية موضع خيبة عظيمة للمعارضة جرحت كبرياءها في موضع حساس وقضت على طموح زعمائها.

وفشلت الزعامة المصرية والسورية في محاولة إنجاح ثورة «إسلامية - عروبية» سيما بعد أن أعلن شمعون عدوله عن فكرة تعديل للدستور يسمح له بتمديد فترة رئاسته. وبدا عبدالناصر للدوائر السياسية الغربية والإعلام الغربي متورطاً في عمل لا يليق بزعيم اتحاد عربي(٤٦).

= مخفر حدود (شتورة) وقتل جميع أفراد الشرطة فيه. هذا بعض ما جرى قبل نشوب الحرب الأهلية.

(٤٥) تحدثت الصحف في حينه عن ٦٥ مليون ليرة سورية، أنفقها السرّاج على شراء أصوات الناخبين. وذكر أنطوني نتنگ (المرجع السالف، الفصل ١٢) «أن حرباً تلفونية قامت بين صائب سلام وشمعون، وأن أولهما كان يستخدم ألفاظاً زقاقية نابية في مكالماته، كما كان يمضي الساعات الطوال في التحدث إلى عبدالحميد السرّاج مطالباً بالمزيد من الأسلحة رغم علمه بأن السلطة كانت تستمع إلى الأحاديث، لكنها لا تجرؤ على قطع أسلاك التلفون لئلا يرد المعارضون - كما أخبرني صائب سلام نفسه حينذاك - بتدمير مجاري مياه القصر الجمهوري التي تمتد أسفل معقله في حي (البسطة). ولكي تكتمل الصورة المضحكة للمأساة، وبوجود حظر التجول ليلاً، شاعت الفكاهة بأن عدد من يقتل جراء الاشتباكات يقل كثيراً عن عدد الذين يدعسهم سائقو التاكسي البيروتيون الذين اشتهروا بالرعونة».

(٤٦) تتابعت تقارير مراسلي الصحف الأجنبية وتواترت تقارير السفارات الأوروبية لنفي كل شك حول وصول الشاحنات السورية المتواصل وهي محملة بالأسلحة والعتاد. ووقوفها جهاراً أمام مبنى السفارة المصرية حيث كان ينتظرها مجموعات من مقاتلي المعارضة التابعين لصائب سلام =

بين نهاية الانتخابات. وبداية الثورة في آيار ١٩٥٨، بدأت في بيروت أعمال التخريب، وفي سائر لبنان انتشرت الاشتباكات المسلحة. كانت (المختارة) قلعة كمال جنبلاط، و(دير العشائر) على الحدود السورية و(الهرمل) في البقاع مراكز تدريب المطوعين. وقوّى مراكز المعارضة إعلانُ الوحدة. فقد ألهبت نار الحماسة في غالبية المسلمين اللبنانيين من أجل العمل للوحدة. وعندما بدأت الاحتفالات في سورية ومصر بالمناسبة عطلت الدراسة في المدارس الإسلامية وشاركت باحتفالات خاصة. وسافرت وفود من المعارضة إلى دمشق للقاء عبدالناصر عند زيارته. وفي ٢٥ من شباط كان ثم لقاء بينه وبين صائب سلام الذي خاطبه بوصفه الناطق الرسمي بلسان الجبهة الوطنية المتحدة بقوله:

«أنت لست مسؤولاً فحسب عن هذه الجمهورية (العربية المتحدة) وحدها لكنك مسؤول عن كل الأمة العربية أينما وُجدتْ لاسيما عن لبنان، وإن الشعب اللبناني يشعر بالاطمئنان من هذه المسؤولية»(٤٧).

وفي أوائل أيار شخص زعماء المعارضة إلى دمشق واتفقوا مع السرّاج الذي أسند إليه منصب وزير الداخلية في القطر السوري على خطة عمل ضد الحكومة اللبنانية. كانت الخطة أن يعلن إضراب عام تعقبه أعمال شغب وتخريب ترغم الرئيس اللبناني على الاستقالة خلال أسبوع لا أكثر(٤٨)، وشدد على أن يكون الإضراب ذا طابع دموي وعنف بالغ، لأنه لن يتصف بالعمومية كما كان الأمر في ١٩٥٢ فأدى إلى سقوط بشارة الخوري.

= ورشيد كرامي محتشدة أمام باب السفارة لتسلم السلاح بإشراف من السفير المصري عبدالحميد غالب ومعاونيه.

(٤٧) فهيم قبعين: أزمة في لبنان. ط واشنطن ١٩٦١ ص ٦٢ Fahim Quboin: Crisis in Lebanon وكذلك ليلى ميو وفرانسوا نور. المرجع السالف ص١٥٩. الإقليمية اللبنانية وعرب لبنان Laila Meo, François Nour: Particularisim Lebanaism et Lebanais Arab لوريان عدد ٧ (١٩٥٨) «في جو الاحتفالات الساخن قام بعض الشبان في بيروت بتمزيق العلم اللبناني ووطئه ومسح أحذيتهم به، وعندما حكم على ثلاثة منهم بالحبس قامت مظاهرات عنيفة، وبلغ الخوف بالمسيحيين اللبنانيين حداً دعا (نسيب المتني) وهو صحافي شيوعي إلى ضرورة جلب انتباه أولئك الذين يذهبون إلى دمشق إلى واجبهم نحو لبنان، وأن المسيحيين قلقون جداً ويجب أن يعطوا ضمانات»

(٤٨) شمعون: المرجع السالف ص ٤٩٩.

وجرى ذلك فعلاً لكنه فشل في إسقاط شمعون وانقلب إلى ثورة واسعة النطاق[٤٩] طوال خمسة أشهر، واتخذ الإضراب طابع العنف كما قرر له وقذفت الدكاكين، التي أبى أصحابها إغلاقها، بالقنابر اليدوية ووقعت اشتباكات دموية في طرابلس بين الموالين والمعارضين، ونصبت الموانع والمتاريس في القطاع المسلم من بيروت. وبدأ العصيان المسلح، وقد شابته من المبدأ غرابة ملفتة للنظر. بدا نزاعاً طائفياً بين أنصار شمعون المدافعين عن استقلال لبنان بغالبية مسيحية، وبين مساندي حلف المعارضة مع الناصرية بغالبية مسلمة وبسبب من أحقاد وعداوات شخصية مع شمعون كان أصحابها قادة لتلك المعارضة وللثائرين كل في منطقته الخاصة[٥٠]. ووقفت بين هذين قوة ثالثة

---

(٤٩) وقتت ساعة الصفر لبدء الإضراب والثورة باغتيال الصحافي الوارد ذكره نسيب المتني صاحب جريدة «التلغراف». أسرع المعارضون يتهمون الحكومة باغتياله وأمروا بإغلاق الدكاكين وأعلنوا إضراباً عاماً متواصلاً حتى يتنحى شمعون. وبطبيعة الحال لم يعثر على الجناة. لكن بعض الجهات تعتقد أن المسؤول عن قتله هو جهاز مخابرات العربية المتحدة في سورية بإشراف السرّاج المشهور بتعقيبه الشيوعيين وقتله (فرج الله الحلو) زعيم الحزب الشيوعي اللبناني، فقد أراد ذلك كشأنه ضرب عصفورين بحجر واحد. وظهر عبدالناصر في ١٦ آيار بعد عودته من موسكو ليخطب مؤبناً الفقيد الصحفي متهماً الحكومة اللبنانية بقتله وقال مما قال: «إن ضمير الشعب اللبناني صدم بهذا العمل الإجرامي لأنه يعرف القتلة المجرمين (الخطبة منشورة في الأهرام عدد ١٧ آيار)»، كذلك أنظر كتاب «السرّاج ومؤامرات الناصرية» لكاتب مجهول (مطلع) الطبعة الثانية ص ٦٣-٦٤، فهو يذكر أن (أبو حكيم) وهو من رجال المخابرات العسكرية السورية مع كوماندو سوريين اجتمعوا بالجناة اللبنانيين في منزل (خيري الكاكي) صاحب جريدة (المشرق) من المعارضة ثم انطلقوا للفتك بالمتني، وأن (أبو حكيم) هذا عاد إلى دمشق فور ذلك لينبئ السرّاج بإتمام المهمة وبحضور مدير الأمن العام عبدالمجيد جمال الدين. أنظر كذلك: نهاد القادري: الكتاب الأسود، ط دمشق (بلا تاريخ) ص١٢٨.

(٥٠) بدت خارطة العصيان بالشكل التالي: كان رشيد كرامي السني يتزعم طرابلس وضواحيها. وصائب سلام وأعوانه السنيون على رأس مسلمي بيروت. والزعيمان الشيعيان صبري حماده وحميّه أحمد الأسعد يقودان بعلبك وجنوب لبنان على التوالي. وكمال جنبلاط يتزعم جزءاً كبيراً من جبل لبنان يعاونه الدرزي الآخر شبلي العريان في منطقة راشيّا وكان هذا يسيطر على مساحة واسعة حدودية مع سورية حتى مشارف بيروت. وبين كل هؤلاء كانت هناك عشيرة فرنجية في زغرتا شمال لبنان التي انحازت إلى الثوار وزعيمها حميد فرنجية أحد منافسي شمعون على رئاسة الجمهورية. وانحاز البطريرك الماروني المعوشي إليه بسبب عداء شخصي لشمعون. كان موقف هذا الحبر موضع استنكار مسيحيي لبنان والخارج وشنأه وندد به كل المطارنة والأكليروس الذين ساندوا شمعون وقد أشيع في حينه أنه كان ينفذ تعليمات الفاتيكان التي أوصته بالحياد واجتناب حرب طائفية قد تؤدي إلى إلحاق ضرر كبير بالمعاهد والمؤسسات =

من زعماء المسيحيين تزعمها ريمون أده(٥١) وهنري الفرعون وجورج نقاش وشارل حلو، حاولوا عبثاً إيجاد حل يتم به تفادي سفك الدماء.

وسعى أولهما مع سامي الصلح فنشرت الحكومة بياناً تنفي فيه نية شمعون في تعديل الدستور لتمديد فترة رئاسته. لم يفلح ذلك في وقف أعمال العنف ولا خفف من حدة الصراع. فقد كانت التعليمات من القاهرة واضحة: الاستمرار بشدة وعنف. وإرسال مئات من المطوعين المسلحين فضلاً عن المهمات العسكرية(٥٢).

= الكاثوليكية في الشرق الأوسط.

ليس من أوجه الغرابة أن يقف الحزب الشيوعي اللبناني وحزب البعث وحزب الهنشاق اليساري الأرمني في صف الثورة. في حين وقفت الأحزاب السياسية وزعماؤها إلى جانب الحكومة وتلقت من الحزب القومي السوري الاجتماعي دعماً مؤثراً وفعالاً. وهو موقف منطقي لأنه كان يدعو إلى الوحدة السورية وليس من أهدافه في شيء وقوعه في إطار وحدة عربية مع مصر، وكذلك كان موقف حزب الفلانج بزعامة الشيخ الجميّل وموقف حزب الطاشناق الأرمني وفريق هام من الطائفة الدرزية بزعامة الأمير مجيد أرسلان وإثنين من زعماء جبل لبنان، كما وقف إلى جانبه من المسلمين أنصار آل الصلح وغيرهم من الوزراء المسلمين، ومن الشيعة وقف الفريق البيروتي المناوئ لشيعية الجنوب يشد أزر شمعون، وبقي سامي الصلح رئيس الوزراء صامداً بشجاعة حتى نهاية فترة رئاسة شمعون رغم الضغوط الشديدة عليه.

(٥١) ذكر لنا [ريمون أدّه] أنه مدين بحياته في تلك الأيام لضابط في الدرك (الشرطة) كردي من آل الملّي يدعى بهزاد، فقد سحبه إلى الخلف ومنع مهاجميه عنه مهدداً بفتح النار عليهم. وكان ذلك في العام ١٩٧٠ وقد مضى على الحرب الأهلية إثنا عشر عاماً، وأبدى دهشته لأن منقذه لم يحاول طوال المدة لقاءه أو الاتصال به. وسألني عما إذا كنت قادراً على التحقيق عنه، وكنت أعرف الحادثة وقد رواها لي صاحبها، أحضرته له في زيارة ثانية، فوسع له واحتفى به وأشاد بعمله أمام الحاضرين في مجلسه وسأله عن أي حاجة يقضيها له بنفوذه الكبير، فشكره الضابط وأجاب بالنفي. (كان قد تأخر ترفيع ذلك الضابط وكان بمقدور (أدّه) أن يزيل الغبن عنه بكل سهولة).

(٥٢) سامي الصلح: المرجع السالف ص ٥٥٤؛ يذكر هذا الحادث الغريب: «في ١١ آذار أوقف (مسيو دي سان) القنصل البلجيكي العام في دمشق على الحدود وفتشت سيارته لأول مرة، فعثر في صندوقها على مجموعة كبيرة من الأسلحة للثوار في بيروت وضبطت رسالة من السوريين حملها (لجهة معينة) توصي بالاستمرار في أعمال الإرهاب، وفيها تعليمات بوجوب إطلاق النار طوال النهار ونسف (سوق الطويلة) بالديناميت وبأعمال نسف أخرى في شارعي (الحمرا) و(السادات) والقصر الجمهوري، وتفجير القنابر اليدوية، وبقتل كل من (حسني البرازي) و(بدوي الجبل) الشاعر وكلاهما من المعارضين السوريين. وعلى سبيل الانتقام من شرطة الحدود الذين كشفوا السلاح والرسالة، قام المغاوير السوريون التابعون للجيش (قدر عددهم =

وزوّد العراق أنصار الحكومة بالسلاح، ودعم موقف لبنان في المحافل الدولية، بعد أن اتخذ طابعاً دولياً بسبب تدخل العربية المتحدة المباشر والشكاوى المرفوعة إلى مجلس الأمن. ووضوح اليد الناصرية فيها.

ويعزو بعض المؤرخين موقف مجلس الأمن والأمم المتحدة المائع إلى علاقة ود بين عبدالناصر وداگ همرشولد الأمين العام لها. وقد ظهر ذلك جلياً من انتداب عدد ضئيل جداً من المراقبين على طول الحدود لتعقيب عمليات تهريب السلاح لا يتناسب مع المهمة وطول الحدود، ونفي همرشولد رسمياً على الأقل ضلوع الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م) في الحرب الأهلية بلبنان، إلا أنه نبه عبدالناصر سراً بأنه تجاوز الحد وأن عليه التوقف عن التدخل العسكري والإثارة في الراديو والإعلام. لكن نصحه هذا لم يفد وتواصل دعم (ج.ع.م) للحرب الأهلية وضبطت الحدود جماعات أطلقت على نفسها اسم (المجاهدين) ونزعتها بالقوة من يد شرطة الحدود اللبنانية، ورؤي زعماء المعارضة في دمشق وحمص يزاولون عملهم في وضح النهار في تجنيد المطوعين، وخصص في المدينة الأخيرة جناح في مستشفى شهلا لاستقبال الجرحى الذين كان ينقلهم صبري حمادة[٥٣]، ورفعت أعلام (ج.ع.م) خفاقة مكان العلم اللبناني في أحياء من بيروت يسيطر عليها الثوار وفي مدينة طرابلس.

كانت دمشق تشرف على العمليات العسكرية بمقتضى تعليمات تصدر من القاهرة ومن مكتب عبدالناصر بالذات[٥٤]، ووصفت إذاعة القاهرة ما يجري بقولها: «تتخذ المعركة في لبنان الآن شكلاً واضحاً. إنها معركة بين الحاكم وبين الشعب الذي يعلن

= بمائتين) باقتحام المركز في الليلة التالية وقبضوا على ستة من ضباط حدود نقطة (المصنع) وقتلوا وشوهوا أجساد المسيحيين الخمسة منهم وأطلقوا سراح سادسهم وكان مسلماً على ما قيل».

(٥٣) من مقال لجريدة الثغر السورية مؤرخ في ١٤ أيلول ١٩٦٢.

(٥٤) ذكرت الصحف السورية واللبنانية بعد الانفصال أن الأوامر العسكرية كانت تصدر من المشرفين في القاهرة برسائل ومن إذاعة صوت العرب متخذة تاكتيكاً فريداً في بابه على بساطته، كأن تعلن الإذاعة عن وقوع هجوم مسلح على هدف معين في وقت معين فيكون ذلك أمراً بالهجوم عليه خلال الساعات الأربع والعشرين التالية. وفي طرابلس كان الحلف البعثي-الشيوعي بإمرة ضباط سوريين يستقل في نشاطه الحربي عن ميليشيا (كرامي) وقد زودهم الجيش الأول السوري بأسلحة متقدمة كالبازوكا ومدافع الهاون وقنابر ضد الدروع، في حين كان قائد الحركات في صيدا (معروف سعد) يتزود بالسلاح والعتاد بحراً من الحامية المصرية في غزة.

الثورة على الطغيان، إنها تشير إلى بداية الحرية في لبنان».

وفي الوقت الذي راحت أموال (ج.ع.م) تنصب على الزعماء العروبيين الجدد فتزيد في غنى صائب سلام وعدنان حكيم[٥٥] المفاجئ. كان بوسع السلطة الشرعية منذ أيام الحرب الأولى تزويد الأمم المتحدة بأسماء السوريين المدنيين والعسكريين القتلى والأسرى. ورفعت مذكرة احتجاج لسفارة (ج.ع.م) في بيروت حول تلك المساعدات المالية وحول المشاركة مع قوائم، وحول الموقف الإعلامي السوقيّ في عاصمة القطرين. لكن ناصر نفى بكل بساطة أية مسؤولية لاتحاده العربي الجديد في عمليات سفك الدماء حين وقف خطيباً في دمشق يوم ١٦ آيار ليقول:

«أيها الأخوة، أنتم وأنا لا نرضى ولن نرضى بأي وجه من الوجوه إراقة الدماء في لبنان. لأن دماء الشعب اللبناني هي دماء عربية، دماء عربية غالية عزيزة»[٥٦].

وكذلك أنكرت (ج.ع.م) أي تدخل لها في أحداث لبنان عند اجتماع عقدته

---

(٥٥) للكاتب المجهول (مطلع) المرجع السالف ص ٥٥. كذلك القادري المرجع السالف الص ٦٠-٦١، هذان وغيرهما يذكران أن كمال جنبلاط وعبدالحميد السرّاج رفع كل من جانبه تقريراً لعبدالناصر عن اختلاسات قام بها هذان [وتعرض هذه المصادر، فضلاً عن هذا، أرقاماً بالمبالغ التي أنفقتها الجمهورية العربية المتحدة، ومن ضمنها الرواتب الشهرية التي كانت تدفع لأصحاب الجرائد وقدرت بمائتي مليون ليرة سورية (٦٥ مليون دولار بسعر الصرف وقتذاك) وتساوي بالنظر إلى قوتها الشرائية في مصر ٤٠٠ مليون دولار تقريباً كانت البلاد بحاجة إليها في بناء السد العالي]. كما قدرت المصادر التي ذكرناها عدد المقاتلين الذين جندتهم المعارضة بعشرة آلاف منهم ثلاثة آلاف سوري، وقدر عدد الضحايا من الجانبين بـ ٣٠٠٠ قتيل ثلثهم من السوريين وهو مبالغة [كان بوسع السلطات اللبنانية تحديد هويات القتلى والأسرى].
لايفوتنا أن نذكر هنا الرد الذي جاء في جريدة (النصر) السورية بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٦٢، أي بعد الانفصال - على الوصف الذي كتبه محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام للجرائد اللبنانية- وفي أثناء الحرب الأهلية بعد أن نقلت ما كتب، وهو هذا: «هناك في لبنان صحف معينة تتحدث عن الحرية، والحرية عندها هي تجارة يبيعونها مع لبنان صباحاً من السفارة البريطانية، ويبيعونها ظهراً مع لبنان من السفارة الأمريكية، ويبيعونها مع لبنان مساءً إلى أي رجعي خلفه بئر نفطي وفي جيبه صرة من الذهب».
علّقت جريدة النصر على هذا بقولها: «نسي هيكل الجرائد التي تبيع الحرية مع لبنان ومع العالم العربي إلى المندوب السامي (السفير المصري) في بيروت».
(٥٦) نشرت الخطبة كاملة في العدد المؤرخ ١٧ آيار ١٩٥٨ من جريدة الأهرام.

الجامعة العربية في بنغازي بليبيا يوم ٢٨ آيار، وكالعادة أصدرت بياناً توفيقياً استرضائياً غامض العبارة تؤكد فيه مبدأ عدم التدخل في شؤون الدول الأعضاء دون توجيه لوم إلى (ج.ع.م) بل حتى دون تنويه باسمها في أي مجال.

التدخل الأمريكي لم يقع إلا بعد شهرين ونيف من بدء الحرب الأهلية. وعلى أثر قيام ثورة ١٤ تموز في العراق. وافتقاد النصير الوحيد المعول عليه للسلطة الشرعية بين سائر الدول الناطقة بالعربية.

في مبدأ الأمر اشترط آيزنهاور مساندة الدول العربية طلب لبنان المعونة الأمريكية. وقال الرئيس الأمريكي إن قواته لن ترسل لغرض ضمان تمديد فترة رئاسة شمعون وواجه (دللس) وزير خارجيته موقفاً عسيراً. فمن جهة كان من الخطورة بمكان أن يترك نظام لمصيره الغامض بمواجهة عدوان خارجي سافر. ومن جهة كان من سياسة أمريكا اجتناب الاصطدام بعبدالناصر بعد العلاقات الطيبة التي أعيدت إثر العدوان الثلاثي. وخشية أن يؤدي ذلك إلى مزيد من التقارب مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية وكذلك هنالك احتمال بأن إنزال مشاة الأسطول قد يؤدي إلى إغلاق قناة السويس أو تفجير أنابيب النفط في سورية.

إلا أن يوم ١٤ تموز في بغداد قلب تلك الموازين، وكان هناك خوف حقيقي أن يؤول مصير النظام اللبناني كما آل إليه النظام العراقي سيما بعد أن تعالت من بغداد تهديدات الثوار المنتصرين تتوعد شمعون وحكومته بمصير مشابه لمصير الأسرة المالكة الهاشمية ونوري السعيد والطبقة الحاكمة الرجعية.

وفي دمشق انطلقت شائعات قوية بأن شمعون قد استسلم للمعارضة إثر عملية انقلاب قام بها حرس القصر: راحت يدها تدق على باب البيت الأبيض بعنف.

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ١٤ تموز أعلنت الولايات المتحدة أنها وافقت على طلب الحكومة اللبنانية توفيقاً للمادة ٤١ من ميثاق الأمم المتحدة وتوجه الأسطول السادس لينزل في اليوم التالي ١٧٠٠ ضابط وجندي من مشاة البحرية (المارينز Marines) وليعقبها في الأيام القلائل التالية بدفعات تكاملت لتبلغ ١٤٠٠٠ مقاتل.

فالثورة في العراق إذن هي التي جاءت بالقوات الأمريكية.

وأعلن آيزنهاور إثر الإنزال بأن لبنان كان «ضحية عدوان غير مباشر» وأن الغرض في نزول القوات هو المحافظة على سيادته وصيانة حدوده.

كانت العملية مفاجأة أليمة للعروبيين اللبنانيين والسوريين، رغم أن تلك القوات لم

تشارك قط في أي إشتباك طوال وجودها. صدمة صعب على عبدالناصر الصمود لها، ولم يخفف من وقعها زوال حكم خصمه العنيد نوري السعيد، وخروجه نهائياً من المرسح السياسي، وما عقبه من انهيار حلف المعاهدة المركزية والاتحاد الهاشمي.

عملية صانت نظام لبنان الديمقراطي، وأنقذته لمدة ١٧ سنة من فوضى ومذابح مؤكدة لا يعلم مداها غير الله.

كانت خيبته عظيمة أضيفت إلى خيبته في الأردن. ومن يوغوسلاڤيا، حيث كان يجتمع (بتيتو) طار إلى موسكو لا ليبحث أمر صيانة ثورة العراق من التدخل الخارجي كما روّج مؤرخوه، بل ليرى ماذا سيكون رد فعل السوڤيات إزاء إنزال قوات غربية في البلاد التي يعتبرها ضمن منطقة نفوذه - وهل سيكون مشابهاً لما حصل منهم في العام ١٩٥٦. إلا أن السوڤيات لم يفعلوا شيئاً بل نصحوه بالتخفيف من غلوائه وعدم زج نفسه في مغامرة أخرى قد تورطهم مع الغرب. ولكنه نجح في إخفاء خيبته حين وقف في دمشق يشيد بالنصر الذي حققته الأمة العربية في العراق مؤكداً للموفد العراقي الذي زاره وهو في دمشق، وللذين زاروه في القاهرة: بـ«أن علم الحرية سيرتفع قريباً فوق عمّان وبيروت والجزائر مثلما رفع هذه اللحظة في بغداد».

استمر قتال متقطع رغم الوجود الأمريكي، إلا أن المتطوعين السوريين راحوا ينسحبون بالتدريج وبهدوء بناءً على أوامر صادرة من دمشق، وبانسحابهم بدأت آمال المعارضة في نصر سريع تتهافت وتتبدد، على أنهم واصلوا إضرابهم رغم فوز مرشحهم العماد فؤاد شهاب بالرئاسة[٥٧]. مورست ضغوط متعددة على النواب لإنجاحه، وكانت في الواقع بمثابة تسوية وتطمين لعبدالناصر الذي قوّى موقفه فعلاً، قدر ما كانت بمثابة ترضية للكتل المعارضة. وبناءً على مساعي السفير الأمريكي روبرت مورفي[٥٨]. كان من المفروض أن تتبع الحكومة سياسة «لا غالب ولا مغلوب» إلا أن ذلك لم يحصل تماماً.

---

(٥٧) فاز بأغلبية ٤٨ صوتاً مقابل ثمانية أصوات حازها منافسه (ريمون أدّه) المرشح الثاني زعيم الكتلة الوطنية.

(٥٨) «دبلوماسي بين مقاتلين» Diplomat Among Wariors ط نيويورك ١٩٦٤ ص ٤٠٨.

ألحّ فؤاد شهاب على مزاولة مهام منصبه فور انتخابه وقبل انتهاء أجل رئاسة شمعون، وأصر شمعون على البقاء إلى آخر يوم. كما أصر سامي الصلح على عدم الاستقالة رغم تهديده بالقتل، وترك بيروت إلى إستنبول ليبعث بكتاب استقالته من هناك في آخر يوم، لكن أعداءه =

كان متوقعاً من الرئيس الجديد أن ينحو هذا المنحى وأن يسير على هدي الميثاق الوطني، فلم يفعل. كان صديقاً لعبدالناصر ولزعماء المعارضة يأتمر بأمرهم وينزل إلى رغباتهم، حتى أنه كلّف (رشيد كرامي) بتأليف وزارة ضمت أعضاء كادوا يكونون كلهم من زعماء مشعلي الحرب الأهلية ليُظهر الثائرين بمظهر المنتصر، فأعطى الفرصة للجانب الآخر ليجرد قوته الحقيقية، وهي القوى الشعبية التي لا تستند إلى سلطة حاكمة، بأن دعا الموالون للحكم السابق وحزب الكتائب والحزب القومي السوري والكتلة الوطنية إلى إضراب عام بهدف إسقاط الحكومة.

تم ذلك بدقة وأطاع الجمهور وشلت الحياة الاقتصادية، وتوقفت وسائط النقل، ولم يعد أثر للحياة في بيروت التي عزلت تماماً عن بقية البلاد لأن هذه الأحزاب كانت تسيطر على جميع الطرق وظلت الحال على هذا المنوال طوال ثلاثة أسابيع حتى اضطر (كرامي) إلى الاستقالة وإعادة تشكيل تلك الوزارة التي أطلقت عليها صحيفة نيويورك تايمس عبارة «حكومة موازنة الخوف»، فقد ضمت بيير الجميّل رئيس حزب الكتائب وريمون أدّه، وتعهدت بالمحافظة على سيادة لبنان، وبأنه سيبقى دولة عربية مستقلة.

انتهت الحرب الأهلية في لبنان بنصب عسكري على رأس الدولة، إلا أنه انتخب كما انتخب آيزنهاور فعلاً. انتخب بطريقة دستورية لا بفرض نفسه بانقلاب عسكري كما حصل في سورية ومصر والعراق والسودان واليمن. وأنقذت الديمقراطية في هذا

= نفّسوا عن حقدهم بابن شقيقه (وحيد الصلح) فاغتالوه في ١٣ من تشرين الأول ولم تقم حكومة شهاب بتحقيق جدي وهدر دمه تماماً مثلما حصل لفؤاد الأحدب المعلق السياسي لجريدة (العمل) لسان حال حزب الكتائب، إثر نشره مقالاً جارحاً بعبدالناصر فيه من السخرية والنقد اللاذع ما فيه، فقد تم اختطافه بعد أيام أربعة من تولي شهاب الرئاسة بأمر صادر من عبدالناصر على ما قيل. والإعتقاد السائد هو أن مصيره كان طبق مصير (فرج الله الحلو) زعيم الحزب الشيوعي اللبناني، الذي اختطفه السرّاج كما اختطف (غسان جديد) قبله وعذبه وقتله وقطعه أوصالاً وأذابه في حامض التريك.

أظهر اللبنانيون عموماً عواطفهم الحقيقية إزاء الرئيس شمعون بالتوديع الجماهيري الرائع. ووصفه لي كثيرون أثناء وجودي في لبنان، قالوا إن المشرف من الجبل كان يشاهد منظراً أخاذاً لألوف السيارات في خط متواصل يأخذ بعضها بحجز بعض طوله يزيد عن كيلومترين ولا نهاية له يخرج من بيروت متوغلاً في الجبل خلف سيارة الرئيس. ما رأيت المحدثين يبالغون عندما باشرت في وقت متأخر بقراءة مذكرات شمعون، فقد أسره هذا المنظر على ما يبدو حتى أنه بدأ الفصل الأول منها به.

البلد لا بقوى الجيش المحلي بل بمظاهرة عسكرية غربية ناجعة ألجئت إليها الولايات المتحدة مكرهة!

في ظروف اعتيادية كان موقف قائد الجيش اللبناني الذي وصفناه قد يرقى إلى مرتبة الخيانة الوطنية. لكن وفي خضم صراع طائفي المظهر سببه التآمر العروبي الذي تمثله (ج.ع.م). كان من المتوقع أن تختلف وجهة أي فريق بحسب انتمائه الديني أو الطائفي أو الحزبي.

لكن التاريخ سيبقى فوق هذا وذاك، وله في آخر الأمر القول الفصل وكلمته الحاسمة، وقد لفظها بعد سنوات قليلة عندما هدأت النفوس وبردت العواطف، وتغلبت الروية والحكمة على التسرع والغي في إصدار الأحكام.

فالحكمة التي عزيت إلى قائد الجيش بدت وقد بولغ فيها كثيراً. ذلك لأن العصيان المدني سرعان ما انقلب إلى حرب أهلية شاركت فيها دولة خارجية مشاركة فعالة، وتدخلت فيها تدخلاً مباشراً سافراً، وبان عجز الجيش عن حماية أرواح الأهلين وممتلكاتهم، بل رفض قائده القيام بهذا الواجب، مثلما بان عجزه عن المحافظة على انضباط أفراده فلم يقدم على شيء لمنع أعداد من الجنود والضباط من الالتحاق بصفوف الثوار. ولم يحل دون قيام فريق من الضباط ببث دعاية مباشرة لعبدالناصر بين جنوده إلى حد تعليق صوره على جدران ثكناتهم. ثم إن عدداً كبيراً من الضباط الذين استنكروا منه موقفه وحنقوا عليه إلى الحد الذي ألجأ فريقاً منهم إلى وضع خطة للقبض عليه وإزاحته عن مركز القيادة.

والحديث في هذا كثير. وفيما ذكرناه غنى عن المزيد.

* * *

كانت فترة رئاسة (شهاب) همّاً ثقيلاً رزحت تحته نفوس اللبنانيين الذين يقدسون الحريات الديمقراطية. كان على حد قول الكاتب اللبناني المعروف الأستاذ كمال صليبي «حكماً سرياً فاشستيّ الاتجاه متلصصاً وإلى حد ما مخاتلاً ومخادعاً»[٥٩]. ترك شهاب باب لبنان مفتوحاً لعبدالناصر - أبدراية منه أو بغفلة - ليتدخل في شؤون لبنان المحلية وليضمن انحياز لبنان إلى السياسات الناصرية. واستهواه من نظام (ج.ع.م)

(٥٩) السياسة في الشرق الأوسط: إيلي خضوري ص ٢٤١، ط مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٢ Elie Kadouri: Politics in The Middle East

نظام التجسس والسيطرة البيروقراطية بواسطة المخابرات العسكرية. وهو ما عرف بالمكتب الثاني Deuxième Bureau. كان يشعر خصومه ومناوئيه دائماً بأنه مدين للمعارضة ولعبدالناصر بمركزه، وربما كان يرى اللبنانيين بعين المنظار الذي رآهم به يوماً ما جده الأعلى عندما وقف ذات يوم أمام حاكم مصري آخر متهماً في معاملته الفظة لهم أتباعاً... لسياسة جده الأعلى ولهذا حكاية:

عندما كان الجيش المصري بقيادة (إبراهيم باشا) ابن (محمد علي) يحتل جبل لبنان في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، تراكمت شكاوى الأهلين وتذمرهم من الأمير بشير الشهابي بسبب الضرائب والمعاملة السيئة التي يلقونها على أيدي رجاله والأتاوات التي يفرضها. فبعث بطلبه واستفسر منه عن صحة ما أسندوه إليه، فأجابه: «يا سعادة الباشا إني مغلول اليد، ولا حيلة لي بغير هذا. فهو وحده يكفل الهدوء والسكينة لنا معاً. فلسكان جبلنا عادات البغال اللبنانية، ومن الضروري معاملتهم معاملة البغال».

سأله إبراهيم باشا وكيف يكون هذا؟

فشرح له الأمر هكذا، قال: «أما لاحظتم أن البغال اللبنانية لا تسير بهدوء وانتظام وبرجل ثابتة، إلا إذا كانت محمّلة بثمانين بطماناً[٦٠] كما تعوّدت؟ إن خففتم سعادتكم حملها، ترونها تحرن وترفس ويصعب قيادها وتحاول قذف حمولتها عن ظهورها طول الطريق، فتنهك قواها بسبب من ذلك أكثر بكثير من تعبها في الحمل الثقيل».

فضحك إبراهيم باشا طويلاً وعقّب قائلاً: «هذا عين ما نفعله في مصر. الآن فهمت كيف أمّنا المحافظة على الهدوء، وضمنّا الطاعة هناك».

وصرفه مشيّعاً بالرضا والثناء.

وأفسح الرئيس شهاب تقرباً لـ(ج.ع.م) مجال العمل السياسي والعسكري للاجئين الفلسطينيين بشكل غير مسبوق وفتح لهم باب الهجرة من الأردن على مصراعيه مسهلاً نقل الأسلحة إلى تشكيلاتهم العسكرية من مصر وسورية. وعلى عهده نمت أحياء خاصة في بيروت لهم، كادت تكون مغلقة في وجه السلطة اللبنانية تماماً مثلما كانت مخيماتهم الكبرى في جنوب لبنان الشيعي تتمتع بهذا الامتياز. وزحفت على ألسن

---

(٦٠) زنة لبنانية تعادل مائتي كيلو ونيف، وعندنا يسمى طغار.

العامة تدريجياً عبارة «دولة داخل دولة» لوصف الوضع السياسي الفلسطيني في لبنان. وفي عهده كان تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية تأكيداً لهذا النعت. وتصاعدت الهجمات الفلسطينية في الجنوب على الأراضي الإسرائيلية فقوبلت بحملات عسكرية في عمق الجنوب اللبناني، فأوقعت الدمار والخراب بقرى الشيعة ومزارعهم واضطرت أعداد كبيرة منهم إلى تركها والنزوح إلى العاصمة والمدن الأخرى.

بقي الشعب عنصراً سلبياً هادئاً في دنيا السياسة اللبنانية قانعاً بزعامة وجهائه التقليديين حتى الساعة. لكنه بدأ يتململ بفعل الحرب الأهلية والهجمات الفلسطينية والحملات المقابلة التي جعلت أراضيه ميدان حرب متواصلة، وبسرعة فائقة تعلم ممارسة الأسلوب الدعائي الناشط في السياسة. وكان لشخصية (موسى الصدر) شأن كبير في هذا.

موسى الصدر روحاني إيراني النشأة لبناني الأصل[٦١]، بات فجأة في أواخر الخمسينات مركز الثقل الشيعي. هاله ما يحدث في جنوب لبنان من دمار وتقتيل ونزوح، فراح يهاجم السلطة لإهمالها الطويل الأمد وتقاعسها عن حفظ أمن الأهلين في تلك المناطق. وعزا إليها أسباب الرزايا التي تحل بأفراد طائفته من الفلاحين والقرويين الفقراء. واتهم الحكومة بالفساد والاستغلال وطالب بالحماية العسكرية من العمليات العسكرية المتقابلة. ومن أجل استرعاء الاهتمام العام بقضايا طائفته نظم إضراباً شيعياً في بيروت، وأسس حركة (أمل) للمحرومين وأقام لها جناحاً عسكرياً لتأمين الدفاع. واتخذ سبيل التطرف في خطبه المعادية المثيرة والحماسية:

«لا نريد عواطف بل عملاً... لن أبقى ساكتاً منذ اليوم نحن نريد كل حقوقنا كاملة... يا أيها الجيل الصاعد، إن لم تستجب مطالبكم فسوف ننطلق لأخذها بالقوة، إن لم تكن تعطى في هذا البلد فيجب أن تؤخذ»[٦٢] وغيرها وغيرها.

---

(٦١) عرفته بزيارات كنا والكاهن أوغسطين (من دهوك) نقوم بها لمجلسه، وجدته إنساناً متفتحاً لطيف المعشر نبيهاً واسع الإطلاع تائقاً للمزيد من المعرفة. كنا نمازحه بسبب بشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين وشقرته برد أصله إلى العنصر الصليبي الغربي كلاً أو جزءاً على الأقل، فيشاركنا المزاح والفكاهة ويضحك.

(٦٢) المرجع السالف [نقلاً عن أ. رابينوفيتش: حرب من أجل لبنان War for Lebanon ١٩٨٣-١٩٧٠. دراسات شرقية ص ٢٣]. ص ٢٤٣.

بازدياد الاشتباكات بين منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الإسرائيلي زاد الصدر من ضغطه ومن محاولات تنظيم جماعات مسلحة للدفاع عن الجنوب، وأطلق شعار «السلاح حلية الرجل». وأقام علاقات مع السوريين وأنشأ علاقات غامضة خفية نوعاً ما مع (معمر القذافي) كلفته حياته[٦٣].

لم تفتن الشيعة دعوى العروبة والقومية.

(٦٣) في آب ١٩٧٨ شخص هو واثنان من أتباعه إلى ليبيا بناءً على دعوة من القذافي كما قيل في حينه، واختفى الثلاثة جميعاً دون أن يخلفوا أثراً بعد وصولهم البلاد. ولم تسفر الجهود المبذولة عن دليل يشير إلى مصيرهم. وقد زعم الليبيون أن الثلاثة غادروا البلاد فعلاً.

الفصل السادس والعشرون

الأردن والشعارات القومية. القوى الناصرية. مستقبل غامض لدولة صغيرة. دعاية عبدالناصر وضغوط إعلامية. الزخم الفلسطيني. إنهاء العمل بالمعاهدة الأردنية – البريطانية. مغادرة الحاميات البريطانية. طرد كلوب من الجيش الأردني. أبو نوار رئيساً للأركان. نشاطه مع الناصريين. مسيرات ضخمة أثناء العدوان الثلاثي. قطع المعونة المالية الإنكليزية. الإعلامان المصري والسوري يشيدان بوطنية حسين وعروبته. وقوعه تحت تاثير المخادعين الناصريين وقومييه. السعوديون يشعرون بالخطر ويتقربون من الحسين. الفوضى والمظاهرات. الحسين يوجه إنذاراً للنابلسي بوجوب وضع حد لانتشار الآراء والعقائد المتطرفة. النابلسي أداة طيعة بيد عبدالناصر ساعة الحسم. محاولة الانقلاب. أبو نوار قائد المحاولة. صمود الحسين وأعوانه. فشل الانقلاب والتصفية. إضراب عام. الإنذار الأمريكي ونزول مشاة الأسطول السادس ساحل لبنان. اجتماع الحسين بالعاهل السعودي. حلف جديد. التآمر على حياة الحسين. الفشل المتواصل. فشل الناصرية في إحداث تصدع أردني. السودان. مؤتمر الخريجين. رفض وحدة مصر والسودان. حكومة الأزهري. التهديد المصري العسكري. شكوى السودان أمام مجلس الأمن. انقلاب الفريق إبراهيم عبود. البيان الأول. المجلس الأعلى العسكري اللبناني. محاولات انقلاب. المجلس الاشتراعي. ثورة شعبية تطيح بدكتاتورية عبود

ساورني بعض التردد في تقديم ما أثمرت به إرهاصات قومية عبدالناصر العربية في الأردن على ما زرعته وأنبتته فوق أديم لبنان. أعني عندما باتت أيديولوجيتها في الوحدة في (ج.ع.م) الهدف الأسمى خلال العامين ١٩٥٧ و١٩٥٨.

كانت الجهود الناصرية في القطرين متزامنة تقريباً، ومتداخلة في أحيان كثيرة. ثم استقر الأمر على ما وجدت وكما سترى. على أن تلك الجهود، ولنسمّها بالدسائس فالوصف أقرب إلى الحقيقة، لم تتمخض في الأردن بحرب أهلية كبيرة كما حصل في

لبنان للسهولة النسبية التي تم فيها إحباطها. وأرى أن الفضل الأكبر في هذا يعود إلى صلة الطبقة الحاكمة الأردنية بالطراز القديم من القومية العربية المستمد من تراث مؤسس الدولة وأبيه القومي. في مبدأ الأمر سمحت هذه الطبقة لأسطورة عبدالناصر بنمو سلميّ طبيعي ولم تجد مانعاً ولا تحرجاً، وعلى رأسها يقوم ملك شاب عربي لا شائبة في عروبيته، يفخر بنسبه ولا يعتقد مطلقاً بمقدرة أحد منازعته مقامه هذا من بلد غير بلده. إلا أنه كان بحاجة إلى التجربة فقد تولى العرش في ظروف استثنائية غريبة: شاهد جده يسقط على درج المسجد الأقصى مضرجاً بدمائه بيد فلسطينية قبل خمس سنوات، ووضع التاج على رأسه وقت كان والده يُحمل إلى خارج البلاد ليودع في مصح للأمراض العقلية. وها هو الآن يحكم بلداً أكثر من نصف سكانه فلسطيني[١] أقاموا الدنيا ولم يقعدوها احتفاءً باندحار العدوان الثلاثي. وراقب صور هذا الزعيم المظفر ترفع لتحتل أفضل مكان في غرفة استقبال كل منزل في العاصمة الأردنية، والتزم خط المجاملة والمصافاة والإغضاء.

وفي بغداد تزايد القلق على مستقبل الأردن الغامض، وإغضاء الطرف عما يجري وتبودلت زيارات خاطفة بين رئيسي الدولتين السعودية والعراق وصدرت إثرها بيانات حول «مصالح الأمة العربية» و«ما فيه الخير للأمة العربية» طوال العام ١٩٥٧، كما كانت هناك زيارات لنوري السعيد إلى لندن وعمّان[٢]. كان نوري في العاصمة البريطانية عندما أقدم عبدالناصر على تأميم القناة فـ«ألحّ على الحكومة البريطانية لاتخاذ إجراء ضد مصر وأنذرها بقوله: إن لم يسقط جمال خلال فترة قصيرة، فإن عناصر مدمرة عظيمة ستنشط من عقالها في البلاد الناطقة بالعربية وسينفرط عقد حلف المعاهدة

---

(١) في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٥٠ أعلن الملك عبدالله «موافقته» على ضم الضفة الغربية في «دولة واحدة هي المملكة الأردنية الهاشمية مع عدم المساس بالتسوية النهائية لقضيتها العادلة في نطاق الأماني القومية والتعاون العربي والعدالة الدولية».

(٢) نتنگ: المرجع السالف ص ٣٥١، د. گوري: المرجع السالف. لندن، هجسون ١٩٦١ الص ١٧٧-١٧٨. قامت بغداد بتظاهرة كاذبة لم يصدقها أحد، انتصاراً لمصر وإظهاراً لتضامنها العربي معها - بسوق قوات عسكرية إلى الأردن لحمايتها من اعتداء إسرائيلي. وقاطع العراق اجتماعات حلف المعاهدة المركزية عندما حضرتها بريطانيا. وقطع علاقاته مع فرنسا. وأكد لي المقربون من نوري أنه صدم صدمة عنيفة عندما علم بمشاركة الإسرائيليين، إذ لم يكن يتوقع ذلك. وراح يضرب يداً بيد قائلاً «هؤلاء خربوا علينا كل شيء».

المركزية، أو يغدو حبراً على ورق. ونصح ايدن ألا يورّط نفسه مع الفرنسيين أو الإسرائيليين في أي عمل مضاد».

بوقفة عنيدة واحدة لم تكلفه شيئاً حوّل هزيمة العدوان إلى نصر. وبقليل من الجهد استبق خصميه اللدودين العراق والسعودية إلى سورية - لتطويقها وتحقيق الوحدة معها - وليجعل من حكام البلدين المذكورين أعداءً للأمة العربية وعقبة كأداء في سبيل تحريرها من النفوذ الأجنبي واستعادتها عزتها وكرامتها ومجدها الغابر. وبدت الأردن في خارطة الوحدة، فهي قريبة المنال دانية القطوف.

في العام ١٩٥٦ كان ثمّ حلف أردني مع سورية ومصر بعد الانتخابات العامة التي دفعت إلى المجلس بأغلبية واضحة للقوميين العروبيين. إلا أن الملك ومستشاريه ما كانوا بدرجة من الحمق لقطع أواصر تشد عرشه الهاشمي بالعراق.

وفي العام ١٩٥٧ كان يقوم على رأس الحكومة رجل يكرهه عبدالناصر ولا يثق به، هو «سليمان النابلسي» فعمد إلى التخلص منه. وفي حمى التقارب الأردني- السوري المصري، وقبل إعلان الوحدة ببضعة أشهر ذاق الملك الحسين صدمته الأولى الموجعة.

كانت جهود عبدالناصر قد نجحت في حمل السعودية وسورية على إقناع حكومة الأردن برفض المساعدة السنوية المالية التي كانت تمنحها بريطانيا، لقاء تعهد الدولتين ومصر بها، واستطاع أيضاً أن يحمل الحسين على إنهاء المعاهدة البريطانية - الأردنية في آذار من تلك السنة، مع الطلب من الحاميات البريطانية مغادرة الأردن خلال ستة أشهر. بمعنى أن البلاد أضحت «مستقلة تماماً و مهيأة للوحدة».

وأقدم عربوناً على ولائه لعبدالناصر، وبرهاناً على عروبته، على إقالة الجنرال «جون باجيت كلوب[٣]» قائد الفيلق الأردني مع خمسة عشر ضابطاً بريطانياً في آذار

---

(٣) كان كلوب من ضباط الحملة البريطانية على العراق ١٩١٥-١٩١٨ وبقي في الجيش البريطاني إلى الثلاثينات، برتبة رائد وعرفه جنوب العراق بلقب «أبو حنيك» بسبب ذقنه المدبب واعوجاج في خده. قاد في ١٩٢٦ الحملة على «الإخوان» المغيرين بقيادة الشيخ فيصل الدويش فهزمه متفادياً بذلك حرباً بين السعودية والعراق. كما قاد اللواء الأردني في حركة مايس حتى بغداد. طبعت مذكراته: جندي مع العرب Soldeir With The Arabs في (نيويورك ١٩٥٧) وهو الذي شيّد قلعة نقرة السلمان التي أستخدمت فيما بعد سجناً صحراوياً للمجرمين العائدين، والسجناء السياسيين الشيوعيين.

١٩٥٦ فجأة ومن دون سبب ظاهر وأمرهم بمغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة، وشد أزره ضباط عروبيون من الجيش الأردني يتزعمهم المقدم (ثم اللواء) علي أبو نوار البالغ من العمر ٣٣ عاماً في حينه.

وقد سبق إقالة الضابط حملة صحفية وإعلامية مصرية شعواء على شخصه متهمة إياه مع بريطانيا بكل أنواع الآثام والخيانات ونوايا السوء[٤].

ومن أثر ذلك كان دخول الضباط الأردنيين حلبة السياسة. ذاقوا طعمها وسرت في عروقهم من العدوى السورية فراحوا بعدها يتآمرون على الملك وعلى النظام نفسه.

سلمت قيادة الجيش بعد كلوب للواء (راضي عنّاب) الذي ما عتم أن أحيل على التقاعد. وفي ٢٥ من أيار ١٩٥٦ أسند منصب رئاسة الأركان العامة بعد مناورات ومساعٍ خفية إلى المقدم علي أبو نوار برتبة لواء. عرفه كلوب بعثياً متحمساً لعبدالناصر يبطن شعوراً عدائياً للملك وكرهاً للنظام الملكي، ولهذا أبعده عن الجيش بتعيينه ملحقاً عسكرياً في باريس خلال ١٩٥٤ فكان يلازم الملك ويظهر له فنوناً من الولاء والتعلق أثناء زياراته فرنسا. وفي أواخر العام ١٩٥٥ استدعاه الملك وجعله مرافقاً له بعد ترفيعه إلى رتبة مقدم - رغم إنذار كلوب وتحذيره.

ما أن استقر (أبو نوار) في مركزه القيادي بعد أربع ترفيعات خلال سنة واحدة وبضعة أشهر حتى بدأ ينشط مع القوميين العروبيين ويعمل معهم يداً بيد، مؤثراً أبلغ تأثير على تقارب الملك مع سورية ومصر.

---

(٤) كذلك اشتد حنق الملك الشاب بسبب مقال نشرته مجلة «أنباء لندن المصورة» في لندن The Illustrated London News تحدثت فيه عن «كلوب» ووصفته بملك الأردن غير المتوج. على أن الملك كتب في مذكراته بأن اعتبارات قومية ومسلكية هي التي حملته على إقالته، وأنه اختلف معه في خطة ستراتيجية للدفاع عن الأردن في حالة هجوم إسرائيلي مفضلاً فيها الانسحاب من الضفة الغربية إلا أن كلوب (المرجع السالف يكذبه بقوله إن الملك استحسن خطوته تلك، ووافق عليها. وأن لديه وثيقة تثبت ذلك، مؤكداً أن إزاحته كانت مؤامرة ناصرية نفذها الضباط الأردنيون. إن الاعتقاد السائد حول أسباب طرده هو اعتماده الوقوف بحزم ضد الترقي الاعتباطي السريع الذي كان مطمح أولئك الضباط. وكذلك تطبيقه النظام العسكري الإنكليزي الدقيق الصارم كوسيلة لامتصاص النقمة عليه، وتبديد شعورهم بالغبن جراء ترفيعات بعضهم، وإبعادهم عن عالم السياسة. لكن ما حصل هو العكس تماماً، فقد زاد حنينهم إلى ولوج عالم السياسة، كما وضع لقيادات الجيش شباناً أغراراً قليلي التجربة والخبرة طموحين إلى أبعد حد مثلما حصل في سورية واليمن ومصر إلى حد ما.

وفي أثناء تأميم القناة والعدوان انطلقت المسيرات الضخمة في العاصمة وفي الكرك وغيرهما من المدن بتأييد مصر تحمل شعارات مثيرة، وبهتافات تشق عنان السماء كما وصفتها الصحف في حينه - بحياة عبدالناصر والوحدة العربية - وبحماية من الجيش، وقد تولى تنظيمها وقيادتها البعثيون بالتعاون مع الفلسطينيين. وفي ١٦ آب ساد الأردن إضراب عام نظم تأييداً لعبدالناصر ضد الفرنسيين والبريطانيين.

وصحا الملك الشاب من غفوته والفضل -إن كان يعد فضلاً- للهجمات الإسرائيلية العنيفة على خط الهدنة بين شهري أيلول وتشرين الأول. فدار صوب الشرق نصف دورة ليعقد اتفاقاً عسكرياً مع العراق يسمح بموجبه بإرسال قطعات من الجيش إلى بلاده وبقيام طلعات جوية عراقية في سمائه. وبادرت سورية لإعلان استعدادها لهذا أيضاً وتبعتها مصر في ٢٥ من تشرين الأول، كيلا ينفرد العراق بالحظوة. وجعل الجيش الأردني رقيباً على الجيش العراقي يرصد حركات قياداته، وأُمّر الفيلد مارشال عبدالحكيم عامر قائداً عاماً للجيوش الأربعة في حالة نشوب الحرب(٥).

هكذا كان الوضع عندما نجمت تلك المحاولة للإطاحة بالنظام الملكي بهدف إقامة حكم موالٍ لعبدالناصر، وجرى ذلك عقب الانتخابات العامة في ٢١ من تشرين الأول بنتيجة تشير إلى منحى قومي يساري واضح رغم أن فصائلها مجتمعة لم تكن أغلبية. حاز القوميون الاشتراكيون نجاحاً متفوقاً بخروجهم بأحد عشر مقعداً، وحاز الشيوعيون بعنوان «الجبهة الوطنية» بثلاثة مقاعد، وتلاهم البعثيون باستقلالهم بمقعدين. أما الآخرون فكانوا من الإخوان المسلمين ومن الحزب العربي الدستوري أو من المستقلين الذين صوّت بعضهم إلى جانب اليسار القومي. وألّف سليمان النابلسي، زعيم القوميين الاشتراكيين، الوزارة.

وبدأت الحكومة الجديدة بإلغاء المعاهدة البريطانية - الأردنية، وإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوڤياتي والصين الشعبية، وراجت معها دعوة عبدالناصر للحياد الإيجابي وعدم الانحياز، لتغدو بعد فترة قصيرة شعاراً رسمياً.

في ١٥ تشرين الثاني، طلبت الحكومة من بغداد رسمياً سحب الجيش العراقي من دون طلب مماثل لسورية أو العربية السعودية، فتم سحب اللواء العاشر في كانون الأول

(٥) كان في الأردن عند حرب القناة قوات سعودية وسورية وعراقية. وكل جيش كان يراقب حركة الآخر للتأكد بأنه لن يحاول ابتلاع الأردن.

التالي، وكان من بين أمراء أفواجه ضابطان عراقيان هما عقيد ركن يدعى عبدالكريم قاسم ومقدم ركن يدعى عبدالسلام محمد عارف، كانا وثيقي الصلة بالضباط السياسيين الثوريين السوريين والأردنيين. وقالوا إنهم أحاطوهم علماً بوجود تنظيم سري بين ضباط الجيش العراقي يعمل للإطاحة بالنظام هناك(٦).

وبدا من تصريحات «النابلسي» الصحفية وكأن الأردن يسير بخطى حثيثة للارتماء في أحضان دمشق والقاهرة(٧).

وانطلقت الحكومة حال تشكيلها في عملية تخليص الجهاز الحكومي من جميع الموظفين المعروفين بولائهم للعرش أو بعطفهم على الغرب. وكمثل سورية انتشرت الأفلام السينمائية السوڤياتية والصينية في صالات العرض وسمح لوكالة (تاس) بجهازها التجسسي بالعمل في عمّان وبتأسيس مكتب لها لتوزيع نشرات أنبائها على أوسع نطاق، في حين أجيز الحزب الشيوعي الأردني بإصدار جريدته (الجماهير)، وبدأت في الوقت عينه حملة منظمة ضد الحكومة العراقية وحلف المعاهدة المركزية.

وفي سبيل الإعداد لإلغاء المعاهدة مع بريطانيا، تم عقد اتفاق ١٩ كانون الأول بين مصر وسورية والعربية السعودية على أن تتكفل هذه الدول بتسديد المنحة السنوية المالية التي كانت بريطانيا تدفعها للفيلق العربي (الجيش العربي)(٨) كما ذكرنا. وفي اليوم عينه وقّع في القاهرة بين هذه الدول الاتفاق الذي عرف بـ«ميثاق التضامن العربي».

وشرعت الحكومة في مفاوضات إلغاء المعاهدة البريطانية - الأردنية. وفي بغداد

---

(٦) ذكر اللواء عفيف البزري في تصريح له لجريدة النصر الدمشقية بتاريخ ١ تموز ١٩٦٢ أن (قاسماً) اجتمع به في خيمة بمطار المفرق على الحدود وقتما كان يقود وحدة سورية شمال الأردن.

(٧) في اجتماع عام في عمّان، بتاريخ ٢١ كانون الأول، راح النابلسي يمجّد عبدالناصر ويعدد مآثره في (معركة المصير) طوال نصف ساعة، دون أن يورد اسم الأردن في خطابه مرة واحدة. وقبلها بخمسة أيام صرح لمندوب جريدة نيويورك تايمس (هانسن بلدوين) بأن الأردن لا يمكن أن يعيش (أردناً) إلى الأبد وعليه أن يقيم علاقات عسكرية واقتصادية وسياسية مع دولة عربية أخرى (ولم يسمّ الدولة).

(٨) تعهدت كل من مصر والسعودية بدفع ٤٠ بالمائة منها وأن تدفع سورية البقية أي ٢٠ بالمائة. والمنحة هي ٣٦ مليون پاون سترليني. بعد فترة وجيزة تبيّن للملك أن لا سورية ولا مصر تعتزمان الوفاء بتعهدهما، أما السعودية فقد دفعت حصتها مرة واحدة فقط.

قامت قيامة نوري السعيد وعبدالإله، وبذلت محاولات مستميتة مع الملك للتدخل شخصياً من أجل وقف هذه المسيرة السياسية.

في ذلك الوقت كانت تكتنف الملك بطانة غريبة من أولئك المخلصين لآرائهم والكاذبين فيها. وكل فرد منهم ينشد الحظوة والتقرب من العاهل، بالنصح الذي يتضمن ثناءً على الخط السياسي العام في مسيرة الأردن القومية والتقدمية، والنأي عن مشاريع الغرب المشبوهة وأحابيلها الإمپريالية.

إن الناس يكذبون عندما يعتقدون أن الخداع والكذب قد يضمن لهم مكسباً، ويصدقون أيضاً للسبب عينه أي للفوز بما يريدون أو بما يحقق لهم رغبة، كأن يكونوا موضع ثقة جزاء إخلاصهم وصدق نصيحتهم - إنهما كما يقول هيرودوتس:

«طريقان مختلفان فعلاً، لكنهما يفضيان إلى نتيجة واحدة، ويهدفان إلى غرض واحد، فحيثما لا يوجد شك في الفائدة المنشودة تجد المخلص الحسن النية يكذب على أغلب الاحتمال مثلما يفعل الكذاب غير المخلص ذو النوايا السيئة، والكاذب أيضاً يقول الحقيقة بعين السهولة واليسر التي يقولها الصادق وللغرض عينه».

ووقع الملك الشاب لفترة غير قصيرة بين يدي هذين الفريقين، ليقضي ما تبقى من عمره في عملية شاقة من التنقيح والتصحيح، ضائعاً خلالها بين القيادات السياسية الصخّابة العجّاجة التي دفع بها الزعيم القومي الجديد، فمرة يصمد لها ومرة يجرفه تيارها. فيعثر ليقوم وليعثر ليقوم ثانية وهكذا.

انتهت المفاوضات على إنهاء المعاهدة بإلغائها، وتوقفت المنحة المالية في الأول من آذار واحتفلت الأردن بهذه المناسبة احتفالاً رسمياً وأعلنت بالمناسبة عطلة رسمية أمدها ثلاثة أيام. تحرر الأردن فعلاً وخرج من دائرة النفوذ البريطاني لكنه وضع نفسه في عين الوقت تحت رحمة جيران أقوى منه ذوي مزاج ناري متحول عاصف لا وجه شبه بينه وبين الحلف البريطاني الهادئ المتزن.

وراحت الصحف والإعلام المصري والسوري تكيل المدح جزافاً للملك العربي الذي أحيا أمجاد الثورة العربية التي فجرها سميّه جده الأعلى قبل أربعين عاماً.

لكن، متى شعر الحسين بالخطر؟

من الصعب إثبات تاريخ لهذا، إلا أن الوقت لم يطل لحسن حظه. كان كما ألمعنا تحت تأثير المخادعين المخلصين لـ«عبدالناصر» وللعاصفة القومية التي أثارها. لم يعر

أذناً صاغية لابن عمه عبدالإله، وكانت ترده بأشكال شتى. وبدا ضعيف الحيلة غير منتبه بأن قوائم عرشه تهتز تحته وأن عبوات ناسفة ذات ماركة قومية قد وضعت في أماكن حساسة من نظامه الدستوري[٩].

في تلك الأيام بدأ الملك سعود من جانبه يشعر بالخطر وبأنه مضى بعيداً في مساندته عبدالناصر. كان في بداية ١٩٥٧- أمراء السعوديين ومستشاروهم يتوقعون أن تسقط الأردن في قبضة السوريين والمصريين بين يوم وآخر، وأقلقهم كثيراً تحول حليفيهم السريع إلى اليسار الثوري.

وفي أثناء زيارته الولايات المتحدة (أوائل شباط ١٩٥٧) نبهته وزارة الخارجية إلى الخطر المحدق، وإلى عاقبة علاقاته الوثيقة بحليفيه، فحصلت منه على وعدين أولهما توطيد علاقاته بالعراق، وثانيهما اجتناب أي عمل مع عبدالناصر قد يؤدي إلى الإيقاع به وإسقاطه[١٠]. ولم يكن لا هو ولا أعضاء أسرته بحاجة إلى ضغوط أمريكية خاصة، فقد أكد لهم تسارع الأحداث صحة هذا، ولم يعش ميثاق التضامن العربي (السعودي-السوري-المصري) غير أشهر قليلة ثم مات دون ضجة.

لمّ الحسين أطراف شجاعته وقد استبد به الفزع. وبعث بطلب رئيس الحكومة وأنذره بالعزل إن لم يتدارك الأمر ويضع حداً للانحراف الجماهيري ووجه إليه خطاباً رسمياً في الأول من شباط ١٩٥٧، مستخدماً لهجة شديدة لم تسمع منه من قبل:

«إن لم يوضع حد لانتشار المبادئ والعقائد الوافدة، والآراء التي تسربت إلى هذا البلد فإن الإمبريالية التي كادت تلفظ أنفاسها في الشرق العربي سوف تخلي مكانها لشكل آخر من الإمبريالية. وإن استبعدنا هذا الشكل الآخر

---

(٩) ذكر كميل شمعون في مذكراته (المرجع السالف: أزمة في الشرق الأوسط Crise Au Mayon Orient ط. باريس كاليمار ١٩٦٣ الص ٣٢٥-٣٢٨ أنه انتهز فرصة زيارة الملكة (زين) أم الملك بيروت فبسط لها خطة عبدالناصر في إضعاف ابنها وعزله قبل تسديد الضربة القاتلة مستخدماً للعبارة الأخيرة المصطلح الفرنسي Coups de grace التي نترجمها عادة بطلقة الرحمة، وهي الإطلاقة التي يسددها منفذ حكم الموت على الضحية بتسديدها إلى رأسه توثيقاً لموته. ويعتقد شمعون في كتابه أن الخطوات الثلاث المدروسة لإضعاف الحسين هي: أولاً، إقناعه بدخول وحدات سورية - عراقية؛ ثم عزله الجنرال باجيت كلوب؛ ثم إنهاء المعاهدة مع بريطانيا.

(١٠) مذكرات الملك حسين بعنوان «يستقر الرأس قلقاً Uneasy Lies The Head» نيويورك ١٩٦٢ ص ٢١٤، كذلك أنظر كلوب: المرجع السالف ط. نيويورك هاربر ١٩٥٧

فسوف نعجز عن التخلص منه أو إزاحته عنّا. وأسترعي الانتباه أيضاً إلى الخطر المتأتي من أولئك الذين يدعون بأنهم قوميون عروبيون في حين لا تربطهم بالعروبة أية رابطة...»[11].

لكن النابلسي لم يكترث بتحذير الحسين. وأبدى عبدالناصر قلقاً. وانبرى البيطار وزير الخارجية في سورية لانتقاد الرسالة، وبلغ به الحمق حداً أنه بعث برسالة إلى الحكومة الأردنية يوصيها بإظهار المزيد من التقرب والصداقة للعالم الاشتراكي، وقرن ذلك بالإيعاز للبعث واليسار وللفلسطينيين بإطلاق المظاهرات والمسيرات - بعد استئذان القاهرة والحصول على موافقتها طبعاً.

وعصفت المسيرات والتظاهرات بجو البلاد لتقام بمناسبة أو غير مناسبة، وبشعارات مهاجمة للغرب والتحذير من مؤامراته كانت بجوهرها ترمي إلى تخويف الملك وبطانته الجديدة ذات الميول المحافظة. وبتحريض من اليسار أصدرت الحكومة قراراً بتعطيل نشاط الحزب القومي السوري في حين انهالت على الصحف الموالية للملك رسائل تهديد غفل عن التوقيع، تحثها على توجيه النقد لراعيها وحاميها بسبب تجاهله موقفه من القوميين العروبيين واليسار.

في نهاية آذار، هدد النابلسي بالاستقالة إثر رفض الملك عزل «عناصر معينة غير مرغوب فيها» من وظائفهم الحكومية، ولأنه يجري «اتصالات مع دول غربية دون علم الحكومة». لكنه تلقى أمراً من عبدالناصر بالبقاء وعدم تقديم استقالته.

وفي الثاني من شهر نيسان - ورغم معارضة الملك - صوتت حكومته إلى جانب إنشاء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوڤياتي. وقد حصل هذا بعد وصول (علي أبو نوار) من دمشق بيوم واحد يحمل معه عرضاً سوڤياتياً سخياً لصفقة سلاح للجيش الأردني.

كان الجيش همّ الحسين الأكبر، وقد بدأ يلحظ انقسامه إلى شيع وكتل سياسية، ذلك الجيش الذي اشتهر رغم صغره بالانضباط والاحتراف والفعالية. وهاله أن يجد قادة في الجيش ومسؤولين كباراً في الحكومة يجرفهم التيار ويقعون فريسة للنفوذ

---

(١١) المرجع السالف ص ١٥٩؛ كذلك أنظر النص الكامل في كتاب «الدول العربية والجامعة العربية: سجل وثائقي» مجلدان (جمع محمد خليل بيروت ١٩٦٢ - مكتبة خياط الص ٩١٦-٩١٩ ج ٢ The Arab States and The Arab League: A Documentary Record.

المصري السوفياتي. هناك فضلاً عن (أبي نوار) مثلاً (شفيق رشيدات) وزير العدل، و(عبدالله الريماوي) وزير الدولة للشؤون الخارجية من بين كثيرين غيرهم. وقد ساد الاعتقاد بأن الثلاثة الذين ذكرناهم كانوا يتلقون هدايا ثمينة ورشاوى مالية لأنفسهم وللآخرين من السوريين والمصريين والسوفيات، وتعددت زيارة هؤلاء الثلاثة دمشق بشكل منتظم جالب النظر. كان هناك تقرير رفعته دوائر الأمن إلى رئيس الديوان الملكي، جاء فيه:

«لو أن الشرطة فتحت حقائب هؤلاء في نقطة (الرمثة) على الحدود لوجدت مبالغ نقدية في كل واحدة منها»[١٢].

ولوحظ بشكل ملفت للنظر غشيان الضباط الأردنيين ملاهي ونوادي بيروت ودمشق الليلية، وإنفاقهم مبالغ كبيرة لا تتناسب قط مع رواتبهم المحدودة. وانتشرت إشاعة في دمشق - تخطت حدود سورية وسمعناها في العراق - بأن الريماوي كان يؤكد لزوجته بأنها ستغدو في غضون وقت قصير سيدة الأردن الأولى. في حين كان (أبو نوار) يتهيأ ليغدو رجل الأردن القوي، كحسني الزعيم أو الشيشكلي، ولا أذكر عبدالناصر، الذي كان أبو نوار مفتوناً بشخصيته معجباً بها نهاية الإعجاب بنجاح حركته وسياسته وكان على صلة دائمة به[١٣].

في نيسان بدا أن لا مفر من ساعة حسم بين الملك وحكومته. وكانت النتيجة بطبيعة الحال تتوقف على موقف ضباط الجيش، وبخاصة رئيس الأركان الذي كان الجميع يقر بأنه أصبح في الآونة الأخيرة مركز ثقل في المعادلة السياسية. ودنت الساعة في الثالث عشر من ذلك الشهر، بعد إقالة الحكومة بثلاثة أيام. طلب الملك من النابلسي بخطاب تقديم استقالته والاعتزال، معدداً أعمالاً اعتبرها تحدياً لسلطته، وإهمالاً لأوامره. كما أصدر الملك في عين الوقت مرسوماً بتعيين العميد (محمد مقيطه) مديراً للأمن العام بدلاً من اللواء بهجت طبره.

---

(١٢) الحسين: المرجع السالف ص ١٥٧

(١٣) تبدلت نظرة علي (أبو نوار) كثيراً في العام ١٩٨٩، فقد كتب في مذكراته: «إذا كنا ندرس لنستفيد للمستقبل فإن أول درس يجدر بنا أن نحفظه في ذاكرة أمتنا هو: أن لا تذهب إلى الانبهار في القادة إلى درجة فقدان العقل، وأن لا تذهب في سبيل أهدافها النبيلة إلى القسرية التي تخرجها عن سلامة تلك الأهداف» [جريدة الشرق الأوسط: العدد ١٤٥٦، في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٩].

كان النابلسي في اجتماع للوزارة عندما دخل عليه «بهجت التلهوني» رئيس الديوان الملكي ودفع إليه بكتاب العزل. فبعث (النابلسي) يستقدم اللواء (علي أبو نوار) واثنين من الضباط الموالين وسألهم النصح، فأشار عليه (أبو نوار) بالاستقالة وكان يتوقع، كما اتضح فيما بعد، أن تعقب الاستقالة أزمة وزارية تعطيه الحجة ليقوم بانقلابه في حالة عدم تكليف النابلسي ثانية بتأليف الوزارة، فانصاع النابلسي وتوجه إلى القصر لتقديم استقالته رغم وصول برقية من عبدالناصر إليه، جاء فيها: «لاتستسلم. إبق في منصبك». وبهذا نما الكره بين الاثنين.

ومثلما توقع (أبو نوار) بقي الحسين أياماً ثلاثة يحاول تأليف حكومة جديدة. كلّف بالأول الدكتور حسين الخالدي الفلسطيني، إلا أنه تخلى عن المحاولة لأن القوميين الاشتراكيين وغيرهم من قوى اليسار المساند للنابلسي أصدروا بياناً عارضوا فيه تأليف حكومة برئاسته، كما تحدث البيان استطراداً عن «الاعتزام على إقامة اتحاد فدرالي مع مصر وسورية».

توجه الملك إلى «عبدالرحيم النمر» زعيم الجناح المعتدل من القوميين الاشتراكيين وكان وزيراً للدفاع في حكومة النابلسي، فأصر هذا على إدخال عناصر متطرفة في وزارته. وتبع ذلك في يوم ١٢ منه مظاهرات صاخبة هادرة بقيادة عناصر بعثية - ناصرية - يسارية - قومية - اشتراكية.

في اليوم التالي استدعى الحسين السياسي العتيق (محمد سعيد المفتي) وهو صديق لجده ومن أصل چركسي، وكلّفه بتأليف الوزارة. فلم يعد للمؤتمرين من مخرج دون الإفصاح عن هوياتهم والعمل السريع، وتكفل (أبو نوار) بالمهمة إذ أرسل، وهو في مقر قيادته خارج العاصمة، يطلب حضور المكلف بتأليف الوزارة فامتثل الرجل. وهناك طلب منه أن يحمل إلى الملك الرسالة الشفوية التالية:

> «إن لم تسند مهمة تأليف الوزارة إلى (عبدالرحيم النمر) خلال فترة لا تتعدى الساعة التاسعة من مساء اليوم، فإنه لن يكون قادراً على الحيلولة بين الجيش وبين اتخاذ إجراء خطير»[١٤].

---

(١٤) ريچارد سانگر: حيث يجري الأردن. واشنطن ١٩٦٣- الص ٣٨٠-٣٨١، Richard Sanger: Where The Jordan Flow [إلا أن رواية الملك (المرجع السالف ص ١٦٨) لإنذار (أبو نوار) الذي حمله للمفتي لا يرد فيها اسم النمر ولا التهديد بالتدخل العسكري. وهي هكذا «إن لم =

وأكد أبو نوار إنذاره هذا لرئيس الديوان الملكي مضيفاً إليه عبارة «وعليك أن تعتبر هذا القول إنذاراً نهائياً».

فعاد الملك يطلب (النمر) ويكلفه ثانية، وهو خال النابلسي، ولكن محاولة الانقلاب بدت عملاً أثناء المقابلة. كانت العناصر الثورية واثقة جداً بأن الملك سيرضخ لشروط (النمر)، حتى أنه وفي الساعة التاسعة مساءً بالضبط وهو موعد تلاوة نشرة الأخبار من راديو دمشق، أعلن المذيع نبأ تشكيل الوزارة برئاسة النمر وذكر أسماء الوزراء كل إلى جانب الوزارة التي أسندت إليه(١٥).

في تلك الساعة، لم يكن هناك حتى تكليف رسمي. لذلك بدت إذاعة أسماء الوزراء من راديو دمشق بمثابة أمر للملك بتعيين هؤلاء.

لم يكن الملك وحيداً في هذا الجو المكهرب الخانق - فقد ساندته الجهات السياسية المحافظة والمعتدلة ولم تكن تفتقر إلى الجرأة، وصمدت إلى جانبه في عباب هذه البلبلة والتوتر العظيم. ولم تلق صدىً في النفوس تلك الحكايات والقصص العجيبة التي كان ينشرها راديوا القاهرة ودمشق وصحافتهما لتروجها العناصر البعثية والناصرية والاشتراكيون القوميون والفلسطينيون، عن مؤامرات إمبريالية تحاك في الخفاء ضد استقلال الأردن. ووزعت الأحزاب أسلحة على أعضائها وأعد الطلاب والفلسطينيون العدة للمسيرات والتظاهر، إلا أن الإخوان المسلمين وقفوا هذه المرة إلى جانب الملك، فقد تغلبت نقمتهم من عبدالناصر على كراهيتهم الملك. ورجح خوفهم من سيطرة اليسار على كل نفرة لهم من النظام الملكي. أسرع زعماؤهم لمساندة الحسين وأعلموه بتفاصيل المؤامرة التي يضطلع بها أربعة عشر ضابطاً بقيادة (أبو نوار)، وكان الملك قد اتصل سراً بالوحدات البدوية الموالية له بضباطها وجنودها الأشداء

= تشكل حكومة رضي عنها الشعب وكل الأحزاب خلال مدة لا تتجاوز التاسعة من هذه الليلة فلن نكون أنا وزملائي مسؤولين عن أي شيء يقع».

(١٥) يقول سانگر (المرجع السالف ص ٣٨٢) إن النمر كان أكثر من قبل تصلباً فأنهى الملك المقابلة. أما الحسين (المرجع السالف ص ١٦٩) فيذكر أن النمر كان أقل تصلباً وقد أقر هو نفسه بأن «أصدقاءه» هم المتعصبون. ثم إفترقنا على موعد لقاء ومحادثات تالية. لكن مجلة ميدل إيست جورنال: السنة التاسعة، العدد ٣، Middle East Journal تنوه بتأليف النمر حكومة، وتقدم قائمة بأسماء وزرائه. ثم تقول إن الملك عمد إلى إقالتها في يوم ١٤ نيسان بعد فشل الانقلاب ولم يتسنَّ لها مباشرة أعمالها.

وأنبأهم بالمحاولة الانقلابية. وكان أبو نوار يخشى تلك الوحدات، لكنه توهم بأن إسناد قيادتهم إلى عمه المقدم (معن أبو نوار) كفيل بتحييدهم.

تألفت خطة الانقلابيين من صفحتين: أولاً؛ إرسال كتيبة السيارات المدرعة الأولى بقيادة (نذير رشيد) صديق (أبو نوار) وشريكه من معسكر الزرقا (يبعد بمسافة ٢٨ كم شمال عمّان) لمحاصرة العاصمة واحتلال القصر الملكي وإلقاء القبض على الملك إن دعت الحاجة. والصفحة الثانية إزاحة الأفواج البدوية وإخراجها من الصورة بإرسالها في تمرين مسيرة إلى (الأزرق) في الصحراء، كما هُيّء علم خاص للأردن بدل العلم المقرر ليرفع عند إعلان الجمهورية[١٦].

لم يكن مجموع اللواء البدوي[١٧] بتلك السذاجة ليغفل عن معنى الأوامر الشاذة الغريبة بخصوص إجراء تمرين ليليّ بمسيرة إلى الأزرق دون أسلحة أو عتاد وفي شهر رمضان والكل صائم طوال يومه. هذه محاولة انقلابية لا شك فيها، وستتم الليلة وهم بعيدون. وعرف الملك عن طريق المقدم (عاكف الفايز) إبن شيخ قبيلة بني صقر المبرّز، بحركة الكتيبة المدرعة الأولى نحو عمّان. وفي الوقت الذي استدعي (أبو نوار) للاستيضاح منه حول ما يجري، كان القتال قد نشب في معسكر الزرقا بعد أن رفض اللواء البدوي التجمع في ساحة العرض والتهيّؤ للتمرين، بل اقتحم أفراده وضباطه مستودعات الذخيرة الحية وزوّدوا أنفسهم بالعتاد، وفقدت القيادة السيطرة عليه. وانطلق قسم منهم إلى عمّان إثر سماعهم شائعة اغتيال الملك. فحرّك المتآمرون وحدات المدفعية بمواجهتهم، وصوّبوا مدافعهم نحو الوحدات الموالية، ولم يكتموا عنهم نيّتهم في تحقيق انقلاب وبأنهم أعلنوا عصياناً على الملك. ونشب قتال كانت حصيلته ثلاثون قتيلاً وجريحاً من الضباط والجنود[١٨].

وفي القصر، لم يمكث أبو نوار طويلاً، وأخذه الملك إلى المعسكر. وكان الوقت

---

(١٦) عثر في درج (أبو نوار) على نموذجين منه عند اقتحام مكتبه، والقماش هو من صنع مصر. كان واثقاً من نجاح انقلابه بحيث أنه لم يحاول إتلافهما.

(١٧) هو عين اللواء الذي استخدم قبل ١٦ عاماً لسحق حركة مايس العراقية.

(١٨) إختلفت المصادر في عدد القتلى. فسانكر (المرجع السالف ص ٣٨٤) يثبت ما جاء في المتن. وكلوب (المرجع السالف ص ٤٣٦) يثبت قتيلين و٢٥ جريحاً. أما مجلة ميدل إيست جورنال (المرجع السالف) فتذكر مقتل ثلاثة ضباط من جماعة (أبو نوار) وعشرة جرحى ومثلهم من الأسرى.

التاسعة ليلاً. وعندما بلغا جسر الرصيفة الممتد فوق مجرى (جبوك) التقى الملك بالوحدة العسكرية الموالية القاصدة العاصمة، وما إن تبيّن أفرادها الملك حتى انطلقت من حناجرهم هتافات بحياته. ولما شاهدوا (أبو نوار) معه صاحوا «فليسقط الخائن» فأسرع أبو نوار يتشبث بـ(جاكيتة) الملك جرياً على العادة البدوية عند طلب الدخالة. وراح يتشفّع ويطلب الحماية بعد أن توجّهوا إليه بنية قتله.

طلب (أبو نوار) أن يُبعث به إلى عمّان. فأرسله الملك إلى القصر، وواصل رحلته إلى المعسكر حيث كان يسمع هزيم المدافع ودويّ الرصاص من بعيد. وما إن بلغ ميدان المعركة حتى توقفت النار، فاعتلى مدرعة وراح يخطب في الجنود ليقاطَع بالهتاف بحياته مع زغردة وتصفيق وحماسة. وأمر قبل رجوعه باعتقال الضباط الأربعة عشر رؤوس الانقلاب.

في القصر الملكي، كرر (أبو نوار) طلب الدخالة والرحمة وحفظ حياته. والظاهر أن الحسين لم يكن يريد أن يجعل من رأس الانقلاب بطلاً أو شهيداً قومياً، كعادة القوميين في معاملة ذكرى الضحايا من زعمائهم الفاشلين، وشملته رحمة الملك الشاب فلم يمسه بسوء، بل أمره بمغادرة البلاد فوراً، فشخص إلى دمشق ومنها إلى القاهرة، وواصل تآمره على استقلال الأردن وعلى الذي رأف به. وليس هذا بمستغرب، فقد فطن إلى هذا الواقع قبل تسعة عشر قرناً مؤرخ روماني شهير إذ أتى إلى وصف حدث خيانيّ شبيه بحدث (أبو نوار) فقال معلقاً:

«أرى البشر أكثر ميلاً إلى تسديد دين الإهانة أو الضرر، من تسديد ثمن العطف والفضل. والحقيقة هي أن الاعتراف بالفضل وبالمنّة مسألة يتضايق منها الإنسان، في حين أن الانتقام هو ربح بيّن مضمون»[١٩].

---

(١٩) المؤرخ الذي أقبسنا منه هو تاكيتوس Cornelius Tacitus (في حدود ١٢٠-٥٢م) صاحب كتاب «التواريخ». نقول: عيّن الملك بمنصب (أبو نوار) اللواء علي الحياري، وكان ضالعاً هو الآخر في المؤامرة إذ ما لبث أن غادر البلاد ملتحقاً برفاقه المتآمرين الآخرين والساسة الهاربين. وقد منح الكل حق اللجوء السياسي في دمشق والقاهرة. وعزا الحياري سبب هروبه إلى عدم رغبته في القيام بعملية تطهير في صفوف ضباط الجيش. وأخرجه السرّاج في تمثيلية من راديو دمشق زعم فيها أنه لم تكن هناك أية مؤامرة انقلابية وأن الملك اختلق كل هذا بغرض فرض إرادته في تأليف الحكومة التي يريدها. (ميدل إيست جورنال: المرجع نفسه]. وكذلك زعم (أبو نوار) نفسه في مذكراته (المرجع السالف). =

في الأيام التي تلت المحاولة الفاشلة والإجراءات الحاسمة انطلق الحسين في جولة شملت المعسكرات والمقرات ليسمع يمين الولاء يؤديه له الضباط والجنود علناً وليستمعوا هم إلى خطبته الحماسية بصوته الجهوري مستحضراً فيها روح جده الأكبر وسميّه (الحسين بن علي) مفجر الثورة العربية الكبرى، تلك الثورة التي كان فيها «البعث» الحقيقي لا الزائف «للعزة والكرامة» العربيتين الأصيلتين. كان يشدد في تلك الخطب على هذين المصطلحين بنوع خاص. ولا يحتاج القارئ إلى تفسير هذا منا. كما كان يهتبل كل فرصة ليشرح طبيعة المؤامرة وأهدافها ليكون «الشعب العربي الأردني على بصيرة من الأمر» على حدّ قوله.

تعلم الملك من الحدث بسرعة. تعلم من عبدالناصر وغيره فائدة الخطب الطنانة الرنانة الحماسية التي تخاطب العاطفة قبل العقل. وأفاد دروس اللغة العربية التي كان جده يصر عليها، فحفظ كثيراً من الكلمات والأوصاف الفخمة ليستخدمها بمناسبة أو غير مناسبة. في تلك الخطب المسهبة التي يمكن اختصارها بثلاث عبارات أو نحوها، وإن امتدت ساعة، وإن كان يتفوق على خصمه بامتلاكه ناصية اللغة إلى حد ما وعدم لجوئه إلى العامية. إلا أن الأول بقي يتفوق عليه بجماهيره الغفيرة المعبأة بدقة وعناية وبإعلامه السليط اللسان إلى حد البذاءة والإسفاف الأدبي. وهو ما كانت تتوق الجماهير العروبية إلى سماعه سيما إذا كانت مصحوبة بنكات (أي قفشات) مصرية أصيلة.

وانقلب فجأة وصف «الملك التقدمي» و«الملك العربي الأصيل» و«الملك

= من المفيد هنا أن ننوّه بمحاولة انقلابية عسكرية سبقت المحاولة الكبيرة بخمسة أيام مستخدماً فيها (أبو نوار) عين الكتيبة التي استخدمها في ١٣ نيسان، فقد أصدر أمراً لها بالزحف على عمّان واحتلال كل مفارق الطرق والنقاط الحساسة حول العاصمة والإحاطة بالقصر الملكي وقصر والدة الملك (زين). عندما استفسر الملك من رئيس الحكومة ووزير الدفاع عن الغرض من هذه الحركة، ادعيا بالجهل. فبعث الملك يستقدم (أبو نوار) الذي أسرع يشرح له الأمر بأن الحركة هي مجرد تمرين عسكري، فأمره الملك بسحب الكتيبة فوراً فأطاع (أبو نوار) وانسحبت الكتيبة. إن أولئك الذين رأوا في هذه محاولة انقلابية (أو مجرد تمرين مسبق للمحاولة الثانية) زعموا أن آمر الكتيبة كان يحمل كتاب تنازل الملك في جيبه وأنه زُوّد بتعليمات تقضي بحمل الملك على التوقيع وإن أدى ذلك إلى استخدام القوة. وقالوا إن فشل المحاولة يعزى إلى جبن وتردد (أبو نوار) وخوفه من قيام باقي القطعات ضد حركته. إذ لم يكن لضباطها علم سابق بها. لكن آخرين فسّروا العملية بأنها لم تكن غير تمرين وتجربة للمؤامرة الحقيقية التي رسم لوقوعها تاريخ أمده خمسة أيام.

الحريص على استقلال بلاده» في إذاعة صوت العرب إلى أوصاف محقِّرة معاكسة وأظهرها وليس أقلها شأناً الإشارة إليه فحسب بكلمتي «الحسين ابن زين». ثم وبعد أن تم التقارب بينه وبين الملك السعودي والعراق، أضافت إذاعة صوت العرب وراديو دمشق لقب «عضو نقابة الملوك» إلى الألقاب الجديدة المخترعة للمناسبة، ومسح اسمه من سجل العروبة بعين السهولة التي أدخل فيها.

من الإجراءات التي اتخذها الحسين بعد فشل المحاولة قيامه بتحشدات عسكرية في (المفرق) بمواجهة القوات السورية. كما خف الملك (سعود آل عبدالعزيز) لنجدته بوضعه اللواء السعودي المرابط في الكويت تحت قيادته المباشرة.

في ٢٦ آيار، انسحبت القوات السورية المواجهة من مواقعها إلى الخلف، وكانت قد أرسلت لمعاونة المتآمرين[٢٠].

لم يكن القضاء على آثار المحاولة الانقلابية سهلاً. فالقوى الشعبية التي كانت تقف وراء العمل العسكري لم تصب بوهن، والملك والموالون للعرش يدركون خطرها. وقد بدا ذلك بمظاهر شتى، منها ضم (النابلسي) إلى الوزارة الجديدة التي ألّفها (توفيق الخالدي) بإسناد منصب وزارة الخارجية اليه.

وأمسك بزعماء المعارضة المتطرفين خوف شديد من التحقيق القضائي الذي شرع فيه حول المؤامرة قد يكون من نتائجه تصفية أنصارهم في الجيش. فبادرت الفئات المناوئة إلى عقد اجتماع سمّوه «المؤتمر الوطني»، عقدوه في نابلس وحضره مندوبون عن الأحزاب المعارضة كافة. وفي ٢٢ من نيسان قدموا للملك والحكومة مطالب المؤتمر التي توصل إليها[٢١] بعد المداولة وطلبوا من الملك أن يحققها. فألقاها في

---

(٢٠) قدرت بخمسة آلاف ضابط وجندي وكانت طول وجودها على اتصال بالقوى المناوئة وقد شاركت عملاً في كل الفعاليات السياسية.

(٢١) رفض الملك هذه المطالب جملة وتفصيلاً. ولا عجب فالمرء يحار حقاً، ومعه كاتب هذه السطور، في أي صفة جديرة بها. أيُغلّب الصفاقة على الحماقة لنعتها، وللقارئ أن يختار الوصف اللائق بعد عرض تلك المطالب التي تضمنت: طرد السفير الأمريكي (لِسز مالوري) وملحقه العسكري، ورفض مبدأ آيزنهاور وكل المشاريع الإمپريالية الأخرى، وإقامة اتحاد فدرالي مع سورية، وإعادة الضباط المحالين إلى التقاعد، وإطلاق سراح المعتقلين بتهمة محاولة الانقلاب والسماح بعودة المبعدين منهم بسبب ما نعتته بـ(الأزمة) وتطهير الجهاز الحكومي من عملاء الإمپريالية.

وضعت هذه المطالب فوق مكتب رئيس الحكومة الجديد فحملها إلى الملك.

سلة المهملات كما كان متوقعاً، في حين دعا المؤتمر إلى إضراب عام ومظاهرات دعماً للمطالب وترويعاً للملك.

عند بدء الإضراب، وضع الملك قواته في أقصى حالات الإنذار ووزع قوات البدو في نقاط حساسة من العاصمة، في حين تجمع المتظاهرون أمام بناية رئاسة الحكومة وتوالى الخطباء يدافعون عن تلك المطالب ووجوب تحقيقها ويرفعون شعارات مثيرة ومناوئة للنظام. ومما قرئ من تلك الشعارات:

«إرفعوا أيديكم المجرمة عن الضباط القوميين»

«أعيدوا الضباط المبعدين والمحالين للتقاعد إلى الجيش»

في اليوم التالي، الخامس والعشرين من نيسان، قدّم (الخالدي) استقالته. وعلى أثر ذلك صدر من البيت الأبيض التصريح الإنذاري التالي:

«إن استقلال الأردن ووحدة أراضيه هما من صميم مصالح الولايات المتحدة الحيوية».

ثم صدرت الأوامر بتحرك الأسطول السادس الأمريكي شرق البحر المتوسط. وكان على الملك أن يعمل بسرعة خشية أن تنقلب المظاهرات إلى اشتباكات مسلحة إذ كان المتظاهرون يملكون من الأسلحة ما يكفي، فجمع شيوخ العشائر العرب الذين أعلنوا تضامنهم واستعدادهم غير المحدود لأي معونة. واستدعي السياسي المخضرم (إبراهيم هاشم) لتأليف الوزارة الجديدة. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً أعلنت الحكومة أمر منع التجول، وراحت دوريات دبابات القوات البدوية تجوب شوارع العاصمة. وفي صبيحة يوم ٢٥ أعلنت حالة الطوارئ والأحكام العسكرية، وأصدرت الحكومة قراراً بحلّ الأحزاب ووضعت الشرطة وقوات الأمن تحت إمرة الجيش. وعيّن (سليمان طوقان) وزير الدفاع حاكماً عسكرياً. وشرعت السلطة بحملة اعتقالات واسعة شملت زعماء الناصرية، وقادة البعث والحزب الشيوعي والقوميين الاشتراكيين. ووجد المتظاهرون الذين تجاهلوا قرار منع التجول أنفسهم بمواجهة حراب القوات العسكرية المركبة على بندقياتها، فأجبروا على التراجع والتفرق. وذكروا أن الجنود البدو طَلوا أوجههم بالسخام كي لا يمكن التعرف عليهم إن أضطروا إلى فتح النار على المتظاهرين.

تم قمع الحركة وانتصر الملك.

كانت دليلاً آخر على أن الجيش سيبقى العامل الحاسم في نجاح الانقلابات

العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية، بصرف النظر عن الرداء الذي يسبغه الانقلاب العسكري على نفسه. وفي معركة القومية العربية الحديثة، أي العروبة التي تهدف إلى الوحدة الشاملة، يتوقف النجاح على رجوح كفة الميزان التي يتجمع فيها الضباط القوميون على كفة الميزان التي يقف فوقها معارضوهم.

وفي هذه الانقلابات التي يتّحد فيها طموح الضباط السياسيين الشخصي إلى السلطة مع التآمر الخارجي على مصير البلاد كان من الضروري للانقلابيين دوماً أن يتخذوا لهذا الاتحاد الكريه غطاءً وحجة من استبداد النظام القائم وفساده وبعده عن الشعب وفقدان الحريات الديمقراطية وتردي الأوضاع الاقتصادية. وتلك هي الشكوى الحقيقية والواقع الأليم الذي يضيع ويداس تحت أقدام المتظاهرين وسرفات الدبابات التي تحث السير للقضاء على قلاع الاستبداد والاستغلال الفردي.

فبأي ميزان يحكم المؤرخ على هذه الانقلابات؟

كل انقلاب نجح في وضع الضباط السياسيين محل النظام القديم برهن في الزمن القصير أو الطويل الذي أتيح له بأنه أشد وطأة على الحريات الديمقراطية وأقل احتفاءً بها بمقدار كبير، وبشكوى الجمهور وبتحقيق مطالبه في الأمن والحرية والرخاء من النظام الذي أزاحوه. كم كان الحق بجانب الإعلام المصري-السوري عندما وصف فشل انقلاب أبي نوار بانتصار الرجعية على حركة تقدمية؟

* * *

في الثامن والعشرين من نيسان، كان الحسين يجتمع في الرياض بالملك سعود ليرسما خط التعامل السياسي، وليعيدا النظر في علاقاتهما بالنظامين التقدميين السوري والمصري. وعاد وهو يحمل من الملك السعودي الحصة المصرية والسورية من المنحة التي قررتاها ولم تدفعاها للجيش الأردني. وفي الثاني من حزيران ١٩٥٧، قام بزيارة رسمية للعراق على رأس وفد كبير ضم رئيس الوزراء ووزير الخارجية (سمير الرفاعي) و(أنستاس حنانيا) وزير المالية وصدر بيان من ستة بنود بعد يومين فقط. جاء فيه تأكيد على استقلال دولتيهما وصيانتهما وصيانة استقلال سائر البلاد العربية، والعزم على مقاومة الحركات الهدّامة، ودرء كل خطر يهدد كيانها، وشجب «تدخل أية دولة عربية في شؤون أية دولة عربية أخرى».

بهذا تم شطب الحلف السوري - المصري - السعودي، ليحل محلّه حلف سعودي - عراقي - أردني. ولم يمضِ على الأول منهما أكثر من سنة واحدة وبضعة

أشهر. نعته الحسين بـ«ميثاق ميت لا يساوي الورقة التي كتب عليها». وكان قد وصفه وقت توقيعه بـ«ذلك الاتفاق الذي سيفتح آفاقاً واسعة لتقدم الأمة العربية وإعلاء شأنها».

في السابع من أيار أبى الملك المصادقة على ذلك القرار الذي اتخذته وزارة النابلسي بإنشاء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي. وضربت قوات الأمن والشرطة نطاقاً محكماً حول السفارتين المصرية والسورية في عمّان، وقيّدت حركات دبلوماسييهما، وأُخضع مرتادوهما الأردنيون إلى تحقيق عنيف. فتم عزلهما عزلاً تاماً بعد أن كانتا قبل أيام أشبه بخليتي نحل لا تنقطع الأقدام عنهما ليلاً أو نهاراً.

في نهاية تموز، تعرض الملك إلى أشنع حملة إعلامية، عند بدء محاكمات الضالعين في المؤامرة، من راديو سورية ومصر وصحفهما. بقي زهاء أسبوعين هدفاً لشتائم وسباب مخجل تعافه لغة الشوارع تناول الأعراض والشرف العائلي، ومن بين التهم وليست أقلها شأناً تلك التهمة الخالدة التي تعوّد زعماء العروبة وحكامها أن يقذفوا واحدهم بها بوجه الآخر: تهمة التعاون مع إسرائيل والقيام بمفاوضات سرية تهدف إلى تصفية القضية الفلسطينية. ودعت وسائل الإعلام أبطال العروبة إلى إلحاق الملك بجده عبدالله، وإسقاط نظامه الذي وضعه في خدمة المصالح الأجنبية، والجهاد في سبيل إعادة الأردن إلى الصف العربي.

ولم يسكت راديو عمّان وصحفها عن أولئك «الذين باعوا أنفسهم للشيوعية، وراحوا يستغلون القومية العربية لتحويل الرأي العام المصري والسوري عن واقعهما المتردّي في بلادهما، ولقبت عبدالناصر بـ«دون كيخوتي» الذي يطاعن الطواحين والهواء بسيف من الخشب فلا يفعل أكثر من إلحاق الأذى بنفسه». وراحت صحف عمّان تنشر أنباء الفضائح الماليّة والرشاوى والعمولات التي كان أعضاء حكومة النابلسي يتلقونها من النظامين المصري والسوري، ومن صفقات تجارية مشبوهة كانوا يروّجون لها ويسندونها بنفوذهم ليتقاضوا عمولات عنها[٢٢].

وانقلبت إذاعة صوت العرب على الملك الذي سمّته قبل أسابيع معدودات بالملك

---

(٢٢) نشرت صحف سورية (منها صوت العرب الدمشقية) وصحف الأردن في عين الوقت (١٨ آيار) فضيحة تتعلق بصفقة سكّر مربحة جداً فاز بها تاجر بعثي بمسعى من عبدالله الريماوي الذي تلقى منه ثمن أتعابه مبلغ ٢١ ألف دينار أردني (تعادل ٦٠ ألف دولار). (كان الريماوي وقتذاك قد انشق على القيادة القومية التي يمثلها محور عفلق- البيطار- الحوراني، وهو السر في اجتماع الإعلامين الخصمين عليه).

الوطني التقدمي الذي أبى أن يحني رأسه للإمبريالية، وبذلك القومي الذي تعقد عليه القومية العربية آمالاً عراضاً في السير بها نحو الوحدة. فإذا به اليوم «الحسين ابن زين» تعريضاً بوالدته، وتأكيداً للإشاعة التي أخرجتها مطابخ القاهرة حول فضيلتها وعلاقاتها الزوجية بقرينها «طلال» والد الحسين المحجور عليه في أحد المصحات بسبب مرضه العقلي[٢٣].

في ٢٧ من تموز بدأت المحكمة العسكرية بمحاكمة القائمين بمحاولة الانقلاب، وأصدرت بعد شهر واحد أحكامها على المدانين، فحكمت على أبو نوار والحيارة واثنين آخرَين بالسجن مدة ١٥ عاماً، وعلى اثني عشر بالسجن عشر سنوات[٢٤].

كانت مؤامرة نيسان الفاشلة ضربة أليمة لعبدالناصر، ها هم حلفاؤه ومناصروه كلهم إما في السجن أو في المنفى. والسعودية تخلّت عنه، بل راحت تناصبه العدوان وتعده خطراً على كيانها إلى الحد الذي حاول حكامها شراء السرّاج لاغتياله. وزادت مخاوفه عندما ألقت الولايات المتحدة بثقلها على الأردن لتغرقه بالمساعدات المالية والعسكرية، وزادت مخاوفه في أن يغدو معزولاً[٢٥]، فضاعف من نشاطه في لبنان ليكون فيه التعويض عن ضياع الأردن. إلا أن تآمره على الحسين ونظامه استمر دون إنقطاع. وكانت صحف عمّان تطالع قرّاءها خلال الأشهر الطويلة من صيف ذلك العام بأنباء إحباط هذه المؤامرة وتلك. وفي هذا يذكر الملك:

«بلغ من إحكام وتنوع المؤامرات التي نسجت لشخصي، بحيث صرت أشعر أحياناً وكأني الشخصية المركزية التي تدور حولها رواية پوليسية ولم تعد تلك المؤامرات تقلقني لأني كنت أكتشفها في الوقت المناسب»[٢٦].

---

(٢٣) من المعلوم أن نسبة الابن لأمه دون أبيه هي نسبة غير مشرفة في قاموس العرف والتقاليد العربية، وتعني مما تعني الاشتباه في صحة نسب الابن إلى والده.

(٢٤) لم يقضِ المحكومون إلا مدداً قصيرة في السجن فقد أصدر الملك بعد بضعة أشهر عفواً عنهم وأطلق سراحهم.

(٢٥) نقل (روبرت مورفي) مبعوث آيزنهاور للشرق الأوسط أثناء الأزمة اللبنانية قول عبدالناصر له بأنه «لم يكن يعتقد بأن تقوم للأردن قائمة كدولة مستقلة ولم يكن يعتقد مطلقاً بأن الملك حسين قادر فعلاً على الاعتماد على ولاء جنوده» (المرجع السالف: دبلوماسي بين محاربين. نيويورك ١٩٤٦- ص ٤١١)

(٢٦) المرجع السالف- ص ٢١٢. لم يكن الملك هنا يعدو الحقيقة وإن كان كعادته يبالغ ويضخّم في الأمور. إلا أن الفضل في الكشف عن تلك المؤامرات كان يعود بالدرجة الأولى إلى =

ولم تخلّف الصولات الإعلامية القاهرية على شرف الحسين وعلى نظامه أثراً في نفوس الأردنيين؛ مما يفضُل القرف والاستنكار بسبب اللغة السوقية والأكاذيب غير الناضجة. وثاب بعض المفتونين بعبدالناصر إلى رشدهم. وانقلب تشيّعهم له إلى تنصّل وجفوة بسبب المناورات المخادعة والتزوير المتعمد في الوقائع. ومن حياتهم اليومية أدركوا أن الأخبار التي تذيعها (صوت العرب) عن اشتباكات دموية واضطرابات عنيفة في الأردن لا ظل لها من الحقيقة.

إلا أن عاهل الأردن وجد نفسه على مفترق طريق بعد إعلان الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م) في ١٩٥٨؛ لم يتردد كما كان شأنه قبلاً فاستدار نحو الشرق ليقبل عرض نوري السعيد في وحدة كونفدرالية مع العراق باسم «الاتحاد العربي الهاشمي»[٢٧]. لم يحاول مهندسوه مثلما غطى الآخرون زيفه، وواقع فرضه

= استخباراته وحاشيته المقربين وإلى حرسه الملكي المؤلف من الچركس والكورد. ومن تلك المؤامرات مؤامرة التاسع من حزيران التي أدت إلى طرد الملحق العسكري في السفارة المصرية، العقيد أحمد فؤاد هلال، الذي دفع مبلغاً لرجل من العامة للفتك بالملك، فضلاً عن دسيسة أخرى اتهم بها محمد عبدالعزيز، قنصل مصر العام في القدس الشرقية، الذي قام بتهريب كميات كبيرة من الأسلحة عبر (غزة) وسلّح بها عصابات فلسطينية للانقضاض على الملك وقتله أثناء تأديته فريضة صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، فسيق تسعة عشر شخصاً إلى المحاكمة بتهمة الإعداد لها. وطلبت الحكومة الأردنية سحب القنصل. كما جرت محاكمة سبعة عشر آخرين، إثر ضبط رسالة موجهة من الممثل المصري في القيادة العربية المشتركة بعمّان إلى العقيد (يسري قنصوه) في قيادة الجيش المصري العامة بالقاهرة حول خطط معينة يجري إعدادها للقضاء على النظام الملكي. واعترف هؤلاء جميعاً بأنهم أرسلوا من سورية لتنظيم عملية تهريب السلاح ونسف الجسور والطرق ثم الهجوم على القصر الملكي وقتل الملك وأسرته.

(٢٧) تم خلاله دمج وزارتي الدفاع والخارجية لكلا البلدين كل في وزارة واحدة في حكومة اتحادية كان يرئسها نوري السعيد. في حين قضى دستور الاتحاد الذي تم اشتراعه أن تكون رئاسة الدولة الكونفدرالية متناوبة بين الملكين وأعطيت الفترة الأولى لفيصل الثاني. وجدير بالانتباه هنا، رد الفعل الناصري الذي يتجلى في برقية التهنئة المرسلة إلى رئيس الاتحاد الجديد وفي تقديم «نوري السعيد» هذا الاتحاد للرأي العام باعتباره الصدى البعيد للثورة العربية الكبرى في الحجاز: «في هذا اليوم لا يسعني إلا أن أتوجه بتحية عاطرة لذكرى المنقذ الأعظم والبطل الشهيد جلالة المغفور له الملك حسين الذي رسم لنا طريق الوحدة وألهمنا الكفاح للوحدة وإذا ما مجّدنا صرخة المنقذ الأعظم فإننا نذكر كذلك أنجاله الغر الميامين الذين حملوا السلاح تحت رايته وواصلوا السير في الطريق التي رسمها لهم لتحقيق الحرية والاستقلال والوحدة الشاملة =

بإرادة ملء قبضة يد من الحكام على عشرات الملايين بإجراء استفتاء عام لاحق.

لم يرَ السعيد وصحبه ضرورة لمثل هذه العملية في العراق والأردن. وكانوا أصدق مع أنفسهم باجتناب تزويرها عن طريق طرحها على الرأي العام للحصول على ٩٩٪ من الأصوات قبلاً.

وهبني قلت هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء؟

كان الجميع يعلم أن غرض هذا الاتحاد إنقاذ الأردن من العروبة الناصرية وقيام جبهة عروبية موالية للغرب إزاء جبهة عروبية موالية للشرق. وهذا جزء من «الحرب الباردة» المستعرة بين المعسكرين. وقد بلغت ذروتها آنذاك.

* * *

في نيسان ١٩٥٨ كان الأسطول السادس الأمريكي قد دنا كثيراً من ساحل البحر المتوسط الشرقي تلبية لنداء الأردن العاجل كما أسلفت. وفي منتصف شهر حزيران طلب الرئيس اللبناني رسمياً من البيت الأبيض تدخل الجيش الأمريكي -لكن الولايات المتحدة تلكأت ولم تتحرك إلا في الرابع عشر من تموز.

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم أنزلت السفن الحربية مشاة البحرية برَّ لبنان، أي بعد بضع ساعات من نجاح انقلاب الجيش العراقي على النظام وتصفية الطبقة الحاكمة في هذا القطر.

وكما قيل إن ثورة الرابع عشر من تموز حسمت تردد الولايات المتحدة فقد دار هذا السؤال على ألسن الساسة والمعلقين والمؤرخين:

ماذا لو أن الولايات المتحدة قررت إنزال قواتها قبل هذا التاريخ بيوم واحد؟

أما كان هذا اليوم سيمر في حياة العراق كغيره من أيام الصيف القائضة؟

= للأمة العربية في مختلف أقطارها وأمصارها».

ونجد عين الزيف والمخادعة في برقية التهنئة الناصرية، وهي طويلة: «إن الاتحاد العربي الذي وحّد اليوم بين العراق وبين الأردن، هو خطوة مباركة تتطلع إليها الأمة العربية كلها بأمل كبير باعتبارها اتجاهاً يستمد قوته من أعماق الضمير العربي. إن الأيام التي تعيشها الأمة العربية الآن أياماً (كذا) خالدة مجيدة. إن القومية العربية ستفخر وستعتز بالخطوة التي اتخذتموها في عمّان اليوم واثقة أنها تقرب منا يوم الوحدة العظمى. إني أبعث لجلالتكم تهانيّ متمنياً من صميم قلبي أن يوفقكم الله» [أنظر النص الكامل لبيان السعيد والبرقية في (الحسني: المرجع السالف ج ١٠- الص ١٧٨ وما بعدها].

في يوم ١٢ تموز اتصل نوري السعيد بالسفير الأمريكي (والدمار گالمان)[٢٨] في بغداد، وسأله: أما ستفعل حكومته شيئاً لإنقاذ الموقف في لبنان؟

كان السفير على علم بالوقت، فلم يجد عنده غير جواب غامض غير مشجّع. وإذ ذاك اتخذ هذا العجوز العنيد قراراً كان سيكلّفه حياته وحياة النظام الذي تعب في إقامة صرحه. قرر سوق اللواءين التاسع عشر والعشرين لتعزيز القوات العراقية المرابطة على الحدود الأردنية، فخرج بهما المؤتمرون إلى بغداد بدل ذلك وحققا الانقلاب.

وغدا الاتحاد العربي الهاشمي أثراً بعد عين. وعاد الحسين وحيداً؛ هدفاً لتآمر عبدالناصر.

في الواقع إن محاولات عبدالناصر القضاء على الملك الأردني لم تفتر أو تتوقف بقيام ذلك الاتحاد. فقبل الرابع عشر من تموز باثني عشر يوماً فشلت محاولة جادة لاغتياله شارك فيها عدد من ضباط الجيش الأردني، واستخدموا فيها ملازماً يدعى (أحمد يوسف الحيارة) من مرتبات اللواء المدرع الرابع. كان من المقرر أن يقدم هذا الضابط على قذف المنصة التي يقف عليها الملك بعدد من القنابر اليدوية أثناء احتفال عام. لكن تم إلقاء القبض على الملازم فضلاً عن سبعة من الضباط المتآمرين بينهم العقيد (راضي عبدالله) وهو صديق مقرّب للملك[٢٩].

---

(٢٨) آيزنهاور: حرب السلام Waging Peace نيويورك ١٩٦٥- ص ٢٦٢، وكذلك الفصل الخاص بلبنان. أنظر أيضاً Waldman J. Gallman «ذكرياتي عن نوري السعيد» My Recollection of Nouri Al-Said ط بالتيمور-مطبعة جون هوبكنز ١٩٦٤ ص ١٤٦ ومن المرجع عينه (ص ٢١٠) إن هذا السفير الذي بقي في العراق ردحاً من الزمن بعد الانقلاب سأل عبدالكريم قاسم في مقابلة له معه (أنظر المرجع السالف ص ٢١٠) سؤالاً بهذا المآل، فأجاب قاسم أن ثورة الرابع عشر من تموز ما كانت لتحصل في ذلك اليوم لو أن مشاة البحرية كانوا موجودين في لبنان. ويستتلي السفير المشار إليه معلقاً أن الإنزال الأمريكي في لبنان لم يكن مبعثه الخوف على نظام شمعون، بل القلق على المصالح الأمريكية في البلاد العربية، خشية أن تمتد الثورات المعادية للأمريكان إلى غير لبنان لتلفح ظهور دول النفط العربية.

(٢٩) مما ذكره الملك (المذكرات: ص ١٩٤) أن هذا الملازم أكد في اعترافاته أن انقلاباً وشيكاً سيقع في العراق في متنصف شهر تموز بتدبير من (ج.ع.م) كما سيقع انقلاب مماثل في الأردن. يقول الملك إنه نقل هذا الاعتراف لرئيس أركان الجيش العراقي الذي حلّ عمّان بعد هذا الاعتراف، إلا أنه لم يأخذ هذا القول مأخذاً جدياً. ويتابع الملك قوله إن الضباط الأردنيين قرروا بعد وقوع الانقلاب العراقي تأجيل عمليتهم إلى يوم ١٧ من تموز إلا أن السلطات الأردنية نجحت في اعتقالهم جميعاً ليلة ١٦ منه. [أنظر أيضاً أندرو توللي: سي. آي. أي. =

في صباح اليوم التالي هبط فوجان مظليّان بريطانيان الأراضي الأردنية، بحماية وغطاء خمسين طائرة أمريكية نفاثة. وقد تم اتخاذ القرار في ال(وايت هول) إثر اجتماع عاجل للحكومة تم فيه دراسة وثائق الاستخبارات حول المؤامرة الأخيرة(٣٠).

في اليوم ذاته رفع الأردن شكوى إلى مجلس الأمن اتهم فيها (ج.ع.م) صراحة بتدبير المؤامرة الانقلابية. وبادر إلى قطع العلاقات الدبلوماسية معها.

وبقيت القوات البريطانية في الأردن كما بقيت القوات الأمريكية في لبنان تحمي هذين البلدين العربيين من غوائل حكم عروبي ثوري، لم تقوَ الجامعة العربية على الحد من نشاطه الثوري وجهاده القومي.

ولم تفتر همة القاهرة ودمشق حتى آخر لحظة من لحظات حياة (ج.ع.م) في نسج الحبائل لانتزاع روح هذا الملك. وفي غضون السنوات الثلاث مثّلت دراما جانبية ممتعة على صعيد العلاقات الدبلوماسية بين القطرين في ثمانية فصول تخللت تلك المؤامرات بين قطع العلاقات وإعادتها، حتى بدا وكأن السفراء المساكين لا عمل لهم إلا تقديم أوراق اعتمادهم وانتظار صدور أمر الرحيل عن البلاد في أية لحظة.

في شهر آب ١٩٥٨ سيق إلى القضاء الأردني ٢٧ متهماً سورياً تسللوا عبر الحدود بأسلحة ومتفجرات للقيام بعملية انقلاب فحكم على ١٣ منهم بالموت وعلى الباقي بالسجن مدداً مختلفة.

وتلت هذه بعد يوم واحد محاكمة خمسة آخرين اتهموا بالقيام بأعمال إرهابية ترمي إلى زعزعة النظام.

كان بين المتهمين فتاة تدعى (نادية الصليتي) أصبحت محاكمتها موضوعاً شائقاً لإعلام (ج.ع.م). نالت أولاً لقب البطلة القومية، ثم شُبهت بالمناضلة الجزائرية (جميلة بو حيرد) ثم صارت مادة لحملة شعواء على النظام الأردني. ولكن المحاكمة استمرت وحكم على اثنين بالإعدام، كما نالت البطلة القومية الجديدة حكماً بالسجن

= Andrew Tully: CIA ص ٨٢- واشنطن ١٩٦٦ (يدعي أن دائرته هي التي كشفت المؤامرة)].
نقول ليس في وسعنا التحقق من صحة ما ذكره الحسين، فالمعروف وكل الدلائل تدعم ذلك- أن خطة انقلاب تموز كانت في غاية من السرية، وهي في الواقع فرصة من الفرص تم اقتناصها إذ لا أحد كان يدري بأن نوري السعيد سيقدم على سوق هذه القطعات إلى الأردن.

(٣٠) في ٢٢ من تموز أعلن سلوين لويد وزير الخارجية البريطاني لمجلس العموم أن إحباط المؤامرة تم بالتدخل البريطاني.

أمده سبع سنين وستة أشهر[٣١].

وهذه عملية أخرى لم يسبق تدبيرها ونسج خيوطها، بل وقعت بمحض الصدفة في حوزة (ج.ع.م): في العاشر من تشرين الثاني ١٩٥٨، غادر الحسين بلاده إلى أوروبا على متن طائرته الخاصة التي كان يقودها بنفسه. وقد أعلن عن ذلك مسبقاً. بدخوله الفضاء السوري طلب الجواز فأعطي لكن ما مرت دقائق حتى أبلغ بوجوب هبوطه في دمشق. ولم يكن بحاجة لا هو ولا العقيد دالكليش المستخدم في القوة الجوية الأردنية، المرافق له، إلى كثير من الجهد ليتبيّنا المكيدة فعادا من حيث أتيا، وحين اقتربا من مطار عسكري سوري هاجمتهما طائرتان نفاثتان من طرا(ميگ-١٧)، لكن دخولهما الفضاء الأردني كتب لهما النجاة[٣٢]. كانت هناك ضجة إعلامية وتبودلت التهم. وقال الإعلام القاهري- الدمشقي إنها حكاية اخترعها الملك للدعاية ولتشويه سمعة (ج.ع.م).

وفي آذار ١٩٥٩، اعتزم الحسين زيارة للولايات المتحد وكان قبلها قد حصل على دلائل قوية تثبت أن الفريق (صادق الشرع) رئيس أركان الجيش كان قد دبّر مع عدد من الضباط تنفيذ عملية انقلابية أثناء غيابه[٣٣]. عندما أزف موعد الرحيل، قرر الحسين فجأة أن يكون رئيس الأركان هذا من جملة المرافقين له، فأسقط في يده وحاول التذرع بشتى المعاذير. وفي أثناء غياب الملك تم إلقاء القبض على الضباط المتآمرين، ولم يظهر الحسين أثناء الزيارة أي إشارة تدل على شكه في رئيس أركانه ورفض طلب انفكاكه عن الوفد المرافق، فألقي القبض عليه عند عودته وحوكم[٣٤].

ووضعت في دمشق خطة ثالثة لقتل الملك وعمّه الشريف ناصر ورئيس حكومته صديقه (هزّاع المجالي) تم اكتشافها إثر إلقاء القبض على الرسول الموكول إليه أمر التنسيق مع المتآمرين، فأدلى باعتراف نجم عنه إلقاء القبض على عدد من المتعاونين[٣٥]. ووجه عبدالناصر إهانة مقصودة للملك.

---

(٣١) خفضه الملك فيما بعد إلى سنة واحدة.

(٣٢) المرجع السالف: الفصل ١٥، ص ٢١٩ وما بعدها.

(٣٣) كذا، ص ٢٤٣ . تم تعقيب مراحلها والتعرف على الضالعين فيها بطريق اندساس ضابط موالٍ بين صفوف المتآمرين، كان يزوّد السلطة بالمعلومات عن كل خطوة.

(٣٤) حكم على رئيس الأركان بالإعدام. وخفّض إلى الحبس المؤبد.

(٣٥) إن المؤامرة التي تلتها في ٢٩ من آب ١٩٦٠، وكان هزّاع المجالي ضحيتها خلفت آثاراً مريعة. =

كان ذلك بمناسبة تعيين (ج.ع.م) قنصل عام جديد لها في القطاع الشرقي من أورشليم القدس. فلم يوجّه كتاب التعيين إلى الملك، بل صُدّر بعنوان: «الى كل من يهمه الأمر». وحدد الكتاب صلاحية القنصل بهذه العبارة المهينة:

«كل المناطق الواقعة غرب نهر الأردن التي تحتلها القوات الأردنية».

وقطعت العلاقات الدبلوماسية، ثم جددت في آب ١٩٥٩ إثر فترة تخلّت فيها القاهرة عن استعمال اللقب الجديد الذي اخترعته إذاعة القاهرة للملك بتلقيبه بـ«عميل الإمبريالية الأنكلوأمريكية».

وفي ٢٤ من حزيران ١٩٦٠ تعمّد عبدالناصر توجيه شتيمة للحسين أدت إلى قطع العلاقات فقد راح في خطبة له بالإسكندرية يؤلّب فيها العرب على خصمه حاثاً على تصفيته وإلحاقه بجدّه:

= وقد تم تدبيرها بوضع قنبلة موقوتة في درج مكتب رئيس الوزراء، وتم تفجيرها فقضت على رئيس الوزارة ونجم عنها تدمير نصف البناية، ومقتل اثني عشر شخصاً من المراجعين. كان المتآمرون يتوقعون أن يهرع الملك إثر وصول النبأ إليه لتفقد البناية موقعياً، فوضعوا قنبلة موقوتة أخرى ليتم تفجيرها بعد ولوجه. وصح ما توقعوا فقد أسرع الملك إلى الموقع. إلا أن اللواء حابس المجالي، وهو ابن عم لرئيس الوزراء القتيل أوقفه، وحال بينه وبين الدخول. وفعلاً انفجرت القنبلة الثانية. (المرجع السالف، ص ٢٥٣.) لم يعد مجال للصبر بعد هذا اتهم الملك (ج.ع.م) علناً وبصراحة بتدبير تلك الجريمة. وفي خطبته أمام هيئة الأمم المتحدة في ٣ تشرين الأول تكلم بمرارة عن أفاعيل (ج.ع.م) «تحريضها على إسقاط حكومتنا واغتيال زعمائنا مما يذاع دوماً في راديوّها الحكومي». ويغلب على ظني أنه كان متسرعاً كشأنه دوماً في محاولته شدّ عبدالناصر إلى عجلة الشيوعية الدولية، بقوله في الخطاب [نصاً]:

I detect a significant parallel between tactics used against us and these used by communists the world over وترجمتها: «إني أستخلص مطابقة بارزة بين الأساليب التي تتبع ضدنا وبين تلك التي يستخدمها الشيوعيون في شتى أرجاء العالم». إن كان ثم عضو في الأمم المتحدة يتفق معه في هذا فيقيناً أنه ليس الولايات المتحدة. ومن المعلوم جيداً أن الاغتيال وأعمال الإرهاب الفردية لم تكن قط من الأساليب التي يتبعها الاتحاد السوفياتي في محاولة إسقاط الحكومات وإقامة أخرى يسارية موالية للمعسكر الشيوعي خلال معارك الحرب الباردة.
وفي الأردن عقدت محاكمة للمتآمرين والفاعلين أمام محكمة عسكرية في كانون الأول ١٩٦٠ وفيها ذكر المدعي العام العسكري الرائد (محمد رسول گيلاني) أن مسؤولية المؤامرات ضد وحدة البلاد خلال السنوات الثلاث المنصرمة تقع على (جمال عبدالناصر) وعملائه في القاهرة ودمشق. وبنتيجة المحاكمة نال سبعة من أصل أحد عشر متهماً حكماً بالإعدام، نُفّذ بأربعة منهم.

«هناك ما زال يوجد خونة في البلاد العربية من أولئك الذين ورثوا ممالكهم عن آبائهم وأجدادهم. . إن الواجب الأول الملقى على عاتق العرب هو التخلص من هؤلاء عملاء الإمبريالية أعداء القومية العربية والأمة العربية».

وكشفت محاولة أخرى لقتل الملك وأسرته داخل القصر. فيها من عناصر الإمتاع والإثارة الكثير مما تشاهده في المسلسلات البوليسية الفكاهية الجنائية التي تنتجها شركات الأفلام الأمريكية.

استخدم وكلاء (ج.ع.م) مساعد طاهٍ في البلاط لتنفيذ الجريمة وزوّد بكمية من السم لدسّه في طعام الملك وأسرته. إلا أن الجاني لم يكن متأكداً من الكمية الكافية كما يبدو فعمد إلى تجربة بعضه في القطط الملكية، لتحديد المقدار الكافي. ويبدو أن الجرعات التي أعطيت لم تقتلها بالسرعة المطلوبة كما أنه ارتكب غلطته التي فضحته - بترك القطط الملكية المسمومة سائبة تتجوّل برهة في أرجاء القصر لتسقط ميتة الواحدة بعد الأخرى[٣٦].

ومثلما اتخذت المؤامرات الناصرية على حياة الملك طابعها الروائي كذلك اتخذت علاقة المتآمِر مع المتآمَر عليه.

ففي العام ١٩٦١، بدا عبدالناصر يعيش فترة قلق شديد وخيبة فقد استولت عليه الهموم والإرهاصات السورية وخابت آماله في قوميي العراق وكاد يفقد الأمل فيهم. وفجأة وبدون إنذار سابق توقف الإعلام القومي من القاهرة ودمشق عن مهاجمة النظام الأردني وملكه، وانقطع دابر التآمر بعد حادث القطط. بعد مرور فترة هدوء لم ينعم بها هذا العاهل خلال السنوات الأربع المنصرمة، خيّل له أن الوقت مؤاتٍ لمد يد الأخوة العربية لغريمه ربما إطاعة لتلك الحوافز العاطفية المفاجئة التي تميزت بها أعماله. أو ربما بتشجيع من الولايات المتحدة التي كانت في تلك الفترة تحرص على علاقاتها الطيبة مع (ج.ع.م). ففي ٢٣ من شباط ١٩٦١ وهو بداية الأسبوع الثاني من صيام

(٣٦) المرجع السالف، ص ٢٥٣ وما بعدها. إعترف الجاني الذي سمم القطط بأنّ سفارة (ج.ع.م) هي التي جنّدته. كما ذكر الحسين محاولة مماثلة أخرى استخدم فيها واحد من خدم القصر لملء زجاجة الدواء الذي يستخدمه الملك لأنفه عادة بسم قاتل، وقد تم اكتشاف ذلك في الوقت المناسب. لم يكن الحسين كما يبدو من الفريق المنتقِم الذي يحفظ غلاً ولا ينسى إساءة. فقد أطلق سراح كل المحكومين في المؤامرات المتتالية، ولم يقض أي واحد منهم فترة طويلة في السجن.

رمضان، انتهز الملك الفرصة فكتب رسالة إلى عبدالناصر يناشده فيها نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة للعمل لمصلحة الأمة العربية. وتلكأ عبدالناصر في الرد ثم وجّه إليه جواباً بعد عشرين يوماً. كان رداً متحفظاً للغاية. فيه أبدى شكواه من التفرقة التي يعانيها العرب، وأن هذه التفرقة ليست من البساطة بمكان. وهي تعكس التناقض في الموقف العربي الخ

وأعيد السفراء كلّ إلى مكانه، ولم ترفع الرقابة الأمنية عنهما في كل من القاهرة وعمّان، وظل مرتادوهما موضع تحقيق وملاحقة. ثم تغيرت الأمور فجأة في ٢٨ من أيلول ١٩٦١ عندما أسرع الحسين للاعتراف بالنظام السوري إثر الانفصال، وعصف الغضب بعبدالناصر وبادر إلى قطع العلاقات معلناً:

«إني لم أكن في أيّ وقت مؤمناً برسائل المصالحة التي بعث بها»[٣٧]. واتهمه بأنه استخدم أموال السعودية لتمويل مؤامرة الانفصال.

وعاد الهجوم الإعلامي على الحسين، إلا أنه لم يكن مركزاً كالسابق عليه. فقد توجه بصورة رئيسة إلى مدبّري عملية الانفصال في سورية وإلى قاسم العراق الذي بادر فوراً بالاعتراف بالحكم الجديد، وزاده بلقاء مع رئيس الدولة السورية الجديد مؤكداً وقوف العراق بحزم ضد أي اعتداء خارجي. ونال إمام اليمن «أحمد» نصيبه من الهجوم بسبب خصومته مع عبدالناصر التي انتهت بحلّ الاتحاد الفدرالي الذي عرف باتحاد الدول العربية.

وعاد راديو القاهرة يشن حملة شعواء أخرى عليه. لكنه كان في ذلك الوقت يشعر بأمان وراحة، فالعراق وسورية هما الآن في حكم الحليفين له في حرب العروبة التي يخوضها عبدالناصر ضد حاكمي هذين القطرين، وقد بدا هذا وحيداً منكسر الخاطر مهيض الجناح.

نجاح عبدالناصر في ادّراء حملة السويس الثلاثية حمل بذور خطر عظيم فقد وجد نفسه يلج باب مرحلة الشعبية الطاغية. فهو بطل العالم العربي لا تقتصر مهمته على

---

(٣٧) كتب الحسين بصدد الانفصال في مذكراته «إن جيراننا السوريين عادوا مرة أخرى أحراراً بنبذهم الإمبريالية الناصرية، التي هددت لا بدمارهم وحدهم بل بدمار بقية العالم العربي» (ص ٣٠٥). وعزا الأساليب التي تتبعها الدعاية الناصرية إلى واقع كونها تعتمد على قلة تقدير لمستوى ذكاء الشعب العربي الاعتيادي.

قيادة مصر - بل قيادة ذلك العالم الأوسع أفقاً. الأمر الذي انحدر به إلى مشاكل ومشاريع عربية لا أول لها ولا آخر. فلم يعد له من سبيل للتفرغ إلى شؤون مصر. وأما أهدافه في ذلك العالم الناطق بالعربية فقد اتجهت اتجاهاً شبه منهجي إلى التأثير على مجرى الأحداث فيه. يثبت ويدعم الحكام الذين يسيرون في سبيل سياسته. ويعمل على تقويض نظم الحكام الذين يخالفونه ومحاولة تصفيتهم جسدياً. وعذره في هذا هو أنه يريد أن يمحو آثار الإمپريالية والكولونيالية من أجل إقامة الوحدة العربية، والكفاح ضد إسرائيل. كل هدف من هذه الأهداف الثلاثة جرّه إلى أمور وسياسات ربما لم يكن يجرؤ على التفكير فيها، ولنقل في العام ١٩٥٤: التآمر على الأنظمة لغرض إزالتها، إقامة حلف أو اتحاد تم إلغاؤه، التورط العسكري المباشر وغير المباشر، التقرب من الاتحاد السوڤياتي لضمان استيراد السلاح، مغازلة الولايات المتحدة استدراراً للمساعدة الاقتصادية[٣٨].

* * *

تتفق الحركات القومية العروبية جميعاً على أن السودان هو جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير، تشمله الوحدة الكبرى المنشودة، على أن قطاعات كبيرة من الشعب السوداني لا تتفق معها. ورغم الواقع الصارخ بأن نصفه الجنوبي بقي حتى يومنا هذا بعيداً عن لغة القرآن ودين القرآن، عنصراً زنجياً خالصاً، يدين بالمسيحية

---

(٣٨) في ١٦ من تشرين الأول وبعد مرور بضعة أيام على إرسال القوات العسكرية إلى اليمن، أقدم في خطبة عامة له على الكشف عن شخصية الزعيم الواثق من نفسه الذي لا يمكن أن تتعرض قراراته للمساءلة أو النقاش أو الشك:

«كان اختياري أن أقضي الأيام الماضية متفكراً. فكّرت في أمتنا في كل مكان. . . أردت أن تكون اختياراتي خياراتهم (خيارات الأمة) وأن موقفي هو تعبير عن موقفهم (موقف الأمة). . . وأنا أقول لكم الآن بأني قد اخترت واختياري كان هو أن طريق الثورة يجب أن يكون طريقنا. التقدم بكل ثبات وقوة نحو الإنجازات الثورية هو الجواب الوحيد لكل مطالب كفاحنا القومي. . . إن مسؤوليتنا هو (هي) إعادة بناء الوطن الأم وتحريره».

وفي العام ١٩٦٤ أي بعد أربع سنين، عاد لمراجعة نفسه إثر فشله في تطويع عبدالسلام محمد عارف (لا بأس أن نستبق الأحداث هنا):

«كنا نعتقد في السابق بأن الثورات العربية التقدمية تجعل الوحدة ممكنة. لكننا في هذه الأيام نجد أن مفهوم الوحدة في ذاته، هو في أزمة. ففي الوقت الذي يعتز كل بلد عربي بحزب فإن الوحدة مستحيلة تماماً. ولأجل أن تتحقق الوحدة يجب علينا أن نطرح حركة عربية قومية موحدة يمكن أن تندمج فيها كل الحركات القومية في الوطن العربي».

وبالعبادات الزنجية الأفريقية الطوطمية.

وفي النصف الشمالي من البلاد بدا العرق العربي- الحامي (المصري) الممتزج بالدم الزنجي واضحاً كل الوضوح لا يحتاج إلى دراسات أنثروبولوجية. إن التصاق الجنوب الزنجي بالشمال الهجين كان بالأصل من عمل الكولونيالية البريطانية، وبنتيجة الحملات العسكرية التي يمكن رد أوائلها إلى العصر الفرعوني. وفي خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة، كانت اللغة العربية هي لغة ذلك الجزء من الوطن السوداني، سادت بقوتها الذاتية منذ أن دخل الإسلام وقبل الادعاء المصري بها بقرون عديدة. وبالضبط عندما بدأ في العام ٦٥١ الميلادي تحوله عن الديانة المسيحية إلى دين الإسلام.

في العام ١٨٩٩، وضع السودان بموجب اتفاقية الحكم الثنائي بيدي الحكم المصري-الإنكليزي، وبقيت اليد البريطانية العليا إلى الأخير. كما بقيت مسألة مستقبله السياسي تثار في كل مفاوضات بريطانية - مصرية حول الجلاء، وبقي المصريون عموماً يصرون على وحدة وادي النيل تحت التاج المصري ورغبوا أن يَمنحوا في إطار تلك الوحدة نوعاً من الأوتونومية للسودانيين، وهو ما كان مطمح الشماليين جميعاً خلا جيوبٍ صغيرة.

وكما مرّ، ألغت الحكومة المصرية في العام ١٩٥١ اتفاق ١٩٣٦ من جانب واحد. كما ألغت اتفاق العام ١٨٩٩ وأعلنت (فاروق) ملكاً لمصر والسودان. إلا أن البريطانيين رفضوا إقرار ذلك، وقالوا: يجب ألا يحال بين السودانيين وبين حقهم في تقرير المصير.

في عين الوقت نشطت الطبقة المتعلمة والمثقفة سياسياً، ومعظم هؤلاء من خريجي كلية (غوردون) في الخرطوم. وانتظمت لعمل وطني هدفه التعريف بأمانيها الوطنية الخاصة للسلطتين الحاكمتين اللتين كانتا منذ نهاية القرن التاسع عشر قد تعوّدتا اتخاذ قرارات للسودان في معزل عن رأي السودانيين. وفي العام ١٩٣٨، أقدم هؤلاء على تأسيس تنظيم سياسي عرف بـ«مؤتمر الخريجين العام»، وانطلقوا من خلاله في سبيل أنشطة اجتماعية وتربوية، وكانت أغلبيتهم من الموظفين والمعلمين تزعمهم «إسماعيل الأزهري» أستاذ الرياضيات في كلية غوردون، وهو من خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت في العام ١٩٣٩.

في نيسان من العام ١٩٤٢، لبس مؤتمر الخريجين ثوب الناطق باسم «الشعب

السوداني» عندما قدموا للإدارة الثنائية في الخرطوم جملة من المطالب الوطنية، فرفض البريطانيون الاعتراف بالدور السياسي للمؤتمر وكذلك بمطاليبه، وإذ ذاك ولّى «الأزهري» وجهه شطر مصر مؤيداً شعار «وحدة وادي النيل».

وفي انتخابات المؤتمر للعام ١٩٤٣، نجحت كتلته في السيطرة على المؤتمر. فأقدم من فوره على تأسيس «حزب الأشقاء»، وهو أول حزب سياسي سوداني نشأ في التربة السودانية. ولقي هذا الحزب دعماً من السيد علي الميرغني رئيس الختمية(٣٩). وإنفصل عن المؤتمر أعضاؤه المعتدلون المعارضون للوحدة مع مصر، وأسسوا ما عرف فيما بعد بـ«حزب الأمة» الذي لقي بالمقابل دعماً من السيد عبدالرحمن بن المهدي زعيم الجماعة الدينية التي عرفت بـ(الأنصار).

استمد الحزبان شعبيتهما الطاغية بفضل ارتكاز كل منهما على حركة دينية مرهوبة الجانب. وإليهما انتقلت المنافسة والصراع التاريخي التقليدي بين «الختمية» و«المهدية»: الختمية تخشى عودة الحكم إلى المهدية. والمهدية (الأنصار) يكرهون التسلط الختمي. وقد هالهم النجاح الذي حققه حزب الأشقاء المدعوم بالنظام المصري.

ويقيت المعادلة السياسية المزدوجة سنوات يحكمها هذا الوضع الغريب:

حزب الأمة + الأنصار، إلى الجانب البريطاني يعملون من أجل الاستقلال التام

حزب الأشقاء + الختمية، إلى الجانب المصري يدعون للوحدة مع مصر

وخطر على بال البريطانيين، وهم على أبواب النصر في العام ١٩٤٤، أن يضعوا الشمال السوداني على عتبة الحكم الذاتي بإنشاء «المجلس الاستشاري» بهدف تعويدهم على ممارسة الحكم وقد فعلوا ذلك دون مفاتحة المصريين. وكان معظم الأعضاء الثمانية والعشرين فيه من حزب الأمة، ولم يكن فيه ممثل واحد للسودان الجنوبي. وقد انصرف الذهن العام وقتذاك إلى نية مستترة لبريطانيا في شطر السودان إلى جزءين(٤٠).

---

(٣٩) تلك هي طريقة دينية حالفت الإدارة المصرية طوال القرن التاسع عشر، وانتابها ضعف شديد عند استظهار الحركة المهدية وممارستها الحكم الفعلي خلال فترة من الزمن حتى القضاء عليها بالحملة المشتركة في العام ١٨٨٦.

(٤٠) لم يكن من صلاحية المجلس معالجة شؤون الجنوب فقد بقيت السياسة البريطانية تعالج شؤونه بشكل منفصل مستوحية الواقع في اختلاف الأصول العرقية والدينية والحضارية والاجتماعية التي تفرق بين الشطرين. فأربعون بالمائة من مجموع سكان السودان هم من العنصر الزنجي =

وفي العام ١٩٤٧، طرحت قضية السودان على هيئة الأمم المتحدة. وكالعادة أصرت مصر على وحدة التاج المصري - السوداني، في حين تمسكت بريطانيا بحق السودانيين في تقرير مصيرهم أو استفتائهم على الأقل.

بقيت القضية معلقة، إلا أن بريطانيا بادرت بعد عام واحد إلى حل المجلس الاستشاري وإقامة جمعية خوّلت سلطة التشريع مع استحداث مجلس تنفيذي، نصف أعضائه من المواطنين السودانيين. وطمأنت القوميين الشماليين بخصوص وحدة السودان بضم أعضاء من السودان الجنوبي إلى الجمعية الاشتراعية والمجلس التنفيذي؛ وبذلك أنهوا الفصل الإداري بين الجزءين.

عارضت مصر هذه الإجراءات وأبت المصادقة عليها. وعارضها حزب الأشقاء الذين قاطعوا انتخابات الجمعية والمجلس وبذلك تركوهما لحزب الأمة. وانتخب الضابط السابق (عبدالله خليل) رئيساً للجمعية الاشتراعية.

وواجهت الجمعية يوم افتتاحها في ١٩٤٨ مظاهرات احتجاج دفع بها حزب الأشقاء - واعتقل بسببها رئيسه «الأزهري».

وانتخبت الجمعية مجلساً تنفيذياً.

ورفضت قرار حكومة الوفد المصرية وحدة التاج المصري السوداني. إلا أن فاروق أصر على استخدام اللقب حتى إزاحته في انقلاب ٢٣ يوليو.

وبدا وكأن الضباط الانقلابيين يتعجلون الوصول إلى اتفاق حول ما يُعمل في السودان. وقدموا المشكلة على مشكلة الجلاء عن القناة. لم يصروا على السيادة المصرية وسلّموا بحق السودانيين في تقرير المصير، ربما لوثوقهم من النتيجة واطمئناناً إلى شعبية حزب الأشقاء، إلى جانب تلك الأواصر التاريخية والعرقية والحضارية التي ربطت شمال السودان دوماً بمصر(٤١). وعلى أساس من هذا وقع الاتفاق

= الخالص Negroid مسيحيين ووثنيين وطوطميين، يتخاطبون بعدد من اللغى الأفريقية. وفي كثير من الأصقاع يعيشون وكأنهم في العصر الحجري المتأخر.

(٤١) كان رئيس الجمهورية المصرية اللواء محمد نجيب وأخوه، وهو ضابط كبير في الجيش المصري، نصف سودانيين. كذلك كان الصاغ (الرائد) صلاح سالم وشقيقه جمال سالم، وكلاهما من الضباط الأحرار. كثيراً ما تزوج الضباط والموظفون المصريون بنساء سودانيات أثناء خدمتهم في السودان منذ استيلاء محمد علي على البلاد في ١٨٢٣، وممن كانت له من أمثال هؤلاء أدوار رئيسة في التاريخ المصري الحديث أحمد عرابي باشا قائد ثورة ١٨٨٢. في =

الأنكلومصري في ١٢ من شباط ١٩٥٣، وينص على حق أهالي السودان في تقرير مصيرهم وعلى أساس الوحدة بين الشمال والجنوب.

وحددت الاتفاقية الفترة الانتقالية بثلاث سنوات، يمارس فيها السودانيون الحكم المحلي فقط. وترتب أن تمارس السلطة معهم ومع الحاكم العام البريطاني لجنة دولية خماسية. وأن تشرف لجنة دولية أخرى على الانتخابات النيابية العامة قبل قيام الأهالي بتقرير مستقبل بلادهم. كان ذلك بتوجيه من الأمم المتحدة.

وفي انتخابات كانون الثاني ١٩٥٣ العامة حصل حزب إسماعيل الأزهري على الأغلبية في مجلسي النواب والشيوخ فألّف الحكومة برئاسته. ونام ثوار يوليو في القاهرة على المفاجأة السارة التي انتظروها طويلاً وقد صحّت حساباتهم بفوز حليفهم. لكن الأيام راحت تمر والأزهري لا يتقدم خطوة واحدة في سبيل الوحدة.

المسألة هي أنهم أخطأوا الحساب.

فالسودانيون لم يودعوا ثقتهم الأزهري وحزبه بهدف وحدة مع مصر، بل لأنهم كانوا يريدون التخلص من النفوذ البريطاني وهيمنته اللذين كانا متمثلين في حزب الأمة. فهذا الحزب لم يحز ثقة الأغلبية لأنه بقي يتعاون مع البريطانيين، بدليل أن «الأزهري» واجه يوم الأول من آذار ١٩٥٤ - وهو يوم افتتاح المجلس - مظاهرة عارمة صاخبة شعبية مثّلت كل الفئات السياسية وبضمنها حزبه، تهتف بشعارات معادية لمصر، وضد أي نوع من الوحدة، أدت مما أدت إلى اصطدام دموي وقع خلاله عدد كبير من القتلى.

وأدرك «الأزهري» دون إعمال فكر أن القطاع الأكبر من المجتمع السوداني يعارض الوحدة ولا يريدها. وتجلّت في الإعلام السوداني ودوائر المثقفين نفرة السودانيين من الأساليب الرخيصة السوقية التي مارسها الضباط المصريون للتأثير على الانتخابات العامة. كما تابعوا بهلع واشمئزاز الأساليب القمعية المنهجية التي اتخذوها في مصر ضد الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي هناك. وكل هذا لم يكن معروفاً عندهم أثناء

= الواقع لم تكن الدعاية للاندماج قانعة برصيد مصر هذا، وبالاعتماد على حزب إسماعيل الأزهري، فقد نشطت بزيارات عديدة متبادلة. وتحفظ ذاكرتي بينها صورة للصاغ صلاح سالم ملأت صحيفة كاملة من مجلة المصور المصرية الكبيرة الحجم - في وثبة فضائية أثناء مشاركته رقصة سودانية وهو عارٍ إلا ما ستر عورته- بمناسبة زيارة له.

الحكم البريطاني الذي سمح بنشاط هاتين الفئتين ولم يتعرض لهما قط، ثم كان سقوط محمد نجيب الذي أحبه السودانيون كثيراً.

وبدا حلم الوحدة أثراً بعد عين عندما أعلن «الأزهري» في شهر آيار ١٩٥٥ رسمياً استقلال السودان وسيادته، وسودنة الإدارة والشرطة والقوات المسلحة بإحلال السودانيين محل المصريين والبريطانيين فيها، وأمرت الوحدات البريطانية والمصرية بإتمام الجلاء عن البلاد قبل نهاية السنة.

وبعد أن وضع حزب الاتحاد الوطني نفسه (وهو الحزب الذي شكّله الأزهري بدلاً من حزب الأشقاء) إلى جانب الاستقلال، لم تعد ثمّ حاجة للاستفتاء. وفي ١٩ كانون الأول ١٩٥٥ وافق البرلمان بأغلبية ساحقة على اقتراح الأزهري بإعلان السودان جمهورية مستقلة. وصدر القرار في الأول من كانون الثاني ١٩٥٦.

مع ذلك بقي أمر الصلة مع مصر مصدر قلق وتوتّر قدر ما كان الجنوب مصدراً له ووقعت حوادث عنيفة[٤٢] سفكت فيها دماء من الطرفين.

كان بناء السودان الاجتماعي- الاقتصادي يختلف اختلافاً بيّناً عن بُنى سائر البلاد الناطقة بالعربية. فقد تحرر تماماً من المشاكل التي يخلفها الإقطاع والملكيات العقارية الكبيرة. لأن ما يزيد عن ٩٠ بالمائة من الأراضي هي ملك للدولة، فهي المالكة والمنتجة في عين الوقت، وهي المدبرة والقائمة على الإدارة فيها عن طريق مشرفين ومدراء ومستأجرين يحصلون على عقد امتياز من الدولة لاستغلال الأرض بالمشاركة النصفية مع الفلاح.

ونمت الحركة العمالية في البلاد خلال الفترة التي سبقت الاستقلال، وبدت نقابة السكك الحديد أقواها وأوسعها نفوذاً. رغم أن طلب تأسيس اتحاد عام للنقابات رفض في ١٩٥٠ فقد لقيت من حزب الأشقاء حليفاً قوياً يتجه نحو اليسار. وتغلغلت فيها الأفكار الشيوعية ليبدو فيها عدد من شعاراتها. وان لم تكن هناك حركة قومية عروبية ولا شعارات تنم عن وجود لها.

---

(٤٢) من ذلك ما حصل في آب ١٩٥٥ - قبيل إعلان الاستقلال. فقد أعلن الإقليم (مديرية الاستوائي ثورة قتل بنتيجتها مئات من السودانيين الشماليين. حنق الجنوبيون من إرسال الحكم الجديد موظفين إداريين متغطرسين غير مجربين وغير متسامحين بل متعصبين دينياً، بخلاف ما عهدوه من الإداريين البريطانيين.

ديمقراطية السودان كانت أشبه بالطفل الحديث الولادة، معرض لكل العلل والنكسات التي لاحظناها في ديمقراطيات البلاد الناطقة بالعربية الأخرى التي قضى عليها التسلط العسكري. من أظهر تلك العلل وأكثرها شيوعاً التحالفات المؤقتة بين السياسيين وبين الأحزاب والانقسام الفكري الناجم عن الولاءات للأشخاص لا للمناهج والتضحية بالأخيرة للاحتفاظ بالأولى، والتآمر السياسي السري والانتهازية والطموح الشخصي واحتقار الإرادة الشعبية والعمل بمعزل عنها وما إلى ذلك.

بقي الأزهري على رأس الحكومة طوال الفترة الانتقالية وبعدها بقليل. لكنه اضطر إلى تأليف وزارة إئتلافية مع حزب الأمة في شباط ١٩٥٦. وبعد ثلاثة أشهر حصل انشقاق في حزبه، وانفصل عنه جناح ليؤلف حزباً جديداً أطلق على نفسه اسم «حزب الشعب الديمقراطي»، وهذا الجناح كان يدعو إلى الوحدة مع مصر، وقد حظي بتأييد (سيد علي الميرغني) رئيس الختمية. كان من أسباب الانشقاق أن الأزهري حاول إبعاد حزبه (الاتحاد الوطني) عن الاتجاه الإسلامي الذي تدفعه إليه الختمية.

ووقع الأزهري في تموز ١٩٥٦ ضحية مؤامرة برلمانية بنزع الثقة منه فاضطر إلى الاستقالة. وألّف (عبدالله خليل) رئيس حزب الأمة الوزارة بالتعاون مع الحزب الجديد (حزب الشعب) المنشق.

كان تحالف الحزبين على الأزهري عملية انتهازية صرفة ترمي إلى اقتلاعه، فبين أهداف الحزبين المتآمرين بون شاسع.

بقيت وزارة (عبدالله خليل) حتى وقوع الانقلاب العسكري الأول في ١٧ من تشرين الثاني ١٩٥٨. وعانت التجربة الديمقراطية خلال الفترة متاعب شتى بقيت عاجزة عن امتصاصها بسبب تغليب المصلحة الحزبية على المصلحة العمومية، والإساءة الحمقاء الغبية إلى الجنوب الزنجي بشتى أساليب الاستفزاز والإثارة[٤٣]. كان

---

(٤٣) حاولت الحكومة إزالة الفروق الثقافية والتعليمية بين الجزءين، فقامت بدمج النظامين التعليميين معاً، ثم أشرفت عليه وبدأت في مصادرة المدارس التي فتحها المبشرون وأرسلت معلمين من الشمال لملء الفراغ الذي خلّفه الاستغناء عن المعلمين السابقين لفرض المناهج التعليمية الجديدة ومنها تعليم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، ففجرت غضباً شعبياً كان قد تراكم جراء سياسة الانتشار العسكري في الجنوب. ودبّ دبيب الانحلال في الحلف حول موضوع قبول المساعدة الاقتصادية والتقنية الأمريكية. كان حزب الأمة يشعر بالحاجة إليها في حين وقف حزب الشعب الديمقراطي ضدها. وبدا أن المعارضة كانت مفتعلة، وقد وصفت بأنها إشارة =

الجنوب يطمح إلى نظام حكم فدرالي. ولم يدع ضباط يوليو المصريون الحكم الجديد في راحة.

كان على حكام البلدين تسوية مشكلة مياه النيل. ومن ضمنها الموافقة على المنطقة التي سيتم إغراقها بالمياه بعد إقامة السد العالي. واتخذت مصر (ج.ع.م) موقفاً عدائياً صريحاً. ففي الوقت الذي كانت السودان تتهيّأ لإجراء الانتخابات أرسل عبدالناصر قواته إلى منطقتين ادعى بعائديتهما، واحدة تقع على ساحل البحر الأحمر وأخرى على نهر النيل. نزلت القوة المصرية الصغيرة في المنطقة الأولى دون أن تلقى مقاومة، في حين زحف رتلان على الثانية من أسوان(٤٤).

ورفع السودان شكوى إلى مجلس الأمن في شباط ١٩٥٨، فبادرت مصر إلى سحب القوات متهمة السودان بأنها تبالغ في شكوى لا أساس لها وأن «الإمپرياليين هم وراء المشكلة» وهو ما صوّرته الدعاية الناصرية في حينه.

وأطلق حكام القاهرة قذائفهم الإعلامية على السودان «الشقيق» دون رحمة واتُّهم السودانيون بنكران الجميل والتنكر لعلاقات الأخوة والوشائج التي تربطهم بالمصريين. ونوشد «شرفاؤهم» بالعمل على وقف المؤامرة الإمپريالية وإحباطها وكنس نفوذ القوى الخارجية التي عملت وما زالت تعمل على تفريق الصفوف، الخ

في تشرين الأول شخص (علي عبدالرحمن) رئيس حزب الشعب الديمقراطي والعضو في الوزارة إلى مصر واجتمع بعبدالناصر دون أن يُعلم رئيسي الحزبين الآخرين المشاركين في الوزارة. وبعد أيام لحق به ساسة آخرون، ثم لحق به (عبدالله خليل).

وسرى القلق العظيم في أوساط حزب الأمة من هذا التقارب. إلا أن الخوف

= احتجاج على نزول القوات الأمريكية لبنان وقد جاء التحريض عبر الحدود المصرية. مع ذلك فقد عقدت الاتفاقية وصادق عليها الپرلمان أخيراً.

(٤٤) زحف الرتل الأول إلى وادي حلفا. فيما حاول الثاني الوصول إلى هدفه (أبو رمدة) عبر الصحراء، فضلّ أولهما طريقه وهلك عدد كبير من الجنود عطشاً. [أنظر گريگوري بلاكسلاند «مصر وسيناء» نيويورك ١٩٦٦، ص ٢٩٢ Gregory Blaxland: Egypt and Sinai] في ١٤ تموز ١٩٥٨. وبتشجيع من الانقلاب في العراق أرسلت القاهرة العقيد (علي خشبة) مستشاراً لسفارتها في الخرطوم فلم يضيع وقتاً في مباشرة خلق الاضطراب في الجو السياسي ولم تضيع الحكومة السودانية وقتاً في التفكير بما تفعل له فقد أمرته بعد ثلاثة أيام من وصوله بمغادرة البلاد.

الأعظم كان مستولياً على ضباط الجيش، فهؤلاء كانوا يشعرون شعوراً حقيقياً بتفوقهم الثقافي العسكري على أقرانهم الضباط المصريين وكثير ممن بلغ مراتب القيادة فيهم - تلقوا معارفهم في معاهد ودورات عسكرية ومعاهد إنكليزية. وقد شعروا بعد الاستقلال والحرية في قيادة الجيش السوداني بمعزل عن التسلط العسكري البريطاني الذي لم يكنّوا له وداً بأية حال - شعروا أنهم مهددون بالتسلط العسكري المصري، ولم يكونوا نياماً عندما بدأت المؤسسة العسكرية المصرية فور قيام الوحدة مع سورية تزحف بثبات منهجي على المؤسسة العسكرية السورية للهيمنة عليها وابتلاعها.

في تشرين الأول - وبدافع هذا الخوف العظيم - بدأت الحلقة الأولى من سلسلة الانقلابات العسكرية. لتنتهي كما بدأت بالصراع المعروف بين الساسة والضباط السياسيين على السلطة.

كان الانقلاب الأول هادئاً تماماً. لم ترق فيه قطرة دم واحدة، لكن أريقت فيه دماء الديمقراطية البرلمانية وقضي عليها قضاءً مبرماً بسلسلة متتابعة طويلة من الانقلابات امتدّت حتى يومنا هذا.

هذا الانقلاب تزعمه الفريق إبراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة، البالغ من العمر ٥٨ عاماً. أتم احتلال الخرطوم بأربعة آلاف جندي، وتبع الأسلوب الاعتيادي باحتلال الإذاعة ودوائر الاتصال الخارجي وبنايات الحكومة وغلق الحدود، وما إلى ذلك. وكالعادة أذيع البيان الأول وهو ما سماه بـ«مرسوم الدفاع عن السودان». ووضع أعضاء الحكومة تحت الإقامة الجبرية في منازلهم مسنداً السلطات إلى ما دعاه في بيان آخر بـ«المجلس الأعلى للقوات المسلحة» الذي ترأسه بنفسه.

وأعلن في بيان ثالث «حالة الطوارئ» في سائر أنحاء السودان وخوّل القادة العسكريين في المديريات صلاحيات الحكم والسلطة كل في حدود مديريته. وأصدر المجلس الأعلى بيانات أخرى قضت بتعطيل القانون الأساس المؤقت، وحلّ البرلمان، وإهدار الأحزاب ومنع إصدار الصحف والمطبوعات إلى إشعار آخر.

قلنا كان السبب الأساس للانقلاب هو الخوف من وقوع السودان في قبضة مصر، ومن التهديد الدائم بالدسائس المصرية والمؤامرات ضد استقلال السودان. إلا أن البيان الأول الذي صدر بتوقيع إبراهيم عبود لم ينوّه بهذه الحقيقة، ولكنه علّل تدخله العسكري بالإشارة إلى «الصراع الشديد بين الأحزاب في محاولتها الحصول على مكاسب شخصية بكل وسيلة شرعية وغير شرعية. لن ندّخر وسعاً في تحسين علاقاتنا

مع مصر بغية حل جميع المشاكل القائمة ولوضع حد للتوتر المصطنع الذي بقي قائماً حتى الآن».

تلك إشارة واضحة إلى أن السودان سيبقى بعيداً عن كل محاولة ضم أو اتحاد مع مصر. وعاد البيان يحمل على الأحزاب منوّهاً بالفوضى والتمزق وعدم الاستقرار والبؤس الذي يعانيه سكان البلاد ملقياً اللوم عليها في استغلال مصادر الثروة الوطنية لمكاسبهم الخاصة.

واتخذ نغمة البيانات العسكرية التي ألفناها في انقلابات البلدان الناطقة بالعربية:

«كان الجيش ينتظر من الحكومات الحزبية تحقيق الاستقرار الشامل. إلا أن الوضع استمر في التردّي فلم يعد من خيار للجيش السوداني وقوات الأمن غير تسلم السلطة لوضع حد لهذه الفوضى. إن الجيش لا يهدف إلى مكاسب شخصية وإنه لم يقم بواجبه هذا بدافع من حقد أو سوء نية لأي فرد أو جهة... وهدفنا هو تحقيق الاستقرار والازدهار والسعادة للبلاد وللشعب».

لم يواجه الانقلاب معارضة من الكتل السياسية التي أزيحت عن السلطة، ولا من الزعماء الدينيين. وافق (سيد عبدالرحمن) زعيم الأنصار المهدية على مضض، وتوفي بعد أشهر قلائل ليخلفه في الإمامة إبنه (صدّيق)[٤٥]، وأبدى زعيم الختمية موافقته على الانقلاب وكان قد أعلن مراراً كرهاً شديداً للسياسات الحزبية ودسائسها[٤٦].

* * *

في السابع عشر من تشرين الثاني صدر المرسوم الدستوري رقم (١)، معلناً السودان «جمهورية ديمقراطية». والشعب مصدر السلطات. وأن السلطات الدستورية أنيطت بـ«المجلس الأعلى للقوات المسلحة» المؤلف من اثني عشر من الضباط

---

(٤٥) كان هو الذي تزعم فيما بعد معارضة «المهدية» للحكم العسكري كما سيأتي بيانه.

(٤٦) تبيّن فيما بعد أن الانقلاب جرى بسبق معرفة وتفاهم مع رئيس الحكومة المُقال (عبدالله خليل) فقد منحه الانقلاب هو والأزهري تقاعداً سخياً. وذكروا عنه أنه كان يقرّ في كثير من المناسبات بسبق معرفته بحركة الجيش معلّلاً موافقته عليه بأن الجيش هو أكثر استعداداً ومقدرة على الوقوف ضد المخططات المصرية فبدا الانقلاب وكأنه مجرد تسليم وتسلّم بين النظام البرلماني والعسكر.

أنظر: ك. د. د هندرسن: جمهورية السودان K.D.D Henderson: Sudan Republic لندن ١٩٦٥ الص١٣٢-١٣٣

الأقدمين برئاسة إبراهيم عبود. وأن المجلس المذكور أودع إلى الرئيس صلاحيات ممارسة السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، علاوة على تثبيته بمنصب القائد العام للقوات المسلحة. فهو بهذه الكيفية رئيس للدولة ودكتاتور عسكري.

تألّف المجلس الأعلى من ضباط كبار وقادة وحدات، وأقدم على تأليف وزارة ضمّت سبعة من أعضاء المجلس الأعلى وخمسة من المدنيين.

لم يقدّم الحكم الجديد للمحاكمة أياً من رجال العهد المباد كما حصل في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية، بل عاملهم برفق وجاملهم(٤٧) وبدا وكأن كل شيء على ما يرام وهجعت الأحزاب والنقابات. وسكتت إذاعة القاهرة برهة. إلا أن الدسائس والتآمر لم ينقطعا وتحوّلا من الساسة إلى الضباط. حتى قيل إن محاولات الانقلاب العسكرية التالية كانت من المجهودات المصرية أكثر منها نزاعاً على السلطة بين المتحاسدين.

لم تكد تمر أشهر أربعة وأسبوعان حتى جرت محاولة انقلابية تزعّمها العميدان (محي الدين عبدالله وعبدالرحيم شتان) وهما من قادة المناطق. قالوا كان الدافع حنقهما على استبعادهما من عضوية المجلس الأعلى الذي ضم ضباطاً أصغر منهما رتبة، إلا أن أولهما كان يعتبر تقدمياً مشايعاً لمصر محاسداً للواء (محمد عبدالوهاب) عضو المجلس.

في صباح الثاني من آذار الباكر ١٩٥٩، زحف العميدان المتمردان بقواتهما على الخرطوم فدخلتها واحتلت نقاطاً ستراتيجية وانطلقا لإلقاء القبض على اللواء عبدالوهاب واثنين آخرين من أعضاء المجلس.

لم يحاول (عبدالوهاب) مواجهة القوة بالقوة - ربما لأنه لم يكن واثقاً من انحياز

---

(٤٧) تسلم أعضاء الحكومة المعزولون رسائل شخصية بتوقيع (عبود) يشكرهم فيها على خدماتهم مع هدية نصف راتب شهري. [لاحظ أن ذلك لا يتفق مع الهنات والتهم التي وجهت إليهم في البيان الأول]. وعندما رفع تمثالا (غوردون) و(كتشنر) من ميدانيهما بموجب قرار من المجلس الأعلى في ١١ كانون الأول ١٩٥٨، وتم نقلهما بعناية إلى إنكلترا. [المرجع السالف ص١٥١]. [في الرابع عشر من تموز هجم المتظاهرون بتأييد حركة الضباط على تمثالي الملك فيصل والجنرال مود وحطماهما بالفؤوس والمعاول وداسوا كِسرهما بالأقدام، ولم يكن شخصاهما في أي وقت عاملي شر أو ضرر مثل ما ألحق الضباط من ضرر أو شر بالبلاد بأي حال من الأحوال].

العميد (حسن البشير) قائد قوات العاصمة وانتصاره له. إلا أنه استنجد بالزعيمين الدينيين اللذين أشرنا إليهما. وانتهى الأمر بتسوية سلميّة، وبدعوة إلى الاعتدال وإلى وحدة الجيش. وأخلي سبيل عبدالوهاب والضباط الآخرين المعتقلين. وانسحبت القوات من العاصمة.

ولم تنه فصول الكوميدي بهذا، فبعد يومين انتهبت الخواطر السوداء رأس العميدين الظافرين وراجعا موقفهما فوجدا أنهما أخطآ بالانسحاب الفوري قانعين بمثل هذه التسوية الصغيرة. وأدركهما خوف من مؤامرة تحاك ضدهما. فأصدرا أمراً لقواتهما بالعودة وطوّقا بها العاصمة، وطلبا حلّ المجلس الأعلى لأن «الشعب والجيش يشكوان كثيراً من سياساته وتصرفاته».

وبعد اجتماع صاخب للمجلس قدم أعضاؤه جميعاً استقالتهم لإبراهيم عبود. وأعيد تشكيله في ٥ من آذار، بإخراج خمسة من أعضائه وإبقاء سبعة بينهم (محمد عبدالوهاب) وضم إلى السبعة الباقين العميدان المتمردان والعميد (مقبل الأمين) قائد المنطقة العسكرية الوسطى. وأسند إلى ثلاثتهم مناصب وزارية.

وفي التاسع من آذار، عندما التأم المجلس الجديد لأداء اليمين القانونية، رفض (عبدالوهاب) أداءه قبل انسحاب القطعات العسكرية الثائرة من العاصمة والعودة إلى مناطقها. فأصدر المجلس الجديد بياناً بإحالة العميد (عبدالوهاب) إلى التقاعد[٤٨].

إن التبدل الفجائي في نغمة الإعلام المصري والتشجيع الذي لقيه هذا الانقلاب أكّدا ما أشيع بأنه حصل بتأثير القاهرة.

لكن الخلاف تواصل. شعر العميدان بمكيدة إثر صدور أمر من إبراهيم عبود يقضي بعدم تحريك أي وحدة عسكرية إلا بإذن صادر منه. عندها قاما بمحاولة انقلاب ثالثة ففشلا.

في ٢٢ من آيار ١٩٥٩، تقدمت وحدتان (غدراق) بالإقليم (مديرية) الشرقي نحو العاصمة فعاجلها إبراهيم عبود بإرسال اللواء المدرع لمواجهتها فأسرعت الوحدتان بالانكفاء على عقبيهما. وفي (شَندي) قام اللواء حسن البشير بإلقاء القبض على المتآمرين، وكانوا تسعة بينهم شقيقان للعميد شتان قائد الحركة. وفي ٢٧ من آذار ألقي

(٤٨) مُنح مكافأة، فضلاً عن مرتبه التقاعدي، ما مساحته ٥٠٠٠ آلاف دونم من الأراضي الزراعية. [المرجع السالف]

القبض على قائد المديرية الشرقية وثلاثة عشر ضابطاً آخرين، بينهم العميدان محي الدين وشتان، وأحيلوا جميعاً في الأول من حزيران إلى محكمة عسكرية علنية بتهمة التحريض على العصيان بسَوق الجنود إلى العاصمة لإحداث انقلاب هدفه الإطاحة بالنظام. وأصدرت المحكمة في ٢٢ من أيلول حكماً بالموت على العميدين[٤٩]، وقراراً بطرد ٢٠ ضابطاً من الخدمة، وبالحبس على طائفة. وعزل عضو واحد في المجلس الأعلى لعلمه المسبق بالمحاولة واحتفاظه بسرها لنفسه.

وكانت محاولة انقلاب عسكري رابعة - علم بأمرها المجلس الأعلى قبل وقوعها. كذلك كان على دراية بموعدها وهو يوم الذكرى الأولى للانقلاب الأول، فأصدر بياناً ينذر فيه بأشد العقوبات على القائمين بها موضحاً بأن الأحكام لن تخفف. إلا أن المتآمرين لم ينثنوا. وكانوا من صغار ضباط صنف المشاة في الكلية الحربية بأم درمان، مع تلاميذهم وبالاتفاق مع طلاب الجامعة وبينهم شيوعيون وعدد من الضباط المطرودين.

في يوم ٩ تشرين الأول ١٩٥٩ تم احتلال مدرسة المشاة. وزحفت وحداتهم على العاصمة، إلا أن اللواء حسن البشير وفّق إلى القضاء على الحركة بسهولة وألقى القبض على قادتها. وأحيلوا إلى محكمة عسكرية فقضت على خمسة من الرؤوس بالإعدام وعلى ١٧ ضابطاً آخرين بالطرد من الجيش[٥٠].

بدت الدكتاتورية العسكرية في السودان أخف وطأة على الأهالي نسبة إلى الدكتاتوريات العسكرية الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية. كان الحكم (سودانياً وطنياً) خالصاً لا أثر فيه للدعاوى والانتماء القومي العروبي. ولا مجال لنمو حركة قومية عقائدية ذات شعارات عروبية صارخة. وقد فشلت الناصرية كما فشلت المحاولات البعثية في إقامة قيادة قطرية داخل السودان مثلما باءت المحاولات الإعلامية المصرية بالإخفاق في محاولتها جرّ السودان إلى المعترك القومي، والشمال منه لا يختلف عن الجنوب في هذا.

---

(٤٩) خفض إلى الحبس المؤبد ثم أطلق سراحهما بعد فترة.

(٥٠) يذكر هندرسن (المرجع السالف ص ١٣٥) أن الحكم صدر بالإعدام شنقاً لا رمياً بالرصاص ونفّذ بهذا الشكل بالمحكومين. ويعلل هندرسن (المرجع السالف ص ١٣٥) ذلك بدافع الخوف من أن يرفض الجنود إطلاق الرصاص على ضباطهم المحكومين وهم بين رائد ونقيب.

السودانيون الجنوبيون بقوا إلى الأخير في نجوة عن التغلغل اللغوي والديني، والتزاوج العنصري. في حين كان الشماليون يدركون جيداً بأنهم ليسوا عرباً أقحاحاً وإن مازج الدم العربي دماءهم منذ أن تحولوا عن المسيحية إلى الإسلام بعملية متواصلة من فجر الإسلام وعن طريق اليمن والبحر الأحمر لا عن طريق مصر على الأغلب.

هناك فرق آخر. فيما كانت الإذاعات في دمشق والقاهرة وبغداد تصدع الآذان وتقلق الرؤوس بالأغاني التافهة الرخيصة التي تدور حول تمجيد القائد والزعيم الذي حطّم عرش الطغاة ووضع البلاد على طريق الرفعة والمجد والعزة والكرامة وتصفها بالأناشيد الوطنية والقومية. وفيما كان «عُبّاد السرير» يتزاحمون ويتبارون في اختراع أجمل الألقاب لوصف مآثر هذا البطل أو ذاك. لم يعمد القادة السودانيون إلى بناء زعامة بطولية للفريق إبراهيم عبود واللواء طلعت فريد الذي يليه في الزعامة واللواء حسن البشير وأضرابهم. ولم يحاول هؤلاء إثارة الجماهير كالآخرين بشياطين التهديد الخارجي، أو التحذير من النفوذ الأجنبي. وقد وجدنا العكس من هذا، فكثيراً ما وجدناهم ووجدنا صحفهم في تلك الفترة تعيب «عبدالناصر» وتنتقده:

«صخّاب، كثير الكلام، متسرّع أكثر مما ينبغي، متهوّر، طائش في اتخاذ القرارات... ما زال في مرحلة البدء بعد عشر سنوات من الحكم...» إلخ...

سمّى السودانيون الانقلابيون نظام حكمهم في الدستور المؤقت بالجمهورية الديمقراطية. وعَدّوا انقلابهم ثورة، وكان لهم مفهومهم الخاص فيها كما كان لهم أسلوبهم في تطبيق ديمقراطيتهم كما رأوها[٥١]. فأسسوا في الأول من تموز ١٩٦١ ما

---

(٥١) في صيف العام ١٩٦٠، جرت مقابلة صحفية للصحافي محمد حسنين هيكل مع اللواء طلعت فريد (عضو المجلس الأعلى ونائب رئيس الوزراء ووزير الأنباء) حول النظام العسكري في السودان (لم تنشر إلا بعد إزاحة نظام عبود في العام ١٩٦٤). نشرها في جريدة الأهرام ١ كانون الثاني ١٩٦٦. أنقلها ها هنا، مستبعداً الشك العظيم الذي يساورني في أمانة كل ما يكتبه هذا الصحافي، بسبب لهجة الصدق الظاهرة ولمحتواها الذي يتعذّر اختراعه مهما أوتي صاحبه من خيال. قال هيكل:

قلت له: علمت أن المعارضة تعدّ مذكرة، وأنها تتهيّأ لتقديمها إلى الحكومة مطالبة باستقالتها.

أجاب: ما قيمة المذكرة؟ أليست هي قطعة من الورق يمكن تمزيقها كأي ورقة عادية؟

قلت: لكنها ستقدم إليكم ومن ورائها مجموعة. ومن ورائهم الشعب.

قال: متسائلاً: أبلغك نبأ قدمي اليسرى؟ =

دعي بالمجالس البلدية ومنحوها سلطة إدارة تامة وتشريع. ولكنها كانت برئاسة ضباط أقدمين يمارسون صلاحياتهم بوصفهم ممثلين للسلطة المركزية (رقباء).

وفي ١٧ من تشرين الثاني ١٩٦٢، أصدر المجلس الأعلى ما دعي بقانون المجلس المركزي. وبموجبه تم تأليف مجلس اشتراعي من ٧٢ عضواً بينهم ٥٤ تنتخبهم المجالس البلدية، ويعين البقية رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وأنيط به خلاف ذلك صلاحية المصادقة على المعاهدات ومساءلة الوزارة، ورسم بأن يرأسه ضابط أقدم يعيّنه عبود.

قاطع معظم أطراف المعارضة (الأحزاب والنقابات) هذا المجلس. ورفضوا التسليم بشرعيته، لكن ما حصل هو أنه ضم عدداً كبيراً من الشخصيات الجريئة النظيفة

= (أسلمني سؤاله هذا إلى دهشة. والواقع هو أني لم أسمع شيئاً عن قدم اللواء طلعت فريد اليسرى، وبدا استفساره هذا ولأول وهلة لا رابطة له مع موضوع المقابلة، إلا أنه أضاف قائلاً: كنت فيما مضى لاعب كرة قدم طائر الشهرة في بريطانيا. والمتفرجون يعلمون ما أن تحتوي الكرة قدمي اليسرى، حتى تسجل هدفاً مؤكداً.

وشعرت بأن هذا النوع من النقاش لا فائدة فيه فتحولت إلى ما كان يشغل بالي وسألته:

– إسمح لي بهذا السؤال: لماذا تسمي ما حدث في السودان «ثورة»؟ ففي رأيي أن الثورة تعني تغييراً اجتماعياً شاملاً. وأنا لا أدري ذلك قد حصل في السودان. التغيير حصل في شكل الحكومة وقد حصل بانقلاب أكثر مما حصل بثورة، إلا أنك تصر على استخدام لفظة «ثورة» فلماذا؟

للمرة الثانية كنت أتوقع نوعاً من الجواب لكن ما ظفرت به من اللواء هو سؤال آخر. قال لي: ما اسمك الأول؟

وبتردد ومن دون أن أفهم القصد من السؤال، أجبت: «إسمي محمد إن لم تخنّي الذاكرة».

قال: ومن الذي اختار لك هذا الاسم؟

قلت: إن لم أكن مخطئاً فإن أبي هو الذي اختاره لي.

قال: حسنٌ. إن كان الأمر كذلك فنحن آباء هذا الحدث الذي وقع في ١٧ من تشرين الثاني، ونحن أحرار في إطلاق أية تسمية نشاؤها عليه وقد اخترنا له اسم «الثورة». قال هيكل: فلم أستمر في المقابلة. (من كتابنا: العراق في عهد قاسم، ج ٢ الص ٥٦١-٥٦٢). وما أظن «هيكل» أدرك بأن «اللواء فريد» كان يلعب به كما يلعب بكرة القدم. ولو كنت مكان هيكل لما نشرت هذا الحديث مطلقاً، ففيه برهن اللواء على أنه يفوق مخاطبه ذكاءً ولباقة وأنه إنما يعرّض في الحقيقة بثورة يوليو. [المذكرة التي دار البحث حولها هي تلك التي رفعت إلى عبود مطالبة بإنهاء الحكم العسكري وإعادة الحياة البرلمانية؛ قدّمت في ٢٥ من تشرين الثاني ١٩٦٠ موقّعة من زعماء الأحزاب المعطّلة ومنهم سيد صديق المهدي زعيم الأنصار وزعيم حزب الأمة والأزهري وعبدالله خليل].

الذين شرعوا ينتقدون سياسة الحكومة في جنوب البلاد. وهاجموا اللواء طلعت فريد لإجراءاته المتعسفة ضد حرية الصحافة. كما كشفوا عن بعض الفضائح والفساد في الإدارة العسكرية واتهموا بها ضباطاً معينين(٥٢)، وبإصرار منهم كشفت التحقيقات عن تصرفات لا قانونية. كمنح إجازات الاستيراد للمحاسيب والمقربين من السلطة. وضاق الأهلون ذرعاً بغطرسة الحكام العسكريين وهو أمر لم يتصوروه أيام الحكم البريطاني.

وانتهز الزعماء ورؤساء الأحزاب المنحلّة تململ الرأي العام فأقدموا على خطوة غير مسبوقة في تاريخ الدكتاتورية العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية كافة. فقدّمت المعارضة المذكرة الجريئة التي أتينا إلى التنويه بها مطالبة بإنهاء الحكم العسكري وعودة الجيش إلى ثكناته. ولم تحدث أثراً بل تم تمزيقها على حدّ تعبير اللواء طلعت فريد(٥٣).

وفي منتصف شهر حزيران ١٩٦١ واجهت الدكتاتورية العسكرية تحدياً جماهيرياً حقيقياً، بدأ بإعلان نقابة السكك الحديد إضراباً عاماً مطالبة برفع الأجور بنسبة كبيرة، فشلّت حركة النقل في البلاد تماماً. ورد العسكريون بإلقاء القبض على زعماء النقابة. ثم عمّ الإضراب مدن السودان عندما انتشر نبأ قيام سلطات الأمن بإلقاء القبض على شاب شيوعي يوزع مناشير ضد السلطة وتعذيبه جسدياً. فوجّه زعماء الأحزاب برقية قاسية التعابير إلى إبراهيم عبود أجاب عنها بإلقاء القبض على الإثني عشر الموقعين عليها وإبعادهم في ١١ من تموز ١٩٦١ إلى بلدة (جوبا) في الجنوب(٥٤).

وفي بيان له وصفهم:

بـ«مجموعة من أشخاص لا همّ لهم غير وضع مصالحهم فوق مصلحة بلادهم فسلكوا بطيش وتهور سبيل المعارضة ضد مصالح البلاد. وأقدموا على نشر الشائعات الباطلة لتضليل البسطاء. وتحريض الطلاب على أعمال الشغب»(٥٥).

* * *

في الثاني من تشرين الأول من السنة عينها توفي الإمام سيد صديق المهدي عن

---

(٥٢) أنظر هندرسن، المرجع السالف ص ١٤٤. وكذلك «پيتر كِلنر» في [الحكومة العسكرية في السودان: السنوات الحالية الثلاث Peter Kilner: Millitary Government in Sudan: The Present Three Years المرجع السالف، الص ٢٦١ و٢٦٦.

(٥٣) على أنها عاقبت من الموقعين الأزهري وخليل بحرمانهما من رواتبهما التقاعدية.

(٥٤) منهم الأزهري ومحمد أحمد محجوب وعبدالله خليل، واستثني سيد صديق المهدي.

(٥٥) نشر النص الكامل للتصريح في جريدة «النصر» الدمشقية بتاريخ ١٣ تموز ١٩٦١.

عمر يناهز الخمسين. كان واحداً من المؤمنين إيماناً عميقاً بالمبادئ الديمقراطية وبالدستورية، ومدافعاً لا تلين قناته عن الحريات العامة وحقوق المواطنين في التعبير وهو أمر غير مألوف من الزعماء الدينيين المسلمين بصورة عامة. كان مثلاً يدافع عن حق الجنوب في الحكم الذاتي، ويبدي اشمئزازه وقرفه من محاولة الحكام فرض مناهج تعليمية على الجنوب لا يفهمون منها حرفاً. وخلفه في الإمامية أخوه «السيد الهادي» في حين وقعت زعامته السياسية في رئاسة حزب الأمة لابنه «الصادق المهدي» الشاب خريج جامعة أكسفورد.

في كانون الثاني ١٩٢٦ أعيد الزعماء السياسيون من منفاهم. لكن الثورة كانت تعصف في نفوس طلاب الجامعة وأعضاء النقابات[٥٦]. وبان فشل الحكام العسكريين في حلّ مشكلة الجنوب الناقم على فرض التوحيد بالشمال بالتعريب اللغوي والإسلام، وقاوموا بشدة الإجراءات الرامية إلى توحيد النظام التعليمي الذي ينحو منحى عربياً إسلامياً، كما تحدّوا قرار الحكومة باعتبار نهار الجمعة عطلة رسمية بدلاً من نهار الأحد. ولم يعبأوا بالضغوط التي يمارسها الحكام لإحباط حركة تنصير القبائل الزنجية الوثنية التي تباشرها البعثات الدينية التبشيرية، إلى جانب نشاطها في نشر التعليم. فانفجرت براكين الغضب والنفرة فجأة في العام ١٩٦٠ على شكل مظاهرات وتجمعات بعضها مسلح. وبدأ عدد كبير من زعماء الجنوب السياسيين والأساتذة والطلاب بهجرة عن البلاد شبيهة بالهجرة القبطية في مصر، والهجرة المسيحية في كل من سورية والعراق. وأولدت حركة الاعتصاب المدني تنظيماً سياسياً عرف بالاتحاد الوطني الأفريقي للسودان، في المنفى. دعا إلى اتحاد فدرالي بين الشمال والجنوب إلا أن الدعوة قوبلت بمزيد من التشديد والمضي قدماً في سياسة التعريب ونشر المفاهيم الإسلامية. وكان العالم كله يتوقع أن ينقلب الاعتصاب المدني إلى ثورة مسلحة - باستثناء حكام السودان على ما يظهر[٥٧].

في أوائل العام ١٩٦٣ بدأت الثورة المسلحة في الجنوب.

---

(٥٦) كلنر (المرجع السالف ص ٢٦٥). كذلك روبرت و. تگنرتولينس: مصر والسودان Robert O. Tigner Tollins: Egypt and Sudan ط. انكلوود گلينز ١٩٦٧ الص ١٥٤-١٦٠.

(٥٧) في شهر آذار من العام ١٩٦٤، أصدر المجلس الأعلى قراراً بطرد البعثات التبشيرية والإنسانية في الجنوب. باعتبارها تدعو إلى الانفصال وزرع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد.

ولم تكن في مبدئها منظمة تخضع لقيادة مركزية. بل بدأت بغارات وأعمال إرهاب ضد المنشآت الحكومية، وقفت الحكومة المركزية أمامها عاجزة. وأرغم (عبود) في أيلول ١٩٦٤ على الإعلان عن تأليف لجنة خاصة للتحقيق في أوضاع الجنوب ودعي السودانيون لإبداء رأيهم.

وفي جامعة الخرطوم، عقدت مناقشة عامة. وفي أول اجتماع لها انتقلت مسألة الجنوب إلى موضوع الحكم ودعا المجتمعون إلى وجوب استقالة الحكومة العسكرية قبل البحث في مسألة الجنوب. فبادرت السلطة إلى فض الاجتماع بالقوة وقفل باب المناقشة حول حلول للمسألة.

ولم تمرّ أسابيع حتى أطاحت الثورة الشعبية بالحكم الدكتاتوري.

هذا الكتاب

فكرة القومية العربية، ومراحل تطوّرها إلى مذاهب ومناهج وفلسفة، وحكاية ما أنجزته وحققته للأمم والشعوب الناطقة بالعربية من نجاح أو ما لقيته من فشل في ميادين التطبيق والحياة، ومقدار تأثيرها على تقدّم الحضارة أو عرقلته لها، ما أغنت به القيم الروحية والمادية وما ألحقته من ضرر أو أصابها من خسار لنفسها أو لغيرها من الشعوب المجاورة، أو ما ظفرت به من كسب بمبادرات مفكريها وقادتها وزعمائها، هي بالأصل التاريخ العام الحقيقي الذي يزوّد التاريخين السياسي والاجتماعي بمادّتيهما.

إنّ ما يسجّله التاريخ لإرهاصات الحياة أفراداً وأقواماً سيبقى أبداً خالداً بمحاسنه وقبائحه. إنه لمن الخطورة الكبرى محاولة إلباس القبيح رداء الجمال وتحرّي الأعذار لمن لا يستقيم له عذر.

